

✓ 92203
26-7-93.

RESEARCH LIBRARY
INSTITUTE OF SINHOLOGY
UNI: OF SINDH, JAMSHORO.

C E R T I F I C A T E

Certified that *Mr. Yasin Ghadban S/O Mohammed Najeeb* has carried out research on the topic الفكر السياسي عند الانصار under my supervision and that his work is original and distinct and his dissertation is worthy of presentation to the University of Sindh for award of the degree of Ph.D. in Islamic Culture.

A. T. M. - / M. M.

Dr. Abu Al Fateh Muhammad Saghiruddin
Supervisor and Retired Professor
Department of Comparative Religion and
Islamic Culture,
University of Sindh, Jamshoro.



الاصحاح

الى روع والذبي الطاهرين

ربهم ما كنتاني صفيراً

سورة الاسراء آية ٢٤

كلمة شكر وتقدير

لا يسع المرء في هذه المناسبة إلا أن يُقرَّ بالشكر والتقدير والعرفان إلى اللذين ساهموا من قريب أو بعيد في إنجاز هذا البحث ولظهاره بشكله الذي هو فيه . الفصل الأول والأخير يعود إلى فضيلة شيخنا الجليل الدكتور "أبو الفتح محمد صغير الدين" أستاذ التاريخ الإسلامي في جامعة السند ، الذي قبل منكرنا الإشراف على الرسالة ، وتجنَّه الكثير من الجهد بالإرشاد والمراجعة والتوجيه ، حتى أمكن أن نقول بأن هذا الموضوع قد استحق أن يقدم لنيل درجة الدكتوراه في الفلسفة فيه . فالشكر الجزيل له ولما يقدم من نصائح وإرشادات أضفت إلى الموضوع الكثير من الروق والجديه . وأحب أن أسجل في هذا المقام الشكر لكل الذين أبدوا رأياً ، ما قدموا مشورة ، أو ساعدوا في الحصول على مرجع ، أو سهلوا صعباً ، أو دللوا عبثاً ، وإلى اللذين قاموا بطبع هذا البحث وإعداد وتصليده وتصويره . ومن المناسب أن أقول لأولادى بأن هذا العمل في هذا العمر اجترأ وقت أحسن به هي وأسرتها ، لكنها كانت تدفعني للبحث وتسدُّ رائي كل فجوة ، وتسامحني عن كل تقصير ، وتري في جدِّي واجتهادي وحنفي مثلاً طيباً لأولادى اللذين يتكاثرون على مقاعد الدرس من الدكتوراه حتى المرحلة الابتدائية .

وإلى كل أولادى اللذين قاموا بجهود مشكورة في المراجعة ، وعمل الفهارس ، وتشكيل الآيات وتحقيقها ، والأحاديث والآقوال . فكان عملهم تخفيفاً عني ، ودفعاً لي ، وجذباً لهم ليقرؤوا هذا البحث ويزدادوا اطلاعاً لحوادثه . وأخيراً إلى اللذين يرون عملي هدا في مثل سنِّي تحقيقاً لقول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد " . فكانوا العون لسي والمشجعين لعملي . أشكر لكل هؤلاء ما قدموه وأرجو لله أن يجزيهم عن خير الجزاء .
والحمد لله رب العالمين .

مدخل

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله .

هذه الدراسة ليست جديدة في تفكيري ، ولم تكتمل حدودها وأبعادها الآن ، بل إنها تراود ذهني منذ أيام الدراسة الجامعية في أواخر الخمسينات وأوائل الستينات عندما كتبت مخطوطاً عن حياة الصحابي الأنصاري سعد بن معاذ ثم سعد بن عباد ، ثم أسيد بن حضير وطويت هذا المخطوط منذ أعوام طويلة ولم أعد له اطلاقاً . وعندما كنت اتابع دراستي العليا في مصر أول ماتبادر إلى ذهني أن أكتب عن الأنصار ، فعلاً فقد وضعت مخطوطاً لبحث الماجستير عام ١٩٧١ عن هذا الموضوع لكنه لم يجد قبولا من الأستاذ المشرف ، وتوقفت عن الدراسة وقتها لأسباب كثيرة أهمها قضايا اجتماعية ومادية - وغير ذلك - وطويت الموضوع ثانية. عندما نلت شهادة الماجستير في الدراسات الإسلامية من جامعة البنجاب عاودتني الحنين ثانية إلى الأنصار لأن يكون موضوعاً لنيل شهادة الدكتوراة . عرضت الموضوع على بعض الأخصائيين فنال رضاهم ولكن ظروفاً دعوتني إلى الانتقال إلى جامعة السند ، وكان لقاءً مباركاً مع استاذي الفاضل ابو الفتح محمد صغير الدين الذي إكرمني بأن أكون تلميذاً بين يديه ووافق حفظه الله على الموضوع وأصبح المقرر لرسالة الدكتوراة ، وعادت المياه إلى مجاريها تصب في بحر الأنصار .

الجديد في الموضوع هو تحول الدراسة من تاريخ الأنصار الذي وجدت فيه أثناء البحث أنني إن دخلت فيه فقد لا أخرج لتشعب الموضوع واتساعه ، وكثرة مراجعه والتأليف فيه على الرغم من أن الدافع الأساسي الذي دفعني للكتابة في هذا الموضوع بالذات هو عدم الترابط في الحديث عن الأنصار وفي معظم كتب التراث ، وحتى لأتية أو أمل من كثرة البحث والتقصي من جهة وتكرار الحديث في أكثر المراجع فقد تحولت قليلاً جداً الآن للحديث عن

ملامح الفكر السياسي عند الأنصار

هذا الموضوع يدخل في مجال دراستي من ناحيتين
الاولى : إجمال الدراسات الإسلامية في موضوع دراستي
والثانية : اتجاهي لدراسة التاريخ الإسلامي والفكر السياسي الإسلامي حولني إلى اختيار هذا النوع من الدراسة .

والفكر السياسي عند الانصار بحث طويل تنتابه التحولات وتتيه به الحدود إلى أن استقر أخيراً في الإسلام وأصبح فكراً إسلامياً خالصاً لا عوج فيه ، حيث لم يثبت أو يظهر أن أنصارياً قد تردد في قبول حكم الله ورسوله وأيده تضحياتهم اللامتناهية من أجل الإسلام ورسول الإسلام إلا أن الشيء لا يعرف إلا بضده، فإن قسماً كبيراً من سكان المدينة (الأوس والخزرج وحلفائهم) كما كان بعض قريش - قد وجدوا في الإسلام سلباً لمكاسبهم. ففتج عن ذلك النفاق الذي استشرى في المدينة . فكان الانصار والمنافقون من منبت واحد كما كان المهاجرون والكفار من منبت واحد - كما أن اليهود كان لهم كبير الأثر في نماء هذه الظاهرة واستمرارها . الفكر السياسي عند الانصار - الموضوع الذي نحن بصدده - كان بارزاً في شعرهم في الجاهلية واطحاً في شعرهم في الإسلام ، فقد انبرى (الإعلاميون) حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك وغيرهم ليكونوا لسان الدعوة الإسلامية والمدافعين عنها ضد الحاقديين والمنافقين والكافرين . وتوضح الفكر السياسي عندهم في حروبهم وفي اتحادهم وفي إسلامهم وفي بيعتهم لأبي بكر . وفي مشاركتهم بكل ما أوتوا من قوة في سبيل تحقيق سيادة الإسلام ووجوده - لا يمنع الحديث في هذا التوجه الوقوف على الأفكار السياسية التي سبقت الإسلام سواء منها الديني أو السياسي وخاصة الممالك والقبائل والامبراطوريات التي أحاطت الجزيرة العربية والتي كان لها تأثيرٌ قريبٌ على فكر الأوس والخزرج وتوجهاتهم قبل الإسلام ، ومن ثم تحولهم إلى فكر الإسلام ودولته التي كانت نموذجاً فريداً في تاريخ البشرية قاطبة .

- كما أن الحديث لا يقف إزاء التوجهات السياسية فقط فهذه حالة من حياة الشعب وليست كل حالاته ، فإذا طغت السياسة على تفكير شعب وصل هذا الشعب إلى مرحلة الجدل التي تقود عادة إلى الدمار . ولا يكثر الجدل في هذا الباب إلا عند فقدان الثقة بين الحاكم والمحكوم حيث يتوجه الحاكم لغرض آراء معينة ، أو الأخذ بأسباب القوة التي تقود إلى حب السيطرة والظلم وهذا أمر موشوق معروف في تاريخ الدول والممالك . ولذلك نرى أن الشقة بين الحاكم والمحكوم كلما صغرت كلما توجه الناس إلى أفكار أخرى تختص بالمدينة والحضارة والنفع العام .

- من هذا المنطلق نجد أن الثقة المطلقة التي أولاها المسلمون قاداتهم وخاصة محبتهم اللامحدودة للرسول صلى الله عليه وسلم - كما سنقف في بحثنا على بعض الشواهد - دليل على أن هذه الثقة المطلقة هي التي أدت إلى تلك الفتوحات ، وتلك الانتصارات . ثم إن الإيمان المطلق الذي دخل قلوب المسلمين أوسهم وخزرجهم وقرشيينهم قد حولهم من ممل مشاع إلى قادة للعالم . علماء وساداتها وساستها والقائمون على أمر العباد فيها في فترة لا تعتبر شيئاً إذا قيست بعمر الأمم والشعوب - وهذا هو النصر الذي وعد الله به عباده المتقين - وهذا هو الاستخلاف الذي أراد الله لعباده المؤمنين في الأرض ، وهذا هو الميراث الذي قدره الله تعالى لعباده الأوفياء في أن تكون الأرض بعض ميراثهم .

- يطول الحديث ويتشعب عن فكر الإسلام في الحكم ونظريته التي لم يكن لها سابقة في تاريخ البشرية ، وتلك القواعد والأسس التي نظمت العلاقة بين الحاكم والمحكوم . ومهما قلنا فإن السياسة في الإسلام قد حوت من الفكر والتوجهات والحدود ما لا يقدر على حملها إلا الأوفياء من الناس وهذا هو جيل المسلمين شق الأول المهاجرون وسائر الانصار والذين تجلت لديهم معاني التضحية في مواقف رائعة كما سيرد الحديث عنها بعون الله .

ليس فقط التوجه السياسي ونظام الحكم هو المقصود بداته في هذه الدراسة وإنما هي الحدود التي أقرها الإسلام والتي ماعرفها نظام قبله ، ولاعرفته أفكار الشعوب ، وعند التطبيق الأمثل أعطى نتائج مذهلة مازالت في نظر الباحثين والمؤرخين معجزة قائمة وكلما عاود المسلمون تطبيقها بعودتهم إليها ، وعادوا للعمل الجاد بها بنفوس المؤمنين الأتقياء فان وعد الله يتكرر ونصره المؤزر يظهر والعاقبة للمتقين .

الغاية من البحث

إن الغاية من بحث ملامح الفكر السياسي عند الانصار يمكن ايجازها بالنقاط التالية
راجيا من الله تعالى العون والقوة والرضوان والقبول ..

١ - تأريخ حياة الانصار بكتاب جامع بعد أن توزعت أخبارهم في بطون الكتب
ويكون مرجعا لحياتهم عامة بما يمكن من الدقة والأمانة

٢ - تسليط الضوء على جانب هام من جوانب حياة سكان يثرب (الأنصار) وهو الجانب
السياسي باعتبار أنه اختلط على كثير من المؤرخين في تفسير بعض الأحداث التي
جرت في التاريخ الاسلامي مثل (حديث الإفك) (مسجد ضرار) توزيع غناتم حنين
(خلافة ابي بكر) (ترك سعد بن عبادة المدينة في خلافة عمر وغير ذلك من الأحداث الجسام
في تاريخ الدعوة الاسلامية .

٣ - ربط تفسير أحداث هامة في التاريخ الإسلامي بمسبباتها الأصلية مثل (النفاق) (مسجد
ضرار) معاملة الرسول للمنافقين وذلك بأطماعهم السياسية واستئثار السياسة
على فكرهم الروحي والحياتي .

٤ - تفسير العلاقة التي ظهرت بين المنافقين واليهود ، وكيف تمكن اليهود أن يدخلوا
من هذا الباب إلى بث الفرقة والتناحر بين المسلمين ومحاولة الإيقاع بينهم بإثارة
العصبية القبلية والتذكير بالأيام الخوالي .

٥ - تفسير العلاقة التي بدأت تتزايد بين الغساسنة (علاء الروم في الشمال) وبين
المنافقين ، وكيف أنهم حاولوا الاتصال بالذهن تخلفوا عن غزوة تبوك ليقضوا على
المسلمين ويخرجوهم من المدينة .

٦ - تفسير العلاقة بين رأس النفاق (ملك يثرب غير المتزوج) عبد الله بن أبي بن
سلول وبين ابنه ولي عهده المرتقب، عندما هدد بمنع الرسول صلى الله عليه
وسلم من دخول المدينة بعد غزوة بني المصطلق .

٧ - إلقاء الضوء على قوة الإيمان والإسلام في نفوس الأنصار الذين لم يكن لكل الأحداث الجسام التي مرت عليهم أن تثنيهم عن غايتهم في نصرة الرسول والمسلمين ووضع طاقاتهم كلها في سبيل الله تعالى .

٨ - توضيح دور المنافقين في غزوة بني المصطلق ونتائج أعمالهم خاصة حديث الإفك والآثار السياسية التي نتجت عن هذه الغزوة وما هي الأسباب الحقيقية لمثل هذا الحادث في التاريخ الإسلامي .

٩ - شرح الأفكار السياسية التي سادت الجزيرة العربية في مطلع الدعوة الإسلامية وتمصي الدعوة الإسلامية لها وإبطال مراميها وإظهار زيغها . وكذلك شرح المفاهيم السياسية عامة من الأنظمة المعروفة آنذاك ومحاولة العرب تطبيقها من ملكية وقبلية وغير ذلك .

١٠ - لقد أورد المستشرقون غريبة تقول بأن الكثير من أحكام القرآن الكريم والسنة النبوية متأثرة بأفكار اليهود الذين كان لهم تأثير واضح على أهل يثرب ، ويدرو هذه الغريبة ، ويظهر استقلالية فكر أهل يثرب السياسي ، اتباعهم الرسول صلى الله عليه وسلم وترك مليكهم الذي كان سيتوج عليهم .

١١ - لقد كان للأنصار الفضيل بنصرة الرسول صلى الله عليه وسلم ولقد أخلصوا بنصرهم حتى لقبوا به وفي هذا البحث محاولة أيضا لإظهار صدق المسلمين من الأنصار حتى بعد أن ذهب الخلافة منهم وموقف بشير بن سعد في سقيفة بني ساعدة وغيره من الأنصار الذين أبدوا خلافة قريش ونصروها .

١٢ - إن الغاية من هذا البحث إبراز دور الأنصار رضوان الله عليهم في المواقف الخالدة من الأحداث الجسام التي واجهت الدعوة الإسلامية بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم خاصة حروب الردة التي كان الأنصار جنودها الأوفياء .

١٣ - من الأهداف التي توخيتها في هذا البحث التصدي للافتراءات التي ردها المنافقون والمرجفون في المدينة، ورد القرآن الكريم عليهم، ومعاملة الرسول صلى الله عليه وسلم لهم كأحسن ما يمكن من رسول قائد أمين .

١٤ - الهدف الاخير الذي سعيت إليه هو الوصول إلى تصوير فكرة واضحة عن فكر الأنصار السياسي الذي تقلب من القبلية إلى الملكية إلى الانخراط في الدعوة الإسلامية وتبني فكر الإسلام ومنهجه في السياسة والحكم وإيراد أفكارهم والحديث عن المواقف السامية لهم والحديث عن بعض المواقف الخالدة لهم في هذا المضمار للوصول إلى صياغة الفكر السياسي عند الأنصار الذي تميز بشكل واضح في نصرته الإسلام والرسول والمسلمين عامة ، ووضع الخطوط العريضة له .

١٥ - وأخيراً أرجو من الله العليّ القدير أن يأخذ بيدي إلى تحقيق هذه الأهداف بعون الله وقوته والتوجيه السامي من الاستاذ الدكتور المشرف وآرائه الطيبة في هذا المضمار .

والله من وراء القصد

ملخص عن البحث

لقد تم تقسيم البحث الى ستة فصول ٠٠ يتحدث الفصل الاول عن مدينة يثرب قبل الاسلام وذلك بسررد تاريخي عن سكانها من العرب واليهود وسواهم في القسم الأول من البحث .

ويتحدث هذا الفصل عن الأوس والخزرج وعن الحياة الاقتصادية في مدينة يثرب عشية ظهور الإسلام مع الاستفادة عن موارد العيش لليثريين وفي هذا الفصل أيضاً يشمل البحث عن الحياة الفكرية عند سكان يثرب (العرب منهم خاصة) وارتباط ذلك بتحولهم إلى الملكية قبل ان يصل الإسلام إليهم . على أن يشمل هذا الفصل كل ماله علاقة بالحياة في يثرب من فكر وشعر وحياة اجتماعية وقبلية كاملة .

أما الفصل الثاني فيخص الحديث به عن ملامح الفكر السياسي عند عرب يثرب قبل ظهور الإسلام ففي القسم الأول يتحدث عن المواقع السياسية والاتجاهات السياسية المحيطة بمدينة يثرب وأثر هذه الأفكار والممارسات في آراء الليثريين السياسية وذلك بعد تحولهم من القبلية إلى الملكية التي نادوا بها . أما القسم الثاني فيدخل في صلب فكر أهل يثرب وحروبهم وتجمعاتهم السياسية والقبلية وتحالفاتهم في الداخل والخارج مع اليهود وقريش والغساسنة وغطفان والقبائل الأخرى ثم الحديث تفصيلاً عن يوم بعثات الذي كان آخر أيامهم ونتائج السياسة والفكرية ، وفي القسم الثالث من هذا الفصل يجرى الحديث عن التحول الهام في حياة الليثريين العرب من الحياة القبلية إلى الحياة الملكية واختيار عبد الله بن أبي بن سلول من الخزرج ليكون ملكاً على يثرب .

في الفصل الثالث يجرى الحديث عن مدينة يثرب بعد الإسلام وذلك بالحديث عن ظهور الإسلام في مكة في القسم الاول ووصول الدعوة إلى أول وفد من يثرب جاء إلى مكة طلباً للحلف قبل يوم بعثات ودخول اياس بن معاذ في الإسلام ومقتله يوم بعثات ومن ثم بدء دخول الليثريين في الإسلام بأعداد قليلة . وينتقل القسم الثاني للحديث عن انتشار الإسلام في يثرب وبيعة العقبة الأولى ومن ثم قبول الدعوة من القرشيين للعمل في يثرب ودخول بعض قادة الأوس والخزرج بالإسلام .

أما القسم الثالث فيتحدث عن بيعة العقبة الثانية والهجرة إلى المدينة وهجرة الرسول صلى الله عليه وسلم وتأسيس الدولة الإسلامية والتحول الهائل في فكر أهل يثرب من الطاعة للملكية وهم يعتقدون الخرز لتتويج ملكهم إلى طاعة الرسول والتمسك بالإسلام حتى من أقرب المقربين إلى الملك وولي عهده (لوحصل واصبح ملكاً) .

في الفصل الرابع والخامس، يشمل الحديث موقف أهل يثرب من الدعوة الإسلامية، ففي الرابع يجرى الحديث عن الأنصار وأفكارهم وأعمالهم وقناعاتهم ومبادئهم، وآراءهم في الدعوة الإسلامية وصاحبها عليه السلام. والفصل الخامس يتحدث عن المنافقين واليهود الذين لم يقبلوا التحول عن أفكارهم السياسية والنصرة للملكية ومحاولة استرداد ملكيتهم بأية وسيلة فقد بدأوا حرباً مقنعة على المسلمين وارتباطهم باليهود والاستئناس لهم وتقوية علاقتهم بأعداء الإسلام من القوى الخارجية التي تتربص الدوائر بالمسلمين وبالدعوة الإسلامية.

والقسم الثاني يحلل فكرهم السياسي (المنافقون) وكيف أنهم أرادوا أن يغطوا دعوتهم بغطاء ديني فقد شاركوا بالغزوات ولكنهم خدلو المسلمين في أحد والخندق وغيرها وكيف أنهم وقفوا مؤيدين لليهود عندما بدأ الصراع معهم وقرار الرسول صلى الله عليه وسلم بإخراجهم من المدينة خاصة بني قينقاع وبني النضير ومقارنة واضحة ومهمة بين رأي عبد الله بن أبي وبين الموقف الخالد للصحابي سعد بن معاذ من بني قريظة.

ويتحدث القسم الثالث من الفصل الخامس عن موقف الإسلام من المنافقين الذين اظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر محللاً آيات النفاق التي وردت في القرآن الكريم وكذلك مواقف الرسول صلى الله عليه وسلم منهم ومواقف الصحابة رضوان الله عليهم ثم انحسار الفكر السياسي عند المنافقين أن لم يكن تقلص فكرهم نهائياً وانتهائهم من جسم الدولة الإسلامية بعد وفاة زعيمهم عبد الله بن أبي أو موت آخر مظاهر الفكر الملكي عند المنافقين. وبعد أن وجدوا أن طريق النفاق قصير وعقاب المنافقين كبير في الدنيا والآخرة.

في الفصل السادس من البحث يأتي الحديث عن الآثار المترتبة على وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ففي القسم الأول يجرى الحديث عن أهم الأحداث التي برزت بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم من الردة وظهور المتنبئين ومصير جيش أسامة بن زيد والوفاء نفسها وأثرها على نفوس المسلمين في المدينة وخارجها.

وفي القسم الثاني يجرى الحديث عن الموقف السياسي الذي اتخذته الأنصار عشية وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم والأسباب التي دعت الأنصار إلى عقد اجتماعهم في سقيفة بني ساعدة حيث أن القسم الثالث يفصل الحديث في ذلك ويفصل في كل ما جرى في هذه السقيفة من مناقشات وبروز أفكار ثم انقسام الأنصار عن قضية خلافتهم أو خلافة المهاجرين من قريش. وفي القسم الثالث من البحث يوضح الحديث رأي كبار الصحابة في سياسة الدولة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ومواقفهم من هذا وإنهاء الحديث بخلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

وفي الفقرة الخامسة يتم التفصيل عن رأي الأنصار بخلافة أبي بكر والحديث المستفيض بعد ذلك عن ظاهرة اختفاء النفاق ومن ثم الرأي الشرعي بالخلافة والوزارة .
أما القسم الثاني فيشير الحديث إلى موقف الأنصار من السياسة الخارجية للدولة والتي تتلخص بحروب الردة والفتح والاستيطان في المدينة وخارجها وبالعلاقات الدولية عامة .
أما القسم الثالث ففيه إشارة وتفصيل في مواقف الأنصار من سياسة الإصلاح في الدولة الإسلامية والتي غيرت كثيرا من مجريات الأحداث في تلك الفترة .
وفي القسم الرابع نحاول صياغة النظرية السياسية للأنصار في ضوء هذه المواقف بالحديث عن الأنصار جند الدعوة (مواقف واحداث) وعن آراء المفكرين الأنصار (مواقف وأحداث) ورأي الأنصار بالأفكار التي رافقت حياتهم (الفكر اليهودي ، والفكر الملكي . . الخ) ومن ثم رأي الأنصار رضوان الله عليهم بالخلافة الراشدة والخلفاء الراشدين في محاولة لإبراز دورهم الفاعل المؤثر في حركة الدولة والأمة والإسلام عامة .

وفي الختام يكون الحديث عادة عن توضيح بعض ماغض من أحداث وتثبيت ماشرذ من أفكار وإعطاء الضوء الأخير على البحث ومستجداته أثناء الكتابة والله نرجو ان يوفقنا إلى ما فيه الخير والفلاح والسلام .

الفصل الأول

مدينة يثرب قبل الإسلام موطن الأنصار

القسم الأول : مدينة يثرب

- ١ - الموقع الجغرافي والحرث ، الينابيع والآبار والمناخ
- ٢ - أقسام المدينة - تاريخها ومناقبها
- ٣ - سرد تاريخي للحياة في يثرب - السكان القدماء
- ٤ - اليهود قديمهم إلى يثرب مواطنهم وصلتهم بالعرب
- ٥ - أحوال اليهود الاجتماعية والأدبية
- ٦ - قبائل اليهود
- ٧ - مواقع اليهود في الحجاز عدا يثرب
- ٨ - الحياة السياسية والدينية والفكرية عند اليهود

القسم الثاني : العرب

- ١ - تعريف ٠٠ ومصادر التاريخ العربي
- ٢ - العرب على مدار التاريخ وأقسام التاريخ العربي
- ٣ - القبائل العربية البدوية
- ٤ - الأوس والخزرج - أصلهم ونسبهم وأهم أجدادهم
- ٥ - تعريف الأوس والخزرج
- ٦ - علاقة الأوس بالخزرج وأيامهم

القسم الثالث : علاقة الأوس والخزرج بالمحيط الخارجي

- ١ - العلاقة مع العرب
- ٢ - العلاقة مع اليهود
- ٣ - العلاقة بالقوى الخارجية
- أ - الغساسنة والمناذرة
- ب - الروم
- ج - الفرس
- ٤ - الحياة الاقتصادية في يثرب وارتباطها بالتنظيم السياسي
- ١ - الزراعة ومصادر المياه والغللات
- ٢ - الصناعة والتجارة والموقع التجاري وأهميته

القسم الرابع : الحياة الفكرية والدينية

- ١ - القراءة والكتابة واللغة والشعر
- ٢ - المعتقدات الدينية
- ٣ - العلوم عند أهل يثرب
- ٤ - وسائل نشر المعرفة

الفصل الثاني

ملامح الفكر السياسي عند عرب يثرب

القسم الاول : الاتجاهات السياسية المؤثرة في فكر أهل يثرب

أ - الحياة القبلية

ب - تنظيمات مكة

ج - الملكية عند العرب

١ - مدخل وتعريف

٢ - الغسانة

٣ - المناذرة (اللخميون)

٤ - كنده

د - الإمبراطوريات الكبيرة

١ - مدخل

٢ - الروم (البيزنطيون)

٣ - الفرس

هـ - الفكر السياسي عند اليهود

القسم الثاني : الفكر السياسي عند عرب يثرب

أ - الحروب - أيام الأوس والخزرج

ب - المعاهدات السياسية مع القوى المحيطة

١ - مكة

٢ - الغسانة

٣ - اليهود

ج - يوم بعاث وآثاره الفكرية والسياسية

القسم الثالث : توجه عرب يثرب نحو الملكية

أ - نتائج يوم بعاث

ب - المصالحة بين الأوس والخزرج

ج - اختيار النظام الملكي

د - تسمية الملك والاتفاق عليه

هـ - المراحل التي وصلت إليها الملكية في يثرب

الفصل الثالث

يُثْرِبُ بَعْدَ الْإِسْلَامِ

تحول الفكر السياسي عند عرب يثرب

مقدمة الفصل

القسم الاول : ظهور الدعوة الإسلامية في مكة

١ - مدخل

٢ - انتشار الدعوة خارج مكة

أ - الهجرة إلى الحبشة

ب - نصارى نجران

ج - قصة الطفيل بن عمرو

د - سعي الرسول إلى الطائف

هـ - عرض الرسول نفسه على القبائل

٣ - وفود يثرب إلى مكة طلباً للحلف

٤ - المسلمون الأوائل من يثرب

٥ - لقاء الرسول مع أهل يثرب

القسم الثاني : دخول الإسلام إلى يثرب

١ - مدخل

٢ - قبول أهل يثرب للإسلام

٣ - بيعة العقبة الأولى

٤ - الدعوة الإسلامية في يثرب

٥ - بيعة العقبة الثانية وآثارها السياسية

٦ - هجرة أهل مكة من المسلمين إلى يثرب

القسم الثالث : هجرة الرسول إلى يثرب

١ - تمهيد

٢ - مراحل الهجرة

٣ - دخول الرسول إلى المدينة

٤ - بناء مسجد فباء والمسجد النبوي وأثرهما في بناء الدولة

٥ - تأسيس الدولة الإسلامية

- الفصل الرابع -

الأنصار

- القسم الأول :
- موقف أهل يثرب من الدعوة الإسلامية
تمهيد
- أ - الأنصار : تعريف
- ب - الأنصار والمهاجرون - المؤاخاة
- ج - الصحيفة وظهور دستور الدولة الإسلامية
- د - الأنصار في ظل قيادة الرسول صلى الله عليه وسلم

- القسم الثاني :
- الأنصار جند الدعوة الإسلامية
تمهيد
- أ - سرايا الرسول صلى الله عليه وسلم قبل غزوة بدر
- ب - من بدر للخندق
- ج - ١ - غزوة بدر
٢ - غزوة أحد
- ٣ - غزوة الخندق (الأحزاب)
- د - من الخندق حتى وفاة الرسول
- ١ - غزوة مؤتة
- ٢ - غزوة الفتح
- ٣ - غزوة حنين
- ٤ - غنائم حنين
- ٥ - غزوة تبوك

- القسم الثالث :
- مواقف الأنصار من الدولة الإسلامية
- أ - بعض الشخصيات التي قادها الأنصار
- ب - آراء الأنصار في سياسة الدولة الإسلامية
- ج - قالوا في الأنصار

- الفصل الخامس -

موقف المنافقين واليهود من الدولة الاسلامية

- القسم الاول : المنافقون
- أ - تمهيد وتعريف
 - ب - الانتصار للملكية في يثرب (عبد الله بن أبي)
 - ج - علاقة المنافقين بالمسلمين
 - د - تحالفات المنافقين داخل المدينة وخارجها
- القسم الثاني : اتخاذ الخط الديني
- أ - المشاركة في الغزوات
 - ب - ١ - احد ، ٢ - الخندق ، ٣ - بني المصطلق ، ٤ - تبوك
 - ج - بناء مسجد الضرار وآثاره السياسية والدينية (أبو عامر الفاسق)
 - د - أعمال المنافقين ضد الدولة الاسلامية
- القسم الثالث : موقف الإسلام من المنافقين
- أ - القرآن الكريم - آيات النفاق
 - ب - موقف الرسول صلى الله عليه وسلم
 - ج - موقف الأنصار وبقية الصحابة
 - د - انتهاء ظاهرة النفاق
- القسم الرابع : اليهود
- أ - مواقف اليهود من الدولة الاسلامية
 - ب - المؤامرات والتحالفات ضد الدولة الاسلامية
 - ج - نقض العهود والمواثيق
 - د - الحروب مع اليهود
- ١ - غزوة بني قينقاع ٢ - غزوة بني النضير ، ٣ - غزوة بني قريظة
 - ٤ - غزوة خيبر ٥ - سرية عبد الله بن رواحة إلى فدك وخبير
- القسم الخامس : موقف الإسلام من اليهود
- أ - القرآن الكريم
 - ب - الرسول صلى الله عليه وسلم
 - ج - الأنصار والصحابة
 - د - نهاية اليهود في الجزيرة العربية

- الفصل السادس -

وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم
وموقف الأنصار من الخلافة الراشدة

القسم الاول

- وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم :
- أ - الآثار السياسية الناتجة عن وفاة الرسول
 - ١ - في الداخل
 - ٢ - في الخارج
 - ب - الموقف السياسي للأنصار بعد وفاة الرسول
 - ج - سقيفة بني ساعدة
 - د - موقف الأنصار من خلافة أبي بكر

القسم الثاني

- مواقف الأنصار السياسية من الخلفاء الراشدين :
- أ - موقف الأنصار من السياسة الداخلية
 - ب - موقف الأنصار من السياسة الخارجية
 - ج - موقف الأنصار من سياسة الفتوح
 - د - موقف الأنصار من سياسة الإصلاح في الدولة الإسلامية

القسم الثالث

- صياغة النظرية السياسية عند الأنصار :
- أ - جند الدعوة الإسلامية - القيادات العسكرية
 - ب - آراء المفكرين الأنصار السياسية
 - ج - آراء الأنصار واجتهاداتهم الدينية
 - د - رأي الأنصار بسياسة الفتوح والشعوب المحاربة
 - هـ - رأي الأنصار بالخلافة الراشدة

خاتمة

.....

فهرس الموضوعات

٥٤	الحياة الإقتصادية عند اليهود	ب	الإهداء
٥٥	الحياة الدينية والفكرية عند اليهود	ج	كلمة شكر وتقدير
٥٦	ملاحظات أخيرة حول يهود يثرب	د	مدخل
٥٨	القسم الثاني - العرب -	ز	الغاية من البحث
٥٩	مصادر تاريخ العرب	ح	ملخص عن البحث
٦٠	مصادر أخبار العرب		
٦١	تاريخ العرب	م	خطة البحث - بالعربية -
٦١	القبائل العربية البدوية - مراتب القبائل -	ق	فهرس الموضوعات
	الحياة السياسية للقبائل العربية	١٠	الفصل الأول
	الأوس والخزرج	٢	القسم الأول/مدينة يثرب قبل
٦٤	أصل الأوس والخزرج		الإسلام - مدخل -
٦٥	نسب الأوس والخزرج	٦	اسماء يثرب
		١٠	موقع يثرب
٦٨	من أجداد الأوس والخزرج	١٢	بيوت يثرب والآبار والعيون
٧٢	تعريف الأوس والخزرج	١٥	مناخ يثرب
٧٦	دياسة الأوس والخزرج	٢٠	الأماكن المقدسة في يثرب
٧٧	علاقة الأوس بالخزرج	٢٢	مناقب المدينة
٧٨	المرحلة الثانية - مرحلة الخلاف والحروب -	٥٢	سرد تاريخي للحياة
٧٩	أيام الأوس والخزرج		في يثرب - السكان -
٩٢	القسم الثالث - علاقة الأوس والخزرج بالعرب	٣١	اليهود
٩١	علاقة الأوس والخزرج باليهود	٤٠	اليهود في يثرب
٩٩	علاقة الأوس والخزرج بالقوى الخارجية	٤٢	أحوال اليهود الإجتماعية والأدبية
١٠١	/الحياة الإقتصادية في يثرب	٤٤	/قبائل يهود
١٠١	الزراعة	٤٥	بنو قينقاع
١٠٢	الصناعة	٤٦	بنو النضير وبنو قريظة
١٠٥	التجارة	٤٩	اليهود والعرب
١٠٧	اهمية المواقع التجارية	٥٠	مواقع اليهود في الحجاز - عدا يثرب -
١٠٩	القسم الرابع - الحياة الفكرية -	٥٢	بعض خصائص يهود - الحكم -
	القرآن والكتابة	٥٣	العلاقات الداخلية والخارجية مع
١١٢	اللغة والشعر		العرب

٢٤٢	القسم الاول : ظهور الدعوة الإسلامية في مكة	١١٧	المعتقدات الدينية
٢٥٠	انتشار الدعوة الإسلامية خارج مكة	١٢١	العلوم عند أهل يثرب
٢٥٢	الهجرة إلى الحبشة	١٢٦	وسائل نشر المعرفة
٢٥٥	نصارى نجران - قصة الطفيل بن عمرو	١٣٠	الفصل السادس
٢٥٧	سير الرسول إلى الطائف		ملامح الفكر السياسي عند عرب يثرب
٢٥٩	عرض الرسول نفسه على القبائل	١٣٠	القسم الاول : الاتجاهات السياسية
٢٦٢	وفود يثرب إلى مكة طلباً للحلف		المؤثرة في فكر أهل يثرب
٢٦٥	المسلمون الأوائل من يثرب	١٣١	الحياة القبلية
٢٦٨	لقاء الرسول مع أهل يثرب	١٤٢	تنظيمات مكة
٢٧٢	القسم الثاني/دخول الإسلام إلى يثرب	١٥٦	حكومة قصي بن كلاب وتنظيماته
٢٧٢	قبول أهل يثرب بالإسلام	١٦٧	الملكية عند العرب
٢٧٧	بيعة العقبة الأولى	١٦٨	الدولة المعينية
٢٨٦	الدعوة الإسلامية في يثرب	١٧٤	الغسانة
٢٩٥	بيعة العقبة الثانية وآثارها السياسية	١٨١	المناذرة واللخميون
٣٠٧	الآثار السياسية لبيعة العقبة الثانية	١٨٩	كندة
٣١٢	هجرة المسلمين من مكة إلى يثرب	١٩٥	الامبراطوريات الكبيرة/مدخل
٣٢١	القسم الثالث/هجرة الرسول إلى المدينة	٢٠٤	الفكر السياسي عنداليهود
٣٢٢	مراحل الهجرة	٢١٠	القسم الثاني/الفكر السياسي عند عرب يثرب
٣٢٢	دخول الرسول إلى المدينة	٢١٠	الحروب - أيام الأوس والخزرج
٣٣٥	بناء مسجد قباء والمسجد النبوي	٢١٤	المعاهدات السياسية مع القوى المحيطة
٣٥٠	تأسيس الدولة الإسلامية	٢١٥	يوم بعاث وآثاره الفكرية والسياسية
٣٥٠	القسم الرابع /الأنصار		القسم الثالث/توجه عرب يثرب نحو الملكية
٣٥١	القسم الأول - تمهيد	٢٢٤	المصالححة بين الأوس والخزرج
٣٥٨	الأنصار - تعريف	٢٢٦	اختيار النظام الملكي
٣٦٦	الانصار والمهاجرون - المؤاخاة	٢٢٩	تسمية الملك والاتفاق عليه
٣٦٦	الصحيفة وظهور دستور الدولة	٢٣١	المراحل التي وصلت إليها الملكية في يثرب
٣٧٦	الأنصار في ظل قيادة الرسول	٢٣٥	الفصل الثالث/يثرب بعد الإسلام
٣٨٦	القسم الثاني : الأنصار جند الدعوة الإسلامية		تحول الفكر السياسي عند عرب يثرب
٣٨٧	سرايا الرسول قبل بدر	٢٣٩	- مدخل -
٣٨٨	غزوة بدر		
٤٠١	غزوة أحد		
٤١٥	بين أحد والخندق		
٤١٩	غزوة الخندق		

٥٥٢	نقض العهد والمواثيق	٤٢٩	غزوة مؤتة
٥٥٤	الحروب مع اليهود	٤٣٥	غزوة الفتح
٥٥٥	غزوة بني قينقاع	٤٤٠	غزوة حنين / هوازن
٥٥٦	غزوة بني النضير	٤٤٩	غزوة تبوك
٥٥٧	غزوة بني قريظة		القسم الثالث / مواقف الأنصار من الدولة الإسلامية / بعض السرايا التي قادها الأنصار
٥٦٢	سرايا المسلمين ضد اليهود		آراء الأنصار في سياسة الدولة الإسلامية
٥٦٤	غزوة خيبر	٤٥٧	قالوا في الأنصار
٥٦٦	القسم الخامس / موقف الإسلام من اليهود		الفصل الخامس
٥٦٦	القرآن الكريم	٤٥٨	موقف المنافقين واليهود من الدولة الإسلامية
٥٧٠	موقف الرسول صلى الله عليه وسلم	٤٦٩	القسم الأول : المنافقون - تمهيد وتعريف
٥٧٥	موقف الأنصار والصحابة	٤٧٧	الانتصار للملكية في يثرب
٥٧٩	نهاية اليهود في الجزيرة العربية		علاقة المنافقين بالمسلمين
٥٨٢	الفصل السادس	٤٧٧	القسم الثاني / اتخاذ الخط الديني
	وفاة الرسول وموقف الأنصار من الخلافة الراشدة	٤٧٧	المشاركة في الغزوات / أحد غزوة الأحزاب - الخندق
٥٨٢	الراشدة		غزوة بني المصطلق
	القسم الأول : وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم	٤٧٩	غزوة تبوك
٥٨٤	عليه وسلم	٤٨٣	بناء مسجد الضرار وآثاره
٥٨٧	أ - الآثار السياسية الناتجة عن وفاة الرسول	٤٨٨	أعمال المنافقين ضد الدولة الإسلامية
	١ - في الداخل	٤٩٠	القسم الثالث / موقف الإسلام من المنافقين
٥٩٦	٢ - في الخارج	٤٩٣	القرآن الكريم / آيات النفاق
٦٠٢	ب - الموقف السياسي للأنصار بعد وفاة الرسول	٤٩٥	موقف الرسول من المنافقين
٦٠٥	ج - سقيفة بني ساعدة	٥٠٠	موقف الأنصار وبقية الصحابة
٦١١	د - موقف الأنصار من خلافة أبي بكر	٥٠٧	انتهاء ظاهرة النفاق
	القسم الثاني : مواقف الأنصار السياسية من الخلفاء الراشدين	٥١٤	القسم الرابع / اليهود - مدخل
٦١٦	أ - موقف الأنصار من السياسة الداخلية	٥١٥	مواقف اليهود من الدولة الإسلامية
٦١٧	ب - موقف الأنصار من السياسة الخارجية	٥١٥	المؤامرات ضد الدولة الإسلامية
٦٢٠	ج - موقف الأنصار من سياسة الفتح	٥٢١	
٦٢٤	د - موقف الأنصار من سياسة الإصلاح	٥٢٠	
٦٢٧	القسم الثالث : صياغة النظرية السياسية للأنصار	٥٢٣	
٦٣١	جند الدعوة الإسلامية - مواقف وأحداث	٥٣٦	
٦٣٥	آراء المفكرين الأنصار السياسية	٥٤٠	
٦٤٣		٥٤٩	

٦٤٧	آراء الأنصار واجتهاداتهم الدينية
٦٥٦	رأي الأنصار بسياسة الفتوح
٦٥٩	رأي الأنصار بالخلافة الراشدة
٦٦٦	خاتمة
٦٦٨	الفهارس
٦٦٨	١ - فهرس الآيات القرآنية
٦٧٤	٢ - فهرس الخرائط والجداول
٦٧٥	٣ - فهرس المراجع

الفصل الاول ٣ - ١٢٨



الفصل الأول

مدينة يثرب قبل الاسلام " موطن الأنصار "

الفصل الأول

معنى يثرب في لسان العرب " مادة " شَرَبَ "

التَّشْرِبُ : شحم رقيق يغشى الكرش والأمعاء وجمعه " شَرُوبٌ "

والثرب : الشحم المبسوط على الأمعاء والمصارين

شاة ثريا : عظيمة الثرب ، وأنشد شعرا " وَأَنْتُمْ بِشَحْمِ الْكُلَيْتَيْنِ مَعَ " الثَّربِ "

وفي الحديث : نهى عن الصلاة إذا صارت الشمس كما " الأثارب " أي إذا تفرقت رخصت

موضعاً دون موضع عند المغيب .

وفي الحديث : " إن المنافق يؤخر العصر حتى إذا صارت الشمس كثر به البقرة صلاها .

التَّشْرِبُ : كالتَّأْنِيبُ ، والتَّعْيِيرُ ، والاستيقصاء في اللبس .

التَّارِبُ : المويخ . يقال : ثرب وثرِب وثرِب : إذا وبيخ

قال نصيب :

إني لأكره ما كرهت من الذي يؤذيك سوء ثنائيه لم ينثرِب

قال : " مثرِب " قليل العطاء - وهو الذي يمن بما أعطى .

تَرَبَّ عليه : لأمه وغيره بذنبه ، وذكره به

قال تعالى : لَا تَتَّشِرِبْ عَلَيْكُمْ اليَوْمَ (١)

قال الزجاج : معناه لا إفساد عليكم

وقال ثعلب : معناه لا تذكر ذنوبكم

قال الجوهري : وهو من الثرب ، كالشخف من الشخاف

والمثرِب : المعير ، وقيل المخلط المفسد

والتَّشْرِبُ : الإفساد والتخليط

ويصل بعد ذلك صاحب اللسان إلى القول :

وثرِب : مدينة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والنسب اليها : يَثْرِبِيٌّ وَثْرِبِيٌّ

وَأَثْرِبِيٌّ ، وَأَثْرِبِيٌّ ففتحوا الراء استئثالا لتوالي الكسرات

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم : أنه نهى أن يقال للمدينة يثرب وسماها " طيبة "

لأنه كره " الثَّرْبُ " لأنه فسادٌ في كلام العرب

قال ابن الأثير : يثرب اسم مدينة النبي صلى الله عليه وسلم قديمة ، فغيرها سماها
" طيبة " و " طَابَهُ " كراهية التثريب وهو اللوم والتعيير .

وقيل : هو اسم أرضها

وقيل : سميت باسم رجل من العمالقة

ونصلُ يَثْرِي ، وأَثْرِي : منسوب إلى يثرب

وقوله : ما هو إلا اليَثْرِيُّ المقطع

زعم بعض الرواة أن العراد يا ليثربي السهم لا الفصل وأن يثرب لا يحمل فيها النصال

قال أبو حنيفة : وليس كذلك لأن النصال تعمل بيثرب وبوادي القرى وبالرقم

ويغيرهن من أرض الحجاز

والثَّرْبُ : أرض حجارتها كحجارة الحرة إلا أنها بيضاء

وَأَثْرِبُ : موضع (١)

وفي مختار الصحاح ثَرَبُ (الثَّرْبُ) شحم قد غشى الكرش والأمعاء

والثرب : التعيير والاستقصاء في اللوم

ويثرب : مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم (٢)

وفي معجم البلدان يَثْرِبُ : بفتح أوله وسكون ثانيه ، وكسر الراء ، وباءً موحده

قال أبو القاسم الزجاجي : يثرب مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم سميت بذلك لأن أول

من سكنها عند التفوق (يَثْرِبُ بن قانية بن مهلائيل بن ارم بن عبيل بن عمو

بن ارم بن سام بن نوح عليه السلام) . فلما نزلها رسول الله صلى الله عليه وسلم سماها

طيبة ، وطابة كراهية للتثريب ، وسميت مدينة الرسول لنزوله فيها (٣)

قال : ولو تكلف متكلف أن يقول في يثرب انه يفعل من قوله تعالى : لا تثريب

عليكم اليوم . قال المفسرون وأهل اللغة معناه لا تعيير عليكم بما صنعتم

ويقال : أصل التثريب ، الإفساد

ويقال : ثرب علينا فلان

وفي الحديث : اذا زنت أمة أحدكم فليجلدها ، ولا يثرب * أي لا يعير بالزنا

(١) لسان العرب - ابن منظور ٣٥٢ / ١

(٢) مختار الصحاح - الرازي ص ٨٣ وتهذيب الصحاح - الزنجاني مادة (ثرب) ٤١ / ١

(٣) جواد علي ١٢٨ / ٤ . شعر الحرب - الخطراوي ١٩

ثم اختلفوا فقيل : ان يثرب للناحية التي منها مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم
وقال آخرون : بل يثرب ناحية من مدينة النبي صلى الله عليه وسلم
ولما حملت (نائلة بنت الفرافصة) إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه قال
تخاطب أخاها :

أَحَقًّا تَرَاهُ الْيَثْرَ يَا خَبُّ أَنْبِي
مُصَاحِبَةَ نَحْوِ الْمَدِينَةِ أَرْكَبُ
لَقَدْ كَانَ فِي فِتْيَانِ حِصْنِ بْنِ خَضَمٍ
لَكَ الْوَيْلُ مَا يَجْرِي الْحَبَابُ الْمُحَجَّبَا
قَضَى اللَّهُ أَنْ تَمْرُتِي غَرِيبَةً
يَثْرَبَ لَا تَلْفَيْسَنَ أُمَّاً وَلَا أَبَا

قال ابن عباس رضي الله عنه : من قال للمدينة يثرب فليستغفر الله ثلاثا ، إنما هي
طيبة .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم لما هاجر اللهم إنك أخرجتني من أحب أرضك إلي فأسكني
أحب أرضك إليك ، فأسكنه المدينة ، وأما حديثها وعمارتها فقد ذكرته في المدينة
وقد نسبوا إليها السهام فقال " كثير "

وما كان اليثريَّة انصلت بأعقاره دُفِعَ الإزارُ نَزُوعاً (١)

وكانت يثرب موضعا معروفا منذ زمن بعيد ، منذ أيام المعنيين ، ومع أن تاريخها
الأول غامض أيضا فان الأخبار التي وصلت إلينا من تاريخها أقدم من تلك التي
وصلت إلينا من تاريخ مكة .

وأسماء المواضع المشتقة من الجذر " ثَرَبَ " و " قَرِيبَه " " ثَرَبَ " ليست
قليلة ، ولعل الموضع الذي يأخذ اسمه من ثرب (بالثاء) المنقوطة بثلاث نقط فقط
أقدم عهدا من الموضع الذي يأخذ اسمه من ثرب في القاموس المحيط ٤٠ / ١

ثرب : كثر ترابه ، مما يدل على أن الموضع المسمى بصيغة من هذا الجذر كثير التربة خصب
وترية واد ، وثربية ، وترابه : موضعان في اليمن . وثريان : واد بين الحفـير
والمدينة . وثريان (بالثاء) حصن في اليمن . وأثارب (بالثاء) أيضا : قرية
بحلب . وثرَب ، وأثرب (بالثاء) : مدينة النبي صلى الله عليه وسلم (موضع
بحثنا هنا) . أما يثرب (بنقطتين فوقها فقط) فموضع قرب اليمامة القاموس ٣٩ / ١ - ٤٠
ويبدو أن اسم المدينة علما على يثرب كان قديما ، ولكن الاسم يثرب أقدم ، ولعل
الاسم " أثرب " أكثر قدما (٢)

(١) معجم البلدان - الحموي ص ٤٣٠

(٢) تاريخ الجاهلية - فروخ ص ١١٥ - ١١٦

ويثرب : مدينة قديمة ورد ذكرها في الكتابات المعينية ، وكانت من المواضع التي أقامت فيها جاليات من معين ، ثم آل أمرها الى السبئيين بعد أن زالت دولة المعينيين . ومن المعروف أن معين وسبأ كانتا تفرضان نفوذهما في بلاد العرب الشمالية .

كذلك جاء ذكر يثرب في جغرافية بطليموس البيزنطي باسم IATHRIPPE ومصره باسم IOTHRIPE . وذكر (اصطيغانوس) البيزنطي باسم IATHRIPPA POLIS وعرفت عند الاخباريين باسم " أثرب " ويثرب .

وذكر أن يثرب هي أم قرى المدينة ، وحدودها امتدادها ما بين طرف (قناة) الى طرف (الجرف) . وما بين المال الذي يقال له (البرناوى) الى (زبالة) . ويؤمن بعض الإخباريين أنها سميت يثرب نسبة إلى (يثرب بن قانية بن مهلائيل . . .) وهو أول من نزلها من بعد تغرق ذرية نوح . ويؤمن آخرون أن اسم يثرب مأخوذ من الثرب بمعنى الفساد أو (التثريب) أي المأخذة بالذنب .

وذكروا أن النبي صلى الله عليه وسلم ، نهى عن تسمية يثرب بيثرب وسماها طيبة وطابا كراهية للتثريب .

وذكر البلاذري أن يثرب سميت باسم رئيس للعالمين الذين نزلوها بعد أن أخرجوا منها بني عبيل بن عوض بن سام من ولد نوح (١)

وقد ورد اسم يثرب في القرآن الكريم عند تعرضه لما يقوله المنافقون قال تعالى : **وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا . وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا .** (٢)

ويشير المسعودى الى أن ما وقع في القرآن الكريم من تسميتها بهذا الاسم إنما هو حكاية من قول المنافقين (٣) ويذكر بعض أهل الأخبار أن أقدم من سكن (يثرب) في سالف الزمان قم يقال لهم (صعل) و(فالج) فغزاهم النبي داوود عليه السلام وأخذ منهم أسرى ، وهلك أكثرهم وقبرهم في ناحية الجرف .

(١) لكتاب الأشراف - البلاذري ص ٥٠٠ مروج الذهب - المسعودى ١ / ٤٢

(٢) سورة الأحزاب ١٢ - ١٣

(٣) تاريخ العرب - سيد عبد العزيز ٣٢٢ - ٣٢٣

وسكنها العماليق ، فأرسل عليهم النبي موسى جيشا انتصر عليهم وعلى من كان ساكنا
منهم بـ (تيماء) فقتلوهم • وكان ذلك في عهد ملكهم (الأرقم بن أبي الأرقم) ولم
يترك الإسرائيليون منهم أحدا وسكن اليهود في مواضعهم (١)
ونزل عليهم بعض قبائل العرب ، فكانوا معهم واتخذوا الأموال والآطام والمنازل ، ومن
هؤلاء (بنو أنيف) تصغير (أنف) وهم حي من (بلى)

يقال : أنهم بقية من العماليق

(بنو مرید) مزید (مرثد) • حي من بلى ، وبنو معاوية بن الحارث بن بُهته بن
سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان •

وبنو الجدي (الجدما) هي من اليمن • فعاشوا مع من كان بيثرب وأطرافها من
اليهود ، واتخذوا المنازل والآطام يتحصنون فيها من عدوهم إلى قديم الأوس والخزرج
أيامها (٢)

فالاسم القديم لمدينة الرسول إما هو يثرب ، وقد اختلفوا فيما إذا كان اسما للمدينة
نفسها أم للموضع مخصوص من أرضها ، أو أنها اسم للناحية التي منها مدينة الرسول •
أما اسم المدينة الذي أطلق على يثرب بعد الهجرة النبوية فقد يكون مأخوذا من
لفظة (مدینتا) MEDINTA الآرامية ، ومعناها الحمى أو المدينة ، وقد يكون اختصارا
من (مدينة الرسول) • وأعتقد أنه في ثلثا الحالتين أطلق عليها بعد الهجرة ولم
يكن يطلق عليها قبل ذلك ، وإن كان بعض المستشرقين يرى أن اليهود والمعاشرين
بالثقافة الآرامية ، أو بعض المتهود من بني ارم الذين نزلوا بيثرب ودعوها " مدینتا "
ومن هذه اللفظة جاءت لفظة المدينة ، أي أن لفظة المدينة كانت تطلق قبل
ظهور الاسلام على يثرب (٣)

وأقدم مورد أشير فيه الى " يثرب " هو نسي الملك " بنونيد " ملك بابل الذي سكن
(تيماء) أمدا ، وذكر فيه أنه بلغ هذه المدينة وقد عرفت (بيثربة) (JATHRIPA)
في جغرافية بطليموس ، وعند اصطيفان البيزنطي وعرفت بالمدينة كذلك وكلمة
MEDINTA والآرامية التي تعني (مدنية) في (عريتنا) و (هكر) في

(١) يلاحظ كثير من المغالطة في هذه الرواية من " الاسرائيليات " ، وذلك لاثبات
بعض الحق لليهود في المدينة ، خاصة أنهم أخرجوا منها وقتلوا • فسيدينا موسى عليه
السلام لم يتمكن من ضبط بني اسرائيل ليقاتلوا عدوهم ويدخلوا أرضهم التي وعدوا بها
فقالوا لموسى : "فَأَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ" سورة المائدة آية ٢٤
فكيف يتسنى لموسى عليه السلام أن يرسل جيشا كبيرا من صحراء التيه إلى يثرب

الحرية الجنوبية •

وقد ورد اسمها في الكتابات المعينية ، ويظهر أنها عرفت (بمدينة يثرب) على نحو ما وجدنا في كتاب (اصطفيان البيزنطي) ثم اختسرت فقيل لها (مدنيثا) : أي المدينة ولما نزل الرسول بها عرفت (بمدينة الرسول) في الإسلام •

ولقد تم تاريخ (يثرب) ولورود اسمها في نص (بنونيد) الذي يدل على أنها كانت معروفة اذذاك ، لا يستبعد احتمال عثر المتقنين في المستقبل على كتابات وآثار قد تكشف عن بعض تاريخ هذه المدينة في أيام ما قبل الإسلام •

وعثر في مواضع لا تبعد كثيرا عن (يثرب) على كتابات جاهلية لم تعرف هويتها الآن لأن الباحثين لم يتمكنوا من فحص مواضعها ، ومن نقلها إلى العلماء المختصين لقراءتها ؟ • كما أنهم لم يتمكنوا من تصورها • ولا من التنقيب في تلك الأماكن تنقيا علميا •

وقد أشار عثمان رستم إلى وجود كتابات من هذا النوع على جبل (سليح) وعند موضع بئر عروة بوادى الحقيق •

وفي أماكن أخرى أرجو أن يصل إليها الباحثون للتنقيب فيها ولحل رموز هذه الكتابات وقد يعثر على كتابات أخرى مضمورة في تربة (يثرب) ، وفي الأماكن القريبة منها تقدم للقادمين من بعدنا أسرار هذه المدينة المقدسة • (١)

وإطلاق اسم يثرب على المدينة فيه خلاف بين المؤرخين نبينا يراه ابن عباس رضي الله عنه اسما للمدينة نفسها نجد أن أبا عبيدة يؤكد أنه اسم للناحية التي منها مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، أي أن لفظ يثرب أع من لفظ المدينة •

ويذكر العلامة السمهودي (٢) أن محمد بن الحسن بن زبالة يقطع بأن يثرب أو أثرب اسم لموضع مخصوص من أرض المدينة لأنه كان ينشر فوق أرض المدينة عديد من القرى العامة المأهولة ، غير أن يثرب هي أم قراها جميعا •

وسميت المدينة المنورة مدينة من قولهم مدن بالمكان إذا أقام ، أو من دان إذا أطاع والميم على هذا التفسير زائدة ، نون السلطان لسكين المدن فتقدم له طاعة فيها

ليقاتل ملكها الأرقم بن أبي الأرقم ، مع توافق اسم الملك مع الرجل الصحابي الذي فتح داره للدعوة الإسلامية في بداية عهد الإسلام • ومن المؤكد تاريخيا أن اليهود جاءوا إلى يثرب بعد النكبات التي لحقت بهم على يد الآشوريين والبابليين ومن بعدهم الرومان " شعراء الحرب - الخطراوي " ٣٥ فما بعد

(٢) جواد علي ١٢٩ / ٤

(٣) تاريخ العرب - السيد عبد العزيز ٣٣٢

(١) جواد علي ١٣٠ / ٤ - ١٣١

(٢) وفاء الوفا - السمهودي ٨ / ١ - ١٠ ، وأخبار المدينة (الدرة الثمينة) للحافظ محمد

أولاً أن الله تعالى يطاع فيها • وهذه التسمية إسلامية ، فالاسم الذي كانت معروفة به قبل هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إليها إنما هي يثرب ، وهي مكان مخصوص منها كما سلف ، وأطلق عليها من باب إطلاق الجزء على الكل ، وهو الاسم الذي تعود أن يطلقه عليها بعض المؤرخين والشعراء •

وكانت يثرب من أول عهودها بلداً زراعياً راسخاً في الحضارة ، بخلاف مكة التي نانت البداوة تغلب عليها في حياتها السياسية ، وحياتها الإجتماعية على الأقل لا في حياتها الاقتصادية (١) • ويثرب هذه التي هي جزء من المدينة يشير بعضهم إلى أنها واقعة في الجزء الشمالي من المدينة ابتداءً من شمال جبل سلع إلى منتهى (زغابة) ومنطقة العيون ، على أن البعض يحددها جنوباً بزباله ، وزباله هي المنطقة التي تقع فيها بئر روم وستان الأزهرى ، ويقع شرقيها المعجى القديم لوادى مهزور ، وعلى غربها مجرى وادى العقيق •

وحدد لها ابن النجار بأنها الجزء الواقع ما بين طرف قناة إلى طرف الجرف ، وما بين المال الذى يقال له البرناوى إلى زباله •

أما المدينة نفسها فقد جعل لها الرسول حرماً محدداً جنوباً بجبل (عير) (مرادى للحمار) وبعضهم يسميه (عاير) ، وهو جبل كبير مشهور بخرب ذى الحليفة - ميقات المدينة - وشمالاً بجبل (ثور) (فحل البقر) • وهو جبل صغير مدور شمالاً أحد وهو إلى الحمرة أقرب على شمال المتجه إلى (العاقول) من الطريق المسفلت اليوم بين المدينة والمطار إذا ما وصل إلى المكان المعروف بمقعد بني هطيرين

وقيل هذا الجبيل الذى شقه الطريق المسفلت إلى المطار والمعروف الآن بمقعد بني مطير (٢) ويتفق الأخباريون على أن يثرب سميت بمدينة الرسول لنزول رسول الله بها ، ولنفره من اسمها القديم سواء أكان بمعنى التثريب أو الإفساد ، أو لأنه رئيس من العمالقة الذين نزلوا بها في العصور القديمة فيما يقرب سنة ٢٦٠٠ ق م على حد قول بعض الباحثين المحدثين •

ذكر الأخباريون أن ليثرب أو المدينة تسع وعشرون اسماً هي : المدينة ، وطيبة ، وطابة والمسكينة ، والعدراء ، والجابرة ، والمحبية ، والمحيرة ، ويثرب ، والناجية ، والموفية وأكالة البلدان ، والمحفوفة ، والمسلمة ، والمخبة ، والقدسية ، والعاصمة ، والمرزوقية والنافية ، والخيرة ، والمحبية ، والمعرومة ، وجابرة ، والمختارة ، والمحرومة

(١) تاريخ الجاهلية - فرخ ص ١١٦

(٢) شعراء الحرب - الخطراوى ص ٢٠ - ٢١ • مرآة الحرمين - رفعت باشا ١ / ٤٤٧

والقاصعة ، وطابا •

وأضاف إليهم بعضهم : البحرة ، البارة ، والبيرة ، وتسر ، والحسيبة ، ودار الأنصار
وحسنة ، ودار الأخبار ، ودار الايمان ، ودار السنة ، ودار الهجرة ، والمختارة
وخلبة ، وقبلة الإسلام ، والمحفظة ، ومدخل صدق ، والمقدسة (١) وجعلهم
المسيهودي أربع وتسعون اسما (٢)

أما ابن زبالة فيجعل أسماءها أحد عشر اسما هي : المدينة ، وطيبة ، وطابة ، المسكية
وجابرة ، والمعجورة ، والمرحومة ، والعدرا ، والمعجة ، والمجوبة ، وقاصمسة
وكل هذه الأسماء عرفت بها المدينة بعد الهجرة ، أى في العصر الإسلامي باعتبارها
دار الهجرة ومركز الدولة الإسلامية في عصر النبوة وعصر الخلفاء الراشدين •
وهناك اسم عرفت به بحكم طبيعة موقعها الجغرافي بن حرتي (راقم) و (وبرة) فهى
ذات الحرار ، وأرذات الآخرين •

ومعظم أسمائها صفات وصفت بها لتخطيتها ، واظهار فضائلها وآثارها (٣)

الموقع : تقع مدينة يثرب على بعد نحو ٥٠٠ كيلومترا إلى الشمال من مكة في بسيط من الأرض
مكتسوف من سائر الجهات في مرة سبخة من الأرض كثيرة المياه والنجر والدوحات
وأقرب الجبال إليها هو جبل أحد ، ويقع شمال يثرب • في حين يقع جبل غير الوارد
في جنوبها الغربي • وجبل غير جبلان أحمران متقاربان ببطن العقيق ، أحدهما
غير الوارد والآخر غير الصادر • وإلى الشرق من يثرب بقيق الفرقد ، وإلى الجنوب
قرية قبا التي تبعد عن يثرب بنحو ميلين مما يلي القبلة ، وإلى الجنوب منها تقع
قرية القرع على الطريق المؤدية إلى مكة •

روانى العقيق من أخصب مناطق يثرب ، ويبعد عنها من جهة الغرب بنحو ثلاثمائة
أميال ، وقبل ستة أميال ، والعقيق مجموعة (أعقة) ، أى أودية شقتها السيول •
أحد ها عقيق المد ينفق عن حرشها ، وهذا العقيق الأصغر ، ومنه بئر رومة •

وتقع بئر رومة إلى الشمال الغربي من يثرب على مسيرة ساعة منها بالقرب من مجمع
الأسياح ، في براج من الأرض ، وكانت ملكا ليهودي في الجاهلية فاشتراها منه عثمان
بن عفان بماله ، وتصدق بها على المسلمين في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم (٤)

(١) عدة الأخبار ص ١٤

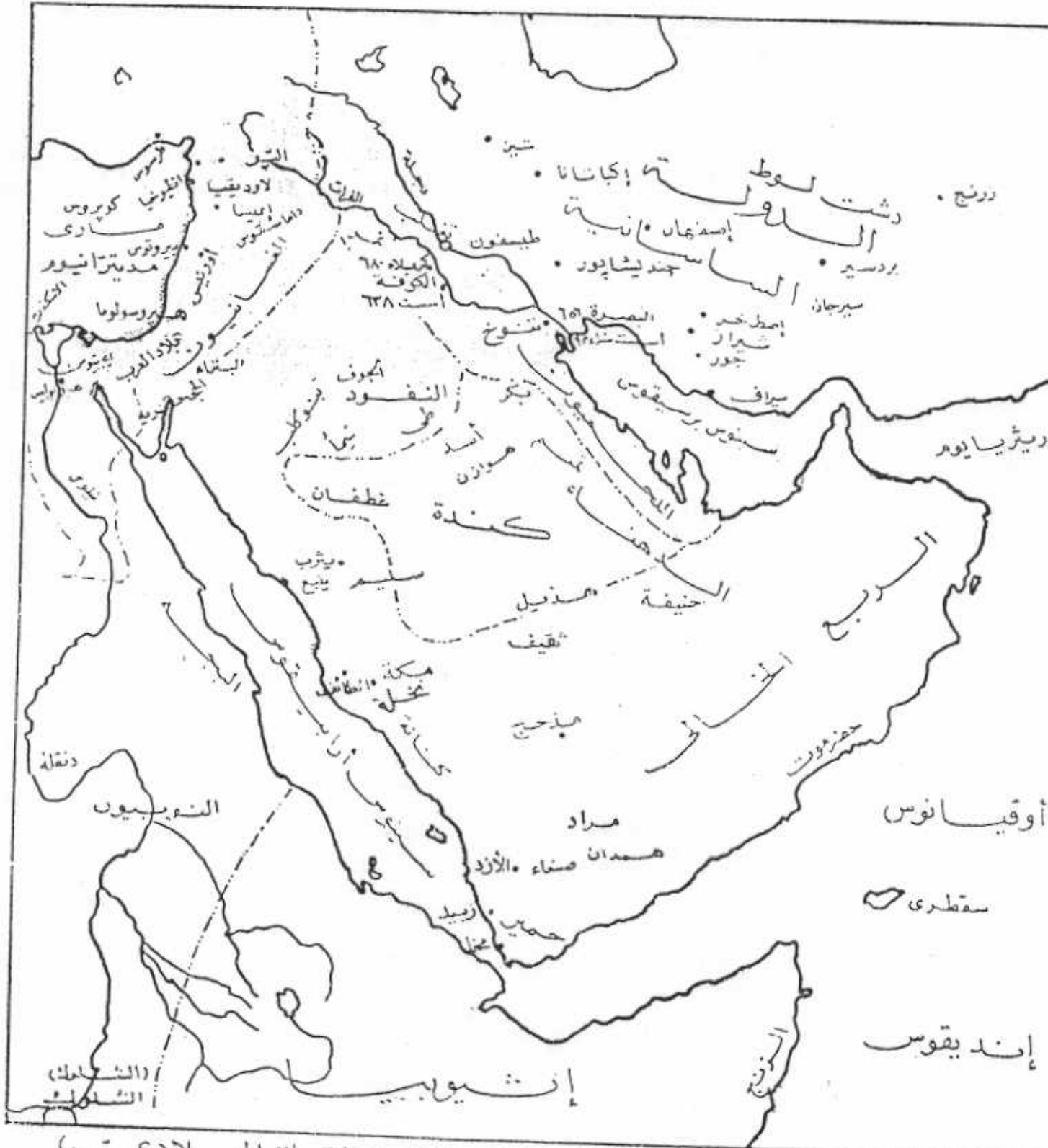
(٢) وفاة الوفا - المسيهودي ١/٨-٢٢ أولها (أثرب) وآخرها (يندر) وهي ٩٤ إسما

(٣) تاريخ العرب - السيد عبد العزيز ص ٣٣٣ - تاريخ العرب في الجاهلية - الجبلي

١٨٥ المدينة في العصر الجاهلي - الخطراوي ص ٢٤

(٤) تاريخ العرب - السيد عبد العزيز ص ٣٣٥ • مرآة الحرمين - ابراهيم رفعت ص ٤٠٧

تقلا عن : التاريخ العربي ومصادره - أمين مدني



طبة الجزيرة العربية في القرن الأول الهجري (القرن السابع الميلادي)

وذكر ابن عبد البر أنها كانت ركية (بئرا) لليهودى يبيع ماءها للمسلمين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من يشتري (رومة) فيجعلها للمسلمين ؟ يقترب بدلوه فسي دلائهم وله بها شرب في الجنة .

فأتى عثمان بن عفان رضي الله عنه اليهودى فساومه بها فأبى أن يبيعهما كلها ، فاشترى عثمان نصفها باثني عشر ألف درهم فجعله للمسلمين ، يقال له عثمان : إن شئت جعلت

لنصيبى قريبين ، وإن شئت فلي يرم ولك يرم . فقال : بل لك يرم ولي يرم ، فكان إذا كان يرم عثمان استقى المسلمون ما يكتفيهم يرمين ، فلما رأى اليهودى ذلك قال : أصدت علي ركيته فاشترى النصف الآخر فاشتراه بثمانية آلاف درهم . وهذه البئر في أسفل وادي الحقيق قريبة من مجمع الأسياح في براج واسع من الأرض (١) ويحيط الحقيق بيثرب أيضا من جهة الجنوب الغربي ، ولكنه بعيد عنها من هذه الجهة ، فهويقح بعد قبا إلى الشمال من وادي النقيح ، وكانت تشغله غابات كثيفة ، أما من جهة الغرب فكان يمتد إلى ما بعد ندي الحليفة عند آبار علي . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد أقطعه بلال بن الحارث المزني ثم أقطعه عمر رضي الله عنه الناس .

ومن وديان المدينة أيضا وادي بطحان ، ويقع إلى الغرب من يثرب ، ووادي رانسون ويبدأ من جبل عير قبلي المدينة ، ويمر بقبا ، ثم يختلط بروادى بسطحان

ومن أوديتها أيضا (وادي منينيب) في الجنوب الشرقي ، وهو شعبة من بطحان

ووادي قناة ، ويقع إلى الشمال الشرقي من يثرب

ووادي مهزور في الجنوب الشرقي ويأتي من الحرة الشرقية حرة واقم

والعتيق عرصتان هما عرصة البقل ، وعرصة الماء

وثلاث جماعات هي جماع تضارع ، وجماع أم خالد ، وجماع العاقر

والعرصة : أرض فضاء متسعة لا يقوم فيها بناء ، أما الجماع فهضبة مسطحة لا تم لها

والعرصتان من أكرم بقاع المدينة (٢)

الحرات : أما حرات يثرب فهي ثلاث :

حرة واقم في الشرق : وهي من أشهر حرات بلاد العرب ، وترتبتها من أخصب بقاع يثرب

تاريخ العرب في الجاهلية الجبيلي ١٨٦ . دراسات في تاريخ العرب - بيروني ص ٤٣٥ مختارات من صبح الأعشى ٢٧٩ / ٥ الروض الانف ١ / ٣٥٠ حيث أن فكيفه كانت تمر تبع عند محاصرته المدينة الماء من بئر رومه

(١) مرآة الحرمين - ابراهيم رفعت ١ / ٤٣٠

(٢) تاريخ العرب قبل الاسلام - السيد عبد العزيز ص ٣٣٥ . مكة قبل الاسلام ص ٢٢

تاريخ العرب في الجاهلية - الجبيلي ص ١٨٤

وذكروا أن واقم اسم رجل من العماليق سميت به • وقيل أنه اسم أطم من آطام بني عبد الأشهل إليه تضاف الحرة ، وكانت تسكن أرض هذه الحرة بطون من الأوس منهم بنو عبد الأشهل ، وبنو ظفير ، وبنو معاوية ، كما كانت تسكنها أيضا قبائل من يهود بني قريظة والنضير ، وهذه الحرة كانت وقعة الحرة المشهورة في أيام يزيد سنة ٦٣ هـ (١) وعرفت أيضا بحرة قريظة لأنهم كانوا ينزلون بطونها القبلي ، كما عرفت أيضا بحرة زهرة لمجاورتها لها • وزهرة من أعظم قرى يثرب بين حرة واقم والسافلة •

حرة الوبرة في الغرب من يثرب ، وعرفت بحرة بني بياضه ، وكانت على بعد ثلاثة أميال من يثرب مشرفة على وادي العقيق الذي يليها غربا

ثم حرة قباء وتقع إلى الجنوب من يثرب

والى جانب هذه الحرات هناك ثلاث حرات أخرى بالقرب من يثرب هي حرة شوران وحرة النار بالقرب من حرة ليلي (٢)

ويظهر من روايات أهل الاخبار عن البيوت أن في بيوت يثرب بيوت تكونت من طابقيين أرضي وطابق علوي ، وكانوا يسكنون الطابقيين ، ولعلمهم كانوا يودعون مواشيهم ودوابهم الطابق الأرضي ، أو مواضع ملحقة بهذا الطابق • (وكانت دار أبو أيوب الأنصاري التي نزل بها الرسول ذات طابقيين ، نزل الرسول صلى الله عليه وسلم بطابق وسكن أبو أيوب بالطابق الثاني (٣)

ر والعيون : وأشهر آبار المدينة عدا بئر رومة

١ - بئر أريس : وتسمى بئر الخاتم وبئر التغلة ، وهي داخل حديقة وعمقها ١٢ م وفي أسفلها فتحتان يجرى منهما الماء إلى قاع البئر ، وفتحة تالفة تسلبها بمجرى العين الزرقاء التي يشرب منها أهل المدينة • وأريس الذي سميت البئر باسمه رجل من اليهود ومعناه بلغة الشام (الفلاج) وتسمى ب (الخاتم) لأن بها وقع خاتم الرسول صلى الله عليه وسلم أخر البخاري في صحيحه من حديث أنس قال : كان خاتم رسول الله صلى الله عليه وسلم في يده وفي يد أبي بكر بعده ، وفي يد عمر بعد أبي بكر • قال : فلما كانت خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه جلس على بئر أريس فأخذ الخاتم فجعل يعبث به فسقط • قال : فاختلفنا ثلاثة أيام مع عثمان ننزح البئر فلم نجده • وكان ذلك بعد ست سنين من خلافته •

(١) تاريخ العرب قبل الاسلام - السيد عبد العزيز ص ٣٢٦

(٢) تاريخ العرب في الجاهلية - الجبيلي ص ١٨٥ • تاريخ العرب قبل الاسلام -

السيد عبد العزيز ٣٢٦

(٣) جواد علي - تاريخ ١٧/٥

ونبت عن ابن عمر في صحيح مسلم أنه سقط من يدي معيقب وهو وسيء من أصحاب المهجرتين وفي صحيح البخاري حديث طويل فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم ذهب إلى بئر أريس فتوضأ فيها وجلس على كتفها (المرتفع منها) وكشف عن ساقيه وأدلى بهما في البئر ، وأن أبا هريرة تبعه إليها ، وثلاثهما أبر بكر ، وأتى بعده عمر ثم عثمان فتوضأوا جميعاً منها وجلسوا عليها كما جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وتسمى هذه البئر أيضاً بئر التفلة ، ويقولون أن النبي صلى الله عليه وسلم تغل فيها فعذب ماؤها بعد أن كان أجاجاً ، وقد ذكر الغزالي هذا في إحياء علوم الدين ، وقال البرقي مخن أحاديث الكتاب أنه لم يقف على أصل حديث تغله صلى الله عليه وسلم في بئر أريس (١)

٢ - بئر الأعواف وهي إحدى صدقات النبي صلى الله عليه وسلم

٣ - بئر أنسا وهي التي ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم قبته عندها حينما حاصر بني قريظة وشرب منها ، وهذه البئر غير معروفة الآن ، وربما كانت معروفة بالمدينة باسم غير هذا الاسم .

٤ - بئر أنس بن مالك بن النضر ، وتضاف أيضاً لأبيه ، وهي التي ورد ذكرها في حديث أنس الصحيح قال : أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم في دارنا هذه ، فاستسقى فحلبنا شاة لنا ثم شبته من بئرنا هذه فأعطيته فشرب وعمر بين يديه ، وأبر بكر عن يساره وأعرابي عن يمينه ، فأعطى الأعرابي فضله وقال : الأيمن فالأيمن . وهذه البئر الآن تعرف ببئر الحضارم ، وهي في رباط شمالي الحديقة المعروفة بـ (العينية) ويقرب البئر قبة على قبر يزعمونه قبر (عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم أبي النبي صلى الله عليه وسلم)

٥ - بئر بضاعة : في منتهى عمار المدينة من جهة الشمال ، وهي التي كان يلقي فيها لحم الكلاب والمخاض وعذر الناس . وسئل صلى الله عليه وسلم عن التوضؤ فيه فقال : الماء طهور لا ينجسه شيء . - روى ذلك أحمد والنسائي وصححه ، والترمذي وحسنه والدارقطني وأبو داود وابن ماجه - وزاد الا ماغلب على ريحه وطعمه ولونه .

وفي رواية للبيهقي ، الماء طهور الا اذا تضر ريحه أو طعمه أو لونه بنجاسة تحدث فيه وفي رواية النسائي عن ابي سعيد قال : مررت بالنبي صلى الله عليه وسلم وهو يتوضأ من بئر بضاعة فقلت أنتوضأ منها وهي يطن فيها ما يكره من النتن . . . قال ، الماء لا ينجسه شيء

٦ - بئر بيرحاء : هذه البئر شمال المدينة بعد سورها شرقي بئر بضاعة ولكن يفصل بينهما

بئر بضاعة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستعذب ماءها ، وكانت في بستان لأبي طلحة وقفه على أقاربه وبني عمه كما دل على ذلك حديث البخاري في كتاب الأشربة (باب استعذاب الماء)

روى عن ابنه قال - كان أبو طلحة أكثر أنصاري في المدينة ما لا من نخل ، وكان أحب ماء له إليه (بیرحاء) وكانت مستقبلة المسجد - المسجد قبلها - وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب . قال أنس : فلما نزلت آية " لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ " ^(١) قام أبو طلحة فقال : يا رسول الله إن الله يقول : (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) وأنا أحب ما لي الي (بیرحاء) وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله فضعها يا رسول الله حيث أراك الله .
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بن ذلك مال (رايح أورايح) - شك من الراوي - وقد سمعت ما قلت رأيت أن تجعلها في الأقربين .

فقال أبو طلحة : أفعل يا رسول الله فضعها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه .

٧ - بئر رومه : وقد مر ذكرها بالحديث عن وديان يشرب

٨ - بئر غرس : وهي بئر بقبا في شرقي مسجد ها على نصف ميل من جهة الشمال . روى ابن حبان في كتاب الثقات عن أنس رضي الله عنه أنه قال : اثتوني بماء من بئر غرس فإني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يشرب منها ويتوضأ ^(٢)

وفي المدينة آبار أخرى مثل بئر التويم وهي من أكبر آبار المدينة ، وبئر العباسية ، وبئر الحقيق ، وكان أهل المدينة فيما سلف يهدون مياه البئر الأخير إلى أمراء الشام .

هذه هي الآبار التي عليها معول أهل المدينة في سفي أراضيهم ومواسيهم . أما مياه الشرب لانفسهم فيأخذونها من عين الازرق ، او العين الزرقاء على ما هو مشهور في عرفهم وهذه العين منشؤها بئر بقبا غربي مسجد ها وتحرف بالجعفرية اجراها الى المدينة مروان بن الحكم عامل مساوية على المدينة بأمر منه عشاريها حتى مصلى الأعياد ^(٣)

وفي ضواحي المدينة عدا العين الزرقاء عيون وادي حمزة التي تبلغ الأربعين عينا أو تزيد وحقيقة هذا العيون آبار فتح بعضها على بعض فتدونت منها مجاري ضيقة ومنشؤها شرق المدينة حيث الارض عالية وتسير مغربة نحو حمزة ثم إلى غربي المدينة

(١) سورة آل عمران آية ٩٢

(٢) حديث الآبار التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يتوضأ ويغتسل ويشرب منها وهي سبعة آبار ، تخريج الأحاديث وتصحيحها في احياء علم الدين ١ / ٢٦٠ من المغني

عن حمل الاسفار في تخريج ما في الاحياء من اخبار

(٣) حديث طويل حول هذه العين مرآة الحرمين ١ / ٤٣١ - ٤٣٣

حيث الارض هناك واطئة •

ومن عيون المدينة عين السلطان وتجري بحذاء عين الازرق في مجرى دون مجراها ،
وماءها ملح ، والغرض منها تطهير مجارى المدينة وسحب القاذورات خان البلد (١)
والمناخ في يثرب شبيه بمناخ مكة فهو شديد الحرارة صيفا وبارد شتاء ، وتسقط أمطارها
في أوقات قصيرة ولكنها بعنف محدثة سيولا في كثير من الاحيان • فقد سال وادى مهنزر
من بدايته عند حرة سوران والتقاءه مع وادى بطحان في زغابة ملتقى السيول ، وسال
هذا الوادي في خلافة عثمان بن عفان سيلا عظيما على المدينة خشي منه عليها من الغرق
فاقام عثمان الردم الذى يقع عند بئر مِذرى لرد السيل عن المسجد وعن المدينة • وسال
مرة اخرى في خلافة أبي جعفر المنصور ، فندب والي المدينة الناس لصرف مياهه في وادي
بطحان (٢) وتتخلف عن هذه الامطار غدران ومستنقعات وبرك ، ومن اشهر الغدران في
وادي العقيق - غدير السدر وغدير يرخم ، وغدير سلاقة ، وغدير البيوت ، وغدير حمير
وغدير المجاز ، وغدير العرسي •

وينشأ عن ركود المياه في هذه المناطق انتشار الأوبئة والأمراض (٣)

وظاهرة انتشار الأوبئة والأمراض بالمدينة من الظواهر المألوفة فيها ، فقد قدم الرسول
وأصحابه إلى المدينة وهي وبئة ، فاشتكى أبو بكر واشتكى بلال فلما رأى رسول الله صلى
الله عليه وسلم شكوى أصحابه قال : اللهم حبيب إلهنا المدينة كما حبيت مكة وأناشد ،
وصححها ، وبارك لنا في صاعها ومدّها وحولها إلى الجحفة (٤) • فالمدينة كانت
على حد قول بلال " أرض الربا " وكان سبب هذه الحمى أن مياه بطحان كانت أجنة
وروى ابن اسحاق : انه لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة قدمها وهي أربا
أرض الله من الحمى ، فاصاب أصحابه منها بلا وسقم وصرفه الله عن نبيه صلى الله عليه وسلم
قالت عائشة رضي الله عنها : فكان أبو بكر وثامر بن فهيرة وبلال موليا ابي بكر مع ابي بكر
في بيت واحد فاصابتهم الحمى ، فدخلت عليهم اعودهم وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب
وهم ما لا يعلمه إلا الله من شدة الروع ، فدنوت من أبي بكر فقلت ، كيف تجدك يا أبت " أى

(١) مرآة الحرمين - ابراهيم رفعت ١/ ٤٢٨ - ٤٣٤

(٢) تاريخ العرب قبل الاسلام - السيد عبد العزيز ٣٣٧

(٣) تاريخ العرب في الجاهلية - الجميلي ١٨٥

(٤) السيرة - ابن هشام ٢/ ٢٣٩

كيف تجد نفسك ؟ فقال :

كُلُّ أَمْرِي مُصَيِّحٌ فِي أَهْلِيهِ وَالْمَوْتُ أَذُنِي مِنْ شِرَاكِ نَعْلِيهِ

فقلت والله ما يدري أبي ما يقول . ثم دبرت إلى عامر بن فهيرة فقلت كيف تجدك يا عامر ؟

فقال : لَقَدْ وَجَدْتُ الْمَوْتَ قَبْلَ ذَوْقِهِ إِنَّ الْجَبَانَ حَتَفَهُ مِنْ فَوْقِهِ

كُلُّ أَمْرِي مُجَاهِدٌ بِطَرَقِهِ كَالثَّوْرِ يَحْمِي جِلْدَهُ بِرُوقِهِ

قالت : فقلت ما يدري عامر ما يقول . وكان بلال اذا تركته الحمى اضطجع بفناء البيت ثم

رفع عقيرته فقال :

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبَيْتَنَ لَيْلَةَ بَفِخٍ وَحَوْلِي أَنْ خَرُّوا جَلِيلُ

وَهَلْ أَرْدَنَ يَوْمًا مِيَاهَ مَجْبُوتَةٍ وَهَلْ يَبْدُونَ لِي شَاهَهُ وَطَفِينُ

ويجمع الأخباريون على ان الوياء كان شديدا عند دخول النبي إلى يثرب

وذكر ابن إسحاق عن هشام بن عروة قال : وكان وياؤها معروفًا في الجاهلية (١)

وقد حدث أن غابت الأمطار وعزت على المدينة فترة طويلة ، ولكنها لم تلبث ان جاءت

بعد ان صلى النبي بالمسلمين صلاة الاستسقاء ، وامتد سقوطها أسبوعًا حتى بدأت بعض

بيوت المسلمين تنهار ، وانقطع العرى عن الماشية بسبب كثرة مياه الأمطار فاضطر الرسول

صلى الله عليه وسلم أن يسأل الله اللطف ورفع يديه إلى السماء وقال : اللهم حولينا - أي

أنزل المطر حولينا - ولا تنزله علينا - والمراد صرفه عن الأبنية (٢)

وقد تكلمت قريش عن المسلمين في عمرة القضاء بان حمى يثرب قد أكلتهم ، باعتبار ان هذه

الحمى معروفة للناس تماما . فأمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يكشف المسلمون سواعدهم

اليمنى وهم يظفون حول الكعبة وهذه السواعد هي العقابلة لقريش حتى يروا مبلغ قوتهم

وعزيمتهم ، وان حمى يثرب قد زالت وبارك الله فيها

وجو يثرب على العموم خير من جو مكة فهو أظف وأمن ، ولم يعان أهلها ما عانى أهل مكة

من قحط في الماء ومن شدة في الحصول عليه ، حتى بعد حفر بئر (زمن) فالعلاء متوفر

بعض الشيء في المدينة وهو غير بعيد عن سطح الأرض ، ومن الممكن الحصول عليه بسهولة

بحفر آبار في البيوت ولهذا صار في إمدان أهلها زرع النخيل وإنشاء البساتين والحدائق

والتفسيح فيها ، والخرنوب إلى أطراف المدينة للنزهة ، فآثر ذلك في طباع أهلها فجعلهم

الين عريكة وأشن صدرًا من أهل البيت الحرام (٣)

(١) تاريخ العرب - سيد عبد العزيز ص ٣٣٠

(٢) الصدر السابق ص ٣٣٧ عن كتاب الارشاد السارى لشيخ صحيح البخارى - القسطلاني

وهذا دليل على أن المياه الجوفية متوفرة في يثرب بكثرة ، وذلك من عدد الآبار والينابيع الكثيرة في المدينة والتي ورد ذكرها ، وكذلك الأسياح والأودية التي تعبر فيها وبها ، تحمل المياه والسيول عند هطول الأمطار على جبال سارة الحجاز ، ولذلك اعتبرت من المناطق الزراعية الهامة التي حصل عليها نزاع كبير في الجاهلية .

ويثرب مثل مكة من شعاب تسكنها بطون الأوس والخزرج ، الأوس في شعاب والخزرج في شعاب ، واليهود في شعاب ، وفي الشعاب حوائط (بسايتين صغيرة) وفي الحوائط (آبار) يستقون منها للشرب وللسقي وللنسل ، كما كانت فيها دور مبنية بالآجر ، ودور مبنية باللبن ، وبعضها ذو طابقين ، وقد احتقر اليهود آبارا كانوا يبيعون الماء منها بدلا مثل بئر رومة .

ويثرب على شاذلة مكة بغير سرور ولا حائط يحيط بها ، ولا خندق يقف حائلا أمام من يريد بالمدينة سرورا ، وقد كان عماد دفاع أهلها التحصن في بيوتهم وسد منافذ الطرق في أثناء الخطر ، والأغنياء والمرسرون يعتمدون على آطامهم وحصونهم وقصورهم ، يلجئون إليها عند الندة ومن معهم من أتباعهم يرمون أعداءهم من فوق السطح بالسهم وبالجمرة ، إذ لا حائط يحيط بها على نحو ما كان لمدينة الطائف . وقد تحارب الأوس والخزرج على الآطام ، وأرخوبتلك الحرب ، وصاروا يورخون به (عام الآطام) وذكر أن أهل المدينة من الأوس والخزرج كانوا يمتنعون بها ، فأخربت أيام عثمان رضي الله عنه (١)

ويظهر من وصف أهل الأخبار ليثرب أنها كانت بشبه مدينة (الحيرة) بالعراق من حيث خلوها من سرور ، ومن تكونها من (قصور) وهي بيوت السادة ومعاقل المدينة ومواضع دفاعها آنا الشدة وأوقات الحرب .

وقد عرفت بـ (أطم) و (آطام) عند أهل يثرب . وذكر أن (الأطم) كان حصن بني بجارة ، أو كل بيت مربع مسطح . وورد أن (الآطوام) : القصور والحصون لأهل المدينة والأبنية المرتفعة كالحصون (٢)

وقد كان يهود الحجاز الساكنون في شمال المدينة قد حصنوا قراهم بأطام يلجأون

(١) الاغانى - الاصبهاني ١٤ / ١

(٢) تاج العروس ١٨٧ / ٨ (أطم) . اللسان ١٩ / ١٢ (حاشية من جواد علي ٤ / ١٣٢)

إليها ، ويجتمعون بها أيام الخطر ، وقد عرفت هذه الحصون عند هم (بآطام) وواحد ها
(أطم) ، وأما القرية فهي (قرية) في العبرانية وتسمى بـ "قريثا" (KERITHA)
في لغة بني ارم

ويقال للحصن (الأجم) والجمع (آجام) وقد ورد ذكر الاجم في شعراهم القيس
وتيماء لم يترك بها جذع نخلة ولا أجما إلا مشيداً بـ بِجَنَدَلٍ
ويقال للحصن (الأطم) كذلك والجمع (آطام) . ولاتزال آثار آطام الجاهلية باقية في
الحجاز ونجد ، وفي مواضع أخرى من جزيرة العرب وفي وادي (الحفر) بنجد ويعرف
(بحضيرني حسين) آثار قصور وآطام جاهلية وآبار كثيرة .

وذكر بعض علماء اللغة أن (الآطام) القصور والحصون ، وخصصها بعض آخر بالدور
المسطحة السقوف وقد اشتهر (الأبلق) وهو حصن (السموأل بن عادي) في التاريخ ،
وهو في تيماء ، وورد اسمه في شعر للأعشى مدح به سموأل .
وكانت الأوس والخزرج تتنعم بالآطام وتحارب عليها ، وقد أرخت بحرب وقعت فيما بينهم
بها فقالوا (عام الآطام) وقد اخرجت في أيام عثمان رضي الله عنه .

ويقال للأطم (الأجم) أيضا

فكانت الآطام هي وسائل الدفاع عند أهل يثرب إذ لم يكن حولها سور يحميها من غزو
الأعداء ، فكانوا إذا حوصروا ، أو وقع عليهم غزوا لجأوا إلى آطامهم يتحصنون بها ،
ويقدفون من أعاليها بما عندهم من وسائل دفاع لمنع العدو ومن الدنومهم ولحقاق
الأذى به . وهي جملة آطام تملكها البيوتات العريقة ، وسادات النعاب المكونة
ليثرب ، والقائمة على أساس التقسيم العشائري .

والآطام : بيوت السادات رؤساء القوم ، يلجأ إليها الناس للدفاع عن أنفسهم ومنها
وقت الخطر ، ويظهر من شعر (أوس بن صفراء)

بَتَّ الْجُنُودَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ يَقْتُلُهُمْ مَا بَيْنَ بَصْرَى إِلَى آطَامِ نَجْرَانَ
أن نجران كانت ذات آطام كذلك (١)

والمدينة عند وادي (أضم) يقال للقسم الذي هو عند المدينة منه (القناة) والذي هو
أعلى منها عند السد ، (الشلطة) ، أما ما كان أسفل ذلك فيسمى (آخرا) إلى البحر

وذكر أن اضم عبارة عن واد ينشق الحجاز حتى يفرغ في البحر ، وأعلى اضم القناة التي
تعد بين المدينة (۱)

وأن المدينة هي ما بين طرف قناة إلى طرف الجرف ، وما بين الماء الذي يقال له (البوا)
إلى (زبالة) (۲)
يتبع المدينة قُباة

قُباة بضم القاف وفتح الباء المرحدة وألف في الآخر ، وروى بالمد والقصر ، والمد أشهر
قال في (الروض المعطار) ومن العرب من يذكره فيصرفه ، ومنهم من يؤنثه فلا يصرفه
قال : وسميت قباة ببئر كانت بدا الوءة بن الحسن بن السائب بن أبي لبابة يقال
لها (قباة)

وهي قرية غرب المدينة على ميلين منها ، وبها مسجد التقوى الذي أخبر الله تعالى عنه
بقوله : (لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ) (۳)
وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأتي قباة كل يوم سبت راكباً أو ماشياً
ومصلاه بها مشهور (۴)

ويتبع المدينة أيضاً - عدا قباة - قربان والحوالي ، وكلها جنوب المدينة وتعتبر من
ضواحيها ، وفي شمالها العميون والبركة عند مسجد حمزة ، وهي من الضواحي ، والحفاكية
ثم خيبر وهما بعيدان عن المدينة في شمالها الشرقي . وكانت خيبر في صدر الإسلام
دار لبني قريظة ، وبني النضير (من يهود) (۵) . وبها كان السموأل بن عادي الشاعر
المشهور ، وهي بلدة عامرة أهلة ذات نخيل وحدائق ومياه تجرى .
وعلى مقربة من خيبر (فدك) ، التي صالح أهلها النبي صلى الله عليه وسلم على النصف
من ثمارها سنة أربع من الهجرة ، ولم يرجف المسلمون عليها بخيل ولإركاب ، فكانت
له صلى الله عليه وسلم خالصة ينفق منها في المصالح العامة . وكان معاوية قد وهبها
لعروان بن الحكم ، ثم ارتجعها منه لمرجدة وجدها عليه ، فلما ولي عمر بن عبد العزيز
الخلافة ردها الى ما كانت عليه زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكانت تغل في أيام
إمرته عشرة آلاف دينار ، وكان يتجاني عنها .

وتتبع المدينة (الفقرة) وهي قرية على جبل عال منيع ، وبينها وبين المدينة مسيرة

(۱) تاج الحروس ۱/ ۸ ، ۱۸۲ ، اضم حاشية جواد علي - تاريخ ۴ / ۱۳۲

(۲) الاعلاق - ابن رسته ۶۳ جواد علي - تاريخ ۴ / ۱۳۲

(۳) سورة براءة آية ۱۰۸

(۴) صبح الاعشى - للقلقشندي ۵ / ۲۸۴ (۵) () زيادة عن الاصل

٢٤ ساعة ، ومياهما ومزارعها في الجبل ، ولا يعرف مسالكهما إلا سكانها ، حيث يسكنها الأحامدة الآن اقوى القبائل وأعتها .
و ينبع البحر .
ثم (الحمراء) و (الصفراء) و (ينبع الفخل) الحمراء على مسافة ٣٣ ساعة ونصف من المدينة ومسيرة ٢٥ ساعة من ينبع البحر وبها كثير من النخيل .
والصفراء على مسيرة ١٢ كم من مدينة ينبع البحر وتشتهر بـ (الخيف) جمع (أخيفاف) و (خيفا) ، وهو ما انحدر من غلظ الجبل وارتفع عن مسيل الماء (١)
(ودان) بفتح الواو وتشديد الدال المفتوحة ثم ألف وون ، وهو وادى قري خراب لا تحصى كثرة .

و (الفرع) بضم الفاء وسكون الواو والمهمله ، وبالعين المهمله ، وهو وادى في جنوبي المدينة على أربعة أيام منها يشتمل على عدة قرى أهلة . أخبرني بعض أهل الحجاز أن به أربعة عشر نهراً على كل نهر قرية ، وماؤها يصب في رابح حيث يحرم حجاج مصر ، وعليها طريق المشاة من مكة إلى المدينة . قال في (الروض المعطار) ويقال إنها أول قرية مارت اسماعيل عليه السلام التمر . وهي الآن بيد بني حرب (٢)
و (الجار) قال في اللباب بفتح الجيم ، وألف راء مهمله - وهي قرعة المدينة الشريفة على ثلاثة مراحل منها . قال ابن حوقل وبينها وبين ساحل الجحفة نحو ثلاث مراحل ، منه عن أيّله نحو عشرين مرحلة .

" وادى القري " بضم القاف وفتح الراء المهمله وألف في الآخر : جمع قرية - قال في (الروض المعطار) وهي مدينة كثيرة النخيل والبساتين والعيون ، وبها ناس من ولد جعفر بن ابي طالب رضي الله عنه وهم الخالون عليها (٢) . وتعرف " بالواديين " والذي أخبرني به بعض أهل الحجاز أنه كان بها عيون كثيرة عليها عدة قرى ، فخرت لاختلاف العرب ، وهي الآن خراب لا عامر بها (٢) ، ولو عمرت أغنت أهل الحجاز عن الميرة غيرها . قلت : والخال الادريسي في (نزهة المشتاق) فعد من مخاليفها تيماء ودومة الجندل ومدين والتحقيق خلاف ذلك (٣)

المقدسة : لم يشر أهل الأخبار إلى وجود حرم أو بيت بيثرب كان يتعبد فيه اليثريون ، ويتقربون إليه بالنذور ، مع أنهم أشاروا إلى بيت اللات في الطائف وشرب مثل الطائف .

(١) مرآة الحرمين - ابراهيم رفعت ١ / ٤٤٦

(٢) زمن المؤلف

(٣) صبح الأعشى - القلقشندي ٥ / ٢٨٦ - ٢٨٨

ومثل مدن أخرى ذات محجات ومعابد ، وقد كان أهل يثرب مثل غيرهم من المشركين يتقربون إلى الأصنام . وكانوا يحفظون أصنامهم في بيوتهم يتقربون إليها . كما كانوا يحجون إلى محجات كانت على مسافة من يثرب ، ولذلك يبذرون غريبا سكوت أهل الأخبار عن ذكر بيت في هذه المدينة يحج إليه الأوس والخزرج ومن والاهم من قبائل وعشائر (١) هذه بعض الأخبار المتعلقة بمدينة يثرب ، وعلى الرغم من تشابه الكثير من هذه الأخبار فإن بعضها ضروري لدراسة سكان المدينة بعد ذلك ، وضروري أيضا للتفصيل في حياتهم ومعاشهم وحروبهم . وما يزال الكثير غير معروف من هذه المدينة ، حتى يقال أن يثرب عند قيام بعض الحفريات فيها حديثا وجد أنها مدينة مبنية على مدينة أقدم منها لم يكشف النقاب عنها بعد . وهذا ما جعل أكبر مؤرخي العصر الجاهلي يقول : وتاريخ المدينة مثل سائر تواريخ هذه الأماكن التي نتحدث عنها (مناطق الجزيرة العربية - مكة - الطائف ،) مجهول لا يعرف من أمره شيئا يذكر ، وإنما يذكره الأخباريون عن وجود العماليق وجرهم بها فأمر - وإن قالوه - لا يستند إلى دليل ، وحكمه حكم الأخبار الأخرى التي يروونها ، والتي عرفنا نوع أكثرها وطبيعته . ولكن الشيء الذي نعرفه يقينا أن أهل المدينة كانوا ينتسبون عند ظهور الإسلام إلى يمن ، وكانوا يقسمون أنفسهم فرقتين الأوس والخزرج ، وبين الفرقتين صلة قرى على كل حال ، ثم يذكرون أنه كان بينهم يهود ، وهم على زعمهم من قداما سكان يثرب (٢) ويضيف بعض الباحثين الآخرين تأكيدا على هذا الرأي والفتائل بعدم وجود أسانيد قوية لتاريخ يثرب القديمة فيقول :

ومن أسف أن تاريخ يثرب القديم مجهول ، فلا توجد مدونات يمكن الرجوع إليها ، ولم تقم بها حفريات علمية يمكن أن تقدم لنا معلومات ذات قيمة في تاريخ المدينة المقدسة القديم ، وإن كانت هناك حفريات قد أجريت دون أن يقصد بها ذلك الهدف العلمي - كالتي حدثت في الأعوام ١٣٢٣ هـ ، ١٣٢٥ هـ ، ١٣٥٢ هـ في أحد البساتين ، وأبان حفراً أساس القسم الشمالي لمدرسة السلم الشرعية الواقعة بقرب باب النساء ، وفي المناخية جنوب السيل ، إلا أنها قد كشفت عن بعض أشياء قد تشير إلى أن المدينة

(١) جواد علي - تاريخ ٤ / ١٣٠

(٢) المصدر السابق ٤ / ١٣٣

الحالية ، إنما قامت على أنقاض مدينة أخرى - الأمر الذي أشار إليه (السمهودي) منذ القرن التاسع الهجري ، ومن ثم فإن معلوماتنا الحالية إنما تعتمد في الدرجة الأولى على روايات الأخباريين (١)

المدينة : وأما المدينة الشريفة فهي " دار الهجرة " و " ذات الرضة والحجرة " وثبت انه صلى الله عليه وسلم قال : **إِنَّ الْإِيمَانَ لِيَأْرُزُ - أَيْ يَنْظُمُ بِتَقْدِيرِ الرَّأْيِ عَلَى الرَّأْيِ - إِلَى الْمَدِينَةِ كَمَا تَأْرُزُ الْحَيَّةُ إِلَى حَجْرِهَا -** متفق عليه -

وانه صلى الله عليه وسلم قال : **" الْمَدِينَةُ حَرَمٌ مِنْ كَذَا إِلَى كَذَا " .** ولمسلم ، من غير إلى ثور لا يقطع شجرها ، ولا يحدث فيها حدث ، من أحدث فيها حدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين "

و " ثور " جبل صغير خلف أحد من جهة الشمال (٢) ولأحمد ما بين غير إلى احد (وغير مقابل لأحد)

فضائل المدينة الشريفة : وأنه صلى الله عليه وسلم قال : **الْمَدِينَةُ تَنْفِي (خَبَثَ لَوْ خَبَثَ) النَّاسِ كَمَا تَنْفِي النَّارُ خَبَثَ الْحَدِيدِ -** متفق عليه -
وأنه قال صلى الله عليه وسلم : **على أنقَابِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَلَائِكَةٌ لَا يَدْخُلُهَا الطَّاعُونَ وَلَا الدَّجَالُ -** متفق عليه -

(١) دراسات في تاريخ العرب - مهرا ن س ٤٣٦

(٢) إن تعريف ابن الربيع النسيباني " جبل ثور " على هذا النحو يتفق مع الحقيقة الواقعية وهو ما يتفق مع قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في تحديد حرم المدينة في الحديث الذي أورده الامام مسلم في صحيحه : **المدينة حرم ما بين غير وثور .** ولقد توهم ابو عبيد البكري م ٤٨٧ هـ في كتابه (معجم ما استعجم) وابن الاثير الجزري م ٦٠٦ هـ في كتابه " النهاية في غريب الحديث " وياقوت الحموي م ٦٢٦ هـ في كتابه " معجم البلدان " بنكوان وجود جبل بهذا الاسم في المدينة ، وتأكيده وجوده في مكة . وهو الجبل الذي يحتوى على غار ثور الذي أوى إليه الرسول صلى الله عليه وسلم في طريق هجرته إلى المدينة (فتح البلدان - البلاذري س ٢٢ - ٢٣) . والحقيقة التي لا لبس فيها ان في حدود حرم مكة جبلا بهذا الاسم وفي حدود حرم المدينة جبل بالتسمية ذاتها ، ولذلك لا لزوم لكل التأويلات التي أخذ بعضهم في شرح هذا الحديث . ولقد أولى المرحوم محمد فواد عبد الباقي هذا الموضوع كل العناية في البحث لدفع هذا الخطأ ، وجاءت بشى الأدلة والأقوال التي تزيل الارتباب وتثبت الحقيقة معتمدا على ما أورده القدامى في هذا الموضوع وما أخذ به المحدثون وأظهروه في دراساتهم

الطوبوغرافية لحرمي مكة والمدينة مما يصح الرجوع اليه - صحيح مسلم ١/٢ - ١١٥ - ١١٨ =

وانه صلى الله عليه وسلم قال : صلاة في مسجدى هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام - متفق عليه -

وانه صاب الله عليه وسلم قال : ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة ومنبري على حوضي - متفق عليه -

ولاخلاف بين العلماء في أن هذين البلدين " مكة " و " المدينة " أفضل بلاد الله على الإطلاق ، وإن اختلفا في أيهما أفضل ، فالجمهور على تفضيل مكة على المدينة إلا موضع قبره الشريف ، فأجمعوا أنه أفضل تربة في الأرض لما ورد أن كلا يدفن في تربته التي خلق منها .

وهو صلى الله عليه وسلم أفضل الخلق ، فتربته أفضل تربة في الأرض

وأفضل موضع في مكة ، الكعبة ، ثم المسجد ، ثم دار خديجة رضي الله عنها لأنه أقام فيها نحو ثمانية وعشرين عاما .

وما أحسن قول القاضي عياض - رحمه الله - في وصف تلك الرياض - أعني مكة والمدينة " وجد ير بموطن عُمَرَت بالوحي والتنزيل ، وتردد في عرصاتها (عرصة) ، وهو كل موضع واسع لا بناء فيه " جبريل ، وعرجت (عني - سعد) منها العلائكة والروح وضجت فيها (ضج ، ارتفع الصوت) بالتفهيم والتسبيح ، أن تعظم عرصاتها ، وتتسهم (تتسم : طلب النسيم واستنشقه) نفحاتها ، وتقبل ربوعها وجدانها مدارس الآيات ومشاهد الفضل والخيرات ، ومعاهد البراهين والمعجزات ، ومناسك (منسك : متعبد) الدين ، ومواقف سيد المرسلين ، حيث انفجرت النبوة والرسالة وفاض عباؤها (العباب - كغراب - معظم السيل وارتفاعه وكثرته أو موجه - وأول الشئ) ، وأول أرض من جلد المصطفى صلى الله عليه وسلم ترابها (١)

وعن ابي هريرة رضي الله عنه يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أمرت بقريّة تأكل القرى • يقولون يثرب • وهي المدينة تنفي الناس كما ينفي الكير خبث الحديد (٢) قال يونس : قال لنا ابن وهب : قلت لمالك : ما تأكل القرى ؟ فقال : تفتح القرى (فتحت مكة بالمدينة وما حول المدينة بها لأنها تأكل القرى أكلا إنما تفتح القرى بالمدينة •

= حاشية (٤)

(١) حدائق الانوار - النسيباني قسم ١ / ٨٦ - ٩٠

(٢) متفق عليه - البخارى ٢ / ٢٦ ومسلم ٢ / ٤٨٨

وقال الغزالي : (١) فمن قصد زيارة المدينة فليصل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في طريقه كثيرا ، فإذا وقع بصره على حيطان المدينة وأشجارها قال : اللهم هذا حرم رسولك فاجعله لي وقايةً من النار ، وأماناً من العذاب ، وسوء الحساب . وليغتسل قبل الدخول من بئر الحرة ، وليتطيب وليلبس انظف ثيابه ، فإذا دخلها فليدخلها متواضعا معظما وليقل :

بسم الله وعلى ملة رسول الله صلى الله عليه وسلم ^{يُوقَلُ} رَبِّ اَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقِي ، وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقِي ، وَأَجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا " صدق الله العظيم " (٢) الخ

(١) احياء علوم الدين - الغزالي ١ / ٢٥٨ - ٢٥٩

(٢) سورة الاسراء آية (٨٠)

سرد تاريخي للحياة في يثرب

"السكان"

أشارت الدراسات والاكتشافات في يثرب على ان هذه المدينة ربما تكون مبنية على أنقاض مدينة غيرها ، وهذا يدل دلالة واضحة على قدم وجود الناس في هذه المنطقة منذ عصور مفرقة في القدم .

والروايات التي بين أيدينا تشير إلى أن الذين تعاقبوا على هذه المدينة العرب من العماليق ، فاليهود ، فالعرب من اليمن ، ثم المسلمون ، حيث خلصت منذ فجر الإسلام لتصبح عاصمة الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين رضوان الله عليهم .

١ - السكان القداماء " العماليق "

كان أول من نزل بيثرب هم العماليق ، فأقامت فيها قبائل منهم - بنو هف ، وسعد بن هفان ، وبنو مطرويل (١) ثم سكنها بعد هم اليهود ، وبعد السيل العرم ، وانهم يسكنون سد مأرب قدمت إلى يثرب قبائل الأوس والخزرج فانتشرت في جنوبها وشمالها في جبل أحد (٢)

يرى بعض الباحثين ان كلمة يثرب محرقة عن الكلمة المصرية اتريس " وعلى هذا الأساس يرجحون أن الذين بنوها إنما هم العماليق بعد خروجهم من مصر ، وان كلمة " رطيبية " أحد أسماء المدينة " بكسر الطاء " كانت مستعملة قبل الإسلام مأخوذة عن المصرية ، وعليه أيضا فعمران المدينة يبتدىء من سنة ١٦٠٠ ق م

ولكن هذا الرأي لا يبدد ومقبولا تجاه الآراء الأخرى التي تدل على أن يثرب كانت موجودة قبل موسى عليه السلام عند الحديث عن نزول اليهود فيها

نقل ياقوت الحموي - معجم البلدان ٤٣/٥ - وعمدة الأخبار للعباسي ص ٣٣ عن أبي القاسم الزجاجي ان من أسماء المدينة " يثرب " وقال : إنها سميت بذلك لأن أول من سكنها هو " يثرب بن قانية بن مهلائيل بن ارم بن عوبيل بن عوس بن ارم بن سام بن نوح عليه السلام " (٣)

فالذي يرحي مما سبق ان أول من نزل يثرب هو " يثرب " وهو من بني عوبيل إخوة

(١) تاريخ العرب - الجميلي ص ١٨٨

(٢) تاريخ العرب قبل الاسلام - زيدان ص ٢٨٠-٢٨١ تاريخ العرب السيد عبد العزيز

ص ٣٣٩

(٣) المدينة - الخطراي ص ٢١ - ٢٢

عاد من العرب البائدة - كما سكنها بعد هم أيضا العماليق وهم " بنو عملاق " بن أرفخشذ بن سام بن نوح ، ومنهم بنو هفان ، وبنو مظرريل ، وكان لهم ملك عظيم يدعى الأرقم بن أبي الأرقم الذي عرف بالقوة وشدة البطش والسلطان .

ويرى بعض الباحثين ^(١) أن كلمة عماليق مؤلفة من مقطعين هما (عم) بمعنى شعب أو أمة باللسان العبراني ، و (ماليق) وهو اسم قبيلة عربية كانت مواطنها الأولى بجبهات العقبة وشمالها ، وعلى وجه الخصوص ، ورد اسمها في كتابات البابليين . ونطق العرب بذلك الاسم بطريقتين ، عماليق وعمالقة .

وقد كان العمالقة قوما طوال الأجسام ، طوال الأعمار ، ويبلغ عمر الواحد منهم مئات السنين وهو أمر لا يؤمن به أولئك الذين يفصلون بين التاريخ والنبوات ، ولا يستطيعون أن يتصوروا إنسانا يعين مثل هذا العمر ، أو حتى قريبا منه مهما كانت الظروف والأحوال ، أما أنا كما يقول المؤلف - فإنه لاشيء يمنعني من تصديقه بعد أن أقرأ قوله تعالى عن نوح عليه السلام وقومه " فَلَيْتَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا أَخْسِينَ عَامًا " . (٢) . وأقول كذب المؤرخون والباحثون ، وصدق الله ورسوله . ولا يمنعني بعد ذلك ما عسى أن يصفني به بعضهم

من الغفلة والمصارعة إلى التصديق ^(٣)

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام - زيدان ص ٥

(٢) سورة العنكبوت آية (١٤)

(٣) المدينة - الخطاري ص ٢٦

لأعلم ما الذي جعل الكاتب يتخذ هذا الموقف من تكذيب الباحثين والمؤرخين وقرنها بصدق الله ورسوله . نعم صدق الله ورسوله ، وكذب الأفاكون والمتأولون والدجالون . ان الباحثين المنصفين لا يعترضون إطلاقا على ان تلك الأقوام قد عاشت أعواما وسنين طويلة لا يعلمها إلا الله تعالى ، كما لا ينكرون من تسمى بالعماليق بأنهم كانوا طوال الأجسام ، طوال الأعمار والباحثون المنصفون يرفضون تلك المبالغات الغير معقولة أصلا منها مثلا : ان الأعلى بن عناق وقد عاصر سيدنا نوح عليه السلام كان يقف في البحر الذي يخمره إلى ركبتيه فقط ، ويخرج الحيتان من البحر ويشويها في الشمس وأكلها . ومثل هذه المبالغات كثيرة في التوراة خاصة عندما تتحدث عن العماليق ، ويصرون بني إسرائيل بأجساد عادية تمكنهم رغم قصر قامتها وأعمارها من القضاء على هؤلاء العماليق البار كبار الأجسام طوال الأعمار وكان الأولى للمؤلف الذي قدم للمكتبة العربية بحثا طريفاً عن المدينة أن يتحرى الحقيقة حتى يكون لكلامه الوقع الحسن في نفوس القراء . . . وقد أورد نفس الخاطرة أعلاه في كتابه شعر الحرب في

الجاهلية عند الأوس والخزرج ص ٢٢

إذ نرى ان بني عبيل أول من سكن المدينة وسميت * يثرب * باسم بانيتها الأول الذى ينتسب إلى قوم باد وبعذاب الله تعالى ، وحل محل بني عبيل العماليق ، فقصدوا أرض الجحفة — ناحية ربيع اليوم — فجاءهم سيل أجحفهم فيه فمضى لهذا سميت جحفة وراثهم رجل منهم فقال :

عَيْنُ جُودِي عَلَى عِبِيلٍ وَهَلْ يَرْجِعُ مَنْ نَاتَ بِبَيْتِهَا بِالسُّخَامِ
عَمَّرُوا يَثْرِبًا وَلَيْسَ بِهَا سُفْرٌ وَلَا صَارِخٌ ذُو سِنَامِ
عَرَسُوا لَيْتَهَا يَمَجْرَى مَعْيِينِ نَمَّ حَفَرُوا النَّخِيلَ بِالْأَجَامِ (١)

ويرى العياشي في كتابه المدينة بين الماضي والحاضر من (٢١) أن العماليق كانوا أسبق إلى المدينة من بني عبيل ، وعليهم نزل اليهود ، وكذا يرى ياقوت الحموى ، وأنهم أول من زرع بالمدينة واتخذ بها النخل ، وعمر بها الدور والآطام واتخذ بها الضياع .

وكان العماليق فيما يبدو وطبقتين ، طبقة سابقة هي التى عناها العياشي ، وفيها الملوك الطغاة الذين منهم الأرقم بن أبي الأرقم ، وطبقة لاحقة لها صلة بنسب الأولى ، ومنهم قبيلتنا صعل وفالج وهي التى أجملت بني عبيل عن المدينة .

ويمكن بهذا نظرياً الجمع بين الروايات المختلفة في هذا الباب ، وإن كان الأمر من وجهة النظر العلمية لا يزال محتاجاً إلى التدعيم بالوثائق ، والإثبات بالأدلة المقنعة .

إن التوسع في ذكر أول من سكن يثرب يساعد كثيراً على تفسير بعض الظواهر التى قد تعترضنا عند تناولنا لأساسيات البحث ، إذ أنه على افتراض انقراض العماليق ، وبني عبيل مثلاً وانتهائهم من المدينة بالكلية ، فليس من المعقول أن تبقى آثار وجودهم بسهولة ، بل العكس هو المعقول تماماً ، فلا بد من بقا بعض بسمات حياتهم وعيشهم فوق هذه الأرض ،

حملها من خلفهم من اليهود أو من الأوس والخزرج (٢)

(عبيل) : وعبيل مثل أميم لانعرف من أمرهم فيرنتف ذكرها الأخباريون الذين زعموا انهم إخوان عاد بن عرس ، أو إخوان عرس بن ارم ، وانهم لحقوا بموضع اسمه (يثرب) حيث اختطوا يثرب ، وكان الذى اختطها منهم رجل يقال له * يثرب بن باثلة ، بن مهلهل بن عبيل .

(١) السخام : اللين من كل شي ، أو الأسود . سفر : احد . لينها : نخلها

ولعل المقصود بالآجام : الآطام ويروى السحام ، وهو شجر

(٢) المدينة — الخطراي من ٢٦ — ٢٧ بتصرف

وقد ورد في التوراة إسم ولد من أولاد (يقطان) هو (OBAL) (عوبال) أو (EBAL) (١) وهذا الاسم قريب من عبيل ولذلك رأى بعض علماء التوراة ان ممن الممكن أن يكون (عبيل) هو (عوبال)

ونجد في جغرافية بطليموس اسم موضع يقال له (AVALITAE) على خليج يدعى بهذا الاسم (AVALITES SINUS) وعليه مدينة تسمى

(AVALITES EMPORIUM) وسكانها يعرفون باسم (AVALITES)

وقد ورد هذا الاسم عند (بلينيوس) على صورة (ABALITAE) و (ABLATIES) • يرى (فوستر) انه من المحتمل ان يكون هؤلاء هم (عوبال)

وقد يكون أبناء عوبال هم عبيل •

وذكر أن في اليمن مكانا يقال له عبيل ، قرية تقع على طريق صنعاء تعرف بـ (عبال) وهذان الاسمان قريبان من اسم عبيل (٢)

أما بالنسبة للعالمين الذين أخرجوا عبيل من يثرب فيقول الأخباريون : (عمليق) جد العمالقة هو شقيق (طسم) ، ويذكرون أنهم كانوا أمما كثيرة تفرقت في البلاد ، فكان منهم أهل عمان ، أهل الحجاز ، وأهل الشام ، وأهل مصر وحرف أهل عمان والبحرين باسم جاسم ، وجاسم هو من نسل عمليق على زعم أهل الأخبار •

وكان من العمالقة أهل المدينة ومنهم (بنوهف) و (سعد بن هزان) و (بنو مطر)

و (بنو الأزرق) وكذلك سكان نجد ومنهم بديل وراجل وغفار وكذلك أهل تيماء •

وكان ملكهم (الأرقم) وهو من العمالقة ، وهو من معاصري موسى عليه السلام على رواية الهمداني ، وقد أرسل موسى عليه السلام جندا لعاقبته فقتل با تباعه أهل تيماء وبقيت عمالقة الحجاز •

ويذكر بعض أهل الأخبار أن (العمالقة) لحقت بصنعاء قبل أن تسمى صنعاء ، ثم انحدر

(١) الكتاب المقدس الاصلح الاول ٢٢ ، التكوين ، الاصلح العاشر ٢٨

(٢) جواد علي - تاريخ ١ / ٢٤٤

بعضهم إلى يثرب فأخرجوا منها (عبيلا) ، وسكوا ديارهم ، وذهبت عبيل إلى موضع الجحفة فأقيل السيل فأجحفهم فذهب بهم فسميت (الجحفة) .
وذكروا أن موسى أرسل جيشا لحرب عماليق يثرب^(١) ولم نجد في التوراة ذكر لمثل هذا الجيش أو الحرب .

والعمالقة الذين نتحدث عنهم عرب صرحا من أقدم العرب زمانا لسانهم اللسان الضري الذي هو لسان كل العرب البائدة على حد قول أهل الأخبار ، بل زعم بعضهم أن عمليقا هو أبو العمالقة أول من تكلم بالعربية حين ظعنوا من بابل ، فكان يقال لهم ولجرهم "العرب العارية"^(٢) .

ويظهر من فحص هذا العروى في كتب الأخباريين عن العمالقة ونقده أنه مأخوذ من منابع يهودية ، فقد ذكر العمالقة في التوراة ، وقد نانو أول شعب صدم العبرانيين حينما خرجوا من مصر متجهين إلى فلسطين ، وظلوا يحاربونهم ، ويكبدونهم خسائر فادحة وأوقعوا الرعب في نفوسهم ، ولهذا نار الحقد بينهم على العماليق ، ويتجلى هذا الحقد في الآيات التي قالها النبي صاموئيل لساوول أول ملك ظهر على العبرانيين قالها له باسم "إسرائيل" إياي أرسل الرب لمسحك ملكا على شعبه إسرائيل ، وآلآن فاسمع صوت كلام الرب . هكذا يقول رب الجنود ، اني افتقدت ما عمل عمليق بإسرائيل حين وقف له في الطريق عند صعوده من مصر ، فالآن اذهب واضرب عماليق وحرما كل ماله ، ولا تعف عنهم ، بل اقتل رجلا وامرأة ، طفلا ورضيحا ، بقرا وغنما ، جملا وحمرا .

وهذا الحقد هو الذي جعلهم يخرجونهم من قائمة النسب التي تربطهم بالساميين . وقد كانت منازل العماليق (العمالقة) من حدود مصر فطور سيناء فلسطين . وعدم ذكر العبرانيين لهم في جملة قبائل العرب ، لا يدل على أنهم لم يكونوا عربا ، فقد ذكرت ان العبرانيين لم يطلقوا لفظة (عرب) إلا على الأعراب أهل البادية ولاسيما بادية الشام ثم ان العمالقة من أقدم الشعوب التي اصطدم بها العبرانيون وحملوا حقداً عليها . وهم عند هم وفي نظرهم أقدم من القحطانيين والإسماعيليين .^(٣)

(١) الطبرى - تاريخ ٢٠ / ١

(٢) جواد علي - تاريخ ٣٤٦ / ١

(٣) المصدر السابق ٣٤٦ / ١ - ٣٤٧

ويقال : إن العمالقة أول من سكنوا المدينة أو يثرب ، وظلوا بها حتى نزلها اليهود في القرن الثاني الميلادي على اثر الإضطهاد الروماني لهم (١) وقد زعم أهل الأخبار أن العمالقة كانوا أصحاب عز وبنى شديد ، وكانوا ينزلون الحجاز في جملة ما نزلوا من أماكن في أيام موسى ، وكان منهم بنو هف ، وبنو سعد وبنو الأزرق ، وبنو مطروق ، وملكهم إن ذاك رجل منهم اسمه (الأرقم) ومثلما تغلب عليهم العبرانيون انتزعوا منهم مساكنهم وأقاموا في مواطنهم في الحجاز (٢) وقد أخذ أهل الأخبار مارووه عن دخول اليهود إلى يثرب في أيام موسى ، وما ذكروه عن إرساله جيشاً إلى هذه المنطقة ، ثم مارووه عن سكنهم القديم في أطراف المدينة وفي أعالي الحجاز من سفر (صموئيل الأول) من التوراة .
فزعوا أن تلك الحروب قد وقعت في هذه المنطقة وأن اليهود قد سكنوها لذلك منذ أيام موسى .

(١) تاريخ الادب العربي - ضيف ص ٥٣

(٢) الاغانى - الأصبهاني ١٩ / ٩٤ . ابن هشام - السيرة ١٢ / ٢

(٣) جواد علي - تاريخ ١٢ / ٦

٢ - اليهود :

عرف اليهود عند الجاهليين ، وورد ذكرهم في الشعر الجاهلي ، ولا بد من وقوف الجاهلية على أحوالهم لأنهم كانوا يسكنون في مواضع عديدة معروفة تقع ما بين فلسطين وشرق . كما سكنوا في اليمن وفي اليمامة ، وفي العروض ، وكان تجار منهم يقيمون في مكة وفي مواضع أخرى من جزيرة العرب للالتجار واقتراض المال برها فاحش للمحتاجين إليه ومعارفنا عن يهود جزيرة العرب مستمدة من الموارد الإسلامية ، والسبب في ورود خبرهم في هذه الموارد هو اصطدامهم بالإسلام ، ومقاومتهم له فيما دعاهم الرسول إلى الدخول فيه ، فنزل فيهم الوحي " واشير إليهم في الحديث " وذكروا في كتب التفسير والسير والتواريخ والأدب (١)

ومن هنا تجمعت معارفنا عن يهود الجاهلية ، ولهذا تجد الحديث عن يهود الجاهلية لا يرتقي كثيرا عن عصر النبوة ، ولا يبتعد عنه ، ولكني لا استبعد احتمال تغير الحال إذا ما عثر العقبون في المستقبل على كتابات جاهلية قد تكون مطمورة في الوقت الحاضر في باطن التربة يكون لها صلة بيهود جزيرة العرب ، أما إذا طعنا على مؤلفات ووثائق مكتوبة عبرانية أو غير عبرانية قد تكون مجهولة عن ذوى العلم في الوقت الحاضر تكون لها صلة وعلاقة بأمر يهود جزيرة العرب قبل الإسلام .

وقد وردت لفظة " يهود " في القرآن الكريم أى على هذا الشكل (اليهود) وردت في مواضع من سورة البقرة (الآية ١١٣ - ١٢٠) ، ومن سورة العائدة (الآيات ١٨ - ٥١) (٦٤ - ٨٢) ومن سورة التوبة (الآية ٣٠) وكلها سور مدنية ، ولم ترد في سورة من السور المكية ، كما وردت لفظة (يهوديا) في سورة آل عمران ، وردت في سنن ديانة (ابراهيم) (مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا) (٢) وهي من السور المدنية (١) جواد علي - تاريخ ٥١١/٦ - ٥١٢

لأعلم لماذا وقف المؤلف عند هذا السبب الوحيد لذكر اليهود في القرآن والتراث الإسلامي عامة وهو أن العداوة والحرب فقط والتي اعلنوها على الإسلام هي سبب ذكرهم ، مع أن المؤلف مؤرخ ومحقق عدل يشهد له الجميع لما في كتابه العنار إليه من قيمة ، ومعنى هذا الكلام أن الإسلام لو لم يصطدم باليهود لما ذكروا بهذا القدر في القرآن والحديث ، ونتمنا ل ٠٠ لماذا ذكر النصارى والصالحين وغيرهم مع أنهم لم يحاربوا الإسلام في أول نشأت على الأقل ٢٠٠ وكان هذا الحديث يشير إلى أن ذكر اليهود في المصادر الإسلامية ما هو إلا رد فعل فقط لهذا العدا ، وماذا يمكننا القول بالعدد الكبير من الآيات القرآنية التي نزلت ببني إسرائيل واليهود وموسى وهارون وهي كثيرة جداً ، لأنهم عادوا الإسلام فقط؟ قد يكون ما ورد سببا ولكنه ليس كل الأسباب ولا مجال للخوض في =

كذلك ، وعبر القرآن الكريم عن اليهود وعن مستتقي اليهودية بـ (الذين هادوا (البقرة ٦٢)
النساء (٤٦ - ١٦٠) ، العائدة (٤١ ، ٤٤ ، ٦٩) ، الأنعام (١٤٦) ، النحل (١٨٨)
الحج (١٧) الجمعة (٩) • ومن كان هودا (البقرة ١١١) وكونوا هودا (البقرة ١٣٥)
وكانوا هودا (البقرة ١٤٠) وسررتي الأنعام والنحل من السر المكية • وبناءً على ذلك
تكون جملة الذين هادوا قد نزلت قبل نزول لفظة اليهود في القرآن الكريم •
وقد عبر عن العبرانيين عامة ببني إسرائيل في القرآن الكريم ، عبر عنهم في سور مكية وفي سور
مدنية ويلاحظ أن ورود هذا التعبير في القرآن الكريم هو أكثر بكثير من ورود لفظة
اليهودية (١)

= تفاصيل أكثر لهذا الورد ؟

(٢) سورة آل عمران ٦٤

(١) جواد علي - تاريخ ٥١٢/٦

وردت كلمة بني إسرائيل في سورة البقرة (الآيات ٤٠ ، ٤٧ ، ٨٣ ، ١٢٢ ، ٢١١ ، ٢٤٦)
وفي (آل عمران ٤٩ ، ٩٣) ، وفي (العائدة ١٢ ، ٣٢ ، ٧٠ ، ٧٣ ، ٧٨ ، ١١٠) وفي
سورة الأعراف (الآيات ١٠٥ ، ١٣٤ ، ١٣٧ ، ١٣٨) وفي سورة يونس (الآيات ٩٠ ، ٩٣)
وفي سورة الإسراء (٢ ، ٤ ، ١٠١ ، ١٠٤) وفي سورة طه (الآيات ٤٧ ، ٨٠ ، ٩٤) وفي
سورة النعرا (١٧ ، ٢٢ ، ٥٩ ، ١٩٧) وفي سورة النمل ٧٦ ، وفي سورة السجدة ٢٣ •
وفي سورة غافر ٥٣ • وفي سورة الزخرف ٥٩ • وفي سورة الدخان ٣٠ • وفي سورة الجاثية
١٦ • وفي سورة الأحقاف ١٠ • وفي سورة الصف ٦ ، ١٤ •

المعجم المفهرس - القرآن الكريم ص ٢٣ أما كلمة عبري ، او عبرانيين فلم ترد في القرآن
الكريم ولكن وردت كلمة " تعبرون " بقوله تعالى : يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ
لِلزُّبَىٰ تَعْبُرُونَ " يوسف ٤٣ وتعني هنا " تعلمون " ولا علاقة لها بالعبرانيين من قريب
• أو بعيد •



أصالة الحضارة العربية : الدكتور ناجي معروف

ان التعابير الخاصة ببني اسرائيل كثيرة وارادها
العبرانيون : كلمة عبر باللحة تعني " مات " (١) على وزن نصر . وعبر النهر " اجتازه " .
والمعبر بوزن المبضع : ما يعبر عليه من قنطرة أو سفينة ، وقال أبو عبيد : هو المركب
الذي يعبر فيه ، ورجل (عابر) سبيل ، أى مار الطريق ، والعبرى بوزن المصرى " العبراني " .
وهي لغة اليهود . وتطلق على أتباع سيدنا إبراهيم عليه السلام ، وهم الذين عبر بهم
نهر الأردن إلى فلسطين ، وعرفت لختهم بالعبرانية وهي إحدى اللغات السامية ، وبقيت
هذه التسمية عالقة بهم إلى أن رحل يعقوب من بقية آل إبراهيم إلى مصر ، كما يقال أيضا
عن أتباع يعقوب وأبنائه " عبرانيون " لعبورهم صحرا سيناء إلى مصر .

اسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام ، وأبنائه الذين يعرفون أيضا
بالأسباط وهم : (روبيل ، شمعون ، لاوى ، يهوذا ، يساخر ، زابلون) من زوجته ليا
ومن جاريته بلهى (دان ، ونيفتالي) ، ومن الجارية الثانية زلفى (جاد ، وأشير)
(يوسف وأخيه بنيامين) من راحيل . وبذلك أصبح عدد هم اثني عشر ولدا عدا البنات
من زوجته ليا ، وراحيل ابنتي خاله ، ومن امتيها بلهى وزلفى (٢)

ومعروف أن بني إسرائيل قد انتقلوا إلى مصر من فلسطين على إثر تعرفهم على اخيهم
يوسف (٣) الذى أصبح عزيزا لمصر . وأقاموا فيها وتناثروا ، وذلك بحماية (العماليق
المهكسوس) الذين كانوا يحكمون مصر . وعندما تمكن المصريون من طرد المهكسوس ، وعاد
الحكم للفراعنة استعبدوا بني إسرائيل وأذلواهم ، إلى أن بعث الله تعالى كلمته موسى
وأخاه هارون (٤) إلى فرعون لتخليص بني إسرائيل ، وعرفت رسالة موسى عليه السلام
باليهودية (٥) مع أنه ليس من سبط يهوذا إبن يعقوب ونسبه عليه السلام هو : موسى
بن عمران بن فاهت بن عازر بن لاوي بن يعقوب (اسرائيل) بن إسحاق بن إبراهيم
عليهم السلام (٦)

(١) مختار الصحاح — الرازى ٤٠٨ — ٤٠٩

(٢) قصص الانبياء — ابن كثير ص ٢٠٥

(٣) سورة يوسف (رقم السورة ١٢) تفسير النسفي ، في ظلال القرآن ، تفسير الخازن

(٤) قصص الانبياء — ابن كثير ص ٢٦٤ — ٢٨٢ قصة موسى عليه السلام

(٥) هود — (هاد) : تاب ورجع إلى الحق ، وبابه قال : فهو هائد . وثم (هود)

قال أبو عبيدة : "التهود" التهمة والعمل الصالح . ويقال أيضا : هاد ، و(تهود)

أى صار (يهودياً) . "واليهود" بوزن العود (اليهود) . والتهويد المشي الرويد مثل

الدبيب وفي الحديث "أسرعوا المشي في الجنابة ولا تهودوا" كما (تهود) اليهود

والنصارى . والتهويد : يصير الإنسان يهودياً (مختار الصحاح — الرازى ص ٧٠١)

(٦) قصص الانبياء — ابن كثير ٢٦٤ . قصص الانبياء النيسابورى اورد نسبه : موسى بن

عمران بن يصهر بن فاهت بن لاوي بن يعقوب عليه السلام ص ١٦٦

وأطلق على ديانته اسم " اليهودية " نسبة إلى " يهودا " باعتبار أن أكثر بني إسرائيل عند ظهور موسى كانوا من سبط يهودا .

وبعد أن ضعفت دولة النبي سليمان عليه السلام - وهي الدولة التي أقامها بنو إسرائيل بعد دخولهم إلى فلسطين في زمن النبي داود عليه السلام - بعد وفاته انقسمت دولته إلى قسمين عرفا باسم " دولة إسرائيل ودولة يهودا " واستمر الاسم على اليهودية التي عنت ديانة موسى عليه السلام .

ولم يطلق على لغة التوراة اللغة اليهودية ، بل استمرت العبرية تطلق على اللغة التي نزل بها التوراة ، والعبرية إحدى اللغات السامية .

فبنو إسرائيل : هم أبناء يعقوب عليه السلام وأحفاده ومن جاء من ذريته .
واليهود : هم جميع الذين اعتنقوا ديانة موسى بمن فيهم بنو إسرائيل . فقد كان أول المؤمنين بهذه الديانة السحرة الذين أبطل سحرهم موسى فقالوا : آمنا برب موسى .
ومن الطبيعي أن يعتنق اليهودية بنو إسرائيل ولكنهم بعد ذلك تركوها وحرّفوها وأخبارهم في القرآن الكريم والأخبار السابقة كثيرة والمتعلقة بهذا الانحراف ، كما اعتنقها بعض عرب اليمن وبعض العرب الآخرين كما سيرد لاحقا .

وقد انتشر اليهود جماعات جماعات استقرت في مواضع المياه والعيون من وادي القرى وتيما وخيبر إلى يثرب ، فبنوا فيها الآطام لحماية أنفسهم وأرضهم وزرعهم من اعتداء الأعراب عليهم ، وقد آمنوا على أنفسهم بالإتفاق مع رؤساء القبائل الساندة في جوارهم على دفع إتاوة لهم ، وعلى تقديم الهدايا إليهم لاسترضائهم . وكان من شأنهم أيضا التفريق بين الرؤساء ، وإثارة الشحنا بين القبائل حتى لا تصفوا الأحوال فيما بينهم وتلتئم ، ولئلا يكون اتفاقها والتئامها خطرا يهدد اليهود (١)

إن دخول اليهود إلى يثرب فيه الكثير من الخبر الغير موثوق ، ولقد ورد ذكر هذه الأخبار في أمهات الكتب التاريخية العربية ، واستقاها الأخباريون عن اليهود الذين كانوا في هذه المنطقة أو ممن أسلم منهم لإثبات أنهم ذوو نسب وحسب في الأرضين قديما وأنهم كانوا ذوي بأس شديد ، وأن تاريخهم في هذه البقعة يمتد إلى أيام الأنبياء

(١) جواد علي - تاريخ ٥١٦/٦

وابتداء اسرائيل ، وأنهم لذلك انصغروا المختارة من العبرانيين (١)

وقصة اليهود طبقا لرواية الاخباريين ومن تابعهم من المؤرخين المحدثين أمرنا عجب ، إذ تذهب رواياتهم إلى موسى عليه السلام ، بعد أن أظهره الله على فرعون وطي* الشام ، وأهلك من بها من الكنعانيين ، أو أنه بعث اليهم بعثا أهلك من بها ، ثم بعث بعثا آخر إلى الحجاز للعالمين الذين كانوا يسكنون المدينة قبل بني إسرائيل ، وكانوا أهل بغي وغزو ملكوا على أنفسهم رجلا يقال له " الأرقم " ويقال (الأرقم بن أبي الأرقم) وتذهب الرواية إلى أن موسى عليه السلام كان قد بعث الجنود إلى الجبارة من أهل القرى فضلا عن جيش من بني إسرائيل كان قد بعثه إلى العماليق ، وأمره أن يقتل القسم جميعا لا يستبقي منهم أحدا ، وأن هذا الجيش قد كتب له نجحا بعيد المدى في مهمته هذه ، فقتل العماليق جميعا ولم يبق على أحد منهم إلا ولداً للأرقم كان وضيئاً فأشفقوا على شبابه ، ومن ثم فقد حملوه إلى موسى ليرى رأيه فيه ، غير أن موسى كان قد انتقل إلى الرنيق الأعلى قبل عودة الجيش بولد الأرقم (٢)

وقد اعتبر الإسرائيليون أن إبقاء الجيش على حياة ولد الأرقم خروج على تعليمات موسى ومن ثم فقد رفضوا أن يسمحوا للعائدين بدخول الشام ، مما اضطر هذا الجيش إلى العودة إلى المدينة والإقامة فيها ، ومن ثم فقد كانوا أول من سكن المدينة من يهود (٣) والقصة على هذا النحو توجه إليها سهام الريب من أكثر من جانب ، وليس بالوسع القول بأنها ترقى إلى ما نرى من ظننات الشبهات . هذا إذا لم تكن هي شبهة وذلك لأسباب كثيرة . وإن بعض المؤرخين المسلمين أنفسهم يشكون في صحة الرواية هذه

(١) جواد علي - تاريخ ٥١٧ / ٦

(٢) دراسات في تاريخ العرب - مهران س ٤٣٧ جواد علي - تاريخ ٥١٧ / ٦

(٣) النص من دراسات في تاريخ العرب - مهران س ٤٣٧ نقلا عن الأغاني - الأصبهاني

١١٦ / ٣ ، و ٩٤ / ١٩ ، وفتح البلدان - ياقوت ٨٤ / ٥ ، وأبوالفداء ١٢٣ / ١ ،

وابن خلدون - تاريخ ٨٧ / ٢ - ٨٨ ، ابن هشام - السيرة ١٧ / ٢ - الاغلاق س ٦٠ - ٦١

والدرة الثمينة س ٣٢٤ ، المدينة بين الماضي والحاضر س ١٤ - ١٥ . وناه الوفا - السهمودي

١١١ / ١ ، خلاصة الوفا س ١٥٦ - ١٥٧ . عبد الفتاح شجادة (المرجع السابق) ٢٧٢ - ٢٧١

اسرائيل ولفنون - تاريخ اليهود في بلاد العرب س ٦ ، الروس الآن ١٦ / ٢ وأيضا

تاريخ العرب قبل الاسلام - السيد عبد العزيز س ٣٧٩ وتاريخ العرب في الجاهلية -

البيبلي س ١٨٨ وتاريخ الأدب العربي - ضيف س ٥٣ ، جواد علي - تاريخ ١٢٩ / ٤

إن هناك رؤية اخبارية أخرى كذلك تقدم سببا مختلفا لإقامة اليهود في المدينة ، ذلك أن موسى عليه السلام - طبقا لهذه الرواية - قد حج إلى بيت الله الحرام ومعه أناس من بني إسرائيل (١) وعند العودة رأوا في موضع المدينة صفة بلد نبي يبجدون وصفه في التوراة بأنه خاتم النبيين ، ثم لقد أقاموا في سوق بني قينقاع ، ثم تألفت إليهم ناس من العرب فرجعوا عن دينهم ، فكانوا أول من سكن المدينة

(وفا الوفا ١ / ١١٠) (خلاصة الوفا من ١٥٥ - ١٥٦) (الدر الثمينة من ٣٢٤ - ٣٢٥)

فصول في تاريخ المدينة - علي حافظ من ١٣ - ١٤

الخبر الثاني عن وجود اليهود في يثرب يذهب به الاخباريون إلى زمن النبي داود عليه السلام ١٠٠٠ - ٩٦٠ ق م (٢)

ولعل أول الذكبات التي حلت باليهود في فلسطين هو بدء الهجرة إلى يثرب ، فيه شيء من الصحة والموضوعية وقد تم ذلك بمراحل كثيرة .

(١) وردت تلبية موسى وحججه في الاحاديث التالية :

قال الامام أحمد : حدثنا هشيم ، حدثنا داود بن أبي هند ، عن أبي العالوية عن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

مر بوادي الأزرق فقال : أي واد هذا ؟ قالوا : وادي الأزرق ، قال : كأنني أنظر إلى موسى وهو هابط الثنية وله جوار إلى الله عز وجل بالتلبية ، حتى أتى على ثنية هرشاش ، فقال : أي ثنية هذه ؟ قالوا : ثنية هرشاش . قال : كأنني أنظر إلى يونس بن متى على ناقه حمراء عليه حلية من صوف ، خطام ناقته خليه - قال هشيم : يعني ليفا - وهو يلبي - يرواه مسلم في صحيحه (١ / ٧٤ / ٣٦٨) ورواه أحمد في مسنده (١ / ٢١٥ - ٢١٦) ورواه ابن ماجه في سننه (٢٥ / ٤ / ٢٨٩١) .

روى الطبراني عن ابن عباس مرفوعا أن موسى حج على ثور أحمر - وهذا غريب جدا -

قال الامام أحمد - حدثنا محمد بن عدي ، عن ابن عون ، عن مجاهد ، قال : كما عند ابن عباس فذكروا الدجال : فقال ، انه مكتوب على يمينه (ك فر) قال : ما يقولون ؟ قال : يقولون مكتوب بين يمينه (ك فر) فقال ابن عباس لم أسمعه ؟ قال ذلك ولكن قال : أما ابراهيم انظروا إلى صاحبكم ، وأما موسى فرجل آدم جعد الشعر على جمل أحمر مخطم بخلبه كأنني أنظر إليه وقد انحدر من الوادي يلبي ، قال هشيم (الخلبة - الليف) رواه البخاري (٦٠ / ٨ / ٣٣٥٥ فتح)

المرجع : (تفسير الأنبياء - ابن كثير ٣٣٧)

(٢) هناك اتجاهات مختلفة لفترة حكم داود عليه السلام وهي (١٠١٠ - ٩٥٥ ، ٩٥٥ سنة)

ق م و (١٠٠٤ - ٩٦٣ ق م ٤١ سنة) و (١٠٠٠ - ٩٦٠ ق م ٤٠ سنة)

و (٩٧٥ - ٩٦٣ ق م ١٢ سنة) و (١٠١٢ - ٩٧٢ ق م ٤٠ سنة) كذا في كثير

من الروايات

وتزيد المصادر العربية هذا الإتجاه ، فتذكر أنه لما ظهرت الروم على بنى إسرائيل جميعاً بالنام فوطئوهم ، ونكحوا نساءهم ، وخرج بنو النضير ، وبنو قريظة وبنو همدان (يهود) هارين إلى من بالخباز من يهود ، فلما فصلوا عنهم بأهلهم اتبعهم الرمان فأعجزوهم وهلك جند الروم في المناور والسحارى الخالية من الماء ، وهذه الروايات مأخوذة عن يهود المدينة أنفسهم ، ثم أخذت جموع اليهود في الجزيرة العربية تزداد وتكثر بعد اضطهاد الروم لهم ، ثم قصد بنو النضير وقريظة منطقة يثرب وارتادوا حتى تخيروا أخصب بقاعها فسكنوها (١)

ومن هؤلاء المهاجرين - على رأى الأخباريين - بنو قريظة وبنو النضير وبنو يهودان ساروا إلى الجنوب باتجاه يثرب ، فلما بلغوا موضع الغابة وجدوه وبيننا فكرهوا الإقامة فيه ، ومعنوا رائداً أمره أن يلتصق لهم منزلاً طيباً ، وأرضاً عذبة حتى إذا بلغ العالقة وهي بطحان ومهزور (واديان من حرة على قلاع أرض عذبة) بها مياه وعيون غزيرة ، رجح إليهم بأمرها ، وأخبرهم بما رآه منها فقرر رأيهم على الإقامة فيها ، فنزل بنو النضير ومن معهم على بطحان ، ونزلت قريظة وهدل ومن معهم على مهزور ، فكانت لهم قلاعهم وما سقي من بساتين وسماوات (٢)

وقد انتشر اليهود جماعات جماعات استقرت في مواضع المياه والعيون من وادي القرى وتيماء وخيبر إلى يثرب ، فبنوا فيها الآطام لحماية أنفسهم وأرضهم وزرعهم من اعتداء الأعراب عليهم ، وقد آمنوا على أنفسهم بالاتفاق مع رؤساء القبائل الساكنة في جوارهم على دفع أتاوة لهم ، وعلى تقديم الهدايا إليهم لاسترضائهم ، وكان من شأنهم أيضاً التفريق بين الرؤساء ، وإثارة الشحنا بين القبائل حتى لا تصفوا الأحوال فيما بينهم . وتلتصق ولثلا يكون اتفاقها والتثامها خطراً يتهدد اليهود .

ولما جاءت الجاليات اليهودية إلى الحجاز اختارت يثرب وجوارها ، ثم كثر اليهود في تلك المنطقة حتى كادوا يغلبون عليها جنسياً وسياسياً ، وكذلك اختار اليهود منذ نزلوا يثرب أن يكون لهم أحياء يسكنون بها خاصة بهم جريا على عادتهم في كل مكان وزمان . ولقد كثروا في يثرب في غريبها وجنوبها ، كما سيطروا فيها على المرافق الزراعية والصناعية والتجارية ، وفي الرواية أنه غبر زمن كان الحكم في يثرب

(١) الاغانى - الأصبهاني ١٤ / ١١ حاشية : ابن خلدون - تاريخ ٢ / ٢٨٧

(٢) جواد علي - تاريخ ٦ / ٥١٨ - ٥١٩ الأغانى ١٩ / ٩٥

للـيهود . في ذلك الحين كان حول يثرب قرى كثيرة ، كما كان فيها أسواق رائجة كثيرة
ضمن القبائل اليهودية التي كانت في ذلك الحين فيها بنو قريظة والنضير وبنو قينقاع
و بنو ماسة وزرعة وغيرهم ، وكانوا قد ابتنوا حسمونا يجتمعون فيها إذا خافوا
وكذلك كان في يثرب في ذلك الحين - باليات مختلفة إلى جانب أهلها من عرب الشمال ، على
هذا المزيج المتناثر من السكان نزل الأوس والخزرج (١)

هذا مجمل الروايات التي تحدثت عن وصول اليهود إلى يثرب وإقامتهم فيها ، وإنما إن
نؤكد نفي الروايات السابقة التي تعود بهم إلى عهد موسى وداود عليهما السلام - كان
الأولى أن تعود هذه الروايات إلى عهد سليمان عليه السلام - إلا أننا لاننفي وصولهم
تباعاً إلى يثرب وسواها من مدن شمال الحجاز على أثر النضبات المتلاحقة التي لحقت بهم
سواء على يد البابليين والآشوريين أو الرومان الذين فتكوا بهم بشكلى كبير خاصة في
القرن الأول قبل الميلاد والقرنين الأول والثاني بعد الميلاد على أثر الشررات التي قاموا
بها ، وثراجهم في شمال الجزيرة حصل بأوقات متفاوتة وهو أمر طبيعي ونستطيع أن نؤكد
أن بني قينقاع قد سبقوا بني قريظة والنضير إلى الإقامة في المدينة وما جاورها .
وهناك فكرة أخرى تقول بأن بعض القبائل اليهودية تعود إلى أصل عربي وتهودت وهذه
الفكرة مستبعدة أيضاً وأتي تفصيل لها في بحث اليهود العرب .

يرى (اوليرى) أن بني قينقاع إما عرب متهودون أو من بني أرم (٢) ولكن من المؤكد أن
القبائل النخبيرة من يهود العقيمة في يثرب - والتي هي موضوع بحثنا - من أصول غير
عربية ، وذلك لأن العرب اعتنوا بأنسابهم بشكلى كبير ، ولا تخلو قبيلة عربية من ذكر نسبها
سواء في الجاهلية أو في الاسلام ، إلا أن اليهود لم يرد لهم أنساب كأنسب العرب
وهذا ما ينفي كونهم عرباً وتهودوا .

فمجتمع يثرب سنة ٧٠م كان يتألف من اليهود القدامى الذين تخلبوا على عماليق يثرب ،
ومن اليهود الجدد الذين اتخذوا من بلاد العرب دار هجرة أمم اضطهدوا
الرومان لهم ، واختاروا من جزيرة العرب أخصب مراضعهم
مثل وادي القرى ، وهو واد خصيب غزير المياه كان محطة من محطات

(١) تاريخ الجاهلية - فرنج ١١٦

(٢) حاشية - دراسات في تاريخ العرب القديم - مهراڤ ٤٥٠

الطريق التجارى القديم الذى يصل الشام واليمن ، ومثل راحة خيبر ، وهي حــــرة
خسبة ذات مياه وفيرة .

وفي يثرب أقام اليهود أطاما وهي حصون يلجئون إليها في أوقات الغارات ، ويتحصن
فيها النساء والأطفال والشيوخ عندما يخرج رجالهم إلى القتال ، كما حصل عند حصار
الرسول صلى الله عليه وسلم لليهود بنى النضير في العام الرابع للهجرة فتحسنوا منه في
الحصون (١) وقد أشار القرآن الكريم الى ما أدب الله اليهود من نعمته في قوله تعالى :
(هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا
وَظَنُّوا أَنْهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ
الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ ، فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ) (٢)

كان يهود يثرب يتجمعون في قرى أعدوا فيها هذه الحصون والآطام ، وقد أشار الله
تعالى في القرآن الكريم الى هذه القرى في قوله تعالى : " لَا يِقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي
قَرْيَ مَسْجِنَةَ رُومٍ وَرَاءَ جُدْرٍ بِأَسْهُمٍ بَيْنَهُمْ شَدِيدَةً تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ
قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ. " (٣) وكان لليهود يثرب بيت يحرف باسم (بيت المدراس) (٤) كان يجلس
فيه علماءهم وأخبارهم رومانيوهم يتدارسونها للتجارة ، ويفلسون فيما شجر بينهم ، وقد دخل
الرسول صلى الله عليه وسلم احد بيوت المدراس هذه ودعاهم الى الله .

فقال النعمان بن عمرو ، والحارث بن زيد على أي دين أنت يا محمد ؟ قال : على ملة
ابراهيم ودينه ، قالا : فان ابراهيم كان يهوديا . فقال لهما صلى الله عليه وسلم :
فهلتم الى التوراة فهي بيننا وبينكم ، فأبيا عليه ٢٠٠ ؟ فأنزل الله تعالى فيهما : " أَلَمْ
تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيُحْكَمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّوْا فِرْقًا
مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ نَسْمَنَ النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَضْنَاهُمْ فِي سَبِي
دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ. " (٥) (٦)

وكان اليهود عندما نزل بينهم وحولهم الأوس والخزرج يزيدون على عشرين قبيلة ، وذكر

(١) ابن هشام - السيرة ٢ / ٢٠٠

(٢) سورة الحشر آية ٢

(٣) سورة الحشر آية ١٤

(٤) ابن هشام - السيرة ٢ / ٢٠٦ - ٢٠٧ ، ٢١٢

(٥) سورة آل عمران آية (٢٣)

(٦) ابن هشام - السيرة ٢ / ٢٠١

ابن النجار أن آظامهم كانت تسعا وخمسين أطما ، وللعرب النازلين عليهم مثل الأوس
والخزرج ثلاثه عشر أطما ، حيث ذكر ابن النجار أيضا أنه نزل المدينة قبل الأوس والخزرج
أحياء من العرب من بني أنيف من بلى ، ومن بني مرید ، وبني معاوية بن الحارث بن
بهقه بن قيس عيلان ، وبني الجذماحي من اليمن (١)

وكان ممن بقي من يهود يثرب عند نزول الأوس والخزرج بنو قريظة ، وبنو النضير ، وبنو
محجم وبنو زعورا ، وبنو قينقاع ، وبنو ثعلبة ، وأهل زهرة ، وأهل زبالة ، وأهل يثرب
وبنو القسيس ، وبنو فاعصة ، وبنو ماسكة ، وبنو القمعة ، وبنو زيد اللات وهم رهط عبد الله
وبنو عكرة ، وبنو حرافة (٢)

يود في يثرب وكان مجتمع اليهود ينزلون مجتمع السيرل : سيل بطحان ، والعقيق ، وسيل فناة ، وخرجت
قريظة واخوانهم بنو هذل وعمرو فنزلوا بالعالية على وادي مزنيب ومهزوز ، فنزل بنو
النضير على مزنيب ، ونزل بنو قريظة وهذل على مهزوز .

وكانوا أول من احتفر فيها الآبار ، واقتسوا الأشجار وابتنوا الآطام والمنازل .
ومن أولاد هذل أو هذل ثعلبة ، وأسد ابنا ستيه ، وأسد بن عبيد ، ورفاعة بن سموا
وكيت وفيه ابنا هذل .

وكان بنو قينقاع يسكنون عند منتهى جسر بطحان مما يلي العالية ، ونزل بنو حجر عند
المشربة التي عند الجسر ، ونزل بنو زعورا عند مشربة أم ابراهيم ، ونزل بنو زيد اللات
قريبا من بني غصية (٣)

وقد انتشر اليهود جماعات جماعات استقرت في مواضع المياه والعيون من وادي القرى
وتيماء وخيبر إلى يثرب ، فبنو فيها الآطام لحماية أنفسهم وأرضهم وزرعهم من اعتداء
الأعراب عليهم . وكان يقيم في (تفنا) عند طهور الاسلام قوم من اليهود اسمهم
(بنو جنبة) ، وقد كتب اليهم الرسول صلى الله عليه وسلم وإلى أهل (تفنا) يدعوهم
إلى الاسلام أو إلى دفع الجزية (٤) وكتب إلى قوم يهود اسمهم (بنو عاديان) وإلى
قوم آخرين اسمهم (بنو عريضة) (٥)

(١) حاشية - تاريخ العرب قبل الاسلام - السيد عبد العزيز ص ٣٤٢

(٢) الدرّة الثمينة ص ٢٢٦ وفاة الرفا - السهمودي ١٢٢/١

(٣) تاريخ العرب قبل الاسلام - السيد عبد العزيز ص ٣٤٢ عن "السهمودي" ص

١١٤ - ١١٦

(٤) الطبقات الكبرى - ابن سعد ٢٧٦/١

(٥) جواد علي - تاريخ ٥١٦/٦ - ٥١٨ والطبقات الكبرى - ابن سعد ٢٧٩/١

لم تدم سيطرة اليهود الاخيرة عن عامين اثنين فقط ، وذلك على عهد أميرهم
الفضيول وان كما نميل الى تقديرها بحدود سنة ٥٠٠ م
وهي السنة التي تولى فيها أول ملك غساني قوي معروف ، وبذلك تكون مدة تسلط اليهود
الجديد حوالي عشر سنين ، وهي مدة كافية لتتمر اليهود ، والذي يدفع الخزرج إلى طلب
النجدة من الغساسنة ، وتختلف الروايات مرة أخرى في السبب المباشر لحدوث هذه
المساعدة العسكرية التي دعمت موقف الأوس والخزرج أمام اليهود ، وحققت لهم النصر عليهم
أ - صاحب الأغاني ١٩ / ٩٦ يرى أن مالك بن العجلان وقد ^{أبى} إلى جيبيلة الغساني وهو
- ملك غسان يومئذ - سأله جيبيلة عن قرمه ، وعن منزلهم فأخبره بسوء حالهم وضعف
معيشتهم ، وتعرضهم للظلم ، والمهانة من اليهود ، فاستأب أبو جيبيلة من ذلك وقال له :
والله ما نزل قوم منا بلدا قط الا غلبوا أهله عليه فما بالكم ؟ ثم أمره بالضي إلى قومه
وقال له : أعلمهم بمقدمي ، فاني سائر اليهم لاستنقاذهم .

ب - الدكتور محمد حسين هيكل (حياة محمد ص ١٩٩) يرى أن المسيحيين العرب الذين
كانوا يعينون في الشام ، ويقومون دولة عربية تابعة للدولة الرومانية الشرقية وهم (الغساسنة)
كانوا يحكم نسرانياتهم يعتقدون اليهود أشد المقت ، وكانوا يتحينون الفرص للإيقاع بهم
واستعملوا موضوع غيرتهم على الأوس والخزرج وسيلة للاستشفا من اليهود وكسر شوكتهم
والقضاء هيمنتهم .

ج - ويذكر ابن الأثير (الكامل ١ / ٤٠٠ ووفاء الوفا ١ / ١٢٧) أن أبا جيبيلة بنا إلى
يثرب يطلب من الأوس والخزرج الذين طفق عند هم الكيل ، ولم يبق في مكرتهم تحمل الضيم
أكثر مما تحملوا ، وبخاصة عندما بدأ الفضليون يتعرض لنسائهم ، والعرب جميعا يخارون على
نسائهم ويموتون من أجل الشرف (١)

وقال أبو جيبيلة للأوس والخزرج ان لم تغلبوا على هذه البلاد بعد من قتلتم من أشرف
أهلها لاخير فيكم ، ثم رحل إلى الشام .

وقال السامت ابن أصرم القوفلي يذكر قتل أبي جيبيلة اليهود :

سائل قريظة من يقسم سببها	يوم العريض ومن أنف المغمنا
جاءتهم الملحاة تخفق ظلها	وكتيبة خشنا تدعوسلما
عي الذي جلب الهمام لقومه	حتى أحل على اليهود الصيلما (٢)

(١) المدينة - الخطراوى ٣ / ٢٨ - ٢٩

(٢) الصيلم : الأمر الشديد والداهية ، والسيف (القاموس المحيط ٤ / ١٤١)

أحوال اليهود الاجتماعية والأدبية :

لقد سبق القول بأن اليهود قد تأثروا كثيرا بحياة العرب • فسمروا بأسمائهم ، وعاشوا مثلهم قبائل وأحلاف ، ولكنهم بقوا محسوسين ضمن ما وصلهم من التوراة المحرفة في معتقداتهم الدينية ، والتي كانت تربط حياتهم ، وروثرونها على الناس فلا يطلعون عليها أحد • وكل ما عرفه العرب عنهم أنهم جاؤوا الى مَدِينَةِ مَهَابِرِ بْنِ سَيْنُقِدُ هُمْ من طغيان العرب وجيرانهم وسيرف من شأنهم ، وسيحاربون العرب بقيادة ، ويقتلونهم قتل عاد ورم ، وقليل جدا من العرب الذين عرفوا أكثر من هذه النبوة عن يهود •

لم يُخْفِ اليهود هذه النبوة عن (تبار أسعد كوب) الذي تحاشى حتى تهديم الكعبة بناءً على نصيحتهم ، لكن اليهود قد مارسوا أعمالا نان يأنف منها العرب وهي الصناعة ، وبعض التجارة في أسواق ثابتة ، في الوقت الذي لم يكن للعرب هذه الأسواق حيث أن أسواق العرب موسمية ومتنقلة ، فمن سوق عكاظ إلى ذي الحليفة إلى منى إلى رحلي الشام واليمن (الصيف والسنا) • أما اليهود على العموم فقد استقروا في أسواقهم خاصة في يثرب ، فسوق بني قينقاع كان من جملة الأسواق الكبيرة يتاجرون به بمختلف البضائع وخاصة الذهب ، أما الصناعات فقد كانت السلاح على رأسها ، ولقد أفادتهم هذه المهنة بتحديد الأسلحة الى المتحاربين العرب في أيامهم التي أعجزت المرخين عنها وحصرها ، ولا ينتهي يوم إلا ويتلوه يوم آخر أشد وأقسى • وهذه الصناعة جعلت لهم قوة ذاتية ، ربما حمتهم في بعض الأحيان من جيرانهم ، لم يتزوجوا من الوثنيين ولم يزوجهم ، وما كان من فسق ملكهم — إن صحت الرواية وهي بعيدة عن الصواب — فان هذا شأن خاص ، أما هم فقد آثروا الاعتزال ضمن حدودهم وأظامهم وحصونهم •

وسبق القول بأنهم تعاملوا بالعربية ذات لكة أعجمية ، لكنهم تكلما بها ولم يسجلوا بها تراثا كبيرا ، والعبرية كانت خاصة عندهم ، وقليل جدا من غيرهم من كان يعرفها • وقد عقد جواد علي فصلا خاصا عن شعرائهم (١) ومما قاله :

لانعرف نسا جاهليا بنا فيه خبر عن شعر يهودي ، أو عن شاعر يهودي عاش في بلاد العرب

(١) جواد علي — تاريخ ٧٦٨ / ٩ فما بعد

وكل ما ورد اليينا من شعر يهود مستقى من الموارد الاسلامية فحسب . كذلك لانعرف مصدرا عبرانيا ، أو غير عبراني تعرض لأمر شعر اليهود في جزيرة العرب ، ولهذا فالحديث عن شعر يهود في أيام الباهلية مستمد من الموارد الاسلامية .

وقد ذكر ابن سلام أسماء فحول شعرا يهود فجعلهم : السموأل بن الفريض بن عاديما ، والربيع بن أبي الحقيق ، وأبو الزبال ، ودرهم ابن زيد ، وأضاف فيهم أوس بن أوفي وسماك ، والفريض بن السموأل ، وسلام بن مشكم ، وكفانة بن أبي الحقيق (٢) ومن شعرا يهود (أبو أتابه) القرظي ، و (أبو ياسر) النضيري ، و (أبو القرف) اليهودي و (عمرو بن أبي صخر بن أبي جرثوم) اليهودي ، و (أبو حضة) وله شعر في الحيران و (كعب بن أسد بن سعيد) القرظي اليهودي من بني قريظة ، جاهلي له مع قيس بن الخطيم في يوم (بعث) مناقضات ، و (مالك بن عمر النضيري) وهو جاهلي (٣) وذكر المعري اسم شاعر يهودي اسمه . (بسمير بن أركن) (سمير بن أركن) من أهل خيبر قال شعرا لما أمر عمر رضي الله عنه بأجلاء أهل الكتاب من جزيرة العرب هو :

يصول أبو حفص علينا بـ	درة	رويدك ان المرء يطغو ويرسب
كأنك لم تتبع حمولة ما	قط	لتنسج ، ان الزاد شيء محجب
فلو كان موسى صادقا	ما ظهرتم	علينا ، ولكن دولة ثم تذهب
ونحن سبقناكم الى اليمن	فاعرفوا	لنا رتبة البادي هو أكذب (٤)
منيتم على آثارنا في	طريقنا	ونغيثكم في أن تسودوا وترهبوا (٥)

وأورد أبو الفتح الأصبهاني أبيات شعر نسبها الى شاعرة يهودية اسمها (سارة) القرظية ، ذكر أنها قالتها في رثاء قومها بعد أن قتل (أبو جبيلة) أشرف اليهود (٦) وذكر الجاحظ بيتين نسبهما لشاعرة يهودية قالتها في نعت الرقية والصفار وهما :

وليس لوالدة نغش	ولا قولها لابنها ادع
تدارى شعرا أحواله	وربك أعلم بالمصراع (٧)

(١) جواد علي - تاريخ ٩ / ٧٧٠

(٢) المصدر السابق ٩ / ٧٧٠ - ٧٧١

(٣) العرنزاني - معجم من ٥٠٧ - ٥١٥ - ٥١٣ - ٢٣٢ - ٢٦١ و (٥٩)

(٤) جواد علي - تاريخ ٩ / ٧٨٩ - ٧٩٠

(٥) رسالة الخفران - المعري من ٤٤١ وما بعدها

(٦) المصدر السابق من ٦٠

(٧) جواد علي - تاريخ ٩ / ٧٩١ - ٥٦١ / ٦ فما بعدها

قبائل يهود : كما سبق القول فان يهود الحجاز كانوا قبائل وعشائر ويطلقون منهم :

١ - بنو أنيف : سبق أن أشرنا الى أنهم حي من قبيلة بلي الحربية ، وكانوا يسكنون قباة
ولهم أطام عند بئر (غدق) قال شاعرهم :

ولو نطقت يوما قباة لخبرت بأنا نزلنا قبل عاد رتبـح
وأطامنا عادية مشـمـحـرة تلى فتشكى من تعادى وتمنع

٢ - بنو القسيى : وكانوا أيضا بقباة مع بنى أنيف

٣ - بنو قريظة : وسيأتي الحديث عنهم مفصلا

٤ - بنو همدل : وكانوا يسكنون مع بنى قريظة

٥ - بنو عمرو : وكانوا يسكنون مع بنى قريظة

٦ - بنو النضير : وسيأتي الحديث عنهم مفصلا

٧ - بنو مرید : ولهم أطم معروف باسمهم

٨ - بنو محم : وكانت لهم أرض تسمى خنانة مشهورة بنشرة الحرات

١٠ - ١١ - ١٢ - بنو معاوية ، بنو زعورا ، بنو زيد اللات

١٣ - بنو قينقل : وسيأتي الحديث عنهم مفصلا

١٤ - ١٥ - بنو حجر ، بنو ثعلبة : كلاهما كان يسكن زهرة وهم : (القطيرون) ، وكان

لهم أطام كثيرة ، وكانت زهرة من أعظم قرى المدينة ، باد أهلها بالدود كما يقول الاخباريون

وقد يكون ذلك وبادا عاما حل بهم وأناهم ، وكانت زهرة هذه في منطقة الجرف الى جهة

البركة ، ولا يزال بستان يحمل هذا الاسم حتى الآن

١٦ - يهود الجوانية : وهو موضع بيثرب قرب أحد شمالي المدينة ، ولهما أطمان هما

صرار والريان ، وقد صارا بعد ذلك لبني حارثة ، وفيهما يقول (نهين بن سياف :

لعل صرارا أن تعيش بنـساره وتسمع بالريان تبني مشـساره

١٧ - ١٨ - بنو عكرمة ، بنو مراية ولهم أطم الشبعان

١٩ - يهود رايخ : ولهم أطم يحمل هذا الاسم . قال قيس بن الخطيم :

الا ان بين الشرعي ورايخ خراباً كتخديم السيال المعضد

٢٠ - يهود يثرب : وقد بادوا ولم يبين منهم احد

٢١ - يهود ناعضة : وأصلهم من اليمن ، سكنوا شعب بني حرام (١)

(١) المدينة - الخطراوى ٣ / ٧٤ - ٧٥ والأغاني - الأصبهاني ١٩ / ٩٥

غير أنهم لم يكونوا أعرابا ، أي بد وأيتقلون من مكان إلى مكان ، بل كانوا حضرا استقروا في الأماكن التي نزلوا فيها ، ومارسوا مهنة أهل المدن ، كل جماعة تحمل اسما من تلك الأسماء التي ذكرها الاخباريون (١)

وذهب الاخباريون الى أنها بلغت أكثر من عشرين بطنا ، وربما بلغ عدد رجال هذه القبائل البالغين أكثر من ألفين (٢)

وعرف في التاريخ الاسلامي من هذه القبائل ثلاث ، كانت ذات بأس وقوة ، وعدد كبير ، وصاحبة أملاك وهم : بنو قينقاع ، وبنو النضير ، وبنو قريظة ، ويأتي هذا الترتيب حسب زمن اصطدامهم بالمسلمين . ولقد ارتأينا الوقوف عليهم دون غيرهم نظرا لاحتكاكهم بالأنصار قبل الاسلام وبعده ، وموقفهم من المسلمين بعد ذلك ، وبأنه كان لتأثيرهم في حياة العرب في المدينة أكثر من غيرهم ، ويضاف إلى هذه القبائل الثلاث العرب المتهودون باعتبار أنهم لعبوا دورا كبيرا في حياة المدينة أيضا .

بني قينقاع : يرى (أوليري) أن بني قينقاع إما عرب متهودون أو من بني أرم وهذا الرأي لا يقف عند هذه القبيلة فقط ، فان هريفا من المؤرخين إنما يذهب الى أن يهود بلاد العرب - جميعهم - إنما هم عرب تهودوا .

لقد ادعى اليعقوبي (٣) عربية جميع القبائل اليهودية التي تسكن شمال الجزيرة العربية في يثرب وغيرها ، وبنو النضير مثلا عنده فخذ من جذام نزلوا بجبل اسمه (النضير) فعرفوا به ، وبنو قريظة فهم فخذ من جذام أيضا سمو بجبل يحمل هذا الاسم وهكذا وكذلك أثرت عربيتهم على ياقوت الحموي - وهو رأي لا يثبت للنقاس ، وليس له سند من منطوق أو تاريخ دقيق ، فان ظاهرة تسمي اليهود بالأماكن التي ينزلون بها كما يقول (ولفسون) (٤) لا يمكن أن يتخذ دليل على عربيتهم (٥)

وكان بنو قينقاع أول اليهود الذين ناصبوا الرسول العدا ، وكانوا يسكنون في أحياء يثرب وكانوا أغنياء على غير وفاق ووثام مع بقية أبناء قومهم بني قريظة وبنو النضير . وقد اشتركوا في يوم بعاث ، ووقعت بينهم وبين بني النضير معارك فتك بها بنو قينقاع

(١) جواد علي - تاريخ ٥٢٢ / ٦

(٢) دراسات في تاريخ العرب - مهراڤ ص ٤٥١ . جواد علي - تاريخ ٥٢٤ / ٦

(٣) تاريخ اليعقوبي ٤٩ / ٢ - ٥٠

(٤) تاريخ اليهود - ولفسون ص ١٥

(٥) المدينة - الخطراوي ٧٢ / ٣

(٦) تاريخ اليهود - ولفسون ص ١٣ ، ٧٣

وأصيبوا بخسائر كبيرة ، واضطرتهم على ما يظهر إلى الالتجاء إلى يثرب والاقامة فيها في
حي واحد في المدينة (٢)

وكان بنو قينقاع عند منتهى جسر بطحان مما يلي السالية ، ويحدد العياشي نهاية هذا
الجسر بالمراكبية والمشرقية المعروفتين اليوم ، وفيه كانت سوقهم . ومن هؤلاء كان السحابي
الجليل عبد الله بن سلام وهو من نزية يوسف الصديق عليه السلام .
١ ، شالعا ، بنو النضير وبنو قريظة :

١ - وبنو قريظة حي من يهود ، وهم والنضير قبيلتان من يهود خيبر ، وقد دخلوا في العرب
على نسبهم إلى هارون أخي موسى عليهما السلام منهم محمد بن كعب القرظي .
وبنو قريظة أخوة النضير ، وهما حيان من اليهود الذين كانوا في المدينة . فأما قريظة فانهم
أبيدوا لنفستهم السهد ومظاهرتهم المشركين على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بقتل
مقاتلتهم وسبي ذراريهم واستفاد أموالهم .

وأما بنو النضير فانهم أُجِّلوا إلى الشام وفيهم نزلت سورة الحشر (١)
والتَّيْسِيرُ والتَّنَّارُ والأنْضُرُ : اسم الذهب والفضة وقد غلب على الذهب وهي النضر
عن ابن جنبي وقال الأعشى :

إذا جردت يوماً حسبت خميصاً عليها وجرى النضير الدلامصاً
وجمعه نَضَارٌ وأنْضُرٌ قال أبو كبير الهذلي :

وبياض وجه لم تحل أسرارُه مثل الوديلة أو كسنف الأنضُر
وبنو النضير حي من يهود خيبر من آل هارون أو موسى عليهما السلام وقد دخلوا العرب
والتَّضْرَةُ والتَّيْسِيرَةُ : اسم امرأة
قال حسان :

نصِّي التَّيْسِيرَةَ ربة التَّخْشِيرِ أسرت اليك ولم تكن تسيـري (٢)
٢ - نَضْرُ الشجر والنبات ونَضْرٌ ونَضْرٌ نَضْرَةٌ ونَضْرَةٌ ونَضْرَةٌ ونَضْرَةٌ ونَضْرَةٌ
قال الكميث :

درت بك عيدان المكارم كلها وأوراق عودي في ثراك وأنضُرًا
ولها سوار من نِضْرٍ وهو الذهب ، وقيل كل خالص نضار من ذهب ونيره
وقدح من نَضَارٍ وهو أقل روبي اللون بخور الحجاز

(١) لسان العرب - ابن منظور ٦٥٠ / ٣
(٢) لسان العرب - ابن منظور ٦٥٧ / ٣ ، ترتيب القاموس المحيط ٣٨٧ / ٤ مادة نضر

ومن المجاز نَصَرَ الله وجهه : حسن وُضُن ، وجارية فضة

وفي الحديث نَصَرَ الله من سمح مقالتي فربها (١)

وَقِرْطٌ : دَمْعُ الأَدِيمِ بِالْقِرْطِ وهو ورق السلم وأديم مَقْرُوطٌ وَتَرَضْتُه وَأَقِرْطُهُ رجل قَسَارِطٌ
يجمع القِرْطَ ، ومنه (حتى يورب القَارِطُ) وحن يَقرِطُ

وحدثت عن محمد بن كعب القرظي : منسوب الى بني قِرْطَلَةَ .

ومن المجاز : قَرِطْتَهُ تَقْرِيطًا مَدَحْتُهُ ، وهما يَتَقَارِطَانِ ، يَتَمَادِحَانِ لأن القِرْطَ يحسن ويزين
ساحبه كما يحسن القِرْطُ الأديم (١)

٣ - النَصْرَةُ : النعمة والعيش والغنى والحسن كالنَصْرُورِ والنَّضَارَةِ والنَصْرُ محرَكة نَصِيرُ
الشجر والوجه واللون .

وكم ومنه نَصْرٌ وَنَصِيرٌ وَنَصِيرٌ وَنَصْرٌ وَنَصْرُهُ الله ، وَنَصْرُهُ وَنَصْرُهُ فَانَصَرَ والنَّاصِرُ الشديد النَّصْرَةَ ،
ويقال به في كل لون أخضر نَاصِرٌ ، وأحمر نَاصِرٌ ، وأصفر نَاصِرٌ ، والنَّصْرُ والنَّصِيرُ والنَّصِيرَارُ
وَالنَّصْرُ : الذهب أو الفضة والنَّصْرُ بن كنانة أبو قريش ، وكثير أخوان النَّصْرِ ، وأبو نَسْرَةَ
المندربن مالك ، وأم نَصْرَةَ : تابعيان ، وعبيد بن نِشَارٍ كتاب : محدث . وَنَصِيرُ الرَّجُلِ
بالكسر : امرأته والنَّصِيرُ كَأَمِيرٌ : حي من يهود خيبر والنسبة نِصْرِي محرَكة منهم بكر بن
عبد الله شيخ الراقدى وأبو النَّصِيرِ بن القَيْهَانِ صحابي شهد أحد . وَنَصِيرَةُ كَسْفِينَةَ
جارية أم سلمة (٢)

القِرْطُ : محرَكة ورق السلم أو تمر السُنْطِ ، ويعتصر منه الأفايا والقَارِطُ مجتنية
وكسد أدبائنة وأديم مَقْرُوطٌ دبن فأصبح به

وكبش قِرْطِيٌّ كَعَرَبِيٌّ رَجَمَنِي يعني لأنها منابتة ٠٠٠ وقِرْطَانٌ محرَكة : حصن بزبيد
وكجهمينة : قبيلة من يهود خيبر ، والتَقْرِيطُ : مدح الانسان وهو حي بحق أو باطل
وهما يَتَقَارِطَانِ المدح . (٤)

٤ - وقد عرف بنو قريظة وبنو النضير باسم (اللاهنين) نسبا الى جد هم الذي يقال له
اللاهِن ، و (اللاهن) هو اللاهن بن هارون بن عمران على زعم بعض أهل الأخبار (٥)

(١) أساس البلاغة - الزمخشري ص ٦٢٨

(٢) أساس البلاغة - الزمخشري ص ٥٠٢

(٣) القاموس المحيط - الفيروزبادي ١٤٩/٢ و ٤١٢/٢ . ترتيب القاموس المحيط

مادة قرط ٥٩٦/٣ ونشر ٣٨٢/٤

(٤) جواد علي - ٥٢٣/٦

(٥) الأغاني - الأصبهاني ١٥/١١ وتاج السروس ٢٥٩/٥

فهم على هذه النسبة من أصل رفيع ومن نسب حسيب ، يميزهم عن بقية طوائف يهود ، ولهذا تأنوا يفتخرون بنسبهم هذا ، وورث لهم السيادة والتشرف على من سواهم من اخوانهم في الدين . ويرى (نولدكه) احتمال كون بني النضير وبني قريظة من طبقة النهران في الاصل هاجروا من فلسطين على أثر الحوادث التي وقعت فيها . فسكنوا هذه الديار ، وهناك جعلت عشائر وأسر يهودية يفتخرون بالحاق بنسبها بالكاهن هارون شقيق موسى النبي . كذلك يرجع (اوليري) كأمثاله من المستشرقين أصل بني قريظة وبني النضير الى اليهود ويرى أنهم غادروا ديارهم وجاءوا الى هذه المنطقة في الفترة الواقعة ما بين خراب الهيكل في عام ٧٠ للميلاد ، وتشكيل (هدريان) باليهود في عام ١٣٢ م .

ويرجع بعض بقية يهود جزيرة العرب نسبهم الى الكاهنين والى الأسباط العشرة كذلك فيدلون أنهم من تلك الأسباط المفقودة وأنهم من نسل قداما اليهود (١)

وقد كانت منازل بني النضير حينما غزاها الرسول صلى الله عليه وسلم في وادي بطنان ، هذا ويذهب فريق من المؤرخين الى أن بني النضير وبني قريظة فرعان من قبيلة جذام العربية تهودوا وسموا بأسماء المكان الذي نزلوا فيه (٢) ، وطبقا لرواية الاخباريين فان (جبل بن جبال) من بني ثعلبة بن سعد بن ذبيان قد تهود هو وقومه ، وعاش مع بني قريظة حتى ظهر الاسلام ، ثم هداه الله الى الدين القويم فأسلم (٣)

ويكاد يجمع المؤرخون على أن يهود بلاد العرب إنما هم من يهود فلسطين ، وأنهم تركوها فيما بين عامي ٧٠ - ١٣٥ ، وذهبوا الى أن يهود بني النضير وبني قريظة من نسل هارون وان بقية البطون اليهودية من أسباط بني اسرائيل الأخرى ، وأن يهود خيبر من نسل (يهود اداب بن ركاب) وأنهم قد هاجروا الى خيبر بعد خراب الهيكل عام ٥٨٦ م ، ثم بقوا فيها حتى عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه (١٣-٢٢ هـ ٦٣٤ - ٦٤٤ م) . وأن كلمة خيبر كلمة عبرانية بمعنى الطائفة ، أو الجماعة ، ومعنى الحسن أو المعسكر . وهو نفس الرأي الذي ذهب اليه الاخباريون ، وان نسبوا الى رجل دعوه (خيبر بن قانية بن مهلائيل) رأى فيه البعض (سقطيا بن مهلائيل)

من بني قريظة ، علما أن هناك من يفسرها بمعنى مجموعة من المستوطنات ، وان رأى اللفظة عبرية (٤)

(١) جواد علي - تاريخ ٥٢٣/٦

(٢) تاريخ اليعقوبي ٢٦/٢ - ٣٧

(٣) جواد علي - تاريخ ٥١٥/٦ الاساطير - المسقلاني ٣٢٣/١ وما بعد

(٤) دراسات في تاريخ العرب - مهران ٤٥٢ - ٤٥٣ ، تاريخ الادب العربي - ضيف

ص ٥٤ ، جواد علي - تاريخ ٥٢٥/٦

أو تتوغل الى الحجاز أو الخليج أو أي نقضة أخرى - إلا ما كان من أصحاب الهيل الذين أبيدوا بمسارلتهم الوصول الى مكة ودخولها. أما الروم الذين تنصروا فقد استعروا طبقة حاكمة مميزة أيضا حتى أن عقيدتهم تنافرت مع أنوار العرب والأقباط عن السيد المسيح وعن الديانة المسيحية .

٥ - عقد جواد علي - المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام بحثا طريفا عن اليهود العرب نشبت بعضها منه عن حال هؤلاء .

وقد تكون بعض القبائل اليهودية التي ذكر أسماءها الاخباريون قبائل يهودية معا أي من التجمعات اليهودية التي هاجرت من فلسطين في أيام القيصر (طيطوس Titus) أو (هدريان Hadrian) - أو قبل أيامها أو بعدها ، ولكن بعضا آخر منها لم يكن من أصل يهودي ، إنما كانت قبائل عربية دخلت في دين يهود ، ولا سيما المسماة بأسماء عربية أصيلة . ولبعض هذه الأسماء صلة بالوثنية تشعر أنها كانت على الوثنية قبل دخولها في دين يهود^(١) . والظاهر أنها تهودت إما بتأثير التبشير ، وإما باختلاطها ودخولها في عشائر يهودية جاراتها فتأثرت بدياناتها ، وقد ذكر البكري أن بني (حشنة بسنن عثارة) وهم من بلى قتلوا نفرا من بني الربعة ، ثم لحقوا بتيما ، فأبى يهود أن يدخلوهم حصنهم وهم على غير دينهم ، فتهودوا ، فأدخلوهم المدينة ، فكانوا معهم زمانا ثم خسن نفرا إلى المدينة فأظهر الله الاسلام وبقية من أولادهم فيها^(٢)

أما تأثير العرب باليهود فقد يكون محسوسا ونظرا لانغلاق اليهود على أنفسهم ، وعدم اندفاعهم لتشردينهم . ولقد أخذ اليهود عن العرب كثيرا من العادات والتقاليد واللباس والطعام وبناء الآطام والتجارة والزراعة والتفاخر بالأنساب ، ولكن العرب قليلا منهم من دخل اليهودية اما وثقا لنذر ، أو لأمر لا يعد كونه ايمانا بهذه الديانة .

ذكر أهل الأخبار أن (جبل بن جوان بن صفوان) الثعلبي من بني ثعلبة بن سعد بن نبيان كان يهوديا فأسلم ، مسوعري يظهر أنه وأهله قبله قد تهودوا فكان على دين يهود ، وهاش مع بني قريظة حتى اعتنق الاسلام^(٣)

(١) Margoliouth P. 60 NOLDEKE, Beitrage B. 52

Wistenfaid Oes'chiehe Von Medina. 8.28

(٢) جواد علي - تاريخ ٥٢٥ / ٦ حاشية (البكري ٢٩ / ١) و

Islamic Culture III Voi 2.P 177

(٣) الاصابة ٢٢٣ / ١ وما بعدها رقم ١٠٧١ وذكر أسماء آخرين كانوا من متهودة الباطنيين

وانغلاق اليهود على أنفسهم وما ديتهم جعلت العرب ينظرون إليهم على أنهم لايتعلقون بالديانات المطلوبة لدى العرب ، وقصة السمائل بالرفاء لا تعد وأن تكون إحدى التبراهن في التاريخ اليهودي وتاريخ يهود جزيرة العرب على الأخص .

ومن أن المدينة تحوى أكبر تجمع لليهود إلا أن الحجاز قد تزرع بها اليهود بشكل متباعد في مناطق مختلفة .

مواقع اليهود في الحجاز - عدا المدينة :

١ - خيبر : وقد اشتهر يهود خيبر من بين مائتي يهود الحجاز بشجاعتهم ، وخيبر موضع غزير المياه كثيره ، وقد عرف واشتهر بزراعته وبكثرة ما به من نخيل ، وعند اجلاء اليهود عن خيبر تفرقوا فذهب بعض منهم إلى العراق ، وبعض آخر إلى الشام ، وبعض منهم إلى مصر . وقد بقوا في هذه المناطق متعصبين لوطنهم القديم خيبر ينادون بشعارهم الذي كانوا ينادون به قبل الاسلام وهو (يا آل يثرب) .

وزعم أن يهود خيبر هم من نسل (ركاب) المذكور في التوراة (١) وأن يرنادب جندب ابنه تبدي من أتباعه وأبنائه ، وكان عيشة تقتشف رزهد وخسونة ، وأن نسلهم هاجر بعد خراب الهيكل الأول إلى الحجاز حتى بلغوا خيبر ، فاستقروا بها ، واشتغلوا بزراعة النخيل والحبوب ، وأنهم أقاموا فيها قلائد وحسونا تحميمهم من غارات الأعراب عليهم ، ذكر بعض الاخباريين أنها ولاية من سبعة حصون منها : حصن ناعم ، والقفر من حصن ابن أبي الحقيق وهو أقواها وأعزها ، وقد أنيم على مرتفع من الأرض حماه وعزز دفاعه . وحصن الشق ، وحصن النطاه ، وحصن السلام ، وحصن وجده ، وحصن الوطيح وحصن الدتبية (الكثبية) ، وقد أخرجوا منها وأجلوا عنها زمن الخليفة عمر بن الخطاب (٢)

٢ - وتيماء . من المواضع القديمة وقد سبب القول بأن الملك (بنو زيد) قد أقام زمانا فيها حيث اتخذها عاصمة له ، وهي في موق حسن ، وملتقى طرق هامة يسلكها التجار ، وقد استبد بها اليهود فأقاموا بها وجعلوها من أهم مستودعاتهم في الحجاز . استعملوا أرضها فزرعوها ، واستتبطنوا الماء من الآبار ، بالإضافة إلى واحتياجات المياه العذبة الغزيرة

(١) الملوك الثاني ، الاصحاح الحادى عشر الآية ١٥ - ٢٨ . جواد علي - تاريخ

(٢) جواد علي - تاريخ ٥٢٦ / ٦ وما بسدها

التي كانت ذات فضل في تكوين هذا الموقع وإعمارها ، وقد ذكرت في شعر (امرى القيس) وفيها حصن السموأل بن عادي المذكور في قصص امرى القيس الشاعر .
وبعد أن فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر ، وبلغ أهل تيماء ما حدث لإخوانهم في خيبر ووادي القرى وقدك " قبلوا الجزية وصالحوا الرسول في سنة تسع للهجرة ضمن لهم بذلك حرية بقائهم في دينهم .

وعلى تيماء كان يشرف حصن السموأل (الأبلق) ، وقد نعتت تيماء في بعض الأشعار بتيماء اليهود (١)

وتوجد اليوم بقية للأبلق الفرد الذي اختار السموأل به ، وكذلك يهود تيماء ، وليس بمستبعد أن يكون ذلك الحصن من بقايا قصر (بنونيد) ، أو من بقايا قصور رجاله ، أو من بقايا أبنية غيره ممن نزل هذا المكان ، وقد يكون بناؤه إقامة السموأل وبناءه بحجر تلك الأبنية القديمة ، وقد اكتسب قصر السموأل هذا الموضع شهرة ، واكتسبه خبر وفاة للسموأل شهرة كذلك على النحو المذكور في كتب الأدب والأخبار (٢)

٣ - وقدك : موضع آخر من المواضع التي غلب عليه اليهود ، وسدانه مثل أغلب يهود الحجاز مزارعين ، عاشوا على الزراعة كما اشتغلوا بالتجارة وبعض الحرف التي تخصص بها اليهود مثل الصباغة والحدادة والنجارة ، والموضع من المواضع القديمة التي يعود عهد ها إلى ما قبل الاسلام وقد ذكره الملك بنونيد في جملة المواضع التي زارها والتي خضعت لحكمه في الحجاز ، وكان رئيس فدك عند ظهور الاسلام وهجرة الرسول الى يثرب (يرشع بن نون) (٣)
٤ - وادي القرى : وهو من المواضع التي غصت باليهود ، فكان أكثر أهل منهم ، وقد كان يهوده من المزارعين ، وقد حفروا به الآبار ، وتحالفوا مع الأعراب ، عاشوا معهم متحالفين يحملون بالزرع ، وقد غزاهم الرسول صلى الله عليه وسلم سنة سبع للهجرة على أثر اصابتة (مؤم الاسود) مولى الرسول بسهم غارب قتله . وهو مولى مولد من (حسمى) كان أهدها (رفاعة بن زيد الجذامي) أو (فروة بن عمرو الجذامي) (٤)

٥ - وكان بين أهل مقنا وأيلة في أيام الرسول صلى الله عليه وسلم قوم من اليهود كذلك .

(١) معجم البلدان - الحموي ٢/ ٤٤٢ . فتح البلدان - البلاذري ١/ ٢٩

جواد علي - تاريخ ٦/ ٢٨٥

(٢) (٣) (٤) جواد علي ٦/ ٢٩٥

وكذلك أهل بقية القرى الواقعة في أعالي الحجاز وعلى ساحل البحر الأحمر ، وقد صالحوا الرسول على الجزية ، وبذلك ضمنوا لهم البناء في هذه الأقطار . ومن هؤلاء اليهود (بنو جنبه) وهم يهود من (مفنا) ، (بنو غاديا) ، (بنو عريض) (١)

٦ - وكان بالطائف قوم من اليهود طردوا من اليمن ويثرب فجاؤوا إليها ، ولم تكن قد أسلمت بعد فأقاموا بها للتجارة ، فلما صالح أهل الطائف الرسول صلى الله عليه وسلم على أن يسلموا ويقرهم على ما هم في أيديهم من أموالهم ، ورثاتهم ، واشترط عليهم أن لا يرابوا ، ولا يشربوا الخمر ، وكانوا أصحاب (رسي) ، وهنعت الجزية على يهودها ويقروا فيها ومن بعضهم اتباع أمواله بالطائف .

٧ - ويظهر أنه لم تكن لليهود جاليات كبيرة في جنوب المدينة حتى اليمن لعدم إشارة أهل الأخبار لهم ، وإن كنت لأستبعد وجود أفراد وأسر منهم في مكة وفي عدن وفي المدن التي اشتهرت بالتجارة كبعض مراني البحر الأحمر ، ومواني سواحل العربية الجنوبية ، غير أن وجودهم في هذه المواضع لم يكن له أثر واضح مهم ، فلم يتجاوز محيط التجارة والاتجار (٢) بعض من خصائص حياة يهود :

١ - الحكم : ومع ما كان لليهود من قلاع وآطام وقرى عاشوا فيها متكلمين مستقلين لم يتمكنوا من بسط نفوذهم وسلطانهم على الأرضين التي أنشأوا مستوطناتهم بها ، ولم يتمكنوا من إنشاء ممالك وحكومات يحكمها حكام يهود ، بل كانوا مستقلين في حماية سادات القبائل يودون اليهم الأمانة في كل عام مقابل حمايتهم لهم ودفاعهم عنهم ، ومنع الأعراب من التعدي عليهم ، وقد لجأوا إلى عقد المحالفات معهم فكان لكل زعيم يهودي حليف من الأعراب ومن رؤساء العرب المتحضرين .

وكان اليهود يخضعون في نظامهم السياسي والاجتماعي لرؤسائهم وساداتهم يدعون لهم ما هو مفروض عليهم أداءه كل سنة ، وهؤلاء السادة هم أصحاب الآطام والحصون والأرض ولهم يشتغل في الأرض تسديد ما عليه لصاحبها في مقابل استغلاله لها ، وقد اعتنوا عناية خاصة بزراعة النخيل ، وعرفت قطعة الأرض المزروعة نخلا عند هم بالصوريين (لصور) (٣) الصور : أصل النخل ، والصور النخلة (٤)

(١) ، (٢) تاريخ الادب العربي - صيف ٥٤٠ هـ - مكة - أبو الفضل ص ٩٠
(٣) الروس الآنف - السهيلي ١٩٤ / ٢ - السيرة النبوية - ابن هشام ١٩٥ / ٢
(٤) تاج العروس ٣ / ٣٤٣

وذكر أهل الأخبار أنه كان لليهود حكاهم يحكمون بينهم ، وقيمون حد ودم عليهم ، فلما جاء الرسول إلى يثرب صار اليهود يحترضون على عدالة حكم بعضهم ، ولا يرضون بتنفيذ أحكامهم عليهم . فكان الحكم أوهم يذهبون إلى الرسول لكي يحكم بينهم فيما هم فيه مختلفون وفق شريعتهم (١)

فقد كانوا يتحاكمون إليه ويأخذون برأيه ، وكان المقدم عندهم وتند الأوس والخزرج ، حتى أن الأنصار كانوا يتحاكمون إليه (٢)

وقد أشار القرآن الكريم إلى وجود اختلاف بين بني إسرائيل في فهم (كتاب الله) وتفسيره ، وأنهم انقسموا لذلك شيعة وأحزابا ، ولا يستبعد أن يكون هذا الاختلاف شاملا ليهود الحجاز أيضا لأن يكون أحبارهم ساروا في اتجاهات مختلفة من التفسير ، وفي شأن الأحكام وكان أصحابهم يتعصبون لهم ويتحزبون على نعت الأعراب في عصبيتهم لقبائلهم ، وفي اتباع أقوال ساداتهم دون تعقل أو تفكير (٣)

العلاقات الداخلية والخارجية مع العرب :

عمد اليهود إلى استغلال الأحقاد والبغضاء الكمية التي كانت في نفوس أهل يثرب من الأوس والخزرج من أيام الجاهلية فأثاروها (٤) . وهذا ما كانوا عليه قبل الإسلام - إن أنهم كانوا يزكون نار العداوة والبغضاء ، ويحالفون القوم ، ويأخذون من الحروب الغنائم ونادرا ما كانوا يدخلون في تلك الحروب .

وقد كانت اليهود قانعة بما أوتيت وما كسبته من مواطن وتجارة ، إن وجدت سبيلا إلى ارتفاع سادات القبائل والأمراء والملوك بالتهود والدخول في دعوتها فذلك خير وتوفيق وإن لم تجد في هؤلاء ميلا إلى اليهودية رضيت منهم باكتساب العطف والحماية ورعايتهم في تحصيل ديونهم ، والأرباح التي يحصلون عليها من الربا ، والسماح لهم بالتجارة والبيع والنسرا وهو ما يصبوا إليه كل يهودي .

لذلك نستطيع القول بأن اليهودية عند ظهور الإسلام كانت من ناحية التبشير جامدة خادمة لا يهتمها نشر الدين بقدر ما تهمها المحافظة على الحياة ، وعلى المركز الذي توصلت

(١) جواد علي - تاريخ ٥٢٤ / ٦ - ٥٣٥ - القرطبي - تفسير ١٨٧ / ٦

(٢) جواد علي - تاريخ ٥٤٧ / ٦

(٣) المصدر السابق ٥٥٦ / ٦

(٤) المصدر السابق ٥٤٩ / ٦

إليه ، وعلى تجارتها التي تعود عليها بمال غزير ، فكانت لهذا لا تهتم إلا بحركة تجد فيها فائدة لها ومنفعة ترتجى منها ، ولا تحارب رأيا إلا إذا وجدت أنه سيكون خطرا عليها ، فحاربت النصرانية في اليمن لما وجدت الروم يسيرون على سياسة معادية لليهود ، وأن النصرانية مهما كانت كنيستها هي فرع من شجرة واحدة هي الشجرة التي يقدمها ويحميها الروم : فامتداد أي فرع منها إلى اليمن كقيل بإلحاق الأذى الذي لاقاه اخوانهم من البيزنطيين بهم ، وحاربت الاسلام بعد هجرة الرسول إلى المدينة لما تبين لها أنه يدعو إلى رب العالمين ، وأنه لم يكن على ما ظنته حينما سمعت بدعوة الرسول وهو في مكة من أنه سيخضع لها أو سيميل إليها ، فتستفيد منه على الأقل ، فلما وجدت الأمر على غير ما ظنت عندئذ خاصته وانضمت إلى المشركين في محاربة الإسلام .

ولسنا نجد بين القبائل العربية يهودا وفدوا إليها وأخبارا سكتوا بينها لاقناعها بمختلف الوسائل والطرق للدخول في دين اليهود ، نعم لم يفعل هذا اليهود كما فعله النصارى ، ولهذا انحصرت سكنى اليهود عند ظهور الاسلام عند هذه المواضع الخصبية ، وطرق المواصلات ، والتجارة البرية والبحرية في جزيرة العرب ، وانحصر عملهم في التجارة وفي الري وفي الزراعة ، وفي بعض الصناعات التي تخصصوا بها ، وهي أمور جعلت لهم نفوسا عند سادات القبائل والأمراء والملوك (١)

١ - الحياة الاقتصادية عند اليهود :

وكانت يثرب عند هجرة الرسول إليها في أيدي أصحابها الأوس والخزرج لهم السيطرة والسلطان ولليهود آطامهم وقلاعهم في خيبر وفي تيماء وفي بعض قرى وادي القرى ، وفي أعالي الحجاز عدا عن يثرب . يتاجرون ، ويزرعون ويقرضون الأموال بالربا الفاحش للأعراب ، ويحترفون بعض الحرف مثل الصياغة ، وهي حرفة اشتهروا بها منذ القديم ، ويعقدون الاسواق ليقتصدوا بها الأعراب للتجارة .

وكان جل اعتماد اليهود في هذه المنطقة عند ظهور الاسلام على التجارة ومعاطاة الري والزراعة وبعض أنواع الصناعة ، ومن الصناعات التي اشتغل بها اليهود النسيج ، وهو من اختصاص نسائهم على الأكثر والصياغة وقد اختص بها بنو قينقاع ، والحداة ، وهي صناعة يأنف منها السرب ويزدرونها ويرونها من الحرف المعقوتة الحفية (٢)

(١) جواد علي - تاريخ ٥٤٩/٦

(٢) المصدر السابق ٥٣٢/٦

الحياة الدينية والفكرية عند اليهود :

تعرض ابن خلدون لموضوع علم اليهود العرب وثقافتهم فقال : إذا تشوقت العرب إلى معرفة شيء مما تشدق إليه النفوس البشرية في أسباب المكونات ، وبدء الخليقة ، وأسرار الوجود فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ويستفيدون منهم ، وهم أهل التوراة من اليهود ومن تبع دينهم من النصارى وأهل التوراة الذين بين العرب يرومئذ ، بادية مثلهم ، ولا يعرفون من ذلك إلا ما تعرفه العامة من أهل الكتاب ، ومعظمهم من حمير الذين أخذوا بدين اليهودية ، فلما أسلموا أبقوا على ما كان عندهم مما لا تعلق له بالأحكام الشرعية التي يحتاطون لها مثل : أخبار بدء الخليقة ، وما يرجع إلى الحدثن والملاحم وأمثال ذلك (١)

فخالبية يهود جزيرة العرب في الباهلية هم في مستوى يعدون مستوى يهود البلاد الأخرى بسبب تبديهم وانقطاعهم عن غيرهم من اليهود .

وقد نالت لليهود مدارس تدارسوا فيها أحكام شريعتهم ، وكان لهم أخبار وحاخامون علموهم أمور دينهم ، ويتدارس فيها رجال دينهم أحكام شريعتهم ، وأيامهم العاضية ، وأخبار الرسل والأنبياء وما جاء في التوراة والمنشأ وغير ذلك ، وعرفت بين الباهليين بـ "المدارس" و "بيت المدارس" و "المدراش" ، وأطلق الباهليون على الموضع الذي يتعبد الميهود فيه (الكنيسة) (وكنيسة اليهود) تميزاً لهذه الكنيسة عن (الكنيسة) التي هي لفظة خاصة بموضع عبادة النصارى (٢)

قال ابن عباس رضي الله عنه : "دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت المدارس على جماعة من يهود فدعاهم إلى الله فقال له : نعيم بن عمرو ، والحارث بن زيد : على أي دين أنت يا محمد ؟ فقال : على ملّة إبراهيم ودينه ، فقالوا : فإن إبراهيم كان يهودياً . فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : فهل علموا إلى التوراة فهي بيننا وبينكم ، فأبوا عليه ."

وقد وقع جدل بين المسلمين وبين سادات يهود أنار نزاعاً بين الطرفين .
دخل أبو بكر بيت المدارس فوجد من يهود ناساً كثيراً قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له (فناص) كان من علمائهم وأخبارهم ، ومحهم حبر يقال له (أسيح) فقال أبو بكر : ويحك يا فناص اتق الله وأسلم فوالله إنك لتسلم أن محمداً رسول الله قد جاءكم بالحق من عند

(١) ابن خلدون - تاريخ ٤٢٩ / ١ جواد علي - تاريخ ٥٥٢ / ٦

(٢) جواد علي - تاريخ ٥٥٠ / ٦

(٣) جواد علي - تاريخ ٥٥١ حاشية الطبري ١٤٥ / ٧

الله تبتدونه مكتوبا عندكم في التوراة والإنجيل . فقال فنحاص : والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر ، وإنه إلينا لفقير وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا ، وإنما إليه لأغنيا ، ولو كان غنيا عنا ما أعطانا الربا ٢٠٠ فنضب أبو بكر فضرب روجه فنحاص ضربة شديدة وقال : والذي نفسي بيده لولا العهد الذي بيننا وبينك لضربت عنقك . فأنزل الله تعالى قوله : (لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَسَبٍ وَتَقُولُ نُوْحًا وَعَدَابَ الْمَرِيِّينَ . ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتِ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَالِمٍ لِلْعَالَمِينَ) (١)

ووقع مثل ذلك في مناسبات أخرى (٢)

وبعد هذا فاننا نستطيع ان نقف على الملاحظات التالية حول يهود يثرب خاصة وهم يهود جزيرة العرب عامة

١ - وفد اليهود إلى جزيرة العرب نتيجة الاضطهاد الذي لحق بهم ابان تاريخهم الطويل والذي كانوا هم سببا له مستداقا لقوله تعالى :

• وَقَسَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا . فَإِذَا جَاءَهُمْ عَزْمٌ أُوْلَاهُمْ بِمَتْنِنَا عَلَيْهِمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا . ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا . إِنْ أَسْتَسْتَأْذِنُوا فَاذْنَبْهُمْ وَإِنْ أَنَسْتُمْ لَهُمْ فَاذْنَبْكُمْ وَإِنْ أَنَسْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوُوا وَجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا . عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عَدَاؤُنَا وَيَبَدَّلْنَا بِحَقِّكُمْ لَلذَّالِمِينَ حَصِيرًا) (٣)

٢ - وصل اليهود إلى بلاد العرب وكان يسكنها العماليق ، وجاروهم فترة طويلة ثم تمكنوا منهم وحكموا في عدة مناطق أهمها - يثرب - مؤذن - بحننا - ومناطق أخرى من جزيرة العرب خلاصة في الحجاز واليمن ، فطغوا وغطوا ، زادوا إلى فحشهم وطغيانهم ، واستأثروا بملكهم (القطيون) بالكثير من عادات الجبابة والطفافة . كما اتخذوا لهم مواقع ومران يتقنون بهما شرهجمات الأعراب والغزاة .

٣ - تمكنت قبيلتنا الأوس والخزرج من السيطرة على المدينة بالاستعانة بأبناء عمومتهم النخاسنة وأسبحت يثرب خالصة لهم ، وليس لليهود إلا القيام ببعض الخدمات كالزراعة والتجارة ونحوها من الصناعة ، ولكنهم كانوا يستنظرون فترات التناحر والعصبية بين القبيلتين فيثيرون القوم ويوقعونهم في حروب دائمة .

٤ - انكش اليهود بعد ما في حصونهم وأطامهم ، يعيشون حياتهم غير عابئين بانتشار

(١) سورة آل عمران آية ١٨١-١٨٢ تفسير الطبري ١/٥٤٨

(٢) جواد علي - تاريخ ٦/٥٤٨

(٣) سورة الاسراء آية ٤-٨ ، في ظلال القرآن - سيد قطب ٣/٢٢١٢-٢٢١٣ . تفسير

دينهم أو انحساره ، مكتفين بما عندهم والمحافظة على حياتهم ، ولقد تأثروا بالسرب كثيرا في المأكل والمشرب والملبس والسميات ، واختلفت بهم بعض المظاهر عن العرب مثل اللباس والشعر وغير ذلك .

٥ — تميزت فترات وجودهم بين الأرس والخرن بالكثير من الدسائس ، وكان مبرر بقائهم في المدينة على هذا الحال بأن المدينة ستكون مهاجرتي آخر الزمان يحاربون معه ويسردون ثانية وتعود لهم الحرة والمنعة ، وهذا ما أعدوا أنفسهم له خلال الفترة التي سبقت بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم .

٦ — عملوا بالمهن المختلفة وخاصة ما يأنفه السرب من حرف كالحدادة والصياغة والحياكة وغير ذلك ، وعملوا بالزراعة والتجارة ، وكانت لهم أسواقهم ومعاملاتهم التجارية المختلفة ، وأكدوا على قضية الريا والتي تمكنوا بواسطتها إخضاع الكثير من السادة والمتغذين ، وكانت عاداتهم الدينية تطغى على حياتهم ، مثل الختان ، والذبح ، ومعاقبة الزناة والسارقين وغير ذلك من أوامر التوراة ، إلا أن قوة تمسكهم بالدين اليهودي لم تنسل إلى مرتبة أقرانهم في فلسطين ومصر واليمن .

٧ — تميزت حياتهم بأنها قريبة من الحياة البدوية ، وتأثروا بحياة البدو بشكل كبير ، ولذلك فقد انتشرت الأمية بينهم ، ولم تعرف اللغة العبرية عند الجميع ولا العربية أيضا ، وهذا جعلهم متساوين مع العرب بالثقافة وفنون المعرفة ، ولم يظهر منهم علماء أو فقهاء في الدين اليهودي .

٨ — وقفوا من الدعوة الإسلامية موقف المهادن في مراحلها الأولى ، إلى أن شعروا بخطر هذه الدعوة عليهم بعد هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فأخذوا يكيدون للإسلام واستمروا واستمرار عداوته وتحالفوا مع العديد من القبائل ضد المسلمين ، فحاربهم الرسول صلى الله عليه وسلم وأجلاهم في البداية عن المدينة وقتل على بني قريظة أحد فروعهم ، وتابع عمر بن الخطاب فأجلاهم عن الجزيرة نهائيا .

٩ — قالوا الشعر وتحذثوا بالعربية ، وكتبوا بها ، وجل أدبهم مسجل بها ومناظراتهم ومحادثاتهم ورددهم ، وأسئلتهم وأجوبتهم التي كانوا يحاربون تعجيز الرسول صلى الله عليه وسلم للتشكيك بنبوتهم كلها كانت بالعربية ، ولم يسجل لهم أدب أو فقها أو اجتماعا بالعبرية أو لغة أم .

١٠ — وعلى العموم فقد بقي اليهود غرباء عن المجتمع الذي عاشوا فيه رغم انقضاء فترات طويلا على وجودهم في الحجاز ، فلم تكن تلك المناطق ذات قدسية خاصة يرتبطون بها ، ويرغبون بالاستمرار بجانبها ولم تتعدى قوى اليهود أكثر مما ذكر في كتب الأخباريين والسيرة عدا أصحاب خيبر الذين كانوا أصحاب قوة وفرد وذللك لعدم وجود منافس لهم في محيطهم .

القسم الثاني : العرب

العَرَبُ : بالضم والتحريك خِلافَ العجم مؤنث ، وهم سكان الأماص وأماص

والأعرابُ : منهم سكان البادية لا واحدة لها • ويجمع أعراب

وعرب عاربة وثرباً وعربة صرحاً

ومتعربة ومستعربة : دخلاء

وعربي : بين العروبة والعروبية

والعربي : شعيراً أبيض ، وسنبلة حرقان

والإعرابُ : الإبانة والافصاح (عن النبي*) (١)

ع ر ب - (العرب) جيل من الناس ، والنسبة اليهم عربي ، وهم أهل الأماص

والأعرابُ : فهم سكان البادية خاصة ، والنسبة اليهم أعرابي

وليس الأعرابُ جمعاً لعرب ، بل هو اسم جنس

والعرب العاربة : الخلف منهم ، أكد من لفظه (كليل لأمل) وربما قالوا (العرب العاربة)

وتعرب : تشبه بالعرب

والعرب المستعربة : بكسر الراء ، الذين ليسوا بخلف ، وكذا المستعربة : بكسر

الراء وتشديد ها •

والعربية : هي هذه اللنة

والعرب والعرب : واحد كالعجم والعجم

أعرب يحجته : أفصح بها ولم يتق أحداً ، وفي الحديث : الشيبُ تعرب عن نفسها (أى تفصح) (٢)

وجاء الاسلام ، ونزل القرآن الكريم منجماً في ثلاث وعشرين سنة في مكة والمدينة ، فلم يرد

فيه من الجوزع - ر - ب الا ثلاث صيغ :

١ - عرباً : جمع عرب (بفتح العين) نعنا للمرأة المتحبة الى زوجها (عرباً أترباً) (٣)

٢ - أعراب : وردت عشر مرات في سور مدنية فقط ، منها ست مرات في سورة التوبة

رحدها ، ولا حاجة بنا الى الاستشهاد على أن كلمة (الأعراب) تدل في القرآن وفي غير

القرآن على المبدوء .

(١) القاموس المحيط - الفيروزبادي ١ / ١٠٦ مادة * عرب*

(٢) مختار الصحاح - الرازي ص ٤٢٢ تهذيب الصحاح - الزنجاني ١ / ٢٥

(٣) سورة الواقعة آية ٢٧



كتاب تاريخ العرب قبل الاسلام - جري زيدان

القرآن على البدو

٣ - أما الكلمة الفاسلة في هذا الشأن فهي كلمة "عَرَبِيٌّ" التي وردت في القرآن الكريم إحدى عشر مرة في سور مدنية وسور مكية أيضا ، غير أن هذه الكلمة وردت عشر مرات نصا للجنة التي نزل بها القرآن الكريم ، بأنها لغة واضحة بينة من هبّط قوله تعالى : " إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ " (١) أي تفهمون . ويبدو أن هنالك مكانا واحدا استعملت فيه الكلمة "عربي" لتتبع شخص الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَجَبِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَبِيٌّ وَعَرَبِيٌّ) (٢) أي أكتاب أعجبي اللسان زبني عربي ٢٠٠٠

وإن كلمة "عرب" في رأى فريق من العلماء ذات صلة بكلمة ARABHA "عربنا" العبرية التي تعني "الأرض المظلمة" أو "السهوب" أو بكلمة EREBH "عريب" التي يحيهاها السكان الحضريون ، هذه الحياة التي يرفضها البدو ويحتقرونها ، أو من كلمة ABHAR "عابر" وتعني بالعبرية "تعرك" أو "عبر" ومنها اشتق اسم اللغة العبرية .

إن الربط بين كلمة (عرب) وحياة البداوة والتنقل أمر ليس بالبعيد الاحتمال ، لأن العرب أنفسهم - بما في ذلك القرآن الكريم - قد استعملوا كلمة أعراب للدلالة على البدو والذين تعتمد حياتهم على النجعة والانتقال ويعكس سكان المدن في الجزيرة الذين كانوا مستقرين ويمارسون الزراعة والتجارة وغيرها من أعمال الحضرة . ومن هنا جاء التفرقة بين عرب وأعراب ، إذ يقول القرآن الكريم : " الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا " (٣) . والأعراب هنا تستعمل بمعنى البدو وحسبما جاؤوا في كل التعابير (٤)

مصادر تاريخ العرب قبل الاسلام :

١ - الكتب العربية : أقدم المصادر العربية المعروفة المدونة من تاريخ العرب وأصحابها القرآن الكريم . فقد جاء فيه ذكر بعض القبائل البائدة كعباد وشمود ، وبعض أخبار ملوك اليمن كسيل العم وغيره . وإذا قرأت تلك الأخبار فيه لا تجد فيها شيئا من المبالغات التي وصلت

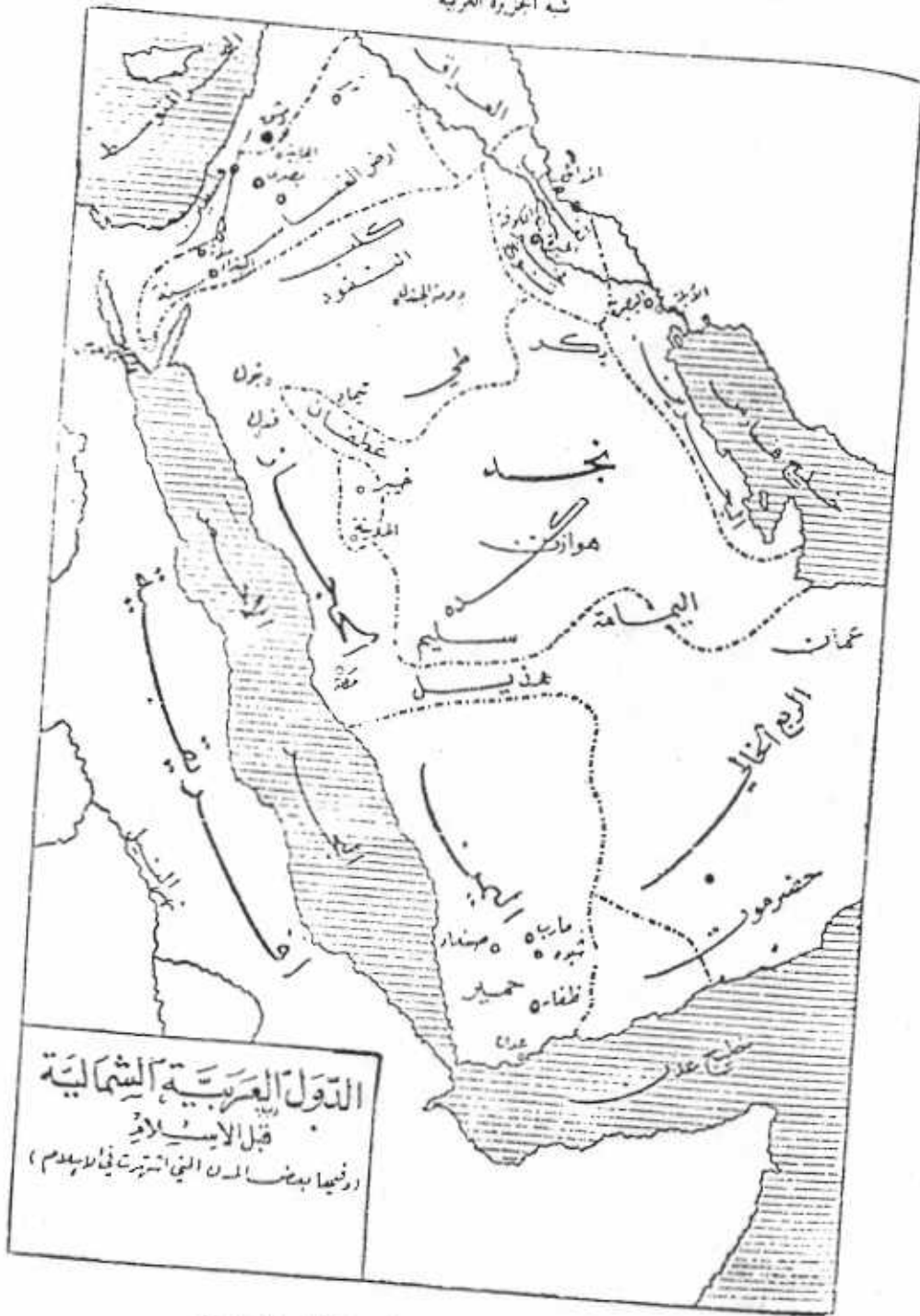
(١) سورة يوسف آية ٢

(٢) سورة فصلت آية ٤٤

(٣) سورة التوبة آية ١٧

(٤) تاريخ العرب القديم - عاقل ص ٤٧

شبه الجزيرة العربية



خريطة مأخوذة عن تاريخ العرب انقريز تخطيط سنهي

عن كتاب - الحضارات - لبيب عبد الوارث

الينا في كتب التاريخ بل تجد ما ذكره القرآن الكريم صحيحا تؤيده الاكتشافات الحديثة، والبحوث العلمية الدقيقة ويدل ذلك على أن تلك المبالغات أو الخرافات أدخلها أهل الأفراس أو الظالمون ممن دخل الاسلام من اليهود والمجوس وغيرهم . لأن العرب كانوا يستفتونهم في تفسير ما أغض عليهم فيفتونهم بما تعودوه في كتبهم من المبالغة في فخامة الأجسام وطول الأعمار ، فلما ذكر القرآن الكريم عادا يقول الله تعالى : (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَّ رَبُّكَ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ أَخَذَ مِنْهُمُ الذِّيَابِ . أَلَمْ يَخْلُقْ مِنْهَا نَارًا كَالنَّارِ . فَادْخُلِ الْمَغْرِبَ فِي سَمَاءِ لَيْلٍ فَارْجُؤْهُ فِي مَوَاقِعِ الْقَارِعَةِ إِذْ يَخْتَصِمُونَ) (١) . فأدخل المغربون في شرحها وتفسيرها مبالغات رواها بعض من هؤلاء الذين أسلموا ظاهرا وبقوا على عقائدهم في السر (٢) .

٢ - مصادر أخبار العرب :

أ- أشعار العرب وأمثالهم وأقوال كانت شائعة بين العرب في صدر الاسلام يتناقلونها نظما أو نثرا ، ويدخل فيها أخبار البدو وأيام العرب ، وحرورهم ووقائعهم وعاداتهم وأخلاقهم فدونها في جملة ما دونوه نقلا عن الرواة كالأصمعي وأبي عبيدة وغيرهما وقد ضاع أكثر ما دونوه .

ب- الآثار المسيحية : لأنهم كانوا في صدر الاسلام يقرأون الخطب السند ، وكان في اليمن جملة من العلماء عندهم العلم والحكمة ، وأخذوا عنهم ، وعن الآثار تاريخ اليمن وأخبار السد وغيره ، وأقدم من دون ذلك محمد بن اسحاق في السيرة النبوية .

ج- أخبار اليهود في الحجاز واليمن وغيرهما .

د- كتابات النصارى في العراق ، فقد كان في الحيرة لما ظهر الاسلام كتب في السريانية والفارسية واليونانية اقتبس المسلمون منها كثيرا .

تم نقل هذه الأخبار دون تحييص في بداية التدوين ، ثم لما اكتمل للعرب نضج تمدنهم قام غير واحد من المؤرخين النقاد كإبن الأثير " ياقوت " ، وإبن خلدون وغيرهم فالتفتوا كثيرا مما ورد عن تاريخ العرب . (٣)

يضاف إلى ذلك ما ورد عن أخبار العرب في التوراة والمؤرخين الرومان واليونان من (هيروdotus) ٤٨٠-٤٢٥ ق م وحتى (استيفانوس) البيزنطي ٥٦٢ م أي ما يقارب الألف عام ، ثم المصادر المنقوشة على الآثار في بلاد الغرب مثل الخطب المسماة بالاسفيني والخطب النبطي ويعتقد المؤرخون بأن حضارة العرب لا تقل بحال عن حضارة مصر وابل ، ولكن الرمال طمرتها ودثرت

(١) سورة الفجر آية ٦ - ٨

(٢) العرب قبل الاسلام - زيدان ص ١٧ عن تاريخ التمدن الاسلامي ج ٣

(٣) العرب قبل الاسلام - زيدان ص ١٩ وقد أورد المؤلف سردا للكتب العربية والأجنبية التي اعتمد عليها في تأليف كتابه المذكور (العرب قبل الاسلام) . وكذلك التاريخ

العرب؛ اصطلاح مؤرخو العرب أن يقسموا تاريخ العرب قبل الاسلام الى قسمين : العرب البائدة
والعرب الباقية .

ويريدون بالبائدة القبائل القديمة التي بادت قبل الاسلام . والباقية عندهم قسمان :

١ - العرب القحطانية : من حمير ونحوها من أهل اليمن ونحوها

٢ - العرب العدنانية : في الحجاز وما يليها ، واختلفت أقطار الباحثين في ذلك اختلافا

كثيرا .

وقد تبين لنا بدرس أحوال العرب وتاريخهم من أقدم أزمانهم الى ظهور الاسلام أنهم سكنوا
بثلاثة أدار كبرى ، كانت السيادة في البداية في البدو الأولى أو القديم لقبائل القسم الشمالي من
جزيرة العرب ، وأكثر من العرب البائدة .

وفي البداية أو المتوسطة كانت السيادة فيه لعرب القسم الجنوبي وأكثرهم من القحطانية
والدو الثالث والأخيرة كانت السيادة فيه الى الشمال ، وينتهي بظهور الاسلام وأكثر
قبائله من العدنانية . فنقسم هذا التاريخ الى ثلاث طبقات :

١ - العرب البائدة أو عرب الشمال ومنها عاد وثمود وطسم وجويهي وغيرهم .

٢ - القحطانية أو دول الجنوب ومنها سبأ وحمير ومن تفرغ عنهم بعد خراب سد مأرب (١)

٣ - العدنانية أو عرب الشمال في الظهور الثاني وهم قريش وحلفائها ، وقبلهم الأنباط وغيرهم
جميع العرب يرجعون إلى ولد ثلاثة رجال وهم : عدنان ، وقحطان ، وقضاة ، وعدنان
من ولد اسماعيل بلا شك في ذلك إلا أن تسمية الآباء بينه وبين اسماعيل قد جهلت جملة
وتكلم في ذلك قوم بما لا يصح - فلا نتعرض لذكر ما لا يقين فيه - وأما كل من تناسل من ولد
اسماعيل عليه السلام فقد غيروا ودرثوا ، ولا يعرف أحد منهم على آدم الأرض أصلا - حاشا
ما ذكرنا من أن من بني عدنان من ولده فقط (٢) .

روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه اذا انتسب الى معد بن عدنان أمسك ، ثم يقول :
كذب النسابةون . وقرأ صلى الله عليه وسلم " وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا " (٣)

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : اني لأنتسب الى معد بن عدنان ، وما بعد - لأدرى
ما ضر ٢٠٠ (٤)

(١) العرب قبل الاسلام - زيدان ص ٤٨ تاريخ العرب قبل الاسلام - عاقل ص ٣٧ فما بعد

(٢) جمهرة الأنساب - ابن حزم ص ٧

(٣) سورة الفرقان آية ٢٨

(٤) الروس الآنف - السهيلي ١١/١

بعض المؤرخين لا يبتعدون كثيرا لتحديد ما عرف بالعصر الجاهلي عن مئة وخمسين عاما قبل ظهور الاسلام ، وما سبق ذلك يطلقون عليه اسم الباهلية الاولى ، وهي الفترة التي سادت جزيرة العرب قاطبة . وينبغي ان نعرف ان كلمة الباهلية التي أطلقت على هذا العصر ليست مشتقة من الجهل الذي هو ضد العلم وتقيضه (١) وانما هي مشتقة من الجهل بمعنى السفه والنضب والنزق ، وهي تقابل كلمة الاسلام التي تدل على الخضوع والطاعة لله جل وعز ، وما يطلو فيهما من سلوك خلقي كريم .

ودارت اللمة في الذكر الحكم والحديث النبوي الشريف والشعر الجاهلي بهذا المعنى من الدمية والطيش والغضب قال تعالى : " خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين " (٢) وقال : " قالوا أنتخذنا هزوا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين " (٣) وقال : " رعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما " (٤) وفي الحديث الشريف : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبي ذر وقد غير رجلا بأمه :

ابنت امرؤ نيك باهلية .

القبائل العربية البدوية :

١ - طبقات القبائل : هذه النظرة الخاصة بتعريف القبيلة هي التي حملت أهل الألساب والأخبار على اطلاق لفظ القبيلة على الحضرة (سكان المدن والواحات) إضافة إلى البدو (سكان الخيام والمترحلون) . مع أن الحضرة استقروا وأقاموا ، فقرش عند هم قبيلة والأوس والخزرج قبيلة ، وثقيف قبيلة (٥)

ولكل قبيلة جد تنتهي إليه ، وتفاخر وتبها هي به ، وقد يكون هذا الجد حقيقيا أي انسانا ، عامي ومات رساد القبيلة وترك أثرا كبيرا في قبيلته حتى نسبت إليه ، وقد يكون الجد اسم حلف تكون وتألف من قبائل عديدة حتى عرفت به ، ودعيت بذلك الحلف ، وصار وكأنه جد وانسان عاش . ومن هذا القبيل اسم (تنوخ) على حد زعم أهل الأخبار . فقد روي أن (تنوخ) قبائل عديدة اجتمعت وتحالفت وأقامت في مواضعها . وقد يكون اسم موضع ، أقامت قبيلة به فنسب إليه ، كما يذكر أهل الأخبار عن اسم " غسان " . وقد يكون اسم إله عبد فنسب إليه عباده مثل بنو (سعد العشيرة) و (تالب ريام) جد قبيلة همدان وقد يكون اسم نبات أو حيوان وما شابه ذلك (٦)

٢ - مراتب القبائل :

رتب علماء الأنساب قبائل العرب على مراتب هي :

شعب ، ثم قبيلة ، ثم عمارة ، ثم بطن ، ثم فخذ ، ثم فصيلة .

(١) مادة جهل التاموس المحيط - الفيروزبادي ٣ / ٣٦٤ (٣) سورة الأعراف - آية ١٩٩

(٤) سورة البقرة آية ٦٢ (٤) سورة الفرقان آية ٦٣ انظر تاريخ الأدب العربي - ص ٣٩

(٥) جواد علي - تاريخ ٤ / ٣١٣ (٦) المصدر السابق ٤ / ٣٤٠

فالشعب : النسب الأبعد مثل عدنان ، قحطان .

والقبيلة : مثل ربيعة وهضر

والعمارة : مثل قريش وكنانة

والبطن : مثل عبد مناف ، وبنو مخزوم ، وبنو هاشم ، وبنو أمية

والفصيلة : مثل بني أبي طالب ، وبنو العباس (١)

وجعل ابن الكلبي مرتبة بين الفخذ والفصيلة وهي مرتبة العشيرة وهي رهط الرجل (٢)

وبنى النويري لمبقات القبائل على عشر طبقات وهي :

البدنم ، والجماهير ، الشعوب ، القبائل ، العمائر ، البطون ، الأنفان ، العشائر ، الفصائل
الأرهاط (٣)

ورتب (نسوان بن سعيد الحميري) القبائل على هذا النحو :

الشعب ، ثم القبيلة ، ثم العمارة ، ثم البطن ، ثم الفخذ ، ثم البديل ، ثم الفصيلة

وجعل مضمثال للشعب ، و"كنانة" مثال القبيلة ، و"قريشا" مثال العمارة و"فهر" مثال

البطن و"قسيا" مثال الفخذ و"هاشما" للبديل ، و"آل العباس" للفصيلة (٤)

واكثر علماء النسب يقدرون الشعب على القبيلة ، والظاهر أن الفخره كانت قد اختمرت فسي

رؤوس الجاهليين الذين عاشوا في الجاهلية القريبة من الاسلام حتى ظهرت عند هم الفكرة

القومية بمعنى واسع ، وحيث نجد عند هم ظهور الكلمات التي تشير إلى هذا المعنى ، قبل

اطلاقهم العرب على العرب جميعا اصطلاحا ، وحيث أخذ الحس القومي يظهر بين القبائل

برجوب التكتل لمكافحة "الغزاة" كالذي حدث في معارك اليمن مع الجيش "الأحباش"

وفي معارك عرب العراق مع "الفرس" .

وقد قدم القرآن الكريم الشعوب على القبائل " وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا . إِنَّ

أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاكُمْ " (٥)

فالشعوب هنا فوق القبائل ، وتعبر عن هذا المعنى الواسع الذي أتحدث عنه .

(١) بلوغ الأرب ٣ / ١٨٢ فما بعد لسان العرب ١٤ / ٧٥ - البطن دون القبيلة وقيل

هودون الفخذ وفوق العمارة اللسان ١٦ / ١٩٩ الاكليل ١ / ٢٢

(٢) العقد الفريد ٣ / ٢٨٣ فما بعد

(٣) نهاية الأرب ٢ / ٢٦٢ فما بعد

(٤) المنتخبات ص ٥٥ حاشية جواد علي - تاريخ ١ / ٥٠٩ فما بعد

(٥) سورة الحجرات آية ١٣

الأوس والخزرج

١ - أصل الأوس والخزرج :

يتصل الأوس والخزرج وهما أخوان بنسبهما إلى فن عرب قحطان من عرب الجنوب الذين رحلوا إلى الشام ، وأقاموا في الشمال دولا وتجمعات وقوى مختلفة على مرالدهور ، وبرز من أجداد الأوس والخزرج ثلاث كان لهم في التاريخ شأن كبير وهم - من الأدنى للأعلى -
" عمرو مزينيا ، والأزد ، وقحطان .

ونسب الأوس والخزرج هما (١) ابني حارثة بن ثعلبة بن (عمرو مزينيا) بن عامر بن ماء السماء (٢) ابن حارثة القطريف بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن (الأزد) بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن يشجب بن يعرب بن قحطان) وورد أنه (يقطان بن عابر بن شامخ بن أرفخشذ بن نوح عليه السلام) .

وفي رواية التوراة أن يقطان ولد له : المراداد ، وشالف ، وحضرموت ، وياح ، وهدرام ، وأوزال ، ودقلة ، وعوالم ، وأبيمايل ، ونسبا ، وأوفير ، وحويلة ، ويوباب . جميع هؤلاء بنو يقطان وكان مسكنهم من ميساحينما "نجي" نحو سفار جبل المشرق (٣)

وان أهل يثرب من الأوس والخزرج وهم من قحطان في عرف النسابين كانوا قد انتسبوا إليه قبل الاسلام ، أخذوا ذلك من اليهود والنازلين بينهم الذين كانوا يحاولون التقرب إلى أهل يثرب للعيش معهم عيشة طيبة ، فأشاعروا - أي اليهود - بين الناس أن "عابرا" وهو جد العبرانيين ، ولد ولدين هما (فانج) و(يقطان) (٤) وأن علاقتهما لذلك بهم هي علاقة أبناء عم بأبناء عم .

ولما نزل الوحي بخبر "هود عليه السلام" وتفاخر المكرون على أهل يثرب بالاسلام استعمار أهل يثرب هوداً وهيروهم قحطانياً أو ابناً له ، وانتسبوا إليه ليظهروا بذلك أنهم كانوا أيضاً من نسل نبي ، وأن نبوة قديمة كانت فيهم .

(١) صفحة ٦٥ من هذا الكتاب

(٢) عامر ماء السماء لبث الأخير على الأول وليس شخصين منفصلين

(٣) الكتاب المقدس - سفر التكوين - الاصحاح العاشر ١٦-١٧

(٤) ورد في التوراة ولعابر ولد ابنان اسم الواحد (فالج) لان في أيامه قسمت الأرض واسم أخيه (يقطان) المصدر السابق نفس الصفحة

نسب الأوس والخزرج

قحطان بن مود (يقطان)

يعرب

يشجب

سبا

كهلان

زيد

مالك

نبت

الفوت

الازد

عمرو

اراش

اقيل

زاد الركب (غسان) زهران ميدعان الهلو مازن الهلو قدار مالك نصر دوس عمرو

شعلبة
(امرئ القيس (البيريق))

حارثة القطريف (١) عدلي التوام

عامر ماء السماء

عمرو مزقييا (الغسانة) (٢)

خزاعة عمران حارثة حارثة الفقهاء جفنة كعب الحارث مالك

(نزلوا على ماء يسمى غسان فنسبوا اليه)

الحجر الأزد عتيك

حارثة

الأوس

الخزرج (٦)

عدلي (بارق)

مالك الحارث كعب جشم عوف عمرو

(النجار) تميم الله

امرئ القيس جشم عوف عمرو مرة
أهل بقاء النبيت الجعادرة

(٥)

عدي مازن دينار

غنم معاوية عامر (بندول)
(٤)

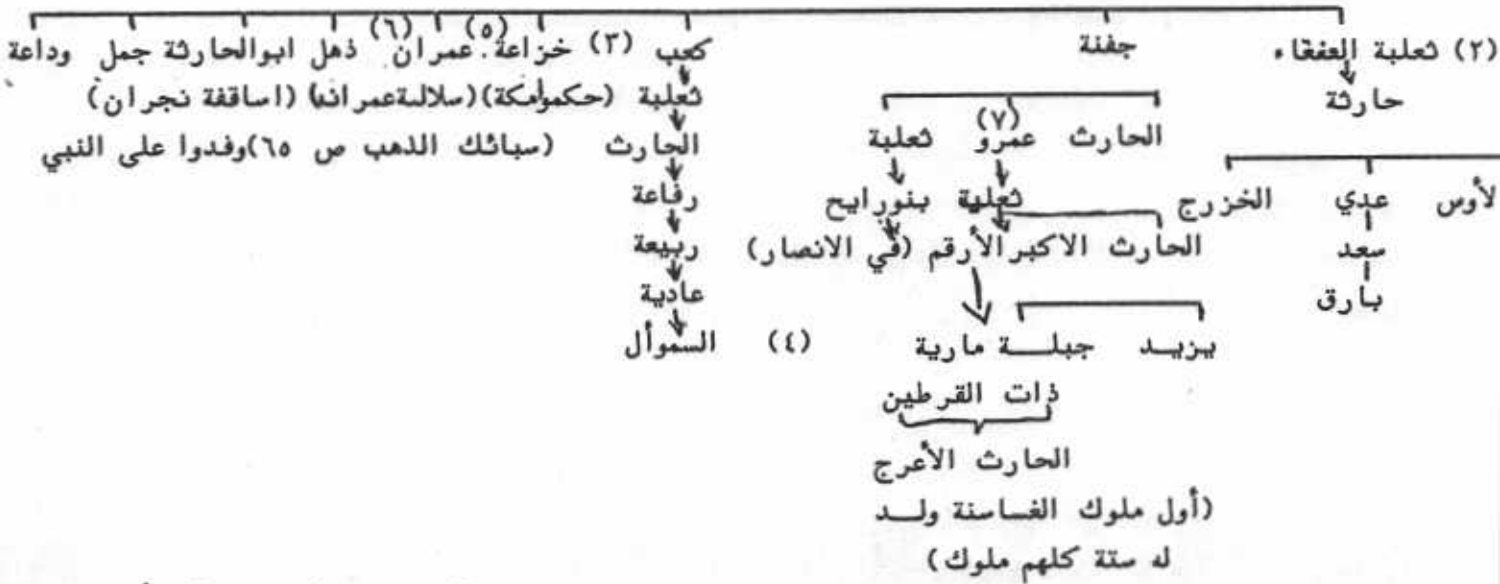
(١) في كتاب سبائك الذهب ورد (حارثة القطريف) ص ٦٤ وكذا في جمهرة أنساب العرب ص ٤٧٣-٤٧٤
(٢) جمهرة أنساب العرب ص ٤٧٣
(٣) جواد علي - تاريخ ٢٧٤/١ جمهرة أنساب العرب ص ٢٢١
(٤) جمهرة أنساب العرب ص ٢٤٦
(٥) جمهرة أنساب العرب ص ٤٧٠
(٦) الكامل - ابن الأثير ٤٠٠/١



تاريخ العرب قبل الإسلام - جزئي زيدان

(٨) عامر ماء السماء بن حارثة الفطريف بن امرئ القيس (البطريق)
(٩)

عمرو مزيفياً (١)



(١) عرف عمرو بمزيفياء حين فرقههم الله عز وجل وهو قوله تعالى " ومزقناهم كل ممزق " الأنساب ٥٣ / ٢ وقيل بنوه بطن من الأزد وكان ملك اليمن ، وإنما سمي مزيفياً لما ذكر في القاموس أنه كان كل يوم يلبس حليتين ويمزقها بالشمع يكره السوداء فيهما ، ويأنف أن يلبسهما غيرهما (سبائك الذهب ٦٤)

(٢) سمي ثعلبة الغفقاء لطول عنقه

(٣) عرف كعب باسم قاتل الجوع

(٤) يشرب به المثل بالرفاء ، وكان السموأل يهودياً وهو صاحب تيماء وهو سمريل فأعربتته العرب والسموأل : الأرض السهلة اذا اشتق من العربية ، وهو أول من عذب بالنار فسمي " المحروق "

(٥) خزاعة : واسعة حارثة

(٦) قتل عامل الروم وقال : خذ من جدي ما أعطاك فذهبت مثلاً

(٧) منه كانت ملوك غسان على ما قال شرقي بن القطامي (الانساب ٥٣ / ١)

(٨) ولقب عامر " ماء السماء " لسماحته وبذله ، كأنه ناب مناب العطر ، وقيل لشرفه

(٩) امرئ القيس (البطريق) : لأنه أول من استعان به بنو إسرائيل من العرب بحسد بلقيس (فبطرقه).

رحبهم بن سليمان بن داود عليه السلام فقيل له " البطريق " وتسمية البطريق ليس ممن

يهود فلا بد أن تكون التسمية رومانية التامل - ابن الأثير ٤٠٠ / ١

من أجداد الأوس والخزرج :

لقد برز من أجداد الأوس والخزرج عدد من الجدود أهمهم ثلاثة هم : قحطان بن هود والأزد ، وعمرومزيقيا . ومن المستحسن أن نلقي نظرة سريعة عليهم . نظراً لارتباط تاريخ الأوس والخزرج بهم .

١ - قحطان بن هود : (١) وقد اتخذ القحطانيون هوداً جدهم من أجدادهم ، وألحقوا نسبهم به (وهو النبي هود عليه السلام ، المرسل إلى عاد ، المذكور في القرآن الكريم ، وهو أبو قحطان قحطان بن هود) قال حسان بن ثابت :

أبونا نبي الله هود بن عابر

وهو : هود بن عابر بن ارفخشذ بن سام بن نوح (٢)

فعلوا ذلك بدافع العصبية والمفاخرة على العدنانيين الذين كانوا يقولون أن فيهم الأنبياء . كما أوجدوا لهم نسبا احتكر لهم العروبة وجعلهم الأصل ، والعدنانيون من الطارئین عليهم . وإذا صح الشعر المنسوب إلى حسان بن ثابت والذي افتخر فيه بانتسابه إلى " هود بن عابر " وبأن قومه وهم من قحطان منهم وهو لهذا الشاعر حقاً يكون لدينا أول دليل يثبت أن هذا الانتساب كان معروفاً عند ظهور الإسلام .

أما الطبقة الثانية من طبقات العرب البائدة فهي (العرب العاربة) على أقوال النسابين وهم من أبناء قحطان ، وأسلاف القحطانيين المنافسين للعرب العدنانيين الذين هم من العرب المستعربة في عرف النسابين .

وقيل أن قحطان بن الهيمسح بن تيم بن نبت بن اسماعيل عليه السلام . ويدل له تبرؤ البيهقي بأن نسبه اليمن إلى اسماعيل ، وأورد فيه الحديث المتضمن لمخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم ، بني أسلم بأنهم من بني اسماعيل ، وأسلم هو ابن قضى بن حارثة بن عمرو بن عامر بن حارثة بن امرئ القيس صاحب النسب المقدم . فدل على أن اليمن بنى قحطان من بني اسماعيل وهو ظاهر قول أبي هريرة في الصحيحين في قصة هاجر " فتلك أممك يا بني ما السما " .

(١) وردت كلمة " هود " و " هودا " في القرآن الكريم للدلالة على نبي الله " هود " عليه السلام وما جرى له مع قومه في سورة هود الآيات ٥٠، ٥٢، ٥٨، ٦٠، ٨٩ وهي السورة رقم (١١) وفي سورة البقرة الآيات ١١١، ١٣٥، ١٤٠ وفي سورة النحر آية ١٢٤ وفي سورة الأعراف آية ٦٥ . (المعجم المفهرس ص ٢٣٩ وقصص الأنبياء - ابن كثير ص ٩٣ فما بعد قصة النبي هود

(٢) الحراشي من المصدر : ابن خلدون - تاريخ ٢ / ٢٠ نهاية الأرب - ١٣ / ١٥

ديوان النابغة مع شرحه (للبيهقي ص ٦٣ فما بعد . التنبية والاشراف ص ٢١

" الأزدي " قبيلة عربية ، وتكتب أحياناً " الأسد " ويجب أن لا يدعونا هذا إلى الخلط بين هذا الاسم وبين " أسد " من غير أداة التحريد ، ويقال أن اسمها الأصلي " دَرَّاء " ونسب هذه القبيلة هو : الأزدي بن العوث بن قرن بن مالك بن زيد بن كهلان ابن سبأ ، وقد تفرع عن هذه القبيلة المتشعبة أربعة بطون هي :

١ - أزدي عمان : وتذكر قريش انتساب أزدي عمان خاصة إلى العرب ، ويعيش هؤلاء في الناحية من صيد الأسماك ، وكانت العرب تسخر منهم لهذا في كثير من الأحيان ، كما يظهر أنهم لقبوا به (مزون) لهذا السبب أيضاً .

٢ - أزدي السراة : في الجبال المعروفة بهذا الاسم في اليمن ، وقد اشتهروا بالنسي وكان يسخر منهم لذلك

٣ - أزدي شنوة يكتب ونادراً أن تكتب شنوة ، والنسبة إليها سنائي ونسبهم هو كتب بن الحارث بن كتب بن عبد الله بن نصر بن الأزدي ، وهم أيضاً يعيشون في السراة وشنوة اسم ناحية باليمن ويظهر أن هؤلاء هم في الحقيقة أزدي السراة

٤ - أزدي غسان - مازن في شمال جزيرة العرب وفي بلاد الشام وكان الأوس والخزرج في المدينة وخزاعة في مكة وماجاورها يحدون من الأزدي أيضاً ، وكان المهلب بن أبي صفرة من بني الحنظلي وهي عشيرة عبد الله بن الأزدي ، كما ينسب أبو هريرة إلى عشيرة دوس .

وموطن الأزدي هي : أبيدة في السراة ، بارق وهو جبل في السراة أيضاً ، حديد وهو جبل حالياً في اليمن ، ومكنونة في اليمن ، وراة في اليمن كذلك ، ومأرب في اليمن والغفس في كومان والفتنة وريسوت وهي مكان حصين على الشاطئ ، والسرد وتثنيث في السراة ، وتندق في السراة أيضاً ، وثمام في اليمامة ، ويسكن الأزدي جزءاً منها فقط والعُداف وهو جبل في السراة (٢)

(١) بلوچستان - معن شناع ص ٩٢ فما بعد

(٢) دائرة المعارف الإسلامية - خورشيد ١٦٨ / ٣ أو ٣٨ / ٢ طبعة دار المعرفه

ويظهر من فحص روايات الاخباريين عن الأزدي أنها كانت مجموعة ضخمة من القبائل ، ودليل ذلك عدد النسابين إياها جرثومة من جراثيم قحطان ، وذكروا أنها كانت سبعاً وعشرين قبيلة (الأنباء ص ١٠٦) منها الأوس والخزرج وهم من نسل حارثة بن ثعلبة بن عمرو مزنيقيا، بن عامر بن السمان بن حارثة الخطري (١)

وقد جعل بعض علماء الأنساب الأزدي ست وعشرين قبيلة يجمعها جميعها الأزدي وهي جفنة وغان والأوس والخزرج ، وخزاعة ومازن وبارق وألمع والحجر وعتيك (العتيق) ، وراسب وفامد ، ووالبة ، ونمالة ، ولسبب رزهران ودهمان والحدان وشكر وعك ودرس ، وفهم والبهاضم والأشقر والقاسم والفرايد (٢)

وعندما علت راية الاسلام على كل راية عام تسع للهجرة قد وفد من تبقى على الشرك من الأزدي على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما هم عليه من هيئة وسمت وذوق رفيع وأدب عال فقال لهم : من أنتم ؟ قالوا : مؤمنون . فتبسم عليه الصلاة والسلام ثم قال : ان لكل قول حقيقة . فما حقيقة قولكم وإيمانكم ؟ قالوا : خمس عشرة خصلة خمس منها أمرتنا رسولك أن نؤمن بها ، وخمس أمرتنا أن نعزل بها ، وخمس تخلقنا بها في الجاهلية فنحن عليهم إلا أن نكره منا شيئاً .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ما الخمس التي أمرتكم رسلي بها ؟ قالوا : أمرتنا أن نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، والبعث بعد الموت .

قال : وما الخمس التي أمرتكم أن تعملوا بها ؟ قالوا : أمرتنا أن نقول لا إله إلا الله ونقيم الصلاة ونؤتي الزكاة ، ونصوم رمضان ونحج البيت إن استطعنا إليه سبيلاً . قال : وما الخمس التي تخلقتم بها في الجاهلية ؟ قالوا : السكر عند الرخاء ، والصبر عند البلاء والرضا عند القضاء ، والصدق في مواطن اللقاء ، وترك السماتة بالأعداء .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم معجباً بهم : حكماً علماء ، كادوا من فقهم أن يكونوا أنبياء ثم قال صلى الله عليه وسلم : وأنا أزيدكم خمسا * فتم لكم عشرون خصلة إن كنتم كما تقولون فلا تجمعوا ما لا تأكلون ، ولا تبسوا ما لا تسكنون ، ولا تنافسوا

(١) جواد علي - تاريخ ٤/٤٣٦

(٢) جواد علي - تاريخ ٤/٤٤١ - ٤٤٢ وابن خلدون - تاريخ ٢/٢٥٣ ، أبي الفداء

في شيء أنتم عنه زائلون ، واتقوا الله الذي إليه ترجعون وعليه تحرضون ، وارغبوا فيما أنتم فيه تقدمون ، وفيه تخلدون ، فانصرفوا وقد حفظوا وصيته صلى الله عليه وسلم وعملوا بها (١) حدثنا زيد بن أبي الزرقا باسناد عن أبي هريرة قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : نعم القوم الأزدي ، طيبة أفواههم ، فخرة أبدانهم ، تقية قلوبهم .

وباسناد عن أبي قلابة قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : الأزدي لا يخيبون ولا يعلمون هم مني وأنا منهم ، من لم يكن له أصل بالعرب فليحق بالأزدي فانهم أصل العرب عن وكيع بن مسعود التميمي قال : حضرت معاوية بن أبي سفيان فسمعتة يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الأمانة في الأزدي وحضرموت فاستعينوا بهم .

وعن أنس بن مالك أنه حضره رجال من التغالبة ورجلان من الأزدي ، فقال التميمي : يا أبا حمزة من ذانك الرجلان ؟ فقال : من الأزدي ، فقال التميمي : نعم الحي الأزدي ، إلا أنه لاسابقة لهم . فقال أنس بن مالك : وأي سابقة أفضل من الأنصار منهم ، ثم قال : ادعنا عن قومكما أما والله لو كان هاهنا عبد الحميد بن محمود المصولي ، أو عبد الله بن فضالة الزهري أني لدعنا عن قومهما .

عفاف

وعن عبد الله بن إدريس عن يحيى بن صالح الليثي قال : قدم على عثمان بن عفان، ابن عرابية العبسي من مدحج وصريح ، وهما حيلان باليمن من جماعة في قومه ، فغرض لهم عثمان بن عفان العطاء وألحقهم بالناس ، وقال : مرحبا بكم سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : الايمان يمان الأرحى الإيما ن دائرة في قحطان ، والجفا والقسوة في ولد عدنان — انتهى — أهل اليمن دعائم الاسلام وعمود الدين ومادة المسلمين . حمير رأس العرب وبابها وكده لسانها وسنامها ، ومدحج هامتها وغلصمتها (٢) والأزدي جمجمتها وكاهلها وهمدان ذروتها وقاربها وكان يقال : مازن غسان أرباب الملوك ، وحمير أرباب العرب ، وكعدة كعدة الملوك ومدحج مدحج الطعان ، وهمدان أحلاس الخيل ، والأزدي أسد الباس ، وتسمى أيضا أسد الله وتسمى السنينة (٣)

(١) العرب في الشام — باشميل حاشية ص ١٧٢ — ١٧٨

(٢) الغلصمة : رأس الحلقوم وهو المرضع الثاني من الحلق

(٣) الأنساب — الصحاري ٢ / ٤٣ — ٤٤

٣ - عمرو مزيقيا ، : لقد غلب على الأزدي تورق قبائلها وحملها هذا الاسم مع انتسابها لجد واحد ولعل شهرة الأزدي جاءت بتفرقها بعد عمرو مزيقيا ، الجد ذو الشهرة الكبيرة في أجداد الأوس والخزرج . ويزمن عمرو مزيقيا ، هذا توزعت الأزدي وابتعدت وأخذت لها مواطن غير موطنهم الأصلي ، وبقي اسم (الأزدي) يغلب على هذه القبائل قبل عمرو وبعده .
فلما نانت دولة عمرو مزيقيا منهم من الأزدي - ضرب بين الجبلين سداً بالصخر والفار يحبس سيرول النيران والأمطار حتى يصرفوه من خروج في ذلك السد على مقدار ما يستاجنون إليه في سقيهم ، ومكث كذلك ماشاء الله أيام حمير ، فلما تقلص ملكهم وانحل نظام دولتهم ، وتغلب بادية كهلان على أرض سبأ ، وانطلقت عليها الأيدي بالعبث والفساد ، وذهب الحفظ القائمون بأمر السد أنذروا بخرابه . وكان الذي أنذره عمرو مزيقيا ملكهم لما رأى من اختلال أسواره ، وذلك أنه رأى جزئاً تحفر في السد فعلم أن لابقاء للسد مع ذلك ، فأجمع النقلة من اليمن ، وكاد قومه بأن أمر أصغر بنيه أن يلمطه إذا أغلظ له ففعل فقال : لا أقيم في بلد يلطمني فيه أصغر ولدي وعرض أمواله . فقال أشراف اليمن اغتموا غشبة عمرو فاشتروا أمواله وانتقل مع ولده وولد ولده . فقال الأزدي ، لانخلف عن عمرو ، ثم أجمعوا على الرحلة ، وباعوا أموالهم وخرابوا معه .

وكان رؤسأوهم حينئذ بني عمرو مزيقيا ومن اليهم من بني مازن بن أزد وينو عمرو قبيلة من بنسي مازن ، لأن عمرو هو ابن عامر ويلقب بـ "السما" ، بن حارثة الغطريف ابن امرؤ القيس البهلول ابن ثعلبة بن مازن بن الأزدي (١)

وعمر مزيقيا بنوه بطن من الأزدي ، وكان ملك اليمن ، وإنما سمي "مزيقيا" لما ذكرني القاموس من أنه كان كل يوم يلبس حلتين ويمزقها بالعشي ، يكره العودة فيهما ويأنف أن يلبسهما غيره (٢)

وينسب عمرو مزيقيا إلى عامر "السما" الذي خلف عمران الكاهن ولم يعقب .

(١) كتاب دائرة المعارف - البستاني ٢٩٨/٣ - العرب في الشام - باشميل ص ١٧٧

(٢) سبائك الذهب - القلقشندي ص ٦٤ - الروض الأنف - السهميلي ٢١/١

جواد علي - تاريخ حاشية ٤٣٦/٤ وتاج السروس ٦٩/٧

الأوس والخزرج

الأوس والخزرج : اسما طائر من سباع الظير شبيها بهما لبأسمهما وتجدتهما .
والأوس والخزرج : ابنا حارثة بن ثعلبة بن عمرو مزقيا بن عامر ما السماء بن حارثة الفطريف
ابن امرئ القيس البطريق بن ثعلبة البهلول بن مازن زاد الركب ، وهو غسان أبو الملوك
بن الأزد ، وعقبا تفرعت بطون الأنصار والخزرج ويطون الأوس ورجالها (١)
وهما هذان الحيان اللذان يعرفان بالأنصار ، أمهما قبيلة بنت الأرقم بن ثعلبة بن عمرو
ابن جفنة بن عمرو مزقيا بن عامر ، وعن ابن السكيت في روايته أنها " قبيلة بنت الأرقم بن سلمة
ابن عمرو بن جفنة بن عوف بن عمرو بن ربيعة بن حارثة بن عمرو مزقيا ، وأختها (مارية) ذات
القرطين ، وقال بعضهم ان مارية أخت ظالم بن وهب بن ربيعة بن معاوية بن الحارث الأصفر
ابن معاوية الذكبر . بن كندة .

وأختها (هند الهند) امرأة حجر آكل العرار ملك كندة ، وقال بعضهم من أهل النسب
أن أم الأوس والخزرج هي قبيلة بنت لاهل بن عمرو بن سود بن أسلم بن الحاف بن قضاع
بن مالك بن حمير (٢) وفي اللسان (٣)

أوس : الأوس : العطيّة . أُسْتُ الْقَرَى . أَوْسُهُمْ أَوْسًا إِذَا أُعْطِيْتَهُمْ وَكَذَلِكَ إِذَا عَوْضْتَهُمْ
من شي .

والأوس : العوض أسنّه ، أَوْسُهُ أَوْسًا : عَضَهُ ، أُعْضُهُ عَوْضًا . وقال الجعدي :
لبست أناساً فأفنيتهم
وأفنيت بعد أناسي أناساً
ثلاثة أهليْن أفنيتهم
وكان الإله هو المُستأَسَا

أي المستعاض . وفي حديث قبيلة ، رب أسني لما أعضيت : أي عوضني
والأوس : العَوْضُ وَالْعَطِيَّةُ (٤)

والخزرج : الخزرج من نعت الريح - ابن سيده -

الخزرج : ريج الجنوب ، وقيل : هي الريح الباردة . قال أبو ذؤيب :

(١) الأنساب - الصحاري ٦١ / ٢ . الكامل - ابن الاثير ٤٠ / ١ . أيام العرب في
الجاهلية - جاد المولى ص ٦٢ . السيرة الحلبية - علي الحلبي ٦ / ٢ ص ١١٨
وه ١٢٥ من هذا الكتاب .

(٢) الأنساب - الصحاري ٦٠ / ٢ وردت " قبيلة " في جميع المراجع ، إلا في الأنساب
فقد وردت " قبيلة "

(٣) لسان العرب ١ / ١٢٩ - ١٣٠ . أساس البلاغة - الزمخشي ص ٢٤ كلمة (أوس)

(٤) ترتيب القاموس - ١ / ١٩٦ . تهذيب الصحاح ١ / ٣٦٦ مادة (أوس)

فَدَوَّ عَجَالِي وَانْتَحَتْهُنَّ خَزْنٌ مُقْمِيَّةٌ آتَارُهُنَّ هَسْدِي

وقيل : وهي الشديدة ، قال الفراء ، خزن : هي الجنوب غير مجراه

والخزنج : اسم رجل

وهي أمها

والخزنج : قبيلة الأنصار . غيره : قبيلة الأنصار هي الأوس والخزنج ابنا قبيلة أنسبا إليهما ،

وهما ابنا حارثة بن ثعلبة من اليمن .

قال ابن الأعرابي : الخزنج : ربح الجنوب ، وبه سميت قبيلة الخزنج وهي أنفع من الشمال (١)

خ زج : الخزنج : ربح ، أو الجنوب ، والأسد ، وقبيلة من الأنصار ، وخزنجت النساء ، جمعت (٢)

وعن الأوس .

وروى : رب أئبني : من الثواب ، واستأسني فأسته : طلب إلى العوض

واستأسه : أي استأصه ، وإلياس : العوض .

والأوس : الذئب ، وبه سمي الرجل * ابن سيده * وأوس الذئب معرفة قال :

لما لقينا بالفلاة أوساً لم أدع إلا أسهماً وقوساً وما عديمت جراًة وكيساً

ولو دعوت عامراً وبسماً أصبت فيهم نجدة وأنساً

أبرعبيد : يقال للذئب : هذا أرسى عادياً وأنشد :

كما خامرتني حضنها أم عامرٍ لدى الحجيل حتى غال أوس عيالها

يعني : أكل جراًة ، ومنها أوس : اسم الذئب ، جاء مصغراً مثل النعيت وللجين

قال الهذلي :

يا ليت شعري عنك والامرأ أمم ما فعل اليوس أوسني الغنم

وأوس : تصغير أوس وهو الذئب .

وأوس : قبيلة من اليمن ، واشتقاقه من * آس * يروون أوساً ، والاسم إلياس وهو من العوض

وهو أوس بن قبيلة أخوال الخزنج ، منهما الأنصار وقبيلة أمهما (٣)

ابن سيده : والأوس من أنصار النبي صلى الله عليه وسلم كان يقال لأبيهم * الأوس * فكأنك

إذا قلت الأوس وأنت تعني تلك القبيلة إنما تريد الأوسيين ، وأوسى اللاق ، رجل منهم

أعقب ، فله عاد يقال لهم أوس الله محول عن اللات .

(١) لسان العرب : ابن منظور ١ / ٨٢٤

(٢) ترتيب القاموس ٢ / ٤٨

(٣) أساس البلاغة - الزمخشري ص ٢٤ تلمة أوس

كانوا يعبدون في الجاهلية " مناة " اكبر آلهتهم ، وقد حدث قبيل الهجرة تجديد في الديانة الوثنية أدخله أبو عامر الراهب ، وقد يكون هذا التجديد ناشئاً عن تأثير التوحيد اليهودي خلال سنتين كثيرة ، وقد قوى شأنه في الأوس ونسبهم عمرو بن عوف ولكنه لم يستطع الثبات أمام قوة الاسلام (١) وشهدت أوس الله أبا عامر حانقاً ، ثابتاً في معاداته لمحمد صلى الله عليه وسلم (٢)

الخزرج بن حارثة بطن من الازد من القحطانية وهم بنو الحزرج بن حارثة ، كانوا يقطنون المدينة من الأوس (٣)

" الأوس " قبيلة بالمدينة ، وهذا الاسم مختصر لانه حذف منه اسم " اله " مضاف إليه الراجح أنه " مناة " فان من الأوس بخلفنا تسمى " أوس مناة " ثم سميت بعد الإسلام " أوس الله " وكان الموطن الأصلي للأوس والخزرج بلاد اليمن (٤)

ويلاحظ أن الأوس والخزرج لا يدعون أنفسهم بأبناء (حارثة) ، وإنما يدعون أنفسهم بـ (بني قيلة) و (ابني قيلة) . ويقصدون بها (قيلة بنت الأرقم بن عمرو بن جفنة) أو قيلة بنت هالك بن عذرة بن قضاة أو (قيلة بنت كامل بن عذرة بن سعد بن زيد بن ليث بن سود بن أسلم بن الحاف ابن قضاة) .

ولابد أن يكون لهذه المرأة التي ينتسبون إليها شهرة في الجاهلية حملتهم على الإنتساب إليها وقد ورد أن (قيلة) اسم أم الأوس والخزرج وهي قديمة (اللسان ١١ / ٥٨٠ مادة قيلة طبعه دار صادر (٥)

الأوس في الأنصار ، الأوس بن حارثة بن ثعلبة العنقا ، بن عمرو مزيقيا ، وفي خزاعة : الأوس ابن حارثة ، الخزرج ، في يشكر : الخزرج ، وفي الأنصار : الخزرج ، وفي ثعلب : الخزرج (٥)

(١) معجم قبائل العرب - كحالة ١ / ٥٠ - ٥١ (حاشية) تاريخ أبي الفداء ١ / ١٠٧ ، الاشتقاق لابن دريد ص ٢٦٠ ، الأصنام - للكلي ص ١٤٠ نهاية الأدب للقلقشندي - منطلقة ص ٤٣ - ٢ صبح الأعشى - القلقشندي ١ / ٣١٩ ، شرح الحماسة للخطيب التبريزي لسان العرب - ابن منظور ٢ / ٢٩٣ - صفة جزيرة العرب - للبهزاني ٣١١ - تاج العروس - للزبيدي ١ / ٦٠٤ - خلاصة الوفا - السمهودي ٨٥ ، ٨٦ ، ٩٣ ، ٩٤ - الصحاح - الجوهري ١ / ١٢٩ ، القاموس المحيط - الفيروز آبادي - مجمع الأمثال - للميداني ٢ / ٢٦٨ - ٢٧٠ معجم البلدان - الحموي ١ / ٦٧٢ ، ٢ / ٢٦٦ ، معجم ما استعجم للبكري - الاغانى طبعه دار الكتب ٣ / ٢٤ ، ٢٥ ، ٣٩ ، ٤٢ - وطبعة الساسي ج ٣ / ١١٦ ، ١٥٤ / ١٥ - ١٥٧ ج ١٦ / ١٦ - ٩٥ - ٩٦ - تاريخ اليهود في بلاد العرب - ولفستون .

(٢) دائرة المعارف الاسلامية ٥ / ٢٢٥

(٣) دائرة المعارف ٥ / ٢٢٣ - ٢٢٤ دار الشعب - القاموس الاسلامي ١ / ٢١٧

(٤) جواد علي - تاريخ ٤ / ١٣٣ (٥) الايناس - الصحاري ٢ / ٦١ مادة أوس ومادة خزرج

ب - علاقة الأوس والخزرج

حكم علاقة الأوس والخزرج الكثير من العوامل الحياتية والقبلية والسياسية والنازحية واختلفت العلاقة بينهما حسب ظغيان هذه الظروف وقوتها ، ومع أن هذه العلاقة لم تكن ثابتة بحال من الأحوال وكلها على كل انتهت بصهر الأوس والخزرج بالاسلام ، وحملهم اسم الانصار . بدأت العلاقة باعتبارهم أحد بطون الأزد الذين ارتحلوا من اليمن ليستقروا في يثرب ، وبين هاتين الفترتين الارتحال والدخول في الاسلام تخلل العلاقة بينهما الكثير من التناقضات التي يحسن الوقوف عليها .

المرحلة الاولى : مما سبق تبين لنا أن الأوس والخزرج الذين اتجهوا الى يثرب بعد خروجهم من اليمن وتوقفهم فترة في مكة كانوا متحدين لتأمين مستقر لهما ولحياتهما ، خاصة وأنهم نزلوا قرب أناس مستقرين قبلهم في يثرب ، وقد اتخذوا الآطام والفلاح وأقاموا الحصون وعمروا الأرض ، واتخذوا شكلا من الحكم يمتنعهم من عدوهم ، هذا الحال جعل الوافدين البدد الأوس والخزرج على وفاق وتحالف وقوة ، فهم مازالوا قريبين مما يجتمعهم .

بي مثل هذا المجال . . أخوة وأبناء عمومة يتزاورون من بعضهم ويخلفون ، ولم يكن هناك بعد أي انقسام بين انتسابهما لشدة تداخلهما والتحامهما .

وظل اليهود أصحاب يثرب وساداتها حتى جاء الأوس والخزرج فنزلوها واستغلوا الخلافات التي كانت قد وقعت بين اليهود فتغلبوا عليهم وسيطروا على المدينة وقسموها فيما بينهم ، فلم يبق يومئذ عليهم سلطان (١)

وتذكر روايات أهل الأخبار أن مجي الأوس والخزرج الى يثرب كان بعد سيل العرم جاؤوا إليها لفقر حالهم ، ولتماسا لوطن صالح جديد ، وأنهم حينما نزلوها لم يكن لهم حول ولا قوة ولذلك قنعوا بالذي حصلوا عليه من أرض ضعيفة موات ومن رزق شحيح ، أما المال والثروة والملك والجاه فلليهود ، بقوا على ذلك أمداً حتى إذا ما ذهب مالك بن العجلان وهو منهم إلى أبي جبيلة الغساني رئيس غسان يومئذ ونزل عنده ، فكان لايرغسان سوى حال قومه وما هم عليه من بؤس وضنك ، فوعده أبو جبيلة أن يأتي على رأس جيش من قومه لمساعدته ، على أن يقم بعد عودته بيننا حاشر عظيم يعلن أنه بناء لاستقبال الأمير فيه . وأن يطلب من اليهود الخزرج لاستقباله ولتشرف بزيارته فسي ذلك الحاشر ، فان فعلوه ، فتك بهم وأبادهم ، فلما تم البناء ، ووصل الأمير في الأجل الموقوت ، ودخل المدعوون رؤساء اليهود الحاشر فتككت عساكر أبي جبيلة بهم وأهلكتهم ، وتمت الخلبة يومئذ للأوس والخزرج وعاد أبو جبيلة إلى مقر ملكه . (٢)

(١) الاغانى - الأصبهاني ١٩ / ١٤٠ . الكامل - ابن الاثير ١ / ٤٠١

(٢) جواد علي - تاريخ ٦ / ٥١٩٠ . الكامل - ابن الاثير ١ / ٤٠١

٢ — المرحلة الثانية بعد مرحلة الخلاف والحروب :

ولما استقر الأوس والخزرج في يثرب استطاعوا أن ينتزعوا من يهودها عدداً من المعسرون ، ثم ابتسوا حصوناً أخرى . وجر زمن كثير الأوس والخزرج في أثنائه فجعلوا يقاتلونهم والنفوس اليهودي ، وقد جمعت العصبية بينهم وبين أهل يثرب من عرب الشمال عندئذ أخذ النفوس اليهودي يتقلص عن الحياة السياسية والحياة الاجتماعية في يثرب وأخذ نفوس الأوس والخزرج يقوى ، حتى أصبحت يثرب وكأنها بلد الأوس والخزرج لا يذكر ماثر سكانها معهم إلا مجازاً .

ولكن في النصف الثاني من القرن السادس للميلاد بدأ النزاع بين الأوس والخزرج أنفسهم في سبيل التفرد بالنفوذ السياسي في يثرب ، وبدأت بين القوم أيام كأيام العرب كانت تعرف باسم أيام الأوس والخزرج (١)

بعد أن آلت السيادة إلى الأوس والخزرج في يثرب وفروا بها ، لم يلبث أن دب بينهم الخلاف والشقاق للاستئثار بهذه السيادة ، وكان الخزرج أطول باعاً من الأوس بحكم عددهم وكان من أبرزهم بنو سالم قوم الشاعر مالك بن العجلان ، وبنو النجار قوم الشاعر حسان بن ثابت ، وبنو الحارث قوم الشاعر عمرو بن امرئ القيس ، وبنو ثعلبة قوم الشاعر عبد الله بن رواحة كما كان من أبرزهم بنو سلمة وبنو بياضة .

وكان من أبرز الأوس بنو جحجي قوم الشاعر أمية بن الجراح ، وبنو ظفر قوم الشاعر قيس بن الخطيم ، وبنو عمرو بن عوف قوم الشاعر ذرهم بن زيد ، وبنو وائل قوم الشاعر أبو قيس بن الأسلت كما كان أبرزهم بنو عبد الأشهل وبنو خزيمة (٢)

إلا أن عاملين حدا بهذا الوفاق أن يهتز ، بل وينقش وهما :

١ — مكائد يهود الذين لم يتركوا الأمر أن يتأثروا لما أصابهم على يد مالك بن العجلان وحلفائه .

٢ — العصبية القبلية التي استطاع اليهود أن يجدوا منها منفذاً سهلاً للوقيمة بين الأوس والخزرج ، مما حولهم من أخوة وأبناء عمومة وشقيقة متحدة إلى أعداء أخوان يقتتلون في الصباح ويتصالحون في المساء ، يقتتلون مع بعضهم ، ويقدم لهم اليهود الدعم والحلف والمال لذكاء عدائهم ، حتى أورتهم حرباً طاحنة لم تنته أو تتوقف إلا مرة واحدة عندما هاجم الملك تبع يثرب فحاربوه متحدين ، وعندما جاء الإسلام أمحى هذه العصبية وهذه العداوة إلى الأبد فقد أصبحوا الأنصار .

(١) تاريخ الباطنية — فروخ ص ١١٧

(٢) المدينة — الخطراوى ص ٦٧

أيام الأوس والخزرج

عرفت الحروب التي خاضها الأوس والخزرج من أيام العرب بأيام الأوس والخزرج ، نكس على المهم منها ، وقبل الفوضى في التفاصيل تشير إشارة سريعة الى معنى هذه الايام ولماذا سميت بذلك ؟ وعرفت بالتاريخ أيام العرب يقول ابن السكيت : السرب تقول الأيام في معنى الرقاع ، يقال : هو عالم بأيام السرب يريد وقائعها وأند

وقائع في مـ تسعة^١ وفي وائل كانت العائسة

فقال تسعة ، وكان ينبغي أن يقول تسع لأن الوقيصة أنتى ، ولكنه ذهب الى الأيام وقال سمر : جاءت الأيام بمعنى الوقائع والنعم .

وقال : انما خصوا الأيام دون الليالي في الوقائع لان حروبهم كانت نهاراً ذكروها كقوله : ليلة السرب حتى غامت جعفر يدعى ورهط ابن شكل (١)

وتسمى هذه الأيام والحروب غالباً بأسماء البقاع والآبار التي نشبت بجانبها مثل يوم (عين أباغ) وكان بين العنادة والساسنة ، ومثل يوم (ذى قار) وكان بين بكر فارس ويوم (شعب جبلست) وأسماء الذين كانوا سبباً باندياعها (٢)

ولعل أهم ما يميز حياة العرب في الجاهلية أنها كانت حياة حرية تقم على سفك الدم والقتال ، حتى أنها أصبحت سنة من سننهم ، فهم دائماً قاتلون مقتولون ، لا يفرغون من دم إلا إلى دم ، ولذلك فقد كان أكبر قانون عندهم والذي يخضع له كبيرهم وسخيرهم هو قانون الأخذ بالثأر ، فهو شريعتهم المقدسة . وهي شريعة تصطبغ بما يشبه الصبغة الوثنية ، إذ كانوا يحرمون على أنفسهم أشياء ملذاتهم من الخمر والنساء والطيب حتى يثأروا من غرائمهم ولم يكن لأى من أفراد القبيلة الحق في نقض هذه الشريعة ولا الوقوف ضدّها أو الخروج عليها فما عي إلا أن يقتل أحد منهم ، فاذا سيوف العشيرة ملولة ، وتتبعها العشائر الأخرى في قبيلته توازينا في الأخذ بثأرها .

ويتعدد القتل والثأر بينها وبين القبيلة العادية وتتوارثان الثارات حتى يتدخل من يصلح بينهما ويتعمل الديات ، والجارم ، ولم يكونوا يقبلونها إلا بعد تفاقم الأمر ولا بعد أن تأتي الحرب على الحرث والنسل ، أما قبل ذلك فكانوا يعتبرونها سبة وعارا .

ودامت حروب الأوس والخزرج على ما تذكر بعض الروايات مائة سنة أولها حرب سمر وآخرها ،

(١) لسان السرب - ابن منظور ١٠٢٢/٣ مادة يوم

(٢) تاريخ الادب السربي - صيفس ٦٥

حرب بعات (١) . قبل هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم بخمسة سنين ، ويحصرها (سيد يور) بين سنتي ٤٦٢-٦١٥ م . ولانعرف الأساس الذي بنى عليه (سيد يور) تقديره ، غير أن أماضنا قبل ابن كثير في حرب حاطب إن بينها وبين حرب سمير مائة سنة ، وانها آخر حروبهم إلى يوم بعات ، فتعلم أن ما ذكرته هذه الرواية من استغراق حروبهم مائة سنة لا يشمل يوم بعات ، وانا عرفنا أن قائد حرب سمير من الأوس هو أحيحة بن الجراح المولى نورد سنة ٤٦٤ والمتوفى سنة ٥٦١ وأن سنة ان ذاك

(١) وردت أخبار هذه الأيام (الحروب) في اكثر المراجع العربية التي تتحدث عن تاريخ الأوس والخزرج خاصة ، ذكرت منفصلة أو مختصرة ، واكثر كتب السيرة النبوية قد أكدت على يوم بعات دون غيره ، مع الاشارة الى الأيام السابقة . نورد بعضاً من هذه المراجع دون الاشارة إليها أثناء الحديث وهي :

- ١- التامل في التاريخ - ابن الاثير ٤٠٢/١ وما بعد
- ٢- المدينة في العصر الجاهلي - محمد العيد الخطار في ص ١٥٤ فما بعد
- ٣- تاريخ العرب في الجاهلية وعصر الدولة الاسلامية - رشيد الجميلي في ص ١٩٣ فما بعد
- ٤- تاريخ العرب قبل الاسلام - السيد عبد العزيز سالم في ص ٣٥٠ فما بعد
- ٥- دراسات في تاريخ العرب القديم - د . محمد بيومي مهران في ص ٤٨٠ فما بعد
- ٦- تاريخ الادب العربي - د . شوقي ضيف في ص ٦٤ فما بعد
- ٧- أيام العرب في الجاهلية - محمد أحمد جاد العلوي بك في ص ٦٢ فما بعد
- ٨- المفصل في تاريخ العرب - د . جواد علي ١٢٨/٤ فما بعد
- ٩- دائرة المعارف الاسلامية ٥/٢٢٤ فما بعد طبعة دار الشعب
- ١٠- كتاب دائرة المعارف - بطرس البستاني ٧/٢٧٥ فما بعد
- ١١- معجم قبائل العرب - عمر رضا كحالة ١/٣٤٢ فما بعد
- ١٢- وفاء الرضا - نور الدين المصمودي ١/٢١٥ فما بعد
- ١٣- السيرة النبوية - ابن هشام ٢/٦٩ فما بعد
- ١٤- تاريخ الطبري - محمد بن جرير الطبري ٢/٣٥٣ فما بعد
- ١٥- تاريخ الباهلية - عمرو فروخ في ص ١٢٣ فما بعد
- ١٦- السيرة النبوية - ابن كثير ٢/١٧٥ فما بعد
- ١٧- السيرة النبوية - هانس علي السيرة الحلبية - احمد دحلان ١/٣٣٤ و ٢/٦ فما بعد
- ١٨- شعر الحرب عند الاوس والخزرج - محمد العيد الخطار في ص ٩١ فما بعد
- ١٩- العرب قبل الاسلام - برججي زبندان في ص ٣٣٥ - ٣٣٦

وغير هذه من المراجع القديمة والحديثة التي تم الاطلاع عليها

لا بد أن يكون حوالي أربعين سنة ، لأنه قاد حركة الثورة ضد تيج حوالي سنة ٤٩٤م و...
على رأس الثلاثين ، ونظر الأوس والخزرج بمساعدة الخمسة سنة حوالي سنة ٥٠٠ أي حين
كان عمر أحيحة حوالي ست وثلاثين سنة ، فإن معنى هذا أن حرب سمير وقعت سنة ٥٠٤ تقريباً
وكان الزمن التقريبي لحرب حاطب هو سنة ٦٠٤ م بينهما وبين حرب بعث حوالي ثلاث عشرة
سنة ، فإن حرب بعث انتهت بالتأكيد قبل هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم بخمس سنوات
أي حوالي ٦١٢ م . ذلك أن الهجرة الشريفة تمت سنة ٦٢٢ م والترتيب الزمني الذي ذكره
ابن الأثير كالآتي : حرب سمير ، حرب كعب بن عمرو ، يوم السراة ، حرب ربيع الظفري
حرب فارع ، حرب حاطب ، ويتبعها بين الربيع ، يوم البقيع ، حرب الفجار الأول ، يوم معبس
ويوم مضر ، يوم الفجار الثاني ، يوم بعث .

وكانت أيامهم من أشهر حروب الجاهلية لأنها اقترنت بذكر جماعة من كبار شعراء الجاهلية
والمختصين من العرب واليهود ، كقيس بن الخخيم ، وأحيحة بن الجلاح ، وأبي قيس بن الأسلت
وحسان بن ثابت ، وعبد الله بن رواحة ، وكعب بن الأنرف ، والربيع بن أبي الحقيق وغيرهم (١)
(١) حرب سمير : ظل الأوس والخزرج بعد انتصارهم على اليهود بمساعدة أبي ببيعة النخعي
رئاسة مالك بن العجلان السالمي الخزرجي على اتفاق رؤثام تامين أصبحت لهم الرئاسة
في يثرب ، وانخذل اليهود ، وانصرف الحيان للبناء والتعمير ، ففلقوا الأرض ، وعمسروا
البيساتين ، واستتبوا النخل فكثرت عندهم الخيرات ، وعم بلادهم الرخاء ، فلم يحل ذلك
 لليهود ، ولم يرض ما في نفوسهم من عقد دفين ، فاستعملوا ما في جمعيتهم من حيل
 لإيقار الصدور ، وإثارة البغضاء بين الحيين ، وتعتبر حرب سمير أول حرب وقعت بين أبناء
الأخوين الأوس والخزرج ، فما زال على حال اتفاق واجتماع ، وكان أول خلاف وقع بينهم وحرب
كانت يوم سمير . وسببها المباشر ، أن رجلاً من بني ثعلبة بن سعد بن ذبيان ، يقال له
كعب بن العجلان ، نزل على مالك بن العجلان السالمي فحالفه
وأقام معه ، فخرج كعب يرمي إلى سون بني قينقاع
فأرى رجلاً من غطفان معه فرس وهو يقول : ليأخذ هذه الفرس

(١) المدينة - الخطراوى ص ١٥٢ - ١٥٤

أعزأهل يثرب • فقال رجل : فلان ، وقال آخر : أحيحة بن الجلاح الأوسي ، وقال غيرهما :
فلان ابن فلان اليهودي أفضل أهلها ، فدفع الفطاني الفرس إلى مالك بن العجلان فقال
كعب : ألم أقل لكم إن حليفي مالئاً أفسلكم ، فنضب من ذلك رجل من الأوس من بني عمرو
ابن عمرو يقال له " سمير " وشتمه واقتربا حتى كعب ماشاء الله • ثم قصد سرقة لهم بقبضاء
فقصد ه سمير ولازمه حتى خلا السوق فقتله ، وأخبر مالك بن العجلان بقتله ، فأرسل إلى بنسي
عمرو بن عمرو يطلب قاتله ، فأرسلوا انا لاندري من قتله ، وترددت الرسل بينهم هو يطلب
سميراً ، وهم ينكرون قتله ، ثم عرضوا عليه بالدية فقبلها ، وكانت دية الحليف عند هم نصف دية
النسيب ، فأبى مالك إلا أخذ دية كاملة ، وامتعروا من ذلك وقالوا نعطي دية الحليف ، ولج
الأمر بينهم حتى لمتى إلى المحاربة فاجتمعوا ، والتفوا واقتتلوا حتى هجز بينهم الليل • وكان
الظفر يومئذ لأوس ، فلما افترقوا أرسلت الأوس إلى مالك يدعونه إلى أن يحكم بينهم المنذر بن
حرام البخاري الخزرجي • بعد حسان بن ثابت المنذر ، فأجابهم إلى ذلك فأتوا المنذر فحكم
بينهم المنذر أن يرد كعباً حليف مالك دية الصريح ، ثم يحدون إلى سنتهم القديمة ، فرضوا
بذلك واقتربوا وقد شبت البغضاء في نفوسهم وتمكنت العداوة بينهم •

(٢) حرب كعب بن عمرو المازني : أوقعت هذه الحرب بين بني جحجبا من الأوس وبين بنسي
مازن بن النجار من الخزرج ، وسببها أن كعب بن عمرو المازني تزى امرأة من بني سليمان
فكان يختلف إليها • فأمر أحيحة بن الجلاح سيد بني جحجبا جماعة فرصدوه حتى ظفروا
به فغفلوه ، فبلغ ذلك أخاه عاصم بن عمرو فأمر قومه فاستعدوا للقتال ، وأرسل إلى بني جحجبا
يرؤنهم بالحرب ، فالتفوا بالرحابة ، فاقتتلوا قتلاً شديداً ، فانهزمت بنو جحجبا ومن معهم ،
وانهزم معهم أحيحة • فطلبه عاصم بن عمرو فأدركه وقد دخل حصنه فرماه بسهم فوقع السهم
فوقع في باب الحصن ، فقتل عاصم أخا لأحيحة ، فمكثوا بعد ذلك ليال
فبلغ أحيحة أن عاصماً يتطلبه ليقته ان وجد فيه غره ، فقال شعرا في ذلك ، وأجابها
عاصم كمادة الشعراء ، ثم ان أحيحة أجمع أن يبني بني النجار (١) ، وتنده سلى بنت عمرو
بن زيد النجارية وهي أم عبد المطلب جد النبي صلى الله عليه وسلم ، فما رضيت ، فلما جنهما

(١) يبني : يفاجي القوم ليلا

الليل ، وقد سهر معها أحيحة فنام ، فلما نام سارت الى بني النجار فأعلمتهم (١) ثم رجعت فحذروا ، وفدا أحيحة بقرمه مع الغنم فلقبهم بنو النجار في السلاح ، فكان بينهم سيوف من القتال ، وانحاز أحيحة ، وبلغه أن سلى أخبرتهم ، فصرها حتى كسريدها ، وظلها وقد قال أحيحة في الحادثة كلها شعراً طويلاً .

٣ - بين السرارة : وهي بين عوف بن الأوس وبني الحارث من الخزرج .

ثم ان بني عمرو بن عوف من الأوس وبني الحارث من الخزرج كان بينهم حرب شديدة ، وكان سببها أن رجلاً من بني عمرو قتل رجلاً من بني الحارث ، فعدا بنو عمرو على القاتل فقتلوه غيلة فاستشفه أهله فعلموا كيف قتل فتجهزوا للقتال ، وأرسلوا إلى بني عمرو بن عوف يؤذنونهم بالحرب فالتقوا بالسرارة ، وعلى الأوس حضير بن سماك والداً سيد بن حضير وعلى الخزرج عبد الله بن أبي بنسول أبو الحباب الذي كان رأس المنافقين ، فاقتتلوا قتالاً شديداً صبر بعضهم لبعض أربعة أيام ، ثم انصرف الأوس إلى دورها ، ففخرت الخزرج بذلك وقال في ذلك حسان بن ثابت شعراً ، ورد عليه قيس بن الخطيم بأبيات طويلة ، وكذلك عبيد بن ناهد .

٤ - حرب الحصين بن الأسلت :

ثم كانت حرب بين بني وائل بن زيد الأوسيين ، وبين بني مازن بن النجار الخزرجيين ، وكان سببها أن الحصين بن الأسلت الأوسي الوائلي نازع رجلاً من بني مازن فقتله الوائلي ثم انصرف إلى أهله ، فتبعه نمر من بني مازن ، فقتله ، فبلغ ذلك أخاه قيس بن الأسلت (١) وكان هاشم بن مناف قدم المدينة فتنزى سلى بنت عمرو أحد بني عدي بن النجار ويقال أنه بسبب هذا النسب رحب سيف بن ذي يزن ، وأرأبته معد كرب بن سيف ملك اليمن بحيد العطلب بن هاشم حسين وقد عليه في رقب من قريش وقال له : مرحبا بابن أختنا لأن سلى من الخزرج وهي من اليمن من سبأ ولأن سيفاً من حمير بن سبأ . وكانت قبله عند أحيحة بن الجراح ابن الحريش ، قال ابن هشام ويقال : (الحريش) ابن بجحبني بن كلفة بن عوف بن عمرو بن عرف ابن مالك بن الأوس ، فولدت له عمرو بن أحيحة وكانت لاتدع الرجال لشرفها في قومها حتى يشترطوا لها أن أمرها بيدها إذا كرهت رجلاً فارقت) ابن هشام ١ / ١٤٤ - ١٤٥ وحاشية ص ١٤٥ (١) - وأورد صاحب الألفاني تفصيلاً لحادثة خروجها ليلاً لاختبار قومها ، بأنها شددت ولدها عمرو بن أحيحة حتى آلمته فبقي يبكي ، وهي وأحيحة ساهران عليه إلى معظم الليل ، فأرخت السد فسكت الصبي ، وادعت رجع الرأس وعصب رأسها ، وفي آخر الليل قالت إن صحتها تحسنت وقالت : له قم فنام ، وعملت ذلك ليثقل رأسه ، فلما نام ربطت في الحنك حبلاً فتدلت منه فسميت (العدالة)

فجمع قومه وأرسل الى بني مازن يسلمهم بأنه على حربهم ، فتبهيروا للقتال ، ولم يتخلف من الأوس والخزرج أحداً ، فاقتتلوا قتالا شديدا حتى كثرت القتلى في الفريقين جميعاً ، وتسل أبو قيس بن الأسلت الذين قتلوا أخاه ثم انهزمت الأوس ، فقدم وحج بن الأسلت أخاه أبا قيس وقال : لا تزال منهزم من الخزرج ، فقال أبو قيس لأخيه ويكنى أبا حصن

أبلغ أبا حصن وبعض القول عندي ذكباره
أنا ابن أم المرء ليس من الحديد ولا المحجورة
مانا عليكم أن يكون لكم بها رجلاً عمارة ؟
يعني ذماركم وبعض القوم لا يحمي ذماره
يبني لكم خيراً ونيان الكريم له أثاره

٥ - حرب ربيع الظفري :

ثم كانت حرب بين بني ظفر من الأوس وبين بني مالك بن النجار من الخزرج ، وكان سببها أن ربيعاً الظفري كان يمر في مال لرجل من بني النجار الى ماله ، فمنعه النجاري فتنازروا فقتله ربيع ، فجمع قومه فاقتلوا قتالا شديداً كان أشد قتال بينهم ، فانهزمت بنو مالك بن النجار ، وكان بعد ذلك حرب باللسان بين قيس بن الخطيم الأوسي ، وحسان بن ثابت الخزرجي .

٦ - حرب فارع بسبب الغلام القضاعي .

ومن أيامهم يوم فارع ، وسببه أن رجلاً من بني النجار أصاب غلاماً من قضاة ثم من بلسى ، وكان عم الغلام جاراً لعماد بن النعمان بن امرئ القيس الأوسي والذئب سعد بن معن إذ فأتى الغلام عمه يزوره فقتله النجاري ، فأرسل معن إلى بني النجار أن ادفعوا إليّ دية جاري ، أرابعثوا إليّ بتاتله أرى فيه رأى ، فأبوا أن ينفعلوا ، فقال رجل من بني عبد الأشهل : والله ان لم تفعلوا لانقتل الا عميرون الاطنابه ، وعميرون أشرف الخزرج . فبلغ ذلك عميراً فقال من قصيدة طويلة .

ألا من يبلغ الاكفاء عنيا وقد تُهدى النصيحة للنسيح
فإنكم وما ترجون شيطرى من القول المزجي والصريح
سيندم بعضكم عجباً عليه وما أثر اللسان إلى البريح

كما عارضه الربيع بن أبي الحقيق اليهردى بقوله :

ألا من يبلغ الاكفاء عنيا فلا ظلمٌ لدي ولا افتراء
فلمست بنائظ الاكفاء ظلماً وتندى لللمسات اجتناء

في قصيدة طويلة .

فلما رأى معاذ بن النعمان رفض بني النجار دفع الدية ، أو تسليم القاتل إليه تهباً للحرب وتجهز هو وقومه واقتتلوا عند فارح ، وهو أطمح حسان بن ثابت ، واشتد القتال بينهم ولم تسزل الحرب بينهم حتى حمل ديته عمرو بن الأطانبه ، فلما فعل صلح الذي كان بينهم وهاد والسي أحسن ما كانوا عليه .

في هذه المعركة عاد الوثام والصلح ، ولكن ليس صدقاً دائماً ، وربما كانت فترة استراحة للمحاربين وقالبا ما كان بين الأوس والخزرج عهد ، وقد ورد في شعر ينسب إلى درهم بن زيد الأوسى ما يفيد بوجود صحف مكتوبة بعهد عقدت بين الأوس والخزرج ووردت إشارة إلى الصحف - صحف العهود والمواقيق في شعر الشاعر قيس بن الخطيم (١)

٧ - حرب حاطب :

ثم كانت الواقعة المعروفة بحاطب : وهو " حاطب بن قيس من بني أمية بن زيد بن مالك بن عوف الأوسى ، وبينها وبين حرب سمير حوالي مائة سنة ، وكان بينهما أيام ذكرنا المشهور منها وتركنا ما ليس بمشهور ، وحرب حاطب آخر رقعة كانت بينهم إلا بين بعث حتى جاء الله بالاسلام وكان سبب هذه الحرب أن حاطباً كان رجلاً شريفاً سيداً ، فأتاه رجل من بني ثعلبة بن مسعد بن نبيان فنزل عليه ، ثم انه غدا يوماً إلى سون بني فينقاع فرآه يزيد بن الحرث المعروف بابن نسحم (على وزن قنفذ) وهي أمه وهو من بني الحرث بن الخزرج ، فقال يزيد لرجل يهودى : لك ردائي ان كسعت هذا الثعلبي (أى ضربه برجله على قفاه) فأخذ اليهودى رداًه وكسعه كسعة سمعها من بالسوق ، فنادى الثعلبي : يا حاطب كسح ضيفك وفضح ، وأخبر حاطب بذلك فجاء إليه فسأله : من كسحك ؟ فأشار إلى اليهودى فصره حاطب بالسيف فلق هامته . . .

فأخبر ابن نسحم الخبر وقيل له : قتل اليهودى قتله حاطب . . . فأس خلف حاطب فأدركه وقد دخل بيوت أهله ، فلقى رجلاً من بني معاوية فقتله ، فثارته الحرب بين الأوس والخزرج ، واحتشدوا واجتمعوا والتقوا على جسرهم بني الطرث بن الخزرج ، وكان على الخزرج يومئذ عمرو بن النعمان البياضي ، وعلى الأوس حضير بن سماك الأشهلي ، وقد ذهب ذكر ما وقع بينهم من الحروب فيمن حاربهم من الحرب فسار إليهم عينية بن حصن الفزاري ، وخيار بن مالك بن حماد الفزاري ، فقدما المدينة وتحدثا مع الأوس والخزرج في الصلح ، وضمنا أن يتحمسوا كل ما يدي بعضهم على بعض فأبىوا ووقعت الحرب عند الجسر وشهدها عينية وخيار ، فشاهدنا من قتلهم ما أيسر . . .

من الإصلاح بينهم ، فكان الظفر يومئذ للخزرج . وهذا اليوم من أشهر أيامهم ، وكان بعده

عدة وقائع كلها من حرب حاطب • ومنها

أ — بين الربيع : ثم التقت الأنصار بعد بين الجسر بالربيع ، وهو حائط في ناحية السفح فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى كاد يفتى بعضهم بعضاً ، فانهزمت الأوس ، رتبها الخزرج حتى بلغوا دهرهم ، وكانوا قبل ذلك اذا انهزمت إحدى الطائفتين فدخلت دهرهم كفت الأخرى عن اتباعهم فلما تبم الخزرج الأوس إلى دهرهم طلبت الأوس الصلح ، فامتنعت بنو النجار من الخزرج عن إجابتهم ، فحصنت الأوس النساء والذراري في الآطام وهي الحصون حتى كفت عنهم الخزرج •

ب — بين البقيع : ثم التقت الأوس والخزرج ببقيع الفرقد ، فاقتتلوا قتالاً شديداً فكان الظفر يومئذ للأوس • فقال عبيد بن نافع الأوسي شعراً ، ورد عليه عبد الله بن رواحة الحارثي الخزرجي • وكان رئيس الأوس يومئذ في حرب حاطب أبو قيس بن الأسلت الوائلي ، فقام في حربهم وهجر الرواحة ، فشجب وتخير ، وبنا يزيما إلى امرأته فأنكرته حتى عرفته بكلامه ، فقالت له : لقد أنكرتك حتى تكلمت ، ثم ان أبا قيس بن الأسلت جمع الأوس وقال لهم : ما كنت رئيس قريظاً لآهزماً • فرئسوا عليكم من أجبتهم • فرأسوا عليهم حضير التائب بن السمامك الأنسلي ، وهو والد أسيد بن حضير لولد صحبة ، وهو بدرى ، نصار حضير يلي أمرهم في حروبهم •

فالتقى الأوس والخزرج بمكان يقال له (الغرس) ، فكان الظفر للأوس ، ثم ترأسوا للصلح ، فاصطلحوا على أن يحسبوا القتلى فمن كان عليه الفل فلأدى الدية ، فأفضلت الأوس على الخزرج ثلاثة نفر فدفعت الخزرج ثلاثة (غلمة) منهم رهناً بالديات فهدرت الأوس فقتلت الخلدان •••

ج — حرب الفجار الأول للأنصار (وليس بفجار كنانة وقيس) • فلما قتلت الأوس الخلدان جمعت الخزرج وحندوا والتقوا بالحدائق ، وعلى الخزرج عبد الله بن أبي بن سلول ، وعلى الأوس أبو قيس الأسلت ، فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى كاد بعضهم أن يفتى بعض وسي ذلك اليوم بين الفجار لندهم بالخلدان وهو الفجار الأول ، وكان قيس بن الحظيم في حائط له فانصرى فرافق قومه (شاهد قومه) قد برزوا للقتال فاجز عن أخذ سلاحه إلا السيوف ، ثم خن منهم فعضم مقامه يومئذ ، وأبلى بلاً حسناً ، ومن جراحة شديدة ، فمكث حيناً يتدارى منها ، وأمر أن يحتفي عن الماء فذلك يقول عبد الله بن رواحة

رميناك أيام الفجار فلم تنزل حيا فمن يشرب فليست بشارب

(١) الفرس : اسم لبئر بالمدينة غسل منها رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم غسل لدفنه ، ويوضح قرب فدك

ثم التقوا عند معبس ومضرس وهما جداران ، فكانت الخزرج وراء مضرس ، وكانت الأوس وراء معبس فأقاموا أياما يقتتلون قتالا شديدا ، ثم انهزمت الأوس حتى دخلت البيرت والآطام ، وكانت هزيمة قبيحة لم ينهزموا مثلها . ثم ان بني عمرو بن عوف ، وبني أوس مناة من الأوس ودعوا الخزرج ، فامتنع عدد عن المواجهة بنوعبد الأشهل ، وبنو ظفرة وغيرهم من الأوس ، وقالوا : لانصلح حتى ندرك ثأرنا من الخزرج . فألحقت الخزرج عليهم بالأذى والدمار حين ودعهم بنوعمر بن عوف وأوس مناة ، فهزمت الأوس — الا من ذكرنا — على الانتقال من المدينة ، فأعارت بنوسلمة على مال لبني عبد الأشهل يقال له : الحرمل ، فقاتلوه عليه فبرح سعد بن معاذ الأشهلي جراحة شديدة ، واحتلمه بنوسلمة الى عمرو بن الجمح فأجاره ، وأجار الرجل من الحريق وقطع الأشجار ، فلما كان يوم بعات جازاه سعد على ما ذكره إن شاء الله ثم سارت الأوس إلى مكة لتعالف قريشاً على الخزرج ، وأظهروا أنهم يريدون العمرة ، وكانت عاداتهم أنه اذا أراد أحدهم العمرة أو الحج لم يعرض اليه خصمه ، ويعلق المتمتع على بيته كمرانيف النخل . . . ففعلوا ذلك وساروا الى مكة فقدموها وحالتوا قريشاً وأبوجهبيل غائب ، فلما قدم أنكروا ذلك وقال لقريش أما سمعتم قول الأول : ويل للأهل من النازل ؟ انهم لأهل عدد وجلد ، ولقلما نزل قوم على قوم الا أخرجوهم من بلادهم وقلبوهم عليه . قالوا : فما المخزج من حلفهم . . . قال : أنا اكفيكموهم . ثم خشي حتى جاء الأوس فقال : إنكم حالفتم قريشياً وأنا غائب فنجئت لأحالفكم وانكر لكم من أمرنا ما تكونون بعده على رأس أمركم ، انا قوم تخزج إمامنا إلى أسواقنا ولا يزال الرجل منا يدرك الأمة فيضرب عجيزتها ، فان طابت أنفسكم أن تفعل نساؤكم مثل ما تفعل نساؤنا حالفتنا لكم ، وان كرهتم ذلك فردوا إلينا حلفنا . . . فقالوا : لانقر بهذا . وكانت الأنصار بأسرها فيهم غير شديدة فردوا إليهم حلفهم ، وساروا إلى بلادهم فقال حسان بن ثابت أبياتا يفتخر بها ربما أصاب قومه من الأوس .

٩ — يوم الفجار الثاني للأنصار :

كانت الأوس قد طلبت من قريظة والنضير أن يحالفوهم على الخزرج ، فبلغ ذلك الخزرج فأرسلوا اليهم يؤذنونهم بالحرب . فقالت اليهود لإنبيد ذلك ، فأخذت الخزرج رهنهم على الوفاء وهم أربعون غلاماً من قريظة والنضير ، ثم ان يزيد بن فسح شرب يوماً
(١) مضرس : كعمدث . الأسد يضحق فريسة ولا يبتلعها ، وكمعظم ، نوع من الوشي فيه صرور كأنها أضراس . . . والأول أنسب لنا وقد سمي به أحد الجدارين

فسكر فتخنى بشعر يذكر فيه ذلك ، فلما بلغ قوله قريظة والنضير ، فغضبوا . وقال كعب بن أسد نحن كما قال ان لم نفر ، فحالف الأوس على الخزرج ، فلما سمعت الخزرج بذلك قتلوا كسلاً من عندهم من الرهن من أولاد قريظة والنضير ، فأطلقوا نفرًا منهم سليمان بن أسد القرظي جد محمد بن كعب بن سليمان ، واجتمعت الأوس وقريظة والنضير على حرب الخزرج ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، وسمي ذلك الفجار الثاني لقتل المسلمين من اليهود .

وفد قيل في قتل الخلمان فير هذا ، وهو أن عمرو بن النعمان البياضي الخزرجي قال لقومه بنى بياضه : ان أياكم أنزلكم منزل سوء ، والله لا يمس رأسي ماء حتى أنزلكم منازل النضير وقريظة ، وأقتل رهنهم . وكانت منازل قريظة والنضير خير البقاع .

فأرسل إلى قريظة والنضير : إما أن تخلوا بيننا وبين دياركم ، وإما أن نقتل الرهن فهموا أن يخرجوا من ديارهم . فقال كعب بن أسيد القرظي : يا قوم امنعوا دياركم وخلوه يقتل الخلمان ، ما هي الا ليلة حتى يصيب أحدكم امرأة حتى يولد مثل أحدهم فأرسلوا إليهم : إنا لاننقل عن ديارنا فانظروا في رهننا فمروا لنا (ادفعوهم لنا) فعدا عمرو بن النعمان على رهنهم فقتلهم .

وخالفه عبد الله بن أبي سلول . فقال : هذا بخي واتم ، ونهاه عن قتلهم وقتل قرهه من الأوس ، وقال له : كاني بك وقد حملت قتيلاً في عباة يحملك أربع رجال . فلم يقتل هو ومن أطاعه أحداً من المسلمين ، وأطلقهم ، ومنهم سليمان بن أسد جد محمد بن كعب .

وحالفت حينئذ قريظة والنضير الأوس على الخزرج ، وجرى بينهم قتال ، سمي ذلك اليوم الفجار الثاني ، وهذا القول أشبه بأن يسمى اليوم فجاراً . وأما على القول الأول فإنما قتلوا الرهن جزاءً للخدر من اليهود ، فليس بفجار من الخزرج الا أن يسمى فجاراً للخدر اليهود .

١٠ - بين بعثات : لبعثات في تاريخ الأوس والخزرج حال يختلف عن حالة أيامهم كلها فهذا اليوم كان نهاية المطاف بالنسبة لعداوة دامت مئة عام ويزيد ، لم يهنا بها الناس يوماً دون أن يستفحل بهم القتل ويكثر . ووجد اليهود الفرصة سانحة للرقية بين هذين الحيين وتأجيج نار العداوة بينهم ، وكان يوم بعثات خاتمة العاصي الطويلة التي عاشها هؤلاء في كنف الحمية والعصبية القبلية والنار غير ذلك ، الى أن قيفض الله تعالى ليهؤلاء الناس من أعادهم إلى رشدهم ، ووجد كلمتهم ، وصفي قلوبهم ، وخلصهم من جهل الجاهلية وخبثها ، فكان الاسلام الذي وحدهم من جديد ، وجعلهم عصبة المؤمنين

الأوفياء الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ونصروه وساندوه فكانوا هم الأنصار .
كما ترتب على هذا اليوم الكثير من النتائج التي سبقت أو لحقت بإيمان الأوس والخزرج وبذلك
فقد أجمع المؤرخون المسلمون على أن هذا اليوم كان خاتمة المآسي وناجحة الخيرات لهذا
الحي من العرب .

وأما عن هذا اليوم :

فان قريظة والنضير جدد وا اليهود مع الأوس على الموازة والمعاصرة ، واستحكم أمرهم
وجددوا في حروبهم ، ودخل منهم قبائل من غير يهود غير ما ذكرنا ، فلما سمعت الخزرج جمعت
وحشدت ، وأرسلت الى حلفائها من أشجع وجهينة ، ورسلت الاوس من حلفاءها من مزينة
ومكثوا أربعين ليلة يتجهزون للحرب . . . والتقا بيحاث وهي من أعمال قريظة ، وعلى
الأوس حضير الكنائب بن سماك والد أسيد بن حضير ، وعلى الخزرج عمرو بن النعمان البياضي
وتخلف عبد الله بن أبي سلول فيمن تبعه من الخزرج ، وتخلف بنو حارثة بن الحرث من الأوس .
فلما التقوا اقتتلوا قتالاً شديداً ، وصبروا جميعاً ، ثم ان الاوس وجدت من السلاح ، فولوا
منهمزمين نحو العريضي ، فلما رأى حضير الكنائب هزيمة برك وطمع قدمه بسنان رمحه
وصاح : واعقراه . . . كعقر الجمل ، والله لا أعود حتى . أقتل ، فان شئت يامعشر الأوس ان
تسلموني فافعلوا ، فمطفوا عليه ، وقاتل عنه فلما من بني عبد الأشهل يقال لهما محمود
وزيد ابنا خليفة حتى قتلا ، وأقبل سهم لا يدري من رمى به فأصاب عمرو بن النعمان البياضي
رئيس الخزرج فقتله .

فبنياء عبد الله بن أبي سلول يتردد ركباً قريباً من بعثات يتجسس الأخبار إن طلع عليه
بعسرو بن النعمان قتيلاً في عباءة يحمله أربعة رجال كما كان قال له . . . فلما رآه قال :
ذق وبال البني وانهمزمت الخزرج . . . وضعت فيهم الأوس السلاح . . . فصاح صائح :
يامعشر الأوس . أحسنوا ولا تمهلكوا إخوانكم ، فجوارهم خير من جوار (الثعالبي) اليهود
فانتهبوا عنهم ولم يسلبوهم ، وانما سلبهم قريظة والنضير ، وحملت الأوس حضير الكنائب
مجرحاً ، فمات . وأحرقت الأوس دور الخزرج ونخلهم ، فأجار سعد بن معاذ الأشهلي
أموال بني سلة ونخيلهم ودورهم جزاً بما فعلوا له في الرعل وقد تقدم ذكره .

ونجى يومئذ الزبير بن إياس بن باطنا ، ثابت بن قيس بن شماس الخزرجي ، أخذه
فجز ناصيته وأطلقه وهي اليد التي جازاه بها ثابت في الاسلام يوم بني قريظة

وكان يوم بعث آخر الحروب المشهورة بين الأوس والخزرج ، ثم جاء الاسلام ، واتفقت الكلمة ، وابتعدوا على نصر الاسلام وأهله ، وكفى الله المؤمنين القتال واكثر القوم الأشعسار في يوم بعث . ومنهم قول : قيس بن الخطيم الظفري الأوسي ، وعبد الله بن رواحة وغيرهم (١)

المرحلة الثالثة : كانت المرحلة الثالثة من علاقة الأوس بالخزرج لتنتج يوم بعث ، فقد كان هذا اليوم بداية النهاية لحرب قاسية استمرت نيفاً ومئة عام شهد بها القوم أياماً قاسية قتل بها من قتل ونسوه بها من نسوه ، وأسربها من أسر ، وخربت الحياة من جميع نواحيها وأثار فريضة الشعراء الذين قاموا بتأجيب الحماس بين الناس ، وذكر هذه الأيام وتمهئة النفوس لأيام أخرى ، ويمكن لنا أن نجد في مجريات حرب بعث بعض الملامح التي حولت القاعدة الى اتجاه آخر ، وهذه القوى الجديدة التي ظهرت في هذه المعارك أخذت تطلح بعض الآراء الجريئة والتي تنادى بالسلم بعد سماعها عن الاسلام وتجاوبها مع هذه الدعوة وآخرون توجهوا الى توحيد القوى ونيل الخلافة واقامة نوع من الحكم يجمع الشمل ويقوى السرب (الأوس والخزرج) ضد الآخرين وعلى رأسهم اليهود ومن العجيب أن هذه الدعوة انطلقت من أخوين عاقلين مدركين لأبعاد هذه الحروب هما :

إياس بن معاذ : الذي سمع بالاسلام وحارل أن يغير الناس عن هذه الحروب وأخييه سعد بن معاذ : الذي آلت إليه زمامة الأوس كلها بعد موت حضير الكتائب وكيف أنه رضي قبل أن يسمع بالاسلام أن تنام في يثرب حكومة وليكن على رأسها خزرجي . . كما سيورد تفصيل ذلك . . ويمكن أن نختصر هذه الايام وتواريخها وعلى من دارت بالجدول التالي . ولم يكتب الشعراء بذكر أيامهم وانتصارات عشائريهم فقط ، واعادة التسمية إلى النفس استناداً لأيام أخرى ومعارك أخرى ، وإنما وصل الحد إلى تصغير حال من البخضاء لا يمكن أن تكون في أبناء عمومة (٢)

(١) تم الاعتماد باللفظ على كتاب - التامل في التاريخ لابن الاثير بتصرف / ١ - ٤٠٠ - ٤٢٠

(٢) جواد علي - تاريخ / ١ - ٤٧٥

جدول يبين أيام الأوس والخزرج ونتائجهما

م	اسم اليوم الحروب	التاريخ التقريبي	نتائج الحروب
١	يوم سمير	٥٠٤م	انتصار الأوس على الخزرج
٢	حرب كعب بن مازن	.	انتصار الخزرج على الأوس
٣	يوم السرارة	.	انتصار الخزرج وانسحاب الأوس
٤	حرب الحصين بن الأسلت	.	انتصار الخزرج على الأوس
٥	حرب ربيع الظفري	.	انتصار الأوس على الخزرج
٦	حرب فارغ بسبب الغلام الفضالي	.	الصلح والوثام بين الحيين
٧	حرب حاطب	.	انتصار الخزرج على الأوس مع التدخل للصلح
	أ - يوم الربيع (الفرس) ب - يوم البقيع ج - حرب الفجار الأولى	٦٠٤م	انتصار الخزرج على الأوس انتصار الأوس مع الصلح انتصار الخزرج وانهزام الأوس
٨	حرب معبس ومضرس	.	انتصار الخزرج وانهزام الأوس
٩	يوم الفجار الثاني	.	اقتتال وتباعد دون مكاسب تذكر
١٠	يوم بعثات	٦١٧م	انتصار الخزرج وهزيمتها وانهزام الأوس وانتصارها

علاقة الأوس والخزرج بالمحيط الخارجي .

العرب: انفصلت الأوس والخزرج من مجموعة " عمرو منيفيا " بعد تهديم سيل الحسم ، وذلك بـ إخوتهم وأبناء عمومتهم في سبتي أنحاء الجزيرة ، منهم من باد ، ومنهم من أقام ملكاً رساد ، ومنهم من عاد إلى البداوة . وأقام الأوس والخزرج حول يثرب وهي بيد يهود يهنتون بنميمها ، والأوس والخزرج يناولون الحيف والقليل ، حتى جاءت مرحلة التحالفات بينهم وبين أبناء عمومتهم ضد اليهود ، وكان ما كان من أمر مالك بن العجلان واستبداده بالخصاسنة ، ويقال بالحميرين من اليمن . وهذه القصة قد تفرعت أخبارها ، وردت في الأخبار التاريخية والأدبية لما قيل فيها من شعر .

وهذا التحالف بين الأوس والخزرج والخصاسنة لم يدم طويلاً حتى تمكنوا من السيطرة على يثرب والقضاء على مظاهر الحكم التي كانت لدى اليهود ، واستثنى هذا الحي من العرب الأوس والخزرج بالسيادة على يثرب .

ولو استمرت الوحدة بين الأوس والخزرج ربما كان مقدراً لها إقامة مملكة قوية في الحجاز على غرار مملكة الغساسنة أو اللخمييين أو أزد السراة ، أو أزد عمان ، ولكن مجاورتهم لليهود ووقوع الحروب الطاحنة بينهم أخرج هذه الفترة كثيراً .

وقد حاول أهل يثرب من الأوس والخزرج حل مشكلة الحكم في مد يثربهم حلاً وسطاً على قاعدة أن من الأوس أمير ومن الخزرج أمير يحكمان حكماً مشتركاً أو على التوالي ، على أن يحكم سيد من الأوس سنة ثم يترك الحكم لسيد الخزرج ليحكم السنة التالية ، ثم يعود وينسحب وهكذا غير أن الحل لم ينجح أيضاً وبقيت المشكلة " مشكلة الحكم " مستعصية غير محلولة حتى دخل الرسول يثرب فحلها حلاً أزحى بعس من كان ظامعاً في الحكم ، وكان يرغب أن يكون سيد يثرب (١)

و عندما حان التفكير فيها سببهم الاسلام وأنهى هذه المملكة التي كان من المقدر أن يكون حكمها من الخزرج ومن الأوس والرعية من العرب واليهود ، إلا أن الحروب الطاحنة بينهم جعلتهم يتجهسون إلى طلب الحلف من العرب .

وقد كان بين الأوس قبح يقال لهم " النبيت " افتخر بهم الشاعر قيس بن الخطيم من شعراء الجاهلية وقد قتل قبل الهجرة ومدحهم ورصفهم بالشدّة والبأس بقوله :

ويشرب تسلّم أن النبيست
وقد علموا ان ما فعلهم
رأس يثرب ميزانهم
حديد البنية وأعيانهم
يقال ألا تلك النبيست عساكر

كما كان في إياك تقع يقال لهم النبيست ، وكان نبيست الأوس يتألفون من ظفر رهط الشعاع
قيس بن الخطيم ومن عبد الأشهل حرارته ، وقد وقعت بينهما حرب ومعارك فانضمت حارثة
إلى الخزنج وتحالفت معها ودخلت فيها ، وأما ظفر ومنع عبد الأشهل فقد اضطروا أخيراً
إلى ترك ديارهم إلى مكة للتحالف معهم ، أرمع اليمن ، أو الخماسنة ، أو المناذرة لمساعدتهم
على الخزنج ولاسترداد ملكهم ، والظاهر أنهم كانوا قديماً من القبائل القوية ، وكانت في
الحرار الشرقية ، ثم أقل نجمها وتشتت شملها بسبب الحرب التي وقعت بين بطونها ، ولعلها
من القبائل التي كانت تقيم في الشمال (في العربية الحجرية) أو العربية الصحراوية ، ثم
اضطرت إلى الهجرة إلى الجنوب والاستيطان في مناطق الحرار والظاهر أنها كانت على
اتصال باليهود ، وقد تحالفت مع يهود خيبر (١)

ومن القضايا البارزة في تحديد هذه العلاقة هي العلاقة الوطيدة بين الأوس والخزنج من
جهة وقريش من جهة أخرى ، فقد كانت هناك علاقات تزاوي ومهاجرة ، مثل زواج هاشم بن
عبد مناف والد عبد المطلب جد الرسول صلى الله عليه وسلم من سلمى زوجة أحيحة ، قال ابن
هشام : فولد هاشم بن عبد مناف أربعة نفر وخمس نسوة . عبد المطلب بن هاشم ، وأسد
ابن هاشم ، وأبا صيني بن هاشم ، وفضل بن هاشم . والنسقاء وخالده ، وضعيف ربيعة وحبيبة
فأم عبد المطلب ورقية سلمى بنت عمرو . بن زيد بن لبيد بن حرام بن خدائش بن عامر
بن غنم بن عدى بن النجار - واسم النجار تيم الله بن ثعلبة بن عمرو بن الخزنج ابن ثعلبة
ابن عمرو بن عامر (٢)

تزوج هاشم بن عبد مناف امرأة من بني النجار ذات شرف ، تشرط على من خطبها المقام بدار
قومها ، فتزوجت بهاشم ، فولدت له شيبه الحمد ، تربي في أخواله مكرماً . فبينما
هو يناضل فتيان الأنصار ، إذ أصاب حصلة فقال : أنا ابن هاشم ، وسمعه
رجل مجتاز ، فلما قدم مكة قال لحمه المطلب بن مناف : قد مررت بدار بني قبيلة

(١) جواد علي - تاريخ ٤٣٨ / ١

(٢) السيرة النبوية - ابن هشام ١١٢ / ١

فرايت فتى من صفته ومن صفته ، يناضل مثل فتيانهم ، فاعتزى إلى أخيك ، ما ينبغي
ترك مثله في الغربة . فرحل المطلب حتى ورد المدينة ، فأراد على الرحلة فقال : ^{إلى} ذاك ^{إلى} الوالدة
فلم يزل بها حتى أذنت له ، وأقبل به وقد أردفه ، فاذا لقيه اللاتي وقال : من هذا يا مطلب
قال : عبد لي ، فسمي عبد المطلب .

فلما قدم مكة وقفه على ملك أبيه وسلمه إليه ، فعرض له نوفل بن عبد مناف في ركب (ناحية البيت)
له فافتصبه إياه ، فعشى عبد المطلب إلى رجال اتقوه فسألهم النصرة على عمه ، فقالوا :
لسنا بد اخلين بينك وبين عمك ، فلما رأى ذلك كتب إلى أخواله يصف لهم حال نوفل ، وكتب
في كتابه :

أبلغ بني النجاران جئتهم أني منهم وابنهم والخميس
رأيتهم قوماً إذا جئتهم هووا لقائي وأحبوا حسي
فإن عمي نوفلاً قد أبى إلا التي يقضي عليها الخسيس

قال : فحن أبو أسعد بن عدس النجاري في ثمانين راكب حتى أتى الأهنج ، وبلغ عبد المطلب
فحن يتلقاه ، فقال : المنزل يا أخال ، فقال : أما حتى ألقى نوفلاً . . . فلا ، قال : تركت
جالسا في الحجر مع مشايخ قريش . فأقبل حتى وقف على رأسه ، ثم استل سيفه ثم قال : ورب
هذه البنية لتردن على ابن أختنا (ركحه) ، أو لأملأن منك السيف . قال : ورب هذه البنية
أرد (ركحه) ، فأشهد عليه من حضر ثم قال : المنزل يا ابن أختي . . . فأقام عنده ثلاثاً واعتمر
وأنشأ عبد المطلب يقول :

تأبى مازنٌ ونوعدي ود يناز بن تيم اللات ضيمي
وسادة مالك حتى تناهسي ونكب بعد نوفل عن حريمي
بهم رد الإله عليّ وكحري وكانوا في التثب دون قومي (١)

حدثنا الحسين بن الفهم قال : أخبرنا محمد قال : أخبرنا مهين بن عون بن زياد قال :
أخبرنا هشام بن يوسف بن معمر ، عن أيوب عن محمد بن سيرين قال : لما حضرت أبو طالب
الوفاة دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : ابن أختنا ، فأنت أخو لك بنسي
النجار فانهم أمنع الناس في بيوتهم (٢)

ذكر أن الشاعر عباس بن مرداس السليبي سمع رجلاً من أهل مكة اشترى إبلا لقيس بن نسيبة فلما
حقه وان قيساً قام بمكة يقول

(١) الطبري - تاريخ ٢ / ٢٤٨ - ٢٤٩

(٢) الطبقات الكبرى - ابن سعد ٣ / ٤٤٢

وقد حوت كتب السير والأخبار الكثير من الأحناف التي كان يطلبها أحد العيين من قبائل العرب المحيطة بهم ، وأولئك لهم علاقة بها ، ففي بنو بعات - كما ورد - طلبت الأرض الحلف من قريش . وقصة إسلام إياس بن معاذ الذي حاول أن يثني قومه عن مثل هذه الأحناف ، وقيام الخـزن بطلب الحلف من أشجع وجهينة تحسباً ليرب بعات .

ولقد كانت هنالك علاقات شخصية قوية بين أهل مكة وأهل يثرب ، وقد ظهرت هذه العلاقة بعد الإسلام خاصة بعد بيعة العقبة الثانية .
لما علم القرشيون بخبر بيعة العقبة الثانية لحقوا بأهل يثرب وتمكروا أن يدركوا كلاً من سعد بن عبادة والمذر بن عمرو .

وأما سعد فأخذه فربطوا يديه إلى عنقه بنسج رحله ، ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة يضربونه ويبدونونه بجمته ، وكان ذا شعر كثير .

قال سعد : فوالله إني لفي أيديهم إذ طلع عليّ نفر من قريش فيهم رجل رضي أبيس شعشع حلوم الرجال ، فقلت في نفسي إن يك عند أحد من القوم خيراً فعند هذا الرجل . . . قال : فلما دناني رفع يده فلكنني لكمة شديدة ، فقلت في نفسي : لا والله ما عندهم بمسد هذا من خير .

قال : فوالله إني لفي أيديهم يسحبوني ، إذ أرى (١) لي رجل كان معهم فقال : ويحك أما بينك وبين أحد من قريش جوار ولا عهد . . . قلت : بلى والله لقد كنت أجير لجبير بن مطعم ابن عدي بن نوفل بن عبد مناف تجارة ، وأمنعهم ممن أراد ظلمهم ببلادى ، وللحارث بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، قال : ويحك اهتف باسم الرجلين ، وأذكر ما بينك وبينهما . . . قال : ففعلت وخرج ذلك الرجل إليهما ، فرجدهما في المسجد عند الكعبنة فقال لهما : إن رجلاً من الخزن الآن يضرب بالأبطح ، ويهتف بكما ، ويذكر أنه بينك وبينكما جوار . . . قال : ومن هو ؟ قال : سعد بن عبادة . . . قال : صدق والله إن كان ليجير لنا تجارنا ويمنعهم أن يظلموا ببلده . قال : فجاؤا فخلصا سعداً من أيديهم (٢)

وأما المذر فأعجز القوم

وشبهه بهذا قصة سعد بن معاذ سيد الأوس

لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، انطلق سعد بن معاذ معتمراً فنزل على أمية بن

(١) أرى : رحم ، أوى له : رق لحاله

(٢) السيرة النبوية - ابن هشام ١٢/٢ - ٩٣

خلف بمكة . قال سعد لأهليه : انظر لي ساعة خلوة لعلي أطوف بالبيت ، فخن به قريبا من
نصف النهار ، فلقبهما أبو جهل بن هشام ، فقال : يا صفوان انكم تنصرونهم وتحينونهم أما
والله لولا انك مع أبي صفوان ما رجعت الى أهلك سالماً .

فقال له سعد ورفع صوته عليه : أما والله لئن منعتني هذا لأمنعك ما هو أشد عليك من
طريقك على المدينة (١)

ويتضح من هذا عمق العلاقات التي كانت تربط الأوس والخزرج بقرى وغيرها من قبائل العرب
ويمكن القول بأن هذه الاحلاف كانت إما عن طريق العاهرة والزبل ، وكثير من هذه الأحداث
غير ما ذكرت - ، وكذلك طلب الحلف والتبعية في اجتماع الأوس والخزرج على طلب التبعية
من الخساسة على اليهود ، أو حلف الأوس والخزرج مع اليهود ليتقوى كل فريق على الآخر
أو طلب الحلف من قريش خاصة ومن العرب عامة خاصة القبائل التي تقيم حول مكة والمدينة من
هوازن أو ثقف أو غيرها ، وذلك لتقف هذه القبائل في دعم أحد الحيين على الآخر ، أو للسعي
للصالح بينهما .

ومن المعلوم أن القبائل العربية قد شهدت للأوس والخزرج بشدة البأس ، والصبر على القتال
وهذا ما كان له الأثر الكبير في نشر الاسلام بعد ذلك

- ويذكر أهل الأخبار أن حرباً وقعت بين (مالك) والأحلاف ، فخرجت الأحلاف تطلب الحلف
من أهل يثرب على بني مالك وعلى رأسها (مسعود بن محتب) رأس الأحلاف ، فقدم على أحيحة
بن الجلاح * أحد بني عمرو بن عوف من الأوس فطلب منه الحلف ، فأشار عليه أحيحة أن عليه
أن يعود إلى الطائف ومصالح إخوانه ، فان أحداً لن يبر له ان حاله فهم ، فانصرف مسعود عن
عنته بعد أن زوده بالسلاح والزاد ، وأعطاه فلاناً يبني الأسوار ، فلما وصل أمر الخلام ببني
سور حول مدينة الطائف فبناه له ، وأحيطت الطائف بسور قوي حصين وأمنت بذلك على نفسها
من غارات الأعراب (٢)

قال ابن الخطيم : لعمرى لقد حالفت ذبيان كلها وعيسا على ماني الأديم المهسد
قال أبو عمرو : كتبوا وتحالفوا على ماني الصعف (٣)

وهذا يدل على امتداد الحلف بين أهل يثرب وخاصة الأوس وبين عيس وذبيان .

(١) السيرة النبوية - ابن كثير ٢ / ٣٨٥

(٢) جواد علي - تاريخ ٤ / ١٥١

(٣) المدينة - الخطرازي ص ٢٠٠

علاقة الأوس والخزرج باليهود

سبق القول بأن اليهود قد ما إلى المدينة قبل الأوس والخزرج ، واستقروا بها وأقاموا بها نوماً من الحكم متأثراً بما يجري في جزيرة العرب على شكل حكم ملكي قبلي .
ونزل بعد هم الأوس والخزرج على شكل قبائل تميل إلى البدارة أكثر منها إلى المدنية والحضارة قطعت شوطاً طويلاً في البادية في مسيرها من اليمن ، حتى استقرت حول يثرب ، وامتازت هذه القبائل رحملت كل الصفات البدوية ، وكانت ديانتها وثنية ولها إلهها الذي تعبده وتقيم له رمزاً في مكة .

وقد عاشت هذه القبائل فترة ليست بالقصيرة على شطف العيش والفقر . واليهود ينعمون بخيرات المدينة الزراعية ، والاستفادة من الموقع التجاري لتنشيط تجارتهم أيضاً ، كما أقاموا العديسة من الصناعات فيها صياغة الذهب في سوق بني قينقاع ، وتصنيع السلاح وبعض المهن الأخرى . ويمكن أن يكون هذا التطور الحضري لليهود قد أفرد الأوس والخزرج لان يودعوا حياة البدارة التي ملوها ، ونزلوا منازل قريظة والنضير ، وقد مرت العلاقة بين الأوس والخزرج واليهود بمراحل عدة يمكن حصرها كالآتي :

١ - مرحلة التبعية لليهود : عاشت قبائل الأوس والخزرج فترة طويلة بعيدة عن الفاعلية السياسية والاجتماعية في يثرب ، وكان اليهود قد استقلوا بشؤونهم في المدينة (يثرب) وخارجها في خيبر وفدك وذياب ، وكان الأوس والخزرج يتطلعون إلى يوم يمكن لهم أن يسودوا تلك المناطق ويعتقوا شيئاً من رغد العيش الذي حرموه .

وعاشوا في كنف تنظيم قبلي بدائي ، لامزارع ولا منابت ، واستغل اليهود هذا الوضع المزري للحرب ، واستخدمت معهم أساليب غير أخلاقية ، سواء من النواحي الاجتماعية أو الاقتصادية وهذا ما شجع الأوس والخزرج إلى توحيد كلمتهم ، وطلب المعونة من أقرانهم لمساعدتهم ضد اليهود ، وقد مرت قصة (الغطفين) وما لاقاه هؤلاء على يديه وأعدائه من اليهود .

٢ - مرحلة غلبة الأوس والخزرج ، ثم أذال الله للأوس والخزرج من اليهود * وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَارُهَا بَيْنَ النَّاسِ * (١) ، وإذا كانت الروايات التاريخية قد أجمعت على أن الأوس والخزرج إنما انتصروا على اليهود بوساطة مساعدة خارجية ، فإنها اختلفت في مصدر تلك المساعدة علي رأيين . قيل : أنها من تبابعة اليمن ، وقيل أنها من غسانة الشام ، وكلهم بالطبع يمتنون إليهم بنسب عريق فالكل يرجع إلى قحطان من اليمن ، وليس من المستبعد القول بأنهم تلقوا المساعدة من التبابعة ومن الغسانة معاً ، أفضت بهم مساعدة التبابعة ، ومعاودتهم يثرب إلى الانتعاش وبدء الصمود أمام اليهود لولا موقفهم من تبع الأخير واغتيالهم ابنه ، وأدت بهم مساعدة الغسانة إلى الانتصار النهائي عليهم .

علاقة الأوس والخزرج بالقوى الخارجية

تجلى الحديث فيما سبق عن علاقة الأوس والخزرج بعضاً ببعض • ويعتد له لك عن علاقتهما —
ببهورد ومن ثم عن العلاقة مع العرب المحيطين بالمدينة ، ونلقي الضوء الآن على علاقة هذين
الحيين من العرب بالقوى العالمية المؤثرة في تلك الأثناء •

١ — العلاقة مع الغساسنة : أفصنا بالحديث عن الغساسنة أبناء جيلة والأوس والخزرج أبناء
الحارث وأبني قبيلة كانا أبناء عم ، وحددنا في أي جوبد التفرق بينهما ، وكان هـذا
الفراق قريباً جداً عندما خرج عمرو مزقياً بأولاده من اليمن ، واتجه إلى مكة ومنها تفرق أبناءه
ولقد اتجه الغساسنة إلى جنوب بلاد الشام وشمال الجزيرة • حيث كان يسيطر عليها القضاةيون
من حمير والذين كانوا آخر ملوك العرب (قبل الغساسنة) في الشام ، أو بالأحرى بمشارف الشام
حتى جاءهم الغساسنة أبناء عمومتهم فنافسوهم وحلوا محلهم في امتلاك الشام (تحت نفوذ التاج
البيزنطي) بعد حروب خسرها الغساسنة في أول الأمر ، وخضعوا لذلك فترة من الزمن
للقضاةيين يدعون الأتارة (الجزية) لهم ، حتى نشبت بينهم الحرب من جديد فتغلبت
الغساسنة نهائياً ، وأزالوا ملك القضاةيين من مشارف الشام بعد أن قتل أحد محاربيهم (الفتاك
جذع الغساني) (سبيطا) ملك القضاةيين عندما طلب منه الجزية التي اعتادت قضاة أن تقبضها
من الغساسنة • وعلى الرغم من قيام هذه الدول في شمال الجزيرة فإن علاقة الغساسنة

مع الأوس والخزرج كانت علاقة تجارية تقريباً ، باعتبار أن المدينة تقع على الخط التجاري السدي
يصل مكة واليمن بالشام ، وقد انشغل الأوس والخزرج بحروبهم الداخلية ، وانشغل عنهم الغساسنة
والمناذرة بحروبهم الدائمة أيضاً ، ولذلك فقد بقيت العلاقة مع المناذرة والغساسنة علاقة تعاون
في حدود معينة ، فعدا عن مد أبي جبيلة الغساني مالك ابن العجلان بقواته التي ساعدت على
السيطرة النهائية للأوس والخزرج على المدينة ، نجد أن التاريخ لم يحدث عن استمرار هذه العلاقة
أو التعاون العسكري بينهما أولاً لبعده المسافة بين بصرى — حاضرة الغساسنة — ويثرب ، وعدم
وجود فترات سلم سواها في الشمال أو في يثرب ليفي التبادل • وعدا عن الحرب التي كانت بين
الأوس والخزرج فانهم كانوا يخافون من استعادة اليهود سيطرتهم على المدينة ولانتقام منهم
لما فعلوه في بداية سيطرتهم على المدينة •

وقد وردت أخبار متفرقة عن علاقة بعض المتنفذين في المدينة مثل " عمرو بن الاطنابة " الخزرجي
الذي كانت له صلة بالمناذرة • ووقوفه لينال ثار خالد بن جعفر الذي قتل الحارث بن ظالم ،
وهي قصة لاترحي بعميق الصلة بين هذين الحيين من العرب (١)

(١) المدينة — الخطراوي ص ١٣٤

ولم تهدأ متاعب الرومان من العرب ، ولعل أعظم هذه المتاعب أنزلها جيل من العرب في الشام بعد الميلاد وقبل دوران الغساسنة في فلك هؤلاء الرومان ، هو ما أصابهم على أيدي التدمريين أذينة الأصغر وزوجته الزباء ، وأدى هذا الانكسار الشنيع إلى تحول كبير في السياسة الرومانية وتجهيز جيوش جبارة للقضاء على التدمريين وكان لهم ما أرادوا .

وفي الوقت الذي كان الرومان يقاتلون التدمريين كان الغساسنة يقاتلون القضاعيين ، وقد تغلب الغساسنة على مشارف الشام ، وطردوا القضاعيين منها كان الصراع على أشده أيضاً بين الرومان والفرس ، فخاف الرومان أن يغتقم الغساسنة هذا الوضع فيسارعوا إلى نجدة الفرس في حربهم ضد الرومان فسارعوا إلى التودد إلى الغساسنة ، وعقدوا معهم معاهدة تضمنت حلفاً عسكرياً بين الروم والغساسنة ، وقد أشار إلى هذه الحقيقة العلامة ابن خلدون فقال :
وتفردوا - أي الغساسنة - بملك الشام وذلك عند فساد كان بين الروم والفرس - فخاف ملك الروم أن يعين عليهم فارسياً ، فكتب إليهم واستدناهم ، ورئيسهم يومئذ ثعلبة بن عمرو أخرجذع بن عمرو قاتل (سبيطة القضاعي) ، وكتبوا بينهم الكتاب أي المعاهدة على أنه إذا دهمهم أحد من العرب أمدهم ملك الروم بأربعين ألفاً من جنده وأن دهمه أمر مدته غسان بعشرين ألفاً منهم . وثبت ملكهم على ذلك وتوارثوه (١)
وهذه العلاقة كان يستند إليها الغساسنة لتدعيم ملكهم ، ولكنهم لم يتوجهوا إلى يثرب لضمها إليهم أو جعلها تحت سلطانهم ، وبذلك بقيت العلاقة شبه مقطوعة بين الأوس والخزرج والروم تقريباً . أما بالنسبة للعلاقة مع الفرس فلم تورد الأخبار أية علاقة بين الأوس والخزرج والفرس . وكما كان الغساسنة دولة حاجزة للروم ضد العرب ، كان العنيزة أيضاً دولة حاجزة للفرس ولم تكن بين أهل يثرب والفرس سوى بعض العلاقات التجارية البسيطة أيضاً باعتبار أن التجارة التي تمر بيثرب قادمة من الجنوب أو الشمال أو الشرق قد تكون هناك بعض العلاقات والمعرفنة التجارية . وهذا أيضاً لم يشر إليه أحد من المؤرخين .

ولم يشارك اليترييون في أية حروب أو معاهدات أو صفقات كبيرة مع الفرس فان انشغالهم بحروبهم وبعدهم عن التخوم الفارسية قد ضعف من هذه العلاقة إذ لم تكن القطيعة هي الأصل في هذه العلاقة .

وتشير بعض الروايات إلى أن حسان بن ثابت كان يزرع الحمير ويصدح ملوكها كما كان يفعل مسع ملوك الغساسنة ولا يعني هذا أي علاقة قوية بين موقعين مهما كانا مختلفين .

(١) العرب في الشام - باشميل ص ١٩٠ فما بعد بتصريف

الحياة الاقتصادية في يثرب وارتباطها بالحياة السياسية

مدخل : عزاء الكثير من الباحثين سبب كل ما جرى في يثرب من سيطرة اليهود عليها أولاً ، واستبدادهم بأمرها ، وإقامة نوع من الملكية فيها ، وكذلك الحروب التي شعلها الأوس والخزرج على اليهود ، وغلبيتهم عليهم ، وكذلك الحروب المدمرة الطويلة التي وقعت بين الأوس والخزرج أنفسهم . . . عزوا كل ذلك إلى الجانب الاقتصادي باعتبار أن المدينة واحة ورفة الظلال ، كثيرة المياه كثيرة الزرع ، والنخل ولذلك كانت هدفاً ظاهراً لكل من حاول أو تمكن من السيطرة عليها . ومن المؤرخين المحدثين من أكدوا على هذا الجانب حتى غلبوه على الجوانب الأخرى الاجتماعية والسياسية وغيرها (١) .

الزراعة

كان لطبيعة البلاد ونوعية المناخ تأثير كبير على أنماط العيش عند العرب ، وتحديد نشاطاتهم الاقتصادية ، ففي الوسط حيث الصحارى والجفاف ، فرض على العربي أن يحيا حياة البسادة والارتحال وتربية الماشية ، أما الجنوب والشمال حيث يسود المناخ وتغزير الأمطار ، فقد استقر الحال وتعاطى الأعمال الزراعية ، وتفنن في طرق الري ، ولعل بيد مارب المقام في اليمن لحضر المياه وتوزيعها على الأراضي الزراعية هو أصدق دليل على ما وصلت إليه التقنية الزراعية في تلك البلاد (٢) .

وتعتبر يثرب واحة حقيقية ذات قرية صالحة للزراعة ، فأرضها بركانية خصبة تتوأم فيها مياه الأودية والعيون والآبار ، يأتي النخل في مقدمة الحاصلات الزراعية في يثرب ، فأكثر أموال أهلها النخل ، ومنه معاشهم وأقواتهم ، وخارجها من أشجار النخل والصدقات (٣) وبالإضافة إلى شهرة يثرب بإنتاج أفضل أنواع التمور ، قامت زراعة الحبوب المختلفة وبأبسط الشعير بالمرتبة الثانية بعد التمور . ثم القمح وأنواع الفواكه كالعناب والموز والرمان والليمون والبطيخ (٤) ومصادر الثروة الزراعية أيضاً حب البان ومنها ما كان يحمل إلى سائر البلدان (٥) وقد حوى أدب الأوس والخزرج الكثير من التعابير المتعلقة بالزراعة والآبار والري والنخل وأصول الزراعة ، والتلقيح والحرق وغيرها (١) .

(١) دراسات في تاريخ العرب - مهراڤ س ٤٥٥ وما بعد

(٢) الحضارة العربية - عبد الساتر س ٢٣٤

(٣) اليعقوبي - وفتح البلدان - البلاذري س ٧٣ والمسالك والمعالم س ١٢٨

(٤) مكة والمدينة - احمد الشريف س ٧٣ ، تاريخ العرب - الجبيلي س ٦٨٧

(٥) تاريخ العرب قبل الاسلام - السيد عبد العزيز س ٣٥٢

وأرض يثرب وما تبعها من أطراف هي من الأرضين الخصبة ، وقد حفر أصحابها آباراً فيها وسقوا منها ، وفسوا عليها النخيل ، وزرعوا بها ، واتخذوا لهم الحوايط والبساتين ، ويظهر أن بعضها كانت واسعة تسقى بآبار غنيمة بالما لها جملة نواضح ، وهي تظهر أن أهل المدينة كانوا مزارعين وأن مزارعهم كانت تأتي عليهم بمال طيب جعل بعضهم من الأثرياء .

وقد استفيد من شراج الحرة في سقي المزارع ، وكانت تستمد ماءها من الحرة ، وقد كانت للزبير بن العوام مزرعة على هذا الشراج ، كما كان لأنصاري مزرعة عليها كذلك .

وقد ورد ذكرها في كتب الحديث بسبب اختلافها على السقي .

وتتاني هذه الأخبار المحدثنة عن اشتغال الأنصار بالزراعة الأخبار الأخرى التي يروونها أهل الأخبار أيضاً ، والذاكرة أن الأنصار أهل المدينة لم يكن لهم علم بالزراعة ولم يكونوا يقبلون عليها اقبال يهود فدك وخيبر ووادي القرى على الفلاحة .

وبالمدينة وأطرافها مواضع عرف الواحد منها بالبقيع ، والبقيع الموضع فيه أرم الشجر من مسروب شتى والمكان المتسع ، ولا يسمى بقيقاً إلا وفيه الشجر ، ومنه (بقيع الغرقد) وقد ورد في الحديث وهو مقبرة مشهورة في المدينة ، سمي بالغرقد بشجر له شوك فذهب (الشوك) وبقي الاسم لازماً للموضع ، وبقيع النخل ، وبقيع الحنجية ، وبقيع الزبير وبقيع الخضمان ، موضع عند حزن بني التبييت .

ويثرب ثلاثة أودية مهيمة هي العقبيون ، ويطحان ، ورفاة .

وقد زرع أصحاب الأرض بيثرب أرضهم بقولاً وحبواً ، ومنهم من زرع تحت النخل ، ورد أن موسى من موالي عثمان بن مظعون كانت في يده أرض لآل مظعون بالحرة ، فكان يزرعها قنأً وبقلاً (١) ولما صارت أرض بني النضير خالصة لرسول الله كان يزرع تحت النخيل في أرضهم فيدخل من ذلك قوت أهله وأزواجه سنة ، وما فضل جعله في الكراع والسلاح عدة في سبيل الله (٢)

قال المحدثون : لما كان النبي صلى الله عليه وسلم بطريق التعاويل مقدمه من غزوة ذي قرد قالت بنو حارثة من الأنصار : يا رسول الله : ها هنا مسارح ابلنا ، ومرعى غنمنا ، ومخزن نساءنا - يعنون موضع الغابة - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قطع شجرة فليغرس مكانها وديق ، فغرست الغابة .

وأضافوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى في مهزوز أن يحبس الماء في الأرض إلى الكعبيين فإذا بلغ الكعبيين أرسل إلى الأخرى ، لا يمنع الأعلى عن الأسفل . كما قضى بسيل بطحان بمثل ذلك . وعن جعفر بن محمد عن أبيه قال : قضى رسول الله في سيل مهزوز أن لأهل النخل إلى الكعبيين ولأهل الزرع إلى السراكين ، ثم يرسلوا الماء إلى من هو أسفل منهم . وقال صلى الله عليه وسلم : بطحان على ترعة من ترع الجنة .

(١) فتح البلدان - البلاذري ص ٢٢

(٢) فتح البلدان - البلاذري ص ٣٣

ب - الصناعة

الصناعة حرفة الصانع ، وعمله الصناعة ، ورجل صنيع حاذق في الصناعة ، وعما د الصانع على يديه يستعملها في صنع الأشياء ، كما يعتمد في زكائه في تحويل الأشياء إلى أشياء أخرى أهم منها ، أو أي شيء آخر يريد ، أو يطلب منه . وهو بالطبع من أهم العناصر المنتجة اللازمة في الحياة الاقتصادية ، فهو محور الانتاج ، وعلى قدر انتاج أمة (من الامم) يقاس غناها ، ومقدار تقدمها في الحياة ، وتكون منزلتها بين الشعوب ، وبالصناعة يتم تحويل المواد الخام الفائضة عن الحاجة إلى مواد أخرى أفيد منها ، تستهلك في الأسواق المحلية ، أو تباع في الأسواق الخارجية .
والحرفة : الطعمة والصناعة التي يرزق منها ، وهي جهة الكسب ، وكل ما اشتغل الانسان وجرى به أي أمر كان فإنه عند العرب يسمى صنعة و (حرفة) يقولون : صنعة فلان أن يعمل كذا ، وحرفة فلان أن يفعل كذا ، يريدون دأبة وديده .

ذكر أن علي بن أبي طالب قال : اني لأرى الرجل فيعجبني ، فأقول : هل له حرفة ، فان قالوا : لا . سقط من عيني . . .

وروي عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : لأن يأخذ أحدكم حبلًا ويحتطب ، أحسن عليه أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه ، وأن ينهي الله داود كان يأكل من عمل يده .
والمهنة عند العرب : الحذق بالخدمة والعمل ، وامتتهه ، استعمله للمهنة وابتدله ، والمهنة العبد ، والخادم . والمهنة : العمل ، والعامل هو الذي يقوم بعمل ما ، والعملية : العاملون بأيديهم ، وهم الذين يرتزقون بعمل أيديهم .

وأغلب (العملية) فقراء ، لا يملكون شيئاً ، رزقهم بعملهم ، فاذا مرض أحدهم بعاهة انقطع رزقه ، ثم ان أجورهم قليلة ، وأرزاقهم من عملهم شحيحة ، ولذلك كانت حياتهم ضيقة .
من الحرف المتداولة بين الجاهليين التجارة والحداة والحياكة والنساجة والخياطة والضيافة
والدباغة والبناء ونحوها من حرف يحترفها الحضري الغالب ،

والحرف وراثية في الغالب يتعلمها الابن عن والده وتتحصر في العائلة فتنتقل بين الآباء إلى الأبناء ، ولا يسمح لغريب أن يتعلم أسرار الحرفة وأن يقف عليها (٣)

الأمر ينطبق بكليته على يثرب ، خاصة أن الفترة التي كانت يسيطر فيها الأثريون والخزرج على مقادير الأمر في المدينة ، وسفلوا بها بأيام طويلة من الحروب الطاحنة ، قد انشغلوا عن أوضاع أو عن

أمر الصناعة أو التفكير بها ، وهي بالأصل بعيدة عن تفكيرهم كمجتمع شبه بدوي ، لكن وجود الصناعات قائم لتوفر شروطه ، فمنها حاجة الناس إلى كثير من المصنوعات - الألبسة ، والأغذية والأسلحة ، وأدوات الزراعة وما يرتبط بها من صناعات ضرورية كسكة الفلاحة ، وأدوات الري -
بالحيوان ، وأدوات النزع والدرس والطحن .

وقد انتشرت مهنة البناء في يثرب وعرف هذه المهنة الكثيرون وكذلك استخدام المواد الأولية المساعدة على ذلك كالتراب والحجارة والطوب والأخشاب ، وكل الروايات تشير الى سرعة انجاز مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وسماكه في أيدي المسلمين ، ثم ان الرسول أمر باتخاذ اللبن فاتخذ ، وبنى به المسجد ورفع أساسه من الحجارة وسقف بالجريد ، وجعلت عنده جذوعاً (١) أما من الناحية الصناعية فقد قامت في يثرب بعض الصناعات البسيطة ، كصناعة الخمر المستخرجة من التمر ، ثم صناعة المكاتل والتف من سعف النخل ، كما برع يهود بني قينقاع بصناعة التحف المعدنية كالحلي وأدوات الزينة ، ثم صناعة الأسلحة والدرع (٢)

واختصت يثرب أيضاً بصناعة التحف المصنوعة من المعادن كالحلي ، وأدوات الزينة وصناعة الأسلحة والدرع ، وقد احترف اليهود خاصة يهود بني قينقاع هاتين الصناعتين ولذلك غنم المسلمون عندما أجلوا بني قينقاع من المدينة كثيراً من الدروع والسيوف والأقواس ووجدوا في حصونهم سيوفاً وسلاحاً كثيراً ، وآلة للصبغة ، كذلك غنم المسلمون من بني قريظة ألفاً وخمسة مائة سيف وألفي ربح ، وألفاً وخمسة مائة ترس وسحفة وثلاثمائة درع (٣)

وعلى العموم فإن الصناعة بمعنى الصناعة التي يتخذ الحرفيون فيها عملهم خالصاً في حياتهم يتوارثه صغيرهم عن كبيرهم ، أو تفرق وراءه تجمعات بشرية - صناعية ، أو أهل حرفة متوارثة ، لم يكن هذا في عرب يثرب إطلاقاً ، حتى قضايا الصناعة الصغيرة فقد كانت بعيدة عن تفكيرهم . وكانت في يثرب مصانع للأسلحة ، فقد كانت تصنع فيها الدروع ، وكان اليهود هم القائمون على صناعتها كذلك كانت تصنع السيوف والسهام ، وأخذت صناعة السهام فيها شهرة كبيرة حتى قيل : أجود السهام سهام يثرب ، وكانت هذه الأسلحة على اختلافها عزيزة عليهم ، ولا يستغنون عنها ولا يفرطون فيها ، وكان الرجل منهم يهتم بسلاحه كما يهتم بولده ، ولقد قيل كعب بن الأشرف اليهودي رهن الأسلحة عنده بدلاً من رهن الأبناء (٤)

ومن الصناعات التي اشتغل بها اليهود النسيج ، وهو من اختصاص نسائهم على الأكثر ، والصبغة وقد اقتصرت به بنو قينقاع ، والحداة وهي صناعات يأنف منها العرب ويزدرونها ، ورونها مسن الحرف المقوتة الحقيزة (٤)

(١) فتح البلدان - البلاذري ص ٢٠

(٢) تاريخ العرب - الجبيلي ص ١٨٨ - العرب قبل الاسلام - زيدان ٢٨٠ ١ ٢٨١

تاريخ العرب قبل الاسلام - السيد عبد العزيز ص ٣٥٣

(٣) تاريخ العرب قبل الاسلام - السيد عبد العزيز ص ٣٥٣ - نقل عن مغازي الواقدي ص ١٤٢

الطبقات الكبرى - ابن سعد ٣ - ٥٤٧١ - طبعة ليدن - فتح البلدان - البلاذري ص ٣١

أموال بني النضير

(٤) جواد علي - تاريخ ٥٣٥ / ٦ - ٥٣٦

ج - التجارة

على العكس من الصناعة فان التجارة قد ازدهرت في يثرب بشكل كبير ، والتجارة كانت مهنة لدى عرب الحجاز شريفة ومقبولة ، ولكن لا يعني هذا أن تصل يثرب في جميع حالاتها أو أواخرها ، أو مقارنتها بما كان في مكة من تجارة ونشاط تجاري ، وتحرك وتجمع وتجارة الصيف والشتاء .
ومارس عرب الجزيرة التجارة يساعد هم على ذلك أمران ، موقع بلادهم بين أمم اشتهرت بالتجارة منذ أقدم العصور ، وكثرة الطرق التجارية التي تخترق بلادهم ، فكان العرب يقومون بدور الوسيط التجاري بين شعوب حوض البحر المتوسط ، وشعوب المحيط الهندي ، وسيطرون على طرق التجارة البحرية في المحيط الهندي والبحر الأحمر والخليج العربي ، ويحتفظون لأنفسهم بأسرارها ، كما كانوا يتحكمون بطرق القوافل البرية . وقد بقي أهل اليمن أسياد التجارة العربية حتى سقوط مملكة (حمير) في القرن السادس الميلادي ، وبعد ذلك انتقلت الزعامة ولكن على نطاق أضيق إلى مدن الحجاز الثلاث مكة ، يثرب ، الطائف ، وأما الأسواق فقد كثرت وتوسعت في أنحاء الجزيرة لتسهيل عمليات التبادل ، والتبادر الأدبي ، والتنافس القبلي والتلاقي الاجتماعي . وكان أهمها عكاظ ، عمان ، ديب ، عدن (١)

كان الاشتغال بالتجارة من الأعمال الرئيسية في يثرب ، ففيها نشطت حركة التجارة الداخلية . وكانت تقام بيثرب الأسواق المختلفة لبيع التمر ، والشعير والحطب والصوف والسلاح ، ومن الأسواق المعروفة في الجاهلية سوق بني قينقاع ، وسوق زباله وسوق الجسر ، وسوق الصفاص ، وسوق البطحاء ، وفيها كان بنو سليم يبيعون النخيل والابل والغنم والسمن ، وكانوا يجلبون إلى إسواق يثرب والطائف الزبيب ومن اليمن المنسوجات القطنية والحريرية ، ومن الشام الحنطة ، وكانت التجارة مع الشام واليمن تتبع الطريق البري المعروف ، والطريق البحري عبر البحر الأحمر ، ويذكر اليعقوبي أن البحر الأعظم (البحر الأحمر) منها على ثلاثة أيام ، وساحلها مضع يقال له الجار ، واليه ترسي مراكب التجار والمراكب التي تحمل الطعام في مصر ، وكانت الجار على حد قول ياقوت فرضة تراف إليها السفن من أرض الحبشة ، ومصر وعدن والصين وسائر بلاد الهند . ويحذاً الجار حتى جزيرة في البحر تكون ميلا في ميل لا يعبر إليها الا بالسفن ، وهي مرسى الحبشة خاصة يقال لها قراف ، وسكانها تجار كحواهل الجار (٢) وكان لموقع يثرب على طريق القوافل التجارية بين اليمن والشام اثره في نشاط الحركة التجارية فيها .

(١) الحضارة العربية - لبيب عبد الساتر ص ٢٣٤

(٢) ياقوت - معجم البلدان مادة الجار ٢/٩٢ تاريخ العرب قبل الاسلام - السيد عبد العزيز

٣٥٢ - ٣٥٣ (٣) معجم البلدان - ياقوت الحموي ١/٧٢

ان الطابع العام الغالب على أسواق يثرب أنها محلية ، فلم تكن كالأسواق العربية الأخرى المشهورة التي وردت لشهرتها حتى في الأشعار ، كسوق دوة الجنديل ، وسوق هجر ، وسوق عمسان وسوق المشقر ، وسوق حمار ، وسوق صنعا ، وسوق حضرموت ، وسوق مخبة وسوق عكاظ .

وكانت التجارة الخارجية بيد بعض الأوس والخزرج ، غير أن أكثرها كان بيد اليهود يأتون إلى أهل يثرب بما يحتاجون إليه من تجارات ، ويقدمون بالبر والشعير والتبن والقماش وغيرها من الأسياء التي تزرع بها بلاد الشام لو كان اليهود بجانب ذلك يقومون بتسقط الأخبار لفائدة الروم . وظهر ذلك بينا عند ظهور الاسلام .

وما يدل على صلة يثرب التجارية مع غيرها من مدن عصرها كمنه هو قصة إسلام سعد بن عبادة ورفاقه ممن بايعوا بالمعقبة كما سيرد تفصيلاً .

وكثيراً ما كانت الأسواق التجارية مجالاً للتسكع من الشباب العاطل أو المتفرغ عن العمل ، وألذي يطلب النزهة عند ازدحام الأقدام ، فيكون ذلك سبباً في نشوء النزاعات والخلافات ومنها السبب الذي أدى إلى اندلاع حرب سمير (١)

ولم تكن يثرب بمعزل عن النشاط التجاري في الجزيرة العربية ، بل انها اشتركت فيه إلى حد كبير بجانب نشاطها الأساسي في المجال الزراعي ، فكانت القوافل تصدر منها للتجار وتأتيهم القبايل المجاورة للتزود والاتجار ،

وكان أهل يثرب مثل غيرهم تجاراً يخرجون إلى أسواق الشام فيتجرون بها ، وقد ذكر أهل الأخبار أسماء رجال منها تاجروا مع بلاد الشام . وكان (يهود) يثرب يتاجرون أيضاً ويأتون إلى أهل يثرب بما يحتاجون إليه من تجارات . كما كانت (الساقطة تنزل المدينة في الجاهلية والاسلام يقدمون بالبر والشعير والزيت والتبن والقماش ، وما يكون بالشام) وكانوا يتسقطون الأخبار وينقلونها إلى الروم عند ظهور الاسلام ، ويقدم الساقطة المدينة وأبو بكر ينفذ الجيوش ، وسمعوا كلام أبي بكر لعمر بن العاص وهو يقول : عليك بفلسطين وإيليا (نصاروا بالخبر إلى الملك هرقل) وتبياً لملاقاة المسلمين .

ولم يذكر الرواة جنس هؤلاء الساقطة الذين كانوا يأتون بالتجارة من بلاد الشام إلى المدينة هل كانوا روماً أم عرباً ، أم يهوداً ، أم كانوا خليطاً من هؤلاء ؟ ولشراً ما يجدونه هناك ، ويقروا شأنهم هذا إلى الاسلام (٢)

(١) شعر الحرب - الخطراوي ص ٦١ فما بعد يتصرف . المدينة الخطراوي ١٥٧ فما بعد

(٢) جواد علي - تاريخ ١٤١/٤

أهمية الموقع التجاري : تقع يثرب على الطريق التجاري الرئيسي الذي يربط اليمن بمكة والشام ، ونظرا لتطور التجارة بشكل واسع في مكة ، وترتيب قريش لرحلتها في الشتاء والصيف ، فان يثرب المحطة الرئيسية في الطريق إلى الشام . صحيح أن يثرب لم تبلغ مبالغ المواقع التجارية والاسواق في الجاهلية التي كثر بشكل كبير وازدهرت الا أن يثرب لم تكن مكاناً مهماً . فهي واحة وارفة الظلال كثيرة الانتاج الزراعي كثيرة السكان ، بها تتفاعل الكثير من الأحداث خاصة الأحلاف التي كان اليثريون قد عقدوها مع القوى المحيطة بهم وخاصة مكة والقبائل الأخرى ، فلم تكن من هذه الناحية يثرب مكاناً مهماً إذا لم نقل بأنها كانت مكاناً مقصوداً . ومكانا يوجد فيه المسافرين ما يريدون . وهذا ما جعل لاهل قريش يكثرون من الأحلاف بينهم وبين اليثريين وتصل القضية إلى حد التزاوج المتعدد بينهم حسب ما استقيناه من الأخبار .

ولذلك فقد كان لموقع يثرب أهمية خاصة كعقدة مواصلات مهمة في شمال الجزيرة وجزءها . وقد سلكت منها الكثير من الطرق التجارية التي لم يذكرها الأقدمون مكن تسيير الجيوش في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أرجاء الجزيرة العربية (١)

ولقد كانت هذه الطرق التي كان التجار يسلكونها في سفراتهم إلى نجد والشمال والجنوب وحتى إلى الغرب ، لم يكن أهل يثرب يركبون البحار ، ولم يفكروا في ذلك ، لكن هذا لم يمنعهم من أن يقيموا لهم مراكز على البحر الأحمر يتاجرون فيه ، أو يتلقون بعض البضائع منه . كما أن تسيير الخليفة الراشد أبو بكر الصديق رضي الله عنه في الجيوش المتعددة في حروب الردة ، وكل واحد ضمنها أمره أن يسلك طريقاً معيناً معروفاً . يدل على أن أهل يثرب قد خبروا هذه الطرق وعرفوها . وتمكن الخليفة أبو بكر أن يحدد لها للقادة وليس فقط طرق الانطلاق والعودة ، ولكن أيضا طرق متابعة الفتح والحرب ، فلم يكن قد أمر قائدا بذاته أن يقوم بمهمة واحدة ويعود إلى المدينة ، بل رسم لكل واحد منهم طريقاً وهدفاً ، ثم حدد له الهدف التالي من مكانة الذي ينتهي منه من هدفه الأول . فلما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم واستخلف أبو بكر فأوقع بأهل الردة (من أهل نجد) وما والاها في أشهر يسيرة بعث خالد بن الوليد إلى اليمامة وأمره بمحاربة الكذاب مسيلمة ولما انتهى منه سار إلى البحرين ، واستخلف على اليمامة سمرة بن عمرو البزري (١)

وقد وردت أسماء الكثير من الطرق القديمة التي استخدمها التجار والحجاج قبل الاسلام ، ثم استخدمت أثناء الفتح للحج أيضا في الاسلام . ومن هذه الطرق التي تمر بالمدينة فمن أخذ عالي المدينة فمن المعدن إلى العسيلة ، ثم إلى بطن نخل (٢) ، ثم إلى الطرق ثم إلى المدينة وهي يثرب (٣)

(١) فتح البلدان - البلاذري ص ٣٦ فتح خيبر - حتى دعوة الرسول لأهل اليمامة ص ٩٢-١٠٠

(٢) خارطة ص ٧٣ ، ٢٤٧ ، ٣٠١ ، العرب قبل الاسلام - زيدان

(٣) المسالك والمعالم ص ١٢٨

القسم الرابع

الحياة الفكرية

أ - القراءة والكتابة : لفظ قرأ اتخذت في اللغة عدة معان .

ق ر أ : (القرآن) التنزيل . وقراءة ، وبه كصره ، ومنعه - قرأ ، وقراءة ، وقرآنا ، وصحيفة
مقرؤة ، ومقرؤة ، ومقرية . وقاراه مقاراة ، وقرأه دراسة (١) . وك ت ب . كتبه كتبا وكتابا ،
خطه ككتبه ، واكتبه ، أركبه خطه واكتبه . إستلأه كاستكتبه . والكتاب : ما كتب فيه (٢)

ومع اختلاف المعاني الكثيرة إلا أن الذي يعنينا في هذا المقام هو معرفة القراءة : أي النظر

إلى تركيبات الحروف ، ومعرفة مدلولاتها ومعناها ، وما هي المقاصد التي نبغيها من وراء هذا

الجمع أو الاختلاف ، وورد في القرآن الكريم حروفاً مجموعة عرفت بغواتج السرور . ألم . المر . العس

ق . ن . ك . هي . ع . م . الخ وهذه لها دراساتنا الخاصة ، وباحثوها المختصون ، إلا أن الذي

نريد التوقف عليه هو : هل كان العرب وعرب يثرب خاصة ، أو عرب الجاهلية عامة قادرين على

معرفة المعاني المطلوبة وراء تراكيب الحروف ، والتي تشكل بدورها كلمات ، ومجموع الكلمات يشكّل

جملات ذات معنى ، يستطيع الذكي ينظر إليها أن يركزي ذهنه معنى معيناً لعقل هذه التراكيب

والكتابة : هو القدرة على تركيب الحروف باليد أو بأداة أخرى تعطى هذه التركيبات معان

يريد الناظر أن يعبر عنها في ذهنه برسمها وتوضيحها .

ولقد مرت قضية القراءة والكتابة في التاريخ بأدوار متعددة لا تخلو من الطرافة ، ولا تخلو من

الإنارة أيضاً ، إذ تمكن الإنسان عندما بدأ يخطو هذه الخطوة ، أي أخذ ما يريد من أفكار

الآخرين بالقراءة ، واعطاء ما يريد للآخرين من أفكاره بالكتابة .

الشائع بين كثير من الناس أن العرب قبل الإسلام كانوا في جهالة وضلالة لا يقرأون ولا يكتبون

وإن الكتابة كانت قليلة بينهم ، واستدلوا على رأيهم هذا باطلاقتهم لفظة الجاهلية على أيامهم

وما جاء بأنهم كانوا قرماً (أميين لا يكتبون) واستدلوا بحديث ذكر أن الرسول صلى الله

عليه وسلم قاله هو : أنا أمة أمية لأنك كتب ولا نحسب .

ذكر الفراء وهو من علماء العربية المعروفين " أن الأميين هم العرب الذين لم يكن لهم كتاب ،

يراد بالكتاب التوراة والإنجيل . ولذلك نعت اليهود والنصارى في القرآن بـ (أهل الكتاب)

(١) ترتيب القاموس ٣ / ٥٢٨ . مختار الصحاح - الرازي ٥٢٦ . لسان العرب - ابن منظور
٤٣ / ١٢

(٢) المصدر السابق ٤ / ١١ . مختار الصحاح - الرازي ٥٦٢ . لسان العرب - ابن منظور
٢١٦ / ٣ فما بعد

وهذا المعنى يناسب كل المناسبة لفظ (الأميين) الواردة في القرآن الكريم وتعنى الوثنيين أى جماع قريش ، وبقية العرب ، فمن لم يكن من يهود وليس له كتاب (١)

وعلى هذا الأساس فان كلمة الأميين (الذين ليس لهم كتاب تعنى الأوس والخزرج) عرب يشرب وان (اليهود) فهم أهل كتاب وليسوا أميين .

أما المعنى المراد فى السابق ، وهو معرفة القراءة والكتابة فانها تشمل سكان يثرب جميعا فعنهم من كان يلم بالقراءة والكتابة من الأوس والخزرج واليهود . ومنهم من لايعرفها إطلاقاً — من المجموعة كلها وربما هى الاكثرية الساحقة .

وقد بحث الراجب الاصبهاني في معنى (الأمية) فقال : **وَالْأُمِّيُّ** : هو الذى لا يكتب ولا يقرأ من كتاب وعليه شمل * **هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالْمُتَوَكِّلِينَ وَالْإِنجِيلَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَمِنَ ضَلَالٍ عَمِيقٍ** (٢)

وَالْأُمِّيُّ وَالْأَمَانُ — بضمها — من لا يكتب أو من هو على خلقه الأمة لم يتعلم الكتاب . وهو باى على جبلته . وفي الحديث : **إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لَنَكْتُبُ وَلَا نَحْسِبُ** . أراد أنه على أصل ولادة أمهم لم يتعلموا الكتاب والحساب فهم على جبلتهم الأولى .

وقيل لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم * **الأمي** * لأن أمة العرب لم تكن تكتب ولا تقرأ المتسبب، وبعثه الله رسولا ، وهو لا يكتب ولا يقرأ من كتاب . وكانت هذه الخلة إحدى آياته المعجزة لأنه صلى الله عليه وسلم تلا عليهم كتاب الله منظوماً تارة بعد أخرى ، بالنظم الذى أنزل عليه ، فلم يغيره ، ولم يبدل ألفاظه . ففى ذلك أنزل الله تعالى **(وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّ بِيَمِينِكَ ، إِذًا لَا رَتَابَ الْعُمَّالِينَ)** (٣)

وقال الحافظ بن حجر فى تشریح أحاديث الراجب ان معا حرم عليه صلى الله عليه وسلم الخط والشعر (٤) وهذا المعنى يستقيم لحدیثنا عند الإشارة الى أن السبأ الذى نريد هو أن نقف علو، مدى معرفة عرب يثرب وهم مجموعة من كافة العرب للقراءة والكتابة ومدى انتشار الامية بينهم ،

على الرغم من ان لفظة أمي أو أمية لم تكن تعنى عند الجاهليين معنى عدم القراءة والكتابة والجهل بهما ، وانما كانت تعنى عندهم : مشركين وثنيين وهو المعنى الذى ورد فى القرآن الكريم والذى نعت فيه الرسول صلى الله عليه وسلم فيه بالأمي ، لأنه من العرب ، ومن ثم ليس لهم كتاب ، عرفوا بذلك من قبل أهل الكتاب اليهود (٥) .

ونخلص إلى القول بأن أهل البواى ، ولاسيما البواى النائبة عن الحواصر هم أميون ما فى ذلك من شك ، لأن طبيعة البادية فى ظروفها المعروفة لا تساعد على تعلم القراءة

(١) جواد على — تاريخ ٩١ / ٨ — ٩٢

(٢) سورة الجمعة آية ٢ (٣) سورة الحنكوت — آية ٤٨

(٤) جواد على ٩٦ / ٨ (٥) جواد على ١٠٥ / ٨

والكتابة ، ولا على ظهور العلوم وتطورها فيها ، غير أننا لانحنى أنهم كانوا جميعاً أميين لا قارىء بينهم ولا كاتب ، فقد كان بينهم من يقرأ ويكتب . (١) وأما أهل الحواضر فقد كان بينهم من يقرأ ويكتب كما كان بينهم الأمي أى الجاهل بالقراءة والكتابة . كان منهم من يقرأ ويكتب بالقلم المسند وكان منهم من يقرأ ويكتب بالقلم الذى دون فيه القرآن الكريم ، فصار القلم الرسمى للاسلام بفضل تدوين الوحى به ، كما كان بينهم من يكتب بقلم النبط ، وقلم بني إرم ، وكان بينهم من يكتب ويقرأ بقلمين أو أكثر .

وذكر أن الأحناف كانوا يكتبون ويقرأون ، وبعضاً منهم كان يكتب بأقلام أعجمية ، وكان قد وقف على كتب أهل الكتاب ، وكانوا أصحاب رأى ومقالة في الدين وفي أحوال قومهم ، وذكر الهمداني أن العرب كانت تسمى كل من قرأ الكتب أو كتب صابئاً ، وكانت قريش تسمى النبي صلى الله عليه وسلم أيام ناز يدعو الناس بمكة ويتلو القرآن - صابئاً (٢) فالهبة على تفسير الهمداني من الكتابة وكل من قرأ الكتب ، وعلى ذلك فيكون الحفناء من جملة الصباة (٣)

وذكر أهل الاخبار أن قوماً من أهل يثرب من الأوس والخزرج كانوا يكتبون ، ويقرأون عند ظهور الاسلام ذكروا فيهم سعد بن زبارة والمندر بن عمرو ، وأبي بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وكان يكتب بالكتابتين العربية والعبرية أو السريانية ، رافع بن مالك ، وأسيد بن حضير ، ومعنى (معنى) بن عدى البلوي ، وأبو عيسى بن كثير ، وأوس بن خولي ، وشير بن سعيد ، وسعد بن عبادة ، والربيع ابن زياد العبسي ، وعبد الرحمن بن جبير ، وعبد الله بن أبي ، وسعد بن الربيع . (٤)

وقد أرجعوا أصل علمهم بالكتابة والقراءة إلى قوم من يهود يثرب ، مارسوا تعليم الصبيان القراءة والكتابة دعوى (بني ماسكة) . ويظهر إن صحت هذه الرواية أن يهود يثرب كانوا يكتبون بالعربية أيضاً وأنهم كانوا يعلمونها للعرب . وتعرض البلاذري لهذا الموضوع فقال : كان الكتاب نسي الأوس والخزرج قليلاً . وكان بعض اليهود قد علم كتاب العربية ، وكان تعلمه الصبيان بالمدينة في الزمن الأول فجاء الاسلام وفي الأوس والخزرج عدة يكتبون (٥) ونجد هذا الخبر في موارد أخرى أخذته دون أن تشير إلى السند فظهر وكأنه حقيقة مسلمة ، حتى جاء الاسلام فانتشر بها ، وأنه لو كانت الكتابة منتشرة عندهم ؟

صلى الله عليه وسلم القارئ الكاتبين من أسرى بدر بأن يعلم كل واحد منهم عشرة غلمان من غلمان المدينة القراءة والكتابة فداءً لنفسه من الأسر (٦)

(١) جواد علي - تاريخ ١٠٧ / ٨ (٢) الاغانى - الاصبهاني ١٢٠ / ٣
(٣) جواد علي - تاريخ ١٠٨ / ٨ (٤) فتح البلدان - البلاذري ٤٥٩
(٥) فتح البلدان - البلاذري ٤٥٩
(٦) الطبقات الكبرى - ابن سعد ٢ قسم ١ س ٢٢

ج - الملكية عند العرب

الملكية عند العرب : عرف العرب النظام الملكي منذ عهد بعيد جدا ، فقد تمكن العمالقة من العرب أن يقيموا حكما لهم في مصر امتد حوالي ثلاثمائة سنة (الهكسوس) وعاصر حكمهم ابراهيم عليه السلام واولاده وأحفاده ، وقد استفاد يوسف عليه السلام من وجودهم في مصر فأصبح وزيراً أولاً لدى الملك - وليس فرعون - الذي استأثر به لنفسه . * وَقَالَ الْعَلِكُ أَتْتَنِي بِهِ أَسْتَخْلِمُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ * قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْم * وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ، نَصِيبٌ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١)

وفي ظل حكم الهكسوس دخل بنو اسرائيل مصر وارتقى شأنهم ، ولما تمكن أهل مصر الفراعنة من طرد الهكسوس دخل بنو اسرائيل في العبودية لعمالقتهم العماليق العرب كما هو معروف من سياق تاريخ بني اسرائيل حتى ظهر سيدنا موسى وخلصهم من العبودية .

كما أن العماليق أقاموا حكماً لهم بالمدينة وبمكة وبسائر الحجاز ، تمكنت جرهم منهم في ضواحي وشعاب مكة قبل أن يأتي ابراهيم عليه السلام بزوجه وابنه اسماعيل إلى مكة ، وسياق الحديث في هذا المعنى كثير .

لكن أقرب الممالك التي عرفتها العرب هي ممالك الجنوب التي قامت في الشام بعد الميلاد أو عاصرت تلك الأحداث .

من المصادفات التي رافقت قيام الممالك العربية قيام الإمبراطوريات الكبيرة ، فممالك اليمن رافقت قيام امبراطورية الاحباش ، ومملكتنا تدمر والبطرا رافقتا قيام الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية - وقبل أن تصبح القسطنطينية مركزاً للإمبراطورية (الرومانية) (٣) في الشرق بوقت طويل ظهرت إلى الوجود دولتان عربيتان إحداهما بالبطرا (٣) والأخرى بتدمر (٤)

(١) سورة يوسف آية ٥٤ - ٥٦ (٢) () زيادة عن الاصل

(٣) مملكة النبط مملكة عربية لم يعرف الاخباريون من أمرها شيئاً ، سداها ولحماتها النبط وهم قوم من جيلة العرب ، وان تبرأ العرب منهم وهيروا بهم ، وأبعدوا أنفسهم عنهم ، وطأوا عليهم لهجتهم حتى جعلوا لغتهم من لغات العجم ، وقالوا إنهم نبط ، فإن في لسان من استعرب منهم رطانة ، وسبب ذلك هو أنهم كانوا قد تشققوا بثقافة بني إرم ، وكتبوا بكتابتهم ، وتأثروا بلغتهم ، حتى غلبت الآرية عليهم ولأنهم فضلاء عن ذلك خالفوا سوا العرب باشتغالهم بالزراعة والرعي واحترافهم الحرف والسناعات اليدوية ، وهي حرف يزدريها العربي الصميم ، ويعير من يقوم بها ويحترفها (جواد علي - تاريخ ٥ / ٣)

(٤) ويتصل الحديث عن النبط بالحديث عن مدائن آخر له علاقة بهم أيضاً وهو (تدمر) المعروفة باسم PALMYRA عند الغربيين الذين ورثوا التسمية من الرومان واليونان وهو (تدمر) المذكور في كتابات (تغلب فلاح الاول) ١١٢ - ١٠٨ ق م على رأى بعض الباحثين ، وقد ورد اسم المدينة وهي تدمر في عدد من الكتابات . كما ورد اسم علم للأشخاص (جواد علي ٢ / ٧٦) وقد أشهار (بليتوس) (بليتيوس) الى مدينة PALMYRA وهو أول كاتب كلاسيكي عرض لها ، فذكر انها مدينة

وذلك نتيجة لانتعاش طرق التجارة التي تمر بالمنطقة ، وكان الموقع الاستراتيجي الذي احتلته (البطرا) سببا في سيطرتها على الطريق المؤدية الى الحجاز ، وما وراء ذلك الى بلاد العرب الجنوبية ، وكذلك عن الطرق المتجهة غربا صوب مصر ، وفيه القارة الإفريقية ، أما تدمير فهد اذ هرت على حدود الامبراطورية نفسها بموقعها على طريق (دقلديانوس) الذي كان يصل بين أمدن الساحل الفينيقي واديّة النمام وأرض الجزيرة .

ولغة الرقوم التي وصلت من البطرا وتدمر هي الآرامية التي تأثرت في تطورها بانتعاش العلاقات التجارية لهاتين الدولتين ، كما كان لها أيضا كتاباتها الخاصة بها ، أما اللغة العربية كلغة لها وزنها فإنها لم تتطور إلا في ازمة تالية لذلك .

هذا وقد وضعت روما حدا لحياة (البطرا) عام ١٠٦م كما قضت على تدمر وضميرتها عام ٢٧٢م وفي العهد الذي أعقب سقوط دولة أدينة والنزاه ، وهو أيضا عهد مرت فيه إيران بحالة من الضعف الشديد تحت حكم فرهران (بهرام) الثاني ٢٧٥ - ٢٩٢ . وفوس ٢٩٢ - ٣٠١م في ذلك العهد أحست القبائل العربية البدوية ببطس سيد جديد ، برز من بيت اللخمين في الحيرة ، ولم يكن ملوك اللخمين آنذاك قد اعترفوا بالتبعية الفارسية بل كانوا يجهدون لتوطين اقدامهم على حدود الامبراطورية الرومانية (١)

الدولة المعينية : تعد الدولة المعينية من اقدم الدول العربية التي بلغنا خبرها ، وقد عاشت وازدهرت بين ١٣٠٠ - ٦٣٠م تقريبا على رأي بعض العلماء ، وقد بلغنا أخبارها من الكتابات المعروفة بالمسند والكتب الكلاسيكية . اما المؤلفات العربية الاسلامية فلا علم لها بهذه الدولة ، ولكنها عرفت اسم معين على انه محفد من محافد اليمن وحصن ومدينة ، وذكرت أنه هو ويراقتش من أبنية التبابعة (٢) ، وحكومة معين حكومة ملكية يرأسها حاكم يلقب بلقب ملك غير أن هذه الحكومة وكذلك الحكومات الملكية الأخرى في العربية الجنوبية ، جوزت أن يشترك شخص أو شخصان أو ثلاثة مع الملك في حمل لقب (ملك) اذا كان حامل ذلك اللقب من اقرباء الملك الابنيين كان يكون ابنه أو شقيقه . (٣)

= شهيرة ولها موقع ممتاز ، أرضها خصبة ، وبها ينابيع وعيون ، تحيط بحدائقها الرمال ، وقد عزلتها الطبيعة عن العالم ببادية واسعة الأطراف ، بعيدة المسافات ، وتقع بين امبراطوريتين عظيمتين امبراطورية (رومة) وامبراطورية (الفرث) PARTHIA ، ولهذا استرعت الانظار للدولتين وورد اسمها في كتب الكلاسيكيين الذين عاشوا بعد (ابليانوس) مما يدل على ازدياد شهرة هذه المدينة بعد الميلاد (جواد علي - تاريخ ٢/٧٩ - ٨٠) (١) العرب على حدود بيزنطة وإيران ص ٣٩ (٢) جواد علي - تاريخ ٢/٧٣ (٣) جواد علي - تاريخ ٢/١٠٨

انقرضت حكومة معين وحلت محلها حكومة سبأ ، غير أن هذا لا يعني انقراض شعب معين بانقراض حكومته ، وذهابه من عالم الوجود ، إذ ورد اسم المعينيين في عدد من الكتابات المعينية التي يرجع عهد ها الى ما بعد سقوط حكومتهم ^(١) وقد جعله (البرايت) في رأيه في سقوط حكومة معين سنة ١١٥ ق م وهو مبدأ التقويم السبئي ، وفي الفترة التي انصرفت بين أواخر أيام حكومة معين واندماجها نهائيا في مملكة سبأ ظهرت حكومات صغيرة يمكن ان نشبهها بحكومات المدن وانتهزت فرصة ضعف ملوك معين فاشتغلت في شؤونها ، ثم اندمجت بعد ذلك في مملكة سبأ ومن هذه الحكومات (هرم) و (نش) و (كنت) وغيرها ^(١)

وعاصرت مملكة معين مملكة أخرى من ممالك العربية الجنوبية وهي مملكة (حضرمت) وقد ظهرت قبل الميلاد أيضا ، وما زال إسمها حيا يطلق على مساحة واسعة من الارض ، فلها أن تفخر بهذا على الحكومات العربية الأخرى التي عاشت قبل الميلاد ، ثم ماتت أسماؤها ، وأقل ذكرها قلة واضحة وقد قطع اسمها مئات الأميال قبل الميلاد ، فبلغ مسامع اليونان والرومان ، وسجله كتابهم في كتبهم لأول مرة في القارة الأوروبية ^(٢)

وقد ورد اسم حضرمت في الكتابات العربية والأجنبية كما عثر على كتابات حضرمتية ورد فيها أسماء عدد من ملوك حضرمت ، وأسماء حضرمت ومدن كانت عامرة زاوية تلك الأيام ^(٢)

وقد أورد فلبي ^(٣) قائمة بأسماء ملوك حضرمت بدأها (صدق آل) (صديق إيل) ملك حضرمت ومعين وقد حكم على تقديره حوالي سنة ١٠٢٠ ق م . ويرى أن حضرمت ألحقت بعد (معد يكرر ثالث حكمها بمملكة معين وقد ظلت تابعة لها إلى حوالي سنة ٦٥٠ ق م وكان آخر ملوكها (علهان) (الهان ١٠٥ - ١٢٥ م) . ويرى فيلبي أنه منذ سنة ١٢٥ م حتى سنة ٢٩٠ م كان الوضع غامضا في حضرمت ، فلا تعرف من حكم فيها ، أكان يحكمها مكربيون ، أم كانت تحت حكم مملكة سبأ وذو ريدان ، فصاروا يعرفون لذلك منذ هذا العهد بملوك سبأ وذو ريدان وحضرمت ^(٤)

وعاصرت مملكة معين مملكة عربية أخرى هي حكومة عربية أخرى هي حكومة (قتبان) وقد وجد اسمها في كتابات عديدة متباينة وغير متباينة وهي التي أمدتنا باكثر علمنا بحكومة قتبان . ^(٥)

ووجد من دراسة الكتابات القتبانية أن حكمها كانوا يلقبون أنفسهم باللقب الذي تلقب به حكام سبأ وهو لقب (مكرب) (مقرب) في لهجتنا وتعبر (كرب؛ قرب) عن التقرب الى الآلهة وهو كناية عن الكاهن الحاكم الذي يحكم باسم الآلهة التي يتحدث باسمها ^(٥) . كما ذكر جواد علي مملكتنا ديدان ولحيان استقلتا عن المعينيين بعد ضعف حكومتهم وانقطعت صلتها بأهل اليمن وحكمها ملوك منهم ملوكا دية أنيين ^(٦)

(١) جواد علي - تاريخ ١٠٥ / ٢ - ١٠٦ م (٢) جواد علي - تاريخ ١٢٩ / ٢ - ١٣٠ م
(٣) حاشية ص ٢٠٠ من هذا الكتاب (٤) جواد علي - تاريخ ١٦٢ / ٢ - ١٦٩ م بتصرف
(٥) جواد علي - تاريخ ١٧١ / ٢ و ١٧٩ م (٦) جواد علي - تاريخ ٢٤١ / ٢ - ٢٥٧ م

ولورود اسم سبأ في القرآن الكريم فضل ولاشك في جميع أهل الاخبار وما بقي في أذهان المسندين عن سبأ والسبأيين ، وقد اضطر المفسرون الى التقاط ما كان ورد عنهم من قصص وحكايات ، وما كان القرآن الكريم ليشير إلى سبأ لولم تكن لهم قصة عند الجاهليين (١)

وسبأ عند الاخباريين اسم جد أولاد أولاداً نسلوا من ذرياتهم شعوباً ووالده هو يشجب بن يعمر بن قحطان ، ومن أولاده قبائل كثيرة انتشرت في كل مكان من جزيرة العرب قبل الاسلام ومعه واليه نسب نسله السبأيون ، وقد زعموا أن اسمه الحقيقي هو (عبد شمس) واما سبأ فللقب لقب سبأ لأنه اول من سبأ اي سن سنة السبي من ملوك العرب وأدخل اليمن السبأيا ، وذكر بعضهم أنه بن مدينة (سبأ) وسد مأرب ، وغزا الأقطار ، وبنى مدينة (عين شمس) في إقليم مصر وولي عليهم ابنه (بابلون) (بابليون) وقالوا أنشياء أخرى من هذا القبيل .

وقد ورد على لسان علقمة بن ذى جديك في هذا المعنى

وَمِمَّا الَّذِي لَمْ يُسَبَّ قَبْلَ سِبَابِهِ سَبَاءٌ وَمَنْ دَانَ الْمَلُوكَ مِثْرَاراً (٢)

ومنه انحدرت قبائل الأزد والننادرة والغساسنة والأوس والخزرج وغيرهم الكثير كما ورد في بدايات هذا البحث .

ثم جاء الحديث عن الحميريين ، ووجب علينا الآن البحث عن شعب لعب دوراً خطيراً في السياسة العربية الجنوبية في هذا الوقت وقبله بمئات السنين ، وهذا الشعب هو (حمير) الذي لا زال قائماً يلعب دوراً بارزاً مهماً بين القبائل العربية الجنوبية حتى الآن .

كانت حمير من القبائل العربية المعروفة في العربية الجنوبية عند الميلاد ، حتى وصل خبرها الى اليونان والرومان فعرفوها باسم HOMERITAI ، ONYLITAI ونحو ذلك

وقد اعتبر (بلينيوس) حمير من أكثر الشعوب العربية الجنوبية عدداً ، وذكر أن عاصمتهم مدينة SOPPHAP ويقصد بذلك مدينة ظفار وعرفوا باسم HEMERI عند الحبش وأشار إلى اسم مدينة من مدنهم سماها MASALA مسلة ، وفي كلام هذا الكاتب عنهم إشارة الى أن مدينة ظفار كانت عاصمة حمير في أيامه وأن الحميريين كانوا قد تمكنوا في أيامه من تكوين شخصيتهم ومن إثبات وجودهم في العربية الجنوبية يومئذ (٣)

ويطلق أهل الأخبار لقب (تُبَّع) على الملوك الذين حكموا اليمن وعلى مجموعهم التبابعة ، وهم في حيرة من تفسير المعنى وقد ذكرا أكثرهم أنهم سموا تبعا وتبابعة لأنهم يتبع بعضهم بعضاً . كلما هلك واحد قام مقامه آخر تابعا له على مثل سيرته ، أو لأنه التبع ملك يتبعه قومه ويسيروا خلفه تبعا له .

(١) سررة سبأ ٣٤ - آية ١٥ سورة النمل ٢٧ - آية ٢٢ - صفوة البيان - تفسير ٤٨٢ و ٥٣٩
نما بعد . (٢) جواد علي - تاريخ ٢٥٨ / ٢ نما بعد
(٣) جواد علي - تاريخ ٥١٠ / ٢

أولكترة أتباعه ، أو من التتابع وذلك لتتابع بعضهم بعضا . فاشير إلى تبع في القرآن الكريم (أهم خير أم قوم تبع) (١) ، (وأصحاب الأيكة وقوم تبع) (٢) ، وقد ذكر بعضهم أن هذا اللقب لا يلقب به إلا الملوك الذين يملكون اليمن والشحر و حضرموت ، وقيل حتى يتبعهم (بنو جشم بني عبد شمس) ، أما إذا لم يكن كذلك فإنما يسمى ملكاً ، وأول من لقب منهم بذلك (الحارث بن ذي شمر) وهو الرائش ولم يزل هذا اللقب واقفاً على ملوكهم إلى أن زالت مملكتهم بملك الحبشة (٣) . ولقد مر سابقاً خبر (تبع الذي حاصر المدينة ، وتركها لعلمه بأنها مهاجرني ، وكسا الكعبة وأطعم أهلها ، وما ذكر ابن كثير بأنه هو (أسعد أبو كريب بن مليكا كبري اليماني) وهو تبع الأوسط وخضعت بعد ذلك اليمن لحكم الأحباس الذين حاولوا بقيادة أبرهة التمدد لاحتلال مكة وتهديم الكعبة (وَأَرْسَلْ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ) (٤) . كما هو معلوم .

هذه هي بعض ملوك وممالك الجنوب ، وعودة أخرى إلى القوى الكبرى في الشمال نقتل على بعض الاخبار عن هذه القوى التي سبقت قيام ممالك المناذرة والنخاسنة .

ففي القرن الرابع للميلاد ، خلف لنا المؤرخون اليونان واللاتين معلومات عن أحوال القبائل العربية الشمالية ، كما وجدت معلومات عنهم في عدد كبير من الرقيم وكذلك في أنسابهم التي حفظها لنا العرب المسلمون والتي لا تحظى بالكثير من التفقه ٢٠٠ ويحتل مركز الصدارة بين مصادر تاريخ العرب في القرن الرابع أقدم رقيم قبوري عربي ، وذلك هو الشاهد الذي تم العثور عليه بقريشة (النمارة) الواقعة إلى الجنوب الغربي من دمشق ، وإلى الشمال الغربي من بصطرى - بصرى في منتصف المسافة بين المدينتين بالتقريب ، ويوجد الآن في متحف اللوفر ، ويتألف هذا الرقيم من خمسة أسطر بالكتابة النبطية منحوتة على لوحة من البازلت مقاسها ١١٦ × ٣٣ سم وقد جرى نشره وترجمته والتعليق عليه أكثر من مرة ، وهذا نس ترجمته .

- ١ - هذا قبر امرئ القيس بن عمرو ملك العرب كلهم الذي عقد التاج .
 - ٢ - وأخضع أسد ونزار وملوكهم وأجبر مذحج على الهرب إلى اليمن وتوجه
 - ٣ - إلى نواحي نجران مدينة شمر وأخضع معدا وقسم بنيه
 - ٤ - القبائل وأكلهم للفرس وللروم فلم يبلى ملك مكانته
 - ٥ - إلى اليمن مات عام ٢٢٣ بين ٧ كسلول السعد الذي ولده (٥)
- وتدوين الاسم (أمرو القيس) هي الصيغة التي ارتضاها (دوسو René Dossou)

(١) سورة الدخان - آية ٣٧ (٢) سورة ق آية ١٤ (٣) جواد علي - تاريخ ١٣ / ٢

البداية والنهاية - ابن كثير ٣٠ / ٦

(٤) سورة الفيل ٣ - ٥ صفوة البيان س ٨٢٤ وغيره من التفسير

(٥) العرب على حدود بيزنطة وإيران س ٣٩ - ٤٠

في آخر بحث له يعالج فيه الكلام على هذا الرقيم ، بينما ظهر الاسم في أبحاثه السابقة في صورة (إمرؤ القيس) وضيف من جانبنا إن الاسم يرد في الكتابة اليونانية في صورة (أمركيس) (Amorkes ، وهو ما يؤكده صحة نطقه بالفتح وملك العرب كلهم ، عقد التاج (من المؤكد على مفرد هـ) وقد لاحظ الباحثون من قبل ان لفظه (تاج) الفارسية نالت انتشاراً واسعاً . أما لفظ (مَلَك) في السطرين الثاني والثالث فتد بمعنى (أخضع) وأما لفظ (بيّن) فتد بمعنى (قسم) على اولاده (الشعوب) وهذا اللفظ الاخير الذي يعني القبائل وأحياناً الجماعات كثيراً ما نلتقي به في الرقيم العربية الجنوبية المدونة بخط المسند (١)

وهو بذلك قد حكم مملكة كبيرة حد ودها محددة على الرقيم ، كما أنه حدد سياسته وعلاقته مع القوى الكبرى آنذاك وهي الفرس والروم ، كما حدد زمانه بالقرن الثالث الميلادي وهي فترة بعيدة نسبياً عن ظهور القوى الكبرى في الجزيرة مثل الخساسنة والعنادرة . وقد ذكرت المصادر العربية فترة حكم امرؤ القيس منها الطبرى وحمزه الاصبهاني الذي عاش ١١٤ عاماً - حسب رواية الاخير - وحكم ثمانون عاماً وشهر في زمن ثمانية من ملوك الفرس ونفس العمر وحكم خمس وأربعون سنة وأربعة أشهر وثلاثة عشر يوماً ، وعاصر أربعة من ملوك الفرس كما روى الطبرى (٢) .

وحتى الآن لا يوجد تحت أيدينا تحليل متتابع الحلقات لجميع المصادر بأنواعها التي تص تاريخ العرب الشماليين حتى ظهور الاسلام ، علماً بأنه لن يكون في الطوق وضع تاريخ متكامل للعرب قبل الاسلام ما لم يفرغ العلماء من تحضير عمل من هذا القبيل (٣)

وفي مجال الصراع الديني الذي نشب في منطقة المشرق بين فئات النصراني المختلفة وصل إلى حد شن حرب دينية أعقبت محاولة فرش تعيين رهبان وتثبيت مذاهب ظهرت امرأة في فلسطين وقفت في وجه محاولة فرش المعتقدات النصرانية الغربية على المشرق . وروى لنا (رفينوس) الآتي :

أشعلت مائة (٤) ملكة القبائل العربية نار حرب شعواء بفلسطين وبمنطقة الثغور العربية

(١) العرب على حد ود بيزنطة وإيران س ٤٠

(٢) نفس المصدر س ٤٦

(٣) نفس المصدر س ٤٩

(٤) أورد جواد علي لقب (مريا) في حديثه ، وقد أمكن الحصول في هذا اليوم على عدد من حكام الحضر منهم (أورد وس) (أورد) وكان يلقب بلقب (مريا) اي السيد ، وهو الرئيس (انصرو) (نصر) وقد لقب بلقب (مريا) كذلك وهو ابن (نصرى هبة) (نصرى هاب) ووالد الملك (سنطروق) (سنطروق) المعروف بالاول ثم (ولجش) (ولجس) . وقد لقب به (مريا) اي الرئيس في احد النصوص ، ويلقب (ملاذى عرب) اي (ملك العرب) و "ملك الاعراب" في نس آخر مما يدل على انه عاف لقب (مريا) اي السيد او الرئيس الذي لقب في اول عهده بالحكم وهو لقب اسلافه واستبد له بلقب ملك وهو اوضح من لقب (مريا) بالطبع (جواد علي ٦١٢/٢ - ٦١٣)

ضربت فيها القلاع والمدن ونسفت القرى والارياف ، وقد أضعفت بهذا القتال الدائم القوات الرومانية وأهلكت الكثيرين واضطرت الباقين إلى الهرب ، ولم تقبل ما هو معتاد السليح إلا بشرط أن يجري تنصيب قس من قبيلتها يدعى (موسى) أسقفا ، وموسى هـذا الذي عرف في حياته بأعمال البر والتقوى رفض أن يجري تنصيبه بالاسكندرية على يده لوقيا ، لأنه كان يحده هرطوقيا وابنه على اضطهاده الشديد لرجال الدين الاثني وكر ، وطالب أن ينصب على يد أولئك الأساقفة الذين أرسلوا إلى العنفي . وقد لقيت القصة رواجا كبيرا لدى المؤلفين اليونان ، فسقراط^(١) يرددها في روايته لأحداث الفترة بين عام ٣٠٥ = ٤٣٩ م .

في ذلك الوقت مات ملك العرب فنقضوا اتفاقيتهم التي كانوا عقدوها مع الرومان ، وقد حكمت زوجته ماوية وضربت مدن فنيقية وفلسطين حتى مناطق مصر المأهولة بالسماة بأقليم العرب والواقعة على الجانب الايسر من النيل اذا ما أبحرت ضد التيار .

وعلى الرغم من أن الحرب قد تولتها امرأة ، إلا أنه يستحيل القول بأنها كانت حربا سهلة ، وقيل أن هذا القتال كان ضاريا بالنسبة للرومان حتى أن قائد قوات فنيقية استغاث بقائد جميع الفرسان والعشاة بالشرق ، فهزى هذا من استغاثته وأمره أن يتنحى عن القتال ، ثم عبأ صفوفه وتقدم نحو ماوية فشتت قواته ، ولم ينقذه قائد قوات فلسطين وفنيقية إلا بعد جهد جهيد^(٢) ولما ثقلت وطأة الحرب على الرومان اضطروا إلى إرسال سفارة إلى ماوية يطلبون إليها الصلح ويقال إنها رفضت ما عرضه السفراء من عقد اتفاق للصلح مع الرومان ما لم يجر تنصيب أحد رعاياها المدعو موسى (أسقفا) وكان آنذاك ينقطع للعبادة في الصحراء الغربية وعرف بالتقوى وبكراماته وأعماله . ولكن موسى كما يروى (روفينوس) رفض تنصيبه أسقفا بالاسكندرية كما سبق على يد لوقيا الاريوسي وأدانه امام الجميع ، وأصر إصرارا شديدا على موقفه . عند ذلك أضحى من الضروري أخذه إلى الاساقفة الذين كانوا بالمنى وهناك جرى تنصيبه أسقفا على يديهم ثم توجه فعقد الصلح بينهم وبين الرومان . وظل يعمل في الدعوة وفي تلقين أعداد كبيرة منهم بتعليم النصرانية وذلك عندما أحس بأن القليلين قد تشرّبوا هذا المذهب^(٢)

ولم ينقطع قيام حكام اقويا في مناطق مختلفة من شمال الجزيرة أو وسطها أو جنوبها ، ولكن الذين استأنروا بالاهمية البالغة هم النساسنة والمناذرة وكدة . وغيرهم من المعالكة التي سبقت ظهور الاسلام وسبقت تحول أهل يثرب إلى الملكية فاعتنق الاسلام ثم التوجه لفتح العالم

(١) سقراط هذا ولد حوالي ٣٨٠ م وكان شخصية علمانية ومن فقهاء القانون في البداية . واتخذ لنفسه لقب الاسكولي اي (المدرسي) وعاش بالقسطنطينية ودون تاريخه في عهد الامبراطور (ثيودوسيوس) الثاني مستخدما عددا من الوثائق اوردتها حرفيا (العرب على حدود بيزنطة ويران

١ - الغساسنة

غسان : اسم ما نزل عليه قوم من الأزد فنسبوا إليه ، ومنهم بنو جفنة وهط الملوك ، قال حسان :
إِذَا سَأَلْتَ فَإِنَّ مَعْشَرَ نَجُوبِ الْأَزْدِ يَسْبُتُكَ وَالْمَاءُ غَسَّانُ

غسان : أبو قبيلة في اليمن منهم ملوك غسان ، وما بين يرقع وزبيد من نزل من الأزد فشرب منه
سعى غسانا ومن لم يشرب فلا . . . (١)
ويقال : غسان : اسم قبيلة (٢)

الغُسانُ : أقصى القلب . الغسان : يقال : لقد علمت ان ذلك من غسان قلبك

جدة الشباب يقال : كان ذلك من غسان شبابه ، ويقال : ما أنت من غسانه : من رجاله (٣)

لاشك ان اسم الغساسنة كان في التاريخ الاسلامي أكثر بروزا ، وأشد ارتباطا بتاريخ الشام من
اسم أي جيل عربي آخر حكم واستوطن الشام .

ويظهر أن ذلك راجع في الدرجة الأولى ، إلى أن وجود الغساسنة في الشام وجوداً سياسياً وعسكرياً
صادف نهوض الإسلام بعرب شبه الجزيرة ، أي بعد أن تمت لهم السيطرة على جزيرة العرب
وإخماد روح الهرطقات الوثنية والقضاء عليها قضاءً تاماً ، واتجهت أنظارهم إلى الشام ، التي كانت
خاضعة لتاج الإمبراطورية البيزنطية (الروم الشرقية) والتي كانت الشام يحكمها داخليا ملوك
من الغساسنة ، الذين كانوا رأس الحربة تقريباً في كل حين يواجه الرومان به جيوش الاسلام التي
اجتازت حدود الشام في العهد النبوي وفي عهد الخليفة الأول أبي بكر الصديق (٤)

والغساسنة هم جيل من أبناء اليمن القحطانية ، وهم أبناء عم حمير بن سبأ بن ينجب بن يعرب
بن قحطان فقد كان لسبأ من الأبناء الذين أنجبوا كل أجيال اليمن وملوكها اثنان هما :

١ - كهلان بن سبأ ، ٢ - حمير بن سبأ ، فينتهي الغساسنة بنسبهم الى كهلان بن سبأ بن ينجب
فالغساسنة هؤلاء منهم أبناء عمرو بن عامر "مزقيا" الملقب بـ"السماء" ، وأحد ملوك مارب والذي
في عهده تفرق أبناءه في مختلف أقاليم الجزيرة العربية والشام والعراق بعد أن انهدم سد
مارب التاريخي في القرن الأول لليلاد تقريبا ، ومنهم اللخميون ملوك الحيرة والغسانيون ملوك
الشام ومنهم أيضا الأوس والحزنج - كما سبق الحديث - الذين استوطنوا يثرب وصاروا فيما بعد
أنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم والعمود الفقري لجيشه أثناء حياته .

ومنهم خزاعة الذين كانوا ملوك (مكة المكرمة) قبل أن يتسلم عليهم القرشيون ويخرجونهم منها
وأما غسان ، فإنهم من بني أب لا يدخل بعضهم في هذا النسب ، ويدخل فيهم من غيرهم ، سمو

(١) تهذيب القاموس ٣/ ٣٩٢ العرب في الشام - باشميل ١٧٨ - جواد علي - التاريخ

٣٨٧ / ٣

(٢) لسان العرب - دار اللسان ٢/ ٩٨٩ (٣) المعجم الوسيط ٢/ ٦٥٣

(٤) العرب في الشام - باشميل ص ١٧٥

العتق لأنهم اجتمعوا ليفتكو برسول الله فظفر بهم ، فأعتقهم • وكانوا جماعة من بطون شتى ، وأما غسان فإنهم أيضاً طوائف نزلوا بماء يقال له غسان فنسبوا اليه (١)

والأنصار - أي أهل يثرب - وهم من الأوس والخزرج هم من الدوحة التي أخرجت الغساسنة ، وقد ظهر تاريخهم في يثرب بعد حادث سيل الحرم - على نحو ما سبق -

وافتخار أهل يثرب بآل جفنه يزيد كثيراً على افتخارهم بآل لخم من أنهم على حد قولهم من أصل واحد ، ويظهر أن لقب الغساسنة من يثرب وللمصالح الاقتصادية ، وللمهبات والعطايا التي كان ينالها حسان وأمثاله من الغساسنة بسهولة ويسر لقبهم منهم ، أثر كبير في المدح والتعصب لغسان على آل لخم (٢)

ويحسن أن نؤكد هنا أن المناذرة والغساسنة أقوام يقال فيهم إنهم من تنوخ عرب الجنوب هاجروا من اليمن إلى العراق في مطلع القرن الثالث للميلاد ، ويحسن بنا أن ننظر إلى الغساسنة والمناذرة مهما قيل في أصلهم وموطنهم وزمن هجرتهم على أنهم أسرتان حكمتا في العراق والشام تحت سلطان الفرس والروم ، ولم يكن بين هاتين الأسرتين ، وبين الشعبين اللذين عاشا في حكمهما صلة نسب ولا صلة مودة •

أما الدور الذي قام به المناذرة والغساسنة في الحكم في العراق والشام فكان دوراً قاصراً على أمرين - الأول : كان المناذرة يجمعون الضرائب من القبائل العربية القريبة منهم و يقدمونها للفرس كما كان الغساسنة يجمعون مثل هذه الضرائب للروم

- الثاني : كان المناذرة يحمون تخوم الإمبراطورية الساسانية من غزوات البد والآتية من نجد وبادية الشام ، كما كانوا حاميات وطلائع في وجه الجيوش الرومية ، ومثل ذلك كان شأن الغساسنة بالإضافة إلى الروم •

وكان بين الغساسنة والمناذرة بطبيعة الحال عداوة انتقلت إليهم من العداوة التي كانت بين الفرس والروم (٣)

واستحكمت الهداوة كثيراً بين المناذرة والغساسنة ، وقد كانا ردةً للقوى الكبيرة وقتها فرمما نجد مبرراً للقتال بينهم نتيجة تحريكهما من الساسانيين والبيزنطيين ، لكن ماذا يمكن أن نجد تفسيراً للعداوة التي استحكمت بين الأوس والخزرج ، والأيام الطويلة من الحروب - كما سبق - سوى دس اليهود الدائم لإضعاف شوكتهم بعد أن تمكنوا من السيطرة على المدينة ، وتحول اليهود إلى مواطنين من الدرجة الثانية •

ويربط المسعودي ظهور الغساسنة بالشام بالأحداث التي كان مسرحها اليمن ، والتي اضطرت هذه القبائل إلى الارتحال حتى بلغت الشام ، وقد أخذوا اسم غسان من بئر أو ماء كانوا قد نزلوا

(١) جمهرة انساب العرب ص ٤٦٢

(٢) جواد علي - تاريخ ٣/٣٩١

(٣) عمر فرخ - تاريخ الجاهلية ص ٦٨

عندها . ووفقا لإحدى الروايات فان هذه البركة أو الحوض كانت تقع بين زيد وريم باليمن (المسعودي) ، ووفقا لرأي آخر فإنها كانت بالشام (حمزة الأصبهاني وأبو الفداء) ويقول اليعقوبي أن غسان غزت الشام في أول الأمر ، فنزلت أرض البلقاء ، هذا في الوقت الذي كان بالشام قبيلة (سليج) ، وهؤلاء الغساسنة سألوا سليجاً ان تعينهم في الحصول على الشروط نفسها التي كانت لسليج من امبراطور الروم ، فكتب رئيس (سليج) آنذاك وهو (دهمان بن العملق) إلى ملك الروم الذي أعطى موافقته وبهذا نزل الغساسنة بأرض سوريا . ويذكر حمزة الأصبهاني في هذا الصدد شخصا آخر هو سليج بن حلوان وقد بسطت سليج حمايتها على القاديين وفرضوا عليهم الإتاوة ، وبسبب الإتاوة شب النزاع الذي قاد بدوره إلى القتال ، وانتهى بطرد سليج عن الشام ، وتثبيت سلطان الغساسنة ، ثمة مصدر آخر يقول: إن جفنة بن عمرو بن ثعلبة بن عمرو مزقيا هو الذي قتل الملك سليج وحل محله .

ويرد اسم الإمبراطور الذي كتبت إليه (سليج) بشأن الغساسنة في صور مختلفة (لدى المؤلفين العرب) ، فحمزة الأصبهاني يقول : ملك الروم يقال له: نسطورس ، بينما يدعوه اليعقوبي " نوشي " وأما المتن الغربي لتاريخ الدول لابن العبري فيعطي (انسطرس) ١٤٨ الذي يرتفع الى مصادر أخرى ويذكر موقع الإمبراطور في أنطاكية .

وانتقال الغساسنة من الجزيرة العربية ونزولهم بأرض البلقاء ، ولتقاؤهم بسليج الذي لم يكن في الوصح تجنبه ، ثم محاولتهم اكتساب الشرعية لوضعهم بالمناطق الجديدة ، كل هذه المراحل معروفة لدينا بوضوح من المصادر العربية ، وتؤكد مادة هذه المصادر أن: سليج * و (فيلاء رخيتمهم) كانت تتحكم فيه شروط معينة ، مثل قبولهم حماية حدود الامبراطورية. أكد قبولهم ^{الغساسنة} للشروط نفسها التي ارتضتها سليج من قبل ، ومن الجائز ان (فيلاء) الغساسنة وأسرتهم قد التزموا بـ رهم باعتراف النصرانية ، متأسين في هذا خطا سليج ، وعلى العموم فقد شيد الغساسنة عدداً من البيع والأديرة ، كما فعل جفنة وابنه عمرو (١)

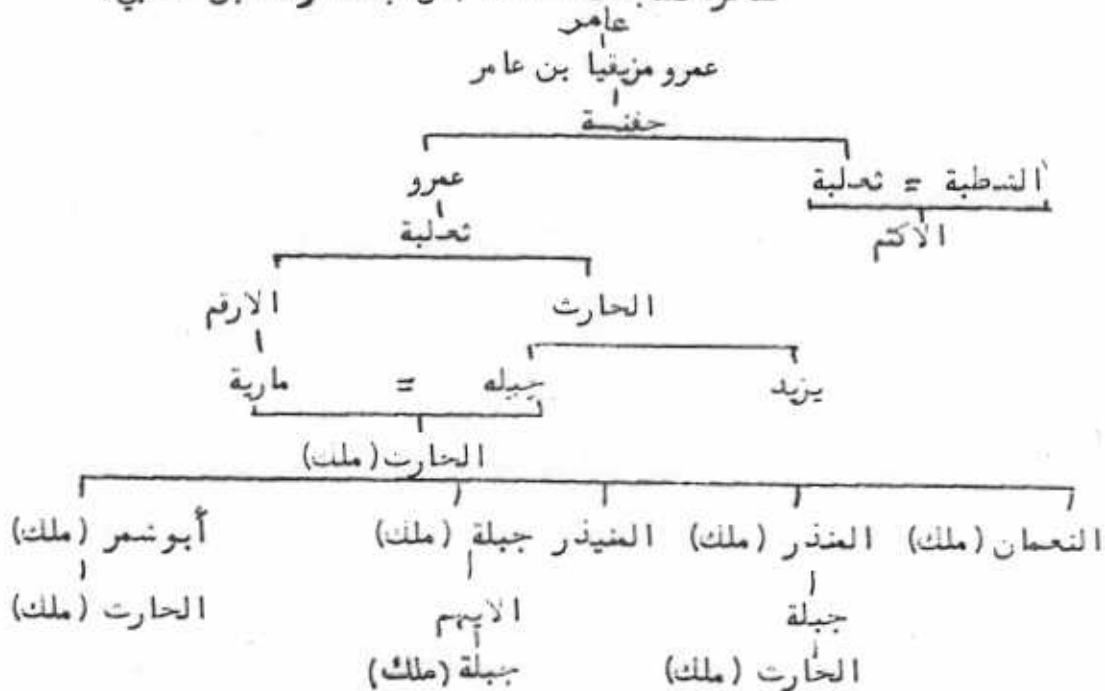
واختلف في أول من ملك منهم لغموض تاريخهم ، فقيل إنه جفنة بن عمرو ، وقيل بل هو ثعلبة بن عمرو بن عمرو بن جفنة ، وجاري نيكلسون ابن قتيبة فجعله الحارث بن عمرو ، اما نولدكه وهو أوثق من يعتمد عليه في تاريخ الغساسنة فيرجح أنه ^{أبو} شمر جبلة بن الحارث بن ثعلبة بيد أن أول أمير اشتهر منهم واتسع سلطانه هو الحارث بن جبلة ، وخلفه ابنه المنذر فحارب اللخميين ، وقهر ملكهم قابوس بن المنذر سنة ٥٧٠م (يوم عين أبابغ قرب الحيرة) وزار عاصم ~~الروم~~ سنة ٥٨٠م ، وعليها طيبا روس فتوج فيهم ، إلا أن القيصر لم يلبس

قائمة أمراء النساسنة من آل جفنة
وفقا لنولدكه

	أبو شمير جبلة	حوالي ٥٠٠ م ؟
٥٦٩ - ٥٢٩ م	الحارث بن جبلة « فيلارخا »	ابتداء من
٥٦٩ - ٥٨٢ م	أبو كروب المنذر بن الحارث	
٥٨٢ - ٥٨٢ م	النعمان بن المنذر	
	الحارث الأصغر بن الحارث الأكبر	
	(الحارث) الأعين بن الحارث الأصغر	
٦١٤ - ٥٨٢ م	أبو حنبل النعمان (ابن الحارث الأصغر)	بين عامي
	عمرو أخوه	
	حجر بن النعمان	
	x x x	
	جبلة بن الأيهم	عام ٦٣٥ م

(العرب على حدود بيزنطة - نينا ٢٥٤ م • وتاريخ العرب قبل الاسلام - زيدان ٢٤٩)

شجرة نسب النساسنة (آل جفنة وفقا لابن النبطي)



(العرب على حدود بيزنطة وإيران - نينا ٢٥٥ م)

وأوردت المؤلفة قائمة لحكام آل جفنة حسب حمزة الاصمغاني ٢٥٦ م مع عدد سني حكمهم
وأورد بروجي زيدان قائمة خاصة مستخلصة من كل هذه القوائم - تاريخ العرب قبل الاسلام م

أن سخط عليه فأمر باعتقاله وجاء به إلى القسطنطينية في أواخر سنة ٥٨١ م ومنع من أبنائه الحباله السنوية ، فناروا في الشام وشنوا الغارات على الأراضي البيزنطية فطاردتهم جيوش الروم ، وأسرت النعمان أخاهم الأكبر ، فعال عرش الخساسنة إلى الضعف ، وانفصلت عنه عدة إمارات حتى إذا استولى الفرس على ديار الشام هوى العرش ، وذابت الإمارات وخضع أكثر أصحابها للفاتحين على أنه عاد للخساسنة شيء من ملكهم بعدما طرد هرقل الفرس من سوريا وفلسطين سنة ٦٢٨ ، فإن مؤرخي العرب يجمعون على أن (جبله بن الأيهم) آخر من ملك من آل جفنة ، وأنه كان في مقدمة جيش الروم يوم اليرموك سنة ٦٣٦ م (١)

قالوا : جمع هرقل جموعاً كثيرة من الروم وأهل الشام وأهل الجزيرة وأرضيه تكون زهاء مائتي ألف وولى عليهم رجلاً من خاصتهم ، وبعث على مقدمه جبله بن الأيهم الغساني في مستعمرة الشام من لخم وجذام وغيرهم ، وعزم على محاربة المسلمين فإن ظهوروا ولما دخلوا بلاد الروم فأقام بالقسطنطينية ، واجتمع المسلمون فرجعوا إليهم فاقتتلوا على اليرموك أشد قتال وأبرحه واليرموك نهر وكان المسلمون يومئذ أربعة وعشرين ألفاً (٢)

وكان للخساسنة قسط من الحضارة لا ينبغي إنكاره لتأثرهم بحضارة البيزنطيين ، ولم تكن دولتهم بدوية خالصة لاعاصمة لها كما زعم بعض المستشرقين ، بل كان لهم مستقر في جابية الجولان وفي جلق (يؤخذ من الشعر الجاهلي أنها بلدة صغيرة على بردى بالقرب من دمشق) وربما كانت بصرى من قواعدهم ، ويضيف إليهم مؤرخو العرب بناء القصور العالية والبنائيات العامة . ووجد شعراء البادية على قصورهم ، كما وفدوا على ملوك العراق ومدحهم بأحسن الأشعار ، فرجعوا من عندهم بأحسن الصلوات ، وأشهر مداحيهم علقمة الفحل وحسان بن ثابت . وكان الخساسنة يدنون بالنصرانية على مذهب اليعقوبية المبتدعة ، فأسخطوا عليهم غير مرة قيصر الروم الكاثوليكي ، ولكن حاجة هؤلاء إليهم كانت تحملهم على أخذهم بالحسن والتساهل ، وربما كانت عقيدتهم المخالفة من أسباب سقوط بعض ملوكهم ، كما سقط المنذر بن الحارث بعد ما أمر القيصر باعتقاله ونفيه (٣)

وخلف الحارث بن جبله أباه سنة ٥٢٨ - ٥٦٩ ، ويسمى أحياناً الحارث بن أبي شمر ، وقد لعب دوراً مهماً في حروب الامبراطور مجستيان ضد الفرس وعرب العراق ، فأُنعم عليه بالإكليروس واعترف بسيادته المطلقة على جميع العرب بالشام ، ومنحه لقب (نيلارك) ومعناه شيخ القبيلة أو القبائل ، ولقب البطريق وهو أعظم الألقاب في الدولة البيزنطية بعد لقب الملك ، وتعد

(١) أدباء العرب في الجاهلية - بطرس البستاني ١٦/١

(٢) فتوح البلدان - البلاذري ص ١٤٠ - ١٤١

(٣) أدباء العرب في الجاهلية - البستاني ١٧/١

اشتبك مع المنذر بن ماء السماء أمير الحيرة في حروب طاحنة ، وقع في أثنائها أحد ابنائه
في قبضته سنة ٥٤٤ هـ فقدمه المنذر ضحية للعزى ، وتأثر الحارث لنفسه في يوم حليلة بالقرب
من قنسرين سنة ٥٥٤ هـ إذ أوقع بالمنذر موقعة فاصلة قتل فيها وفي أمثال العرب (مأيمـ
حليمة بـسر) . وهناك عدة مواقع بين العنصرة والغساسنة كان من أسبابها لجؤ بعض القبائل
إلى هؤلاء أو أولئك نظرا لقوتهم وسيطرتهم آنذاك (١)

وتعد أيام الحارث بن جبلة أزهى أيام مرت بالغساسنة ، إذ امتد سلطانهم من بطرا إلى
الرصافة شمال تدمر ، وكانوا قد دخلوا في المسيحية منذ القرن الرابع الميلادي (٢)

وفي مجال العلاقة مع الروم يضطر الإمبراطور الروماني عام ٥٧٨ إلى عقد صلح مع المنذر بن الحارث
في الرصافة ، وهناك ما يشير إلى أن ملك غسان قد قام بعدة إصلاحات في الرصافة كما بنى
أوجدد كيستها ، كما قام في عام ٥٨٠ بزيارة القسطنطينية حيث استقبله تيتروس الثاني
(٥٧٨ - ٥٨٢) م أجرى له استقبالا حافلا فضلا عن الإنعام عليه بالهدايا وعلى ولديه
برتب عسكرية ، إلا أن أعظم المنح إنما كان التنازل للإكليل الأمر الذي لم يسبق له مثيل
مع ملوك غسان حتى أطلق عليه مؤرخو الروم (ملك العرب) (٣)

وقد كان النظام الملكي الذي أخذ به الغساسنة آنذاك تقليداً واقتداءً بالإمبراطور الروماني
أو الملوك المجاريين هو السائد في ذلك الوقت ، وقد اعترف العرب بالحدود الشمالية بهذه
المملكة ولذلك فقد كانت رداً تمنع وصولهم إلى الحدود الأخيرة للدولة البيزنطية ، والمهم
في حديثنا هنا أن هؤلاء قد اختاروا الملكية التي كانت بالمرحلة الأولى مرتبة دينية أكثر منها
سياسية والدليل أن الروم قد أطلقوا على الحكام الغساسنة في بداية أمرهم لقب (البطريق)
وجاءت مرحلة تالية لتبين أن هذا المنصب ليس دينيا فقط بل به ارتباطات سياسية ، والإكليل
عادة يعطيه الرومان لغادتهم المظفرين الذين يدخلون إلى روما وقد جرى وراءهم آلاف مولنة
من الأسرى والعبيد والسبايا .

(١) الكامل - ابن الأثير ٣٥٥/١ وما بعد . دراسات في تاريخ العرب - مهران س ٥٦٢

(٢) تاريخ الأدب العربي - ضيف ٢٩ - دراسات في تاريخ العرب - مهران س ٥٦٩

(٣) دراسات في تاريخ العرب - مهران ٥٧٣ . وتاريخ العرب - سيد عبد العزيز س ١٩٩

تاريخ العرب القديم - عاقل س ١٥١

وانتقل الرومان بعد ذلك ليضعوا على رأس بطريقهم المتين بالإكليل (التاج) ليتحول هذا الحامل للتاج ليكون تحت تصرف الملوك والأباطرة ، ولقد استعان بهم أهل يثرب من العرب وانجد وهم ضد أعدائهم اليهود . ثم كانوا بعد ذلك ردةً أ ضد هم عند بدء الفتوحات الإسلامية وتبنت حكومة الخساسة وجهة النظر العربية الوثنية رغم كونهم نصارى ضد مذهب أصحاب الطبيعة الواحدة من الرومان . وانتهت الدولة الخسانية وعلى رأسها جبلة بن الايهم .

٢ - المناذرة - اللخميون

كان اللخميون المناذرة عمال الفرس على أطراف الشام ، كما كان الغساسنة عمال الروم على مشارف الشام (١) وقد رأيت في كلامنا عن قضاة أن أول من حكم العراق آل تنخ ، ومنهم جذيمة الابرش وأن الحكم بعده صار إلى ابن أخته عمرو بن عدي ، وهو من آل نصر فرع من لخم ولد لك فإن هذه الدولة تسمى دولة آل نصر ، أو آل لخم ، أو آل عمرو بن عدي ، ملوك الحيرة ، أو المناذرة على السواء .

وتاريخ هذه الدولة أوضح من تاريخ آل غسان وأثبت ، لأنه كان مدونا في كتب الحيرة مثبتا في كائسهم وأشعارهم ، وفيها أنسابهم وأخبارهم ومبالغ أعمار من ولي منهم للأكاسرة ، وتاريخ نسبهم ، وعليها كان معول المسلمين فيما ورد من أخبار هذه الدولة (٢) شغلت الحيرة (عاصمة المناذرة) مكانة خاصة في تاريخ الشرق الأدنى في القرن الخامس والسادس فقد أثبتت هذه الدولة العربية التي كانت تقوم بدور العازل *BuPperstate* بين الدولتين الكبيرتين

أنها كانت دعامة من دعائم إيران الساسانية بوضعها لقواتها العسكرية تحت تصرف الأكاسرة غير أنه من خطر الرأي أن يظن أن (عرب الفرس) هؤلاء قد عاشوا تحت إمرة الفرس ولمصلحة إيران ، فالصناديق ذات الوزن ، وكذلك الرقوم الكتابية التي تم الكشف عنها منذ آمد ليس بالبعيد تتحدث عن دولة الحيرة بوصفها دولة قوية ذات شأن ، لها مصالحها الخاصة بها سواء على الحدود مع بيزنطة بأرض الجزيرة وسورية فنيقية ، أو بمناطق الجزيرة العربية نفسها كالحجاز (مهد الاسلام) ونجد أو على طريق التجارة التي تعبر شبه الجزيرة من أقصاها إلى أديانها متجهة صوب بلاد العرب الجنوبية ، وتقال أهمية خاصة في هذا الشأن الرقوم المكتوبة بخط المسند التي فتحت مجالاً واسعاً في دراسة تاريخ العرب قبل الاسلام رغم أن إيجازها الشديد ، كما حظيت باهتمام خاص كذلك لأنها تثبت تواريخ الأحداث التي نتلم عنها (٣)

ومن قصص التعاون القائم بين اللخميين والفرس على أساس من التساوي أحياناً استتـاق اللخميون للنصرانية ، وعدم اعتناقهم للوثنية ، وتورد مؤلف الكتاب (٤) تفصيلات كثيرة

(١) لم يصب المؤلف الحقيقة كاملة عندما اكتفى بجعل المناذرة عملاً للفرس . كما أن الغساسنة عملاً للروم فإن الحيين من العرب عندما تعاملوا مع القوتين العظميين وقتها لم يقتصر عملهم على هذه العمالة ، بل كانت لهما مناح أخرى تتعلق بتاريخهما وواقعهما وصلاتهما الداخلة والخارجية ، فكثيراً ما أعلن هؤلاء (العملاء) الحرب على أسيادهم - مثل حرب ذي قار

وحروب مارية وغير ذلك . (٢) العرب قبل الاسلام - زيدان ص ٢٦٣

(٣) العرب على حدود بيزنطة ص ٨١ (٤) العرب على حدود بيزنطة ص ٨٢

عن حياة (شمعون العمودي) الذي كان له تأثيره الواضح في نشر النصرانية بين القبائل العربية وعلو منزلته وانصاع الكثير من العرب لدعوته .

كما ترد تفصيلات عن حياة (بهرام يزدجرد) ملك الفرس الذي عاش وترى في الحيرة وبعد عام ٤٢١ ، وبعد موت يزدجرد الذي تشير كل الدلائل على أنه كان غنياً أصعد أعيان إيران على العرش (خسرو) الذي لم ينحدر من صلبه مباشرة) ومقصصين أولاده الشرعيين . أما بهرام فقد أقصي منذ البداية بوصفه شخصاً غير مرغوب فيه لأنه ربيب العرب ، ولأنه أكثر شبهاً بهم في مظهره وأسلوب حياته ومشاربه ، غير أن الأمير عزم على القتال في سبيل العرش ، ووجد العون والسند في الحيرة ، وكان جيشه مؤلفاً من الفرس ، ومن عرب قبيلة (تنخ) تحت قيادة ملك العرب . وشطر من تنخ كان قد استقر وعمل بالزراعة ، بينما شطر آخر ظل على حياة الرحل ، وكانت القبيلة تنزل المناطق الواقعة غرب الفرات عند مجراء الأدنى .

وقد احتلت القوات الفارسية والعربية بقيادة النعمان بن المنذر المنطقة الواقعة بين طيفسون وبه ازدشير ، وقد رجح هذا العون العسكري الذي قدمه عرب الحيرة كفة بهرام ، ورأى الملك الشاب أنه مدين للمنذر ، وأعرب عن تقديره له بأن رفع مكانته فوق (جميع العرب) بيد أن هذه العبارة يجب أن لا تؤخذ على إطلاقها لأن المناطق التي كانت تحت نفوذ الشاه ويقطنها العرب لم تكن كبيرة . وعلى قول أحد المصادر فإن بهرام أحب المنذر والنعمان ولذا فإنه فوض إليه جميع أرض العرب (أي ملك الحيرة) .

وهكذا نجد أن ما ناله ملوك الحيرة من مكانة عالية منذ القرن الخامس إنما كان بسبب ما قدمه اللخميون من خدمات لبهرام حينما قامت قبيلة تنخ وإلى جانبها وحدات فارسية بدو حاسم في تأمين عرش إيران لربيهم أي الشخص الذي تخيروه . ولقد قدر ملك الفرس خدمات ملك الحيرة حق قدرها .

وهو لنا الطبري قصة تتحدث عن إسناد يزدجرد مهمة تربية ابنه إلى ملك اللخميين وعن مكافأته المنذر بن النعمان بسخاء على ذلك ، حتى أنه منحه لقباً رفيعاً هو (ماهست) أي الأكبر (١) لقد فوض اللخميون سلطانهم على الكثير من القبائل العربية الجنوبية والذين قدموا في أعداد كبيرة كانت سبباً في وقوع كارثة بمناطق الحدود البيزنطية التي كانت تعسكر بها قوات الروم . أما (طياية) المنار إليها فهم قبيلة (طي العربية النهرانية) التي كانت تدين بالطاعة للخميين

(١) العرب على حدود بيزنطة ص ٨٨ - ٨٩ . النامل - ابن الاثير ١ / ٢٣٤ . الطبري - تاريخ ٦٨ / ٢

قائمة ملوك اللخمييين عن سسدي سمعت

٢	أسماء ملوك اللخمييين	سنو حكمهم	مدد حكمهم	ملوك الساسانيين المعاصرين لهم	سنو حكمهم	مدد حكمهم
١	امرؤ القيس	٣٨٠-٤٠٤	٣	ارد سيز الثاني	٣٧٦-٣٨٢	٤
			٥	شاپور الثالث	٣٧٣-٣٨٧	٥
			١١	بهرام الرابع	٣٧٨-٣٧٨	١١
			٦	يزدجرد الأول	٣٦٩-٤١١	٢١
٢	النعمان الأول ابس	٤٠٥-٤٣٣	١٥			
	امرؤ القيس		١٤	بهرام الخامس	٤٢٠-٤٣٨	١٩
٣	الغندر الأول ابس	٤٣٠-٤٣٣	٨ سنة ٩ أشهر			
	النعمان		١٨	يزدجرد الثاني	٤٢٩-٤٥٦	١٨
			١٧	غبرور	٤٥٧-٤٨٣	٢٧
٤	الأسود بن الغندر	٤٧٤-٤٩٣	١٠			
			٤	بلاس	٤٨٤-٤٨٧	٤
				قباد	٤٨٩-٥٣٠	٤٣
٥	الغندر الثاني بن الغندر	٤٩٤-٥٠٠	٧			
٦	النعمان الثاني بن الأسود	٥٠٠-٥٠٣	٤			
٧	أبو جعفر بن علقمة	٥٠٣-٥٠٥	٣			
٨	الغندر الثالث بن النعمان	٥٠٥-٥٥٣	٢٥			
			٢٣	خسرو الاول	٥٣١-٥٧٧	٤٧
٩	عمرو بن المنذر	٥٥٤-٥٦٩	١٦			
١٠	قابوس بن المنذر	٥٧٧-٥٩٠	٨ أشهر			
١١	سهراب		٣ سنة ٤ أشهر	هرمز الرابع	٥٧٨-٥٩١	١٢
١٢	الغندر الرابع بن الغندر	٥٩٠-٥٩٣	٤			
١٣	النعمان الثالث بن الغندر	٥٩٢-٦٠٤	٧ سنة ٨ أشهر			
			١٤ سنة ١٦ أشهر	خسرو الثاني	٥٩٠-٦١٦	٢٧
١٤	حكاهم فوس	٦٠٤-٦١٦	٢٢			
١٥	الغندر بن النعمان بالبحرين	٦٣١-		متانسون على العرس	٦١٧-٦٣٦	

الحرب على حدود بيزنطة من ١٤٨ - ١٤٩. الطبري ٢/٢١٣
 وانمل ما وصل اليها ما ذكره الاصفهاني في كتابه (سني الملوك) تاريخ العرب قبل الاسلام -
 زيدان ٢٦٣ - ٢٦٥. وحواد علي ٢/٣٠٦ - ٣١٤

ويدعوهم (برصوما) (عبيد الفرس) أي رعاياهم • غير أنهم كانوا بلاريب تحت السيادة المباشرة
لملك اللخمييين آنذاك • وهو الأسود بن المنذر (١)

ويقابل الخساسنة في الشام العنادرة في العراق ، وهم من لخم ، يعود بهم النسابون الى أصل
يعني هي وبعض قبائل عربية نزلت هناك مثل تنوخ • وقد احتذى الفرس الساسانيون معهم سياسة
الرومان وأعدائهم البيزنطيين أعدائهم التقليديين مع عرب الشام • وربما جذيعة الأبرش أهم ملك
أسطوري ظهر في هذه الأنحاء قبل اللخمييين ويقال إنه كان يعاصر الزباء ، وخلفه ابن اخته عمرو
بن عدى اللخمي ، وهو رأس العنادرة • وتاريخهم أكثر وضوحاً من تاريخ الخساسنة ، وربما كان
ذلك يرجع الى ان ملوك الفرس دونوا تاريخهم فأخذهم عنهم العرب ، على أن ابن الكلبي يزعم
أنه استخرج تاريخهم من بيع الحيرة وأديرتها (٢)

يزعم الاخباريون أن مالكا بن فهد الأزدي أول من ولي أمر العرب في العراق ، وأنه كان يسكن
الأنبار ثم جاء من بعده أخوه عمرو على رأي و (جذيفة الأبرش) على رأي آخر صاحب القصة المشهورة
مع الزباء (٣) • على أن المؤسس الحقيقي لدولة اللخمييين إنما كان عمرو بن عدى ٢٦٨ - ٢٨٨م ابن
اخت جذيعة ، وأول من اتخذ الحيرة منزلاً من ملوك العرب ، وأول من مجده أهل الحيرة في كتبهم
وإليه ينسب ملوك العرب في العراق (٤)

ويعيدها بعضهم إلى المنذر بن النعمان بطن من جفنة من غسان من الأزدي من القحطانية من
العنادرة وكانت تسميهم العرب (الأشاهب) لجمالهم ، وكانوا يتبارون في البيع وزينها بالحيرة
ومن أهم أديرتهم دير (مارت مريم) • وهو دير قديم بنواحي الحيرة بين الخورنق والسدير (٥)
وكانت الحيرة عاصمة اللخمييين على ثلاثة أميال من سكان الكوفة في موضع يقال له النجف على ضفة
الفرات الغربية في حدود البادية بينها وبين العراق • وتقع الآن في الجنوب الشرقي من مشهد
علي وقد أكثر العرب من تحليل اسمها وتعديله على عاداتهم في ارجاع الأعلام الى مشتقات عربية
فقالوا : سميت بذلك من الحيرة أي الضلال • لأن تبعاً لما بلغ موضع الحيرة - كما يزعمون - ضل
دليله وتحير وزعم آخرون أن مالكا لما نزلها جعلها حيرا - أي حظيرة أو بستانا - وأقطعه قومسه
ثم صارت الحيرة • وقال غيره : بل سميت الحيرة من (الحوار) أي البياض لبياض أبينيتها (٦)

على أن هناك من يرى أن الحيرة الآرامية والحير العربي إنما هو من اصل سامي واحد • ذلك
أن المضرب والمعسكر والحمي إنما هي ألفاظ يدل أصلها على معنى واحد • والحير الذي اقيم بها
وجعل حظيرة للوحش من الظباء ، والحمير الوحشي ، والآيايل ، والأرانب والأنعام •

(١) العرب على حدود بيزنطة ص ٩١ • (٢) تاريخ الادب العربي - صيف ص ٤١ - ٤٢ •
تاريخ الجاهلية - فروع ص ٦٨ • ادباء العرب - بطرس البستاني ١٤/١
(٣) الطبري - تاريخ ١/٦١٢ - ٦١٨ (٤) دراسات في تاريخ العرب - مهران ص ٥٢١
(٥) معجم قبائل العرب - كحالة ٣/١١٤٥ • (٦) تاريخ العرب قبل الاسلام - زيدان ص ٢٦٥

وتقع الحيرة قريباً من مدينة بابل القديمة ، وعلى بعد ثلاثة أميال على الجنوب من الكوفة في نهاية طريق يجتاز شبه الجزيرة العربية ، ومن ثم فقد غدت بحكم موقعها الجغرافي هذا مركزاً هاماً للقوافل ، لم يسخ الساسانيون إهماله ، ومن ثم فما تلاك تقيم فيه سلالة عربية حتى يضعوها تحت حمايتهم (١)

وورد في بعض مؤلفات السريان مع (الحيرة) اسم موضع آخر قريب منها هي (عاقولا) وقد ذهب ابن العبري إلى أنه (الكوفة)

وقد اشتهرت الحيرة في الأدب العربي بحسن هوائها وطيبه حتى قيل : يوم وليلة بالحيرة خير من دواء سنة . وقيل عنها إنها منزل برى برى صحیح من الأدواء والأسقام . وهي على سيف البادية ليست بعيدة عن الماء ، وقد ورد ذكرها كثيراً في شعر الشعراء الجاهليين والإسلاميين وهي لا تبعد كثيراً عن النجف والكوفة . وقد ذكر حمزة الأسفهانى : أنه بسبب حسن هواء الحيرة وصحته لم يمت بالحيرة من الملوك أحد إلا قابوس بن المنذر ، أما بقية الملوك فقد ماتوا في غزواتهم وقصيدهم وتخرسهم . وأنه بسبب ذلك قالت العرب : لبيتة ليلة بالحيرة أنفع من تناول شربة . (٢)

وأهل الحيرة عرب يقسمهم الاخباريون إلى طبقات ثلاث : تنوخ ، العبدان ، الأحلاف ، وهؤلاء نسي نظرهم من قبائل متعددة فيها قحطان وفيها عدنان وقد ذكر أن في لهجة أهل الحيرة هجسة أرجعوا سببها إلى اختلاط هؤلاء العرب بمن كان يفد عليهم من النبط ، ممن كانوا يتيرون الأحداث فيلتجئون إلى هذا المكان . ولذلك شاب لهجتهم رطانة نبطية ، وقد كتبوا بقلم (بني ارم) شأنهم في ذلك شأن تدمر وأهل بطرا ، إذ استعملوا قلما نبطيا من الكتابات (٣)

وقد عثر على آثار كثيرة عن ملوك الحيرة منها واحد عن معد يركب ملك سبأ وذو ريدان وحضر مسرت وأعرابها بالنجار والتهام الذي جاء لنجدة عرب الحيرة ضد الفرس (٤)

وقد أوردت كتب التاريخ تفاصيل كثيرة عن ملوك النخمين وحوادثهم مع ملوك الفرس فعنهم امرئ القيس بن عمرو المذكور في الرقيم ص والذى نعت بالمرحوق (محرق الحرب) . ومما حكاه الاخباريون عن هذا الملك أنه كان قد تنصر من آل نسر - وهو أمر يحتاج إلى دليل - كما ذكروا أن ملكه كان واسعاً وأنه كان عاملاً للفرس على منبج العرب من ربيعة ومضر وسائر من ببادية العراق والحجاز والجزيرة (٥) . وذكر الطبري أن يزيد جرو المعروف بالأنيم ٣٩٩ - ٤٢٠م الذى في أيامه كان هلاك امرئ القيس استخلف مكان امرئ القيس ابنه (النعمان) وهو فارس حليمة وصاحب الخورنق . وهذا النعمان المعروف عند المؤرخين بالنعمان الأول وهو أول ملك نستطيع أن نتحدث عنه بشيء

(١) تاريخ العرب قبل الاسلام - زيدان ٢٦٥ (٢) دراسات في تاريخ العرب - مهراڤ ٥٧٩

وتاريخ العرب قبل الاسلام - السيد عبد العزيز ٠٣٢٠ جواد علي ١٥٧/٣ - ٥٩

تاريخ العرب قبل الاسلام - زيدان ٠٢٦٦ (٢) جواد علي - تاريخ ١٦٦/٣ وما بعد

(٣) العرب على حدود بيزنطة - ص ٩٨

(٤) جواد علي - تاريخ ١٨٩/٣ (٥) الطبري - تاريخ ٦٤/٢ - ٦٥

وقال قيس بن الخطيم :

ولما بدت غدوة جباههم
حنت إلينا الأرحام والصحف

وقال ابن الخطيم أيضا :

لعمرى لقد حالفت ذبيان كلها
وعسأ على ما في الأديم الممدد

فهذه الأبيات وغيرها تدل بما لا يقبل الشك على معرفتهم للكتابة وانتشارها بينهم ولو بشكـل محدود (١) وذكر البلاذري عن الواقدي عن أشياخه : قالوا : أول من كتب لرسول الله صلى

الله عليه وسلم مقدمه المدينة (أبي بن كعب الأنصاري) وهو أول من كتب في آخر الكتاب (وكتب فلان) (٢) فكان إذا لم يحضر دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن ثابت الأنصاري وكتب

له فكان أبي وزيد يكتبان الرحي بين يديه . وكتبه إلى من يكاتب من الناس وما يقطع وغير ذلك (٣) وقد اشتهر الشاعر عبد الله بن رواحة انه كان ممن يكتبون في الجاهلية من الخزرج ، ولكنهم مع

ذلك لم يبلغوا مبلغ أهل مكة فيها ولعل الرسول صلى الله عليه وسلم لاحظ هذا النقض النسبي عندهم فأراد استكمالهم بطريقة رائعة ، هي فك إسماء الفقراء من أسرى بدر مقابل قيامهم بتعليم

عشرة صبيان من أهل يثرب القراءة والكتابة ، علما بأن يثرب بعد الهجرة لم تعد سكناها قاصرة على الأوس والخزرج ، بل أصبح يشاركهم فيها غيرهم من المسلمين المهاجرين من مكة وغيرها (٤)

أول من اشتهر بالكتابة في الاسلام من الصحب الكرام عمر وعثمان وعلي بن أبي طالب ، وأبي بن كعب الأنصاري ، وزيد بن ثابت الأنصاري رضي الله عنهم (٥)

قال البلاذري : حدثنا إسحاق بن ابي اسرائيل ، قال : حدثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد عن ابيه عن خارجة بن زيد أن أباه زيد بن ثابت قال : أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أتعلم

له كتاب يهود ، وقال لي : اني لآمن يهود على كتابي ، فلم يعرني نصف حتى تعلمته ، فكتب

اكتب له إلى يهود ، وانما كتبوا له قرأت كتابهم (٦)

وقد اطلقت عدة ألقاب على ممارسي الكتابة . قال الواقدي وغيره : كتب حنظلة بن الربيع بن رباح الاسيدي من بني تميم بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة فصبي حنظلة الكاتب ، وقال

الواقدي ، كان الكتاب بالعربية في الأوس والخزرج قليلاً . وكان بعض اليهود قد علم كتابة العربية وكان تعلمه الصبيان بالمدينة في الزمن الاول . فجاؤ الاسلام وفي الأوس والخزرج عدة يكتبون

وهم سعد بن عباد بن دليم ، والمندر بن عمرو ، وأبي بن كعب ، وزيد بن ثابت ، فكان يكتب بالعربية والعبرانية ، ورافع بن مالك ، وأسيد بن حضير ، ومعن بن عدي البلوي حليف الانصار

وشبير بن سعد ، وسعد بن الربيع ، وأوس بن خولي ، وعبد الله بن ابي (المنافق) (٧)

(١) المدينة - الخطراوي من ٢٠٠ ، شعر الحرب في الجاهلية - الخطراوي من ٧٠
(٢) محاضرة الاوائل - السكتوري من ٢٧ . جواد علي - تاريخ ١٢١ / ٨ و ١٣٢
(٣) فتح البلدان - البلاذري من ٤٥٨ (٤) المدينة - الخطراوي من ٢٠٠
(٤) محاضرة الاوائل - السكتوري من ٢٧ (٦) فتح البلدان - البلاذري من ٤٥٨
(٧) فتح البلدان - البلاذري من ٤٥٩ جواد علي - تاريخ ١٢٠ / ٨ ، ١٣٣

ولم يتطرق الباحثون إلى لغة أهل يثرب ، ولكنهم أجملوها بأنها لغة أهل الشمال ، مع أن الأوس والخزرج من قحطان ، والذين نفي عنهم ابننا اسماعيل كونهم عرباً . كما أن كل الدراسات تسدل على أن لغة أهل حمير ، ولغة اليمن عامة تختلف اختلافات كثيرة عن لغة الشمال وخاصة لغة قريش التي نزل بها القرآن الكريم .

وهنا نقف عند حالة غامضة في تاريخ لغة الأوس والخزرج ، لقد تنلم اليهود بلسانين وكتبوا بهما وهذا واضح في كل الدراسات التي وصلتنا وهو اللثة السبئية ، ولغة العرب من أهل الشمال ، حتى أن الأخرى طغت على الأولى ظفياً وضاحاً إذ ألف اليهود بها شعراً (١) وكان حديثهم مع العرب من الأوس والخزرج والمسلمين فيما بعد من غير ترجمان أو وسيط ، وهذا يدل على أن لغة الشمال قد طغت ظفياً وضاحاً على سنان المدينة عربياً ويهودياً .

وقد وردت اشارات كثيرة إلى اختلاف هذه اللغات ، لكنها كلها لم تتطرق إلى أن هناك اختلافاً بيناً بين لغة قريش ولغة أهل يثرب ، ثم إن القرآن الكريم برأى بعض الباحثين لم ينزل بلغة قريش خاصة لان في هذه اللثة بعض الغمضة والتمنعة من اللغات الرديئة التي أخذها علماء اللغات على اللثة العربية (٢)

ولعلنا ان وقفنا على هذا الخبر نسلم الحقائق التالية وهي :

- ١ - ان لغة قريش ولغة الأنصار أقرب اللغات في الشمال إلى بعضها
- ٢ - ان لغة قريش ولغة الأنصار هي لهجة السرب المعروفة آنذاك
- ٣ - ان أنصحب الحرب كانت قريش والأنصار ، والسبب ان القرآن نزل فيهم بلسان عربي مبين . والخبر يقول : ان الخليفة (أبو بكر) لما هم بجمع القرآن النريم بعد الحاج عمر عليه بذلك ، أجدر خمسة وعشرين رجلاً من قريش ، وخمسين رجلاً من الأنصار ، وقال : اكتبوا القرآن ، وأعرضوا على سعيد بن العاص (٣) فانه رجل فسيح .

ولو كان القرآن قد نزل بلغة قريش خاصة وكانت مختلفة عن بقية اللهجات لما اختار هذا العدد الكثير من الأنصار ، وهم من غير قريش

وروي في البخاري أن القرآن النريم نزل بلسان قريش والسرب ، وقريش خلاصة العرب وذكر بعضهم أنه نزل على لغة الحجازيين الا قليلاً فانه بلغة التميميين * كالارقام في قوله تعالى (مَنْ يُشَاقِقِ آلَ لَوْ (٥٠) (٥) وقوله : (وَمَنْ يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَنْ دِينِهِ) (٥) فان إدغام المعزوم لغة تميم ، ولهذا قل ، والفك لغة الحجاز ولهذا كثر .

(١) جواد على ٥١١/٦ وقد أنرد المؤلف باباً خاصاً للشعراء اليهود

(٢) جواد علي - تاريخ ٦٠٢/٨

(٣) روي ان لهجة سعيد بن العاص مشابهة لهجة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان من أنصحب رجال قريش ولو كانت عربية القرآن عربية قريش لما كان هناك معنى لقولهم ان عربية القرآن أقيمت على لسان سعيد لانه كان انصحبهم لهجة برسول الله .

(٤) سورة العشر آية ٤ (٥) سورة طه آية ٤٥ .

أما الشعر فله شأن آخر . لقد ازدهر الشعر العربي ازدهاراً رائعاً في الفترة التي سبقت ظهور الاسلام ، وأصبح الشعر مادة للتداول بين الناس ، وحديث سمرهم ، وقام الناس جميعاً ممن لم يكونوا شعراء تطوعاً بنشر هذا التراث وحفظه ونشره ونقله ، وأصبح الشاعر في القبيلة يعادل شيخها ان لم يكن هو شيخها ، فهو الذي يدافع عنها بلسانه ، وكان اللسان أذى كثيراً من الحمام نسي ذلك الوقت إلى درجة أن قبائل فرقة بيت شعر بعد تجمع وقوة وأخرى رفعها بيت شعر بعد ضعة ودنوا ، ويستطيع أن نقول أن العصر الذهبي لازدهار الشعر العربي كان في هذه الفترة ، وأضحى الشعراء فرسان الكلام في تجمعات الناس في الحج وفي المواسم والاسواق . والناس كل الناس رواة لهؤلاء الشعراء ، وحمله ونقله ومعجزة القرآن الكريم انها خالفت وقع الشعر وتحدثت ان الحروب التي غاشها العرب والداخلية منها خاصة والخارجية عامة قد أفرزت أشعاراً قوية خالدة . وحرب الأوس والخزرج تعتبر أحد الأمثلة للحروب الداخلية ، فلم تكن حربهم على ما أوشب أو كلاً كما هو الحال في المجتمع العربي ، ولم تكن عن قحط في الغيث أو حرب في الأرض وضيق في اليد وجوع في البطون . (١) فان يشرب كانت واحة وارفة الظلال ، كثيرة الخيرات ، لكنها كانت من نوع الحروب السياسية من جهة ، ومن نوع العصبية القبلية التي استأنسرت بنفوس الناس ، أما عن شعراء يشرب :

قال ابن سلام : شعراءها الفحول خمسة ، ثلاثة من الخزرج واثنتان من الأوس ، فمن الخزرج من بنى النجار - حسان بن ثابت - ومن بنى سلعة كعب بن مالك ، ومن الحارث بن الخزرج عبد الله بن رواحة .

ومن الأوس قيس بن الخطيم من بنى ظفر ، وأبو قيس بن الأسلت من بنى عمرو بن عوف (٢) وهنالكَ شعراء آخرون ، لكنهم لم يبلنوا مبلغ هؤلاء في الشعر منهم : أحيحة بن الجلاح وسويد بن السمات ، وأبو قيس مالك بن الحارث ، وآخرون (٣)

ويعد مالك بن العجلان الخزرجي في جملة شعراء يشرب ، ذكرناه القائل للربيع بن أبي الحقيق اليهودي من أبيات :

إني امرؤ من بنى — الم — كريم وأنت امرؤ من يه — ود

فأجابه الربيع في أبيات :

أتسفه قبيلة أحلامهم — ا — وحن بقيلة عثر الج — ود

وفيه يقول الشاعر عمرو بن امرئ القيس * من بنى الحارث بن الخزرج من شعراء الجاهلية

يامال والسيد المعمم قد يبطره بعد رأيه الس — رف

نحن بما عندنا وأنت بما عندك را ض والس — رف

(١) شعر الحرب - الخطراوي ص ١٨٢ - ١٨٣ (٢) طبقات الشعراء - ابن سلام ص ٥٢

(٣) جواد علي ٧١٩ / ٩

ويعد أكثر علماء الشعران شاعر حسان بن ثابت في الجاهلية أقوى منه في الإسلام

قال الأصمعي : الشعر نكده يقوى في الشر ويسهل ، فإذا دخل فيه الخير ضعف .

ولأن حسان هذا فحل من تحول الجاهلية ، فلما جاء الإسلام سقط شعره ، وقال مرة أخرى شعر حسان

في الجاهلية من أجود الشعر ، وقيل لحسان ، لأن شعره أهدم في الإسلام يا أبا الحسـام .

فقال للقاتل : يا ابن أخي إن الإسلام يحجز عن الكذب ، أو يمنع الكذب ، وإن الشعر يزينه الكذب

يعني أن شأن التجويد في الشعر الإمراط في الوصف والتزيين بخير الحق وذلك كاللذنب ونسب

إلى الحظيئة قوله : أبلغوا الأنصار أن شاعرهم أشعر العرب حيث يقول :

يخشون حتى ماتهم كلابهم لا يسألون عن السواد المقبل

وقال عبد الملك بن مروان : أمدح بيت قالته العرب بيت حسان هذا (١)

وكان أبوه ثابت بن المنذر من سادات قومه وأشرفهم ، وكان المنذر الحاكم بين الأوس والخزرج في

يوم سميحة (٢) ، والخبر عن حسان بن ثابت يطول لما في حياة الشاعر وإنتاجه من سمو وروعة .

وذكر أن أول شعر قاله حسان بن ثابت في الإسلام هو قوله :

أنا ومن يهدى القصائد نحونا كاستبضح ترواً إلى أهل خيبر

ولما اسرت (هذيل) بعض المسلمين وباعتهم من قريش ، هجأهم حسان هجاءً مرأً ووصفهم فيه

باللئ ، واللئ عند العرب من أقيع المعيبات إذ قال :

لو خلق اللئ إنساناً لكان خير هذيل حين يأتيها

تروى من اللئ رقماً بين أعينهم كما لوى أذرع العانات كأيها

تبكى القبور إذا مامات سيدهم حتى يصيح بمن في الأرض داعيها

مثل القنافذ تخزي أن تفاجئها شد النهار ويلقى الليل ساريها (٣)

وكعب بن مالك من شعراء يثرب كذلك ، ويكنى أبا عبد الرحمن ، وهو ممن شهد العترة وكان أحد

شعراء الرسول الذين كانوا يردون الأذى عنه ، وكان مجوداً مطبوعاً قد غلب عليه في الجاهلية

أمر الشعر ، وذكر أنه كان أحد ثلاثة الذين خلفوا عن غزوة تبوك من الأنصار وقال الله فيهم :

وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا صَافَتْ لَهُمْ الْأَرْضَ بِمَا رَحُبَتْ (٤) . وكعب بن مالك من أسرة

أظهرت جملة شعراء . فمالك والد كعب كان شاعراً وعمه قيس كان شاعراً كذلك ، وكان أولاد كعب

وأحفاده شعراء مجيدون مقدمون في الشعر .

وذكر ابن سيرين أن كعباً قال بيتين كانا سبباً لإسلام قبيلة دوس وهما :

(١) الاستيعاب ١/ ٣٩٨ وما بعدها . (٢) جواد علي - تاريخ ١/ ٢٢٠ - ٢٢١

(٣) جواد علي - تاريخ ١/ ٢٤٠ (٤) سورة براءة آية ١١٨

قطينا من تهامة كل وتـــــــرر وخيبر تم أغفلهنا الســـــيرنا

تخبرنا ولونعتت لقالـــــــت قواطعهم دوساً أو ثقيفا

فلما بلغ ذلك دوساً قالوا : خذوا لأنفسكم لا ينزل بكم منازل بتقيف (١)

وقال ابن سيرين اينما ، فان شعراء المسلمين حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن مسعود ، ورواحنة وقتوا ضد قريش واتخذ كل منهم شريفاً - فلما ذهب يخرفهم الحرب ، وعبد الله يحيرهم ، بالتحرف وان حسان يقبل على الانساب (٢)

وعبد الله بن رواحة من الخزرج ، وهو أبو محمد وبنان : أبو رواحة ، وبنان : أبو عمرو ، وكان من شعراء يترقب المعرفين ، وهو أحد النقباء ليلة النبوة ، وشهد بدرًا ، وكان ممن ينتب للنبي ، وكان ممن ينتب بالقبائلية ، وهو الذي جاء ببشارة بدر إلى المدينة . استشهد بموقعة بدر سنة ٧ هـ وليس له عقب . وهو خال النعمان بن بسير الانساري ، وكان عظيم القدر في يومه ، سيداً في القبائلية ليس في طبخته أسود منه ، وكان في حروبهم في القبائلية يناقض قيس بن الخثيم ، ويختلف عن حسان بنونته معارفاً ، اشترك مع الرسول في غزواته واستشهد معاته .

واشترطوا من شعره سون الشعر الذي قاله في الإسلام ولاسيما في معركة مؤتة . هرون أن الرسول قال له يوماً : قل شعرا تقتضيه الساعة وأنا أنثر إليك ، فانبت مثله ثم قال :

اني تعرفت فيك الخير أعرفـــــــه والله يعلم ان ما خانني البصر

أنت النبي ومن يحرم شفاعتـــــــه بين الحساب لقد أزرى به القدر

فثبت الله ما آتاك من حـــــــن تثبيت موسى ونسراً بالذي نسروا

وفي رواية ابن مشام :

اني تعرفت فيك الخير قافلـــــــة فرامة - فأنعت فيك الذي نسروا

أنت النبي ومن يحرم نوافلـــــــه والوجه منه فقد أزرى به القدر (٣)

وبان النعمان بن السجدة النزيهي لسان الانسار وسارهم ، وكان أحمر فسيراً تزدره العين وكان سيداً وله شعر يذكر بقومه على قريش من جعلته :

فقر لقريش نحن أصحاب مكـــــــة ومن حنين والنزار في بدر

نسرتنا وآرينا النبي ولم نـــــــصم سرور الليالي والنسيم من الأمر

ولمنا لحن بناجروا مرحباً بـــــــم وأبلا وسهلاً قد أمتقم من العفر

نقاسم أمواننا وديارنـــــــا شمة أيسار البزور على الشطر (٤)

(١) الأصابة - السجدة ٢/ ٢٨٥ . (٢) الجواد على - تاريخ ١/ ٢٤٦ - ٢٤٧

(٣) الأصابة - حسانية على الأصابة ٢/ ٢٨٢ . الجواد على - تاريخ ١/ ٢٤٦

(٤) الجواد على - تاريخ ١/ ٢٥١ والأصابة ٢/ ٥٢١ . حسانية على الأصابة ، والأصابة

وهكذا نرى ان ازدهار الشعر في ذاك العصر كان عاماً عربياً ويهودياً ، وقد تم جمع بعض هذا التراث لكن تأييداً فان اكثر هذا الشعر قد فقد . عودة سريعة الى كل الذي قيل أو جله فسي يثر بان يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالحروب (أيام الاوس والكنوز) ، أو حروب اليهود مع الاوس والكنوز ويخلب عليهم المدح للبعث أو للجماعة ، ويشتم منها تسولاً نحو سياسة حب العلو والسيطرة التي غلبت على أقطار النصارى في الباهلية ، بخولاً تقريباً كثيراً في أشعار من أسلم ليكون اداة دفاع وتحد ، دفاع عن الاسلام ، وتحد للفر ، ومدحاً للرسول ، وازدهاراً لعظمة الدعوة ، وهم - هؤلاء النصارى - الذين عناهم الله بقوله في سورة النصارى

(وَالنَّصَارَىٰ يَتَّبِعُهُمُ الْفَأْوَنُ . أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . وَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَتَلَّوْا الْفَالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَرَوْا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ كَلَّمُوا أَيُّ مُنْقَلَبٍ يَنْغَلِبُونَ) (١)

ج - المعتقدات الدينية

لقد أقام عرب يشرب على الوثنية منذ دخولهم إلى المدينة حتى فنى الاسلام بينهم ، فقد كانت الوثنية معتقد عرب الجزيرة قاطبة قبل ظهور الاسلام ، إلا القليل النادر من لحق باليهودية أو النصرانية أو الحنيفية - دين سيدنا ابراهيم - عليه السلام ولم يكن العرب أيضاً بمعزل عن الشعوب الأخرى التي سيطرت عليها الوثنية والشرك ، حتى أن الكثير من المعتقدات اليهودية والنصرانية قد شابها الشرك ، وتحولت كثيراً من الرموز العادية إلى معبودات من دون الله تعالى .

والعرب قبل الاسلام مثل سائر هذه الشعوب عبدوا الآلهة ، وفكروا في وجود قوى عليا لها عليهم حكم وسلطان ، فحاولوا كما حاول غيرهم التقرب منها واسترضاءها بمختلف الوسائل ، ووضعوا لها أسماء وصفات ، وخطبوا بها بالسنتهم وقلوبهم ، سألوا في ذلك حملة مسالك هي التي نسميها بلغتنا - الأديان - (٢)

وقد عرف بعض العلماء الدين : بأنه إيمان بثلاثات روحية تكون فوق الطبيعة والبشر ، ويكون لها أثر في حياة هذا الكون ، وعرفه الآخرون استمالة واسترضاء القوى هي فوق البشر ، يؤمن انها تدبر وتدبر سير الطبيعة وسير حياة الانسان .

والدين عند علماء اللغة يحمل كثيراً من الاسماء ، ومن هذه المعاني التي تقع في حدود بحثنا الدين : الجزاء ، وفي حديث ابن عمرو ، لاتسبوا السلطان فان كان لابد فقولوا اللهم دينهم كما يدبونا (أى أجزم بما يعاملونا به) .

والدين : الحساب ومنه قول الله تعالى : مالك يوم الدين (أى مالك يوم الحساب) وقيل : معناه يوم الجزاء . وقوله تعالى : ذلك الدين القيم ، أى ذلك الحساب الصحيح والعدد المستوي

(١) سورة النصارى - آية ٢٣٤ - ٢٣٧ . تفسير القرآن العظيم - ابن كثير ٣/ ٢٦٦ - ٢٦٧

مجمع البيان - الطبري ٧/ ٢٠٨ - ٢٠٩ . الطلال - سيد قطب ٥/ ٢٦٢٢

(٢) جواد علي - تاريخ ٥/ ٦ - ٦

والدين : الطاعة : وقد دنته ودنت له : أى أطعته . قال عمرو بن كلثوم :

وأياماً لنا عِزًّا كراماً _____
عصينا الملكَ فيها أن ندينها _____

والجمع : الأديان : يقال : كان بكذا ديانة ، وتدين به فهو دين ومدين : وتدين الرجل
تدنيا إذا وكلته الى دينه .

والدين الاسلام وقد دنت به ، وفي حديث علي رضي الله عنه : محبة العلماء دين يدان به
والدين : العادة والنسأن : تقول العرب ، ما زال ذلك ديني ، وديدي أي عادي . قال المشقب
العبدى يذكر ناقته : تقول اذا درأت لها ضيبي أهدا دينه أبدأ وديني (١)

والديان من أسماء الله عز وجل معناه الحكم ، القاضي ، وسئل بعض السلف عن علي بن ابي طالب
رضي الله عنه فقال : كان ديان هذه الأمة يعد نبيها أي قاضيها وحاضها .

والديان القهار ، ومنه قول ذو الاصبح العدواني

لا ابرأ من عمك ، لأفضلتني حسب فينا ، ولا أنت ديانى فتخزونى

أى لست بما هو لي فتسوس أمرى .

والديان : الله عز وجل ، والديان القهار : وقيل الحام والقاضي ، وهو مقال من دان الناس أى
قهرهم على الطاعة . يقال : دنتهم فدانوا . أى قهرتهم فأطاعوا (٢)

وقد وردت هذه اللفظة في هذا المعنى المفهوم منها - الاسلام - في بيت شعر ينسب الى أمية
ابن أبى الصلت قوله : كل دين بين القيامة عند الله إلا دين الحنيفة زور (٣)

والرأى المعروف بين الناس في الطبقة المتعلمة عنهم ان العرب الجاهليين دانوا على جانب عظيم
من الانحطاط الديني قبل الاسلام ، وان تفكيرهم في ذلك تفكير منحط لا يتجاوز تفكير القبائل
البدائية ، وهو رأى خاطئ يفند القرآن الكريم ، وانا كان ما يقرله صحيحاً بالقياس الى السواد
والأعراب ، فإنه لا يسح أن يكون حكماً عاماً على الكل ، لاسيما وان المتحصرين وما كان لهم اتصال
بالعالم الخارجي وظهرت أسماء رجال كان لهم شأن وحظ في الحياة الدينية للجاهليين ، وقد زعم
أهل الأخبار أن بعضاً منهم كان من الأنبياء الذين جاؤوا الى قومهم برسالة ، وان بعضاً آخر كان
من المصلحين الهادين من أصحاب العقول النيرة التي هزأت بالأوثان وبدانوات قومهم ، وان رجالاً
منهم كانوا على الحنيفية ، يريدون بها ديانة التوحيد ، وأن آخرين بشروا بالوثنية وأشاعوها
بين العرب ، لما كان لهم من مائة وثلاثون ، وان رجالاً من الجاهليين دانوا على عبادة (الله)
والرحمان ، وكل المذكورين كانوا من مهد الجادة إذن لظهور الاسلام (٤)

(١) لسان العرب - ابن منظر ١/١٤٠٤ (٢) اللسان - ١/١٤٠١ ترتيب القاموس
المحيط ٢/٢٤٥ . مختار الصحاح ٢١٩ المعجم الوسيط ١/٣٠٦

(٢) جواد على - تاريخ ٦/٣٠ - ٣١

أما بالنسبة لخموصية ديانة أهل يثرب ، فقد كانوا في الجاهلية يعبدون مائة أجبـرآلهتهم والصنم (مناة) وهي في رأى ابن الكلبي أقدم الأصنام كلها ، وكان مندسوا على ساحل البحر من ناحية المثلث بقديد بين المدينة ومكة . والذي نصبه في ذلك الموضع عمرو بن لحي ، وكان مناة للأوس والخزرج وفسان من الأزد ومن دان بدينهم ، وأهل يثرب وأهل الشام ، وكانت على هيئة صخرة وتعبدها هذيل أيضا .

ويذكر ابن الكلبي ان الاوس والخزرج ، ومن كان على دينهم من عرب أهل يثرب وغيرها كانوا يحجون ويقفون مع الناس مواقف الحج كلها ، ولكن لا يحلقون رؤوسهم ، فإذا نفرأ من حجهم أتوا مناة ، وحلقوا رؤوسهم عندها ، وأقاموا بقرمها لا يرون لحجهم تماماً إلا بذلك وكان من عادة الأوسيين والخزرجيين أنهم يهلمون لها . ومن أهل لها يطف بين السماء والعمرة . وكانوا إذا أهلوا بحج أو عمرة لم يستظل أحد هم بسقف بيت حتى يفرغ من محبه أو عمرته . وكان الرجل إذا أحرم لم يدخل بيته وإن كانت له فيه حاجة ، وإذا اضطر إلى الدخول تسر من ظهر البيت حتى لا يظلمه سقته . فلما جاء الإسلام أبطل هذه العادة وأنزل الله تعالى الآية الكريمة * **وَلَيْسَ الْبِرُّ بِمَا كُنتُمْ كَاتِبِينَ كَاتِبُوا الْبَيْتِ مِنْ ظُهُورِهَا وَالتَّيْنِ الْبَيْتِ مِنْ آتَقَى** . الآية * (١) ولم تزل العرب تعظم مناة حتى كان عام الفتح في السنة الثامنة للهجرة حين خرج الرسول من المدينة الى مكة لفتحها ، فلما سار من المدينة أربع أو خمس ليال بعث إليها علي بن أبي طالب فهدمها وأخذ ما كان لها فيها ، به إلى النبي ، فكان مما أخذ سيقان أحدهما اسمه محذما ، والآخر رسوبا . كان العارث بن أبي شمر الغساني قد أهداهما لها ، فوهب الرسول السيوفين لعلي وقال أن ذا الفقار سيف على أحدها . ومناه هي المذكورة بالقرآن الكريم (وَمَنَاةَ الَّتِي نَلَيْتَ الْآخِرَى * (٢) (٣) ومناة لفظه مستغنة من (العنا والغنية) وهو الموت والقدر ومن (الغنية والمنون) منها منسى وهو موضع في مكة كان يعنى فيه أى يراق الدم فيه كذلك كانت من الاصنام المعروفة عند النبط ورد اسمها في أقدم النقوش النبطية .

وقد مثلت مناة العرت عند العرب ، كما مثلته عند البابليين ، ولكنها لم تمثل القدر الذي تمثله مناه البابلية ، لأن القدر في تصور العرب والشعرا الجاهليين رجل لامرأة ، وقد يفسر هذا استقسام العرب عند هبل ، وذى الخلصة بالازلام ، وحلقهم فقط أمام مناة . هذا بالنسبة للأوس والخزرج ، فجميع الطقوس المرتبطة بالعبادة عند الاوس والخزرج أنهم يحلون إحرامهم عند مناة عند انصرافهم من الحج ، أو تقديم الهدايا لهذه الآلهة ، وينتهى التعظيم عند ذلك ، أما المعتقدات اليومية فإنها ارتبطت بشى من الحرية العقائدية ، خاصة وإن تأثير الوثنية لم يكن بالقدر الذي كان عند أهل مكة ، فلا بيت للآلهة ، ولا كعبة للضوايف ولا مناطق للزيارة في المدينة ، بل إن أهل يثرب كانوا تبحراً للمعتقدات الوثنية العربية التي مركزها مكة . وكانت بعض التماثيل الصغيرة المشابهة لعناة قد وضعت ضمن البيوت يتبركون بها

عن قرب ويخصمون لها أحياناً .

(٢) سورة البقرة آية ١٨٩ (٢) سورة النجم آية ٢٠ (٣) تاريخ العرب القديم - عاقل ٢٧٧ - ٢٧٨ . تاريخ العرب قبل الإسلام - السيد عبد العزيز ٤١٨

د - الملحم عند أهل يثرب

ارتبطت معرفة انسان للملم بمدى الحاجة إليه ، ففي الوقت الذي ازد هرت عنو التجارة والتعامل والنقد والتبادل والربا عند أهل مكة نجد أن هذه المعارف تقف في المدينة تماما ، وتبرز المعرفة بالزراعة والخراطة والتعار وغيرها ، ويدل على ذلك ان الرسول صلى الله عليه وسلم لما ورد في

أخبار قد أشار على أهل يثرب أن لا تأبوا الدغل (لا تلغحوا) ففعلت استجابة دمه ، إلا أن

نجدهم ذلك الأيام لم يشعروا بما ووا الى الرسول وأخبروه ، فقال : أمرتم ان لا تأبوا الدغل ولنفسى
آمركم ان تأبوا " انتم اعمم بئرون ونيانكم " ^{خارجا من} بنية لا ترتبوا بحان بقضايا الزراعة ، فلما أبدى رأيه - مجرد رأى علي - تراجع عنه ففروا أمام خيرة
أرلثك بثمارهم وانسجارهم ، ولذلك فاننا لا يمكن أن نجد على ترتيب واضح لامر العلم وتقسيماتها
الحديثة وتفرعاتها ، ونبحث عن مدى معرفة أهل يثرب بهذه العلوم الانسانية والتبيفية فكان
مسارهم لا تمد وبسال ولا تزيد كثيرا عن المستوى الدلي الذي كان عليه العرب جميعا آنذاك .

البداية والخضارة في المستوى الدلي والثقافي متنافستان ولا تبتمسان على عميد واحد ، ولا يمكن
أن تزد من مدينة في صل بداية ، إذ ان المدينة لمة مشتقة من قولهم مدن المدائن ، أي مورها
وبناها ، ومدن : أي تخلو باخلان أهل المدن ومن من حالة البداية إلى حالة الحضارة وهي
في عرف علماء الاجتماع تعنى الحالة الراقية التي توجد عليها الامم تحت تأثير العلوم العالية
والفنون الجميلة ، والصنائع المناسبة لهذه الحالة ، فهي على هذا الاعتبار غاية تمدن الامم في
الرسول الى أوجها الأعلى تحت تأثير العلوم والفنون والصنائع ، ويرى الفلاسفة ان الانسان مدنى
بغضبه متضرر بالغريرة على حب التنوير والارتقاء (١)

وقد شاج بين الناس ان العرب في جباليتهم كانوا أمة منسزلة عن العالم لاسلة لها بمن حولها
من الأمم ، وما عندنا من مدخرات ثقافية ، وأن الشعراء من جانب والبر من جانب آخر حصرامها
وجعلها منقذة عن غيرها تمام الانقطاع ، لا تشمل بهم في مادة ولا مقبوس منهم أدبا ولا تهديبا
ولا تأخذ منهم أو يأخذون منها في أي مصارع من شؤون الحياة .

والحق ان هذه الفترة خاطئة كل الخطأ . فقد كان العرب على صلة دائمة بجيرانهم من فارس وأحباس
يون ، وكانت لهم صارتهم الخاصة بالهند أيضاً ، ولكن هذه الصلة كانت محدودة ، ولم تكن درجة
التفاعل فيها بالقدر الذي كان قائماً بين الأمم المتحضرة لذلك العهد . ويرد بعضهم ذلك الى
المرق التباري والى الاحوال الاجتماعية السائدة ، وكان لهذا الاتصال عدة حروا ^{أسهمها}

التجارة ، وانشاء المدن العربية المتاخمة للفرس والروم والحروب التي قامت بينهم وبين الفرس
والأحباس ، والبعثات اليهودية والنصرانية التي كانت تتخلل في جزيرة العرب تدعو إلى دينها

وتنشر تعاليمها ، والتي كان نسيب يثرب فيها نصيب الأسد .

كان للعرب في الجاهلية بما فيهم عرب يثرب علاقة تجارية واسعة مع الهند ، يأتون منها بالتوابل والبهارات واللبان وغيرها من السلع ، ويذهبون إلى الشام ومصر وغيرها يبيعونها ويحنون من ورائها المناسبات الطائلة والأرباح الوفيرة ، ولم يكن منتبهي التجارة فقط صاحب التأثير ، ولكن هناك فوائد كثيرة لها آثارها على التفكير والسلوك والعادات واللسان (١)

مع انتشار الكتاب في يثرب - كما سبق - فإنه لم يؤثر عن الأوس والخزرج أو غيرهم من العرب في العصر الجاهلي أنهم نقلوا من حولهم من الفرس والروم علماً منتظماً ، أو أدباً مكتوباً مترجماً ، أو غير مترجم بل كان كل ما نقلوه حكماً أو قصصاً أو أمثالاً ، أو حوادث تاريخية مما يخف نقله وحمله على الناقل ، ويسهل هضمه على المتلقي ، وهم يستخدمون في ذلك الذاكرة والحافظة لا القلم ولا الكتاب وتعتبر معرفة الأوس والخزرج للكتابة مظهرًا من مظاهر رقيهم العقلي ، ذلك أن الرقي النسبي الذي نحسب أنه أتاح لهم الحصول على قدر من الحضارة والرفاه جعل من يثرب بالإضافة إلى جهود مواليتهم من اليهود محط أنظار من حولهم من الأعراب ، يمتارون فيها ، ويوزرون أسواقها ويجلسون مجالس لهرها وغنائها ، كما جعلها ثالث قرية من قرى الحجاز ، وهي مكة (أم القرى والطائف والثالثة يثرب) (٢)

وتعتبر المعرفة الزراعية أهم المعارف والعلوم التي عرفها أهل يثرب ، وجاءت هذه المعرفة نتيجة لممارسة العملية والخبرة الطويلة بهذه الشؤون والمعارف ارتبطت بالمواسم الزراعية والأشجار ومعرفة أوقات الأمطار وطرق السقاية وحفر وحماية الآبار ، ومعرفة تجمع المياه والأشجار ومواعيد تماردها ولقاحها ، وأنواعها والأمراض التي يمكن أن تصيبها وطرق معالجتها ، وأصول البني والحفظ والتجفيف والحصر ، وهذه قضايا يتوارثها الزراعيون عن بعض . وقد لا يكون فيها شيء من التجديد إلا أن الحاجة لها هي التي تقود الإنسان إلى تعلمها . ارتبط بالعلم الزراعية التي كانت في يثرب تربية بعض الحيوانات الأليفة التي تستخدم للحرث وللتحميل وللإستفادة من ألبانها وأبقارها وصوفها ولحومها ، وكان الجمل أول هذه الحيوانات لنثرة ترده في الآثار التي وردتنا عن عصر ما قبل الإسلام ، وأرعى الإسلام وتأتى الخيول والبغال والحمير في المرتبة التالية ، قال تعالى :

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ حِينَ تَرْتَجِوْنَ
وَحِينَ تَسْرَحُونَ . وَتَحْمِلُ أَوْقَالَكُمْ إِلَى الْبَلَدِ لَمْ تَكُنُوا بِالْخَبِيرِينَ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ
لَرؤُوفٌ رَّحِيمٌ . وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) (٣)

ولم يرد كثيراً من التفاصيل حول الأعداد التي كانت في تلك الأثناء إلا أنها كانت متناسبة مع

(١) المدينة - الخطراوي ص ٩٢

(٢) المصدر السابق ص ٢٠٢

(٣) سورة النحل آية ٥ - ٨

الاعداد التي يحتاجها السكان ويستخدمونها .

وارتبطت بالزراعة قضايا الري ، وتبدأ بالتحايل على السيول (١) ومن المعروف أن أجداد الأوس والخزرج قدما رسوا عملية الزراعة في اليمن ، وخرجوا بعد خراب سد مأرب إلا أن الفترة الطويلة بين خراب السد وسيطرة الأوس والخزرج على المدينة وتصرفهم بشؤونها قد أفقدهم بعض هذه المعرفة ، إذ انقطعت الممارسة العملية لقضايا الزراعة وتحول هؤلاء إلى طبيعة أقرب للبداوة منها للحضارة وهذه المعرفة السابقة قد أفادت بالاستفادة من بعض مياه السيول ، ولكن لم يذكر أن أقيم سد في يثرب على غرار ما قام في اليمن . ولقد وردت في كتب الصحاح الكثير من القضايا المرتبطة بالزراعة والسقاية وتربية الماشية وكلها تقريبا وردت في يثرب ، فلم يرد مثلها في مكة ، بل كلها ارتبطت بقضايا الزرع والسقاية والمياه والثمار (٢) والذي ورد من أحاديث في مكة فإن يتعلق بتربية الماشية وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يضرب الكثير من الأمثال عليها .

ففي تربية الماشية واستئناس الحيوانات عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : من اقتنى كلباً ليس بكلب صيد ولا ماشية ولا أرض نائية ينقص من أجره قيراطان كل يوم (متفق عليه) ولفظة : من أمسك كلباً فإنه ينقص كل يوم من عمله قيراط إلا كلب غنم أو حرث أو صيد .
وعنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : بينما رجل راكب على بقرة التفتت إليه فقالت : لم أخلق لهذا خلقت للحراثة ، قال : آمنته أنا وأبو بكر وعمر . واخذ الذئب شاه فتبعها الراعي فقال له : الذئب : من لها يوم السَّبْح يوم لا راعي غيري . قال : آمنته أنا وأبو بكر وعمر . قال أبو سلمة وماهما يومئذ في القوم (رواه الشيخان والترمذي) (٣)

وهذا يدل على اتجاه الفقه الاسلامي إلى ايجاد الحلول للمشكلات الزراعية التي فاهلت المسلمين بعد هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة ، ونتيجة لمعرفة أهل يثرب لقضايا الزراعة فقد اعتمد مكياً لهم عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : الوزن وزن مكة والمكيات مكيات أهل المدينة (رواه ابوداود والنسائي وابن حبان)

عرف أهل يثرب بجانب الزراعة أموراً أخرى ارتبطت بحياتهم ، ولعل الحروب المتواصلة بينهم قد اكتسبتهم بعض السلم في فنون القتال ، وبناء الآطام ، وتعتبر الآطام في الواقع حصوناً عسكرية وثكنات يلجأ اليها المتحاربون عندما تستد الحروب بينهم . وقد بنيت لتستوعب الرجال والنساء والاطفال والمؤونة التي يحتاجها اللاجئون وان طال الحصار ، وأيضا بنيت كأماكن يسهل الدفاع عنها ورد المحتدين عنها ، وبدلك فقد كانت عبارة عن قلاع تغنن بها بانوها وأبدعوا بها وأكثروا منها ، وكذا تعلم أهل يثرب صناعة الأسلحة ولوان هذا الباب قد استأثر به اليهود وحذقوا به

(١) انظر : جواد علي - تاريخ ٤١٩ / ٨

(٢) التاج الجامع للأصول ١٨٢ / ٢ - ٢٤٩ . صحيح البخاري ٤٥ / ٢ فما بعد . المدينة -

الخطراوي ص ٢٠٤

(٣) التاج الجامع للأصول ٢٣٤ / ٢

وتفهموا به . وكان العرب أصلاً يأنفون من الاعمال الصناعية ، فعمل بها اليهود ، كما تعلم أهل يثرب عمل الدروع والزرود والرماح . . . وكانت أكثرها مستوردة ، إلا أنها كانت تحتاج إلى شحذ وتجديد وتحسين وصيانة فكان يقوم عليها يهود يثرب .

تعلم أهل يثرب الكثير من الأمور المرتبطة بهذه الحروب كصناعة السرى للخيل وبرعوا في معرفة أمراض الحيوان ومداواتها ، وأيضاً عمل بهذه المهن بعض العوالي واليهود ولم يعمل بها العرب . وارتبط ببناء الآطام بناؤ البيوت الفخمة التي عرفها زعماء يثرب ، واستتبع ذلك صنع الابواب وسقوف البيوت وأعدتها من خشب النخل . وقد كان الحرم النبوي في أول عهده قد بني كذلك .

وإزد هرت صناعة الحبال للإستعمال المختلفة من ألياف النخيل والزنا بيل من سعفه كما كانت تصنع من خوص النخل أيضاً العراون اليدوية لمقاومة الحر وريح السموم التي عرفت بها يثرب ، ولا تزال من خصائصها حتى اليوم (١) ، وصناعة النجارة التي كانت لديهم كانت أدق ما يدرون .

وعرف أهل يثرب غير العلم الزراعي والصناعية والتجارية المرتبطة بمبانيهم ، عرفوا الأنواء والنجوس وخاصة الطلائع والبرق وارتبط هذا لدى بعض الكهان بعلم الكهانة ولم يكن هذا العلم ممن العلم البعيدة عن الأسرار بل اكتشفتها الأسرار وأحاطت بها الأساطير وعرف أيضاً أهل يثرب علم الأنساب وهو علم اعتبر من أهم معارف العرب نتيجة للتنظيم القبلي الذي ساد حياتهم ، ولقد ورد الكثير من هذا العلم في أشعارهم حيث كان الشعراء يتفننون دوماً بمثل هذا ، ويذكر أجدادهم وشاهيرهم وقادتهم وكذلك الأيام التي انتصروا فيها على خصومهم ، وعلم الأنساب من أهم هذه المعارف التي حظيت لدى العرب بالكثير من الاهتمام . وتطراً هذا إلى اليهود حيث بحثوا عن أنسابهم ونسبها أو حفصوها بشكك واضح . وعلم الأنساب بقي حتى الإسلام حيث استفيد منه في توزيع العطايا ولوائ العراتب والمقامات قد تخيرت .

والطب من العلم المطلوبة في كل زمان ومكان لما له من صلة بحياة الإنسان . ولعلماء اللغة آراء في معنى الطب ، وقد ذكروا أن من المعجاز الطب بمعنى السحر . قال ابن الأست :

الأ من مبلغ حسان عنى أطب فان داؤك أم جنون

فوجدوا أن بين الطب والسحر صلة ، وهو يعبر عن مداواة الأمراض في السابق بالسحر ، فقد كان الساحر طبيباً يداوى المرضى ، ويشفي المريض بسحره وكذلك كان الكهان يداوون المرضى ، ولا زال الناس يعتقدون بسائر السحر في مداواة المرضى ، فيراجعون من يدعى العلم بالسحر لنيل الشفاء وكان الطب في ذلك الزمان شرف ، فللطبيب مكانة كبيرة عند الجاهليين ، قال المرتضى في

حديثه عن زهير بن خباب : كان سيد قومه وسريتهم ، وخطيبهم ، وشاعرهم ، وواقدهم

إلى الملوك وطبيبهم •

والطب في ذلك الزمان شرف ، وحازى قومه ، والحزاة الكهان •• فهو قد جمع خلافاً كثيرة ونسى
جملتها الطب والذهانة •

ولابد أن يكون المعجزة والحزاة والكهنة في الجاهلية هم الذين مارسوا الطب ، وما لجوا العرس بالسحر
والأدعية ، أو بالأدوية التي أخذوها عن يديهم من تجاربهم الخاصة ، ونحن نأسف لأن نقول
ان النصوص الجاهلية لم تعطنا حتى الآن نصوصاً طبية ، أو نصوصاً فيها وصفات أدوية للشفا
من الامراض (١)

وقد افرد علماء الحديث في كتب السحاح باباً خاصاً للطب والرقي ، ذكروا فيها نل ما ورد عن
الرسول صلى الله عليه وسلم من نسائج وتوجهات طبية ، كما ذكروا فيه بعض الأمراض وعلاجها والشفا
منها (٢) • والطب هو من فروع العلم المحظوظة بالنسبة إلى فروع العلم الاخرى عند الجاهليين
فقد أشير اليه ، وأشير الى اسم نغم من الاطباء هم الحارث بن كلدة الثقفي ، والنصير بن الحارث
وابن ابي رقية التميمي ، وضام ، وكلهم ممن عاصر الرسول صلى الله عليه وسلم وأدرك زمانه ،
ويفضل هذه المعاصرة ذكرت أسماءهم في كتب الحديث والسير والأخبار ، ولولاها لكان شأنهم
شأن غيرهم ممن لم يصل اسمهم إلى أحد فساروا نسياً منسياً •

وذكر ان رجلاً جاء إلى النبي فرأى بين كتفيه حاتم النبوة ، فقال : إن اننت لي عالجتها فأنا
طبيب ، فقال له النبي : طبيبها الذي خلقها ، ومعناه العالم بها خالقها الذي خلقها لأنت (٣)
واشتغلت النساء بالمعالجة والتطبيب أيضاً ، فقد قامت ربيدة تداوى الجرحى من المسلمين يسر
ذهابهم إلى بني قريظة ، وكانت امرأة تداوى الجرحى وتحسب بنفسها على خدمة من كانت به
ضيقة من المسلمين ، وكانت لها خيمة في المسجد ، مسجد رسول الله بيثرب تداوى به الجرحى
ولما جرح سعد بن معاذ سيد الأوس يوم الخندق ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اجعلوه
في خيمة ربيدة التي في المسجد حتى أعوده عن قرب • وكان الرسول يزوره في خيمتها في الصباح
وفي المساء •

واشتهرت " زينب " وهي من بني أود بالطب كانت تطيب وتعالج العين والجراح والوجع المولم
والعرب كانت تسمي كل مرض وجعاً (٤)

لقد عرف الجاهليون بالأنواء ، ومعارفنا عنها قليلة وضحلة ، وهي مبعثرة في كتب اللغة والأدب
وفروع المعرفة الأخرى ، مثل كتب الجغرافيا والأنواء ، ولم يصل إلينا نس منها في نصوص السند
غير ان ما نجد في المؤلفات المذكورة على قلته وهما آلته يدل على أن الجاهليين كانوا أصحاب

(١) جواد على تاريخ ٣٨٠ / ٨ - ٣٨١ (٢) التاج الجامع للاصول ١٨٩ / ٣ - ٢٢٧

(٣) جواد على - تاريخ ٣٨١ / ٨ (٤) جواد على - تاريخ ٢٨٧ / ٨

عناية ودراية بالأنواء والتوقيت • وكانوا على علم أو شيء من العلم بالأنواء عند غيرهم ، مثل أهل العراق وأهل الشام • ولعلمهم كانوا على اتصال مباشراً وبالواسطة بعلم اليونان واللاتين بالأنواء • وقد ارتبطت معارفهم بالأنواء بمعرفة الفصول والطوالج والتنبؤ والبروج وحركة القمر وأعطوا أسماء لهذه الأشياء ، واهتدوا بالنجوم في الليل ، كما عرفوا المواقيت والأجرام السماوية وأطلقوا عليها أسماءها •

والكسوف والخسوف من الظواهر المعروفة عند الجاهليين ، وقد عدوا وقوعها من الإشارات التي تشير إلى وقوع حوادث جسيمة في العالم ، شأنهم في ذلك شأن شعوب العالم الأخرى • وكان بعض الجاهليين يرى أن كسوف الشمس آية دالة على موت رجل عظيم وقد ورد أن الشمس كسفت في عهد رسول الله ووافق ذلك موت إبراهيم بن رسول الله • فقال الناس : إنما كسفت الشمس لأجله • فقال النبي : إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله تعالى يخوف بهما عباده وإنهما لا تكسفان لموت أحد ولأحياته ، وقد حدث ذلك في المدينة •

وورد في الأخبار أن الأنصار كانوا يقولون في النجم الذي يرمى به (مات ملك) ، ولد مولى سود وكانوا يتصورون أن الكهان كانوا يستعينون على معرفة المعيبات والخطايا بواسطة شياطينهم الذين كانوا يصعدون إلى السماء ، فيأخذون أخبارهم ، وإن الرعد صوت الموكل بالسحاب يهزج السحاب أن تخالف أمره ، حيث يسوقها من بلد إلى بلد كما يسوق الراعي إبله (٢)

وهكذا نستطيع أن نقف على بعض المعارف الأخرى التي لم يرد الحديث عنها تفسيراً عند أهل يثرب مما يدل على أن الأرضية التي كانت في يثرب كانت قائمة على شيء من المعرفة العلمية التي أكدها الإسلام أو محاها إن خالفت تعاليمه أو الحقائق الثابتة • وكما عرف يثرب هذا فقد عرف اليهود أيضاً بعضاً من المعارف العلمية التي وردت في كتبهم ، أو واصلتهم عن طريق السماع والرواية وقد استخدموها في حياتهم الخاصة والعامة • واستفادوا منها دون أن يعطوها لأحد أو يطلعوا عليها أحداً ، ومنها صياغة الحلي ، وصناعة الذهب ، وصناعة الأسلحة وغير ذلك •

كما أنهم تكتموا على معارفهم التي وردت في كتبهم وتحداهم القرآن الكريم في أكثر من موقع لم يبرزوا هذه المعارف ويقولوها ليجدوا أن نبوة محمدًا حسن أقرت في هذه الكتب ، وهذا ما يجعل بعض يهود يثرب يتركون يهوديتهم ويتبعون الرسول ويدخلون في الإسلام ، ويحسن إسلامهم مثل عبد الله بن سلام ومخيزيف وغيرهم •

هـ - وسائل نشر المعرفة

لم تكن ثمة مواقع متخصصة لنقل العلوم والمعرفة عند العرب عامة وعند عرب يثرب خاصة ، وكل الوسائل التي كانت منتشرة هي عادات وتقاليد وأخبار ينقلها الآباء للأبناء ، كما ان الأمهات كن يقمن بمثل هذه الأعمال . حيث يذكرون لأولادهن أخبار أيام قبائلهم ، وروون أشعار شعرائهم وهذه الوسائل البدائية أدت في الواقع إلى انتشار الامية كما سبق وتحدثنا ، إلا أن نونا من المعرفة كان ينتقل إلى الابناء من مهن الآباء كالزراعة والرعى والبناء والتجارة والفروسية التي كانت من أهم الأعمال التي تحرك المجتمع الجاهلي وتسيطر عليه .

ويتلقن الأبناء هذه العادات والأعراف بشغف واقبال شديدين ، وكان محيط القبيلة يورث الابناء المعارف التي استأثرت بها القبيلة ، واتصفت بها ، كما أن ترديد أشعار الفخر التي قيلت بهذه القبيلة هي التي كانت تحرك مضاعر الفتية ، وتهمي أحاسيسهم ووجدانهم ، ولعبت الفروسية التي كان يحرض الآباء على نقلها للأبناء كانت تتم ضمن الآطام أو التجمعات التي يلتقي بها الأطفال عادة ، وكانت تجري بينهم عادة المسارعة والنزال والحرب . وهذا ما كان يتسبب به أبناء الأوس والخزرج ، وفي غزوة احد أجاز رسول الله فنية من الأنصار منهم سمرة بن جندب ورافع بن خديج وهما ابنا خمس عشرة سنة ، وكان قد ردهما فقيل يارسول الله : ان رافعاً رام فأجازه ، فقيل يارسول الله فان سمرة يصرع رافعاً ، فأجازه أيضاً ، ورد أسامة بن زيد وعبد الله ابن عمر بن الخطاب ، وزيد بن ثابت ، والبراء بن عازب ، وعمرو بن حن ، وأسيد بن ظهير ثم أجازهم بين الخندق . وهم أبناء خمس عشرة سنة (١)

وهذا يدل على مدى الاهتمام الكبير لدى اليثريين بتعليم أبنائهم الرماية والقتال والنزال ، وهو من أهم الاتجاهات التي كان يرغب بها الآباء ، كما أن بعضاً من القراءة والكتابة قد انتشرت في المدينة ولكنه لم يكن بالقدر الذي كان في مكة . مما جعل الرسول يكلف أسرى بدر بتعليم فتية من الانصار القراءة والكتابة كما هو معروف . ولما اشتدت العداوة بين الأوس والخزرج ، كان الآباء يطهرون الابناء بطابعهم ، ويشبعونهم بهذه العداوة إلى درجة يمكن منها أن يجدوا في نفوسهم رغبة القتال ورغبة الأخذ بالنار .

من هنا نعلم انه لم يكن لدى عرب يثرب أي ترتيب لعقد دروس في أي من المعارف المتداولة إلا من أمر واحد وهو تعليم الصبية أو بعض الصبية القراءة والكتابة في تجمعات بسيطة أو منفردة أو أن بعض الهواة لبعض المعارف قد التحقوا بالعارفين لها فأخذوا عنهم .

ومن العرب الذين تعلموا على أيدي يهود أولئك الذين تهودوا نتيجة نذر نذر بها أمهاتهم من عرب يثرب لم ينجبن وان حصل وأنجبين فإنهم سيدخلن أولادهن في دين يهود (٢)

(١) السيرة النبوية - ابن هشام ٣ / ٧ . السيرة النبوية - ابن كثير ٣ / ٢١

(٢) حذاد على - ابن هشام ٣ / ٧ . السيرة النبوية - ابن كثير ٣ / ٢١

لقد تعلم بعضهم القراءة والكتابة وتعلم أكثرهم فنون الحرب من آباؤهم ومقاتلي قبيلتهم ، وتعلم الشعراء من آخرين وخاصة من آباؤهم فكثيراً ما سمع ان فلان شاعر وأبيه كذلك ، أو أحد أقرب الناس اليه . وتعلم المزارعون من آباؤهم ومن الممارسة العملية للزراعة . وهكذا فان وسائل نقل المعرفة كانت بدائية جداً . أما طغرس الديانة الوثنية فلم تكن بالعمق الذي يخصص لها أماكن للتدريس أو للعلم . ولم نستطع الرقوف على أى مكان يتجمع به الأولاد لتلقي العلم بدروس مخصصة الا ما كان من أمر التدريب على القتال .

أما بالنسبة لليهود فان الأمر يختلف نوعاً ما . ولانستطيع ان نتصور ان سواد يهود الجاهلية كانوا على علم بالكتابة والقراءة ثم بأحوال دينهم وأمره ، وفي القرآن الكريم ، ان هذا السواد كان جاهلاً ليس له علم ولا خبر بأمر دينه وشريعته ، وانه مقلد تابع لما يقوله له أحبارهم ويأمنون به . فكل ما كانوا يقولونه له كانوا يرونه حقاً وعلماً . قال تعالى : **وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمْيَانًا وَإِنَّ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ** (١) مع ان من بين أولئك من كان دجالاً ليس على درجة من دراية وعلوم ومن كان ينطق بالباطل ولا يخشى الكذب لينال بذلك كسباً ومالاً ، وانه كان لهؤلاء على اتباعهم ومقلد يهيم سلطان عظيم .

وقد تعرض ابن خلدون لموضوع علم اليهود والعرب وثقافتهم فقال : اذا تشوقت العرب إلى معرفة شيء مما تتوق إليه النفوس البشرية في أسباب المكنونات وبدء الخليقة وأسرار الرجس فانما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ، ويستفيدون منهم ، وهم أهل التوراة من اليهود ومن تبع دينهم من النصارى وأهل التوراة الذين بين العرب يرمئهم بادية مثلهم ولا يعرفون من ذلك إلا ما تعرفه العامة من أهل الكتاب ومعظمهم من حمير الذين أخذوا يدين يهود (٢)

فغالبية يهود جزيرة العرب في الجاهلية هم في مستور — يعد — دون مستوى يهود الجاهلية الأخرى بسبب تبديهم وانقطاعهم عن غيرهم من يهود .

وقد كانت لليهود مواضع يتدارسون فيها رجال معينهم احكام شريعتهم ، وكان لهم أحبار وحاخامون علموهم أمور دينهم . ذكر أهل الأخبار انهم كانوا ينتبسون بالعبرية والسريانية (٣) ولم تكن المدارس أو (المدارس) موضع عبادة وصلوات ، بل كان الى ذلك دار فداء لليهود ، فهو مجمع الأخبار ومجمع الرؤساء من السانات وأصحاب الشرف فيهم واليه كان يتصد الجاهلون حين يريدون أمراً من الأمور أو الاستفهام عن شيء يريدون الرقوف عليه .

واليه ذهب الرسول وكبار الصحابة لمحادثة يهود ومجادلتهم فيما كان يحدث بينهم من خلاف أو من أمر يريدون البث فيه . ويقال انهم عرضوا أمام الرسول كتبهم . فكان يقرأها له بعضهم .

(١) سورة البقرة — آية ٨٧ . التاج الجامع للاصول ١ / ٢٦٦ فما بعد

(٢) ابن خلدون — تاريخ ١ / ٤٣٩

(٣) جواد علي — تاريخ ٦ / ٥٥٢

من دخل الاسلام كعبد الله بن سلام أو بعض المسلمين ممن كان له علم وفهم في الصهيونية
لغة يهود . ولقد كان لدى اليهود بعض المعلمين الذين كانوا يعرفون أمور التوراة وشريعة
موسى يعلمون الجاهلين أمور دينهم = خاصة الاطفال منهم . .
وللفظة - حبر - أهمية كبيرة عند اليهود ، فانها تشير الى العلم والمعرفة ، وان كانت لاتصل
الى درجة (رابي) (ربي Rabbi) ولا تزال مستعملة عند هم فيمن درس الشريعة اليهودية
والعلوم الشرعية وتقدم فيها وأتقن الاحكام ، وقضى بين الناس ، غير أنها دون درجة Rabbi
فهي في العبرانية بمعنى عام ، ولكن دون المعنى المفهوم في العربية عند علماء اللغة الاسلاميين
فهذا المعنى هو في مقابل لفظة Rabbi اي (ريان) لا حبر وقد وردت لفظة (حبر) في شعر
الشمخ

كما خطّ عبرانية بيمينه بتيما حبر ثم عرض أسطرا

اما الريانيون فهم العلماء بالحلال والحرام والأمر والنهي على رأى بعض العلماء الاسلاميين
وقال بعض آخر : الريان العالم الراسخ في العلم والدين ، أو العالم العامل المعلم ، أو العالي
الدرجة في العلم . وقرن بعضهم بين الريانيين وبين الأخبار بأن جعل الأخبار أهل المعرفة
بأنبياء الأمم . ربما كان ويكون . وهي من الالفاظ التي وردت في القرآن الكريم في أثناء الكلام
عن علماء يهود (٢)

وهكذا فان رسائل نشر المعرفة كانت بدائية تماما سراة لدى عرب يثرب أو يهودها مما أوجد
قبولاً واندفاعاً شديدين على دخول الإسلام وتعلمه ونعله الى العالم أجمع .

- انتهى الفصل الأول -

(١) جواد علي - تاريخ ٦/ ٥٥٠ - ٥٥١ بتصرف

(٢) سورة المائدة - آية ٤٤ ، ٦٢ آل عمران آية ٧٩ . جواد علي ٦/ ٥٥١

الفصل الثاني ١٣ - ٢٣٧

|

الفصل الثاني

ملاح الفكر السياسي عند عرب يثرب

القسم الاول

الاتجاهات السياسية المؤثرة في فكر أهل يثرب

مدخل : تخضع الحياة اليومية لشعب من الشعوب كبراً وصغر لتأثيرات كثيرة من داته أو من محيطه ولعل التأثيرات السياسية هي الأكبر ظهوراً في تصرفات الشعوب والأقوام ، وحتى الشعوب البدائية فقد استفادت كثيراً من تجاربها الخاصة الذاتية ، أو من تجارب من سبقها من الشعوب ، أو من حكمها أو من جاورها . وحركة التاريخ الدائمة في هذا قد أحدثت أنواعاً كثيرة من أشكال الحكم الذي تدرج من الحكم المطلق الفرد إلى حكم الجماعة إلى أنواع لا مجال للخوض أو الحديث فيها فهي معروفة ومدروسة لدارسي النظم السياسية المتعارفة أو النظم الدستورية . ولقد انتقل هذا التأثير بأساليب شتى ، كان أولها أن يؤثر شعب حاكم بشعب محكوم فيعطيه سياسقه وفكره وإدارته وتقسيماته وتنظيماته ، وهذا شائع في عصرنا الحاضر . فكل من خرج من حكم الإستعمار في بلاد العالم الثالث قد أخذ بما قدمه الإستعمار والمستعمرون وأصبح عادة لديهم ، منها أنظمة السير ، فضعب مُستعمر يسير على اليسار فرض على الشعب المُستعمر ذلك وآخر يسير على اليمين ، وهكذا ، ولم يكن لهذا أو ذاك أي رأى في هذا لكن فرض هذا النوع من الحياة ومن أسلوب التعامل فسار عليه المغلوب وقبلة : ومثله أنظمة الحكم الجمهوري أو الملكي أو الديكتاتوري وهي الأساليب الحديثة التي وزعت على شعوب العالم الإسلامي يتجرع من معين هذه الأنظمة حتى الثالثة .

ومحيط جزيرة العرب التي ضمها الصحارى والقفارى في الماضي قد تميز فيها نوع من الحكم يختلف تماماً عما حوله من أنظمة ، في القبائل التي قدر لها أن تخرج عن حدود الجزيرة اختارت نوعاً من الحكم المتأثر بالقوى المحيطة بها ، وهذه القبائل اتجهت نحو الأنظمة الملكية باعتباره صورة مصغرة من حكم الأباطرة في ذلك الوقت ، ولذين كانوا يخضعون لسلطانهم العديد من الملوك ، فنشأت مملكة البطراو " البترا " ومملكة تدمر وبعدها ممالك الغساسنة والمنبادة وكندة وغيرهم ، أما الجزيرة فقد بقيت تحكم بنظام قبلي معروف ، مع بعض التعديلات الضرورية للعديد من المشاكل التي حلت بالجماعة أو فرضت نفسها عليها كتنظيمات قصص بن كلاب في مكة أو حكم الطائف ، أو بعض التوجهات السياسية الأخرى في بعض المناطق ذات التجمعات البشرية في الجزيرة . كما أن لها علاقة كبيرة في تحول عرب يثرب من نوع من حكم ملكي إلى دخول في حياة قبلية طيلة فترة الحرب الأهلية ، ثم التحول التدريجي إلى نوع من الحكم الملكي الذي عاجله الإسلام ، فتحول سكان يثرب من العرب إليه ليكونوا بناة ووجد هذا النظام الجديد .

إن التأثيرات السياسية كان لها كبير الأثر في هذا الأمر ، وإن الكثير من الشعوب التي تأثرت بنوع من أنواع الحكم المجاورة والمفروضة لم تكن صورة طبق الأصل عما رسم لها ، لكنها كانت مزيجاً من تأثيرات ذاتية ، وتأثيرات خارجية أدت بالنهاية إلى شكل مميز من أشكال الحكم الكثيرة .

أ - الحياة القبلية

عرفت القبيلة في العربية بأنها :

والقبيل : الجماعة من الناس يكونون من الثلاثة فصاعداً من قوم شتى ، كالزنج والرمن والعرب وقد يكونون من نحو واحد ، وربما كان القبيل من أب واحد فالقبيلة ، وجمع القبيل : قُبُلٌ

واستعمل سيبويه " القبيل " في الجمع والتصيير وغيرهما من الأبواب المتشابهة (١)

والقبيلة : الجماعة من الناس تنسب إلى أب أو جد واحد ومن الحيوان والنبات : الصنف والرقعة

في قب القميص ، وسير اللجام ، واحدى عظام الرأس المتصل بعضها ببعض . ج قبائل

وقبائل الرّحل : أَعْتَابُهُ المشعوب بعضها إلى بعض . وقبائل الشجرة : أغصانها ، ويقال :

نوب قبائل : أخلاق (٢)

والقبيلة : عبارة عن أسرة كبيرة تفرعت إلى ما كان يسمى البطون والأفخاذ ، والعشائر يرأسها

شيخ يراعى في اختياره شرط السن ، والتجربة ، والشجاعة ، وسداد الرأي ، والكرم . سلطته

أبوية يعاونه في الحكم وتقديم العشرة رؤساء العشائر الذين فرضت عليهم واجبات كثيرة ، منها إيواؤ

الغريب ، وحماية الحمى ، والذود عن النساء ، وإجارة المستجير .

ولم يكن للقبيلة نظام مكتوب ، بل كانت تحكم حسب (العرف) ، أو مجموعة العادات والتقاليد الموروثة

وأفراد القبيلة يعملون كجماعة واحدة ، يرتحلون معاً ، ويقاثلون معاً ، وإذا ارتكب أحدهم جناية

حملتها القبيلة ، وإذا غنم غنيمة فهي للقبيلة . شعارهم " انصراخك ظالماً أو مظلوماً " ولم يكن

الفرد يؤمن إلا بتقاليد قبيلته وعاداتها التي يتعصب لها ويمتزبها ويفخر ، ولذلك كانت

العصبية القبلية تحل عنده محل الروح القومية .

هذه العصبية هي التي جعلت العلاقات بين القبائل علاقات عداوة واعزاز واقتتال وفرو في معظم

الأحيان ، وتضع نفسها تحت تصرف الأجنبي استعداداً لها على جاراتها (٣)

القبيلة : كانت عرب البادية تعيش قبائل متقاطعة ، لا يجتمع بعضها إلى بعض إلا في حليف موقوت

نلم يستطيعوا في صحرائهم ، وما يقتضي لها من حياة قبلية أن ينشروا مجتمعاً رافياً ، وقومية شاملة

ودولة واحدة موحدة . ولم تتعد عصبيتهم عن القبيلة ، وإن فاخروا بجنسهم واعتدوا بسـ

(١) لسان العرب - ابن منظور ١٢ / ٣ . ترتيب القاموس المحيط ٣ / ٥٥٥

(٢) المعجم الوسيط ٢ / ٧١٣

(٣) الحضارات - لبيب عبد الساتر ص ٢٣٦

على سائر الامم ، وبين الفرد والقبيلة صلة مكينة تجعل الفرد بجميعة للقبيلة ، والقبيلة بجميعة لها للفرد ، فاذا نزل عازراً بالقبيلة اصاب كل شخص منها ، واذا نبه ذكر شخص عاد فخره إلى القبيلة بأسرها ، وتحمل القبيلة جناية أخيها وتتصره ظالماً أو مظلوماً (١)

وكانت القبيلة هي الوحدة السياسية عند العرب في العصر الجاهلي ، فأفراد القبيلة ينتمون أو يحتفدون انهم ينتمون إلى أصل واحد مشترك ، تجمعهم وحدة الجماعة وتربطهم رابطة العصبية للأهل والعشيرة ورابطة العصبية هي شعور بالتماسك والتضامن والاندماج بين من تربطهم رابطة الدم ، فهي بذلك مصدر للقوة السياسية والدفاعية التي تربط بين أفراد القبيلة فتعمل بذلك على بقاء المجتمع وحفظ كيانه ، وهي تعادل الشعور بالقومية بالعصر الحاضر ، ولكن رابطة الدم فيها أقوى وأوضح .

والفرد يرتبط ارتباطاً وثيقاً بقبيلته وينصرها ظالماً أو مظلوماً . والعصبية عند العرب نوعان : عصبية الدم وهي أساس القرابة ومصدر الترابط الوثيق بين أفراد القبيلة ، ثم عصبية الإنتماء إلى أب بعيد أو جَد مشترك من نسله تكونت القبيلة أو القبائل المنتمية إليه . وعلى هذا الأساس لم تكن للعرب في الجاهلية نزعة أو شعور بالقومية الشاملة ، ذلك لأن وعيها السياسي كان ضعيفاً محدوداً لا يتجاوز القبيلة أو القبائل المنتمية إلى الجد المشترك (٢)

وتستوفي القبيلة كافة مقومات الدولة سوى الأرض الثابتة التي تحدد منطقة نفوذها ، فقد كان ضيق أسباب الحياة في الصحراء حافزاً لتلك القبائل على التنقل والحركة والسعي وراء العيش ، إلا أنها في بعض الاحيان تكون لها منطقة خاصة تتجول في نطاقها وتدعى الدار ، أو قد تُنشيء لنفسها (حتى) أي منطقة ثابتة من الارض لا يجوز لغيرها أن يخرقها . (٣)

أما عن نظام الحكم السائد في تلك المجتمعات القبلية فقد كانت لكل قبيلة مجلس من شيوخها يرأسه رجل يتم اختياره من بين أفراد القبيلة ، ويطلقون عليه ألقاب منها : الرئيس ، والشيخ ، والأمير والسيد ، ويشترط فيمن يتولى هذا المنصب أن تتوفر فيه عدة صفات تؤهله لقيادة القبيلة ورئاستها منها الشجاعة والحكمة والصبر والكرم ، وأن يكون ذا نفوذ عظيم وقوة في البيان ورأى ثاقب . وقد ذكر الجاحظ في كتاب (سرايع العروة) ان العرب كانت تسود على أشياء أما مضر فتسود ذا رأيهم وأما ربيعة فمن أطعم الطعام ، وأما اليمن فعلى النسب ، وكان أهل الجاهلية لا يسودون إلا من تكاملت فيه ست خصال : السخاء ، والفجدة ، والصبر ، والحلم ، والتواضع ، والبيان (٤)

وتتم رئاسة القبيلة بالانتخاب الحربيين الافراد ، إن لم يكن مبدأ الوراثية مقبولاً عند العرب لما قد يؤدي

(١) طبقات العرب في الجاهلية - بطرس البستاني ٢٠ / ٢١ - ٢١

(٢) تاريخ العرب - الجبيلي ص ٤٨ - ٤٩

(٣) بلوغ الأرب الالوسي ١٨٧ / ٢

إليه ذلك من تقييد للجهريات ، وإذا حدث انتخاب الابن بعد أبيه ، فإنما يتم ذلك لتوفر شروط
الرياسة فيه ، وكان على سيد القبيلة واجبات أهمها قيادة الجيش أوقات الحرب ، وتولى أمر
المفاوضات مع القبائل الأخرى ، ونص المنازعات ، والحكم في الخلافات ، ومراعاة الضعفاء وإيوائهم

الغريب ، وإجارة العجير ، والذود عن النساء ، والمحافظة على وحدة القبيلة .

ومن واجباته أيضا تقسيم الغنائم بين المعاتلين ، وله فيها حقوق وامتيازات أُجْمِلَهَا عبد الله الضبي

في البيت التالي : لَكَ الْعِرَاعُ مِنْهَا وَالصَّافِيَا مَوْلَاكَ وَالنَّشِيْطَةُ وَالْفَضُّوْلُ (١)

وكان مجلس القبيلة يعقد اجتماعاته بدار الندوة ، أو المنتدى ، أو النادى ، حيث تناقش الأمور

والمسائل التي تخص القبيلة كإعلان الحرب ، وإقرار السلم ، وتتخذ قراراته بعد التشاور والمناقشات

بالأغلبية (٢) . والقبيلة هي عماد الحياة في البادية ، بها يحتمي الأعراب في الدفاع عن نفسه

ومن ماله حيث لا (شرط) في البوادي تؤدب المعتدين ، ولا سجون يسجن فيها الخارجون على

نظام المجتمع ، وكل ما هنالك عصبية تأخذ بالحق (أعراف) يجب أن تطاع .

والرابط الذي يربط شمل القبيلة ويجمع شتاتها هو (النسب) ويفسر ذلك بارتباط أبناء القبيلة

كلها بنسب واحد وبدم واحد ، ويصلب جد أعلى من صلبه انحدر أفراد القبيلة في اعتقادهم

ولهذا نجد أهل الأنساب يُرجعون نسب كل قبيلة إلى جد أعلى ، ثم يُرجعون أنساب الجدد

إلى أجداد القبائل إلى أجداد أقدم وهكذا . . . حتى يصلوا إلى الجددين للعرب فحطان

وعدنان (٣) . وتتألف القبيلة من بيوت ، تختلف عدد ها باختلاف حجم القبيلة وباختلاف المواسم

ففي موسم الربيع تضطر أحياء القبيلة على الانتشار والابتعاد لتتمكن ابلها من الرعى ومن إملأ

بطونها بالعشب فتتجمع على شكل مستوطنات يتراوح عدد بيوت كل مستوطنة منها ما بين الخمسين

والمائة والخمسين بيوتا ، أما في المواسم الأخرى حيث تنحبس الأمطار وتجف الأرض ، فتعود

أحياء القبيلة إلى تكتلها وتجمعها فتكون كل مجموعة حوالي ٥٠٠ بيت أو أكثر تتجمع حذر ونوع

غزوعليها . وللتعاون فيما بينها عند الشدة والعسر .

والقبيلة في عرف علماء اللغة جماعة من أب واحد والقبائل في نظرهم من قبائل الرأس لاجتماعها

أو من قبائل الشجر ، وهي أعضائها (٤)

فهي إذن جماعة من الناس تضم طوائف أصغر منها ، وهي تنتمي كلها إلى أصل واحد وجذر

راسخ ولها نسب مشترك يتصل بأب واحد وهو أبجد الآباء والجد الأكبر للقبيلة فالرابط الذي

يربط بين أبناء القبيلة يجمع شملها يوجد بين أفرادها هو (الدم) أي النسب

والنسب عندهم هو القومية ورمز المجتمع السياسي في البادية ، والقبيلة هي الحكومة الوحيدة

(١) جواد علي - تاريخ ٣٧٢ / ١ (٢) تاريخ العرب - الجميلي ص ٥٠

(٣) جواد علي - تاريخ ٣١٣ / ٤ (٤) تاريخ العروس ٧٢ / ٨

التي يقيمها الأعرابي حيث لا يشاهد حكومة أخرى فوقها . وما تقرره حكومتهم هذه من قرارات يطاع وينفذ، وبها يستطيع أن يأخذ حقه من المعتدى عليه .

وهذه النظرة الخاصة بتعريف القبيلة هي التي حملت أهل الانساب والأخبار على إطلاق لفظتي القبيلة على الحضر أيضا مع أنهم استقروا وأقاموا .

فقرئ عند هم قبيلة والأوس والخزرج قبيلة ، وثقيف قبيلة ، وذلك لأن هؤلاء الناس وان تحضروا واستقروا وأقاموا وتركوا الحياة الأعرابية ، إلا أنهم بقوا رغم ذلك على مذهب أهل البر ودينهم في التمسك بالإنساب إلى جد أعلى وإلى أحياء ، وبطنون ، وفي إجابة النخوة والعهبة وما شابه ذلك من سجايا البداوة . فعدوا على القبائل وان صاروا حضرا وأهل قرار وقد طلقوا التنقل وانتجاع الكلاً .

وتشارك الشعوب السامية العرب في هذه النظرة لأن نظامها الاجتماعي القديم هو كالنظام العربي قائم على القبيلة ، والقبيلة عند هم جماعة من بيوت ترى أنها من أصل واحد ، وقد انحدرت كلها من صلب جد واحد ، فهم جميعا أبناء الجد الذي تنتمي إليه القبيلة ، وهم مثل العرب في النداء وفي النسب ، وقد يذكرون الاسم فقط فيقولون مثلا أد ، مؤب ، إسرائيل ، يهودا ، وأبناء إسرائيل أو أبناء يهودا . وقد يقولون بيت إسرائيل ، وبيت يوسف ، وبيت خمرى وبيت أديني بمعنى أبناء المذكورين ، تماما كما نقول فسان ، وآل فسان ، وأبناء فسان وأولاد فسان ومن فسان وفساني وما شاكل ذلك . ويريدون بها شيئا واحدا وهو النسب أي الإنتماء إلى جد واحد وبه تسمى القبيلة واليه يرجع نسبها .

وهم يشعرون كالعرب أن أبناء القبيلة هم أخوة من دم واحد ومن لحم ودم ذلك الجد ، وهم يخاطبون بعضهم بعضا بقولهم : " أنت من لحمي ودمي " وفي التوراة أمثلة عديدة من هذا القبيل " وذهب أبيمالك بن يربعل إلى شكيم إلى أخوة أمه وتلمهم وجميع عشيرة بيت أبي أمه قائلا : تكلموا الآن في آذان جميع أهل شكيم ، أي هو خير لكم . . . لأن يتسلط عليكم سبعسون رجلا جميع بني يربعل ، أم يتسلط عليكم رجل واحد ، واذكروا أنني أنا عظمتكم ولحمكم (١) وقد اعتبر داود عليه السلام جميع أبناء عشيرته أخوة له ، وخاطب (٢) شيبون يهودا بقوله : أنتم إخوتي أنتم عظمي ولحمي (٣)

فأبناء القبيلة هم إخوة من دم واحد يسرى في أجسامهم جميعا مادامت القبيلة حية باقية ووحدة الدم هذه هي الرابطة التي تجمع شمل القبيلة ، وهي صلة رحم وعصبية ، والحكومة الصحيحة التي يجب أن تطاع . (٤)

(١) سفر القضاة الاصحاح التاسع ، ١ ، ٢ ، ص ٢٩٥ (٢) صموئيل الاول الاصحاح ٢٠ / ٢٩

(٣) صموئيل الثاني الاصحاح ١٦ / ١٣ (٤) جواد علي - تاريخ ٣١٥ / ٤

والعربي مثل بقية الساميين لم يفهم الدولة إلا أنها دولة القبيلة ، وهي دولة صلة الرحم التي تربط الأسرة بالقبيلة دولة العظم واللحم ، أي دولة النسب ، فالنسب هو الذي يربط بين أفراد الدولة ويجمع شملهم وهو دين الدولة عندهم ، وقانونها المقرر المعترف به ، وعلى هذا القانون يعامل الانسان ، وبالعرف القبلي تسير الأمور ، فالحكاه في القبيلة والبنية - وهذا هو ما يحدث في الغالب تصير سنة القبيلة حيث تكون ، وحيث يصل نفوذها ، فهو يتفلس ويتوسج بتفلس وتوسع نفوذ القبيلة (١)

والمفهوم عن لفظ القبيلة في العادة ، القبائل التي تتألف من عمار وما وراء العمار من أقسام فإذا ذكرت القبيلة انصرف الذهن إلى آلاف البيوت تجتمع تحت اسم تلك القبيلة ، ولكن الناس يتجزون في الكلام وفي الكتابة أحيانا فيطلقونها على عدد قليل من الناس قد يبلغ ثلاثة نفر أو أربعة مثل بنو عبد الله بن أقصى بن جديلة وغير ذلك . . . وقد يطلقونها على أكثر من ذلك ولكن عدد قليل من الناس أيضا كأن يكون خمسين رجلا أو ستين وهذا الإستعمال على سبيل التجوز والإصطلاح . ويرى علماء العربية أن هناك تجمعات هي في نظرهم أكبر حجما من القبيلة أطلقوا عليها الشعوب ، فذكروا أن الشعوب فوق القبائل ومثاله بنو قحطان وبنو عدنان ، فكل منهما شعب وما دونهما قبائل ، وذهب بعض منهم إلى أن الشعوب للعجم (٢) . فإن الشعوب بالنسبة لهم مثل القبائل للعرب ، ومنه قيل للذي يتعصب للعجم (شعوبي) وقيل : بل هو للعرب وللعجم والذي عليه أكثر علماء الأنساب أن الشعب أكبر من القبيلة ، وأن الشعب أبر القبائل الذي ينتسبون إليه أي يجمعهم ويضمهم (٣) . ويظهر أن مرد هذا الإختلاف هو ما ورد في القرآن الكريم (وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا) (٤) . فقدم الشعوب على القبائل فذهب أكثر المفسرين والعلماء إلى أن هذا التقديم يعني أن الشعب أكبر من القبيلة ، وأن الشعوب الجماع ، والقبائل البطون ، أو الشعوب الجمهر ، والقبائل الأنحاز . . . أو الشعوب : النسب البعيد ، والقبائل دون ذلك (٥)

وأصغر وحدة من وحدات القبيلة هي الأسرة أي (البيت) فهي نواة القبيلة وبذرتها وجرثومتها ومن نموها ظهرت شجرة القبيلة - التي يختلف حجمها وتختلف كثرة أعضائها وفروعها باختلاف منبت الشجرة والظروف والعوامل التي أثرت في تكوينها من بذرة جيدة ، ومن تربة صالحة ، وما كاف ، والبيت هو نواة القبيلة عند العرب ، وهو نواة القبيلة عند كل الشعوب القبلية بل هو نواة المجتمع في كل مجتمع انساني (٦)

والقبائل مثل الدول أنماط ودرجات منها قبائل قوية نشطة تعتمد على نفسها في الدفاع عن كيانها ومنها قبائل أقل من هذه القبائل شأنا وقوة . وتحالف مع غيرها في الدفاع عن نفسها لتكون من

(١) جواد علي - تاريخ ٣١٥/٤

(٢) ابن كثير - تفسير ٢٣٢/٤ وضيف أن المراد بالشعوب بطون العجم والقبائل بطون العرب كما أن الأسباط بطون بني اسرائيل (٣) تاريخ العرب ٣١٨/١ (٤) سورة الحجرات آية ١٢

الحلف كتلة قبلية مهابة ، وقبائل صغيرة وليست لها قدرة على الدفاع عن حياضها لوحدها . لذلك
تركن إلى التحالف مع قبائل أخرى أقوى منها لتحافظ بذلك على وجودها .
والقبائل القوية هي القبائل الكثيرة العدد والموارد ، وإذا ترأسها سادات ذوو كفاية وقدرة هابتها
القبائل الأخرى ، وسادت على غيرها ، وكونت منها ومن القبائل التي تستولي عليها مملكة كالسدى
فعلته كده ، ولم يورد العلماء شروطا في الحد الأدنى أو الحد الأكبر للقبيلة وذلك من ناحية
عدد العشائر والبطون والأنخان فلم تعثر على حد معين إذا بلغته جماعة من الناس وجب إطلاق
لفظة قبيلة عليها بل نجد علماء النسب يطلقونها أحيانا على بطون وأنخان فيقولون قبائل قريش
ويذكرون أسماءها ، بينما هي في الواقع (آل) أو أرهاط ، أو بطون .

ويقال للقبائل التي تستقل بنفسها وتستغني عن غيرها (الأرحى) ، وعرفت القبيلة التي لا تنضم
إلى أحد بـ (الجمرة) ذكر أنها القبيلة تقاتل جماعة قبائل ، وكل قبيل انضموا نصاروا ويدا واحدة
ولم يحالفوا غيرهم ، فهم جمرة ، وقيل الجمرة كل قوم يصيرون لقتال من قاتلهم لا يحالفون أحدا
ولا ينضمون إلى أحد ، تكون القبيلة نفسها جمرة تصبر لقراع القبائل كما صبرت عبس لقبائل قيس .
ولما سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه الحطيثة بن عبس ومقامتها قبائل قيس قال : يا أمير
المؤمنين كما ألف فارس كأننا ذهبة حمراء ، لانستجرم ولانحالف ، أي لانسال غيرنا أن يجتمعوا
إلينا لاستفتائهم عنهم . والجمرة اجتماع القبيلة الواحدة على من ناوأها من سائر القبائل
وذكر أن (الجمرة) ألف فارس ، أي القبيلة التي يكون فيها ذلك العدد من الفرسان ، وقيل
ثلاثمائة فارس أو نحوها ، والذي يُستتج من علماء اللغة والنسب في تعريف الجمرة أنها القبائل
المقاتلة القوية التي تعتمد على نفسها في القتال ، ولا تترك إلى غيرها ولا تحالف غيرها لتستفيد
من هذا الحلف في قراع القبائل .

ومن مفاخر هذه القبائل كثرة ما عندها من فرسان ، والفرسان في ذلك اليوم هم عماد حرية الجيش
ومن أسباب القوة والانتصار ، وقد عدَّوا القبيلة التي يكون فيها ثلاثمائة فارس أو نحوها جمرة
وقيل الجمرة ألف فارس (١)

ولكل قبيلة كما ذكرت - جد تنتمي إليه وتفاخر وتباهى به ، وقد يكون هذا الجذ حقيقيا أي انسان
عاش ومات وساد القبيلة ، وترك أثرا كبيرا في قبيلته حتى نسبت القبيلة إليه ، وقد يكون الجذ
إسم حلف تكون وتألف من قبائل عديدة حتى عرفت به ودعيت بذلك الحلف وصار وكأنه إسم جد
وانسان عاش ، ومن هذا القبيل اسم (تنوخ) على حد زعم أهل الأخبصار .
فقد روي أن تنوخ قبائل عديدة اجتمعت وتحالفت وأقامت في مواضعها

(١) لسان العرب - دار اللسان ١/ ٤٩٥ جمرة . ومن هذا قيل المواضع الجمار التي ترمى بغنى
جمرات لأن كل مجمع منها جمرة ، وهي ثلاث جمرات . وقال عمرو بن بحر يقال لعبيس
وخبة وضمير الجمرات وأنشد لأبي حية النعمري :
لنا جمرات ليس في الأرض مثلها كرام وقد جربن كل التجارب

وقد يكون اسم موضع أقامت قبيلة فيه فنسبت إليه كما يذكر أهل الأخبار من اسم (غسان) وقد يكون اسم إله عبد فنسب عباده إليه مثل (بنو سعد العشيرة) و (تالية ريام) جد قبيلة همدان . وقد يكون اسم حيوان أو نبات أو ماشابه ذلك مما يدخل في دواة أصول الأسماء ومصادرها واشتقاقاتها وهو شيء ما لوف نراه عند غير العرب أيضا فليس العرب بدعا وحدهم في هذه الأمور (١)

والمصالح السياسية للقبائل لا تنقسم وزنا للأخوة وللنسب ، فإذا اختلفت المصلحة فلا تجد القبائل عند شذ أي غضاة في الانفصال عن قبيلة مؤاخية لها ، لتتحالف مع قبيلة غريبة عنها في النسب ومحاربة أختها التي انفصلت عنها . فعسى تحالفت مع بني عامر في حرب البسوس على (ذبيحان) وهي أختها . وتحالفت (ذبيحان) مع (تميم) على (عبس) ، مع ما بين تميم وعبس وذبيحان من عداة قديم . وقع كل ذلك وحدث بسبب تغير المصالح التي كانت تربط فيما بين هذه القبائل (٢) . ومن الامثلة المشهورة العداة الذي استمر مئة عام بين الأوس والخزرج حتى أعزهم الله بالاسلام فأصبح الانصار جند الاسلام المشهورين .

وتعدت أرض القبيلة إلى المواضع التي تصل بيوتها إليها ، فما يقع في الداخل فهو موضع القبيلة وما وقع خارج نفوذ القبيلة خرج عن موضعها ، وتعين الحدود بالظواهر الطبيعية البارزة مثل تلال أو أودية أو رمال أو ماشاكل ذلك . ونظراً لعدم تثبيت القبائل لحدودها على الأرض يرسم معالم بارزة لها صارت الحدود سبباً من أسباب النزاع المستمر والقتال الدائم بين القبائل . وتكون مواضع الماء في أرض القبيلة قبلة أبنائها ، يستقون منها ما يحتاجون اليه من (أكسير الحياة) وتكون هذه المواضع آباراً أو عيون ماء أو حسياً أو ماشاكل ذلك . وتتفق القبيلة فيما بينها على حقوق السقي ، ويؤدي الاخلال بحقوق السقي إلى وقوع نزاع قد يؤدي إلى قتال ولاسيما في أيام القَيْظِ وانحباس المطر ، حيث تستد الحاجة إلى الماء ويصير افتقاده سبباً لهلاك الأنفس والمال ولقاعدة أن ماء القبيلة مناع في القبيلة ، أما المياه المحمية بالمياه التي تحمي للسادة والرؤساء والمياه الخاصة كالآبار التي يحفرها أصحابها فتكون خاصة بهم ، ولا يجوز الاستسقاء منها إلا بإذن (٢) .

ومنها استئثار السيدة هاجر أم اسماعيل عليه السلام بما زمن عندما عرضت جرهم القيام معها حول البئر ، وكذلك سيطرة واستئثار عبد المطلب بهذه البئر عند إعادة حفرها لها بعد أن رد متبها خزاعة عند خروجها من مكة ، ولكل قبيلة حق حماية أرضها ، شأنها في ذلك شأن الدول وأنا أراد غريب اجتياز أرضها فلا بد من أن يكون في حماية إنسان منها ، وأنا كان المجتاز

جماعة كأن يكون قافلة أو قبيلة أو حياً يريد التنقل إلى أرض أخرى • ولا بد له من المرور بأرض هذه القبيلة للوصول إلى هدفه ، فعليه أخذ إذن من القبيلة يخوله جواز المرور بها ، ولا تعرض للفتح والقتال • لذا كان لابد للتجار من ترضية سادات القبائل للسماح لهم بالمرور بدفع حق المرور وهي أتاوات تعارفت القبائل آنذاك على أخذها من العارة •

وسيد القبيلة بالنسبة للقبيلة مثل ملك مملنة بالنسبة لمملكته ، فهو الرئيس وهو المرجع والمسؤول عن أتباعه في السلم والحرب ، يقصده ذوو الحاجات من أبناء القبيلة إن احتاجوا إلى حاجة وقد يجمع هذا الرئيس شمل جملة قبائل ويتراأسها • وقد ينصب نفسه ملكاً عليها ، كالذي فعله ملوك كندة من بني (آكل المرار) (١) ، كالذي فعله الأوس والخزرج عندما توجهوا لتنصيب عبد الله ابن أبي ملكة على يثرب على إثر يوم بُحَات •

وقد لانحطى* إذا ما قلنا ان أكثر مؤسسي الأسر المالكة في بلاد العرب كانوا سادات قبائل نسي الأصل استغلوا مواهبهم وقابلياتهم وامكانية قبيلتهم ، وسخروها في سبيل الحصول على الملك وعلى التلقب بلقب ملك فنالوه (٢)

ويقال لسيد القبيلة (رئيس القبيلة) والرئيس سيد التيم والرياسة السيادة ، ويقال رأس ورئيس القوم (٣) • ورؤساء القبائل هم سادات القبائل والعتولون لأمرها ، كما يقال فلان ساد قومـه وهو سيد القوم • فاللفظتان مترادفتان وفي معنى واحد ، وردت لفظة زعيم بمعنى سيد القوم ورئيسهم والمتكلم عنهم والجمع زعماء ، كما وردت الزعامة الشرف والرياسة على القوم وحظ السيد من المنمن ، غير أن استعمال زعيم القبيلة أقل من استعمال (سيد) ورئيس • وأنا حين استعمل (سيد القبيلة) أقصد به الرئيس الفعلي لقبيلته المسؤول عنها ، المدبر لأمرها والمرجع الأخير لها والذي يكون كالمملك أو الحاكم بالنسبة لقبيلته لأن هناك سادات آخرين سادوا في القبيلة • وقد عرف خبرهم في كل مكان • وربما اشتهر ذكروهم أكثر من اشتهار اسم سيد قبيلتهم • ومع ذلك فإنهم لا يعدون رأس تلك القبيلة ، لأن الرأس المسؤول عن القبيلة رأس واحد • والعرف أن يسود الرؤساء في القبائل • كما يتراأس الأشراف أمر مدينة بأن يرأسوا عمائر القبيلة ، ثم فروعها الدنيا التي تلى السمائر • فهم رؤساء قبيلته بالمعنى المجازي الذي يجوز إطلاق لفظه (القبيلة) حتى على الأفخاذ والبطنون بل والبيوت ، بأن هيئوا الرئيس بالخصال الحميدة التي تجلب لهم الشهرة والسيادة ، وتجعل اسمهم يحلو باسم رئيس القبيلة في كثير من الأحيان (٤)

فالحياة القبلية مجموعة من الأعراف التي لم تكتب ولم تسجل ، ولشها نانت محفوظة في رأس أبناء القبيلة تماماً كأشعار فخرهم وأسابهم ، والخروج على هذه الأعراف عبثاً عنة

(١) ، (٢) جواد علي - تاريخ ٢٤٣ / ٤ (٣) اللسان - دار اللسان ١٠٦ / ١

(٤) جواد علي - تاريخ ٣٤٤ / ٤

عن خروج على القانون العام الذي يسود القبيلة ، قد يؤدي بالخارج إلى الموت عادة أو الطرد والطرده عند العرب أصعب كثيراً من الموت لأنه سيتحول إلى مولى في قبيلة أخرى يفقد معها امتيازات الحرأ ويتلقفه الأقوياء فيباع في سون النخاسة .

شيخ القبيلة : هو العرب وهو القانون وهو الحاكم الفعلي في مجموعة من الناس الذين تحت سيطرته فهذه السيطرة لم تستقر يوماً على حال من الأحوال إطلاقاً ، ويساعده في حكمه مجلس القبيلة وهو مجلس غير مسمى إنما يتوصل أعضاؤه إلى مواقع إتخاذ القرار والمشاركة فيه على الأقل بما يمتاز به صاحبه من زكاء ونفظة ، وتميز عن أصحابه ، وهؤلاء مجموعة يشاركون الشيخ في القرارات الهامة ، وعادة يكونوا شيوخ بظنون ، أو كبار أسر ، أو حكماء أو يتمتعون بذكاء أو شجاعة ، ويجالسون الشيخ أو الرئيس في مجالسه ، وتكون لهم ولرأيهم إذا أجمع كلمة نافذة في مسير القبيلة وفي بقائها وحرثها وسلمها ، ولم يكن هناك من طريقة تتبع ليسبج هؤلاء من أصحاب الرأي فعلم الشيخ (رئيس القبيلة) مقترحاً للمداولة والمدارسة والحديث .

ويتميز في مجلس الشيخ الشعراء ، وخصوصاً ذلك الشاعر الذي استطاع بقريضه أن يجعل من قبيلته شيئاً مهماً ، فالشعر هو كل الثقافة ، وهو كل الإعلام من القبيلة التي ينبغ فيها ساعر تنون قد احتلت مكاناً بين القبائل ، يحافظ على هذا الشاعر وتروي قصائده ويستمتع له ويف في الساعات الحرجة ليهيح الناس للحرب أو ليدفع عن قبيلته في ملتقى العرب السنوي العام ، الحج ، أو أسواقهم وتجمعاتهم ، يذود عنها الإلأزى ويفتخر بها ، والشاعر متميز عن كل الناس تقريباً وقد لا يكون من شجاعته في نومه إلا لسانه ، أو قد يكون فارس القبيلة ورجلها (كعنترة) وبعض الأسماء الأخرى التي وردت في أساطير العرب .

وقد يصادف وجود حكيم أو معلم في القبيلة يلجأ إليه الجمع في العلمات ليرشدهم إلى الطريق الصواب ، وله عادة تأثير كبير في مجرى إتخاذ القرار ، وقد يتمكن من منح القبيلة من حرب ، أو يدفع عنها أذى بحكمة أو رأى صائب . ويتولى الحكيم عادة تحليل الصغار مبادئ القراءة والكتابة والتي كانت نادرة عند العرب في ذلك الوقت ، ويكون الحكيم قيدهم اطلع على بعض اخبار العايرين أو زار بعض قصر الملوك ، أو سمع من الناس أو وقع على سفر من الأسفار الكثيرة التي سبغت الإسلام لكن تأثيرها كان محدوداً نتيجة الإنطوائية التي تمتاز بها . والحكيم قد لا يكون من القبيلة أصلاً ولكن مقامه كبير ويلجأ إليه العرب في أسوأ الحالات التي يترددون فيها . ثم يأتي الخطيب وقد يكون الحكيم أو الشاعر ، وقد يختلف كل منهم عن الآخر . فالخطيب لسان آخر للقبيلة التي تحتاج إلى بلاغة القول مثل سلاسة الشعر .

وكان الخطيب يتصف بالحكمة والرزانة ، وإن جنح بعض الشعراء إلى أهواب من المعجون والغزل وذكر محاسن النساء . ومن الخطباء من كان يلهب مشاعر المقاتلين ويحرضهم على القتال والتبات وقد برزت مواقف كثيرة في أيام العرب اتصف بها الخطباء بالفصاحة والبلاغة حتى غيروا مجرى الأحداث

والكثير من الممارك • كما فعل حضير الكتائب يوم بعثت عندما هزمت الأوس فنزل عن ناقته وعقرها
وصاح يا معشر الأوس إن أردتم أن تسلموني إلى شرف فافعلوا ، فعاد الأوس يحملون جراحهم وثبتوا
وتمسكوا من تخيير النصر إلى هزيمة ، وكذلك موقف الرسول صلى الله عليه وسلم يوم حنين عندما وقف
عه العباس بصوته الجمهوري القوي يثبت الناس ويدعوهم للإلتفاف حول رسول الله •

قال الحافظ البيهقي عن جابر بن عبد الله ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم حنين حين
رأى من الناس ما رأى يا عباس ناد يا معشر الأنصار ، يا أصحاب الشجرة • فأجابوه • لبيك لبيك
فجعل الرجل يذهب ليعطف بعيره فلا يقدر على ذلك فيقذف درعه عن عنقه ، ويأخذ سيفه وترسه
ثم يئن الصوت حتى اجتمع إلى رسول الله مائة (١)

فالخطابة كانت ذات تأثير كبير في القبيلة ، ومع الشاعر والحكيم رؤساء العشائر والخطيب يتألف من
مجموع هؤلاء مجلس القبيلة • فكانت هذه المجموعة هي التي تدير شؤون القبيلة الداخلية والخارجية
لم يكن هناك تخصصات ، ولم يكن هناك دستوراً مكتوباً ، ولكن كان لأصحاب الرأي نفاذ رأيهم ، وكانت
الأحكام تعتمد على الأعراف وارتبطت بقضية العرب النسب ، والذي كان له من الأثر الكبير في حياة
القبيلة ليحرف كل رجل منبته واصله ، وكانت هذه القضايا تحفظ للأجيال والأولاد حتى بالإلقاب التي
عرف بها الاجداد واشتهروا ، وكثيرا ماوردت أشعار كثيرة تذكر الألقاب التي تعارف عليها الناس
للقبائل أو الافراد ، ولم تكن الأنساب معروفة مكتوبة إنما كانت محفوظة تماما •

والتصنيف المألوف للقبائل هو حاصل عرف جرى عليه النسابون ، ولا نعرف تدوينا لأهل الجاهلية
للأنساب ، إنما نعرف أن أول تدوين رسمي كان هوالتدوين الذي تم في زمن الخليفة عمر بن الخطاب
حيث ظهرت الحاجة إلى التسجيل فسجلت ، ولم تصل وبالأسف سجلات ذلك الديوان إلينا ، ولم
يصح أحد من النسابين أنه أخذ مادة أنساب من تلك السجلات ، وإنما الذي بين أيدينا هو
خلاصة وجهة نظر النسابين في أنساب القبائل ، وعلى هذا التقسيم اعتمد المعنيون به — هذا
الموضوع (٢)

ويبقى ابن الرفيح والشيخ والرئيس رفيعاً حاكماً مطاعاً ، أو يجرى عليه الزمان ان لم يكن علو قدر
المسؤولية الملقاة على عاتقه ، فيبرز الشجعان والفرسان ليأخذوا مواقعهم في حياة القبيلة •
امتازت حياة القبائل بالحروب والغزو والترحال الدائم ، ولا يمضي كبير وقت تستقر به القبيلة إلا
ويلج لها في الأثق مصلحة من أرض خصبة أو ماء غدق ، أو خوف من الأتقيا فتأخذ بالترحال
طلباً للكأوالعما • ولمزيد من الأمان والعيش ، ويكون الرواد في القبيلة أصحاب الروايمة
في المسالك والمعالك • وحادي البصر له دور في ترحال القبيلة وحتى في طعنها وإقامتها
(١) السيرة النبوية — ابن كثير ٦٢٥/٧٢ ، امتاع الاسماع ١ المعريزي ١/٤٠٦ • السيرة
النبوية — ابن هشام ٨٧/٤
(٢) جواد علي — تاريخ ٤/٤١٤ وحول انساب العرب : جمهرة انساب العرب — ابن حنن
الانساب — مسلة الصحاري ، سبائك الذهب — القلقشندي ، قلائد الذهب — ابن حنن
وكتب السيرة والتاريخ

فإنهم يقومون على حرستها خوفاً من المباغرة والغدر الذي كان سائداً في كل حياة العرب .
والتأثر من أصحاب المبادئ وأعدائها . كان عرفاً سائداً من أعراف القبائل في الجاهلية على من يقع
الدم ، وعلى من يقع الثأر ، وعلى من تقع الذبابة ، وعلى من يقع الفداء ، وهذه أمور تعارف عليها
العرب أيضاً بدرجة واضحة قوية ، وبقي الثأر يحرك مشاعر الناس ، ويدفعهم إلى الكثير من الخصال
وأهمها الشجاعة للرد السريع ، والإنتباه الدائم ، ومعرفة أشكال الناس وعاداتهم وانتسابهم .
ومن أهمها أيضاً انه ينام ويعيشه مفتحة خوفاً من الغدر والقتل .

فالسياسة العامة للقبيلة يحكمها كل هذه الأحداث ، ولذلك تعارفت العرب على أشهر يتناسون
أحقادهم وتأثرهم ، وعرفت هذه الأيام بالأشهر الحرم ، يعود بها الإطعمتان والهدوء حتى تلتفت
القبائل لتأمين معاشها ، وتأدية حجبها وعمرتها ، وتبحث عن ضالتها من البهائم والناس والعبيد
والموالي وتتعقد الأسواق التي يتم فيها البيع والشراء ، ولم تسلم هذه الشهور أيضاً من الخسوف
الأرعن بأسلوبين منفصلين تماماً احدهما (النسي) وهو تأخير أيام وتقديم أيام حتى يتسنى
للأقرباء الأخذ بنظرهم أو الوصول إلى ما في نفوسهم من أحقاد وضغائن ، وهذا أمر يقرب صاحب
القرار الأقوى في القبائل ، والقضية الثانية جاءت باختراق حرمة هذه الأشهر وعدم الإكتراث كثيراً
بها ، وإعلان الحرب بها وعرفت هذه الحروب في القديم بحروب الفجار .

هذا مجمل سريع لتنظيمات القبيلة السياسية والاجتماعية ، أما من النواحي الأخرى الإقتصادية
والفكرية فإن لها مجالاً آخر للحديث عنها .

وبذلك فإن الحكم القبلي (بداية الحكم المتعدن) كان قد تمخض في كثير من الأحيان على تنظيمات
فرضتها الظروف المحيطة بالقبيلة ، والتي أدت إلى أعلى مراتب الحكم وقتها وهو الملكية ، ولم
تتحول قبيلة لعنل هذا إلا وتمكنت من السيطرة على العديد من القبائل والأرض ، ووجد أصحابها
نوعاً من الإستقرار حول منابع المياه ، والخيول المسومة ، والجو البارد الذي يشعر به أصحابه
شعوراً غير دائم يؤدي بهم إلى بعض التنظيم وبعض التجمع والتخصصات بالحكم والإدارة .

ب - تنظيحات مدينة مكة

مكة : مصر إقليم الحجاز ، قد خُطَّت حول الكعبة من شعب واد ، رأيت لها ثلاث نظائر عمَّان في المنام (١) ، واصطخر بفارس (٢) وقرية الحمراء بخراسان (٣) ، بناؤها حجارة سود ملس وبيض أيضا ، وعلوها الآجر ، كثيرة الاجنحة من خشب الساج ، وهي طبقات مبيضة نظيفة حارة نسي الصيف إلا أن ليلها طيب . وكل ما نزل عن المسجد الحرام يسمونه (المسقلة) وما ارتفع عنه (المعلاة) وعرضها سعة الوادي . والمسجد في ثلثي البلد إلى المسقلة والكعبة في وسطه (٤) وقد ذكر العلماء رحمهم الله لها ستة عراسم ، مكة : بفتح الميم وتشديد اللام والمفتوحة وهاء في الآخر) كما نطق به القرآن الكريم في قوله تعالى : (وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ) (٥)

سميت بذلك لقله مائها أخذاً من قولهم : أمتك النصيل ضرع أمه : إذا امتصه . وقيل : لأنها تمكُّ الذنوب : بمعنى أنها تذهب بها ، ويقال لها أيضا (بُكَّة) : بإبدال الميم باء موحده . وبه نطق القرآن الكريم أيضا بقوله تعالى : (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ) (٦) . قال الشرفي بن القطامي : إنما سميت مكة لأن العرب في الجاهلية كانت تقول : لا يتم حجنا حتى نأتي مكان الكعبة فنمكُّ فيه : أي نصفر صغير المكَّاء فيه حول الكعبة ، وكانوا يصفرون ويصفقون بأيديهم إن كانوا بها .

والمكَّاء بتشديد اللام : ضائرياً وبالرياض . قال أعرابي ورد الحضر فرأى مكَّاءً فحنَّ إلى بلاده

(١) عمان : عاصمة المملكة الأردنية الهاشمية . كانت قرية صغيرة حتى قسمت بلاد النمام عام ١٩٢٠ فكانت منطقة الجنوب الشرقي منها من نصيب الأمير عبد الله بن الحسين بن علي الهاشمي . أعطى إمارة عرفت باسم شرق الأردن ، اتخذ عبد الله عاصمة له عمان وبدأ التوسع بها حتى أصبحت مدينة حديثة جداً سكنها يزيدون الآن عن مليون نسمة ، وقد بنيت على سبع جبال تتخللها الأودية التي تشبه إلى حد كبير مدينة مكة - المؤلف -

(٢) اصطخر : مدينة في فارس ، والراجح أن اسمها الحقيقي هو "ستخر" كما يكتب باللغة الإنجليزية فتحتها المسلمون عام ٢٣ هـ ٦٤٣م بقيادة أبو موسى الأشعري وعثمان بن أبي العاص وتقع على خط عرض ٥٩°٥٠ شمالاً وخط طول ٥٣° شرقاً على مسيرة ساعة شمال (برسبوليس) في وادي بلورا ومرغاب الضيق . (دائرة المعارف الإسلامية ٢/٢٤٤ فما بعد طدار المعرفة مادة (اصطخر))

(٣) خراسان : إقليم كبير وتعرف باسم (بلاد الشمس المشرقة) وهي مؤلفة من خرب معنى الشمس و (آسان) بمعنى مشرقة ، وبها جبال تمتد على حد ودها الجنوبية يصل ارتفاعها إلى ١١٣ ألف قدم ، والماء شحيح في هذا الإقليم الذي يشابه بمجموعة من الواحات ترويه أنهار متقطعة وأبار تمتد على طول مجاريها في باطن الأرض . (دائرة المعارف الإسلامية ٢/٢٩٢ طدار المعرفة مادة (خراسان))

(٤) من احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم - المقدسي ١٢/٩٨

(٥) سورة الفتح آية ٢٥ . انظر : تاريخ الجاهلية - فروع ص ١٠٩ . سيرة ابن هشام ١/١١٨ جواد علي - تاريخ ٩/٤

(٦) سورة آل عمران آية ٩٦



٦ م - حدائق الأنوار

نقالُ أَيُّهَا الْمَنَّا مَالِكٌ مَلْعَنًا أَلَاءُ وَلَا شَيْخٌ فَأَيْنَ تَبِيصُ

فأصعدُ إلى أرض المكاكي واجتنب قري السام لاتصبح وأنت مريضُ

(مكة في العصر الجاهلي ٣٣) • وهناك أقوال كثيرة حول هذه التسمية • نكتفي بما ورد منها في

هذا المقام (١)

ومن أسماء مكة أيضا (البلد) لقوله تعالى : (لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ، وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ) (٢) ومنها

(البلد الأمين) لقوله تعالى : (وَالَّتَيْنِ وَالَّذِينَ وَالزَّيْتُونَ وَطُورِ سِنِينَ • وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ) (٣)

واختلف المؤرخون في أصل اسم مكة ، ولأرجح عندنا أنه آشوري أو بابلي لأن (مكة) في البابلية (البيت) وهو اسم الكعبة عند العرب ، ويدل ذلك على قدم هذه المدينة ، كأنها سميت بذلك من

عهد العمالقة على أثر هجرتهم من بين النهرين ، فسما المكان بها إشارة إلى امتيازها بالبناء الحجري عن سائر ما يحيط بها من بادية (٤)

وحول تسميتها (بيكة) قال الليث : سميت بذلك لأنها تيك أعناق الجبابة ، أي تدفها ، واليك :

الديق • وقيل بالميم الحرم كله ، وبكة المسجد خاصة ، حكاه الماردي عن الزهري ، وزيد بن أسلم

وقيل : بالباء اسم لموضع الطواف سمي بذلك لازدحام الناس فيه • واليك : الإزدحام ، ومن

أسمائها أيضا (أم القرى) ، و(البلد الأمين) و (أم رَحْم) بضم الراء واسكان الحاء المهملتين

لأن الناس يتزاحمون فيها ويتوادعون • و (صِلاح) مبني على الكسر كقطام ونحوه و(الباسة) :

لأنها تبس الظالم : أي تحطمه و(الناشة) لذلك أيضا و(الحاطمة) : لأنها تحطم الظالم كما

تقدم • و(الرأس) و(كُوَيْ) بضم الكاف وفتح المثناة و(القدس) و(القادس) و(المقدسة) • قال

النورى : وكثرة الأسماء تدل على شرف المسمى • ولذلك كثرت أسماء الله تعالى وأسماء رسوله

صلى الله عليه وسلم •

وقد تقدم أنها من جملة الحجاز • وحكى ابن حرقل عن بعض العلماء أنها من تهامة ورجحه في

تقويم البلدان ، والجبال محتفة بها ، فأبو قبيس مشرف عليها من شريقها ، وأجباد بفتح الهمز

مشرف عليها من فريقيها ، وقال الجوهري : سمي بذلك لموضع خيل تبع منه) قال في الروص المعطاء

وسعتها من الشمال إلى الجنوب نحو ميلين ، ومن أسفل أجباد إلى ظهر جبل قيقعان مثل

ذلك ، قال اللطبي : ولم يكن بها منازل مبنية في بادية الامر ، وكانت جرهم والعمالقة حين

ولايتهم على الحرم ينتجعون جبالها وأوديتها ، ينزلون بها ، ثم جاءت قريش بعد هم فغشوا على

ذلك إلى أن صارت الرياسة في قريش لقصي بن كلاب فبنى بها دار الندوة يحكم فيها بين قريش

ثم صارت لعنارتهم وعقد الأولية في حروبهم (٥)

(١) جواد علي - تاريخ ٩/٤ (٢) سورة البلد ١ - ٢ (٣) سورة التين ١ - ٣

تاريخ العرب القديم - مهرا ٣٩٣ (٤) العرب قبل الاسلام - زيدان ٣٢٧

(٥) من كتاب صبح الاعشى = القلقشندي ٢٢٨/٥ ط وزارة الثقافة - دمشق • مكة في عصر

ما قبل الاسلام - ابو الفضل ص ٣٣

وفي مكة البيت العتيق ، وارتبط اسم مكة بوجود البيت ، ولولا البيت لبقيت مكة بلداً في قفار الحجاز ، إلا أن هذا البيت هو الذي رفع مكانة مكة وجعلها محجاً للناس وأمنناً . وأول من أتى للحج وطاف بالبيت الملائكة عليهم السلام - كذا في تاريخ مكة - أول من سعا بين الصفا والمروة هاجراً إسماعيل عليه السلام (ذكره السيوطي في الأوائل عن ابن عباس . أول بيت وضع للناس للعبادة والبركة مكة) ، ويقال أول بيت بناه آدم واتخذه قبله ، ورد في الخبر لما وصل آدم عليه السلام إلى مكة استقبلته الملائكة وقالوا : يا آدم برّحجك وطف طفنا قبلك بألني عام ، قال المفسرون : إنه أول بيت وضع للناس يحجون إليه ويعبدون الله فيه ، وكانت قبله بيوت كثيرة . قال الإمام النورى : الجمهور على أنه أول بيت وضع للناس مطلقاً (تاريخ مكة) (١)

ومكة مدينة قديمة ، ولكن تاريخها الأول غامض جدا حتى ان اسمها قد فقد دلالة اللغوية قيل : إن أقدم سكان مكة العماليق ، وهم قوم جاؤوا من ما بين النهرين (العراق) ثم غلبهم عليها (بنجرهم) ، وفي جرهم قولان : انهم من عرب الجنوب ، وقولهم انهم من عرب الشمال . ويبد وان جرهما كانت قبيلة قديمة في الذاكرة العربية حتى قال زهير بن أبي سلمى يقسم بالبيت العتيق ، أو ينسب بناها لجرهم ، أو ينسب تجده يد بنائه على الأفل لقريش ، ثم لجرهم قبلهم ،

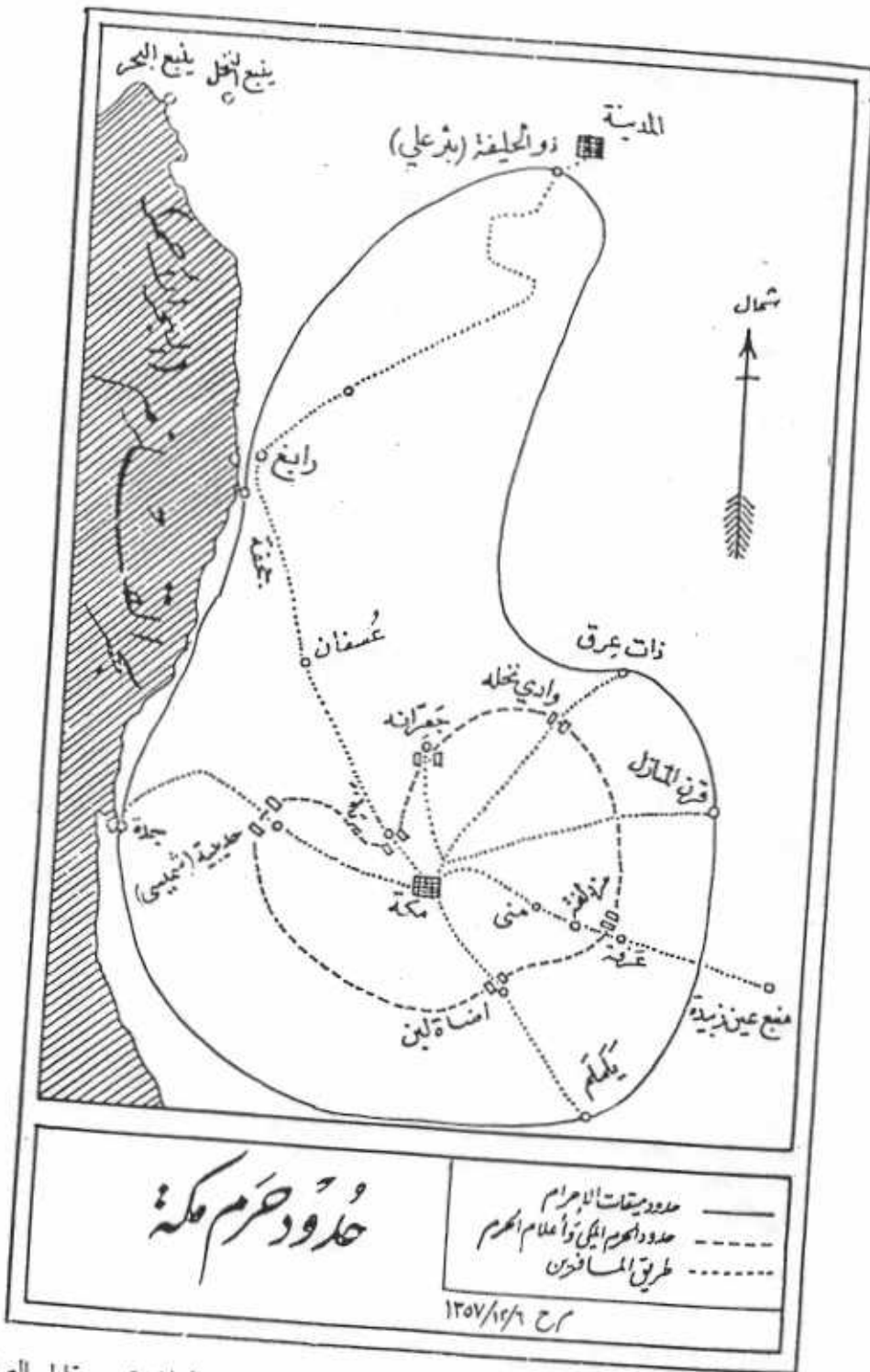
فَأَقْسَمْتُ بِالْبَيْتِ الَّذِي طَافَ حَوْلَهُ رَجَالٌ بَنَوْهُ مِنْ قَرِيشٍ وَجُرْهُمِ

ثم جاء بنو خزاعة من اليمن أيضا فيما يقول الرواة ، ونزلوا في تهامة بعدئذ ، قاتلوا جرهما وتغلبوا عليهم وأجلوهم عن مكة ، وتولوا على الكعبة ، وكان من رؤسا خزاعة عمرو بن لحي فيقال انه رجع من إحدى رحلاته بضم اسمه (هبل) جاء به من البلقاء في الشام ، أو من هيث في العراق على الفرات الأعلى (٢) ، ومن خزاعة ورثت قريش الحكم في مكة والولاية على الكعبة ومكة : بلد في واد غير ذي زرع ، تشرف عليها جبال جرد فتزيد في قسوة مناخها ليس بها ماء غير ماء زمزم ، وهي بئر محفورة ، وآبار أخرى فجة حفرها أصحاب البيوت ، أما مياه جارية وعيون غزيرة على ما نرى في أماكن أخرى فليس لها وجود بهذا المعنى هناك . وكل ما كان يحدث نزول سيول قد تكون ثقيلة تهبط عليها من شعاب الهضبات والجبال فتتزل بها أضرارا فادحة وخسائر كبيرة ، وقد تصل إلى الحرم فتؤثر فيه ، وقد تسقط البيوت فتكون السيول نعمة ، لارحمة تسعف وتغيث أهل البيت الحرام (٣) . وكثيرا ما كانت الاويثة تتفشى عقب السيول المخربة . فقد أصيب أهل مكة بمرض شديد (٤) أصابهم في أجسادهم وألسنتهم أصابهم منه شبه الخبل عقب

(١) محاضرة الاوائل - البسنوى ص ٤٠ (٢) تاريخ الجاهلية - فروع ص ١١٠

(٣) جواد علي - تاريخ ٥ / ٤ . تاريخ مكة - الازرقى ٣٨٨ . فتى البلدان - البلاذرى ص ٦٥

(٤) مكة في عصر ما قبل الاسلام - ابو الفضل ص ٤٢



نقلًا عن كتاب : « مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة - مقابل الصفحة :
(٦٧) - . جمعها : « الدكتور محمد حميد الله » .

وأهمية مكة الرئيسية لم تكن من الناحية الزراعية أو الناحية التجارية ، وإنما كانت من الناحية الدينية ، كانت مكة مركز الوثنية عند العرب ، موطن مناسك الحج والأمن والقداسة بين القبائل المتناحرة ، تهيأت القداسة عن طريق الكعبة ، وهي هيكل صغير مربع من صخر - سوداء بالغة حداً كبيراً من القدم وكان حجر الزاوية في هذا الهيكل ^(١) نيزكا تربطه التقاليد بـ (إبراهيم عليه السلام) . وكان بعد الإله صاحب الرئاسة الذي يقيم تحت لوائه وحمايته جميع الآلهة القبليسة ويهرع فيها الحجاج الى مكة ليبتطلوا عند الكعبة ^(٢) ويحتفلون بالهدنة ^(٣)

ويعود الفضل في بقاء مكة ، وبقاؤها أهلها بها الى موقعها الجغرافي ، فهي عقدة تتجمع بها القوافل التي ترد من العربية الجنوبية تريد بلاد الشام ، أو القادمة من بلاد الشام تريد العربية الجنوبية والتي كان لابد من أن تستريح في هذا المكان ^(٤) . وهي من أهم مواضع الحضرة في الحجاز على الإطلاق وإنما ربما ترجع في نشأتها إلى عهد الخليل وولده اسماعيل عليهما السلام ، وإن سكانها من الاسماعيليين إلى جانب قبائل عربية ، لم يذكر لنا المؤرخون عنها معلومات دقيقة كالعما ليق وجرهم وخرزاعة ^(٥) . وكانت المياه شحيحة في مكة ، فكان المكيون يعانون من قلتها ، مما دعا بعض الاخباريين إلى تفسير اسم مكة بانها مشتقة من (مك) اي امتص لقله ماشها ^(٦)

وذكر ابن هشام أن قريشا قبل أن يجمعها قصى ، وقبل أن تدخل مكة كانت تشرب من حياض ومصانع على رؤوس الجبال ، ومن بئر حفرها لثوى بن غالب خارج الحرم تدعى (اليسيره) ومن بئر حفرها مرة ابن كعب تدعى (الروثى) ، وهي مما يلي عرفة ، ثم حفر كلاب بن مرة (خم ، روم ، والجفر) بظاهر مكة ولما تولى قصى رئاسة قريش حفر بركة بئرا يقال لها (العجول) كان يرد هاها العرب عندما يقدمون إلى مكة فيسربون منها ويتزاجرون عليها وفيها قال قائل :

نروى على العجول ثم ننطلق قبل صدور الحاج من كل أنفق

إن قصيا قد وفى وقد صدق بالشيع للناس درى فعتتفق

كذلك حفر قصي بئرا عند الروم الأعلى عند دار أبان بن عثمان ، ثم دثرت فنشلها جبير بن مطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف وأحياها . وقد حفر الكثيرون آبارا أخرى في مكة منهم على سبيل المثال لا الحصر : عبد شمس بن عبد مناف - حفر بئر (الطوى) في البطحاء . أمية بن عبد شمس (حفر الجفر) وبنو عبد شمس بئر (أم جعلان) وبئر (العروق) بأعلى مكة ، وحفر بنو أسعد بن عبد العزى بئر (شقية) وبنو عبد الدار بن قصي بئر (أم آحوان) ^(٧)

(١) ، (٢) تسمية هيكل تسمية نصرانية ، والمؤلف نصراني يطلق التسميات التي عرفها من الوثنية والنصرانية ، والهيكل في الديانة اليهودية هو المعان الأكثر قدسية في الكنيس أو الكنيسة والتبتل : بالعرف النصراني : التعبد ومنه مريم البتول

(٣) العرب : ادوار عطية ص ١٣ (٤) جواد علي - تاريخ ٦ / ٤

(٥) دراسات في تاريخ العرب - مهران ٣٩١ (٦) مكة في عصر ما قبل الاسلام - ابو الفضل ص ٣٨

(٧) السيرة النبوية - ابن هشام ١٥٦ / ١

وللبيت فضلٌ كبيرٌ على أهل مكة ، وبفضله يقصدها الناس من كل أنحاء العالم حتى اليوم للحج إليه وقد عُرف البيت بـ (الكعبة) لأنه مكعب على خلفة الكعب . ويقال له : (البيت العتيق) و(قادس) و(بادر) ، وعرفت الكعبة بـ (القرية القديمة) كذلك .

ومكة جبل يظل عليها يقال له : جبل (أبو قبيس) ذكر بعض أهل الأخبار أنه سمي (أبا قبيس) برجل حداء لأنه أول من بنى فيه ، وكان يسمى (الأمين) لأن الركن كان مستودعا فيه . وإمامه جبل آخر وبين الجبلين واد نمت فيه مكة ونبتت فصارت محصورة بين سلسلتين من مرتفعات . وقد سكن الناس جبل أبي قبيس قبل سكنهم بطحاء مكة ، وذلك لأنه موضع مرتفع ، ولا خطر على من سكنه من إغراق السيول له . وقد سكنته بنو جرهم ويذكر أهل الأخبار أنه سمي قبيسا : بـ (قبيس بن شامخ) رجل من جرهم كان في أيام عمرو بن مضاض (١)

وتقع مكة في منتصف الطريق المعبد للقوافل بين اليمن والشام في واد من أودية جبال السراة تحفة الجبال الجرداء من كل جانب ، وقد وصفها القرآن الكريم بانها (بوادٍ غير ذي زرع) وهي تتراءى لنا في العصر الجاهلي ممسكة بزمام القوافل التجارية ، كما تتراءى لنا أكبر مركز ديني للوثنية الجاهلية (٢) ويظهر من سكوت أهل الأخبار عن الإشارة إلى وجود (أطم) أو (حصون) في مكة للدفاع عنها ان هذه المدينة الآمنة لم تكن ذات حصون وبرج وسور يقيها من احتمال غزوا الأعراب أو أي عدو لها ، ويظهر أن ذلك إنما كان بسبب ان مكة لم تكن قبل أيام (قصي) في هذا الوادي الذي يتركز به (البيت) بل كانت على المرتفعات المشرفة عليه .

أما الوادي فكان حرما آمنا يغطيه الشجر الذي انبثته السيول ، ورعته الطبيعة بعنايتها ، ولم يكن ذا دور ولا سكن ثابت متصل بالأرض ، بل كان سكن من يأوي إلى بيوت الخيام ، أما أهل المرتفعات فكانوا إذا داهمهم عدو ، أو جاءهم غزوا اعتصموا برؤوس المرتفعات المشرفة على الدروب ، وقاوموا العدو والغزومنها (٣)

أما من سكن مكة في القديم فيعود مؤرخون بنسب العرب العدنانية إلى إسماعيل بن إبراهيم بن جاريتة هاجر ، ويرون على ذلك أنه لما ولد إسماعيل أمر الله إبراهيم أن يذهب به وبأمه إلى مكة ففعل وجاءت جرهم وقطروا وهما قبيلتان من اليمن فنزلوا مكة ، وتزوج إسماعيل من جرهم وكان من ذريته عدنان أبو العرب المستحربة ، ومن عدنان كانت القبائل النزارية بشعبتيها الكبيرتين ربيعة ومضر (٤) وكان الشمال موطن العرب العدنانية ، كما كان الجنوب موطن العرب القحطانية وهذا

لا يعني أن الشمال استأثر بالعدنانية وحدها ، ولا أن العدنانية لم تتخذ بعض قبائلها بالجانب

(١) مكة - أبو الفضل ص ٣٨٠ - جواد علي - تاريخ ٧ / ٤ - تاريخ العرب القديم - عاقل ص ٢٢٥

(٢) تاريخ الأدب العربي - ضيف ص ٤٩٠ - مكة - أبو الفضل ص ٤٠

(٣) جواد علي - تاريخ ٩ / ٤ (٤) أدباء العرب - بطرس البستاني ١٧ / ١

أوفي أطراف الشام والعراق موطننا ، وغلبيت البداوة الخشننة وسكن الخيام على عرب الشمال : فكان
العدنانيون في كثرتهم بدواً رحلاً لا يأنسون بقرية ، ولا يتغيرون ظلاً معموراً إلا أقلهم (كفريس) في
مكة وبني ثقيف في الطائف (١)

ولم يرد ذكر مكة أو الكعبة في كتب قدماء اليونان ، إلا ما جاء في كتاب (ديودورس) الصقلي في القرن
الأول قبل الميلاد في أثناء كلامه عن النبطيين مما قد يُراد به مكة ، وهي قوله : ووراء أرض الأنباط
في بلاد (بني زومين) وفيها هيكل يحترمه العرب كافة احتراماً كثيراً ، فلعله يريد الكعبة وأما بنو
زومين فربما أراد بهم جرهم أو غيرهم من قبائل العرب التي تولت مكة (٢)

وعلى كل حال فإن الإسماعيلية - أو قبيلة منهم - والجرهمية أقاموا معاً في مكة وما يليها حتى
جاءتها خزاعة وهي طائفة من عرب اليمن الذين يقول العرب أنهم هجروا بلادهم بعد سيل العرم
ورئيسها عمرو بن لحي نزلت مكة وأخرجت جرهماً منها ، وعمرو بن لحي هذا المشهور بإدخال الوثنية
على عرب الحجاز ، واليه ينسبون كثيراً من أوابد الجاهلية . وفي الحديث الشريف : رأيت عمرو
بن لحي يجرقصبته في النار يعني : أحشاه (٣)

يزعم الإخباريون أن أقدم من حكم مكة والحجاز العالقة وعليهم * السميدع بن هوير بن لاوي وخلفهم
بنو جرهم القحطانية ، وكان إبراهيم عليه السلام قد أسكن ولده إسماعيل مكة مع أمه هاجر وبني البيت
العتيق بالحجر بمعاونة ابنه إسماعيل ، وتزوج إسماعيل امرأة جرهمية ، وكانت منازل جرهم بمكة
وما حولها . وقام بأمر البيت بعد إسماعيل الحارث بن مضاض الجرهمي ، وهو أول من ولي البيت
ثم وفدت خزاعة إلى مكة بعد سيل العرم ، فنزلوا بظاهر مكة وغلّبوا الجرهميين على مكة وطردوهم
منها وكان أول من ولي أمر البيت من خزاعة عمرو بن لحي فغير دين إبراهيم وبدله بعبادة الأوثان
فقد ذكروا أنه استحضر معه من البلقاء (بالشام) أصناماً نصبها حول الكعبة ، وظلت خزاعة تلبي
أمر البيت ، أما مضر فقد احتفظت بحق الإجازة بالناس من عرفة ، والإفاضة بهم غداة النحر إلى منى
قال ابن إسحاق : ويزعمون أن أول ما كانت عبادة الحجارة في بني إسماعيل ، أنه كان لا يُظعن
من مكة ظاعناً منهم حين ضاقت عليهم ، والتمسوا الفسح في البلاد إلا حمل حجراً من حجارة
الحرم تعظيماً للحرم ، فحينما نزلوا وضعوه طافوا به كطوافهم بالكعبة حتى سلخ ذلك بهم
إلى أن كانوا يعبدون ما استحسبوا من الحجارة ، وأعجبهم حتى خلف الخُلف ، ونسوا ما كانوا عليه

(١) أدباء العرب - البستاني ١٨/١

(٢) العرب قبل الإسلام - زيدان ص ٣٢٢

(٣) نفس المصدر السابق ص ١٢٨ . ابن هشام - ٧٨/١

(٤) مكة - أبو الفضل ص ٤٣ ومحاضرة الأوائل ص ٤٠ والسيرة النبوية - ابن كثير ٦١/١

واستبدلوا بدین إبراهيم واسماعيل غیره ، فعبدوا الأوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الأم قبلهم من الضلالت ، وفيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم يتمسكون بها ، من تعظيم البيت والطواف به والحجّ والحمة ، والوقوف على عرفة والمزدلفة ، وهدي البدن ، وإلهلاك بالحجّ والحمة مع إدخالهم فيه ليس منه (١)

ثم جاءت جرهم فنزلوا على قطورا ، وكان على قطورا يومئذ (السميدع بن هوثر) ثم لحق بجرهم بقية من قومهم باليمن وعليهم (مضاس بن عمر بن الرقيب بن هاني بن نبت بن برهم) فنزلوا (بقيقان) وكان قطورا بأسفل مكة ، وكان مضاس يعشر من دخل مكة من أعلاها ، (السميدع) من أسفلها ، ثم حدث تنافس بين الزعيمين فاقتتلا ، فتغلب المضاس وغلب السميدع وجرهم قوم من اليمن فهم قحطانيون اذن جد هم هوا بن (يقطن بن عابر بن شالخ) وهم بنوعم (يعرب) كانوا باليمن ، وتكلموا بالعربية ثم غادروها فجاؤوا مكة .

والعمالقة من الشعوب المذكورة في (التوراة) وقد عدّهم (بلعام) (أول الشعوب) ، وقد كانوا يقيمون بين كنعان ومصر وفي (طور سيناء) ، أيام الخروج ويقوا في اماكنهم الى ايام (شاول) ومن جرهم تزق (إسماعيل بن إبراهيم) على رواية الأخباريين ، وبلغتهم تكلم ، وكانت (هاجر) قد جاءت به إلى مكة ، فلما شبّ وكبر تعلم لغة جرهم ، وتكلم بها ، وهم من (اليمن) في الأصل وكانت لغتهم هي اللغة العربية (٢) ، تزق امرأة أولى قالوا إن اسمها (حرا) وهي بنت سعد ابن عوف بن هني بن نبت بن جرهم) ، ثم طلقها بناءً على وصية أبيه إبراهيم له ، فتزق امرأة أخرى هي السيدة بنت (الحارث بن مضاس بن عمرو بن جرهم) ، وعاش نسله في جرهم ، والأمر على البيت لجرهم إلى أن تغلبت عليهم (بنو حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر) وهم خزاعة . وطبقت خزاعة على جرهم قانون الغالب ، فانترعت منها الملك ، وجزحتها عن مكة ، وأقامت عمرو بن لحي - وهو منها - ملكا عليها ، وكان دخول خزاعة مكة على أثر خروجها من اليمن (٣)

وهناك إشارات طويلة إلى أن الاسكندر المقدوني قد دخل إلى مكة وطاف حول البيت كما أن هذه الروايات تذكر أن موسى قد أرسل جيشا حارب العمالقة ، وطاف حول البيت ، وكل هذه الروايات لا تعتمد على أساس قوى يمكن الركون إليها ، خاصة وأن الاسكندر المقدوني لم يأت الحجاز ، واحتلاله للخليج العربي جاء بعد دخوله بلاد فارس ، وإرسال قوة للسيطرة على الخليج لحماية ظهره كما تذكر الروايات التاريخية ، وسيدنا موسى عليه السلام قد يكون جاء لوحده إلى مكة اثنا التيه ، وطاف حول الكعبة التي بناها جده إبراهيم وأخو جده إسماعيل (٣)

(١) السيرة النبوية - ابن هشام ٨٠ / ١ - جواد علي - تاريخ ١٥ / ٤

(٢) جواد علي - تاريخ ١٣ / ٤ - الطبري - تاريخ ٢٥١ / ١ فما بعد ٠ ابن هشام - السيرة النبوية ٦ / ١ وما بعدها

(٣) جواد علي - تاريخ ١٤ / ٤ - ١٥

والذى يهمننا بعد انوقفنا على أخبار مكة وشي* عن جوانبها ومناخها ، وأول من سكنها من الشعوب هو الوصول الى الافضاء يشي* من الحديث عن قريش وتنظيمات قصي بن كلاب فيها .
أما قريش فهي قبيلة عظيمة اختلف في تسميتها ونسبتها ، فقالوا : قريش من القرش وهو الكسب والجمع : وقالوا : التقريش : التفتيش ، فكان يقرش (أى فهد بن مالك) فيسرها بفضله ممن كان محتاجاً أغناه ، ومن كان عارياً كساه ، ومن كان طريداً آواه ، ومن كان خائفاً حماه ، ومن كان ضالاً هداه (١)

قارش : قرشه يقرشه ويقرشه : قطعه وجمعه من ههنا وههنا ، وضم بعضه إلى بعض ومنه قريش لتجمعهم إلى الحرم ، أو لأنهم كانوا يتقرشون البيعات فيشترونها . أو لأن النضر بن كنانة اجتمع في قومه يوماً فقالوا : تقرش . أو لأنه جاء إلى قومه فقالوا كأنه جعل قريش أى شديد . أو لأن قصيا كان يقال له : القرشي ، أو لأنهم كانوا يفتشوا الحاج فيسدون خللها أو سميت بمصغر القرش وهو دابة بحرية تخافها دواب البحر كلها ، أو سميت بقريش بن مخلد بن غالب بن فهر ، وكان صاحب عيرهم ، فكانوا يقولون : قدمت عير قريش ، وخرجت عير قريش . والنسبة : قرشي وقريشي (٢)
وقريش : قبيلة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، أبوهام النضر بن كنانة بن خزيمه بن مدركة ابن الياس بن مضر ، فكل من كان من ولد النضر فهو قرشي . قريش دون ولد كنانة ومن فوقه ، سمو بقريش مشتق من الدابة التي ذكرناها التي تخافها جميع الدواب ، وفي حديث ابن عباس في ذكر قريش قال : هي دابة تسكن البحر تأكل دوابه . قال الشاعر :

وقريش هي التي تسكن البحر بها سميت قريش قريشاً

وقيل سميت بذلك لتقرشها أى تجمعها إلى مكة من حواليلها بعد تغربها في البلاد حين غلب عليها قصي بن كلاب وبها سمي قصي مجعاً . وقيل سميت بذلك لأنهم كانوا أهل تجارة ولم يدنوا أصحاب ضرع وزرع من قولهم : فلان يتقرش المال : أى يجمعه .
وقال سيبويه : وما غلب على الحي قريش ، قال : وان جعلت اسم قبيلة فحري ، قال عدى بن الزقاع يمدح الوليد بن عبد الملك :

غلب الساميج الوليد ساحة وكفى قريش المعضلات سادها
وانا نشرت له الثناء وجدته ورث المنابر طرفها وتلادها (٣)

وتنقسم قريش إلى قسمين عظيمين : قريش البطاح ، وقريش الطواهر ، فقريش البطاح الذين ينزلون الشعب بين أخشي مكة ، وقريش الطواهر ، الذين ينزلون خارج الشعب ، أما قريش

(١) مختار الصحاح ص ٥٢٨ . المعجم الوسيط ٢ / ٢٢٦
(٢) ترتيب القاموس المحيط ٣ / ٥٩٠ . معجم قبائل العرب ٣ / ١٤٢ . لسان العرب ٣ / ٥٧
دار اللسان
(٣) لسان العرب ٣ / ٥٨ . مكة - أبو الفضل ص ٤٥ وما بعد

البطاح فهي قبائل كعب بن لؤى وهم بنوعيد مناف بنوعيد العزى ، بنوعيد الدار ، بنوزهرة بنوتيم ، بنومخزوم ، بنوجمح ، بنوسالم بنوعيد عمرو بن هصيم بن كعب ، بنوعدي بن كعب ، وأما قريش الظواهر فهي قبائل بني عامر بن لؤى بن يخلد بن النضر وهم الحارث ومالك ^{وغيرها} ومحارب والحارث بن الفهر ، وتيم الأدرم بن غالب بن فهر ، وقيس بن فهر وقد درج .

ويرجع الفضل لجمع قريش وجعلها قبيلة عزيزة الجانب عظيمة الشأن إلى ذلك الرجل العظيم قصي بن كلاب ، فقد جمع قريشا من متفرقات مواضعهم من شبه جزيرة العرب ، واستعان بمن أطاعه من احياء العرب على حرب خزاعة واجلائهم عن البيت وتسليمه لقصي ، فكان بينهم قتالٌ كثيرٌ ودماءٌ غزيرة ثم تداعوا الى التحكيم فحكم بأن قصياً أولى بالبيت من خزاعة ، فولى البيت وجمع قومه من منازلهم إلى مكة ، وتما لك على قومه وأهل مكة (١)

ونظراً لتحضر كنانة وقريش في مكة ، واستئثارها بمكان الحج كان لهما التقدم على سائر مضر ، وكانت كنانة قبل قريش ، وكان التقدم في قريش كله لبني لؤى بن غالب بن فهر بن مالك وسيدهم قصي بن كلاب بن مره بن كعب بن لؤى (٢)

وسبب التسمية في نظر الطبري هو قريش بن بدر بن يخلد بن الحارث بن يخلد بن النضر بن كنانة وبه سميت قريش قريشاً . لان غير بني النضر كانت إذا قدمت قالت العرب : قد جاءت غير قريش . وقريش هذا دليل بني النضر في أسفارهم . أو أن بني النضر بن كنانة قد سمو بقريش بدابة تكون في البحر تأكل الدواب تدعى القريش فشبهه بنو النضر بن كنانة بها لأنها أعظم دواب البحر قوة (٣)

وإذا أردنا فصلا في هذه الأقوال الكثيرة التي تتحدث عن سبب تسمية قريش بهذا الاسم لوجدنا أننا نستطيع ان نوافق الاستاذ سعيد الانغاني حين يذهب الى القول : يستبعد الذهن أن تكون دابة البحر هي التي أوجت بهذا الاسم ، ولوروى هذا القول عن ابن عباس ، لبعيد العرب حول مكة عن البحر وجهلهم حيوانه ، ففي هذا الشرح تكلف ظاهر ، والذي لا يجد المرء غيره مذهباً يرتضيه هو أن تكون قريش من (القريش) بمعنى الجمع كما كانوا يتعاطون من التجارة وجمع المال ، إذا كانوا معروفين بذلك عند العرب عامة .

ذكر ابن هشام : ان القريش ، التجارة والاكساب ، وان القريش أيضا التجارة والاكساب وأتى على ذلك بشواهد من كلام العرب (٤)

ولانصل إلى منتصف القرن الخامس الميلادي حتى يظهر بها قصي بن كلاب ومعه قبيلة قريش فيستولي

(١) معجم قبائل العرب - كحالة ٣ / ٩٤٨ - مكة في عصر ما قبل الاسلام - ابو الفضل ص ٤٥ فما بعد

(٢) العرب قبل الاسلام - زيدان ص ٣٢٩ (٣) الطبري - تاريخ ٢ / ٢٦٣ - ٢٦٥

(٤) تاريخ العرب القديم - عاقل ص ٢٣٢ - ٢٣٣

عليها ويخرج خزاعة •

ولا يعرف بالضبط أصل قريش ، وهل هي من عرب نجد أو من العرب الأنباط الذين تراجعوا ناحية الجنوب أمام غزوا الرومان لبلادهم ، وقد دعم مكانتها غزوا الاحباش لليمن ، فتحولت أفئدة العرب الوثنيين إليها ، وفزعت ارسطراطيتهم الشمالية والجنوبية الى هذا المركز البعيد عن اعدائهم وحاول أبرهة والي الحبشة على اليمن أن يستولي عليها سنة ١٥٢٠ و ٥٢١ (١) فبادت حملته بالفشل الذريع • فزاد ذلك في تقديس العرب لها واعظامها ، وعدّها رمزا لاستقلالهم وعزتهم

وقوتهم ان لم تدن لأى ملك أجنبي • وفي ذلك يقول حرب بن أمية :

أبا مَطَرٍ هَلُمَّ إِلَى صَالِحٍ فَتَكْفِيكَ النَّدَامَى مِنْ قُرَيْشِ
فَتَأْمَنَ وَسَطَهُمْ وَتَعِيشَ فِيهِمْ أبا مَطَرٍ هُدَيْتَ لِخَيْرِ عَيْشِ
وَتَنْزِلَ بَلَدَةَ عَزَّتْ قَدِيمًا وَتَأْمَنَ أَنْ يَزُورَكَ رَبُّ جَيْشِ

وقد هيأ لها التصادم المستمر بين الفرس والروم أن تزدهر بها التجارة ، فقد كان الطريق بين العراق والشام مقفلا ، وكانت أكثر تجارة الشمال والجنوب تهبط فيها ، وكانت قوافلها تجوب الصحراء العربية إلى الجنوب في اليمن وحضرموت وإلى الشرق في الحيرة وإلى الشمال حيث تذهب إلى بصرى في الشام وإلى غزة ومصر ، وفي الوقت نفسه كانت راعية الكعبة وأصنامها وأوتانها ، وبذلك كان أهلها أشرف العرب ، وكان كثير منهم يعترفون لهم بالسيادة • يقول ابن الفقيه: إن أهل مكة لم يؤدوا في الجاهلية أتاوة قط ، ودانت لهم خزاعة ونقيف وعامر بن صعصعة ، وفرضوا على العرب قاطبة ان يطرحوا ازواد الحل اذا دخلوا الحرم ، وهم بعد أعز العرب يتأمرون عليهم قاطبة وكانوا يأخذون اتاوة من التجار الأجانب إذا ألما بهم ، وكان ينزلها ببيزنطيون وفرس للتجارة يدل على ذلك الصحابيان صهيب الرومي وسلمان الفارسي •

وكل ذلك يؤكده مكانتها وزعامتها على العرب ، فهي بيت تجارتهم ، وبيت كعبتهم المقدسة ، وفيها يقيمون أعيادهم الدينية ، كما يقيمون أسواقهم التجارية كسوق عكاظ ، ومخبة وذى المجاز ، ولم تكن أسواقا تجارية فحسب ، بل كانت أسواقا أدبية أيضاً ، تعرض فيها سلع الشعر فيتناقص الشعراء ويقوم بينهم الحكم (٢)

وكان كثير من العرب يرى سادة قريش فوق آل جفنة الغساسنة ، بل فوق كسرى وآل كسرى وكانوا يقصدونهم بالمديح طلباً للعطا والنوال ، ومديح أمية بن أبي الصلت في عبد الله بن جربعان مشهور ، وبهذا كانت مكة أهم مدينة عربية في الجاهلية ، إذ كانت مثابة للعرب

(١) بالأصل ٦٢٠ - ٦٢١ وهو خطأ ان الثابت ان الرسول ولد في عام الفيل الموافق ٥٢١ / ٤ / ٢٤ م

(٢) تاريخ الأدب العربي - شوقي ضيف ٤٩ - ٥٠

وأما ، وكان مجتمعها يتألف من قريش البطاح الذين ينزلون حول الذهبية وهم : هاشم وأميمة ومخزوم ، وتيم وعدى ، وجمع ، وسهم ، وأسد ، ونوفل ، وزهرة . وكانوا أصحاب النفوذ فيها ومن قريش الطواهر الذين ينزلون وراءهم ومعهم أخلاط من صعاليك العرب والحلفاء والموالي والعبيد وكان أكثرهم من الحبشة ، ويظهر أنهم كانوا كثيرين كثرة مفرطة ، ولعل مما يدل على كثرتهم أن هنداً بنت عبد المطلب أعتقت في يوم واحد أربعين عبداً من عبيدها .

وكانوا يقومون على حرف ومهن كثيرة ، ومن غير شك كان يعيش سادة قريش معيشة مترفة بحكم ثروتهم واتصالهم بالفرس والروم ، ويقال أنهم كانوا يهيفسون في الطائف ويشترون في جده ، ونجد في سورة الزخرف آية ١٨ استهزأ^١ بمن ينشأ في الحلية والزينة .

ويقال أيضاً ان عبد المطلب جد الرسول صلى الله عليه وسلم دفن في حليتين قيمتهما ألف مثقال من الذهب . ومن يقرأ أخبار قوافلهم التجارية يخيل إليه أن مكة كانت قافلة كبيرة مقيمة تخرج منها القوافل إلى الجنوب والشمال والشرق ، ودعاهم ذلك إلى أن يعقدوا معاهدات بينهم وبين القياصرة والنجاشيين والأكاسرة . كما دعاهم إلى عقد معاهدات بينهم وبين القبائل التي كانوا يعبرون بها في طرقهم التجارية^(١)

قال ابن هشام : النضر هو قريش فمن كان من ولده فهو قريش ، ومن لم يكن من ولده فليس من قريش ويقال : نهر بن مالك هو قريش فمن كان من ولده فهو قريشي ، ومن لم يكن من ولده فليس بقريشي وهذا القولان قد حكاهما غير واحد من أئمة النسب كالشيخ ابن عمر بن عبد البر ، والزيير بن بكار ومصعب وغير واحد .

روى البخاري من حديث كليب بن وائل : قلت لربيبة النبي صلى الله عليه وسلم ، يعني (زينب بنت أبي سلمة) في حديث ذكره : أخبريني عن النبي أكان من مضر ؟ قالت : نعم كان إلا من مضر من بني النضر بن كنانة^(٢) وقال الطبراني : حدثنا إبراهيم بن نائلة الأصبهاني ، حدثنا اسماعيل بن عمرو البجلي^٣ عن الحنسي الكندي قال : جاء قوم من كندة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : أنت منا . وأدعوه فقال : لا . نحن بنو النضر بن كنانة لانقفاً منا ولاننتفي من أبينا^(٣)

ارتبط التطور الحضري والسياسي في مكة بظهور قصي بن كلاب ، واليه ينسب المؤرخون كل التنظيمات التي تجاوزت الحياة القبلية ، ومهما كان من أمر فإن الحياة بقيت مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالقبيلة العربية بكافة أبعادها ، هذا الارتحال الذي تغير إلى رحلتي الشتاء والصيف والعيث في الخيام انقلب للعيث في بيوت وشعاب ودرج عرفت في مكة ، وتعتبر خطوات قصي بن كلاب

(١) تاريخ الادب العربي - ص ٥١ - ٥٢ (٢) البخاري ١٣٢ / ٢

(٣) السيرة النبوية - ابن كثير ٨٤ / ١

التي شملت دقائق الحياة في مكة ، والتزمت به قريش ان يفرض هذا التنظيم في وقت كان قادرا بقوته الحربية أن يقنع من أقام في مكة من خزاعة أو من قريش الظواهر بدئل هذه الاصلاحات ولقد عدّ كثير من المؤرخين الغربيين تنظيمات قصي بن كلاب بأنها أول جمهورية اقيمت في الجزيرة العربية واعتبرها النثيرون خطوة رائدة في مضمار الديمقراطية والحياة الاجتماعية . ولكن هذا جميعه ينبغي أن لا يجعلنا نبالغ مبالغة (لامنسى) فنظن ان مكة كانت جمهورية بالمعنى التام للجمهورية . فمع نمو العلاقات التجارية والاقتصادية فيها كانت مجتمعاً قبلياً ، فهو لا يحد واتحاد عشائر ارتبط بعضها ببعض في حلف لغرض سدانة الكعبة من جهة والقيام على تجارة القوافل من جهة اخرى ، ولا سلطان لعشيرة على عشيرة ، بل كل عشيرة تتمتع بالحرية التامة ، ولا طاعة عليها لأحد ، وكل ما هنالك ان اشتراكهم في مصلحة واحدة خفف من غلواء هذه الحرية ، ولكنه تخفيف لا يخرج بنظام الجماعة القرشية عن النظام المعروف بالقبائل الجاهلية . ووجود (ملاً) فيها ، أو مجلس شيخ لا ينقص هذه الحقيقة ، اذا لم يكن عمله يعد وعمل مجالس القبائل ، فقد كان في كل قبيلة مجلس يتكون من رؤساء العشائر ، ينظر في شؤونها حسب قوانين العرف والعادة .

ولكنه لم يقنع على حرية الفرد ، فقد كان الفرد متمتعاً بحريته مع شعوره بحقوق الجماعة ، أو حقوق القبيلة ، وهذا هو النظام الذي كان سائداً في مكة قبل الإسلام ، فللفرد حرته ، وللجماعة عليه حقوق لا تتناقض مع الحرية (١)

وانا كان عمرو بن لحي أول من تداول المؤرخين اسمه في تاريخ مكة بعد إسماعيل وابنائهم من عدنان ومضر باعتباره قد حفر التوحيد الذي جاء به إبراهيم واسماعيل عليهما السلام . فان قصي بن كلاب يطغى بذكره على من سبقه من أجداده عدا إسماعيل عليه السلام الذي شيد البيت الحرام مع أبيه إبراهيم .

وتاريخ مكة الحقيقي يبدأ من أيام قصي بن كلاب بن مرة القرشي الذي تولى أمر مكة حوالي منتصف القرن الخامس الميلادي ، أما قبل ذلك فليس لدينا ما نعتد عليه في إثباته أو نفيه . غير روايات الاخباريين وهم إسلاميون أو مخضرمون ، والعدة البعيدة بينهم وبين هذه العهود ، بخلاف الأمر في حالة قصي وقبيلة قريش التي استدرت في مكة ونهضت بها وجعلت منها مدينة ذات مركز اقتصادي وديني وأدبي ممتاز ، وأصبحت في عهد ما تتمتع بتوجيه عربي عام في أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع حتى ظهور الإسلام ، وبين قصي وظهور الإسلام مدة لا تزيد عن مائة وخمسين عاماً ، وهي مدة كانت حال قريش فيها متصلة بمكة (٢)

وقصي اسمه " زيد " وانما قيل له قصي لان أباه كلاب بن مرة كان قد تزنى (أم قصي) فاطمة

(١) تاريخ الادب العربي - ضيف ص ٥٢ (٢) مكة - ابوالفضل ص ٤٤ . السيرة النبوية -

بنت سعد بن سَيْل — واسم سَيْل خَيْرِ بْنِ مَالِه بن عوف بن غَنَم بن عامر الجاد بن عمرو بن جُحَشْمَة بن يشكر من (ازد سنوَة) حلفاء بني الديل فولدت لكلاب زهرة وزيدا • فهلك كلاب وزيد صغير وقد شب زهرة وكبر فقدم ربيعة بن حرام بن ضَبَّة بن عبد بن كبير بن عذرة بن سعد بن زيد أحد قُضاعة فتزوّج فاطمة أم زهرة وقصّي • وزهرة رجل قد بلغ، وقصّي فطيم أو قريب من ذلك فاحتملها إلى بلاده من أرض عُدْرَه من أشرف السَّام ، فاحتملت معها قُصياً لصخره ، وتخلّف زهرة في قومه ، فولدت فاطمة بنت سعد بن سَيْل لربيعة بن حرام راح بن ربيعة فكان أخاه لأنه ، وكان لربيعة بن حرام ثلاثة نفر من امرأة اخرى •

وشب زيد في حجر ربيعة بن حرام فسوّى زيد (قُصياً) لبعده داره عن دار قومه • ولم يبع زهرة مكة (١) • وعلم قصي بنسبه من أحد قُضاعة الذين عيروه بأنه في غير أهله قرر العودة إلى مكة إلى أهله ونسبه ، وفعلا عاد إلى مكة حاجّاً ، فلما فرغ من الحج أقام في مكة ، وكان رجلاً جليداً نسيباً فخطب إلى خَلِيل بن حُبَشية الخزاعي ابنته (حُبى) فرغب فيه حليل فزوجه ، فولدت له عبد الدار وعبد مناف وعبد العزى وعبدا (٢) • فأما خزاعة فزعم أن حليلاً أوصى إلى قصي بولاية البيت لما رأى من كثرة نسله من ابنته وقال : أنت أحق بذلك مني (٣) وحليل فيما يزعمون يومئذ يلي الكعبة وأمر مكة •

فرأى قصي أنه أولى بالكعبة وأمر مكة من خزاعة وبني بكر ، وأن قريشاً قرعة إسماعيل بن إبراهيم ، وصريح ولده ، فكلّم رجلاً من قريش وبني كنانة ودعاهم إلى إخراج خزاعة وبني بكر من مكة فأجابوه (٤) قال ابن اسحاق : ولم نسمع ذلك إلا منهم ، وأما غيرهم فإنهم يزعمون انه استعان بإخوته من أمه وكان رئيسهم رباح بن ربيعة وإخوته ، وبني كنانة وقضاعة ومن حول مكة من قريش وغيرهم فأجلاهم عن البيت ، واستقل هو بولاية البيت لأن إجازة الحجيج كانت إلى (صوفة) وهم بنو الغوث بن مر بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر ، فكان الناس لا يرمون الحجارة * الجمار * حتى يرموا ولا ينفرون من بني حتى ينفروا ، فلم يرل كذلك فيهم حتى انقرضوا (٥)

وقال هشام في خبره : قدم قصي على أخيه زهرة وقومه فلم يلبث أن ساد ، وكانت خزاعة بمكة أكثر من بني النضر ، فاستجد قصي أخاه رباحاً وله ثلاثة أخوة من أبيه من امرأة أخرى فأقبل بهم ومن أجابه من إحياء قُضاعة ، ومع قصي قومه بنو النضر فنغوا خزاعة ، وتزوج قصي (حُبى) بنت حليل بن حبشية من خزاعة فولدت له اولاده الاربعة : وكان (حليل) آخر من ولى البيت فلما ثقل ، جعل ولاية البيت إلى ابنته (حُبى) فقالت : قد علمت اني لأقدر على فتح الباب واغلاقه

(١) الطبرى — تاريخ ٢٥٥ / ٢ • البداية والنهاية — ابن كثير ٢٠٥ / ٢ فما بعد

(٢) السيرة النبوية — ابن هشام ١٢٣ / ١ • الطبرى — تاريخ ٢٥٥ / ٢

(٣) البداية والنهاية — ابن كثير ٢٠٥ / ٢ والطبرى — تاريخ ٢٥٥ / ٢

(٤) السيرة النبوية — ابن هشام ١٢٤ / ١

(٥) البداية والنهاية ٢٠٦ / ٢

قال : فاني أجعل الفتح والإغلاق إلى رجل يقوم به ، فجعلته إلى أبي فُبْشان وهو سليمان بن عمرو بن بوي بن ملكان بن أفضى - فاشتري قصي ولاية البيت منه بزقّ خمر ومعدود ، فلما رأته ذلك خزاعة كثروا على قصي فاستنصر أخاه ، فقاتل خزاعة فبلغنا - والله اعلم - أن خزاعة أخذتها العدسة حتى كادت تقتنيهم ، فلما رأته ذلك جلّت عن مكة ، فعنهم من وهب مسكهم ، وعنهم من باع ، وعنهم من أسكن . فولّي قصي البيت وأمر مكة ، والحكم بها وجمع قبائل قريش فأنزلهم أبطح مكة وكان بعضهم في الشّعاب ورؤوس جبال مكة ، فقسّم منازلهم بينهم ، فسمي مُجمَعاً ، وله يقول مطرود وقيل :
قائله حذافة بن غانم :

أَبُوكُمْ قَصِيٌّ كَانَ يُدْعَى مُجْمَعًا بِهِ جَمَعَ اللَّهُ الْقَبَائِلَ مِنْ نَهْرٍ (١)

وقد وصف المؤرخون الحروب التي قامت بين قصي وخزاعة بشي* من التفصيل والتحكيم الذي كان لسالِح قصي على خزاعة ويكر (٢) ، ويجمع المؤرخون على أن قُصياً هذا من ولد إسماعيل عليه السلام فهو قصي (٣) بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر ابن كنانة ابن خزيمه بن مدركه بن الياص بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان بن أدد . وان كانوا يختلفون في أسماء العترة حتى إسماعيل ، ولعل أرجح سلسلة الأناساب التي تقول ان عدنان هو ابن أديد بن زئد بن يري بن أعراق الثزى ، وأما يرى فهو نبت أو (بنايوت) ، وأما أعراق الثزى فهو إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام . وإلى هذا يشير الحديث الشريف : اختار الله من ولد إسماعيل كنانة ، واختار قريشا من كنانة ، واختار بني هاشم من قريش واختارني من بنسي هاشم فأنا خيار من خيار

قال ابن اسحاق : فولّي قصي البيت وأمر مكة ، وجمع قومه من منازلهم إلى مكة ، وتملك على قومه وأهل مكة فملكوه الا أنه أقر للعرب ما كانوا عليه وذلك كان يراه ديناً في نفسه لا ينبغي تغييره ، فأقر آل صفوان ، وعدوان والنساء ومرة بن عوف على ما كانوا عليه حتى جاء الإسلام فهدم الله به ذلك كله فنكح قصي أول بني كعب بن لؤي أصاب ملكاً أطاع له به قومه (٥)

ومع قريش التي عاشت وأقامت في مكة ونبت البيوت وتملكت الشعاب قوة أخرى كبيرة كانت تعيش عيشة البداوة خارج مكة وهم الأحابيش . ذكر أهل الاخبار انهم حلفاء قريش وهم بنو المصطلق والحياة بن سعد بن عيمرو وبنو الهنون ابن خزيمه ، اجتمعوا بذيئ حبشي وهو جبل بأسفل مكة .

(١) السيرة النبوية - ابن هشام ١/١٢٤ - الطبري - تاريخ ٢/٢٥٦

(٢) البداية والنهاية - ابن كثير ٢/٢٠٦ وما بعدها . السيرة الحلبية ١/٨

(٣) تذهب المراجع العربية إلى أن قصيا إنما كان على أيام العنذر بن النعمان ملك الحيرة (٤١٨ - ٤٦٢م) ومهران ملك الفرس (٤٢٠ - ٤٣٨) ويرى (وليم مير) في كتابه محمد انه ولد حوالي عام ٤٠٠م وولده عبد مناف حوالي ٤٢٠م وولد هاشم حوالي ٤٦٤م ولد عبد المطلب والد محمد فحوالي ٥٤٥م . دراسات في تاريخ العرب - مهران حاشية ص ٤٠٠

(٤) البداية والنهاية - ابن كثير ٢/٢٠٠ فما بعد

(٥) دراسات في تاريخ العرب - مهران ص ٤٠٠ - ٤٠١ . السيرة الحلبية - علي الحلبي ١/٨

فتحالفوا بالله : انا ليدُّ على غيرنا ماسجا ليل وأضح نهار ، وما أرى حبشي مكانه ، وقيل إنما سُموا بذلك لاجتماعهم ، والتحابش باللغة ، هو التجمع في كلام العرب (١)

وقد بحث لامانس في موضوع الاحابيش فرأى أنهم قوة عسكرية ألفت من العبيد السود المستوردين من أفريقيا من عرب مرتزقة ، كونتها مكة للدفاع عنها ، وقد بحث مستشرقون آخرون في هذا الموضوع ، فمنهم من أيدته ، ومنهم من توسط برأيه ، ومنهم من أيد الرواية العربية المتقدمة التي ذكرتها ، وعندى رأى آخر قد يفسر لنا سبب تسمية (بني الحارث بن عبد مناه) من كنانة ومن ايدها من (بني المصطلق) ، وبني الهنون بالأحابيش ، هوان تكون هذه التسمية قد وردت اليهم من أجل خضوعهم لحكم الحبش ، وذلك قبل الاسلام بزمن طويل ، وهوان الساحل الذي ذكره (بطليموس) باسم CINAEDOCOLPITAE (انما هو ساحل تهامة وهو منازل (كنانة) ، وقد بقي الجيش به وقتا طويلا ، واختلطوا بسكانه فيجوز ان يكون لفظه (الأحابيش) قد لحقت بعض كنانة من خضوعهم للحش حتى صارت اللفظة لقباً لهم ، أو علماً لثانة ومن حالفها • ويجوز ان تكون قد لحقتهم ولحقت الاخرين معهم لتمييزهم عن بقية (كنانة) ومن انضم اليهم ممن سكن خارج تهامة ولتزوج قسم منهم من نساء حبشيات حتى ظهرت السمرة على سحنهم (٢)

وقد وقف الاحابيش مع قريش في حروبها للمسلمين حتى فتح مكة ، وكان الاحابيش يدارون من قبل زعمائهم الذين وردت اسمائهم في التاريخ الاسلامي ، وكان لهم رأى منفصل تماما عن آراء الآخرين . (٣)

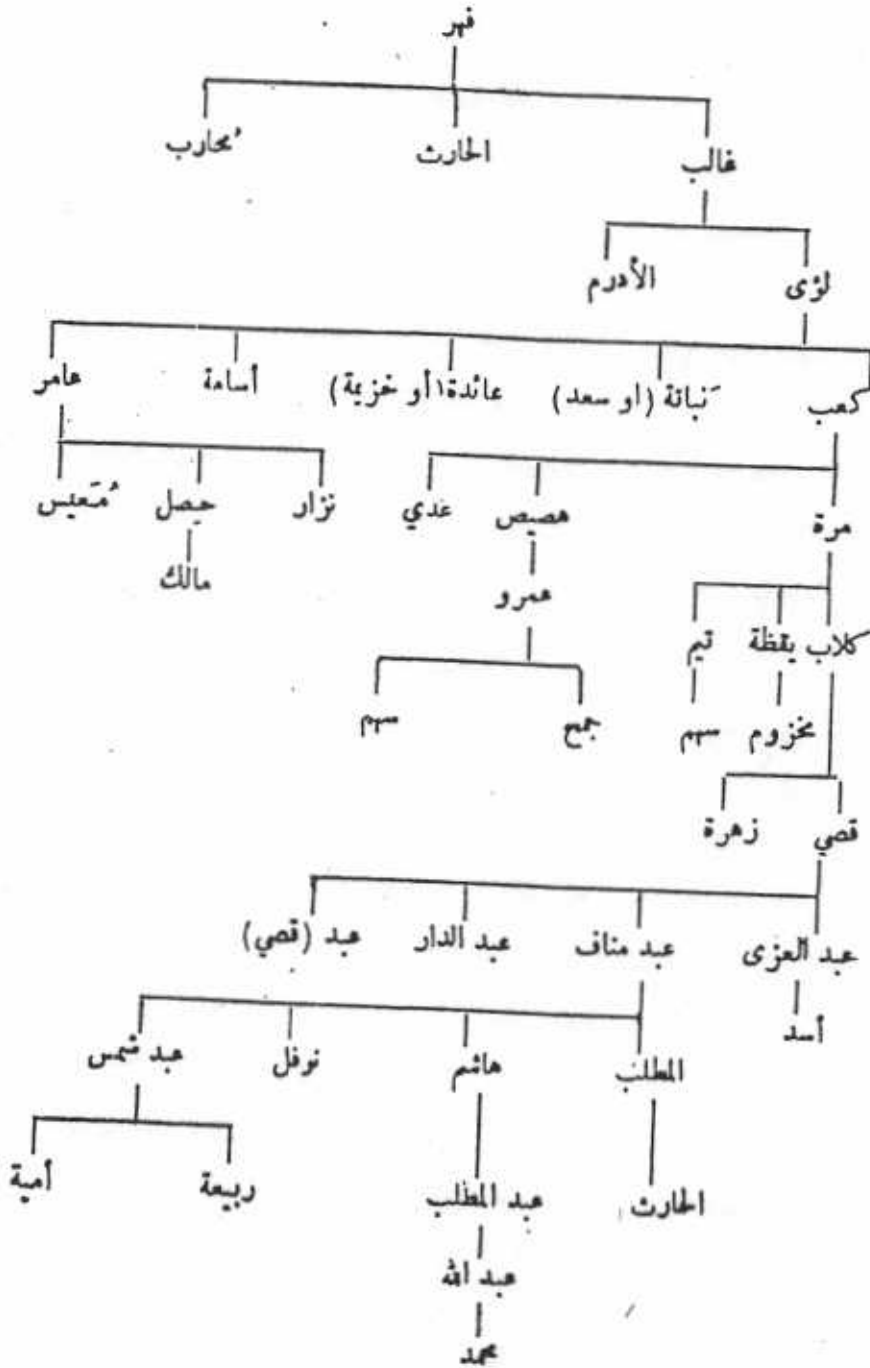
حكومة قصي بن كلاب واصلاحاته :

انفردت مكة من بين سائر العرب بنظام خاص بها لم يسر عليها أحد من العرب أو يأخذ به ، ومع غلبة الحياة القبلية التي كانت واضحة في تاريخ مكة إلا ان تنظيمات قصي أعطت لمكة نموذجاً وحياة خاصة شجعت الكثير من المؤرخين الغربيين على إضافة بعض الصفات المعروفة في أنظمة الحكم قديماً أو حديثاً ، كما ان بعضاً من المؤرخين العرب قد انجرفوا هذه التسميات التي استهوتهم لوجود بعض التشابه بين ما أحدثه قصي وسارت عليه قريش ، وبين بعض الأنظمة أو الحكومات المعروفة في القديم والحديث • ولا يعيننا في هذا المقام مناقشة هذه الآراء وتشبيها بعضها ونقض البعض ، ولكن المعنى هو الوقوف على تفصيلات هذه الحياة لما كان لها من تأثير واضح في حياة العرب قبل الاسلام الذين أقروها وخضعوا لها في مكة ، ولكن لم يأخذوا مدرهم وحضرم بها - لعل كل التنظيمات كانت مرتبطة بالحج ويوفود العرب إلى مكة حاجين ومتاجرين ومعتمرين وتابرى سبيل - وهذا هو الذي جعل مكة تتفرد بين العرب بهذا الحال الذي سيره تفصيله •

(١) جواد علي - تاريخ ٤ / ٢٠٤ (٢) جواد علي - تاريخ ٤ / ٢٢٢ تاريخ العرب

القديم - عاقل ٢٤٦ - ٢٥٢

(٣) الطبري - تاريخ ٢ / ٢٥٩ ابن هشام - السيرة النبوية ١ / ١٢١ • السيرة النبوية =



ويذكر الاخباريون ان قصيا بعد أن تمت له الخلبة جمع قومه من الشعاب والجبال والأودية إلى مكة فسمي لذلك مجعما ، وانه حكم منذ ذلك الحين فيهم ، وملك عليهم ، فكان قصي أول ولد كعب بن لؤي أصاب ملكا ، وأطاعه قومه به ، وأنه قسم مكة أرباعاً بين قومه فبنوا المساكن وان قريشا هابت قطع شجر الحرم في منازلهم فقطعها قصي بيده ، فأعانوه ، وانها تيمنت به ، فكانت لاتعقد أمراً ولا تفعل فعلاً إلا في داره . وما تدرع جارية إذا بلغت ان تدرع من قريش إلا في داره يسئ عليها رعبها ثم تدرعه ، ثم ينطلق بها إلى أهلها ، فكان أمره في قومه من قريش في حياته وبعد موته نالديسن المتبع ، لايعمل بغيره تيمناً بأمره ومعرفة بفضلته وشرفه ، واتخذ قريش لنفسه دار الندوة . وجعل بابها إلى مسجد الكعبة ففيها كانت قريش تقضي امرها .

وقالوا : ان قريشا كانوا إذا أرادوا إرسال غيرهم فلا تخزن ولايرحلون بها إلا من دار الندوة ولايقدمون إلا نزلوا فيها تشريفا له ، وتيمنا برأيه ، ومعرفة فضله ، ولايعذر لهم غلام الا في دار الندوة ، وكانت اليه الحجابة والسقاية والرفادة واللواء والندوة ورحم مكة وكان يعشر من دخل مكة سوى أهلها (١)

ودار الندوة هي دار مشورة في أمور السلم والحرب ومجلس المدينة يديرها (العلماء) وهم مثل أعضاء مجلس شيخ (أئينا) . وقد ذكر ان دار الندوة لم يكن يدخلها إلا ابن أربعين أو مازاد وقد دخلها أبو جهل ابن ثلاثين لجودة رأيه ودخلها غيره للسبب نفسه — ويظهر من دخولها الإسهام بإبداء الرأي — ولما كانت سن الاربعين في نظر العرب هي سن النضج والكمال أخذوا بمبدأ تحديده باعتباره الحد الاصغر سن من يسمح له بالاجتماعات وابداء الرأي . فدار الندوة هي اذن دار (ملا) مكة وهم ساداتها ووجوهها وأشرافها وأولو الامر فيها . ولم تكن (برلمانا) او "مجلس شيخ" على النحو المفهوم من اللفظتين في المصطلح السياسي وانما كانت دار (أولي الشورى) و (الرأى) ، لم تكن قراراتها ملزمة ، بل كان يخالفها سيد ذورأى ومكانة فينفرد برأيه ، ولايحصل الإجماع إلا باتفاق ، والغالب ألا يحصل هذا الاتفاق . والغالب ان العلماء لايتخذون رأيا إلا بعد دراسة وتفكير ومفاوضات يراعى فيها جانب المرأة والحلم والمرونة حتى لايقع انشقاق قد يعرض الأمن إلى الاهتزاز . فالحكم في مكة اذن حكم لامركزي ، حكم رؤساء وأصحاب جاه ونفوذ ومنزلة تطاع فيها الأحكام وتتفد الأوامر ، لاجود لحكومة قوية مركزية مهيمنة لها سلطة على اهل مكة ، بل لان الأحكام والأوامر هي أحكام ذوى الرجاهة والسن والرئاسة والشرف (٢)

(١) جواد علي — تاريخ — ٤ / ٤٤٤ الطبقات الكبرى — ابن سعد ١ / ٧٠ ، السيرة النبوية —

ابن هشام ١ / ١٣٢

(٢) جواد علي — تاريخ — ٤ / ٤٨ بتصرف

ولم يكن في مكة حكومة مركزية بالمعنى المعروف المفهوم من الحكومة ، فلم يكن هناك ملك متنى وله عرش ولا رئيس واحد يحكمها على أنه رئيس جمهورية أو مدينة ، ولا مجلس رئاسة يحكم المدينة حكماً مشتركاً أو بالتناوب ولا حكم مدني عام أو حكم عسكري ، ولم يتحدث أهل الاخبار عن وجود مدير عام فيها واجبه ضبط الأمن أو مدير له سجن يزين فيه الخارجين عن الأنظمة والقوانين أو ماشابه ذلك من وظائف نجدها في الحكومات ، وكل أمرها أنها قرية تتألف من شعاب كل شعب لعشيرة وأم كل شعب لرؤسائه هم وحدهم أصحاب الحل والعقد والنهي والتأديب . ولقد أشير إلى رؤساء مكة في القرآن الكريم " وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَيَّ رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ " (١) يقابل عظماء مكة عظماء الطوائف وساداتها ولو أن الطوائف كمة من حيث التنظيم عدا ما يرتبط بمكة من شعائر وحج ، وقد توارث بنوعيد الدار الندوة حتى باعها (عكرمة بن عامر بن هاشم) من معاوية فجعلها دار الإمارة في مكة ثم أدخلت الحرم (٢) . وذكر أن قصيا أول من بنى الكعبة بعد بناء تبع . وكان سمكها قصيرا فنقضه ورفعها (٣) . وهو أول من أظهر الحجر الأسود وكانت ايداد قد دفنته في جبال مكة فرأته امرأة حين دفنوه فلم يزل قصي يتلطف بتلك المرأة حتى دلته على مكانه فأخرجه من الجبل واستمر عند جماعة من قريش يتوارثونه حتى بنت قريش الكعبة فوصفوه بركن البيت بإزاء باب الكعبة - المركز الشرقي .

وذكر أن قصيا عندما تمكن من مكة حطربها بئرا سماها العجول ، وهي أول بئر حفرتها قريش (٣) وذكر أهل الأخبار أن في جملة ما أحدثه قصي في أيامه وصار سنة لاهل الجاهلية ، أنه أحدث وقود النار بالمزلفة ، حيث وقف بها حتى يراها من دفيج من عرفه ، فلم تنزل توقد تلك النار تلك الليلة في الجاهلية ، ويظهر أن قريشا حافظت على هذه السنة أمدأ في الإسلام . وكانت تلك النار توقد على عهد رسول الله وأبي بكر وعمر وعثمان (٤)

(٥) وقد كان من جملة ما فعله قصي بالحجابه وهي أن تكون مفاتيح البيت عنده فلا يدخله أحد الا بإذنه وقد أوصى قصي بالحجابه لابنه عبد الدار وكان بكره ، وكان عبد مناف قد شرف في زمان أبيه وذهب كل مذهب وعبد العزى وعبد . قال قصي لعبد الدار (اما والله) يا بني لأحقنك بالنسب وإن كانوا قد شرفوا عليك لا يدخل رجل منهم الكعبة حتى تكون أنت تفتحها (٦) والسقاية : يعني سقاية زمزم وكانوا يصنعون بها شرابا في الموسم للحجاج الذي يوافي مكة ، ويخرجونه تارة بالعسل وتارة بلبن وتارة بنبيد يتطوعون بذلك من عند أنفسهم .

(١) سورة الزخرف آية ٣١

(٢) ابن سعد - الطبقات ١/ ٧٧ . الكامل - ابن الاثير ٢/ ١٤ . الاحكام السلطانية ص ١٦٤ جواد علي - تاريخ ٤/ ٥٠ (٣) فتح البلدان - البلاذري ص ٥٥ جواد علي - تاريخ ٤/ ٥٣ (٤) الطبرى - تاريخ ٢/ ٢٥٧ . ابن الاثير - الكامل ٢/ ١١ . ابن كثير - تاريخ ٤/ ٢٠٧ الطبقات - ابن سعد ١/ ٧٢ (٥) ابن هشام - السيرة النبوية ١/ ١٣١ (٦) الكامل - ابن الاثير ٢/ ١٠٦ جواد علي -

والرفادة: طعام كانت قريش تجمعه كل عام لأهل الموسم ، ويقولون هم أضياف الله تعالى (١) . وكانت الرفادة خرجا تخرجه قريش في كل موسم من أموالها إلى قصي بن كلاب ، فيصنع فيه طعاما للحاج فيأكله من لم يكن له سعة ولا زاد ، وذلك أن قصيا فرضه على قريش فقال لهم حين أمرهم بـه يامعشر قريش إنكم جيران الله وأهل بيته وأهل الحرم ، وإن الحاج ضيف الله وزوار بيته ، وهم أحق الضيف بالكرامة ، فاجعلوا لهم طعاما وشرابا أيام الحج حتى يصدروا عنكم . ففعلوا فكانوا يخرجون لذلك كل عام من أموالهم خرجا فيدفعونه إليه فيصنعه طعاما للناس أيام منى ، فجرى ذلك من أمره في الجاهلية على قومه حتى قام الاسلام ، فجرى في الاسلام الى يومك هذا - زمن المؤلف - فهو الطعام الذي يصنعه السلطان كل عام بمعنى للناس حتى ينقضي الحج (٢) ومما أحدثه قصي اللوا : وهو ان يعقد في بيته أثناء الحرب ، واللوا هو الراية التي تعقد فيجتمع اليها المحاربون ، ويسلمها قصي لمن يتولى القيادة العامة وهي قيادة الجيش عند الحرب ، وقد يتولاها بنفسه أو ينيب عنه من يتولاها ، وهاتان الوظيفتان كانتا موجودتين في تنظيم القبيلة العربية ، فشيخ القبيلة هو الذي يعلن الحرب على القبائل الأخرى ، ويدعو المحاربين إلى الإجتماع كما أنه يقود القبيلة في حروبها أو ينيب عنه من يقودها ، وكل ما استحدثته قريش في هذه الناحية أنها وكلت أمر هذه الوظائف الى عشائر معينة تتوارثها ، وذلك لأنه لم يصبح لقريش بعد موت قصي زعيم عام ترجع اليه القبيلة ، وانما أصبح يحكمها الملأ وهم رؤساء العشائر الذين اعتبروا أنفسهم متساوين من حيث المبدأ واقتسموا المناصب بينهم (٣)

واللوا: من الوظائف التي دفعها قصي أيضا لابنه عبد الدار في جملة ما دفع له من وظائف وقال له: لا يعقد لقريش لوا لحربها إلا أنت بيدك .

قال الحسن : فجعل إليه - إلى عبد الدار - قصي كل ما كان بيده من أمر قومه ، وكان قصي لا يخالف ولا يرد عليه شيء صنعته (٤)

هذه هي المناصب الرئيسية السدانة ، الحجابة ، الرفادة ، المقاية ، واللوا ، القيادة ، ودار الندوة التي برزت في عهد قصي ، والتي اقتسمها بعد ذلك أبناء عبد الدار وأبناء عبد مناف ابن قصي ، ولكن تطلع البطون القرشية الى التقدم والمشاركة في شؤون مكة ، وحرص الملأ على وحدة القبيلة وإرضاء العشائر أدى إلى أن يستخدموا عشر وظائف أخرى هي :

١ - العمارة : وهي مراعاة الأدب والوقار في البيت الحرام ، فلا يتكلم فيه بهجر ولا رفث ولا ترغ

(١) ابن هشام - السيرة النبوية ١ / ١٣١ . (٢) ابن هشام - السيرة النبوية ١ / ١٤٢ .
جواد علي - تاريخ ٤ / ٥٩٠ - الكامل - ابن الأثير ٢ / ١٤٠ - ابن كثير - البداية والنهاية ٢ / ٢٠٩ - مكة - أبو الفضل ٥١ - الطبري - تاريخ ٢ / ٢٥٩

(٣) مكة - أبو الفضل ٥٩ (٤) السيرة النبوية - ابن هشام ١ / ١٢٦ - ١٢٢

فيه الاصوات .

٢ - الحجابة : وهو قفل البيت الحرام وفتحها للزائرين .

٣ - المشورة : وهي انهم لا يجتمعون على امر حتى يعرضوه على صاحبه

٤ - الأستاق : وهو جمع الاموال الخاصة بالديار والمغارم والقيام على ادائها

٥ - القبة : وهي خيمة تجمع فيها أسلحة الجيوش (عند بدء الحرب وعند الإنتهاء منها) .

٦ - الأغمه : وهي قيادة الخيل (والأخرى قيادة الفرسان في الحروب) .

٧ - السفارة : وهي الاتصال بالقبائل الأخرى في المناظرات والمفاوضات وعقد الأحلاف

٨ - الأيسار : وهي الأزام يضرب بها عند هبل كبير الاصنام في جوف الكعبة

٩ - الحكومة : وهي الفصل في المناظرات والخصومات .

١٠ - الاموال المحجرة : وهي الاموال المسماة للآلهة (١)

وهناك وظائف اخرى لاتعيرها المصادر اهتماما كبيرا رغم أنها أيضاً من مظاهر السيادة في مكة وتتعلق بالبيت الحرام ، وتنظيم العبادة فيه ومنها هاتان الوظيفتان :

١ - النسي : وهي وظيفة تتعلق بتحديد الأشهر الحرم الأربعة التي يحرم فيها الحرب والقتال وسود السلم والأمن ، لما لهذه الأشهر من أهمية في انتقال القبائل من أماكن سكناها إلى مكة لأداء مناسك الحج والأشهر الحرم عند قريش هي : ذو القعدة وذو الحجة ومحرم وصفر . كان شهر المحرم هو شهر الحج وشهر صفر هو شهر العمرة (٢)

ومعروف ان العرب كانت تستخدم التقويم القمري ، وتختلف الشهور في هذا التقويم عن التقويم الشمسي مما يخل بحلول الأشهر في مواعيد فصلية معينة ، وبالتالي مما يخل برحلتى الشتاء والصيف التجاريتين المعروفتين .

٢ - الإجازة : الإجازة لغة هي الأفاضة ، وكمنصب من المناصب التي تتعلق بشؤون الكعبة والحج إليها ، فهي مرتبطة بأب (الغوث بن مر بن إد بن طابخة بن إلياس بن مضر الذي كان يلي أمر

(١) مكة - أبو الفضل ص ٥٩ - ٦٠

(٢) لقد ابتعد المؤلف عن الصواب مرتين ، مرة عندما قال بأن صفر من الأشهر الحرم بدلا من رجب

وقال عنه بأنه شهر العمرة ، ومرة ثانية أكبر من أختها باعتباره محرم شهر الحج ومعروف ان شهر الحج هو ذو الحجة وليس محرم ، وجعل الحج في ذي الحجة وحرم مع ما قبله وما بعده ليتمكن الناس من الوصول من ديارهم والعودة إليها . قال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل ، أخبرنا أيوب ، أخبرنا محمد بن سيرين عن أبي بكر أن النبي صلى الله عليه وسلم خطب في حجة الوداع فقال : ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ثلاث متواليات ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان ١٠٠ الحديث في ظلال القرآن الكريم - سيد قطب ٣ / ١٦٥٠ ابن كثير - تفسير ٢ / ٣٦٢ مجمع البيان -

الطبرسي ٥ / ٢٧ ص ٢٥٥ ولعل المؤلف قد وقع في الخطأ من جراء النسي الذي يتحدث عنه وهو تحريم شهر رجب لأن يحرم صفر بدلا من محرم وذلك لغاية معروفة في نفوس طوائف العرب بدليل قوله تعالى : (النسي زيادة في الكفر) (سورة التوبة آية ٣٧)

الإجازة للناس بالحج من عرفة ، وقد تولى هذا المنصب أولاده من بعده (١) بعض هذه الاعمار قد ظهرت بعد وفاة قصي ، وقد دعت الحاجة إليها ، وبعد ظهور عدد كبير من رؤساء العشائر أرادوا أن يكون لهم شرف في قريش . وقد ذكر أن قصياً أول من أصاب الملك من قريش من ولد اسماعيل ، وقد ترك قصي أثراً كبيراً في أهل مكة وعدوه المؤسس الحقيقي لكيان قريش . وكانوا يذكرون اسمه دائماً بخير ، وكانوا لا يطيقون سماع أحد يستهين بشأنه ، فلما تناول الشاعر عبد الله بن الزعري على ما جاء في بعض الروايات ، وتجاوز حده بذكر قصي بسوء في شعره كتبته كما يقولون في ستار الكعبة . غضب بنو عدنان واستعدوا عليه بني سهم لأنه كان منهم فأسلموه إليهم ، فضربوه ، وحلقوا شعره ، ورمطوه في صخرة ، فاستغاث قومه فلم يخشوه ، فجعل يمدح قصياً ويسترضيهم فأطلقه بنو عبد مناف وأكرموه فمدحهم بأشعار كثيرة (٢) ويذكر الاخباريون أنه كان لقصي أربعة أولاد ، وردوا أقوالاً زعموا أنه قالها ، فقد ذكروا أنه قال (ولد لي أربعة ، سميت اثنين بصمعي ، وواحداً بداري ، وواحداً بنفسي) وكان يقال لعبد مناف (القمر) واسمه (العنبرة) وكانت أمه هبي دعتة الى مناف ، وكان أعظم أصنام مكة تدنياً بذلك فغلب عليه عبد مناف . وعبد الله وهو عبد الدار وعبد العزى وعبد قصي ، وهند بنت قصي تزوجها (عبد الله بن عمار الحضرمي)

قال ابن اسحاق : ثم ان قصي بن كلاب هلك (٣) فأقام أمره في قومه وفي غيرهم بنوه من بعده فاختلفوا مكة رباعاً - بعد الذي قطع لقومه بها - فكانوا يقطعونها في قومهم ، وفي غيرهم وحلفائهم ويبيعونها ، فأقامت على ذلك قريش معهم ليس بينهم اختلاف ولا تنازع ، ثم إن بني عبد مناف بن قصي مما كان قصي جعل الى عبد الدار من الحجابة والسقاية والرفادة ، ورأوا انهم أولى بذلك منهم لسرهم عليهم وفضلهم في قومهم ، فتفرقت عند ذلك قريش ، فكانت طائفة مع بني عبد الدار يرون أن لا ينزع منهم ما كان قصي جعل إليهم ، فكان صاحب أمر بني عبد مناف (عبد شمس بن عبد مناف) وذلك أنه كان أسن بني عبد مناف ، وكان صاحب أمر بني عبد الدار (عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار)

فكان بنو أسد بن عبد العزى بن قصي ، وبنو زهرة ابن كلاب ، وبنو تميم بن مرة بن كعب ، وبنو الحارث بن فهر بن مالك ابن النضر مع بني عبد مناف وعرفوا بالمطيبيين .

وكان بنو مخزوم بن يقظة بن مرة ، وبنو سهم بن عمرو بن هصيص ابن كعب ، وبنو جهم بن عمرو بن هصيص

(١) تاريخ العرب القديم - عاقل ٢٤٢ وما بعدها (٢) جواد علي - تاريخ ٥٦/٤ - ٥٧

(٣) ودفن بالحجون ، وقد كانوا يذكرون قبره ويعلمونه (جواد علي - ٥٨/٤)

بن كعب ، وبنو عدي بن كعب مع بني عبد الدار وعرفوا بـ (الأحلاف) ، وخرجت عامر بن لوئ ومحارب بن فهر فلم يكونوا مع واحد من الفريقين •

وقامت الحرب بين الفريقين ، ولكن الناس تداعوا للصلح على أن يعطوا بني عبد مناف السقاية والرفادة وأن تكون الحجابة واللوا والندوة لبني عبد الدار ، كما كانت ففعلوا ورضي كل واحد من الفريقين بذلك وتحاجز الناس عن الحرب ، وثبت كل قوم من حالفوا ، فلم يزل على ذلك حتى جاء الله بالاسلام فلم يزد إلا شدة • قال صلى الله عليه وسلم : ما كان من حلف في الجاهلية فسوان الاسلام لم يزد إلا شدة (١)

وقد تواردت بنو عبد الدار اللوا فلا يعقد لقريش لواء الحرب إلا هم ، وهي وظيفة مهمة جدا لما للوا من أثر خطير في الحروب والمعارك في تلك الأيام ، ولهذا كانوا يتدافعون في الذود عن اللوا حتى لا يسقط على الأرض بسقوط حامله ، وسقوطه معناه نكسة معنوية كبيرة تسبب المحاربين تحت ظل ذلك اللوا ولما أسلم بنو عبد الدار قالوا : يا نبي الله اللوا إلينا ، فقال : الإسلام أوسع من ذلك فيبطل اللوا (٢)

وقد زاد كثيرون على إصلاحات قصي بن كلاب ، إذ يظهر من وصف الاخباريين لهاشم بن عبد مناف أنه كان تاجرا ، له تجارة مع بلاد الشام ، وأنه جمع ثروة من تجارته هذه حتى زعموا انه هو أول من سن الرحلتين لقريش رحلة الشتاء ورحلة الصيف ، وأنه كان صاحب (ايلاف قريش)

قال الشاعر : هُوَ الَّذِي سَنَّ الرَّحِيلَ لِقَوْمِهِ
رِحْلَ النَّيْتَاءِ وَرِحْلَةَ الْأَصْيَافِ

وقد فسر الجاحظ الإيلاف بأنه جعل فرضيه هاشم على القبائل لحماية مكة من الصعاليك ومن المتطاولين إذ قال : وقد فسره قوم بغير ذلك قالوا : ان هاشما جعل على رؤوس القبائل ضرائب يؤدونها إليه ليحمي بها أهل مكة ، فان ذنوبان العرب وصعاليك الأحياء وأصحاب الطوائف ، كانوا لا يؤمنون على الحرم ولا سيما ناس من العرب كانوا لا يرون للحرم حرمة ، ولا للشهر الحرام قدراً ، مثل طي وخشم وقضاة ويحس بلحارث بن كعب ، فينهم من ذلك إذ أن الإيلاف هون من تأليف قلوب سادات القبائل لصد هم عن التحرش بأهل مكة ، ومن التعرض بقوافلهم ، فألفهم هاشم وصاروا له مثل المؤلف قلوبهم في الإسلام • لاسيما وأن بين الإيلاف و(ألف) (ألف بينهم) (المؤلفة) صلة ، وان فيما قال الجاحظ عن هاشم من قوله : (شرك في تجارته رؤساء القبائل من العرب وجعل بينهم ربحاً) (٣)

وقيل ان اسم هاشم عمرو ، وكنيته ابو فضله وانما قيل له هاشم لانه أول من هشم الثريد لقومه بمكة واطعمه (٤) • وذلك أن قريشاً كانوا تجارا ، ولكن تجارنتهم كما يقول أهل الاخبار لم تكن تتجاوز مكة ، انما تقدم

عليهم الأعاجم بالسلح فيسترونها منهم ثم يتابعونها بينهم ويباعونها على من حولهم من العرب ،

(١) السيرة النبوية - ابن هنام ١/ ١٣٩ - ١٤٠ (٢) جواد علي - تاريخ ٤/ ٦٠

(٣) جواد علي - تاريخ ٤/ ٦٨ (٤) التامل - ابن الاثير ٢/ ٩

حتى ركب هاشم بن عبد مناف إلى الشام ، فكان يذبح في كل يوم شاة ، ويصنع حفنة ثريد ، ويجمع من حوله فيأكلون ، وكان هاشم من أجمل الناس وأغناهم ، فذكر ذلك لقيسر فدعا به فلما رآه وكلمه أعجب به ، فكان يبعث إليه في كل يوم فيدخل عليه ، ويحادثه ، فلما رأى نفسه تمكن عنده قال : أيها الملك : إن قومي تجار العرب فان رأيت ان تكتب لي كتابا تؤمن تجارتهم فيقدموا عليك بما يستطرف من آدم الحجاز وثيابه فتباع عندكم ، فهو أرخص عليكم . فكتب له كتاب أمان لمن يقدم منهم فأقبل هاشم بذلك الكتاب فجعل كلما مر بحي من العرب بطريقه عقد معهم عقدا على أن تقريش إليهم ما يرضيهم من بضائع وهذا يا تولف بينهم وبين قريش ، فلما الإيلاف ، فلما وصل إلى مكة كان هذا (الإيلاف) أعظم ماجاء به هاشم إلى قريش ، فخرجوا بتجارة عظيمة وخن معهم هاشم يجوزهم يوفيههم إيلافهم الذي أخذ من العرب حتى أورد هم الشام وأحلهم قراها ، فكان ذلك بدء (إيلاف قريش) (١)

ومن الأعمال العظيمة الهامة في التنظيمات السياسية لمكة والذي ذكر لها بخير في تاريخها بشهر رسولنا صلى الله عليه وسلم هو حلف الفضول ، وهو من الأحداث المهمة التي يذكرها أهل السيرة والأخبار في تاريخ مكة ، وإذا صح ما يذكرونه من أنه عقد بعد الفجار بشهر وفي السنة التي وقبر فيها هذا اليوم (يوم الفجار) والذي حضره الرسول صلى الله عليه وسلم وهو ابن عشرين سنة فان هذا الحلف يكون قد عقد حوالي سنة ٥٩٠ م (٢)

قال ابن هشام ، أما حلف الفضول فحدثني زياد بن عبد الله البكائي عن محمد ابن اسحاق قال : تداعت قبائل من قريش إلى حلف ، فاجتمعوا له في دار عبد الله بن جدعان ابن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي لشرفه وسنه فكان حلفهم عنده ، بنو هاشم بنو المطلب ، أسد بن عبد العزى ، زهرة بن كلاب ، تيم بن مرة فتعاقدوا وتعاهدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه ، وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلومه فسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول (٣)

قال ابن اسحاق : فحدثني محمد بن زيد بن المهاجر بن قنفذ التميمي أنه سمع طلحة بن عبد الله بن عوف الزهري يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد شهدت في دار عبد الله بن

(١) جواد علي - تاريخ ٦٦/٤ وما بعد الطبري - تاريخ ٢٥٢/٢ - السيرة النبوية - ابن هشام ١٤٣/١ - مجمع البيان - تفسير ٥٤٥/١٠ - في ظلال القرآن - سيد قطب ١٠٣٩٨٢/١ - ابن كثير - تفسير ٥٦١/٤ - صفة البيان - تفسير ٨٢٦

(٢) ابن سعد - الطبقات ١٢٨/١ - السيرة النبوية - ابن كثير ٢٥٧/١ - جواد علي - تاريخ ٨٧/٤

(٣) ابن هشام - السيرة ١٤١/١ - وعاشية بهامس السيرة ١٤٠/١ - يذكر في سبب تسمية هذا الحلف بهذا الاسم ان جرهما في الزمن الاول قد سبقت قريشا الى مثل هذا الحلف فتحالف منهم ثلاثة وهم ومن تبعهم احد هم الفضل بن فضالة والثاني الفضل بن وداعة ، والثالث لخصيصة بن الحارث فلما اشبه حلف قريش هذا حلف هؤلاء الجرهيميين سمي حلف الفضول .

جدعان جلفا ما أحب أن يجر النعم ، ولو ادعى بقاء الاسلام لأجبت (١)

وذكر أهل الأخبار أن الخاية التي أريد بها منه هي انصاف المظلمين من أهل مكة من الضعفاء والمساكين ومن لا يجد له عوناً ليحميه ويدافع عن حقوقه ، وانصاف الخرباء الوافدين على مكة ممن حجج أو تجار ممن يعتدى عليهم فيأخذ أموالهم أخذاً ويأكلها ولا يدفعها لأصحابها . فذكر أن رجلاً من زبيد من اليمن ، وكان قد باع سلحته له (العباس بن وائل السهمي) فمظله الثمن حتى يئس فعلا جبل قبيس وقريش في مجالسها حول الكعبة ، فنادى رافعاً صوته يشكو ظلامته ، ويطلب انصافه مستجيراً بقريش ، فمشت قريش بعضها إلى بعض ، وكان أول من سعى في ذلك الزبير بن عبد المطلب واجتمعت في دار الندوة ، وكان ممن اجتمع بها من (قريش) بنر هاشم ، وبنو عبد المطلب ، وزهرة وتيم وبنو الحارث فاتفقوا على أن ينصفوا المظلمين من الظالم ، وهكذا ذهبوا إلى دار عبد الله بن جدعان وتحالفوا هناك (٢) . ولا يخفى ان حروباً كثيرة قد وقعت بين قريش والقبائل الأخرى المحيطة بها ، ووقعت حروب بينها وبين بطونها ، وكما كان عند الليثيين أيام فجار ، كان لدى المكيين أيام فجار إذ أنهم حاربوا في الأشهر الحرم وبعضهم حضره الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يافع ينبل أعمامه (٣)

وقد خلصت الأعمال الهامة التي أوجدتها قسي بن كلاب أو استحدثت بعده إلى ما بعد ظهور الاسلام وكانت بيد كل من : ١ - العباس بن عبد المطلب من بطون هاشم وإليه كانت السقاية وتعي له ذلك في الاسلام .

- ٢ - أبو سفيان بن حرب - من بطون أمية : وعنده العقاب راية قريش فإذ اجتمعوا على أمر سلمها له وإلا فهو صاحبها وهذه هي وظيفة القيادة
 - ٣ - الحارث بن عامر - من بطون نوفل : وكانت إليه الرفادة
 - ٤ - عثمان بن لطعة - من بطون عبد الدار : وكانت إليه اللوا والسدانة والحجابة ويقال بأن الندوة أيضاً عندهم
 - ٥ - يزيد بن زعنة - من بطون اسد : وكانت إليه المشورة
 - ٦ - أبو بكر الصديق - من بطون تيم : وإليه كانت الاشعناق في الجاهلية (أي جمع الاموال)
 - ٧ - خالد بن الوليد - من بني مخزوم : وإليه كانت القبة والأعنة
 - ٨ - عمر بن الخطاب - من بطون عدى : وإليه كانت السفارة في الجاهلية
 - ٩ - صفوان بن أمية - من بطون جمع : وإليه كانت الايسار
 - ١٠ - الحارث بن قيس - من بطون سهم : وإليه كانت الحكومة والأموال المحجرة
- وقد بقيت هذه المناصب حتى فتح مكة حين ألغىها النبي صلى الله عليه وسلم جميعاً ما عدا السقاية وسدانة البيت وبعض هذه المناصب تفريغ لبعض الوظائف السابقة ، وبعضها ليست له قيمة كبيرة ،

(١) ابن هشام - السيرة النبوية ١/١٤١ - ١٤٢

(٢) جواد علي - تاريخ ٤/٨٢ . السيرة الحلبية - علي الحلبي ١/١٥٦

(٣) السيرة الحلبية - علي الحلبي ١/١٥٢ . ابن سعد - الطبقات الكبرى ١/١٢٨ .

جواد علي - تاريخ ٤/٨٥

على أنها جميعا من صميم التنظيم القبلي ، إلا ما كان منها متصلا بالكعبة والبيت الحرام ، ولم تكن هذه المناصب توكل إلى الأفراد ، وإنما كانت توكل إلى البطون ، وكل بطن يرشح لهذه الوظيفة من تكتمل له صفات الرياسة على ما كان يجري في النظام القبلي ، وإن الفصائل الشخصية هي الأساس في تولي مناصب الرياسة (١)

ولم يشرف مكان في الجاهلية والإسلام ما شرفت به مكة ، فمن موقع قاحل جاف غير ذي زرع إلى مهوى أفئدة الناس ، وقد تحققت دعوة إبراهيم عليه السلام « وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّونَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ، فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ . رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ . وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ . » (٢)

لقد أصبحت مكة محج العرب من أبناء إسماعيل ومن غير أبناء إسماعيل ، ومن شرفها أنها كانت لقاحا لاتدين لدين الملوك ، ولم يؤد أهلها إتاوة ، ولا ملكها ملك قط من سائر البلدان ، تحج إليها ملوك حمير وكندة وفسان ولخم فيدينون للحسن من قريش ، ويرون تعظيمهم والإقتداء بأثارهم مفروضا وشرفا عند هم عظيم ، وكان أهلها آمنون يغزون الناس ولا يغزون . وسببون ولا يسبون ، ولم تسب قرشية قط تقوطاً قهرا ، ولا يحال عليها السهام . قال أحد الشعراء :

أَبْوَادِينَ الْمُلُوكِ فَهَمَّ لِقَاحُ إِذَا هَيَّجُوا إِلَى حَرْبٍ أَجَابُوا (٣)

كان المكيون يشعرون بمكانة الكعبة عند العرب عامة ، ومن ثم فقد كانوا يرون لأنفسهم ميزة لا يتناول إليها غيرهم من العرب لأنها تتصل بكرامة البيت وحرمة فهم أولياؤه وهم سدنته والقائمون بالأمر فيه يسقون الحجيج ويطعمونهم ، ويوفرون لهم الأمن والراحة ، ولذلك فقد نشأ عند هم ما يسمى بنظام (الحمس) ، ويعنون به ابن البلد ، وابن الحرم ، والوطني القيم والذي ينتهي إلى النعبة والعقام فهو امتياز لأبناء الوطن وأهل الحرم وولاية البيت وقطان مكة وساكنتها ، وبذلك فقد نادوا بالناس نحن بنو إبراهيم ، وأهل الحرم ، ولاة البيت وقاطنو مكة ، وساكنتها فليس لأحد من العرب مثل حقنا ولا تعرف العرب مثل ما تعرف لنا .

— كان أهلها أصحاب دين توحيد فأنحرفوا إلى الوثنية ويطؤها بدين إبراهيم ، عادت إليهم تانية الحنيفية

— أفنى الطير الابابيل جيش ابرمة الحبشي على أبرابها فانهمزوا شر هزيمة

— بها ظهر الإسلام خاتم الرسالات ومن أهلها كان محمد صلى الله عليه وسلم ومنها خرج الإسلام إلى العالم ولإليها تحج ملايين الناس ، وهي مهبط الأفئدة ومحط الآمال .

لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة مهاجرا وقف على الخردة وقال : إني لأعلم أنك

أحب البلاد إلي ، وإنك أحب أرض إلى الله ، ولولا أن المشركين أخرجوني منك ما خرجت .

(١) مكة — ابوالفضل ص ٦٠ . (٢) سورة إبراهيم آية ٣٥-٣٧ . (٣) مكة — ابوالفضل ص ٦١ .
(٤) كانت قريش هي التي ابتدعت نظام (الحمس) هذا ثم انضمت إليها كنانة وخزاعة وريما بنو عامر بن صعصعة من هوازن ثم الأوس والخزرج . ابن هشام — السيرة النبوية ١ / ٢٠١-٢٠٢ .

وقالت عائشة : لولا الهجرة لسكنت مكة ، فاني لم أرا السماء بمكة أقرب الى الأرض منها بمكة ، ولم يطمن قلبي ما اطمان بمكة . ولم أرا القمر بمكان أ منه بمكة .

وطول الحديث عن مكة وشرفها فهي التي قدسها الله وحماها واختارها مهبطا لروحيه . وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على جمره العقبة عام الفتح وقال : والله إنك لخير أرس الله ، وإنك لأحب أرس الله إلي ولو لم أُخَرَّ ما خرجت ، إنها لم تحل لأحد من قبلي ، ولا تحل لأحد كان بعدى ، وما أحلت لي إلا ساعة من نهار ، ثم هي حرام لا يعضد شجرها ، ولا يحتش خلاها ولا تلتقط ضالتها إلا لمنشد . وقيل : يا رسول الله إلا الإذخر ، فإنه لبيوتنا وقبورنا ، فقال عليه السلام إلا الإذخر .

وقال صلى الله عليه وسلم من صبر على حر مكة تباعدت عنه جهنم مسيرة مائة عام ، وتقربت منه الجنة مائة عام ، ووجد على حجر فيها كتاب فيه . أنا الله رب بكة الحرام وضئتها بين وضئت الشمس والقمر وحفظتها بسبعة أملاك حنفا . لاتزال أخشابها مبارك لأهلها في الحمأ والماء .

ومن فضائله . . أي الحرم - أنه من دخله كان آمنا ، ومن أحدث في غيره من البلدان حدثا ثم لجأ إليه فهو آمن إذا دخله ، فإذا خن أقيمت عليه الحدود .

« وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمِهَا رَسُولًا » وقوله : « لِيُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا » (٣) دليل على فضلها في سائر البلاد (١)

(١) مكة - اهل الفضل ٦١ - ٦٢

(٢) سورة القصص، آية ٥٩ (٣) سورة الانعام، آية ٩٢

من التأكيد والتحقيق والتفصيل ، وهو كما يقول الاخباريون النعمان بن امرئ القيس بن عمرو بن عدي
أما أمه فهي شقيقة ابنة أبي ربيعة ابن ذهل ابن شيبان ، وهي أخت عمرو المزدلف وقد عرف النعمان
بالنعمان الأعور كذلك ، كما عرف أيضاً بالسائح ، وكان له شقيق من امه هو حسان بن زهير . ويظهر
من وصف الاخباريين للنعمان بأنه كان رجلاً حازماً قوياً محارباً من أشد الناس نكاية في عدوه .
عزاً عرب الشام مراراً كثيرة وسبى منهم غنم ، وكان يغزو بكتيبتين كانتا عنده دوسر ، وأهلها تنسخ
والشهباء ؛ وأهلها الفرس ، يغزونها من لا يدين له من العرب ، وقد اشتعرت دوسر بشدة خبرتها
حتى قيل : أبطل من دوسر (١) ومعروف أيضاً قصة بنائه لقصر الخورنق الذي ورد في التاريخ
والآداب العربي .

وتفيض كتب الآداب والتاريخ العربيين بأخبار ملوك الحيرة وغزواتهم وأيامهم . وتزداد بشح أخبارهم
مع العرب ومع الفرس ومع الروم إلى درجة قد تصل إلى حد الأساطير . وقد أفاض الطبري كما أفاد
غيره من المؤرخين بسرد أخبار ملوك الحيرة الذين طبقت شهرتهم بؤادي العرب وحواضرهم (٢)
ومن مشاهير اللخميين عمرو بن هند المعروف بـ (مضرط الحجارة) وهو لقب ينسب بالطبع إلى قوة
ابن هند وشدة بأسه وقد عرف عمرو بأمه هند بنت عمرو بن حجر الشدي ، آكل العرار ، فهو
كدي من جهة أمه .

ويرى بعض الباحثين احتمال كون هند من آل غسان وإليها ينسب دير هند ويرى أن حكم ابنها
عمرو كان فيما بين السنة ٥٥٤ - ٥٦٩ . وقد ارتبطت بعمر بن هند هذا شير من الشمس والظرائف
والأساطير حكها القصاص والبنعراء (٢)

ومع ما رافق حياة عمرو من أحداث كثيرة وحروبه المستمرة مع الخساسنة وأحلافهم وكذلك سعيه للصالح
بين العديد من القبائل فقد انتهت حياته بيده ، ونتيجة غروره . وذلك في القصة المشهورة
بالآداب والتاريخ العربيين عن أنه قال لجلسائه : هل تعلمون أن أحداً من العرب من أهل مملكتي
يأخذ من خدم أمه أمي ٢٠٠ قالوا : ما نعرفه إلا أن يكون عمرو بن كلثوم التغلبي ، فان أمه ليلى
بنت المهلهل بن ربيعة ، وعمها كليب وائل أعز العرب . وزوجها كلثوم وابنها عمرو . وقد دعى عمرو
ابن هند عمرو بن كلثوم وأمهم ، وأحسن ضيافتهما ووفادتهما ، وأمهم أن تستخدم ليلى ففعلت
وهنا ردت ليلى على هند بأن تقوم صاحبة الحجابة إلى حاجتها . وصاحت بابنها ومن معه
من آل تغلب فأقدم عمرو بن كلثوم على سيف وضرب به رأس عمرو مضرط الحجارة ونادى فسي
التغلبيين ، فأخذوا ما استطاعوا ، وعادوا من حيث أتوا . وذهب العثل القائل

(١) جواد علي - تاريخ ١٩١/٣ و ٢٠٠ فما بعد . دراسات في تاريخ العرب - مهران س ٥٨

(٢) الطبري - تاريخ ٦٥/٢ فما بعد . جواد علي ٢٠٠/٣ - ٢٢٨

أقوال كثيرة لاسبيل الى تحقيقها لاختلاف القائلين فيها . مثل اختلافهم في عدد الملوك وتعاقبهم وسني حكمهم ، على أننا نرى في سجل النيسة Syndicon Drintale أن الحيرة كان عليها أسقف سنة ٤١٠ م ، وأن ملكها حتى النصارى سنة ٤٢٠ م . ونرى من الجهة الأخرى أن النساطرة وملوك الحيرة كانوا إلى أواسط القرن المذكور على الوثنية ، وأن المنذر بن امرئ القيس بن ماء السماء كان يقدم ذبائح من البشر إلى العزى . وكان بين نساءه امرأة من غسان اسمها هند الكبرى أم عمرو بن هند مضطرب الحجارة ، كانت مسيحية فتبنت مبادئ النصرانية في ابنها فنشأ نصرانيا ، ويؤيد ذلك ما نقلته على دبرها (١)

ولم يكن هلاك النعمان وسقوط أسرة اللخمييين الحاكمة يعرفون أن يخلف آثاره على الفرس ، فإذا كانت تغلب قد بقيت على ولائها للفرس فإن بكراً قد شرعت في القيام بخارات على أملاك إيران المجاورة لها أي على أرض السواد (٢)

وحول هذا الخلاف الذي قاده بكر ضد تغلب وأسيادها من الفرس ، وما تبع ذلك من فحولات الفرس لإخضاع بكر ، وسخط العرب على "خسرو" الحاكم الفارسي قد بلغ الحد الذي يكفي فيه انتقاص قبيلة واحدة ليجر عليه في الحال انتقاص القبائل الأخرى . وقد تقدم بجيش الفرس بصحبة حلفائهم الذين ظلوا إلى جانبهم مثل تغلب ، ودارت المعركة الفاصلة أيام الصيف القاطئ من عام ٦٠٤ م في أغلب الظن ومن العسير ردّها إلى تاريخ تال لذلك لأنها ترتبط بكارثة اللخمييين التي حدثت عام ٦٠٢ م (٣)

وقد ترك يوم ذي قار أثراً عميقاً في أدب العرب . وبطبيعة الحال فقد كان يوم ذي قار يوماً من أيام العرب الكبرى ذلك أن نهاية اللخمييين أصبحت في ذات الوقت بداية فترة جديدة ، وهي الجيش الفارسي فيها بهزيمة نكواء ، وأثبتت العرب أن بمقدورهم كسر شوكة أكبر جيش في تلك العهود ألا وهو جيش الفرس الساسانيين .

وانتصار العرب في ذي قار كفه من البداية التفوق التفني لأسلحتهم ، وثمة سبب آخر عميق لانتصار العرب يكمن في ما طرأ على نظامهم الاجتماعي من تطورات ، فهم قد تجاوزوا آنذاك نطاق الوحدات القبلية ودخل تطوّرهم في قوالب جديدة تولّقت فيها وقويت عرى محالفتهم ، حقاً ان رسالة النبي الكريم لم تكن قد عمت بعد لترابطهم داخل العقيدة الجديدة بتلك العروة الوثقى التي لا تنفصم بيد أن تطوّر المستوى الاجتماعي والاقتصادي للقبائل العربية الشمالية بلغ درجة مكنت دعوة الإسلام من أن تجد صدى مباشراً بينهم ، وتنسب الرواية العربية إلى النبي أنه لما بلغته قبيلة ربيعة خبر الانتصار ، قال : هذا أول يوم انتصفت العرب على الحجم وبني نصرنا (٤)

(١) العرب قبل الإسلام - عاقل ٢٨٤ - ٢٨٥ . والعرب على حدود بيزنطة س ١٤٥

(٢) العرب على حدود بيزنطة س ١٤٧ . تاريخ العرب قبل الإسلام - سيد عبد العزيز ٢٥٥

(٣) من الواضح أن ذي قار حصلت والرسول قد ابتعثت في مكة ، فإذا كانت البعثة قد بدأت بتاريخ ٦١٠ فكيف نوفق ذلك مع ما سبق ؟ المؤكد ان المعرفة حصلت عام ٦١٤ م وليس ٦٠٤ م

(٤) العرب على حدود بيزنطة ٢٤٧ - ١٤٨ . الطبري - تاريخ ١٣٢/٢ - ٢١١ . تاريخ الجاهلية ٦٤٥ - ٦٤٨

(أفتك من عمرو بن كلثوم) ، كما افتخر بها الشعراء التغلبيون ، ويقال أن أبا عمرو بن كلثوم
(مرة بن كلثوم) هو قاتل المنذر ابن النعمان بن المنذر . وفي ذلك يقول الأخطل :

ابنِي كُلَيْبٍ إِنْ عَمِيَ اللَّيْلُ إِذَا نِ قَتَلَا الْمَلُوكَا وَفَكَكَا الْأَغْلَالَ

وللساعر أفضون التغلبي وهو (مريم بن معشر)

لَحْمُوكَ مِيعَمُؤُوبِ بْنِ هِنْدٍ وَقَدْ دَعَا لِيَتَّخِذُ لَيْلَى أُمَّهُ يَمُوتُ فِي

نَقَامِ ابْنِ كُلْثُومٍ إِلَى السَّيْفِ مُضِلِنًا وَأَمْسَكَ مِنْ نَدْمَانِيهِ بِالْمِخْنَفِي

وَعَلَّجَلَةَ عَمْرُؤَ عَلَى الرَّأْسِ صُرُوسَةً بِدِي شَطْبِ صَانِي الْحَدِيدِ رُؤُوقِ (١)

ولقد آلت إمارة اللخمييين في أواخر أيامها أن تحكم مباشرة من قبل الفرس ، حيث ورد عدد من
الأسماء الفارسية حكاه هذه الدولة ، وكان آخر ملوكها من العرب المنذر بن النعمان المغرور ٦٢٨ -
٦٣٢ . قتل في البحرين يوم جوانما . وليس له من الأعمال ما يستحق الذكر (٢)

ويبدو أن القوة العسكرية للخميين ، مضافاً إليها تطلعتهم المتزايد نحو الاستقلال . قد أثار مخاوف
الساسانيين ، ولذا فإن إقصاء اللخمييين أصبح أمراً مرغوباً فيه لدى الفرس . هذا وقد أعيد تنظيم
إدارة (عرب فارس) بعد النعمان على أساس جديد واستعمل الفرس على الحيرة ، وعلى أملاك
اللخمييين الأخرى * إياس بن قبيصة) الذي لم يكن ينتمي إلى اللخمييين ، بل كان نصرانياً من طيء
إلا أنه في وقت واحد مع إياس تم تعيين فارسي هو (نه فرخان - به ركان) بدوارة شؤون العرب ،
وهذا فإن ابن قبيصة لم يكن حانماً مستقلاً ، بل وجد على حالة من التبعية للعامل الفارسي خلال
فترة حكمه التي امتدت لتسعة أعوام ٦٠٢ - ٦١١ م (٣)

لقد كانت القبائل العربية في شمال الجزيرة أكثر احتكاكاً بدولة اللخمييين منهم بدولة الساسنة
وأكثر تعاطفاً لأمرها وتبهيها منها ، فلما أشد رغبة في الانضمام إليها والدخول في رعايتها
فاتسع سلطان اللخمييين اتساعاً كبيراً ، ولا سيما أنه في أبان سطوة الفرس وضع الروم ، وقد رأيت
مبلغ ذلك في أيام امرئ القيس بن عمرو صاحب قبر النمارة ، فانها شملت معظم القسم الشمالي من
جزيرة العرب وبعض جوانبها ، ثم اختلفت بعد ذلك حتى لا يتيسر حصرها وتحديدها ، ولكننا نعلم
أن مجالسهم كانت مرجع المستجدين ، وميدان الشعراء العاديين ، ومن شعرائهم النابغة ،
وحسان ، والمتلمس والنمير اليشكري ، ولهم مع الشعراء وقائع تدخل في مجلد كبير (٤)

واختلفوا في ديانة ملوك الحيرة ، فمن قائل إنهم تنصروا على عهد امرئ القيس الأول بن عمرو وفي
أوائل القرن الرابع ، وقائل : إن أول من تنصر النعمان بن المنذر في آخر القرن السادس ، وبينهما

(١) الأغانى - الأصبهاني ١٨٣/٩ - التلالم - ابن الأثير ١/٢٦٦ - جواد علي - تاريخ
٢٥٥/٣ فما بعد . (٢) تاريخ العرب قبل الإسلام - زيدان ٢٨٣ . وسيد عبد العزيز
٢٦٢ . (٣) العرب على حدود بيزنطة ص ١٤٦
(٤) الأغانى - الأصبهاني ١٥٥/٩ - ١٥٧

٣ - كعدة

كعدة : قبيلة قحطانية في عرف النسابين ، تنسب إلى أنور بن عفير بن عدي بن الحارث بن مرة بن أدد بن زيد بن يشجب بن زيد بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ . وثور هو كده وقد عرفت عند الاخباريين بـ " كعدة الملوك " لأن الملك كان لهم على بادية الحجاز من بني عدنان ولأنهم ملكوا أولادهم على القبائل ، وكانوا يتعززون بنسبهم إلى كعدة وإلى " آكل المرار " لأنهم كانوا ملوكا .

وكعدة : هي كدت القبيلة التي ورد اسمها في نصوص المسند مثل نسـ " ابرهة " ، بل ورد اسمها في النصوص المذكورة قبل هذا العهد بكثير .

ولقد جرت أحداث تاريخ كعدة في مناطق فصلت بينها مساحات شاسعة ، وفي هذا انعكس الطابع المميز لهجرات القبائل العربية التي ظلت خلال هذه الأحداث محتفظة بصلة الرحم بين بعضها وبعض ، ولقد أثارت الأخبار المتواترة لدى العرب عن كعدة شكوك الباحثين لأكثر من مرة فوقفوا منها موقف الحذر . غير أن الكسوف الأثرية الجديدة ببلاد العرب الجنوبية تمكننا من الإفادة من مادة

الرقوم والتي ألفت ضوءاً جديداً على تاريخ هذه القبائل ، وهذه المادة تتفق إلى مدى بعيد مع روايات المؤرخين العرب الذين دونوا مصنفاتهم في العهود الإسلامية والذين ترتفع مادتهم في جانب كبير منها إلى مصنف ابن الكلبي " كتاب ملوك كعدة " الذي استقى مادته من مسدريـ أساسيين أحدهما عربي جنوبي لاعلم لنا بمؤلفه ، والثاني رواية ظرش بن إسماعيل ، وإلى هذا يضيف حمزة الأصفهاني مصدراً كتابياً آخر هو كتاب " أخبار كده " وهذا المصدر الأخير لعل له البتة بكتاب ملوك كده لابن النبطي الذي أنشأنا إليه آنفاً . وبفضل هذه المصادر المتوفرة التي

تتمتع بالثقة حفظ المسلمون مادة جديدة بالاهتمام أيدتها في الوقت الحاضر الرقوم السبئية (٢) في أواخر القرن الخامس للميلاد اتجه حاجر بن عمرو إلى قلب نجد ، وانتزع جانباً من الأرض التي كانت تحت سيطرة المناذرة ثم نزل فيها في مكان يدعى بطن عاقل (جنوب وادي الرقة على الطريق بين مكة والبصرة) وهكذا تسرب النفوذ الأجنبي إلى مكان جديد في جزيرة العرب ، نفوذ روماني مناهض (معاد) لنفوذ الفرس في الحيرة ، ومختلف بسياسة يعنیه ظاهرة .

واتبعت الأسر الثلاث " كعدة في نجد والمناذرة في العراق والغساسنة في الشام " في مبدأ الأمر سياسة ودية مرة وعدائية مرة أخرى . إن اليمن دفعت حجراً إلى التملك في نجد ، وإلى مهاجمة الحيرة عاصمة المناذرة ، وكان ذلك كله في مصلحة الغساسنة أو في مصلحة الروم من وراء الغساسنة لم يسع حاجر إلى توسيع ملكه نحو الشمال (في اتجاه العراق) فقط بل حاول أن يوسعه نحو الشرق في البحرين (الشاطيء الغربي من خليج العرب) أيضاً .

(١) جواد علي - تاريخ ٣/٣١٥ . تاريخ الجاهلية - فروع ص ٨٢

(٢) العرب على حدود بيزنطة ص ١٥٢

أقوال كثيرة لاسبيل الى تحقيقها لاختلاف القائلين فيها . مثل اختلافهم في عدد الملوك وتعاقبهم وسني حكمهم ، على أننا نرى في سجل النيسة Syndicon Drintale أن الحيرة كان عليها أسقف سنة ٤١٠م ، وأن ملكها حمى النصارى سنة ٤٢٠م . ونرى من الجهة الأخرى أن النساطرة وملوك الحيرة كانوا إلى أواسط القرن المذكور على الوثنية ، وأن المنذر بن امرئ القيس بن ماء السماء كان يقدم ذبائح من البشر إلى العزى . وكان بين نسائه امرأة من غسان اسمها هند الكبرى أم عمرو بن هند مضط الحجارة ، كانت مسيحية فتبنت مبادئ النصرانية في ابنها فنسأ نصرانيا ، ويؤيد ذلك ما نقلته على ديرها (١)

ولم يكن هلاك النعمان وسقوط أسرة اللخمييين الحاكمة يعرفون أن يخلف آثاره على الفرس ، فإذا كانت تغلب قد بقيت على ولائها للفرس فإن بكرة قد شرعت في القيام بخارات على أملاك إيران المجاورة لها أي على أرض السواد (٢)

وحول هذا الخلاف الذي قاده بكر ضد تغلب وأسيادها من الفرس ، وما تبع ذلك من محاولات الفرس لإخضاع بكر ، وسخط العرب على "خسرو" الحاكم الفارسي قد بلغ الحد الذي يكفي فيه انتفاص قبيلة واحدة ليجر عليه في الحال انتفاص القبائل الأخرى . وقد تقدم جيش الفرس بصحبة حلفائهم الذين ظلوا إلى جانبهم مثل تغلب ، ودارت المعركة الفاصلة أيام الصيف القاطن من عام ٦٠٤م في أغلب الظن ومن العسير ردّها إلى تاريخ تال لذلك لأنها ترتبط بكارثة اللخمييين التي حدثت عام ٦٠٢م (٣)

وقد ترك يوم ذي قار أثراً عميقاً في أدب العرب . وبطبيعة الحال فقد كان يوم ذي قار يوماً من أيام العرب الكبرى ذلك أن نهاية اللخمييين أصبحت في ذات الوقت بداية فترة جديدة ، فليس الجيش الفارسي فيها بهزيمة نكراء ، وأثبت العرب أن بمقدورهم كسر شوكة أكبر جيش في تلك العهود ألا وهو جيش الفرس الساسانيين .

وانتصار العرب في ذي قار كفه من البداية التفوق التقني لأسلحتهم ، وثمة سبب آخر عميق لانتصار العرب يكمن في ما ضراً على نظامهم الاجتماعي من تطورات ، فهم قد تجاوزوا آنذاك نطاق الوحدات القبلية ودخل تطوره في قوالب جديدة توثلت فيها وتويت عرى محالفتهم ، حقاً ان رسالة النبي الكريم لم تكن قد عمت بعد لتربطهم داخل العقيدة الجديدة بتلك العروة الوثقى التي لا تنفصم بيد أن تطور المستوى الاجتماعي والإقتصادي للقبائل العربية الشمالية بلغ درجة مكنت دعوة الإسلام من أن تجد صدى مباشراً بينهم ، وتنسب الرواية العربية إلى النبي أنه لما بلغته قبيلة ربيعة خبر الانتصار ، قال : هذا أول يوم انتصفت العرب على الحجم وبني نصرنا (٤)

(١) العرب قبل الإسلام - عاقل ٢٨٤ - ٢٨٥ . والعرب على حد ود بيزنطة س ١٤٥

(٢) العرب على حد ود بيزنطة س ١٤٧ . تاريخ العرب قبل الإسلام - سيد عبد العزيز ٢٥٥

(٣) من الواضح أن ذي قار حصلت والرسول قد ايتعت في مكة ، فإذا كانت البعثة قد بدأت بتاريخ ٦١٠ فكيف نوفق ذلك مع ما سبق ؟ المؤكد ان المعرفة حصلت عام ٦١٤م وليس ٦٠٤م

(٤) العرب على حد ود بيزنطة ٢٤٧ - ١٤٨ . الطبرى - تاريخ ١٩٣/٢ - ١٠٢ . تاريخ الجاهلية ٦٤٥ - ٦٤٨

٣ - كعدة

كعدة : قبيلة قحطانية في عرف النسابين ، تنسب إلى أنور بن عفير بن عدي بن الحارث بن مرة بن أدد بن زيد بن يشجب بن زيد بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ . وثور هو كده وقد عرفت عند الاخباريين بـ " كعدة الملوك " لأن الملك كان لهم على بادية الحجاز من بني عدنان ولأنهم ملكوا أولادهم على القبائل ، وكانوا يتعززون بنسبهم إلى كعدة وإلى " آكل المرار " لأنهم كانوا ملوكا .

وكعدة : هي كدت القبيلة التي ورد اسمها في نصوص المسند مثل نسـ " ابرهة " ، بل ورد اسمها في النصوص المذكورة قبل هذا العهد بكثير .

ولقد جرت أحداث تاريخ كعدة في مناطق فصلت بينها مساحات شاسعة ، وفي هذا انعكس الطابع المميز لهجرات القبائل العربية التي ظلت خلال هذه الأحداث محتفظة بصلة الرحم بين بعضها وبعض ، ولقد أثارت الأخبار المتواترة لدى العرب عن كعدة شكوك الباحثين لأكثر من مرة فوقفوا منها موقف الحذر . غير أن الكشوف الأثرية الجديدة ببلاد العرب الجنوبية تمكننا من الإفادة من مادة

الرقوم والتي ألقت ضوءاً جديداً على تاريخ هذه القبائل ، وهذه المادة تتفق إلى مدى بعيد مع روايات المؤرخين العرب الذين دونوا مصنفاتهم في العهود الإسلامية والذين ترتفع مادتهم في جانب كبير منها إلى مصنف ابن الكلبي " كتاب ملوك كعدة " الذي استقى مادته من مسدريين أساسيين أحدهما عربي جنوبي لاعلم لنا بمؤلفه ، والثاني رواية ظرش بن إسماعيل ، وإلى هذا يضيف حمزة الأصفهاني مصدراً كتابياً آخر هو كتاب " أخبار كده " وهذا المصدر الأخير لعل له البتة بكتاب ملوك كده لابن النليبي الذي أشرنا إليه آنفاً . وبفضل هذه المصادر المتوفرة التي تتمتع بالثقة حفظ المسلمون مادة جديدة بالاهتمام أيدتها في الوقت الحاضر الرقوم السبئية (٢)

في أواخر القرن الخامس للميلاد اتجه حاجر بن عمرو إلى قلب نجد ، وانتزع جانباً من الأرض التي كانت تحت سيطرة المناذرة ثم نزل فيها في مكان يدعى بطن عاقل (جنوب وادي الرقة على الطريق بين مكة والبصرة) وهكذا تسرب النفوذ الأجنبي إلى مكان جديد في جزيرة العرب ، نفوذ روماني مناهض (معاد) لنفوذ الفرس في الحيرة ، ومختلف بسياسة يعنوية ظاهرة .

واتبعت الأسر الثلاث " كعدة في نجد والمناذرة في العراق والحسانة في الشام " في مبدأ الأمر سياسة ودية مرة وعدائية مرة أخرى . إن اليمن دفعت حجراً إلى التملك في نجد ، وإلى مهاجمة الحيرة عاصمة المناذرة ، وكان ذلك كله في مصلحة الحسانة أو في مصلحة الروم من وراء الحسانة لم يسع حاجر إلى توسيع ملكه نحو الشمال (في اتجاه العراق) فقط بل حاول أن يوسعه نحو الشرق في البحرين (الشاطي* الغربي من خليج العرب) أيضاً .

(١) جواد علي - تاريخ ٣/٣١٥ . تاريخ الجاهلية - فوج م ٨٢

(٢) العرب على حدود بيزنطة م ١٥٢

سار حجر قبائل ربيعة لينغزو البحرين ، علم بذلك * زياد بن عمرو بن الهببلي بن ضجعم ابن حماطة بن سليج القضاعي * فخالف حجرا ، وسار في غير الطريق الذي سار فيه حجر إلى غمرة كدة وأفسد في البلاد ثم حمل معه أسرى كثير فيهم زوجة حجر كما قيل . عهدئذ لحق حجر بزياد فأدركه عند * الحفير * قرب يمن أباغ (بين الفرات والنمام) وقتله واستعاد زوجته ، ثم علم أن زوجته كانت راضية عن عمل زياد فانتقم منها شر انتقام .

وكدة أو كدت هي مجموعة من القبائل أصلها من الجنوب الغربي ، وكانت تشغل الجانب الشرقي من اليمن حيث كان مركزهم دمون ، وهذا أمر معلوم حتى لعمر متأخر مثل ابن خلدون ، وقد ورد ذكر قبائل كدت لاكثر من مرة بالرقم السبأية ، وهي الرقم التي تزايد عددها بفضل الرحلات الأثرية التي قام بها (سان جون (عبد الله) فيلبي) و (البرايت * و * ريكانس * وغيرهم من المتخصصين وعليها الآثار والنقوش البارزين .

وجد ير بالذكر أنه قد تأيدت الآن الواقعة التي تؤكد أن شطرا من قبائل كدة قد اضطروا إلى الهجرة وانتجاع مواضع وسط القبائل العربية الشمالية بسبب الاضطرابات التي كان مسرحها الجنوب العربي ، ومعطيات الرقم تلك تؤكد الروابط وصلة التبعية التي كانت للكنديين ببعض الدول والأحلاف القبلية بجنوبي الجزيرة العربية ومن هناك سلكوا الطريق القديمة المتجهة شمالا ، حتى بلغوا نجدا ، ثم انتشروا بعيدا فيما وراء ذلك حتى بلغوا العراق وفلسطين وبنية وسورية ، وببلاد العرب الوسطى شغلوا شطرا من المنطقة التي كانت تقطنها قبائل مصر . وكان مركزهم بها مدينة * غمر ذي كده * الواقعة بالنواحي الجنوبية الغربية من نجد على مرحلتين من مكة . كده : على قول العرب بطن من كهلان ، وحكنا فيهم مثل حكنا على سائر عرب الشمال في الطور الثاني وأهلهم فيما رواه الثقات من البحرين والمشرق ، وأنهم أجلاوا عنها إلى حصرموت وعددهم ثلاثون ألف نفس في زمن لا يمكن تحديده ، وأقاموا هناك ماشاء الله في بلد يعرف باسمهم . كدة : مرتفع من الارض تشرف على حصرموت وتصب أوديته فيه ثم إلى مهرة ، وقصة الكبرى اسمها (دمون) . أقام الننديون هناك دهرًا ، وهم على وفاق مع الحميريين حكاهم تلك البلاد وكان الحميريون يستخدمون خاصة كده وكبارهم في بعض مصالحهم ، ويدخلونهم في شاشيتهم أربطانتهم واتفق على عهد حسان بن تبع ملك حمير أن حجر بن عمرو سيد كده دخل في خدمته لغرابته ولأن حجرا وحسانا كانا أخوين لأم واحدة . وقد قام حسان بفتح كبيرة في جزيرة العرب شمالا وجنوبا ، وكان حجر معه ، فلما أراد الرجوع إلى اليمن رأى ان يحتضه بكرامة فولاه قبائل (معد) كلها ، وهي من قبائل البادية التي لا تجمعها دولة ، فولاه عليها ورجع إلى بلده فدانت

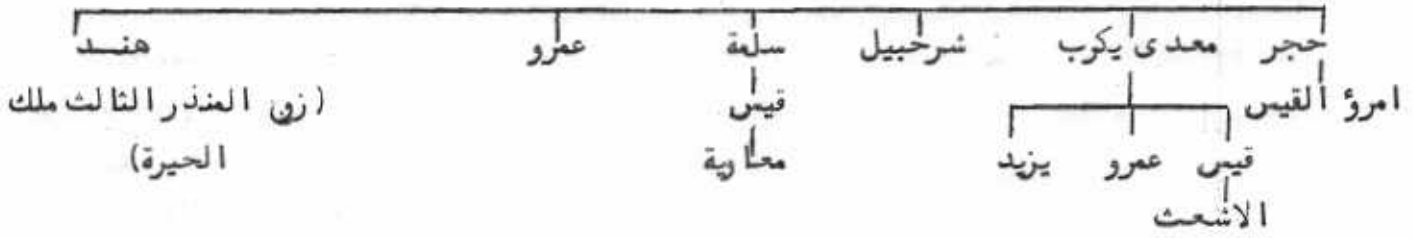
(١) تاريخ الجاهلية - فروع ص ٨٧ . العرب على حدود بيزنطة ص ١٥٤

(٢) العرب على حدود بيزنطة ص ١٥٣

معه لحجر ، وهو حجر بن عمرو المعروف بأكل المرار

شجرة ملوك كنده من بيت أكل المرار (١)
حجر أكل المرار

عمرو المقصور (بنجد)
الحارث (٤٩٠ - ٥٢٨)



وذكر اليعقوبي لنزوح كنده عن حضرموت سببا آخر قال : إنه وقع بين القبيلتين حروب طالت حتى كادت تغنيهما ، وكندة أضعفها فرأت الرحيل إلى اليمن ، فسارت إلى أرض (معد) فجاورتهم ثم ملكوا رجلا منهم هو أول ملوكهم ، واسمه مرتع بن معاوية بن ثور ، وخلفه آخر كما في هذا الجدول :

مرتع بن معاوية بن ثور حكم ٢٠ سنة

ثور بن مرتع حكم مدة قصيرة

معاوية بن ثور حكم مدة قصيرة

الحارث بن معاوية بن ثور ٤٠

وهب بن الحارث ٣٠

حجر بن عمرو أكل المرار ٢٣

عمرو بن حجر بن عمرو أكل المرار ٤٠

الحارث بن عمرو بن حجر كان معلصرا للعنذر بن ماء السماء (٢)

ويذكر جرجي زيدان سببا آخر لتولية حجر أكل المرار يقول: إن سبب تملكه على العرب في نجد أن سنها بكر غلبوا عقلاءها ، وغلبيهم على الأمر ، وأكل القوي الضعيف ، فنظر العقلاء في أمرهم فرأوا أن يملكوا عليهم ملكا يأخذ للضعيف من القوي ، ورأوا مع ذلك أن هذا لا يستقيم بأن يكون الملك منهم إذ يطيعه قوم ويخالفه آخرون . فأجمعوا على أن يسيروا إلى تين اليمن (حسان) ، وكان التتابع للعب بمنزلة الخلفاء للمسلمين (٣) وطلبوا إليه أن يولي عليهم ملكا ، وكان حجر المذكور ذا رأي وجاهة فولاه عليهم . ومع اختلاف

(١) العرب على حدود بيزنطة وإيران من ١٨٣ . معجم قبائل العرب - كحالة ١٩٨ / ٣

(٢) جرجي زيدان - تاريخ العرب قبل الإسلام ٢٨٦ - ٢٨٧ . تاريخ الأدب العربي - ص ٤٨

(٣) هذا التعبير به شيء من الفخر الذي يقدم عليه المؤلف عادة في جميع مؤلفاته عن التاريخ الإسلامي فلم يكن التتابع إلا وشيون ، وربما تنظر إليهم العرب بشيء من المهابة لفضلهم ورفعة مقامهم ليس إلا أما أن يشبهوا بالخلفاء المسلمين ففي الأمر خروج عن المؤلف

الروايات في السورة فان المغزى واحد وهو ان دولة كندة تابعة لدولة حمير ، فقدم حجر إلى نجد ونزل بطن عاقل . وكان اللخميون قد ملكوا كثيرا من تلك البلاد ولاسيما بلاد بكر بن وائل ، فهض حجر وحارب اللخميين ، وأنفذ أرض بكر منهم فاجتمعت كلمة القوم على احترامه ، وما زال كذلك حتى مات ودفن في بطن عاقل (١)

لم تدم حياة كندة كثيرا في حكم المناطق التي استولت عليها ، والملاحظ ان مساحة الدولة أو حدودها كانت في تذبذب دائم وقياسا على ملوك الحيرة فإن ملوك كنده لم يتجاوزوا جيلين من الحكم ابتداء من حجر آكل العرار . وانتهاء بامرئ القيس صاحب القصة المشهورة في الأدب العربي وأحد أصحاب المعدقات . وكما يلاحظ ان كثيرا من ملوك كنده لم يكونوا ملوفا بالمعنى المتعارف عليه في قيادة دولة موحدة وعاصمة واحدة ، ولكن كان أبناء واحفاد حجر من القديين يحكمون بوقت واحد في قبائل مختلفة ، إلا أن النسي الذي يلاحظ أنه لم تقع حروب بين القبائل التي حكمها أولئك في وقت واحد وإنما كان الإخوة متفاهمين ومتحاضين .

لقد تمكن الحارث بن عمرو بن حجر آكل العرار أن يستفيد من الخلافات التي وقعت بين قبادة ملك الفرس ، والمزدر بن ماء السماء بسبب المزدكية ، فوافق الحارث القدي قبادة دعوته فولاه الحيرة فعظم في أعين القبائل واستضعفوا بني لخم (أصحاب الحيرة) وتوافدوا إليه وفيهم الأشراف من (معد) يهنئونه وتقربون إليه بالطاعة ، وطلبوا منه أن يرولي عليهم من أبنائه من يحكمهم ليبطل ما قام بينهم من القتل حتى كاد يفنيهم ، ففرق فيهم أربعة من اولاده تولى كل منهم بعض تلك القبائل على هذه الصورة : ١ - حجر بن الحارث ، تولى بني أسد بن جذيمة وخطان

٢ - شرحبيل بن الحارث : تولى بكر بن وائل بأسرها وبني حنظلة بن مالك بن زيد مائة ، وطوائف من بني إرم بن تميم والرياب

٣ - معدى كيرب بن الحارث : تولى قيس عيلان وطوائف غيرهم

٤ - سلمة بن الحارث : تولى تغلب والنمر بن قاسط

أما أبوه الحارث فلم يطل سلطانه على الحيرة ، فما هو ان مات قبادة وتولى أنوشروان حتى أرجع المنذر وفر الحارث بماله وأولاده على الهجن فتبعه المنذر على الخيل من تغلب وإياد وبهراد فلحق بأرض كلب ونجا فانتهبوا ماله وهجانه ، وأخذت تغلب ثمانية وأربعين نفساً من بني آكل العرار فيهم عمرو ومالك ابنا الحارث ، فقد موا بهم على المنذر فقتلهم في ديار بني مرينا ، وفي ذلك قال امرئ النيس شعرا . أما الحارث فظل في بني كلب حتى قتل فيهم ، واختلفوا بسبب قتله ، وبقي اولاده الأربعة على ما ملكوه ولكن موت أبيهم أضاعهم (١)

(١) تاريخ العرب قبل الاسلام - زيدان ٢٨٨ - ٢٨٩ . تاريخ الادب العربي - صيف س ٤٨ دراسات في تاريخ العرب - مهران ٦٠٩ وما بعد . تاريخ العرب قبل الاسلام - سيد عبد العزيز ١٥٨ . تاريخ العرب القديم - عاقل ٢١٢ . العرب على حدود بيزنطة - ١٧١ تاريخ الجاهلية - فروع س ٨٨ . جواد علي - تاريخ ٣٣٣/٣ - الاغاني ٦٣/٨

اوقع المنذر بين الاخوة أبناء الحارث فاقتتل الأخوين سلمة وشرحبيل في معركة النمس يوم (الكلاب) قتل فيها شرحبيل ، وقد جن سلمة كثيرا لمقتل أخيه ، والتجأ الى بكر بن وائل فاندعت له وخرجت عن طاعة المنذر ، فسار إليهم المنذر وأقسم إن ظفربهم ليدبحنهم ، على جبل (بأواق) حتى يبلغ الدم الحضيض ففاز بذلك وذبح الكثير منهم في يوم عرف بيوم (أواره) ، ولكن الدم لم يبلغ الحضيض لأنه كان يتجمد فور الذبح ، فأساروا عليه أن يصب فوقه الماء فسال حتى بلغ الحضيض ، وأحرق النساء مما أضعف قتل الأخوين شرحبيل وسلمة . موقع أخويهما الآخرين حجر صاحب بني أسد ، ومعدى كرب صاحب قيس عيلان ، فتذكر بنو أسد لحجر ملكهم ، وساءت سيرته فيهم فاجتمعوا على خلافه وبدأوا بنبذ الطاعة ، وأمسكوا عن أداء الإتاوة وضربوا الجباة الذين أرسلهم في طلبها ، فحمل عليهم حجر بجند من ربيعة ، فأعمل فيهم السيف ، وأباح الأموال ، وحبس الأشراف ، ومنهم عبيد بن الأبرص الشاعر المشهور ، فقال شعرا يستعطفه ، فرق لهم ، فبعث في إطلاق سراحهم ، فخرجوا وفي نفوسهم غل ، فلما وصلوا إليه قتلوه طعنا وانهمن رجاله . وهو والد امرئ القيس الشاعر المشهور (١)

وقد استفاضت كتب السير والتاريخ العربية بذكر امرئ القيس بن حجر هذا ، وأفردت له كل المصادر أبوابا طويلة ووردت أخباره في المصادر الأجنبية التي استقت معلوماتها من الكتاب العرب والرومان والمؤرخين المحدثين . كان امرئ القيس يعيش حياة لهو فلما أخبر بموت أبيه قال : ضيعني صغيرا وحملني دمه كبيرا ، لاصحواليوم ولاسكروغداً اليوم خمر وفدا أمر وقرر أن يترك ملذات الحياة حتى يدرك ثأره . وكان يعلم عجزه أمام قوة عدوه وعلم أن ذلك العدو وإن عرف ملذاته قبض عليه . فنقضى فترة متجولا متذكرا باليمن ونجد والحجاز يستجير القبائل فلم يجره أحد ، حتى أتى السموأل بن عادي صاحب حصن الأبلق فاستجاره فأجاره ، فاستودعه أذراعه وأمتعته وهو لا يرى مرجعا يلون إليه إلا قيصر الروم لأن ملوك الحيرة عمال الفرس نصررو أعداءه . على جاري عادة العرب في ذلك العهد فوسط الحارث بن أبي شمر الغساني صاحب النفوذ عند الروم ويومئذ وطلب إيصاله إليه ففعل . وتقول العرب إن القيصر سمع وشاية ضده فألبسه درعا مسموما فقتله ، والمهم مع ذلك بهذه الرواية أنه قتل ولم ينل مأربه .

تضعفت دولة كنده ولم يبق من ملوكها غير معد يكرب رئيسا على قيس عيلان وأمرأ صغار لهم سيادة على بعض القبائل ، وربما حكم أحد هم بلدا أرواديا ، وأشهر فروع تلك الدولة أربعة في الأماكن التالية : دومة الجندل ، البحرين ، نجران ، غرة ذي كنده ، وكل من هذه الفروع دولة قائمة بنفسها حتى ظهر الاسلام فذهبت جميعا . وأورد جرجي زيدان جدا ولأ تقريبا لحكام كنده الحقيقيين تجاوزا عن الذين حكموا خان قبيلتهم وهم : حجر بن عمرو أكل العرام ٤٥٠ م (١١) عمر بن حجر ٤٩٠ م الحارث بن عمرو تويي ٥٤٠ م حجر بن الحارث ٥٥٠ م امرئ القيس بن حجر ٥٦٠ م

(١) تاريخ العرب قبل الاسلام - زيدان ٢٨٩ - ٢٩٠ بتصرف . الاغانى ٨ / ٦٣ العرب على حد وبيزنطة ص ١٨٠ . (٢) الاغانى - الاصبهاني ٨ / ٦٨ التامل - ابن الاثير ١ / ٣٢١ جواد

والملاحظ على دولة الكنديين أنها لم تكن دولة ذات عاصمة ومركز وجيوش مرحدة وقوة ، وإنما هي سلفان قبيلة استطاعت أن تنال حكم قبائل أخرى من غير نسبها أو غير منبثها ، وفي فترة من الاستقرار تمكن الكنديون أن يعدوا سلطانهم على بعض القبائل ويحكمونها ، ويخضعوها لسلطانهم ، واستطاعوا في حالة وصول الحارث إلى حكم الحيرة أن يرثوا سلطان اللخمييين ، ولكنهم ما لبثوا أن عادوا إلى حكم قبائلهم التي ارتضت سيادتهم وارتضت أن يكونوا حكاما بها وكثيرا ما منقضت هذه القبائل سيادة الكنديين وحاربتهم ، ولم تخضع لهم إلا بالقوة ، كما فعل حجر بن الحارث والد امرئ القيس الذي تمكن أن يعيد سلطانه على بني أسد بالقوة . كما أن العديد من القبائل قد ارتضت بحكمهم وحكمتهم كما ورد في كتب الأدب العربي والتاريخ ، عندما استدعى الكنديون ليسدوا مكان القيادة في هذه القبائل ، على أنهم كانوا يستمدون قوتهم من أصلهم اليمني المعروف ، وساندة القبائل اليمنية (حمير) لهم .

ولقد دخلوا في اللعبة الدولية آنذاك وهي لعبة السراخ بين القوتين العظميين من جهة ولعبة السيطرة والولاء ونقل الولاء وغير ذلك مما أتقنه حكام الحيرة وحكام بصرى من الغساسنة ، فقد وقف الحارث مع الفرس المزدكين ليصل إلى حكم الحيرة ، في الوقت الذي توجه به امرئ القيس إلى قيصر الروم ليساعده في استرداد مملكته . أوللتأثر من قبائل أسد التي تمكن أحد عناصرها من النهاية على امرئ القيس عند القيصر مما أدى لقتله . وباعتبار أن الكنديين حكموا في غير قبائلهم فقد استمدوا قوتهم من ما هضيم أو من تأييد قبائل حمير لهم . كما يلاحظ أن الحكام من الكندييين قد انتشروا في الكثير من الأماكن اعتباراً من حصرمرت إلى نجد إلى البحرين فالعراق فالحيرة . وهذا النموذج الفريد من الحكم لم يدم طويلاً كما دامت دولة اللخمييين (الغنادرة) أو دولة أبناء جفنة (الغساسنة) .

هذا الوضع أضعف الكنديين فلم يكن لهم استقرار على قبيلة أو مجموعة قبائل مرحدة بل كانوا حكاما متوازيين أحيانا في مستوى سلطانهم . وهذه الفرقة أيضا جعلت أعداءهم يطالونهم الواحد تلو الآخر كما فعل الغندير بن ماء السماء العائد بعد انكسار المزدكية فقد تمكن من قتل الأب والإيقاع بين الأبناء واصطيادهم بأساليب مختلفة الواحد تلو الآخر .

لم يبق من سلطان الكنديين عند ظهور الإسلام إلا بعض السلطات الضعيفة حيث دخلت كلها في هذا الدين .

= علي - تاريخ ٣ / ٢٥٩١٠ العرب على حدود بيزنطة ١٨٠

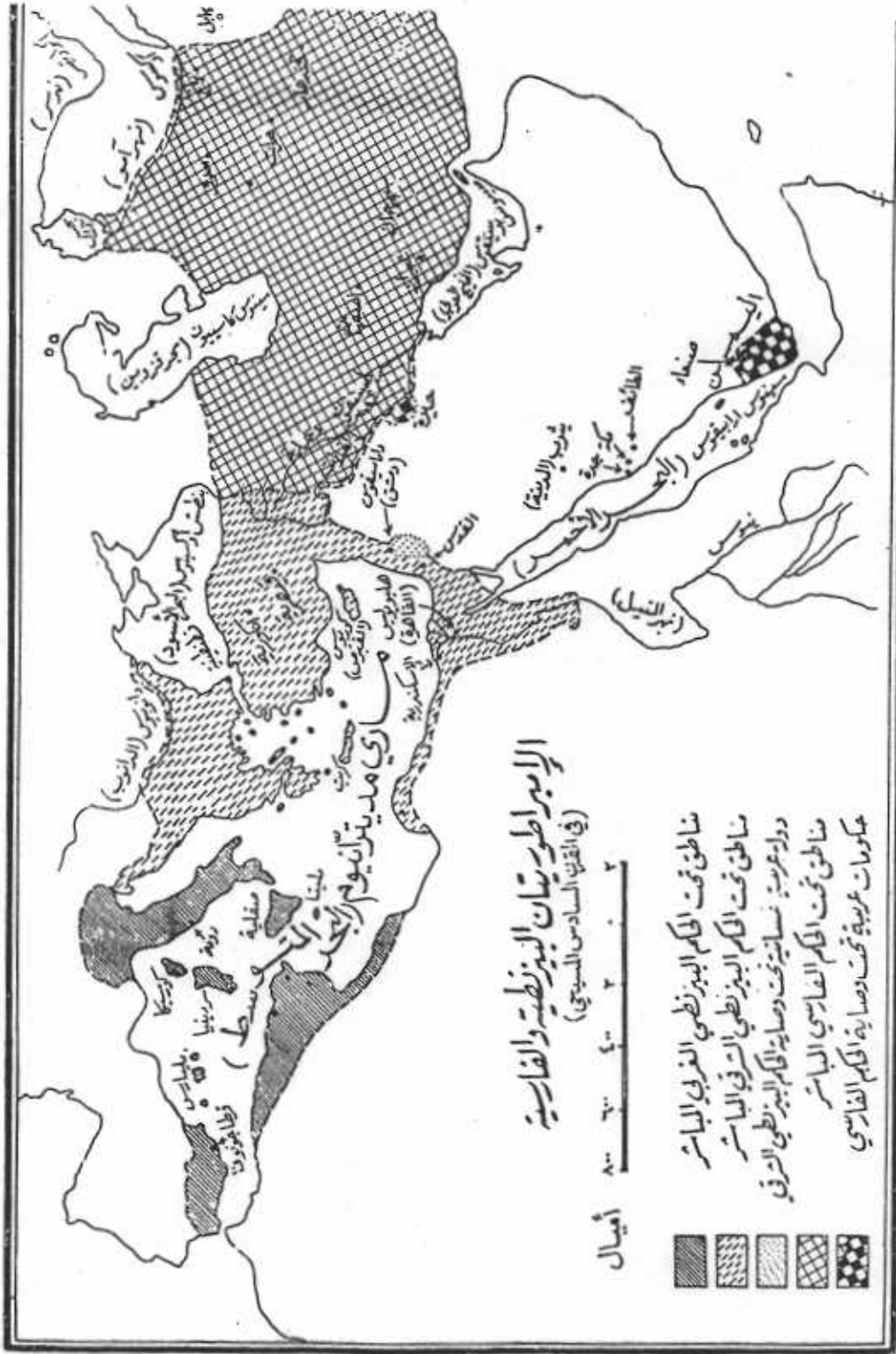
(٣) تاريخ العرب قبل الإسلام - جرجي زيدان ٢٩٠ - ٢٩١

د - الإمبراطوريات الكبيرة

مدخل : في الوقت الذي ظهرت فيه القوى العربية المختلفة والمتنافسة وأشكالها المتعددة ، كان العالم المعروف في ذلك الوقت يتبع تحت سيطرة القوتين العظميين ، كما هو متعارف عليه الآن وهما دولة الفرس الساسانيين في الشرق ، ودولة الروم البيزنطيين في الغرب ، وحدود هاتين الدولتين لم تكن ثابتة باستمرار ، بل يعترضها التبدل والتغيير يوماً بعد يوم نتيجة الحروب المتواصلة بين هاتين القوتين من جهة على مدى ألف عام تقريباً . لكن النفوذ الفارسي لا يتعدى في المنطقة العربية هذا الرقم فقد بدأ الغزو الروماني للمنطقة على إثر انحصار النفوذ اليوناني والذي سبق ميلاد المسيح بعقد أو أقل .

العالم وقتها هم الفرس والروم ، وكل القوى الأخرى لم يكن معنأى عن سيطرة هاتين القوتين ، ولقد مر معنا بعض هذا التأثير في بعض القبائل ، وبعض المناطق التي وقعت تحت التأثير الفارسي والبيزنطي . لقد استحوذ تاريخ الفرس في الدراسات العربية مساحة أوسع وأكثر مما اعتنى بالتاريخ الروماني والسبب الواضح في ذلك هو دخول الفرس في الإسلام في فترة لاحقة من التاريخ الإسلامي بل إن كثيراً من القوى في العصر العباسي كان يحركها الفرس من أعلى المستويات إلى أدناها . وفي ذلك التاريخ بدأ التدوين العام والموسم للتاريخ الإسلامي ، فتوجه الشيرازيون إلى دراسة أحوال هذه الدولة وهؤلاء القوم . كما أن ظهور عدد كبير جداً من العلماء والمؤرخين المنحدرين من أصل فارسي ، أو أنهم ولدوا وترعرعوا في بلاد فارس كان له الأثر الكبير في الولوج بهذا الباب . وقد استفاد التاريخ الإسلامي بذكر حتى الجزئيات البسيطة من هذا التاريخ ، وانفردت كتب فقط بدراسة هذه الدولة أو تلك . وكان للتزاحم الذي حصل بين الفرس والعرب في فترات لاحقة أثره الكبير في هذا المضمار .

أما بالنسبة للتاريخ الروماني فإن المصادر العربية القديمة قليلاً ما تذكره ، والسبب في ذلك إن بلاد الروم والشعب البيزنطي بقوا دار حرب طوال فترات التاريخ الإسلامي الوسيط ، حتى قوض الأتراك المسلمون حكم بيزنطة بدخولهم عاصمتها في بداية التاريخ الحديث وباسم الإسلام . فلم يكتب للمؤرخين الحديث الكثير عن هذه الدولة إلا ما لا بد من ذكره ، حيث أفاض المفسرون بتفسير سورة الروم ، ونقلوا الكثير من الأحداث التي جرت بين الفرس والروم - أهل الكتاب - أمام الفرس الوثنيين وذلك في بداية ظهور الدعوة الإسلامية . مما جعل الوثنيين العرب يتخذون هزيمة الروم وقتها سبباً قوياً للتشهير بالمسلمين أصحاب الكتاب الجديد (القرآن الكريم) ويفرحون لهذا الانهزام أمام وثنية الفرس على الرغم من أنهم كانوا حديثي عهد بنصر كتبه الله لهم على فارس في " ندى قار " كما أفاض المؤرخون المسلمون بذكر المصادمات والحروب والوقائع التي جرت بين المسلمين والفرس لكنهم لم ينتظروا إلى أفراد دراسات عن عهد خاصة متسلسلة من تاريخ الدولة البيزنطية



الإمبراطورية رومان البيزنطية والفاضية
(في القرن السادس المسيحي)

أميال ٨٠٠ ٦٠٠ ٤٠٠ ٢٠٠ ٠ ٢٠٠ ٤٠٠ ٦٠٠ ٨٠٠

- مناطق تحت الحكم البيزنطي الغربي المباشر
- ▨ مناطق تحت الحكم البيزنطي الشرقي المباشر
- ▤ دول عربية ساسانية تحت وصاية الحكم البيزنطي الشرقي
- ▧ مناطق تحت الحكم الفارسي المباشر
- ▩ ممالك عربية تحت وصاية الحكم الفارسي

المسيرة البيزنطية
وصنا أسرار الأديان والبرامد العميرات والقوا كما كانت تسمى في القرن السادس المسيحي ممسكة لظقتها اللاتيني
إبراهيم الحسني الندوي

وفي التاريخ العربي القديم منه والوسيط والحديث حتى توجه المؤرخون الى سد مثل هذا الفراغ ونقل عنهم بعض المؤرخين المحدثين من العرب هذه الأحداث خاصة فيما يتعلق بالصراع الديني ضمن الديانة المسيحية بين نصارى العرب ونصارى الروم ، وما أدت له هذه الصراعات من تحريفات وإضافات في الديانة المسيحية . وأصبح لدينا سجلاً حافلاً بالأحداث التي نحن بصدد ها عن هاتين الدولتين من العرب والفرس اللاحقين والروم واليونان المعاصرين وكذلك عن الفرس والعرب الذين غزت أفكارهم المبادئ القومية لينبشوا في التاريخ القديم الذي وجدوا فيه أملاً كبيراً ليمدهم بالأحداث التي تدعم أفكارهم وتثبتها .

والذي يعنيننا في هذا المقام هو اللقاء صؤ بسيط على هاتين الدولتين اللتين كان لهما تأثيراً كبيراً فاعلاً في الأحداث التي كانت عند الأنصار وأغيرهم من العرب أو المسلمين بعد ذلك . سبق ظهور الدولة الرومانية في منطقة الشرق - بلاد الشام والعراق ووادي النيل وحوافى الجزيرة ظهور امبراطورية الاسكندر المقدوني - القرن الرابع قبل الميلاد - التي تمكنت أن تخترق كل القوى المتناثرة في هذه المنطقة ، والوصول إلى بلاد فارس ، وانتهى زخم هذه الدولة بمسوت مؤسسها في بلاد فارس وكان لهذه الهجمة بعد ذلك التأثير الكبير على المنطقة ككل ، فقد انقسمت هذه الامبراطورية الواسعة السريعة الظهور إلى ثلاثة أقسام استغل بكل واحدة منها أحد قادة الاسكندر .

١ - أخذ ننفوس المقاطعات الأوروبية وبعض آسيا الصغرى / تركيا

٢ - أخذ بطليموس مصر وجنوبي سوريا وبعض شواحي آسيا الصغرى / تركيا

٣ - أخذ ساسان ما تبقى من المقاطعات الآسيوية

ثم تقلصت هذه الأقسام مع الأيام وسادت أحوالها السياسية بالاستبداد ، ولكن تمتعت بشيء من التقدم العلمي والإزدهار في العمران ، ولقد بنى في هذه الحقبة مدن كثيرة أشهرها الاسكندرية العظمى في مصر ، والاسكندرونة وأنطاكية في شمال سوريا والاسكندرية في العراق (١) حدث تطور خطير في الشرق الأدنى بعد الميلاد فقد زالت حكومة (البارثيين) (الفرث) (البرث) في حوالي سنة ٢٢٦ م وحلت محلها حكومة عرفت بحكومة (الساسانيين) وهي حكومة نبعت من ثورة على الحكومة السابقة ، تولى كبرها ملوك أقوياء أظهروا حزماً وشدة جعلت الروم يهابونهم ويرون انهم متكفنون لهم في القوة ، ولم يكن الروم ينظرون إلى (الفرث) بهذه النظرة من قبل (٢) لما قويت روميته في إيطاليا بسطت سيطرتها على الجزء المعمور من أوروبا وعلى الجانب الشمالي الغربي من قارة إفريقيا ، وعلى سواحل سورية من مملكة السلوقيين ، فأنشأت بذلك امبراطورية واسعة .

(١) تاريخ الجاهلية - برون ص ٦٢ . جواد علي - تاريخ ١ / ٣٢٢ فما بعد

(٢) جواد علي - تاريخ ٢ / ٦٢٦

في عام ٤٨ ق م قاد يوليوس قيصر جماعة على مصر في أيام كليوباترة آخر البطالسة على عرش مصر ولكنه لم يثبت فيها حكم روميه ، وقتل يوليوس قيصر في ٥ آذار (مارس) عام ٤٤ ق م فخلفه اوكتافيوس قيصر ٣٠ - ١٤ ق م فكان عهده مليئاً بالإزدهار السياسي والاجتماعي ، وبالأحداث فهو الذي ارسل ماركوس أنطونيوس إلى فتح مصر (٣٠ ق م) فلما لم تتجج كليوباترة في رد الغز الروماني عن مصر ، ولا في اقتناع انطونيوس بالرجوع كما كانت قد افعتت يوليوس قيصر من قبل انتحرت . ثم ان اوكتافيوس هو الذي أرسل الحملة على اليمن ٢١ ق م فلم يوفق في فتحها . وبعد فتح مصر تحولت طريق التجارة بين الهند وأروية إلى البحر الاحمر ، فقلت قيمة الطريق البرية للتجارة وقلت قيمة اليمن كمحطة تجارية على تلك الطريق .

وفي ايام اوكتافيوس ولد المسيح عليه السلام في بيت لحم بفلسطين ، ثم أعلن رسالته في أيام طيباريوس قيصر ١٤ - ٣٧ م . دعا عيسى عليه السلام إلى الإيمان بالله تعالى وإلى المحبة والرحمة والزهد في الدنيا ولما أراد الناس به شراً رفعه الله إليه ، وكان عمره آنذاك ثلاثين عاماً أما مدة رسالته فكانت أياماً معدودة .

في مطلع القرن الرابع للميلاد كان الضعف قد ظهر جلياً على الإمبراطورية الرومانية ، فمن العوامل التي ساعدت على ضعف الامبراطورية انتشار البرابرة في أوروبا ، وعودة الفرس إلى قوتهم السياسية والعسكرية . فقيام الدولة الساسانية ٢٢٦ م ، ثم القلاقل الداخلية والثورات ، والنزاع بين النصرانية والوثنية . ولما تجددت العداوة والحرب بين الرومان والفرس اضطر الاباطرة الرومانيون إلى قضاء زمن في روميه وقضاء زمن آخر في آسيا الصغرى / تركيا ، ليكونوا قريبين من ميدان المعارك بينهم وبين الفرس . فلما جاء قسطنطين الأول إلى عرش الامبراطورية عام ٣٠٦ م بنى عاصمه جديدة عند مشهد بلدة بيزنطيوم القديمة وسماها (القسطنطينية) . وفي عام ٣١٣ م جعل قسطنطين النصرانية ديناً رسمياً للدولة (١)

وعلى أثر ذلك انقسمت الامبراطورية إلى قسمين ، وصارت القسطنطينية عاصمة للجزء الشرقي الذي كون الامبراطورية البيزنطية وذلك في سنة ٣٣٠ م . وتولت هذه الامبراطورية إرث النزاع مع الفرس النزاع الموروث من الاسكندر وأصبحت بحكم وجودها في بلاد الشام ومصر على اتصال بالعرب بالبحر والبر (٢) وكان ذلك قبل وفاة ثود وسيوس ٣٢٩ - ٣٦٥ م حيث قسم الامبراطورية بين ولديه ، فجعل احدهما امبراطوراً في روميه ، والآخر امبراطوراً في القسطنطينية ، فانقسمت بذلك الدولة إلى قسمين مستقلين تماما . وقد عرف القسم الشرقي باسم الامبراطورية الرومانية الشرقية " أو " الامبراطورية البيزنطية " وعرفه العرب باسم " مملكة الروم " (١)

وكان لا بد للساسانيين والبيزنطيين من التعامل مع العرب ومن استرضائهم ووضح حساب لهم فقد

كانت لكل من الامبراطوريتين حدوداً واسعة طويلة معهم ، كما لان في كل من الامبراطوريتين قبائل ذات شأن نازله في ارضها في مناطق حساسة هي حافات الحدود ، وأما البادية بادية الشام التي تملأ الهلال الخصيب ، فقد كانت مملوءة بقبائل عربية تعرف عند الروم باسم SARACENS و SCENITES وتعني الكلمة الاخيرة سكان الخيام ، وأهل الخيام ، وهي كما قال أحد المؤرخين الكلاسيكيين في تنقل مستمر وحركة دائمة من مكان إلى مكان ، انا وجدت أرضاً خسبة عاشت عليها وآلا كسبت معيشتها بالغزو تغير على أرض الفرس وأرض الروم ، فاذا جابهتها قوة تفهقرت إلى البادية حيث يعسر على غير الأعراب ولوجها لتأديبهم ، ولهذا لم يكن امام الحكومات الببيرة إلا استرضاء تلك القبائل لصيانة حدودها وللإستفادة منها في إلقاء الرعب في قلوب الأعداء والخصم (١)

وعلى نفس المنهج يروي " اميانوس مارسيلينوس " (٢) نثرلة عامة على العرب ، وهي بمثابة تعبير للرأي^{السائد} عنهم بين الدوائر الحكومية للامبراطورية القريبة من القيسر نفسه فهو يقول : يجب علينا ان لا نتخذ العرب أصدقاء لنا أو أعداء ، ذلك لانهم شعب من الرحل ينتقلون من موضع الى آخر ثم ينقضون بأسرع من لعج البصر فينهبون جميع ما تقع عليه أيديهم ، فهم أشبه بالجان التي تتعص على فريستها من حائل ثم تغلق في سرعة خاطفة مبتعدة عنها (٣)

لقد كانت جميع أحداث القرون التي لحقت قيام مملكة الساسانيين والبيزنطيين سراعاً دائماً حرباً مستمرة بينهما وبين القبائل العربية التي سادت في ملك هاتين القوتين ، وبلغ التأثير مداه في العرب حيث كانت العفوات تنزل بديارهم بشدة مفرغ ، إذا تخلوا عن ولاء الى ولاء ، أو انهم انحازوا إلى جانب ضد الآخر ، وكان هذا دينهم وهذه عادتهم ، ولذلك فقد جرت على رقاب العرب الكثير من الأحداث الجسام خلال القرون الثلاث التي تلت قيام هاتين الدولتين وحتى ظهور الاسلام ، وقد اتخذ الساسانيون والبيزنطيون هؤلاء العرب دواعياً لهم وترساً يثقون به ليس غارات البدو فقط بل وكذلك الهجمات الببيرة التي كانت تبدأ عليهم ، ومنهم من نفي عن بكرة أبيه ، ومنهم من جاءت عليهم الماحقة كما فعل اردشير بأهل البحرين كما ذكر حمزة الاصمباني عندما بنى قسراً أسماء " بتن اردشير " بناء بصف من الحجارة وصف من الجنت (٤)

وكذلك فعل سابور الاول ٢٤١ - ٢٧٢م بعد انتصاراته على الروم اذا لقي فائلة كبيرة من الجمال أهداها له (أذينة ملك تدمر) ألقاها في الفرات احتقاراً لها في دينها ولموقعه ، ان ظن انه اصبح ملك الدنيا عن غير منازع لكن أذينة تمكن من أن ينال عزه في جيش الساسانيين

(١) جواد علي - تاريخ ٦٢٧/٢ (٢) مارسيلينوس رفيق الامبراطور يوليان أحد ابصرة روما في القرن الرابع الميلادي ، وقد دون مسنقات تاريخية من العرب لا يرقى اليها الندك RES GESTARUM لاعتماده على انطباعات شخصية ومباشرة ومصادر سماعية وقد كتب من العرب وأخلاقهم وعلاقتهم مع الامبراطورية الرومانية .
(٣) العرب على حدود بيزنطة س ٥١ . (٤) جواد علي - تاريخ ٦٣٣/٢ - ٦٣٤

وهزيمهم هزيمة منكرة حتى تركوا له أكثر الغنائم التي غنمها من الروم (١)

أما بالنسبة للبيزنطيين فإن العرب قاموا خير قيام بمهمة حراسة الحدود ، وإن الكثير من مصلحة بيزنطة قد ارتبط بيقظتهم وصلابتهم بالقتال ، أما في داخل الدولة نفسها ، أي حدودها الداخلية فقد وجدت القوات البيزنطية التي كان قوادها من البيزنطيين ، وظلت الحدود (ليميس Limes بمعناها الضيق جميعها في أيديهم . ويجب عدم التقليل من أهمية النخاسنة كدولة عازلة تسلمت غير مرة الضربات الأولى والأكثر قوة ، سواء من القوات الفارسية أو القوات العربية للبد . ومنذ اللحظة التي فقدت فيها بيزنطة موازنة النخاسنة فإن وضعها السياسي الخارجي ساء بصورة ملحوظة ، فالدفاع ضد الفرس أصبح أكثر صعوبة ، ويقف دليلا على هذا ما ناله هؤلاء من انتصارات في نهاية القرن السادس .

وأكثر خطورة من هذا كان وضع الامبراطورية عند هجوم المسلمين . ذلك ان الدور المخفف الذي كان من الممكن أن تلعبه دولة العرب العازلة BUFFER لم يتحقق ، وبهذا فقد وجدت بيزنطة نفسها وجها لوجه امام العرب المسلمين ، تلك القوات الفتية المرحة للكلمة ، والتي أنعم قلوب أفرادها الايمان بالعقيدة الجديدة وهي الاسلام ، فلم تستطع بيزنطة ان تفيق من الضربة الشديدة التي وجهت اليها ، ولم تتمكن من الدفاع عن عاصمتها إلاّ بمشقة وعناء شديد (١) وفي جملة ما اتخذه البيزنطيون من وسائل التأثير في الشرقيين وفي حملتهم العرب نشر النصرانية ، الديانة التي قبلوها ودانوا فيها واتخذوها ديانة رسمية للدولة ، وفي نشر النصرانية تقوية لنفوذهم وسند لسياستهم في نزاعهم مع الساسانيين ، ولهذا نراهم يشجعون إرسال البعثات التبشيرية والإرساليات الدينية إلى افريقيا وإلى بلاد العرب وإلى الهند وينفقون بسخاء لبناء الكنائس في تلك الارضين والتي أصبحت دورا للتبشير السياسي والثقافي .

وتعمقت النصرانية من كسب بعض العرب فجزتهم إليها ، جذبت اليها القبائل السانقة على حدود الأرياف والأطراف ، أي سكان المناطق الحساسة الدقيقة بالنسبة الى الخطط السياسية والعسكرية للساسانيين وللبيزنطيين على حد سواء ، وقد كان من سوء المصادفات ان النصرانية كانت قد تجزأت الى شيع وغالبية النصارى العرب تعذ هبت بمذهب يخالف مذهب الروم ، ولكنها كانت تشعر على كل حال انها مع الروم على دين واحد ، ولهذا لم يحفل ساسة القسطنطينية بموضوع الخلاف المذهبي ، وإن تألموا من وجوده وظهوره . فساعدوا نصارى اليمن ونصارى الأماكن الأخرى من جزيرة العرب على اختلافهم عنهم ، وعملوا في الوقت نفسه على نشر مذهبهم بين العرب ليتمكنوا بذلك من ايجاد محيط ثقافي سياسي يؤيد البيزنطيين (٢)

وقد شجع الساسانيون مذهب نسطور الذي اعتنقه العرب ثم انهم كانوا مجوسا ولم يكونوا نصارى

شجعوه لانه مذهب يعارض مذهب الروم ، فانتشر في العراق وفي إيران ، وفي سائر الارضين الخاضعة للحكم الساساني ، ودخل في هذا المذهب أكثر النصارى العرب في العراق ، ومن يدري فلعلهم ساهموا من طرف خفي في توسيع الشقة بين هذا المذهب ومذهب الروم ، ولالقاء العداوة بين هؤلاء النصارى والروم (١)

وكانت من نتائج العداوة الموروثة بين الساسانيين والبيزنطيين ان انتقلت عداوة الى العرب ايضا فصار اناس منهم مع الفرس واخرون مع الروم ، وبين العربيين عداوة بغضا مع أنهما من جنس واحد ، وكلاهما غريب عن الساسانيين والبيزنطيين . وقد تجسمت هذه العداوة في غزوعرب الحيرة للغساسنة وفي غزوالغساسنة لأهل الحيرة حتى في الأيام التي لم يكن فيها قتال بين الفرس والروم ، مما أدى أحيانا الى تكويرصفوا السلم الذي كان بين البيزنطيين والساسانيين ، وتجسمت في شعر المدح والهجاء الذي نجده في حق آل نصرأ وآل لخم من الشعراء الذين وجدوا في هذه البغضا فتسعا لهم ومفرجا في الرزق ، فصار بعضهم يسامون في أجور المدح والذم .

وقد انتهت حدود الارضيين التي خضعت لحكم البيزنطيين أو سلطانهم عند حدود المقاطعة العربية الجنوبية فلم تتجاوزها الى ظهور الاسلام ، ولعل محاولة (أبرهة) الاستيلاء على مكة كانت خطة سياسية عسكرية من خطط البيزنطيين كانت ترمي إلى الاستيلاء على السفة التي بقيت تفصل بين الروم والحكم الحبشي في اليمن (٢) فيبسط بذلك البيزنطيون سلطانهم السياسي على

العربية الغربية كلها وعلى قسم كبير من العربية الجنوبية . ومن يدري فلعلهم كانوا يبغون من بعد ذلك احتلال العربية الجنوبية كلها ، لغرض سيطرتهم على أهم جزء من خطوط الملاحة البحرية العالمية المؤدية الى الهند والسواحل الافريقية .

أما فيما عدا ذلك من جزيرة العرب فلم يكن للبيزنطيين سلطان سياسي أو تدخل فعلي ، ولهذا انفردت فعالياتهم السياسية والعسكرية مع العرب النازلين في الأرضين التي خضعت لحكمهم وسلطانهم ، ومع عرب الشام وعرب العراق (٣)

ولقد كان هوى العرب ينتقل بسرعة بين القوتين العظميين نتيجة حسن أو سوء معاملة احدي هذه الدول للفضائل الواقعة تحت سلطانها ، وامتلأت كتب الأخبار بأعمال الملك الساساني سابور الذي فتك بالقبائل العربية في البحرين وسواها مما جعل الكثير من هذه القبائل تنقل ولاءها الى الروم وتخضع لهم ومع كل هذا فان الروم لم يكونوا شديدي الثقة بهذه القبائل نتيجة تقلب هذا الولاء .

ونذكر المرح (أليافوس مرسيلينوس) ان سادات القبائل قدموا الى قيصر تاجا من ذهب ليعبر عن خضوعهم له ، ولقبوه بلقب (ملك العرب) ، فقبل الملك منهم التاج واللقب لما فسي

(١) جواد علي - تاريخ ٦٢٩/٢ من المعلوم ان الحكم الحبشي في اليمن كان يحضخ خضوعا تاما لبيزنطة سياسيا ودينيا وثقافيا
(٢) جواد علي - تاريخ ٦٣١/٢

ذلك من اثر معنوى يحدثه في نفوس العرب ، وحاربت القبائل التي انضمت اليه الفرس في معارك صغيرة ، فكافأها الفيسر على عملها هذا ، إلا انه لم يقدم لها معونات الذهب التي كانت تقدم عادة إلى سادات القبائل فاستاء الرؤساء من ذلك ، وانحاز قسم منهم إلى الفرس وأخذوا يتحرشون بحسكرو (يوليانوس) والحقوا به خسائر في الأرواح وباعوا من وقع في أيديهم أسيرا في سجون النخاسة وكان سبب انتقال أو انضمام تلك القبائل إلى الروم ، ملاقاته من شدة (سابور) ومن تنكيهه بها فأرادت بانضمامها إلى (يوليانوس) الانتقام من الفرس ، وأخذ تأرها منهم عند سني أول فرصة وقد آذوه فعلاً مما حمله على تغيير سياسته تجاههم ، فأخذ يسترضيهم فعاد من عاد اليه منهم (١) وبلغ من تأثير العرب بالقوتين العجميين اعتناق الديانة التي كانت تعرضها تلك العوقا وتلك فقد اعتنق النساسنة النصرانية وكذلك المناذرة ، ولهمم اعتنقوا مذهباً يخالف مذهب الدولة الرومانية الاسلي . وكانت الفرس تشجع على هذا الانقسام وتؤيده بما سبق ، ولكن بلغت التبعية حداً بتعصب وثني العرب إلى الفرس ضد الروم ، ولعل ما ذكره القرآن الكريم خير شاهد على ذلك .

الْم . غَلِبَتِ الرُّومُ . فِي آدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ يَعْتَدُونَ . فِي بَضْعِ سِنِينَ . لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ
وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْعَلُ الْمُؤْمِنُونَ . يَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ . وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ
اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . (٢)

روى ابن جرير باسناده عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : كانت فارس ظاهرة على الروم وكان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم . وكان المسلمون يحبون أن يظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب . وهم أقرب إلى دينهم ، فلما نزلت " الم . غلبت الروم " قالوا : يا أبا بكر ان صاحبك يقول ان الروم تظهر على فارس في بضع سنين . قال : صدق . قالوا : هل لك ان نقاتمك . (نراهنك) ؟ فبايعوه على اربع فلا نصر . . الى سبع سنين فضت السبع ولم يكس شي . ففرح المشركون بذلك فشق على المسلمين ، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : ما بضع سنين عندكم ، قالوا : دون العشر قال : اذهب فزايدهم وازدد سنيتين على الأجل . قال : فما مضت السنتان حتى جاءت الركبان بظهر الروم على الفرس ففرح المؤمنون بذلك .

وقد وردت في هذا الحادث روايات كثيرة اخترنا منها رواية الامام ابن جرير ، وقبل ان نتجاوز الحادث إلى ما رواه في السورة من التوجهات نحبان نغف امام بعض ايحاءاته القوة ، وأول

(١) جواد علي - تاريخ ٦٤٢ / ٢ - ٦٤٣
(٢) سورة الروم ١ - ٦

هذه الادعاءات ذلك الترابط بين الشرك والكفر في كل مكان وزمان أمام دعوة التوحيد والايمان . ومع ان الدول قديماً لم تكن شديدة الإتصال ، والأُمم لم تكن وثيقة لإرتباطها هو الانسان فسي عسرنا الحاضر ، مع هذا فان المشركين في مكة كانوا يحسون انتصار المشركين في أي مكان على أهل الكتاب سواء انتصار لهم ، وكان المسلمون كذلك يحسون أن هناك ما يربطهم بأهل الكتاب ، وكان يسوءهم أن ينتصر المشركون في أي مكان (١) ثم ان رسول الله قال لابي بكر زدد في الخطر وأبعد في الاجل فبجلاها مائة قلوصل الى تسع سنين ومات أبي بن خلف (المراهن) من جرح رسول الله صلى الله عليه وسلم وظهرت الروم على فارس يوم الحديبية او يوم بدر فأخذ أبو بكر الخطر من ذرية أبي ، فقال عليه السلام " تصديقه وهذه آية بينة على صحة نبوته عليه السلام وان القرآن من عند الله لانها انباء من علم العيب ، وكان ذلك قبل تحريم القمار (٢)

وقد استفان الطبري يذكر تلك السروب التي قامت بين الفرس والروم في ذلك الوقت والتي كانت حوالي السنة الثامنة للبعثة ٥٠ ق هـ (٣) ويصور الطبري وغيره من المؤرخين المسلمين هرقل (قائد الروم) بالانتصار المذكور رجلاً مؤمناً صادق الإيمان ، بإيمانه تمكن أن يحكم الروم أولاً ثم يوقع الهزيمة بهم ، وكيف أن وقوع الفتنة بين كسرى ابرويز وقواده خاصة الاخوين (مرخان) الذي حلم بانه يجلس على عرش كسرى ، وأخيه (شهر براز) الذي لم ينفذ أمر الملك بقتل أخيه وارسال رأسه إليه ؛ وتمضي الرواية الى القول وسار هرقل حتى كان قريباً من المدائن فلما تساقط إلى كسرى خبره واستعد لقتاله انصرف الى أرض الروم وكتب كسرى إلى تواد الجند الذين انهزموا يأمرهم أن يدلوهم على كل رجل منهم ومن أصحابهم ممن فشل في تلك الحروب ولم يرابط بمركزه فيها . فبأمر أن يعاقب بقدماء استوجب ، فأخرجهم بهذا الكتاب إلى الخلافة عليه ، وطلب الحيل لنجاة أنفسهم منه ، وكتب إلى شهر براز يأمره بالقدم عليه ويستعجله في ذلك ، ويصف ما كان من أمر الروم في عمله ، وقد قيل ان قول الله تعالى الم . غلبت الروم . إنما نزل في أمر ابرويز ملك فارس ، وملك الروم هرقل وما كان بينهما

ما قد ذكر (٣)

وذكر هذه الأحداث تؤكد لنا عمق التأثير العربي بالقوتين العظيمين آنذاك ، سواء من حيث المعتقد أو من حيث التأثير السياسي أو الإداري ، ونذكر هنا أن العديد من الشعراء قد زاروا بلاط ملوك السرس أو أباطرة الروم . وكان التفاهم ليس غربياً بينهم إما لوجود مترجمين أو لمعرفة هؤلاء الملوك لغة العرب . هؤلاء الذين كانوا عاملاً فاصلاً ومهماً وخطيراً ومساعداً في انحسار

وانتصار إحدى هاتين القوتين . ولعل نظام الحكم المختلف نوعاً ما عن حياة العرب سواء في (١) في طلال القرآن - سيد قطب / ٥ / ٢٧٥٦ . تفسير القرآن العظيم - ابن تثير / ٣ / ٤٢٢ - ٤٣٣ الطبري - تاريخ / ٢ / ١٨٤ . مجمع البيان - تفسير / ٧ / ٢٩٤ - ٢٩٥ . (٢) تفسير القرآن الجليل / ٣ / ١ - ١ . (٣) الطبري - تاريخ / ٢ / ١٨١ فما بعد . التامل - ابن الاثير / ١ / ٢٨٠ فما بعد . تفسير القرآن العظيم / ٣ / ٤٣٤

في قبائلهم أو مدنهم أو ممالكهم فإن هذا لا يعني إطلاقاً بعد هم عن هذه الأنظمة ، إذا لم يكن بعضاً منهم فاعلاً فيها الكثير من القادة العرب أو الملوك قد اتخذوا ألقاباً فارسية أو رومية أو حتى ألقاباً تتعلق بالنيسة والديانة النصرانية ، وقد أفردت مؤلفة كتاب (العرب على حدود بيزنطة وإيران) فصلاً مستقلاً عن علاقة العرب بالنصرانية وعن المراكز الدينية التي وصل إليها الهير منهم (١)

كما ان كثيراً من الملوك في بصرى (الغساسنة) أو في الحيرة (المنادرة) قد نالوا هذه الألقاب وأخذوها وسعوا إليها .

إن سكان جزيرة العرب على اختلاف تجمعاتهم السياسية والاجتماعية والدينية قد تأثروا تأثراً بعيداً فيما يجرى على الساحة العالمية في أدنى الأرض وأقصاها ، وهو أمر حتمي حيث ان الرسول صلى الله عليه وسلم قد أرسل أصحابه إلى الجبهة لعلمه بروع وتقى وصلاح النجاشي آنذاك . والمسلمون الذين تحداوا مشركي قريش بان المؤمنين من أهل الكتاب منتسرون في بضع سنين بموجب التنزيل الذي قاله الرسول وحياً من عند ربه مشجعا المؤمنين على الثبات والصبر . ولم يمض كبير وقت على ذى قار التي كانت في العهد العتيق و (هؤلة) التي كانت في العهد المدني حيث رفع العرب بالاولى شعار (يا محمد يا منصور) وهم على وتويتهم ، وذهب المؤمنون الصادقون إلى مؤتة لتكون معركة خالدة في تاريخ الاسلام . وتتوالى بعد ذلك الأحداث واللقاء بين القوة المسلمة الناهضة والقوتين العظيمين . . وتتساقط المهياكل تحت ضربات المسلمين القوية التي قضت على سلطانهما السياسي والديني والفكرى والعقائدي .

(١) العرب على حدود بيزنطة ، ٣١٢ ، ٣٢٣

هـ - الفكر السياسي عند يهود

في القرآن الكريم يبدو لنا ان قصايا الحكم والملك عند اليهود قد بدأت من لدن سيدنا موسى عليه السلام الذي أرسل ليجمع شتات بني اسرائيل في مصر بعد أن تدنت حالتهم العادية والمعنوية والفكرية والاجتماعية وحتى السياسية ، وأصبحوا طبقة أدنى من بقية الناس ، فقد استعبد هم الفراغة واستذلوهم ، ووصل الحال بهم إلى وضع سيء للغاية حتى قتل أبنائهم لمجرد رؤيا كان أمراً عادياً جداً ، تخلص منه سيدنا موسى عليه السلام بمعجزة ولامرأاده الله تعالى ، وليزدي المهمة التي أرسله الله تعالى بها .

لقد كانت مهمة سيدنا موسى ذات شقين .

الشق الاول : هداية فرعون وقومه إلى عبادة الله والتخلي عن الوثنية وعمل الشيطان وعبادة الملوك وهذه مهمة الأنبياء قاطبة .

الشق الثاني : جمع شتات بني اسرائيل ، وتثبيت الإيمان في عقولهم بعد أن انحرفوا عن دين إبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف إلى الآلهة التي فرضها فرعون وقومه . ومن سياق آيات الله تعالى التي وردت في القرآن الكريم عن موسى يتبين هذان الأمران بوضوح .

نعن القصد الاول يقول الله تعالى : (ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَأَنْظَرْنَاهُ كَيْفَ نَكَّانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ . وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ) (الأعراف ١٠٣ - ١٠٤) . (قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَىٰ النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْنَاكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ) (الأعراف ١٤٤) . (وَلَمَّا رَفَعْنَا عَلَيْهِمُ الرِّجْزَ قَالُوا يَا مُوسَىٰ آذِعْ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عٰهَدَ بِعِنْدِكَ لَئِن كَسَفَتْ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ) (النور ١٧) . (وَلَنُرْسِلَنَّ^{لَكَ} مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ) (الأعراف ١٣٤) .

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ) (الانبياء ٥٨)

ويرد مثل هذا في مواقع كثيرة في القرآن الكريم في البقرة والأعراف والنور والشعرا والقصص وغيرهم من السور

وفي مجال دعوته لقومه قال تعالى :

(وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ) (البقرة ٥٤)

(وَلَقَدْ بَوَّأْنَاكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيْنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ) (البقرة ٦٢)

(وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أذكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ) (المائدة ٢٠)

(قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا) (الأعراف ١٢٨)

وآيات أخرى شيرة (١)

فكان موسى وأخوه هارون وزيراً له، معلماً مهمماً شاقاً ، الدعوة وجمع بني اسرائيل، وتخليصهم

من الذل والهوان . وقاد وهم بعد ذلك خارجاً من مصر إلى الارض التي وعدهم الله . لكنهم جبنوا وتخاذلوا ، ولم يضيعوا موسى بقتال أعدائهم فتاهوا في السحرا ، وتوفي موسى وهارون بعد أن خرج القوم عليهم وعادوا إلى رثيتهم باتخاذهم عاجلاً جسداً له خوار صنعوه من حليهم وذهبهم وبعد موت موسى وهارون لم يعد لدى بني اسرائيل قائد أو شابط ، أو نبي يجمعهم إلى ان بدأت مرحلة جديدة في تاريخهم السياسي وهو أن الله تعالى قد أرسل ملكاً - وهو ليس بنبي - فلم يجتمع لديه الملك والنبوة بعد موسى حتى جاء داوود في المرحلة التالية .

قال تعالى : (أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلِكِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالَ لِنَبِيِّ لَهُمْ أَبَعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) (١) . ولعل الملك هنا هو قائد وليس بملك نظراً لوجود النبي ووجود شرعة موسى وللمهمة المحددة التي طلبوها من هذا الملك وهي (القتال في سبيل الله) .

(وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَتَىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ آلَ اللَّهِ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكَةً مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) (١)

واستخدم طالوت علمه وقوته وقاد بني اسرائيل للقاء عدوهم وامتحنهم بالنهر في الآية التالية ولم يثبت معه إلا القليل الذين تعسوا أن يصعدوا لجالوت وجنوده وبرز من القوم الفتى داوود الذي قتل جالوت وتحول الملك إليه والنبوة معا .

(وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أفرغ علينا سَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانزُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ . فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ) (١)

وبدأت مرحلة ملك داوود ونبوته (٢) وتلاه ابنه سليمان نبياً ملئاً في قصته المسرورة في القرآن الكريم الذي وسع وثبت ملك بني اسرائيل . وبعد سليمان تبدأ مراحل كثيرة من أنواع الحكم في بني اسرائيل ولنسبها كلها تقريباً تتعدد بها النبوة عن الملك ، وأسبح الملك شي . والنبي شي آخر ، واصطدم الأنبياء مع الملوك وقتل الأنبياء واتحصر الملوك وكان آخرهم الذي قتل النبي يحيى عليه السلام (٣) ويصف القرآن الكريم هذا الحال في كثير من المواقع والتي تسور انحراف وانجراف بني اسرائيل ومشاكلهم ليس مع أعدائهم فقط بل وأيضاً مع انبيائهم .

إلا ان العهد القديم وفي أسفاره كلها عندما يتحدث عن الملك والنبوة فانه يتحول إلى مجالات دنيئة لاسبيل إلى الدخول فيها فيسور الملوك - ولو ان داوود أو سليمان - بأنهم يتمتعون بشهوة الملك والنساء والسراح على الحكم وقتال الأبناء للآباء ، والانعساقات الشيرة التي حصلت فيهم وانقسام مملكتهم وتشردهم ، ومن ثم عودتهم ولها تنقص من قيعة الأنبياء والملوك الأنبياء خاصة .

(١) سورة البقرة آية ٢٤٦ و ٢٤٨ و ٢٥٠ - ٢٥١

(٢) يذكر اليهود نبوة داوود عليه السلام . سيرة ابن هشام ١٩٢ / ٢

(٣) قصص الانبياء - ابن كثير ٤٧٨

ويتحدث سفر صموئيل الأول والناني عن حياة النبي داوود عليه السلام وحرره (١) ويتحدث سفر الملوك الاول عن ملك سليمان (٢) وماحل ببني اسرائيل بعد ذلك وانقلاب ملوكهم على انبيائهم . ويستند الصراع بين انبياء بني اسرائيل وملوكهم إلا من فترات هدنه أو وقفه في تاريخهم حتى بعد أن ذهب الملك منهم وأصبحوا أسرى في بابل حيث دونا مدوناتهم وحرفوا كتبهم ولعنوا بما كتبت أيديهم . ولما انقضى الأسر البابلي المعروف عاد قسم منهم إلى فلسطين اصطدموا مع الرومان ولم يعد لهم ذكر في سياسة أو حكم .

اما تاريخهم في الجزيرة العربية - والذي مر ذكره - فإنهم لم يقيموا لهم سلطاناً إلا في فترات وجيزة جداً كانت أفكارهم السياسية فيها خليط من تأثرات كثيرة بعضها من تاريخهم وهو اختلاط الفكر السياسي بالفكر الديني وهو ما كان سائداً فيهم ، ومنها ما هو متأثر بالملوك والعمالك والحكام الذين استبدوا بهم أو عايشوهم أو تعاملوا معهم ، لكنهم على كل حال لم يفقدوا في كل هذه الأفكار حب السيطرة والسلطان والقوة حتى انهم خرجوا بذلك كثيراً عما في معتقداتهم من تأثرات وقصة الملك فطيون - إن صحت - فإنها تدل على مبلغ توجههم إلى الإرهاب والتعنت وحب السيطرة والسلطان والجبروت الذي رافق فترات حكمهم المتقطعة . ويمكن لنا أن نؤكد ان اختلاط الفكر الديني بالسياسي كان في صميم معتقداتهم ويدل على ذلك تهديد هم المتواصل لأهل يثرب بان مجدهم الغابر بعد مذلتهم التي لاقوها على يد النساسنة بتدبير مالك بن العجلان سيعود على يد نبي (مبعوث مكة ، ومهاجره يثرب) يؤمنون به ويقودهم إلى النصر والعلو على الوثنيين العرب الذين استذلوهم وحولوهم إلى مرتبة تالية لهم .

لم يتمكنوا من الوثوب إلى الحكم والاستئثار به رغم سبوح الفرصة لهم بالحرب الأهلية بين الأوس والخزرج وذلك خوفاً من عودة اتحاد هذين الحيين من العرب وعودة النساسنة للإنتقام منهم وهم قريبون جداً منهم كما لم ينسى اليهود فتكهم بالنصارى في نجران عندما قتلوا العدد الكبير منهم والمعروفة قصتهم (اسحاب الأخدود) وكيف ان الرومان قد تمكنوا بمعاونة عملائهم الاحباش وتابعي ديانتهم النصرانية من القضاء على حكم الملك ذي نواس الحميري الذي اضطهد النصارى وقتل منهم ما قتل . وهذا أمر طبيعي ولا كيف لم يقم اليهود رغم كثرة عددهم وغناهم في المدينة وخيبر وتيما ، وتملكهم الكثير من الأرض والمال والآطام بمحاولة الاستفادة من صراع الأخوة (الأوس والخزرج) لاستعادة ملكهم وقوتهم وسلطانهم ، وجلسوا ينتظرون النبي المرتقب الذي قرب زمانه ليعودهم إلى النصر والرفعة بعد أن عانوا من الدل والسكينة .

وعند ظهور الاسلام ، وظهر النبي المرتقب لم تكن الأمانى قد تحققت لأن مجرى هواهم جاء على غير ما وردت به الرسالة السماوية والدين الإسلامي .

وقد رفض اليهود الدخول في الاسلام ، وأبوا تغيير دينهم ، ودافعوا عن عقيدتهم وتمسكوا فيها

(١) الكتاب المقدس - صموئيل الاول ص ٤٤٦ فما بعد

(٢) الكتاب المقدس - الملوك الاول ص ٥٢٨ فما بعد

ورفضوا التسليم بما جاء في رسالة الرسول والاعتراف بنبوته محمد الذي أرسل رحمة للعالمين كافة ،
 وأنه خاتم الانبياء والمرسلين ، وأن القرآن كتاب الله وأحكامه مؤيدة لما جاء في التوراة ، ناسخة
 لبعضها ، وقد جادلوا كثيراً ، وانبرى أحبارهم للدفاع عن عقيدتهم ومجادلة من يأتي من المسلمين
 لإقناعهم بالدخول في الإسلام حتى من أسلم منهم . وفي القرآن الكريم صور من جد لهم ومن حاجتهم
 للرسول في دعوته ومثل ذلك في كتب الحديث والسير والتاريخ .

ويتبين من نتائج دراسة صور هذا الجدل والخصام الذي وقع بين المسلمين واليهود ، وهو خصام مهم
 وخطير ، أن الخصومة كانت في مرحلتها الأولى رفضاً لدعوة الرسول إياهم للدخول في الإسلام ،
 وتمسكاً شديداً بعقيدتهم ودينهم ، وما ورد عندهم من أن النبوة قد بدأت وانتهت في بني اسرائيل
 ثم تطورت واشتدت عنفاً وقوة — هذه الخصومة — لما تبين لهم أن الإسلام يرفض نظريتهم هذه ،
 وكثيراً مما ظنوا أنه حق عندهم ، وأنه حرم أموراً ستؤثر في مستقبلهم وقد ألف بين قلوب أهل يثرب ،
 وأوجد منهم كتلة واحدة ، وأنه سيحد من سلطانهم لامحالة ، وأن وجودهم بعد ملكهم سيزول ،
 فوسعوا مقاومتهم له واتصلوا بمن وجدوا عنده حقداً وبغضاً للرسول صلى الله عليه وسلم ، وبممن
 تأثر سلطانهم بدخول أهل يثرب في الإسلام . ثم لما وجدوا أن كل ذلك غير كافٍ تراسلوا مع اعداء
 الرسول في خارج يثرب من قريش لتوحيد خطتهم معهم ومهاجمة المسلمين في مدينتهم ومعقلهم
 قبل أن يستفحل أمرهم ويقوى مركزهم فيعجزون جميعاً هم وأهل مكة من التغلب عليهم والقضاء
 على الإسلام (١)

ونجد في القرآن الكريم أمثلة من أسئلة وجهها لليهود إلى الرسول صلى الله عليه وسلم لإحراجه
 وإظهار فساد دعوته بزعمهم . سألوه أن يأتي لهم بمعجزة إن قالوا له : **إِنَّ اللَّهَ عَمِدٌ إِلَيْنَا أَلاَّ
 نُؤْمِنُ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِينَا بِقُرْآنٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ** (٢) فنزل الرد عليهم " **قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي
 بِالْبَيِّنَاتِ وَإِن لِّيَ لَفِتْمٌ فِيمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** " (٢) . نزلت في كعب بن الأشرف ومالك بن
 صيفي ووهب بن يهودا وفتحاه بن عازورا ، وجماعة أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا له : أتزعم
 أن الله أرسلك إلينا وأنه أنزل علينا كتاباً عهد إلينا فيه الا نؤمن لرسول يزعم أنه من عند الله حتى
 يأتينا بقرآن تأكله النار ، فإذا جئت به صدقناك ، فأنزل الله هذه الآية ، وسألوه أن يصعد إلى
 السماء وهم يرونه فينزل عليهم كتاباً مكتوباً فيما يدهيه على صدقة دفعة واحدة . كما أتى موسى
 بالتوراة ، وسألوه أسئلة عن أشياء مذكورة في التوراة ، وسألوه عن أشياء أخرى محرجة وعديدة .
 وأحوا إلى غيرهم من المشركين بأسئلة مماثلة ليلفوها على الرسول لامتحانهم وإحراجه ، وقد
 نزل الرحي بالرد عليهم وتأييدهم على أقوالهم هذه ، وتذكيرهم بما قام به أجدادهم وأسلانهم
 في مقام انبيائهم من عدم التصديق برسالتهم ومن الطعن^{بهم} ومن إصرارهم على عبادة الأوثان
 والكفر بالتوحيد. (١)

(١) جواد علي — تاريخ ٥٤٥/٦ ، ٥٤٧ ، (٢) سورة آل عمران — آية ١٨٢

ومن مراجعة الأسماء التي وقفت في صف عداوة الاسلام والرسول وهي كثيرة ، يظهر لنا أن بعضاً منها من الأخبار ورجال الدين ، وبعضاً منها من السادات والزعماء الدينيين ، والبعض الثالث ممن ترأس قبيلية بدينه وشرفه أو سيادته وحكمته (١)

ومن هنا نستطيع القول بأن فكر اليهود السياسي لم يكن فكراً مجرداً من عقائدهم أو مستقلاً عن ديانتهم ، بل العكس فإن فكرتهم للحكم والسيادة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمعتقداتهم ودينهم لكن الشيء الملفت للنظر هو ان قبائل يهود التي كانت في خط المدينة - تيماء قد تأثرت بالشكل القبلي العربي من حيث الإدارة ووازي رؤساء هذه القبائل شيوخ القبائل أو العشائر العربية كما ان توزعاتهم وقبائلهم أخذت شكل القبيلة العربية من حيث الترتيب الرئاسي والنجدة والتكاتف والتأثر والتلاحم وكان يجمع هذه القبائل الدين اليهودي أو المعتقدات والعادات اليهودية بينما كان يجمع القبائل العربية الإنتماء والعصبية .

وإذا كان اليهود يبشرون أفكارهم بين ابنائهم في (مدارسهم) فإنهم لم يكونوا راغبين بحال نشر دعوتهم خارج بني اسرائيل ، ولا تتميز الديانة اليهودية بالتبشير ، وهي محصورة ومفسورة بين أتباعها فقط وتزداد بالولاء ولا تزداد بالدعوة . وهذه الميزة جعلت فنرا اليهود الديني والسياسي خاصاً بهم مع بعض التأثيرات الخارجية لكن الإنفلاق الكبير في الفكر اليهودي أمر واضح . ومع دخول بعض القبائل باليهودية في التاريخ الماضي فإن ذلك كان الشواذ وليس المبدأ .

وكان اليهود يسعون دائماً إلى المسؤولين والرؤساء يضموهم إليهم ويستفيدون من نفوذهم للوصول إلى مبتغاهم من تحصيل المال والجاء والوقية والدسياسة ، ولا يتوانون عن الفتك البشع بأعدائهم وربما كانت المصائب التي تقع عليهم نتيجة رد فعل طبيعي لممارساتهم مع أعدائهم .

ولسنا نجد بين القبائل العربية يهوداً وفدوا إليها أو اخباراً سكوا بينها لإقناعها بمختلف الوسائل والطرق للدخول في دين يهود . نعم لم يفعل اليهود هذا كما فعله النصارى ، ولهذا انحصرت سكى اليهود عند ظهور الاسلام في هذه المواضع المخصبة وطرق المواصلات والتجارة البرية والبحرية من جزيرة العرب وانحصر عملهم في التجارة وفي الريا ، وفي الزراعة وفي بعض الصناعات التي تخصصوا بها وهي أمور جعلت لهم نفوذاً عند سادات القبائل والأمرء والملوك (١)

هذا ولا بد بالطبع ان يتأثر الجاهليون المجاورون لليهود بعض التأثير بهم ، بأن يأخذوا منهم بعض الأشياء وتعلموا منهم بعض الأشياء التي تنفصم ، والتي هم في حاجة ماسة إليها ، فذلك أمر لا بد منه كما لا بد وان يكون اليهود قد اقتبسوا أشياء من جيرانهم العرب ، وعملوا على محاكاتهم في حياتهم الإجتماعية لاسيما وبينهم يهود من أصول عربية (٢)

لقد برز اليهود بعداوتهم للاسلام على سائل قبائل ولم يقفوا في وجه الرسول صلى الله عليه وسلم على

بشكل تجمع كامل ، وان كانوا قد اتخذوا عداوته الفكرية ديدنهم ، وجمعتهم عداوتهم للإسلام لكنا نجد أن العديد من التحالفات قد جرت بين الأوس والخزرج ومختلف القبائل اليهودية ، حتى ان حروب الأوس والخزرج قد جرت لليهود إلى الاقتتال والحرب مع حلفائهم ضد أبناء دينهم ، وقد ورد في أيام الأوس والخزرج إشارة واضحة إلى هذا ، وهذا الأمر ما يدون من القضايا التي سهلت على المسلمين إخراجهم من المدينة في المرحلة الأولى ، ثم الإنتصار عليهم في غزوة بني قريظة وغزوة خيبر وإجلاؤهم بعد ذلك خارج الحجاز وخارج الجزيرة .

وقد كان في يثرب نفر من اليهود عاشوا فيها زمن الرسول صلى الله عليه وسلم حتى بعد إجلاء بني انضير وبني قينقاع وغزوة بني قريظة ، وبعد غزوة خيبر ، وقد ورد في رواية أن النبي لما أمر أصحابه بالتهجير لغزوة خيبر شق ذلك على من بقي من اليهود بالمدينة (١)

ولما مرض عبد الله بن ابي كان اليهود في جملة من التف حول سريره في مرضه الذي هلك فيه ثم كانوا ممن شيعه إلى قبره ، ومنهم من نثر التراب على رأسه حزنا عليه (٢)

(١) طبقات ابن سعد ٢ / ١٠٦

(٢) جواد علي - تاريخ ٦ / ٥٤٨ - ٥٤٩

القسم الثاني الفكر السياسي عند عرب يثرب

تمهيد : يتجلى الفكر السياسي عند عرب يثرب بنظام الحكم الذي كان متبعاً عندهم ، كما يتجلى في العلاقات السياسية الداخلية بينهم أنفسهم كعرب ، أو بينهم وبين من جاؤهم من يهود ، وبأتي ذلك في التجمعات والعلاقات والأعمال التي مارسها أصل يثرب قبل ظهور الإسلام ، ولعل من أهم ما أسير إليه في هذا المجال هو فترة الحرب العشرية التي استهلكت كل طاقات العم ، واستنزفت قواهم ومواردهم كلها ، ولعل بعضاً من اليهود قد استفاد من هذه الحروب فائدة كبيرة لان (الهالك العرب و(الغانم) اليهود في مختلف هذه الحروب ان لم يكن كلها . وان فكرهم هذا قد بنى على عوامل تاريخية وجغرافية وبيئية .

أما العوامل التاريخية فان مدارسها عن تاريخ الأوس والخزرج وانتقالهم بأجيال قليلة جداً من فترة حكم ملكي مستقر في اليمن يتوارث به الملوك ويحكمون حسب الأعراف الملكية المعروفة عند العرب بحامة الجزيرة العربية متأثرين بما حولهم من قوى كبرى أو صغرى ، إلا ان رحيلهم بعد تهديم سد مأرب كما حكى الروايات التاريخية التي بينها في طيات هذا البحث قد نقلهم من حياة استقرار وازدهار وهدوء وانضباط وملكية قائمة وجيوش وحماية إلى حياة البد والقبلية وخاصة انهم (الأوس والخزرج) قد اختاروا المدينة بينما اختار أبناء عموماتهم مواقع اخرى كما غسان وخزاعة نسي مكة .

ولما نزل الأوس والخزرج في المدينة كان بها اليهود ، وقد مضى على وجودهم فترة كافية لأن يكون لديهم الاستقرار والبناء والحضارة والآطام ، والمزارع والقوة الحامية لها . وكان كما أسرنا استناداً للمراجع إلى أن مملكة يهودية على رأسها (القطيبيون) كانت قائمة بالمدينة . وناش الأوس والخزرج فترة تبعية ، وفترة ركود سياسي واجتماعي إلى أن تمكنوا من اليهود وقتلوا ملكهم واستقر لهم الأمر في يثرب ، وسادوا عليها ولكنهم بقوا على بداوتهم التي اعتادوها في فترة الضياع بين خروجهم من اليمن وانتصارهم على يهود ، ومرت الفترة التالية من سيطرتهم على المدينة إلى دخولهم في الإسلام بتقلبات كثيرة ، اعتبر بعض الباحثين ان هذا التقلب أدى إلى ظهور بعض الأشخاص الذين كانت لهم مواصفات الملك . فوق مواصفات سيادة القبيلة . والاعتقاد الذي يمكن تشبيته هو ان هؤلاء الباحثين قد أطلقوا ألقاباً على هؤلاء الذين تمكنوا أن يبسطوا - في فترة من الزمن - سلطانهم على عرب يثرب قاطبة ، أو البعض الآخر من غير الأوس والخزرج . ويحسن أن نذكر هذه الفترات التي استطاع بها بعض القادة من الوصول إلى مواقع كبيرة وقوية من هؤلاء .

١ - الأرقم بن ابي الأرقم : هو من العمالة سكان يثرب الأولين - كما سبق - وتجاوز ملكه يثرب فملك ما حولها كخيبر وتيما ، وقدك وغيرها ، لذا كانت المراجع تسميه ملك الحجاز ، وهو الذي وقف بقوة ضد هجرات اليهود الاسرائيليين إلى يثرب وغيرها فلم يصلوا إليها إلا على جسر من الجثث وشلالات من الدماء ، ويمكن ان يشمل هذا المرقف يثرب وما ضيها في ذلك الوقت المبكر من التاريخ

بكثير من الإعجاب والإخبار ، فقد تم هذا الحد على ما تذره الروايات التاريخية في عهد موسى عليه السلام (١) . ولا يستبعد أن يكون الأرقم بن أبي الأرقم شخصية تعكفت من السيطرة على الحجاز ووقفه بحزم بوجه هجرات اليهود في المراحل التالية من حكمه ، ولئن لا يوثق علاقة الأرقم بجيش موسى هذا

٢ - مالك بن العجزان : رجل من الخزرج يمثل الانتفاضة على الظلم اليهودي الجائر ، كما يمثل النيرة على شرب العربي وحمايته من الانتهات والتلوث ، نار - حوالي عام ٤٦٢م على ما يرى (سيديرا) أو سنة ٥٠٠م على ما رجحنا ضد اليهود وخطرتهم وتعاديتهم في إداد لال بني قومه من الأوس والخزرج فقتل أمير اليهود وطاغيتهم (القطيوني) (٢) ثم استعان ببني عمه ملوك عسان لوس الحز في نصايه والحد من طغيان الفئة الباغية من اليهود الحاقدين ، فاستجاب له أبو جبيلة - كما مر ذكره - وقضى على عدوهم وبذلك رفع مالك بن العجزان شأن قومه وأعلى نعتهم وثبت أقدامهم في أرضهم فأثر اليهود السلامة ، وانسوا تابعين ، ولئن ما إن انتهت مهمته حتى عاد رجلاً عادياً ليس له إلا المكانة والجاه مع تعرضه أحياناً إلى انتقاص حقه من قبل شباب القوم كما حدث في حرب سمير (٤)

٣ - عمرو بن الإطنابة : هو عمرو بن عامر بن زيد مناة بن سامر بن مالك الأعرابي نعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج . وإنما اشتهر بالانصاف وهي بنت شهاب بن زئان من بني القين ابن جعفر بن نارساً شهيراً اشترك في أيام الأوس والخزرج ، ولكنه استباح أن يوحد هم تحت رئاسته في مطلع القرن السادس الميلادي على وجه التقريب . ولقبه الشير من المؤرخين بملك الحجاز ومعنى هذا انه كان يمثل دوراً من أدوار الوحدة بين الأوس والخزرج ، وامتداد سلطنتهم على البلاد

المجاورة ليشرب ، بالقدر الذي استحق رئيسهم أن يلقب بملك الحجاز ، ولكنه لم يؤثر عنه انه دون الدواوين واتخذ النرسة مؤسناً للانضة ، ولم يكن معلوماً عنه ما كان معلوماً عن ملوك عسره ، ولذا نأني أربح ان قومه ومن حولهم كانوا يدينون له بالعبادة والإعظام والتقدير فقط ويسمعون كلمته ويمدرون عن رأيه ، ولم يتعد شأنه ذلك بحال وان لبس التاج فهو رجل ملك القلوب وسيطر على الأنفس حتى دانت له الرقاب ، ومالت لهيبته الأعنان فنال الرئاسة فيهم ، وأعطى ذلك كله العبادة لبني قومه على ما حولهم من بلاد وكان زمانه على أيام النعمان بن المنذر (٤) ويمكن أن نقبل ملك ابن الاطنابة على انه محاولة تمت مثلاً لم يمهلهما الزمن لتتأسل في يشرب . لجرسـن صاحب المناولة . ولعمري الأساس بالروح القبلية ولجراحات بعض الحروب التي دانت قد دبت فيهم (٤)

٤ - أحيحة بن الجلاح : هو أبو عمرو بن أحيحة بن الجلاح بن الحرير بن بججبا بن كلفه بن عمرو ابن عوب بن مالك بن الأوس . وهو يمثل الامارة الأوسية ، فقد كان سيد الأوس على الاطلاق

(١) المدينة - الخضراني ١٢٢ وشعر الحرب في الجاهلية - الخضراني ٢٦

(٢) يشرب قبل الاسلام - محمد الوكيل ص ٧٦ (٣) ذر القيسون والقيطون والقيطوان وهو لقب ملوك يشرب من انبيـود .

(٤) المدينة - الخضراني ١٣٤ ، ١٣٦ . شعر الحرب - نفس المؤلف ص ٨٠

زمن تبع الأصغر أبي كرب بن حسان ملك اليمن ، ولكنه في الواقع باسم الأوس والخزرج وقف وقفته السامدة ضد محاولة تبع غزو يثرب عام ٤٩٤م والتي كان سببها انتقام تبع لمقتل ابنه غيلة في يثرب وتحصن الأوس والخزرج في آظامهم ، وكان على بني النجار من الخزرج (عمرو بن طلحة) من بني معاوية بن مالك بن النجار ، ثم ان حبرين من يهود على ما تقول بعض الروايات حذرا تبعا من تخريب يثرب لأنها مهاجر نبي فأمسك عنها . وانا كان عمرو بن طلحة الخزرجي أسهم باسم قومه في صد الغزوات التبعية ، فان الرأي الصائب والقيادة الفعلية كانت لآحيحة بن الجلاح منذ اللحظات الاولى .

ولم تكن شهرة آحيحة قاصرة على قومه فقط ، بل كان غيرهم من العرب يعرف شجاعته ويفد ر بطولته وفروسيته وله فيهم حسن الأحدوثة والذكر ، فكانوا يلجأون إليه في العلمات ويطلبون عنده النصر والعدة من سلاح أو خيل . وسبق القول بأنه قد لجأ إليه زعيم الأحلاف من الطائف مسعود بن متعب لينصره على بني عمه . وكذلك لجأ إليه قيس بن زهير بن جذيمة العبسي ليعينه على خالد بن جعفر العامري الذي قتل أباه ، ولكن آحيحة اعتذر للصلة التي كانت بينه وبين خالد . وكان آحيحة رجلا عجبيا ، يجمع بين الحرص على المال وعدم التحفظ في طرق تحصيله ، وفيه به منازل الناس ، ويجعل من لامل له في عداد الأموات

اسْتَعْنِ أَوْمَتْ وَلَا يَغْرُوكَ نَدْوَسَبِ مِنْ ابْنِ عَمِّ وَلَا عَمٍّ وَلَا خِصَالِ

وبين الكرم والجود والارحية ، فقد كان سيد الأوس وفارسهم وشاعرهم وجوادهم ، فما وفد عليه وافد من العرب وعقر ناقته على باب أطعمه إلا أعطاه خلفها وقضى له حاجته . وقد كانت كل الاحداث التي خاضها آحيحة محصورة بين سنة ٤٦٤م و ٥٦١م وهما سنتا ولادته ووفاته . وهو على ذلك يكون من المعمرين حيث عاش سبع وتسعون سنة . ومن ناحية أخرى يذكر أن وفاته كانت قبل ولادة الرسول بتسع سنين فقط لأن عام الفيل عام ولادة الرسول كان عام ٥٧١م .
٥ - أمته بن حرام : أمرته قبائل حرام بن كعب بن غنم بن كعب بن سلمة ، وبنو عبيد بن عدي بن غنم بن كعب بن سلمة ، وبنو سواد بن غنم بن كعب بن سلمة وبنو سلمة بن سعد بن علي بن أسد بن شاردة ، وكلها ترجع إلى القبيلة الأخيرة / بنو سلمة ، فمكث فيهم زماناً مطاع الأمر مسمع الكلمة لا يعارضه أحد منهم حتى هلك رجل من بني عبيد لم يعقب سوى ولد واحد اسمه صخر فنظـر (أمه) في مال أبيه فاذا هو مال كثير . يزيد عن حاجة الولد وراثه ، وليس بضاره شي لو أخذ منه جزءاً يرد على بعض الغفراء منهم ، لذلك اعتزم على نزع طائفـة من تلك

الاموال فيقسمها في بني سلمه • فعظم ذلك على صخر واستنصر بقومه من بني عبيد وبني سواد وأرضي وازيد ، وقال : لئن فعل امة ذلك لأضربنه بالسيف وطلب منهم أن يساندوه ويحموه من بني حرام إن هوجز رأس (امة) لكن (امة) لم يعث ونذر ان لا يؤويه ظل بيت ماعاش حتى يقتل بنو سلمة صخرا ، أو يأتوه أقيرى فيه رأيه وجلس (امة) عند الضرب (الضلع) الذي فوق مسجد الفتح ، مما يلي الجرف في الشمس ، وتلازم القوم وندموا على حماية صخر ثم قبضوا على صخر وجأورا به إلى (امة) فعفا عنه بعد أن أخذ ما أراد من ماله وفي محاولة لخلق نوع من التكافل بين أفراد هذه القبيلة (القبائل) غنيها وفقيرها (١)

ونخلص إلى القول بأن وسط الجزيرة عموماً في الجاهلية وحياة الأوس والخزرج بصفة خاصة تبرز الحقائق التالية :

- ١ - ان وسط الجزيرة العربية بما فيه الحجاز ونجد لم يكن يعرف نظام الحكومة الدائمة المستقرة ، ولم يستطع أن يعيم ما يمكن ان نطلق عليه اسم النيان السياسي المستقل
- ٢ - انهم كانوا يختارون رئيساً لهم منهم يقودهم في أمر حازب لفترة معينة ، ويكون عادة من ذوى اليسار أو من الفرسان المحاربين ، فمنطق القوة هو الذى يحدد • ومنطق القوة هو الذى يبقيه أو يقصيه •
- ٣ - انهم رغم التجمعات الصغيرة ذات الفترة اليسيرة لم يشعروا بشعور المواطن الذى ينتهي إلى أرض ذات حدود وأمة أو شعب ذى خصائص وتراث أو عقيدة واضحة المعالم ، ونظام حكم أو مذهب فكري أو قانونية مسطوية يدين بها ويخضع إليها ، بل كانت كل تصرفاتهم محكومة بالشعور القبلي وحده وأعراف القبيلة •
- ٤ - ان المراجع والمؤرخون العرب كانوا كثيراً ما يتساهلون في تسمية هؤلاء الرؤساء أو الأمراء المحدودين باسم الملوك ، فكلمة ملك عندهم كانت مرادفة لكلمة رئيس
- ٥ - لم تكن يثرب مخمورة غير معروفة عند أهل عصرها ، بل ان اسمها ورد في الكتابات المعينية وفي جغرافية بطليموس ، وفي كتابة البابليين والبيزنطيين كما سبق أن ذكرنا
- ٦ - لم يكلف العرب بدفع أية ضريبة أو أتاوة وذلك لعدم وجود الحكومة التي قد تحتاج في بعض شؤونها إلى فرض الضرائب ، كما ان وسط الجزيرة لم يتعرض لسيطرة فارسية أو رومية
- ٧ - كانت كل قبيلة تؤلف جماعة منفصلة مستقلة تمام الاستقلال ، وقد يحدث أن تجتمع بعض البطون على حلف واحد بسبب من الأسباب ، ثم لاتلبث عراها أن تتفكك ، كما فعل مالك بن العجلان فقد ارتضى وساطة رؤساء قومه في إنهاء الحرب بينه وبين سمير •

(١) المدينة - الخطراوى ٦٢ - ٦٤ بتصرف • شعر الحرب ٨٨

(٢) المدينة - الخطراوى ١٢٩ فما بعد شعر الحرب ٧٨

٨ - لم يكن هناك نظام لنقل سلطة رئيس القبيلة غير أنه لا بد أن يكون من كبار السن ودوى المال والنفوذ والفرسية ، وسلطته في الغالب مقيدة بمجلس شورى القبيلة المكون عادة من رؤساء الأسر ، ويتمتع العضو في هذا المجلس بحرية النقاش والتحدث في مختلف شؤون القبيلة الداخلية منها والخارجية ، وشؤون الحرب والسلم ، ولم يكن يوجد أى أثر للوراثة في منيخة القبيلة بل هي الظروف والصفات والاستعداد (١)

أ- الحروب (أيام الأوس والخزرج)

تطرقنا في الفصل الأول بكثير من التفصيل عن الحروب التي جرت بين الأوس والخزرج ، وتوقفنا عند يوم بعث آخر المعارك والأيام بين هذين الحيين من العرب والذي يعتبر فاتحة خير لهم إذ وضع حداً نهائياً لما كان بينهم ، وما كان لهذه الحرب أن تتوقف لولا دخول الاسلام في يثرب وانصهار الحيين أوجزاً منهما تحت اسم الأنصار الذين أصبحوا جنود الاسلام ودعامته ويمكن لنا ان نؤكد في هذا المقام ان هذه الحرب الاهلية التي استمرت مئة عام تقريباً بين الأوس والخزرج قد حرلتهم في الواقع الى مقاتلين أشداء ، ولكن بجانب هذا التحول أشبعت نفوسهم بالرغبة بالسلم خاصة وأنهم قد تيقنوا أن هذه الحروب الطويلة التي تربت بها أجيال وأنفيت بها أجيال وأطلقت قوايح الشعراء في الجانبين متفاخرين أو راثين أو مادحين أو ذامين . قد حولت فكر اليربيين إلى القبول بتحويلات جديدة يمكن أن تؤمن لهم شيئاً من الاطمئنان والرخاء والسلم وهذا ما سنجده باديأً في الآثار التي تربت على يوم بعث إذ قبل المنتصر أن يحكمه المهزوم ، وهذا تحول خطير في تفكير الأوسيين ومعتقداتهم السياسية .

فالحروب اندأً مع ما ترتب عليها من آثار مدمرة قد بنت المدينة وفوت شكيمة العرب ، ولهذا فلم يتمكن اليهود خلال هذه السنوات الطوال أن يعاودوا محاولة السيطرة على يثرب ، بل العكس كان أملمهم بالنبي المرتقب يهددون به وتني العرب بأنهم سيقا تلونهم معه وتحت إمرته ، ويحققون الإنتصارات التي يرجون .

ان حروب المئة عام قد جعلت الهيمنة - رغم انها بين الاهل - لعرب يثرب عليها وعلى يهودها وحتى ما حصل من علاقات مستقبلاً أو سابقاً بين هذا الحي من العرب والذخيا الاخرى لان سببه هذه الحروب حتى انفرد اهل يثرب في التاريخ الحربي والسياسي والأدبي بميزة قل من وازاها إلا ما كان من حُبر الحروب بين أهل الحيرة وسان أو بين بكر وتغلب أو بين القبائل العربية الأخرى . غير عن هذه الميزة سعد بن معاذ في غزوة بدر . . . وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً إنا لَنُؤَبَّرُ في الحرب ، صدق عند اللقاء . لعل الله يريك ما تقر به عينك (٢) . ولم يكن يوم بعث وغزوة بدر أية حرب للأوس والخزرج وكان المرف مختلفاً جداً ، ولا مجال للمقارنة بينهما إلا القول :

بأن يوم بعثت كان آخر دم في الجاهلية ويدركت أول دماء الشهداء في الإسلام فيها .
إن الحروب التي كثر عددها بين الأوس والخزرج قد علمتهم فنون القتال الشهي الشير ، كما أنها علمتهم من معهم ومن عليهم ، سعدوا ورا الحلفاء وسعدوا ورا النصره ، وعلما عن قبائل العرب الشهي الكثير وحفظوا أصحاب القوة وأصحاب البأس ، وعرفوا كذلك صفات كل قبيلة ومقامها ، وما تملك من صفات القوة ، وقد استفادوا كثيراً من هذه الخبرة في الإسلام . مثالها رفض سعد بن معاذ الإتفاق مع غطفان واعطائها ثلث ثمار المدينة لترجع عن الحصار في الفندق فقال بأنه لا يعطيهم إلا السيف في حلوتهم .

وهذه المواقف تدل على أن هذا الحي من العرب قد صقلته الحروب وأكلته ، وتعود عليهم وعرف من الآخرين شجاعتهم أوجبنهم أوقوتهم وضعفهم والشواهد التي سترد لاحقاً تؤيد هذا الرأي وتقويه .

ب - المعاهدات السياسية مع القوى المحيطة

تميزت السلات بين عرب يثرب وغيرهم من عرب الجزيرة أو الشام أو لعراق بالعديد من الاتجاهات فمنها علاقات ذات طبيعة إقتصادية بحيثه نظراً لموقع يثرب الهام على طريق التجارة إلى الشام واعتبارها واحة زراعية يستفيد من خيراتها البدو والأعراب حولها من التسوق لحياتهم من منتجاتها ، كما أنها كانت ذات أسواق هامة للكثير من البضائع المستوردة والتي ينتجها اليهود مع المصوغات الثمينة من الذهب أو الفضة أو بعض الصناعات المرتبطة بالسلاح ، وهذه العلاقات لم يكن بينها معاهدات مكتوبة بل اعتمدت على العرف أكثر من العقود المكتوبة ، وكانت هذه المصالح الاقتصادية قد ولدت الكثير من العلاقات الشخصية الأخرى بين زعماء يثرب ، وزعامات أخرى في مكة والطائف وبلاد غسان والحيرة وحتى اليمن .

وتميزت العلاقات الاقتصادية بمعانيتها واعتبرت قانوناً غير مكتوب نفذت بدقة وشدة متناهية . وكانت علاقات العرب الاقتصادية متميزة تماماً عن علاقات اليهود بعضهم ببعض أو بينهم وبين العرب الآخرين في يثرب أو يهود والعرب خارجها .

كما كان هناك تحالفات عسكرية أردنا بعضاً منها عندما تحدثنا عن العلاقة بين عرب يثرب ومن أحاط بهم من العرب الآخرين وخاصة مع مكة ، أو مع يهود . وهذه الأحلاف العسكرية كانت ذات متانة قوية وتنفذ بدقة رغم أنها تؤدي في بعض الحالات إلى الفناء والهلاك وللهمزة . ولكنها تؤدي في أحيان أخرى إلى النصر والتفوق .

وقد جرت بعض التحالفات العسكرية بين الأوس منفردين والخزرج منفردين باعتبار أن كل حي

منهما كان يسعى لشد الحلف إلى جواره لتحقيق بعض النصر في الحروب الطويلة التي قامت بينهم .
كما جرى تحالفات بين القوم مجتمعين والغساسنة ذلك العون الذي طلبه مالك بن عجلان وأدى
الغرض منه وهو إزاحة سيطرة اليهود عن المدينة .

كما كانت هناك أحلاف قبلية يتحالف بها أبناء البطون المتقاربة من الأخوة وأبناء العمومة على من
يعاديه من الجوانب الأخرى ومعروف المثل القائل : أنا وأخي على ابن عمي وأنا وابن عمي على
الغريب ، وهذه التحالفات القبلية كانت تفرضها قوانين القبيلة وأعرافها ودساتيرها الغير مكتوبة
وهذه الاعراف كانت ذات قوة ونعوذ شديدين في صفوف الليثيين وغيرهم من العرب عامة .

وباعتبار أنه لم تكن في يثرب حكومة تسيطر على الأوضاع فيها ، وتنظم العلاقات بين سكانها وبينهم
وبين جيرانهم ، والدول الأخرى المحيطة بيثرب ، بل كانت هناك صلات وروابط اتخذت أساساً
لتنظيم العلاقات بين سكان يثرب وجيرانهم وبينهم وبين الدول الخارجية .

وقد اختلفت أسس تلك الصلات ، وهذه الروابط بحسب الظروف التي كانت تدعو إليها ، فأساس
الصلات بين أهل يثرب وجيرانهم من أهل البادية هو الحذر والاستعداد ، ذلك لأن أهل البادية
كانوا يتطلعون دائماً إلى ما في الحضر من خيرات ، وينظرون إلى أنها حلال لهم ، فكانوا يغيرون
دائماً على المدن ويرعون أهلها وينهبون ثرواتها (١)

وأعراب يثرب لم يكونوا خيراً من سواهم ، وهذا ما جعل الليثيين يلجأون إلى بناء الآطام والتحصن
بها وليس هناك حادث معين نستطيع أن نتخذه دليلاً على ذلك ولكننا نفهم من بعض المواقف في
صدر الاسلام انه كانت هناك غارات على المدينة ، وأن أهل المدينة كانوا يدافعون عنها دفاع
القادر واننا لنلمح ذلك جلياً في كلام عبد الله بن أبي بن سلول يوم أحد حين استشار الرسول
أصحابه في أمر الخروج أو البقاء؟ يقول ابن أبي : يا رسول الله أقم بالمدينة لا تخرج إليهم ، فوالله
ما خرجنا منها إلى عدو لنا قط إلا أصاب منها ، ولا دخلها علينا إلا أصابنا منه ، فدعهم يا رسول الله
فإن أقاموا ، أقاموا بشر محبس ، وإن دخلوا قاتلناهم الرجال في وجههم ورماهم النساء والصبيان
بالحجارة من فوقهم وإن رجعوا أخائبين كما جاءوا (١)

يمكن القول بأن الأمن كان مضطرباً في يثرب ، فلم يكن هناك استقرار يجعل السكان ينصرفون إلى
تعمية مواردهم الاقتصادية ، ولأن ينعم به الناس فيعيشون حياة هادئة وديعة ، بل كانت حياتهم
كلها حذر وترهب واستعداد .

ولقد حال هذا الوضع القلق في يثرب بينها وبين بلوغها المركز اللائق بها في الجزيرة العربية
فلم تتبوأ مكانتها رغم موقعها الممتاز وأرضها الخصبة ومياهها العذبة ، وكان من الممكن أن تنافس

(١) يثرب قبل الاسلام - السيد الوكيل ١/ ١٢٥ ، ١٢٦ . عن سيرة ابن هشام ٢/ ٦٣

مكة منزلتها في قلوب العرب لولا اضطراب الأمن بها بسبب غارات جيرانها والتنازع المستعرب بين أهلها (١) . أما بالنسبة للعلاقات السياسية ، فإن السياسة بمفهومها الحديث بمعنى إقامة علاقات دبلوماسية - بين يثرب وغيرها من الدول لم يكن معروفا في ذلك العهد ، بل إن ذلك لم يعرف لدى الدول إلا بعد التحضر الإنساني والتقدم العلمي والصناعي ، حيث أصبح أبناء الأمة يحرسون على إظهارها بالمظهر الذي يرفع من شأنها ، ويحلي من مكانتها أمام غيرها من الدول ولقد فرضت الأوضاع الاقتصادية والسياسية والعسكرية ذلك التعميل على الأمم مراعاة لمصالحها ، وحفاظاً على أمنها ، حيث لم يكن شيء من ذلك يعني أهل يثرب بقدر عنايتهم بمصالحهم الخاصة لم يكن هذا المعنى واضحاً في أذهانهم وبالتالي لم يتجهوا إليه ليحققوه للبلد الذي ينتمون إليه . لهذا كانت علاقات يثرب بخيرها علاقات اقتضتها الضرورة وطمعتها الظروف التي أحاطت بها ، وحتى علاقاتها الداخلية بين سكانها لم تخرج عن هذا الوضع . فقد لاحظنا أن علاقتها مع الفرس والروم كانت خفيفة ووقوتية ، كما كانت متوقفة على ذهاب بعض تجارها إلى أحد هذين البلدين وكذلك كانت علاقتها مع الغساسنة حتمتها ظروف القرابة ، وحاجة يثرب إلى مساعدة الغساسنة للتغلب على اليهود ، ثم توقفت بعد ذلك ، أما علاقتها مع اليمن فقد أوجبتها أيضاً القرابة والحنين إلى الوطن الأصلي ، وقد برع تجار اليمن إليها في طريقهم إلى الشام (٢) .

وأما العلاقة مع مدن الحجاز الأخرى (مكة ، الطائف ، خيبر) وهذه هي أهم المدن الحجازية وقتها وأشهرها فكانت العلاقة بينها وبين يثرب قائمة على أساس الاحترام والنفائح المتبادلة وكانت على العموم علاقات حسنة .

العلاقة مع مكة : ولقد كانت علاقة يثرب بمكة علاقة متينة وقوية فيها شيء من المصاهرات كما سبق وفيها الكثير من المصالح المتبادلة ، وحتى مرحلة الأحلاف فقد أرسل الأوس وفداً إلى مكة يطلب الحلف قبل يوم بعاث ، كما ظهر أن الكثير من العلاقات الشخصية كانت قائمة بين شخصيات مشهورة في مكة وأخرى في يثرب ، أولها عندما تمكن القرشيين من أسر سعد بن عبادة بعد بيعة العقبية الثانية ويحثهم عن حليف له ليدفع عنه الأذى ، وتعتبر بيعة العقبية الأولى والثانية من أقوى الأحلاف بين أهل يثرب وصاحب الدين الجديد وصحبه ، وسبقت الإشارة استنجاد عبد المطلب بأخواله بني النجار ، وكانت تتراوح هذه العلاقات بين المصالح الاقتصادية والمصالح الشخصية والأحلاف العسكرية والتفاهم السياسي . ويزي أن اليهود قد تحولوا للحلف مع قريش عندما ظهر الإسلام في المدينة وظالتهم في أكثر من موقعة تحالفوا مع الأحزاب - بل الأحزاب - ونقضوا أحلافهم ويهودهم بينهم وبين الرسول عليه السلام . وهذه القضايا ثابتة تاريخياً ومؤكدتها فالعلاقات بين المدنيين لم تنقطع . ومنها علاقة سعد بن معاذ مع صفوان بن أمية قبل الإسلام .

(١) يثرب قبل الإسلام - السيد الركيل ص ١٢٦ . لا يمكن ليثرب ان تصافر مكة قبل الإسلام لما ارتبطت بمكة من قضايا تعبدية تتعلق بالحج والعمرة وهغوة قلوب العرب لهذا البيت

(٢) يثرب قبل الإسلام - السيد الركيل ص ١٢١-١٢٢ . (٣) نفس المصدر السابق ص ١٢٧

ولقد تقوت هذه العلاقة مع الطوائف أيضاً وسبق القول عن استتجاد بعض زعماء الطوائف بأهل يثرب وأعلى الأقل رغبتهم في إقامة حلف بينهم وقيام الميثريين بإرضائهم واعطائهم المشورة النافعة ، إلا ان العلاقة بين يثرب وخبير كانت بين يهود أقوى بكثير من عرب يثرب ويعتبر اليهود سكان البلدين أنفسهم من أصل واحد وهم أبناء عمومة ، ولا يعدم إطلاقاً إقامة أحلاف بين زعماء يثرب وبين زعامات يهودية في خيبر ظهرت جلياً في غزو خيبر أو قبلها ، وكان كل الناس معروفون في خيبر وقد قالت زوجة أبي الحقيق عن صوت أحد الذين شاركوا في قتله كأنني سمعت صوت فلان وفي الظلام .
وعندما أجلى الرسول بنو قينقاع عن المدينة فقد ذهبوا إلى تخوم الشام ، لكن عندما أجلى بني النضير فقد ذهبوا إلى خيبر وأخذوا يجيشون الجيوش ضد المسلمين .

ولم يذكر ان الميثريين قد خاضوا حروباً ضد أحد من مدن الحجاز مما يؤكد ان العلاقة كانت بين هذه المدن وطيدة وقوية ، كما ان الميثريين لم يتورطوا بالتحالفات الكبيرة خارج مدنتهم التي تعدت عداواتها وحروبها العقدين من الزمن لأنهم كانوا في شغل شاغل بحروبهم الخاصة .

علاقات يثرب بالدول خارج الجزيرة

على ان يثرب رغم المنازعات الداخلية التي حدثت من نشاطها وحالت بينها وبين التمتع بالامتيازات التي كان من الممكن لولا هذه المنازعات أن تتمتع بها ، رغم كل هذا لم تقتنع يثرب بحسن العلاقات القائمة بينها وبين مدن الحجاز ، بل حاولت أن تقيم علاقات حسنة مع الدول الخارجية ، سواء أكانت في الجزيرة أو على حدودها أو مجاورة لها . وهذه الدول هي الفرس والروم والغساسنة واليمن أما الفرس والروم فكانت علاقات يثرب بها محدودة ، ولم يتعرض أي من المصادر - على حد زعم المؤلف - لتوضيح هذه العلاقات ، والذي أدى إلى ذلك هو عدم نشاط يثرب التجاري مع هاتين الدولتين بسبب انشغالها بالخلافات الداخلية ، ولا يستبعد أن يذهب بعض التجار في تجارتهم إلى البلدين المذكورين كمادة سكان الجزيرة في هذه الفترة من الزمن ، ويقطع بعض المؤرخين بان أهل يثرب كانوا يخرجون إلى أسواق الشام فيتجرون بها (١)

العلاقة مع الغساسنة : إذا تجاوزنا استتجاد عرب يثرب بالغساسنة لإنها سيطرة اليهود ، فإن العلاقات الأخرى لم تكن بالمستوى الذي يمكن لنا أن نضعه في مصاف الإستمرارية ، إن صلة القرابة بين الأوس والخزرج والتواصل بينهما أمر قائم ومستمر ، وهذا ما أفصحت عنه كتب التاريخ بشكل واسع وقد مر بعضاً من تفصيلات هذه العلاقات . وقبل البعثة النبوية أو قبل الهجرة على الأقل قد وفد حسان بن ثابت على أبناء عمومته الغساسنة ومدحهم كثيراً في سفره وكان معجباً بهم وملكهم وكان ملوك الغساسنة يتساءلون دوماً عن أحوال عرب يثرب وأخبارهم ولو أنهم لم يتدخروا يوماً لفض المنازعات التي طال أمدها بين الأوس والخزرج ، أو يسعوا بالصلح

كما فعل الكثير من العرب الآخرين بين قبائل العرب المتحاربة حسب روايات كتب التاريخ والأدب بل تركوا الحيين يقتتلان ردحاً طويلاً من الزمن مما أضعف الكثير من قوتها وأبقاها محصورين بين آطام يثرب ، فلم يتقدموا لينالوا مجداً أكبراً ورغبةً بسيطةً أو حكم أو سلطان . ولعل انشغال الغساسنة بحروبهم أيضاً مع الفنادرة أو سواهم جعلهم في حل عن البحث عن تقوية الصلة بينهم وبين أهل يثرب ، لكن العلاقات الفردية العادية كانت حسنة وقائمة على صلة القرى والمحبة ومنها بعض أبيات مدح بها حسان بن ثابت أبناً عمومه الغساسنة (١)

والذي يظهر ويفهم من سكوت الاخباريين أن علاقة يثرب بالغساسنة لم تكن أفضل ولا أحسن من علاقاتها بباقي مدن الجزيرة ولا الدول المجاورة ، حيث كانت علاقتها بالجميع علاقات هادئة مبنية على أساس الحوار القائم على عدم الإعتداء يوطد هذه العلاقات منافع متبادلة بين الأطراف المذكورة (٢) أما علاقة يثرب مع اليمن فيمكن أن تختلف اختلافاً بيناً عنها مع الآخرين ، فالأصل اليمني للأوس والخزرج والحنين إلى المنبت والأصل والتباهي بهذا الأصل والتلاخر فيه وارتباط القلوب بالأصول أمر ثابت ومحقق في علاقة اليثريين بأهل اليمن ، وإذا استثنينا حملة حسان تبع على المدينة التي بدأت بمحبة وسلم وانتهت بعداوة وبغضاء لا كبر دليل على ان هذه العلاقة كانت متميزة ويرجع بعض المؤرخين صلات يثرب باليمن إلى عهد المعينيين حسب ورود اسم يثرب بالكتابات المعينية وكانت من العواطن التي سكتها جاليات معينية .

ولقد كان لموقع يثرب في الطريق بين الحجاز والشام أثر بالغ في اتخاذها محطة للتجار القادمين من اليمن والمتوجهين إلى الشام عن طريق الحجاز ، فنشأت عن ذلك صلات حسنة نتيجة للمخالطة والمعاملة (١) أما الأحلاف العسكرية فتلك أمور أخرى اقتضتها ظروف الحرب القائمة بين الأوس والخزرج ، وكانت كل قبيلة تسعى إلى تشكيل أحلاف مع قبائل معينة حتى يكون الزخم ثوباً أثناء القتال، وتحقيق الانتصارات. وكانت أحلافهم مع من جاورهم من القبائل بالقدر الذي تدعو إليه الضرورة ، فقد حالفت بعض البطون من خزرج مزينة وسليم اللتين كانتا تعيشان شرق المدينة ، كما حالفوا أشجع التي كانت تسكن في شمالها الغربي ، وكانت كل قبيلة تستعين بحليفاتها عند ما تدعو الحاجة ، وكانت الأحلاف محترمة لا تنقض إلا إذا تعارضت مع مصلحة القبيلة ، فعندئذ ينقض لتحقيق تلك المصلحة (١) ولكن هناك أحلاف كثيرة مع غير هذه القبائل اقتضتها ظروف أيام الأوس والخزرج .

(١) الاغانى - الاصبهاني ٢/١٤

(٢) يثرب قبل الاسلام - السيد الوكيل ص ١٢٩ و ١٣٠ ، ١٣٣

ج - يوم بعث وآثاره الفكرية والسياسية

لم يكن ليوم حرب من أيام العرب من أثر في حياتهم كيوم بعث . وفي صحيح البخاري . كان يوم بعث يوماً قد مه الله لرسوله صلى الله عليه وسلم ، فقدم رسول الله ، وقد افترق ملوهم ، وقتلت سراواتهم وجرحوهم فقد مه الله لرسوله صلى الله عليه وسلم في دخولهم في الاسلام (١) وليس في كتب الصحاح أو السير أو التاريخ كتاب يخلو من ذكر هذا اليوم وفضله ، ولم أورد مع ما أوردت من أيام الأوس والخزرج لأهميته التي ذكرت ، ولقد ورد في قسمين منفصلين عن خبره (٢) ففي الوقت الذي ورد في كتب السيرة والحديث عن لقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بالوفد الذي جاء ليطلب الحلف ويؤكد عليه ، ويهمل ما بقي من أحداث ، تقوم كتب التاريخ والتراجم بالتأيد على مجريات الحرب في هذا اليوم والاستعدادات التي سبقته ومجرى المعارك فيه ، والنتائج التي ظهرت عقب هذا اليوم ، كما يبرز بعض القادة الذين كان لهم دور كبير في أحداث التاريخ الاسلامي بعد ذلك .

وعن القضايا المتصلة بيوم بعث ، والذي كان فاتحة خير لعرب يثرب قال ابن إسحاق : حدثني الحسين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ ، عن محمود بن لبيد قال : لما قدم أبو الحيسر أنس بن رافع مكة ، ومعه فتية من بني عبد الأشهل فيهم إياس بن معاذ يلتصقون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتاهم فجلس إليهم فقال لهم : هل لكم في خير مما جئتم له ؟ فقالوا له : وما ذاك ؟ قال : أنا رسول الله بعثني إلى العباد أَدْعُوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً ، وأنزل عليّ الكتاب . قال : ثم ذكر لهم الإسلام وتلا عليهم القرآن ، قال : فقال إياس بن معاذ وكان غلاماً حدثاً ، أي قوم ، هذا والله خير مما جئتم له . قال : فبأخذ أبو الحيسر أنس بن رافع حفنة من تراب البطحاء ، فضرب بها وجه إياس بن معاذ وقال : دعنا منك . فلحمرى لقد جئنا لغير هذا . قال : فهمت إياس وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانصرفوا إلى المدينة ، وكان وقعة بعث بين الأوس والخزرج قال : ثم لم يلبث إياس بن معاذ أن هلك . قال محمود بن لبيد : فأخبرني من حضره من قومه عند موته أنهم لم يزالوا يسمعون به ، يهلل الله تعالى ويكبره ويحمده ويسبحه حتى مات .

(٣)

فما كانوا يشكون أنه قد مات مسلماً . لقد كان استشعر الاسلام في ذلك المجلس حين سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما سمع .

(١) حداث الانوار ومطالع الاسرار - الشيباني ١ / ٣٥٢ . صحيح البخاري بحاشية السندی ٢ / ٣٠٩ باب مناقب الانصار

(٢) امتاع الاسماع - للمفريزي ص ٣٢ . الطبري - تاريخ ٢ / ٣٥٣ . سيرة ابن هشام ٢ / ٦٩ الظامل - ابن الاثير ١ / ٤١٢ . وفاء الربا - السهمودي ١ / ٢١٥ . السيرة النبوية - ابن كثير ٢ / ١٢٥ . البداية والنهاية - ابن كثير . المدينة - عاصمة الاسلام - السيد الوكيل ٢ / ١٦ . شعر الحرب - الخطراوي ١٦٤ . المدينة - الخطراوي ١٧٩ . ايام العرب في الجاهلية - جاد المرلي ١ / ٢٣ وغير ذلك

(٣) السيرة النبوية - ابن هشام ٢ / ٦٩ ٧٠

وفي هذا الباب ذكر الواقدي دعاه صلى الله عليه وسلم بني عبس إلى الاسلام ، وأنه أتى عسسان في منازلهم بعكاظ وبني محارب كذلك ، ولم يزل صلى الله عليه وسلم يدعو إلى دين الله ، ويأمر به كل من لقيه ورآه من العرب إلى أن قدم سويد بن الصامت أخو بني عمرو بن عوف من الأوس ، وكان يسمى " الثامل " لجلده وشعره ، وهو القائل :

قَرِيشِي بِخَيْرٍ طَالَمَا قَدِ يَزِيَّتِي فَخَيْرُ الْعَوَالِي مَنْ يَرِيشُ وَلَا يَبْسِرِي

فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام فلم يبعد ، ولم يجب ثم انصرف إلى يثرب ، فلم يلبث أن قتل يوم بعاث . قال ابن اسحاق : نان رجال من قومه ليقولون إنا نراه قد قتل ^{وهو} مسلم (١) وقال رزين في ذكر هذه القصة ، ثم جاءت الأوس تطلب ان تحالف قريشاً فجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرض نفسه عليهم وقال : اسمعوا مني . هل لكم في خير مما جئتم له ؟ وتلا عليهم القرآن ثم قال : بايعوني واتبعوني ، فاندم ستجمعون بي . فقال عمرو بن الجموح : هذا أي قوم والله خير لكم مما جئتم له ، فانتهمروه وقالوا : ماجئنا لهذا ، ولم يقبلوا عليه ، ثم انصرفوا فلما كانت وقعة بعاث (١)

قلت : كان يوم بعاث ، وبعاث موضع بالمدينة كانت فيه وقعة عظيمة قتل فيها خلق من أشرف الأوس والخزرج وكبرائهم ولم يبق من شيوخهم إلا قليل (١)

هذه صورة بعض الاستعدادات التي أعدت لها الأوس وجاءوا لطلب الحلف من قريش ، وكان أول لقاء بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطى تعتره الأولى بإسلام إياس بن معاذ ، وعاد الوفد إلى المدينة ليكون ذلك اليوم العصيب آخر أيام الأوس والخزرج .

وبعاث : أي بضم الموحدة ثم عين مهملة مخففة وفي آخره ناء مثلثة وقيل بفتح الموحدة ، وبدل المهملة معجمة ، قيل وذكروا المعجمة تصحيف ، فعن ابن دريد صحف الخليل بن أحمد يوم بعاث هو بالعين المهملة ، ولانظر لمن ضبطه بالغين المعجمة لانه مجرد تصحيف .

وفي اللسان : انه اسم حصن من حصون الأوس . وذكر ياقوت ان بعضهم يرى أنه كان ما لا من أموال بني قريظة فيه مزرعة تسمى قورى (بالف مقصورة) . والشريف العياشي يقول : انه اليوم مزرعة معروفة باسم المبعوث ، واقعة جنوب منطقة العريش على أكثر من ثلاثة أكيال من المسجد النبوي في خط المسجد الشرقي ، ثم يذكر أنه وجد حصناً في قاع فسيح يرجح أنه هو ، وتقع منازل بني

حارثة من الأوس في شماله ، ومنازل بني عبد الأنس من الأوس أيضاً في غربه ، ومن قريظة في جنوبه (٢)

الغربي ، رأي العياشي هذا يفسر موقف اضطراب الرواة في نسبه مرة إلى الأوس ومرة لبني قريظة (١) وفاة الوفا - السهمودي ١ / ٢٢٠ ، ٢٢١ . السيرة النبوية - ابن كثير ٢ / ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥

(٢) معجم ما استعجم ١ / ٢٥٩ ، المدينة - الخطراوي ص ١٧٩

السيرة الحلبية - علي الحلبي ٢ / ٦ - ٧ - الثامل - ابن الأثير ١ / ٤٢٠

ومن الأسباب التي أدت إلى حرب بعات اتصال هذا اليوم بما سبق من أيام وخاصة يوم الفجار الثاني عند ما أقدم عمرو بن النعمان على رهن النضير وقريظة حلفاء الأوس وقتلهم ، وخالفه عبد الله بن أبي بن سلول فقال : هذا بغى واشم ، ونهاه عن قتلهم وقتال قومه من الأوس وقال له : كأنني بك وقد حملت قتيلاً في عباءة يحملك أربعة رجال ، فلم يقتل هو ومن أطاعه أحداً من النعمان وأطلقوهم ومنهم سليم بن أسد جد محمد بن كعب ، وحالفت حينئذ قريظة والنضير الأوس على الخزن (١)

ومن الأسباب التي ذكر المؤرخون أيضاً أنه كان من فاعدتهم أن الأصيل لا يقتل بالحليف ، فقتل رجلاً من الأوس أي وهو سويد بن الصامت رجلاً حليفاً للخزرج أي وهو (زياد والد المحذر بن زياد) بالذال المعجمة مندودة مفتوحة ، فأراد أن يقتلوا سويداً فيه فأبى عليه الأوس ذلك لأن سويداً كان تسميه قومه (الكامل) لشرفه ونسبه وشعره وجسده ، كان ابن خالة عبد المطلب ابن هاشم لان أمه أخت سلمى أم عبد المطلب (٢)

كما سبق هذا اليوم الدعوة للحلف ومنها طلب الحلف من قريش ، فإن قريظة والنضير جدد والعهود مع الأوس على المؤازرة والتناصر ، واستحكم أمرهم وجدوا في حربهم ، ودخل معهم قبائل من اليهود غير ما ذكرنا ، فلما سمعت بذلك الخزرج جمعت وحشدت وأرسلت حلفاءها من أشجع وجهينة وأرسلت الأوس حلفاءها من مزينة ، ومكثوا أربعين يوماً يتجهزون للحرب ، والتفوا ببعات وهو من أعمال قريظة . وعلى الأوس حضير الكنائب بن سماك والد أسيد بن حضير وعلى الخزرج عمرو بن النعمان البياضي . وتخلف عبد الله بن أبي بن سلول فيمن تبعه من الخزرج . وتخلف بنو حارثة بن الحرث من الأوس . واستغرق الاستعداد لهذه الحرب أربعين ليلة ، وجمع كل واحد منهم حلفاءه من العرب ، فأرسلت الخزرج إلى جهينة وأشجع ، وأرسلت الأوس إلى مزينة ، وجمع حضير الكنائب قومه من الأوس ، وخطب فيهم يحرضهم على الاستماتة في الحرب ، ويذكروهم ما فعلت بهم الخزرج حتى قال قائلهم والله لئن ظفرنا بالخزرج لم نبق منهم أحداً . فقال حضير : يا معشر الأوس إنكم ما سمعتم الأوس إلا أنكم تؤوسون الأمور الواسعة وتحالجونها

يا قوم قد أصبحتم دواراً لمعشر قد قتلوا الخيبارا يونسك ان يستأصلوا الدياراً ثم أشار عليهم أن يعقدوا اللوا لأبي فيس بن الأسلت ، ولكن أبا فيس اعتذر ولم يقبل القيادة فأعطيت القيادة لحضير الكنائب . واتفقوا أن لا يكفوا عن قتل الخزرج إن ظفروا حتى يقول الخزرج (بزابز) وهي كلمة كانوا يقولونها إذا غلبوا (٣)

(١) الكامل - ابن الأثير ٤١٧/١ (٢) السيرة الحلبية - علي الحلبي ٧/٢

(٣) شعر الحرب في الجاهلية - الخطراوى ١٦٨ - ١٦٦

فاجتمع الخزرج رؤسوا عليهم عمرو بن النعمان - قلت : الذي ذكره ابن حزم ان رئيس الأوس يومئذ هو والد النعمان وهو الرحيب بن ثعلبة البياضي - والله أعلم - (١)

فلما التقوا اقتتلوا قتالاً شديداً وهبوا جميعاً ، ثم إن الأوس وجدت من السلاح فولوا منهزمين نحو العريض ، فلما رأى حضير هزيمتهم برك وطعن قدمه بسنان رمحه وصاح : وأعقراه - وأعقراه كعقر الجمل - والله لأعود حتى أقتل فان شئتم يامعشر الأوس أن تسلموني فافعلوا ، فطفروا عليه وقاتل عنه غلامان من عبد الأنسهل يقال لهما محمود ويزيد ابنا خليفة حتى قتلا . وأقبل سهم لايسدرى من رمى به فأصاب عمرو بن النعمان البياضي رئيس الخزرج فقتله ، فبينما عبد الله بن أبي يتردد راكباً قريباً من بعث يتجسس الأخبار إذ طلع عليه بعمر بن النعمان قتيلاً في عباة يحمله أربعة رجال كما كان قال له : فلما رآه قال : ذق وبال البغي ، وانهمزت الخزرج ، وضعت فيهم الأوس السلاح فصاح صائح : يامعشر الأوس أحسنوا ولا تملكوا إخوانكم فجوارهم خير من جوار الثعالب ، فانتهبوا عنهم ، ولم يسلبوهم ، وإنما سلبهم قريظة والنضير ، وحملت الأوس حضير مبرحاً فعات ، وأحرقست الأوس دبر الخزرج ونخيلهم ، فأجار سعد بن معاذ الأنسهلي أموال بني سلمة ونخيلهم ودورهم جزاءً بما فعلوا له في الرعل (وقد تقدم ذكره) . ونجى يومئذ الزبير بن إياس بن طابا ثابت بن قيس ابن شماس الخزرجي أخذه فجزناصيته وأطلقه ، وهي اليد التي جازاه بها ثابت في الاسلام في يوم بني قريظة .

وكان يوم بعث آخر الحروب المشهورة بين الأوس والخزرج ثم جاء الإسلام واتفتت الكلمة واجتمعوا على نصر الاسلام وأهله ، وكفى الله المؤمنين القتال . واكثروا من الأشعار في يوم بعث . فمس ذلك قول قيس بن الخطيم الظفري الأوسي

أُتِعرفُ رسماً كالطراز المدهب
لعمرة ركبا غير موقد راكب

ديار التي كانت ونحن على مني
تحل بنا لولا رجاء الرائب

تبدت لنا كالشمس تحت عمامة
بدا حاجب منها وضنت بحاجب . . الح القصيدة

فأجابه عبد الله بن رواحة

أشافتك ليلي في الخليط المجانب
بغم فرشاش الدمع في الصدر غالب

بكي اثر من شطت نواه ولم يقم
لحاجة محزون شكالحب ناصب

لن غدوة حتى إذا الشمس عارضت
أراحت له من لبه كل غالب . . الح القصيدة

وليلي التي شبيب بها ابن رواحة هي أخت قيس بن الخطيم ، وعمرة التي شبيب بها ابن الخطيم هي أخت عبد الله بن رواحة وهي أم النعمان بن بشير الأنصاري (٢)

(١) وفاة الوفا - السمهودي ٢١٢ / ١

(٢) التامل - ابن الاثير ١ / ٤١٢ - ٤٢٠ بتصرف

القسم الثالث

توجه عرب يثرب نحو الملكية

أ- نتائج بين بعث :

عادت الخزرج تحمل هزيمتها المنكرة لأول مرة وبهذا الشكل المفجع ، وتحمل معها قائدها عمرو بن النعمان بثوب يحمله أربعة رجال . تتحمل كل نتائج الهزيمة من القتل والتحريق والتدكيل وقطع أسباب الرزق ، إلا أنه لم يكن كل الخزرج قد هزمت ، ففئة كبيرة منها لم تدخل المعركة ، وهي الفئة التي أطاعت عبد الله بن أبي والذى - رغم أنه لم يقاتل - فاز بالثمرة الطيبة من هذه الحرب والتمرة هي التوجه لتتوجه ملكاً على يثرب ويذكرنا هذا الموقف بأن عبد الله بن أبي قد عاود هذا الموقف ثانية في الاسلام وثالثة عندما انخزل عن الرسول يوم احد أملاً في أن يهزم المسلمون ويولون الأذبار ، وتأتي قريش المنتصرة لتكافأه على فعلته بإتمام توجهه ملكاً على يثرب ، ويعود إلى اقتناص ما فقدته بدخول الاسلام إلى يثرب كما فعلها في تبوك أملاً بأن يسوق الروم والغساسنة المسلمين مكبلين بالسلاسل بعد هزيمتهم وأسرههم .

لكن الحال تغير والموضوع اختلف ، وحتى أسباب الحروب وأهدافها وجنودها قد تغيروا تماماً فأصبح هنالك إيمان وكفر وعقيدة وشرك ، وهدى وضلالة .

هزمت الخزرج ولم يرتفع عنها الضيم إلا حماية سعد بن معاذ الذى وجد في جوار الخزرج أخوة الأوس خير وألف خير عن مجاورة الثعالب (اليهود) الذين وجدوا في هذه الحرب فرصة كبيرة للنأثر من الخزرج ، الذين قتلوا رهائنهم ونالوا غنيمة الحرب ، إذ أن الأوس كفت عن السلب والنهب والسعي وراء الغنيمة ، واندمج اليهود يعملون ما يشاءون ، إذ أنهم كانوا يجهزون على الجريح ويقتلونه ليسلبوه ويغنموا منه بدلاً من مداواته واسعافه .

رفع اليهود رأسهم فقد حققوا في حلفهم بعض النصر عن طريق حلفائهم (١) وتمكوا أن يجعلوا يوم بعث من أيام المآسي المتصلة بين الأوس والخزرج ، وكان نصر حلفائهم الأوس له في نفوسهم وقع كبير ، إذ مكثهم هذا اليوم من القضا على الأقوى في يثرب ، فالأوس أقل عدداً وعدة ، وأقل انتصارات في حروب المئة عام . ليس هذا فقط فقد نالوا الكثير من سلب المهزومين والحصول على الغنائم منهم ، وهذا قد أطفأ بعض أحقادهم ، ولكنه أوجع أطماعهم وزادها .

عاد الأوس يحملون النصر ، ويحملون (حضير الكنائب) الجريح قائدهم والذى وافته الغنية بعد أيام متأثراً بجراحه التي أصيب بها ، وعاد الأوس ليطفئوا ظمأ قلوبهم وينتقموا من إخوانهم الخزرج أبشع انتقام ، قتل الفارين وتحريق دورهم وأشجارهم ومزارعهم ومداهمتهم في كل مكان وصب كل أحقاد الجاهلية فيهم . لولا أن برز سعد بن معاذ الأشهلي وأعلن حمايته للخزرج ، ومنع الناس أن

يتأثروا أو يفتكوا بالمهزوم وأعلنها صريحة واضحة بأن جوار بني الخزرج خير بكثير من جوار الثعالب

(اليهود) عاد الأوس فرحين بما حققوا من انتصارات ولو أن حضيرا لكتائب قائد هم قد لقي حتفه
قائد الخزرج عمرو بن النعمان اللدين كانا شيطاننا هذه الحرب ومسعريها . وهكذا بدت يشرب
في حال مؤلم جداً فلا المنتصر مرتاح ولا المهزوم مرتاح ، ولعل المرتاح الوحيد هم اليهود . وإذا
عدنا إلى ما قيل من شعر في هذه الحرب لوجدنا أن الألم يعتصر قلوب المنتصرين والمهزومين على
السواء ، ولوجدناه عبارة عن تفرغ شحنت النار ولإنتقام التي تبدت في نفوس الطرفين .
المنتصر الوحيد في هذه الحرب هو عبد الله بن أبي بن سلول ، فهو لم يدخلها الحكمة فيه ، ولأنه
قد لا يرغب باستمرار هذه الحرب كما تشير كل الأحداث ، إلا أن هذا الأمر قد لا يلائم الصواب تماماً
فعبد الله بن أبي من الذكاء واللفظة ما يجعله يعلم بأن قيادته للخزرج في حرب كهذه وانتصاره
فيها ما هو إلا تعين قيادته في قومه لا أكثر ، هذا إذا انتصر . . . إما إذا حمله أربعة رجال فسي
عباءة كما توقع لمنافسه في زعامة الخزرج عمرو بن النعمان فإنه يكون قد انتهى ، وهو صاحب
الطموحات الكثيرة ، أما إذا انهزم قومه ولم يتمكن من تثبيت انتصاراتهم فيكون قد قضى على نفسه
تماماً وأجل إلى أجل غير محدد وآماله وطموحاته . أما موقفه المحايد فقد فاز به بالكثير ، فاز به
بين قومه إذا انهزموا وجدوا فيه مجعاً وقائداً وملائماً يستطيع أن يأخذ بيدهم مرة أخرى لمحاولة
أخرى ، وإذا انتصروا فإنه يستطيع أن ينال هذا النصر ، لأن مثل هذه الانتصارات لا يستأثر به
قوم عن قوم بل تشمل كل أفراد القبيلة ، ويستطيع أن يجد الحيلة في تبرير تخلفه . ولقد اجتمع
الخزرج عند عبد الله بن أبي يقررون شأن الحرب ويتوعدون الأوس وحلفائهم اليهود بالفناء التام
فلم يوافقهم عبد الله وقال لهم : إن هذا بخي على قومهم ، وعقوبى فإن كان لابد من الحرب فقاتلوا
قومكم كما قاتلنا يقاتلونكم فإذا ولوا فخلوا عنهم ، وحذرهم مغبة الإنسيان وراء عواطفهم . فقال له
عمرو بن النعمان : افتضح والله سحرك يا أبا الحارث حين بدلك حلف الأوس وفريضة والنضير .
فقال عبد الله : والله لا حضرتمكم أبداً ، ولكني أنظر إليك قتيلاً يحصلك أربعة في عباة إلى
مشرك الأخير ، ولم يتابع عبد الله في رأيه سوى نفر قليل من الخزرج (١)

ولذلك فإن عبد الله بن أبي لم يمكث في بيته محتجاً على هذه الحرب اللامعقولة ، والتي لم يجر من
ورائها قومه إلا الدمار محلنا أنه ضد هذه الحروب يبتغي تجميع قومه ، وجمع شتاتهم ولكنه قادم
جماعته وأخذ يتجسس أخبار المعركة ولعن وعلى من ستكون في وأول انتصاراته رؤيته عمرو بن النعمان
محملاً في رداء يحمله أربعة رجال ، وبعد ذلك هزيمة الخزرج الذين سيقبلون بزعامته ليلى
شتاتهم وطبيب جراحهم .

ومن نتائج يوم بعث الكثير هو أن حالة الإندفاع نحو الحرب قد خفت بين الفريقين معا وذهب
منهم مسعروا هذه الحروب والمروجون لها ، وظهر على السطح العقلاء من كلا الطرفين

فساعد بن معاذ يمنع قومه من الإندفاع وراء ثاراتهم إلى مالانهاية ، وعبد الله بن أبي ليشارك في هذه الحرب لسبب أو لآخر ، وعدد كبير آخر قد ملّ من كثرة هذه الحروب التي لا طائل من وراءها وبذلك فقد توجهت الآراء إلى أن يبحت اليبثريون من العرب عن مخرج لهذا المأزق الخطير ، الذي توارثوه فترات طويلة جداً طال أمدها ، وكثرت ضحاياها ، وازدادت فيها الأضغان والأحقاد وابتعد القوم كثيراً عن أن يكونوا أقرباء أو أبناء عمومة ، وأضحت المعجزة بينهم قاسية ، وأدت كثرة هذه الحروب إلى توقف أي تطور اقتصادي أو تجاري في يثرب ، أو إيجاد أية صيغة مقبولة تجمع شتات عرب يثرب ، ومن حسن حظهم أن هذه العدوى قد أصابت أيضاً جوارهم من اليهود ، ولا لواتحد أولئك لتمكوا من أن يفرضوا وجودهم على يثرب ، ويطردها الأوس والخزرج من يثرب شر طردة . ومن النتائج الهامة لهذه الحروب أن الكثيرين دخلوها وهم غير مؤمنين بها أو بأهدافها أو بدوافعها ، فقد أعلن إياس بن معاذ — كما ورد في كتب السيرة — إسلامه علناً وقد أورد أكثر من واحد أنه مات مسلماً لأنه كان يسبح لله ويهلل له ، وهذا التوجه وهذه الفكرة لا بد أن يكون له وقعاً في نفوس الآخرين ، إذ أن الإسلام بدأ يدغدغ أفتارهم وسلوكهم ، وهذا الأمر كان من النتائج الضمنية إذ أن الإسلام الذي دخل هذه النفوس سيتحول مباشرة إلى أن يكون هو الرأي الغالب والسلوك الأكثر إتجاهاً بعد أن بدأ الخارجون من بعث يلتفون بالرسول صلى الله عليه وسلم في مواسم الحج التالية وسمعون عنه ويدخلون في الإسلام أفواجا .

ومن النتائج التي تحصلت ببعث هو تقارب النفوس أكثر من تباينها واقتربها أكثر من ابتعادها وتلاحمها أكثر من تجافئها ، وهذا أيضاً أدى إلى أن لا تنفرد واحدة من القبيلتين بقبول ملكية ابن أبي أولاً ، ومن ثم الدخول في الإسلام وقبول التوحيد تحت لوائه وتحت ظله .

كما أنه يمكن لنا أن نقول بأن هذه الحرب الأخيرة في حلقات الحروب المتواصلة قد أدت إلى أن يضيغ المحاربون سلاحهم ليستريحوا ويتوجهوا إلى بناء حياتهم وبلداتهم ، ويبحثوا عن أية صيغة يمكن أن تكون مقبولة لديهم ، أما الأشعار التي قيلت في يوم بعث فهي كثيرة جداً يعجد كل شاعر فيها أفعال قومه وما قدموه في هذه الحرب (١)

ب - المصالحة بين الأوس والخزرج

تحدثنا عن أن النفوس التي امتلأت قبل الحرب قد خف إصرارها واشتعالها بعده ، وحاول كل فريق سواء المنتصر أو المهزوم أن يقدم للطرف الآخر تنازلات تجلت برد الجميل الذي يحمله البعض للآخرين . فقد أجاز سعد بن معاذ الأوسيين . بني سلمة جميعاً وحسى أموالهم من التحريق جزاءً

مرفق سيد بني سلمة عمرو بن الجموح منه يوم الرعل . وفي نهاية هذه الحرب خرج حضير الثائب وأبو عمرو الراهب إلى (٢) أبي قيس بن الأسلت فقال له حضير : يا أبا قيس

(١) انظر : شعر الحرب في الجاهلية — الخطاروي ص ١٧١ فما بعد

(٢) هكذا وردت بالأصل والصحيح " أبو عامر الراهب " — المرجع السابق ص ١٧٠

إن رأيت أن تأتي الخزرج بيتاً بيتاً ، وقصراً قصراً تقتل وتهدم حتى لا يبقى منهم أحداً . فقال أبو قيس - وكان رجلاً عاقلاً حليماً - والله لا نفعل ذلك . ومات حضير بعد ذلك متأثراً بجراحه . لقد كان لموت الزعماء من الأوس والخزرج الأثر الكبير في بروز القادة من الصف الثاني الذين أكثروا بهذه الحرب ، وآثروا الإتجاه نحو السلم . إن الزعماء الذين بادوا في هذه الحرب كانوا معتزِينَ بشخصياتهم كما كانوا موضع احترام واجلال من أفراد قبائلهم ، ومنهم من كان مرشحاً للرئاسة ، وكانت لهم الكلمة العليا في البلاد لا ينازعهم الرأي احد ولا يتطلع الى السيادة د منهم انسان (١) لقد قضت حرب بعث على هؤلاء الزعماء من الفريقين ، ولم يبق منهم إلا الطبقة الثانية ، وكانت قد اصطلت بنار الحرب وعاشت ويلاتها ، حتى انهم ليفكرون في الإنتظام تحت كلمة رجل منهم ، ولم يكن هناك غير عبد الله بن أبي وقح عزموا أن يتوجهوا ويجمعوا عليه (١)

وعلى أثر الهزيمة التي منيت بها الخزرج حلفت اليهود لتهد من حصن عبد الله بن أبي ، وكان أبو عمرو (٢) الراهب مع الأوس ، وكانت تحته جميلة بنت أبي وهي أم حنظلة غسيل الملائكة ، فلما أحاطوا بالحصن قال لهم عبد الله : أما أنا فلم أحضر معهم ، وهؤلاء أولادكم الذين عندي فإنني لم أقتل منهم أحداً ونهيت الخزرج فعصوني ، وكان رجل من عنده من الرهن من أولاد بني النضير ففرحوا حين سمعوا بذلك فأجاروه من الأوس ومن قريظة ، فأطلق أولادهم وحالفهم ، وهؤلاء هو سر د فاعه عنهم عند ما أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بإجلائهم من المدينة ، ولم يزل حتى رد هم حلفاء الخزرج بحيل تحيل بها .

هدأت الحرب وناد القوم لينظروا بعقولهم لابعوا طغهم ، على ما أصابهم من جبراء هذه الحرب التي وقعت بينهم ، وكيف أنها خلقت ضغائن في النفوس وثارات ودماء ، لا يطفئها إلا المزيد منها . ولقد قلبت هذه الحرب المفاهيم والمعاهدات والتحالفات . فقد تمكن ابن أبي الذي احتفظ برهن بني النضير أن يلعب بهذه الورقة في الوقت المناسب ، عند ما هاجر اليهود وفرروا أن يهدموا أطمعهم فأخرج أبناءهم وأمتعتهم برفضه لهذه الحرب الملعونة فصفت نفوسهم ودخلوا معه بحلف بعد أن كانوا يأتعون للقضاء عليه وعلى آثاره .

ولم يكن في المدينة من الذين بقوا بعد هذه الحرب إلا رجلين اثنين فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد افترق ملوهم وقتلت سراهم - يعني الأوس والخزرج - ومعناه انه قتل (يؤ بعث) أكابره من كان لا يؤمن أن يتكبر ويأنف أن يدخل الإسلام لتصلبه في امر الجاهلية ، ولشدة شكيته حتى لا يكون تحت حكم غيره ، وقد كان بقي منهم من هذا النمط عبد الله بن أبي بن سلول وقصته في ذلك مشهورة ، وكذلك أبو عامر الراهب الذي سماه رسول الله (بالناسق) . قال أهل السير : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وسيد

(١) المدينة المنورة - السيد الوكيل ١٦ / ٢ ، ١٧

(٢) ورد هنا أيضاً أبو عمرو وهذا غلط انه ورد أبو عامر في كل الصفحات التالية من نفس المصدر . وفاء الوفا - السهمودي ٢١٧ / ١ - ٢١٨

أهلها عبد الله بن أبي بن سلول كان من الخزرج ثم من بني عوف بن الخزرج ثم من بني (الهـ) لا يختلف في شرفه في قومه اثنان . لم تجتمع الأوس والخزرج قبله ولا بعده . على رجل من أحد الفريقين حتى جاء الإسلام ، ومعه في الأوس رجل هو في قومه من الأوس شريف مطاع أبو عامر ابن صيفي بن النعمان أحد بني ضبيعة بن زيد وهو أبو حنظلة الغسيل ، وكان قد ترهب ولبس المسح * فنقيا بشرفهما . . .

أما عبد الله بن أبي فلما انصرف عنه قومه إلى الإسلام ضغن ورأى أن رسول الله قد استلبه ملكاً فلما رأى قومه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه دارها مسراً على نفاق وضغن ، فلان رأس المنافقين واليه يجتمعون ، وهو القائل في غزوة بني المصطلق * **لَئِنْ رَجَعْنَا^{إِلَيْكَ} الْمَدِينَةَ لَأُخْرِجَنَّ^{أَلَيْكُ} الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ** (١) . وأما أبو عامر فأبى إلا الكفر والفراق لقومه حين اجتمعوا على الإسلام (٢) روى

بعضهم : أنه لم يكن في الأوس والخزرج رجل أوصف لمحمد صلى الله عليه وسلم من أي عامر المذكور وكان يألف اليهود ويسألهم فيخبرونه بصفة رسول الله ، ثم خرج إلى يهود نيعا^١ وإلى الشام ، فسأل النصارى فأخبروه بذلك فرجع وهو يقول : أنا على دين الحنيفية ، وترهب ولبس المسح ، وزعم أنه ينتظر خروجه النبي صلى الله عليه وسلم . فلما ظهر بمكة لم يخرج إليه ، فلما قدم المدينة حسد وبغى وذكر النبي صلى الله عليه وسلم بنحو ما سبق إلا أنه قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم * **الكاذب أماته الله وحيداً طريداً** * . قال : آمين . . . ثم ذكر خروجه إلى مكة وزاد : فكان مع قريش يتبع دينهم ، وترك ما كان عليه ، فهذا مصداق ما ذكرت عائشة رضي الله عنها (٢) بدأت تغييرات كثيرة في يثرب تتغير المفاهيم ، وتتغير الأحلاف ، وتتغير النفوس ، وتخطو خطوة أخرى نحو مصير جديد لهذه المدينة التي أصبحت على باب إنقلاب أدخلها جملة في غفوان التاريخ في العصور الوسطى .

وعلى الرغم من أن هذه الحرب قد أهلكت السراة وأجهدت الباقين ، إلا أن عوامل النار ما زالت مدفونة في النفوس وكادت الحرب تتجدد ثانية بسبب نورة الأنهار التي تناقلها شعراء الطرفين والتي أدت إلى قتل أشهر شعراء الأوس قيس بن الخطيم الذي قال بيوم بعثت :
 ألا أبلغنا ذا الخزرجي رسالةً رسالةً حقٌ لستُ فيها مُفْتَدَا
 فإنا تركناكم لدى الرثمِ فـدوةً فريقين مقتولاً به ومطـرُدا
 فأصبح فيث بعد ها متلـدداً فأنس بن العاص^١ صبغناهم عند القتال بـسـارة
 وقال قيس : سل المرء عبد الله إذ فرَّ هل رأى كتابنا في الحرب كيف ميساغها (٣)

(١) سورة المنافقون آية ٨ (٢) وفاء الوفا - السهمودي ١ / ٢١٩ ، ٢٢٠
 (٣) عبد الله : عبد الله بن أبي الذي لم يشارك بالحرب . المصاع : القتال والمجادلة

ولو قام لم يلق الأجابة بعد هـ
 ولأق أسوداً هَصْرَها ودفاعها
 ونحن هزفنا جمعكم بكتيبية
 تضائل منها حزن قفزي وقاعها (١)
 تركنا بعاناً يرب ذلك منهم
 وقفزي على رغب شباعاً ضباعها (٢)

وقصة موت قيس بن الخطيم ؛ فإنه لما هدأت الحرب بين الأوس والحزج بعد حرب بعات تذاكرت
 الحزج قيس بن الخطيم ونكايته فيهم فتواعدوا على قتله وفي أسية من أماسيه خرج إلى بستانه
 (بالشوط) وعليه مائة تان مؤرستان ، وعند مروره بأطم بني -سارته رموه بثلاثة سهام فأصابه أحد ها
 في صدره ، فصاح صيحة سمعها فومه من الأوس فجأوه فحملوه إلى منزله ، فلم يروا له كفهوا إلا أبا
 صعصعة بن زيد بن عوف بن مبدول النجاري ، فاندس إليه رجل منهم فصرع عنقه غيلة ، وأتى
 برأسه إلى قيس وهو في النزح الأخير ، فالقاه بين يديه وقال : يا قيس لقد أدركت نارك ..

فقال : أبغير أبي صعصعة ؟ قال : بل إنه هو .. فبثم قيس ارتياحا ولم يلبث أن مات (٣)
ج - اختيار النظام الملكي

من خلال ما تقدم ، وما كان يحيط بالمدينة من أحداث ، وما كان في أدهان أهل يثرب من المعاصي
 البعيد ، ونتيجة لبروز العديد من الزمامات في الفترة التي كان للأوس والحزج فيها قوة فقد
 تحولت الأراء إلى اختيار النظام الملكي ليكون سائداً في يثرب ، والملاحظ من خلال ما تقدم
 وما أوردته كتب السير والتاريخ أن القرار السياسي كان بيد العرب ، من الأوس والحزج فقط
 ولم يشارك به اليهود ، إذ أن اليهود وفي مبدئهم السياسي ان الحكم فيهم تشويه وتتداخل به
 معتقداتهم وأراؤهم الدينية ، ولذلك فإن التحول الكبير في تاريخ يثرب نحو الملكية كان يعني فقط
 العرب من الأوس والحزج دون سواهم .

أما قضية العداقة والتحالفات بينهم وبين اليهود والعرب الآخرين فهذا أمر آخر لاعلاقة له
 بما توصل إليه عرب يثرب من رأى . ولقد تأخرت فكرة التحول إلى إقامة مملكة في يثرب باعتبار
 أن نظام الحكم فيها كان لا يختلف كثيراً عن طريقة نظام الحكم في مكة ، فلم يكن لأهل يثرب
 عند ظهور الاسلام رئيس ، وقد حاول بعض ساداتهم من الأوس والحزج تنصيب أنفسهم ملوكاً
 على المدينة غير أنهم لم يفلحوا في مسعاهم فلم ينصبوا ملئاً عليها ، والظاهر ان للعنافة السديدة
 والعنيفة التي كانت بين الأوس والحزج على الزمامة ، والرئاسة يداً في عدم تمكن أي أحد من
 سادة يثرب من الإنفراد بزمامة المدينة والسيادة عليها ، وقد يكون لوجود اليهود

(١) ثوري : مكنان قرب بعات

(٢) في نفس المصدر وردت سبعها من ١٦٩ . شعر الحرب في الجاهلية - الخطراوى
 ١٧١ - ١٧٣ بتصرف

(٣) المصدر السابق من ١٧٥ - ١٧٦

بيثرب يد في تعميق الخلاف بين (أولاد القبيلة) إذ لم يكن في مصلحتهم اتفانهم واجتماعهم على اختيار واحد قوى ، فالرئيس القوي سيبسط نفوذه من غير شك على يهود يثرب أيضاً ، ويستند لهم ويجعلهم أتباعاً له ، أما في حالة تشتت حكمهم وتشاحنهم فسكون لليهود إملائية إناثة فريقي على فريق ، والإستفادة من سياسة فرق تسد ، وبذلك يكون أمرهم ونهيمهم بدلاً من أن يكون في أيدي صاحب يثرب (١)

وهذه الفكرة على ما بها من ولج في الحقيقة فإننا يمكن أن نتصور أن عرب يثرب من الأوس والخزرج لم تكن غافلة عنهم عندما تنادوا لوضع حد لحروبهم ، وتوجههم إلى اختيار الملكية ، واختيار الإجتماع على رأى واحد في وضع حد نهائي لأزمة الحكم بينهم . إن التحول إلى النظام الملكي أمر جد طبيعي ، إذ إن اليرشيين على صلة وثيقة جداً بأبناء عمهم النخاسنة الذين استطاعوا أن يشكّلوا ممالك ويحتلّون بلاد ، ويجيشون الجيوش ، ويفرضوا سلطانهم على الكثير من القبائل ، ولوانهم لم يكونوا أكثر من دمي في يد الدولة البيزنطية أو دولة حاضرة إن صح التعبير عن هذه الدولة تدفعهم ليزودوا عنها غارات البدو وغزواتهم .

لماذا لم تختار يثرب نظام مكة ، مع العلاقة الوثيقة والدموية بين البلدين ؟ والتربية الاجتماعية المتقاربة ، فإن هذا الأمر ارتبط منذ أيام قصي بن كلاب بخدمة البيت الحرام ، وقد أصبح أبناء قصي سدنة هذا البيت أو القيام بأية أعمال أخرى ترتبط بخدمة الكعبة ، وهذا أعطاهم الشرف والرياسة والقوة ، وطبعاً هذا أمر غير متوفر في يثرب ، فليس فيها بيت يخدم ولا إله يوظف له سدنة أو كهان ، وبذلك فقد تم اختيار النظام الملكي عن قناعة تامة لدى عرب يثرب وبأنه هو الحل الأمثل والأفضل الذي يستطيع به الملك أن يجمع قوى يثرب المتنازعة المتناحرة القوي التي أنهكتها الحروب المتوالية ، وأرجب لها أن تستريح على الأقل ، وأن تجتمع ضد عدو ومشارك لهم في الأرض والمحيط والجوار . وفكرة المجاورة بين الأوس والخزرج أفضل من مجاورة الحنازير أو (النعالب) اليهود قد طرحت في ذلك الوقت فكرة أخرى وهي اجتماع الرأي أولاً ، وإن يكون النظام الملكي حلاً طبيياً لبعض أزماتهم ، وتعتبر أيضاً بداية التنازلات التي رضي بها الأوس المنتصرون ليكون الملك من خصومهم .

ومع معرفة كلا الحيين من عرب يثرب أن هناك التزامات قوية تقع عليهم من جراء تحول بلدهم إلى مملكة ، ومعرفة ما للملك من حقوق على رعاياهم فإنهم لم يجدوا غضاضة في ذلك . فالملك - كما هو معروف وقتها - هو السلطة العليا في مملكته ، وهو الموجه والمدبر والمدبر - لأمرها وله على أتباعه حقوق كثيرة منها : حق التسليم والخضوع والطاعة ، فطاعته واجبة وله حق

جباية الشعب ، أى أخذ الضرائب منه ، وضرائب على الزراعة ، وضرائب على التجارة ، وحق إعلان
النفي ، والحرب ، والإعتناق عن دفع حقوق الملوك المتفق عليها ، والخزن على أمره هو حرن
عن الحق والقانون (١)

والملك هو قائد شعبه أيام السلم وأيام الحرب ، يرأس جيشه في القتال ، ويختار من يشاء لقيادة
الجيش وهو القاضي الأعلى والحاكم فيما يقع بينهم من خلاف ، وهو الرئيس الروحي لأُمَّته وكأهلهما
في الأصل. غير أن الملوك تركوا هذه القيادة الروحية أي الزعامة الدينية لغيرهم ، وهم رؤساء الدين
 واحتفظوا بالسلطة الزمنية التي تشمل سلطة القيادة والحكم (١)

ومع ان الاوس والخزن لم تسلمتا قيادتهما لأحد يحمل هذه الصفات أو يتمتع بهذه الواجبات فان
القبول الآن بهذا التوجه يعتبر تحولاً خطيراً في الحياة السياسية لسكان يثرب .

إن استمرار حياتهم كلسابق لم يعط إلا الحروب والدمار ، ولم يغرس في نفوسهم الطاعة إلا لشيخ
القبيلة ، ومع أن سادات القبائل لا يتمتعون بما يتمتع به الملوك فهم بحكم منازلهم ومكانتهم في
قومهم لهم امتيازات وحقوق ، ولهم في مقابلها واجبات عليهم أدبياً تبعه القيام بها لرعيتهم
وهم افراد القبيلة (١) وكل ما كان لشيخ القبيلة من منزل هو جباية المرباع وحقه في أخذ ربح
الغنائم إذا وقع الفزو (وهم نورو الآكال) وحق (السفايا) وهو ما يصطفيه الرئيس لنفسه دون
أصحابه مثل الفرس وما لا يستقسم أى لا يقسم على الجيش لقلته وكثرة الجيش ، وله أيضا حق (الحق)
وهو من أمارات عزه وشرفه وسيادته ، فكان إذا مر سيد القبيلة برمضة أعجبتة ، أو بعد ير أعجبتة
أعلن حمايته عليها أو عليه إلى حد يعينه ويثبته. وبعض الخصائص الأخرى لا تتوازي بحال بحقوق
الملك (١) . ولذلك فإن اختيار الملكية أمر فيه تطور فكري سياسي واضح ، وأسبغ أهل يثرب
مؤهلين ذهنياً إلى قبوله ، نعم لقد قادهم رجال يمكن أن يتوجوا ملوكاً ولهم من البأس والندمة
والحمية والجاه ما يجعلهم قريبين من مثل هذا ، إلا أنهم سقطوا صرعى في يوم بعات الذي حصد
رؤوس النمر وأودى بها إلى الهلاك ، وأبقي في يثرب رجال الصف الثاني الذين تحولوا إلى مثل
هذا الاتجاه .

د - تسمية الملك والاتفاق عليه

الأنظمة السياسية التي تبلورت حديثاً أخذت أشكالها غالباً وتسمياتها من الأشخاص الذين كانوا
مؤهلين لمثل هذه التسميات . فعدا عن الأنظمة الملكية والإمبراطورية وهي الأقدم في السياسة
الدولية فإنها في بداياتها كانت قد فصلت على شخص استطاع في وقت من الأوقات أن يكون هو

(١) جواد علي - تاريخ ٢٥٣/٥ ، ٢٥٤ ، ٢٦٤ ، ٢٧٠ بتصرف

القادر دون سواه على تحمل أعباء هذا المنصب ، ونجد في تاريخنا الحديث أن العديد من القادة قد تمكنوا أن يحولوا أنظمة الحكم لصالحهم في فترات متباعدة . فعدد لا بأس به من العسكريين في العالم نصبوا أنفسهم دكتاتوريون أو باطرة أوروسا جمهوريات ، أو حكام دائرون ومنهم من حول حكمه إلى وراثة تحت تسميات مختلفة ، ويمكن أن نضرب مثالا على الهند حيث توارثت عائلة نهر والحكم (منصب رئيس الوزراء) طيلة عقود لا بأس بها من تاريخ الهند بعد استقلالها ، وآخرون حولوها ملكية أو إمارة أو أية صيغة أخرى وجدها هؤلاء القادة تنفع أو تتوافق مع طموحاتهم وقدراتهم .

في يثرب لم يكن هناك نظام محدود مدون عدا النظام العشائري ، وعندما استقر في نهن اليربيين من العرب تحويل بلد هم إلى مملكة صغيرة فقد كان واضحاً في نهنهم أيضاً من يمكن أن يكون هذا الملك . . من هذا الذي يستطيع أن يجمع من الصفات ما يؤهله أن يليق بهذا المنصب ، ولذلك فإن كل الأنظار وقتها تقريباً قد توجهت إلى عبد الله بن أبي بن سلول من الخزرج ولقد سبق القول بأنه لم يكن له منافس في نرفه ، وعلو سمته في يثرب في قبيلته وفي الأوس أيضاً ولقد استطاع أن يستثمر عبد الله بن أبي هذا الأحداث كما لم يفهم استثمارها غيره . وقد أوردت لنا كتب التاريخ بعضاً من هذه الاعمال جاءت قبل وبعد وأثناء يوم بعث أهلت عبد الله لمثل هذا المنصب ، كما جعلت الأنظار كلها تتوجه إليه .

١ - لم يتورط عبد الله بن أبي بالدخول في حرب بعث ، وقد حذر وأذر الدين سعروا هذه الحرب بالعاقبة السيئة خاصة عندما تحدث إلى النعمان بن عمرو وأخبره بأنه سيخرج محمولاً على عباءة يحمله أربعة رجال ، لكنه لم يجلس في بيته يترقب الأحداث والنتائج بل ذهب بأتباعه من بني حارثة يتسقط الأخبار حتى مر عليه حاملوا منافسه القوى النعمان بن عمرو محمولاً على عباءة وأحب في هذا المقام ان اسجل الملاحظتين التاليتين :

١ - إصابة النعمان لم تعرف من أين أفلا يكون أحد رجال عبد الله بن أبي قد ترصد المعركة باعتباره كان قريباً منها وكان هو المتسبب بهذا السهم المجهول الذي حول الخزرج إلى منهزمين ؟ قد يكون ذلك وقد لا يكون ؟ لكن المصادر غفلت عن هذا

٢ - لماذا خرج عبد الله بن أبي يتحسس الخبر عن المعركة ظالماً انه هو أصلاً من احتج عليها ليس من الممكن أن يكون قد هيا خطة للتدخل لصالح أحد الطرفين إذا اقتضى الامر ٢٠٠ ؟ ولماذا لم يتدخل مع أن الهزيمة قد حاقت بالطرفين أولاً وأخيراً ؟٢٠٠ أيضا لا يوجد جواب . لكن كل الأمور كانت توهي بالعديد من التساؤلات حول هذا اليوم .

٢ - هذا الموقف أكسبه تأييد الأوس الذين وجدوا فيه رجلاً عدلاً لم يتحمل من بقية الخزرج تبعثة الدماء التي سقطت في يوم بعث ، وهذا الأمر رفع اسمه ، وجعل الخزرج - المنهزمين والذين فقدوا زعماءهم الأقرباء - يترجعون إليه ليكون هو ملئاً عليهم فعلى الأقل يعيد لهم نبي من

الإعتبار بعد الهزيمة الذكراء التي لحقت بهم ، ويستعيدون قوتهم وأسمهم ويكون الحدم دائماً فيهم ٣ - لم يتورط عبد الله بن أبي أيضاً في قتل الرسائل من فتية اليهود الموجودين عنده ، فأنقذ نفسه وأهله من غضبة اليهود المتحالفين مع الأوس ، ولولا ان أخرج لهم أبناءهم ورد هم إليهم لقتلوه حرقاً هو وأهله وأحرقوا مزارعه وساتينه ، وهذا أيضاً قلب اليهود من أعداء حاقدين أصدقاء إلى حلفاء أقوياء - بدأ . استعان بهم حتى آخر أيامه .

٤ - مع كل التدابير لم يكن عبد الله بن أبي من البساطة والحمية والتسرع حتى انه عرف بين قومه بالحكمة ، ومع انه أعاد بعض تعثلياته في الإسلام إلا أنه بالقدر الذي نجح به في الجاهلية فضل به بالإسلام وفضلاً ذريعاً خاصة موضع ائسحابه بين أحد يوم تبوك ومدافعتة عن بنسي النصير والتزامه بحلف اليهود .

٥ - برز عبد الله بن أبي كرجل مدبر قوي ، قادر على أن يسلك بيثرب إلى السلام والطمأنينة ويستطيع أن ياخذ الأمر بنصابها وأبعادها ، ويمسك جميع الحيوط بيديه في الوقت الذي كان الآخرون يندفعون وراء عواطفهم وآرائهم باستثناء سعد بن معاذ الأسهلي الذي كان ندأ قوماً لعبد الله بن أبي في حكمته وفطنته وفوته ، ^{ابوعامر الزاهب} أو الفاسق كما أسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد ذهب بعيداً حاملاً آملاً دينية وأقل وعياً من عبد الله بن أبي الذي جعل ابن أبي هو الأثوى والأجدر بالملكية في يثرب .

٦ - تنازلت الأوس عن إنتصار عظيم حققته بعد طول جنف مع النسر وطول هزيمة ، وهذا الحال كان له آثاره الكبيرة جداً في تحول يثرب إلى الملكية ، والتوجه إلى عبد الله بن أبي الخزرجي . ظم تمتعتم الأوس هذا الانتصار ، كما أنها لم تفرض شروطها وهي شروط المنتصر ، وانما تنازلت لعبد الله الذي لم يشارك بحربها خاصة هذا اليوم ، ولانت ترى فيه داعية سلام أكثر منه داعية حرب ولعل حكمة سعد بن معاذ الذي برز بعد يوم بعث وحمايته الحزين من جهة وقبوله بملكية ابن أبي هي التي أرسلت القضية إلى هذا الحد من التطور .

٧ - إن قلة أعداد الأوس من جهة ، ومعرفتهم بمدى هذه القوة من جهة ومعرفتهم بقوة أعدائهم ربما تكون السبب المباشر الذي جعلهم يقبلون بعبد الله بن أبي باعتباره نزيهاً لم يغمس يده في دمائهم ولم يعلن الحرب ولم يرض عنها وحالف على مشاعر حلفائهم من يهود فلم يقتل رهنهم ولم يتوغل بالعداوة لهم ، وقد وجد الأوس أن تحول بني النصير للحلف مع عبد الله بن أبي سيضعف موقفهم ويؤثر في مدى محافظتهم على هذا الانتصار .

لهذه الأسباب وأسباب أخرى كثيرة تحول عرب يثرب إلى عبد الله بن أبي ليكون ملئاً على يثرب واتفاق العرب دون الأخذ برأى اليهود أو حتى مشاركتهم في هذا الأمر والذي سيتأثرون به لا محالة فالملك لن يكون على العرب دونهم بل سيحكم يثرب كلها عربها ويهودها ، ولم تشسر

المصادر من بعيد أو من قريب إلى رأى اليهود في هذا المجال سواء أكان هذا الرأى إيجابى أو سلبى ، فقد كانت تعقد الأمور العظام دون الالتفات إلى رأيهم وكلفوا بعمل التاج لعبد الله بن أبي باعتبارهم صناع فقط ، وهذا يدل على أمرين ،

أولهما : قلة تأثيرهم في مجرى الحياة السياسية في يثرب منذ أن حججهم مالك بن العجلان وثانيهما : تفرقهم وعدم إجتماع كلمتهم وسيطرة الحياة القبلية عليهم بأبعادها المختلفة كما اننا لم نسمع عن ذكر رأى في هذا الإختيار أو في تعيين الملك ، أو العنافة ، أو معارضة والأمر الآخر هو انكماش اليهود في مجتمعاتهم المغلقة المعروفة تماماً في تجمعاتهم خلال التاريخ من الإنزوا والتفوق والتآمر والسرية .

ونلاحظ أيضاً ان اختيار " خزرجي " لمطية يثرب إرضاءاً للعساسنة الذين يعلمون أن أكثر جوانب الحياة الفاعلة في أيدي الخزرج والأوس لهم فاعليتهم ولكن ليس على مدى العلاقات الخارجية التي كونها الخزرج من زيارة شعرائهم إلى بلاط العساسنة ، والإتصال بهم وحتى بالمناذرة وكان حلف الأوس لا يتعدى حدود الحجاز ، ومع مكة نقضه أبو جهل عندما لم يبرراً لمثل هذا الحلف . فلما أيسست الأوس من نصرة اليهود حالفت بطوناً من الخزرج منهم بنو عمرو ابن عوف ، وقال سائرهم والله لانصالح حتى ندرنك ثأرنا ، فتقاتلوا ، وكثر القتل في الأوس لما خذلهم قومهم ، وخرج سعد بن معاذ الأنسلي فأجاره عمرو بن الجمح الحرامي ، فلما رأات الأوس أن أمرهم إلى قتل عزموا على أن يكونوا حلفاً للخزرج في المدينة ، ثم استتروا في أن يحالفوا قريشاً ، فأظهروا أنهم يريدون العمرة ، وكان بينهم أن من أراد حجاً أو عمرة لم يعرض له ، فأجار أموالهم بعد هم البراء بن معرور ، فأتوا مكة فحالفوا قريشاً ، ثم جاء أبو جهل — وكان غائباً — فنقض حلف قريش بحيلة احتالها ،

قلت : روى ابن شبة عن أفلح بن سعيد ما يخالفه في نسبه ذلك لأبي جهل مع بيان الحيلة فقال : خرجت الأوس نجالية من الخزرج حتى نزلت على قريش بمكة فحالفتها ، فلما حالفتهم قال الوليد بن المغيرة ، والله ما نزل قوم^{قطر} أعلى قوم إلا أخذوا سرفهم ، وورثوا ديارهم ، فاقطعوا حلف الأوس . فقالوا : بأى شيء ؟ قال : ان في القوم حمية قولوا لهم : إنا نسينا شيئاً لم نذكره لكم إنا قوم إنا كان النساء بالبيت ، فرأى الرجل امرأة تعجبه قبيلها ولمسها بيده ، فلما قالوا ذلك للأوس نفرت ، وقالوا : اقطعوا الحلف بيننا وبينكم فقطعوه (١)

لقد برز ابن أبي دون مناص وإليه استؤول هذه القضية ، رتب الدهر بعضاً من جوانبها ، ورتب هو جوانب أخرى ، وجرى الزمن لصالحه حتى أصبح هو المعنى في دل حديث في يثرب من أن هذا الأمر سيؤول إليه لامحالة ، وفعلاً فقد بدأت الإستعدادات تأخذ أبعادها ليوم التتويج الميمون .

هد - المراحل التي وصلت إليها الملكية في يثرب

قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، وسيد أهلها عبد الله بن أبي بن سلول كان من الخزرج ثم من بني عوف بن الخزرج ثم من بني الحبلى ، لا يختلف في شرفه في قومه اثنان ، لم تجتمع الأوس والخزرج قبله ولا بعده على رجل من أحد الفريقين حتى جاء الاسلام وغيره . وذكر أن عادة نظم الخزرج في عقد يوضح على الرأس ليكون شعاراً للملك والحكم ، عادة كانت معروفة في الحجاز ، وقد ورد ان (عبد الله بن ابي بن سلول) كان رجلاً شريفاً في يثرب ، لا يختلف عليه في شرفه من قومه اثنان ، ولم تجتمع الاوس والخزرج قبله ولا بعده على رجل من أحد الفريقين غيره وكان قومه قد نظموا له الخزرج ليتوجوه ، ثم يملكون عليهم ، فما راعه إلا مجيء الاسلام إلى يثرب وقد م الرسول صلى الله عليه وسلم إليها ، فانصرف عنه قومه فضغن على الاسلام ، ورأى أن رسول الله قد استلبه ملكه .

ورود في الحديث أن الرسول صلى الله عليه وسلم لشكا إلى سعد بن عباد عبد الله بن أبي فقال : أعف عنه فقد كان اصطلح أهل (البحيرة) على أن يعصبوه العصابة ، فلما جاء الله بالاسلام ، شرق لذلك) ويعصبونه ، معناه يسودونه ويملكونه ، وكانوا يسمون السيد المطاع معصباً ، لأنه يعصب بالتاج وفي ذلك قول عمرو بن كلثوم :

وسيد معشير قد عصبوه بتاج الملك يحيي المحجرين

فجعل الملك معصباً أيضاً لأن التاج أحاط برأسه كالعصابة التي عصبت برأس لا بسها ، ويقال اعتصب التاج على رأسه ، اذا استكف به ومنه قول قيس الرقيات :

يعتصب التاج فوق مفرقه على جببين كأنه الذهب (٢)

قال لبيد يذكر الحرف بن أبي شمرا الغساني

رعى خرزات الملك عشرين حجة وعشرين حتى فاك والشيب شامل

اي ان الخرز كان يزداد بعدد سني حكمه

ويقال : كان الملك إذا ملك عاماً زيدت في تاجه خزره ليدل على عدد سني ملكه (٣)

واستعاد اليهود بعد هذا اليوم مكانتهم بيثرب ، ورأى المنتصر والمهزوم من الحيين سوء ما صنعوا وتطلعوا إلى إقامة ملك عليهم ، واختاروا لذلك عبد الله بن أبي بن سلول من الخزرج المهزومة لمكانته وحسن رأيه ، وعدم اشتراكه في حرب بعات ، ولكن تطور الأحوال تطوراً سريعاً حال دون ما أرادوا وذلك لبدء الاسلام بيثرب (٤)

إذا كان أهل يثرب قد ساروا في هذا الدرب إلى هذا الحد فيعني انه لم يبق أمام تنويع عبد الله

(١) وفاة النوا - السهمودي - ٢١٨ / ١ - ٢١٩ (٢) جواد علي - تاريخ ٢١٠ / ٥ - ٢١١

(٣) لسان العرب - ابن منظور / ١ / ٨١ مادة خرز

(٤) المدينة - الخطراوى ص ١٨٤

ابن ابي إالا القليل . وقد ردت الكثير من الأخبار في أن الرسول صلى الله عليه وسلم دخل المدينة مهاجراً وأهلها يعقدون الخرز لعبد الله بن أبي بن سلول .

إن بدء الإسلام في يثرب ، وهو ما سنتحدث عنه تفصيلاً في الفصل القادم قد وافق تماماً محاولات تتويج عبد الله بن أبي ، ولقد قام الرهط من الأنصار وما يحرا الرسول صلى الله عليه وسلم في بيعة العقبة الثانية والتي عرفت ببيعة الحرب ، والقرب منهم ملكهم القادم . حتى انه لما سئل بعد ذلك أنكر علمه بشيء .

قال ابن اسحاق : وحدثنني عبد الله بن أبي بكر أنهم أتوا عبد الله بن أبي بن سلول ، فقالوا مثل ما ذكر كعب من القول ، فقال لهم : ان هذا الأمر جسيم ، وما كان قومي ليتفرقوا على مثل هذا . . . وما علمته كان ، قال : فانصرفوا عنه (١)

لقد اطمأن عبد الله بن أبي بأنه هو الملك القادم ليثرب ، لكن قناعة قومه تحولت إلى شيء آخر ولعله لم يكن يضيرهم أن يسلموا وأن يملكوا عليهم ابن أبي ، فلم يكن الأمر واضحاً ذلك الوضوح الذي انجلي بعد ذلك فأثروا الإسلام على ما سواه

إن توجه الأوس والخزرج لتعليق ابن سلول أمر جاءت به الأحداث الجسم التي مرت على يثرب ، وجلس القوم يعقدون له تاجاً من خرز ليتوجوه ، وكان الله تعالى قد أعد يثرب يوم يحاث ليقدمه إلى رسول الله كما روت السيدة عائشة رضي الله عنها (٢)

إنما فيوم يحاث قدمه الله للرسول لتمهيد قلوب الناس لتقبل الإسلام ، ولأنه سار في نفس الاتجاه أصلاً أن ينال ابن أبي من نتائج هذه الأحداث التي كانت قوية وقاسية وكانت خاتمة الحروب الطويلة . لقد سار اليثريون جميعاً في اتجاه تتويج ابن أبي وأولى الناس بالانتصار لهذا قومه بنو الخزرج الذين سيكون الملك فيهم ، لكن ما هو مدى اقتناعهم بهذا الملك ، وما مدى اقتناعهم به هذه المملكة وهذا التوجه ؟ . فان هذا أمر آخر ؟ .

إن الذين حضروا بيعة العقبة الأولى كان أكثرهم من الخزرج ومن سادات القوم وكان عدد الأوسيين قليل .

فلما كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أولئك النفر ودعاهم إلى الله قال بعضهم لبعض يا قوم تعلمون والله إنه النبي الذي توعدكم به يهود فلا يسبقنكم إليه ، فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوه وقبلوا منه فأعرض عليهم من الإسلام وقالوا :

انا تركنا قومننا ولاقن بينهم من العداوة والنشر ما بينهم وعسى أن يجمعهم الله بك ، فنسندم عليهم فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذي أجبنك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليك ، فلا رجل أعز منك ، ثم انصرفوا راجعين إلى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا (٣)

(١) السيرة النبوية - ابن كثير ٢/٢٠٥ (٢) صحيح البخاري - بحاشية السندی ٢/٣٠٩
(٣) السيرة النبوية - ابن كثير ٢/١٢٦ - ١٢٧

وذكر مرسى بن عقبه فيما رآه عن الزهري وعروة بن الزبير أن أول اجتماعه عليه السلام بهم كانوا ثمانية وهم معاذ بن عفراء ، وأسعد بن زرار ، ورافع بن مالك ، وذكوان وهو ابن عبد قيس ، وعبادة بن الصامت ، وأبو عبد الرحمن يزيد بن ثعلبة (وهم من الخزرج) وأبو الهيثم بن التيهان وثوم بن ساعدة (وهم من الأوس) فأسلموا ووعدوه إلى قابل (١)

وبذلك فإن هؤلاء النفر كانوا من الذين تبنا ملكية عبد الله بن أبي ، لأنهم لم يجدوا في هذه الملكية الفناقة ، كما لم يجد بها من جاء بعدهم ، أما الملك فقد كان له شأن آخر ، ومن المفارقات أن ولي العهد المرتقب لعبد الله بن أبي ولده عبد الله بن عبد الله بن أبي لم تكن لديه الفناقة أيضاً ولا شيء منها بملكية أبيه واستخلافه من بعده .

لقد وصلت ملكية ابن أبي إلى حد كاد به أن يتنى ، لكن دخول رسول الله حال دون ذلك هذه الروايات التي قالت ذلك .

لكن من الواضح أن قضية دخول الإسلام والتتبع اللتين جاءتا متتلتين ما هو إلا من قبيل المصادفة ثم إن الإسلام ما جاء منافساً وموازياً لملكية عبد الله بن أبي إذا أراد أحد من أن يقيس بمقياس القضايا السياسية حالياً أو سابقاً ، ولكن الإسلام جاء ليبيّن أمة وسطاً ، تعي حقيقة وجودها وتحمل رسالة الله إلى الأرض ، وما مملكة ابن أبي إلا ذرة بائدة في طريق الإسلام العظيم الذي أزل أباطرة عظام وممالك قوية ، وتيجان جبارة وأزاح كابوس الظلم والظغيان عن الناس ليحل محله عدل الإسلام ورحمته ، وما قضية ابن أبي إلا دعاية طفل في أتون حرب عظيمة تبناها الإسلام بجانبها الشرق المضي ، وأسقطت من الدنيا كل طواغيت الأرض والآلهة المادية والمعنوية والبشرية وأعاد إلى الإنسانية صفاً روحها وطهارة جسد ها وأعطى هؤلاء الذين كانوا يعتقدون الخرز ليتوجوا ابن أبي على جزء من يثرب وحتى كلها ملك الدنيا التي دانت لهم وسقطت تحت حوافر جياد هم بقوة إيمانهم وتصميمهم ممالك كانوا يرتجعون لمجرد ذكر اسمها أو الحديث الهامس عن عظمتها . وهذا ما سيكون موسعا في الفصول القادمة إن شاء الله .

- انتهى الفصل الثاني -

الفصل الثالث ٢٣٩ - ٣٤٨

|

الفصل الثالث

يثرب بعد الاسلام

تحول الفكر السياسي عند اهل يثرب

مدخل : القرن السادس للميلاد فترة من الفترات المهمة في تاريخ البشرية ، فيه ظهرت امارات الشيخوخة على الامبراطورية الساسانية التي شيدتها ازد شير الاول على اثر الثورة التي اندلعت عام ٢٢٤م او ٢٢٦م ، ثم لم تلبث ان انهارت في القرن السابع للميلاد وبسرعة عجيبة ، وبأيد لهم يحسب لوجودها حساب ، ومن مكان لم يكن له قبل ظهور الاسلام اثر فعال في السياسة العالمية .

وفي هذا القرن أيضا برزت الأمراض العديدة التي ألعت بالقيصرية ، والأملك التي كانت خاضعة لها ، وهي أمراض لم تنج منها الا ببترب بعض أطرافها في القرن التالي له فخرجت من ردهة العمليات تثن من فاجعة الألم الذي حل بها ، ومن هول ما أصيبت به بذلك البترب (١)

هذا مجمل سريع يفسر حال القوى العظمى التي تفاسمت العالم قرون عديدة ، وان العرب أحد أتباع لكليهما ، او للأقوى منهما . ولم يكن فعلاً يحسب للدين جاؤوا من جنسية العرب أي حساب ولم يكن لهم في ميزان السياسة العالمية أي وزن ، إلا استخدامهم رؤوس حراب ومقد مات جيوش وسدود مانعة أمام الأعداء .

والمدينة المنورة التي خرج منها الفتح الاسلامي في منتصف القرن السابع كانت قد تحولت بفعل الاسلام العظيم إلى قوة غيرت التاريخ كله ليس لسنوات او قرون ، ولكن — بعشيئة الله — إلى يوم الدين .

في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي ولد الرسول صلى الله عليه وسلم ٢٤ / ٤ / ٥٧١م وميلاد الرسول ظهر حدث تاريخي خطير للبشرية في النصف الاول بين القرن السابع للميلاد يكتي أثره قائم حتى الآن ، وانه سيقوم الى ماشاء الله — وانه أوجد مفاهيم خلقية جديدة للبشرية وانه بشر برسالة قائمة على أن الدين لله ، وأن الناس أمامه سواء لافرق بين فرد وآخر ، وجنس وجنس ، ولا تمييز للون على آخر .

ثم لم يلبث ان انتشر بسرعة عجيبة لم ينتشر بعثلهادين من الأديان ، ففضى على إحدى الامبراطوريتين في عالم ذلك العهد ، واستأصل الاعضاء الثعينة من الامبراطورية الأخرى ، وأوجد —

من اشقات سكان جزيرة العرب أمة ، ومن قبائلها المتنازعة حكومة ذات سلطان ، وقاض على سداد الجزيرة ، وسقى ما وراءها من أرضين ، ثم وجد بين أقوام عديدين ، وجمعهم في صعيد دين الله . (١)

هذا الانقلاب العظيم في تاريخ البشرية لم يأت صدفة أو من فراغ ، ولم يأت من موت أحد وحياة أحد ، ولكنه جاء والقوى العظمى آنذاك تستطيع ان تبعد مئات الآلاف من الجنود لتكسح المدن والقرى والأقاليم ، وتقطع البحار وتمخر عبايها ، وتجتاز الجبال والأنهار ، وتنتصر وتمهزم والخوف من غلوائها منتشر في أقاصي الأرض ودانيتها ، وببروتها إن طال أمداً أعناه ، ومجدها إن طال أمداً أعزه ، وهي دائمة الحركة والنمو والتوسع والانكماش فهي قادرة على كل حال اقتصادياً وعسكرياً وسياسياً على أن تؤدب الثور ، وتمنع الخزاة وتبني الأمجاد ، وتثبت في الأرض حضارة الأقباء وجبروتهم ، وتضع في مجرى التاريخ قوانينها وأحداثها ورخاها ، وتستطيع القادة السياسيون أن يحملوا أعمالاً جبارة يحكي عنها التاريخ أنها كانت من الخوارق .

هذه القوى التي يقابلها المستضعفون والمقهرون والمهزومون في الداخل قبل الخارج ، والذين لا يحلمون إلا أن يعيشوا في سلام مع بعض نسمات الحرية ، حتى لا يتحولوا فجأة الى عبيد وأقنان واجثت تلتهمها الوحوش والطيور .

تلك القوى كان يفتك بها العرض الجسدى والنفسى معا ، وكانت الفرقة ديدنها وسداد رأيها والحروب - تقليداً للكبار - كلعبة الأطفال تفنيهم زيادة في فنائهم وتخلفهم وضعفهم ، وتبلح الحالة بهم حداً لا يمكن ان يطاق أو يحتمل ، وتتحول الشعوب المتعدنة الى شعوب بدوية ، ويتغير الوضع السكاني بين الحين والآخر ، وتنقل شعوب ، وتهاجر شعوب وقبائل ، وتبنى مدن وتشاد مساكن وكل هذا ربما يكون في وقت نموذجي .

وفي هذه الحالة يستطيع أن يتصور أمراً لم يخطر ببال السالمين ، ولا حتى المؤلفين في التناول كيف يخطر بالبال ان يتغير هذا الوضع في أقل من ٥٠ عاماً على بدء الرسالة ، وإذا بما تقدم تصوره يتحقق ، وإذا المفاهيم والقيم والعظمة والضعف والقوة والبأس والتخلف والفرقة ، ككل هذه التي سادت قروناً قد تغيرت رأساً على عقب عندما تحول رجل طرده فومه ولاحقه يريدون قتله بأية حال وأى موقف ولم ينبج من القتل إلا بأعسوبة حول يديه وبقوة مسار الدنيا وأعرافها وقواها التي تجثم على أرضها بثبات عجيب وفخامة مخيفة .

وهذه المدينة (يثرى) وسكانها الذين استفضنا بالحديث عنهم - قد أصبحت هي وهم محرور حركة الدنيا السابقة ومسارها ، الى تحرك العالم اللاحق ودفعه في الطريق الذى اختاره الله تعالى

للبشرية في الرسالة الخاتمة •

وقد ابتلي هذا القرن (السادس الميلادي) والنصف الأول من القرن التالي له بأوبئة وآفات ومعاجات زادت في مشكلاته الكثيرة التي ورثها من القرون السابقة له ، ففيه انتشرت أوبئة ابتلعت بضع مئات من البشر في كل يوم من أيام انتشارها • كانت العواصف تنقل من مكان الى مكان مكتسحة من تجده أمامها من مسانين ، وتعود بين الحين والحين لتبتلع ما يسد حاجتها من البشر والحيوانات ، وفيه مني العالم بزلزال ، وبنقس كبير في الثلات أوجد قحطا ومعاجة وقرأ في كثير من الأقطار ، حتى اضطر كثير من الناس الى هجرة الأمان المنكوبة ، والارتحال عنها الى أمان أخرى فيها النجاة والسلامة •

هذا بالإضافة الى ما كانت الحكومات المتسلطة تمارسه نحو الشعوب المغلوبة ، وحتى ضد شعوبها نفسها من الجندية والضرائب ، والقهر والتحكم والتبعية ، أما الشعوب الأخرى فقد كان الكثيرون يتعمرون عيشة العبيد ، فقد أرسلتهم حكومتا الساسانيين والقيصرية الى مرحلة متطورة من البذل والقهر والاندال حتى أن الكثير من السكان قد هاجروا من بلادهم وعاشوا في بلاد ساداتهم ومنهم من كبر وبرز وحكم في بلاد العزة والشأن •

ولارباب أن ظروفاً هذه حالتها لا بد ان تتولد منها مشكلات اجتماعية ، وسياسية واقتصادية للحكومات وللرعية ، فاحتل الأمن خاصة في المناطق الواقعة تحت أقدام البيوش ، فيوماً تتسحها جيوش الفرس فتهدم كل ما تجده أمامها من قرى ومدن ، فيوماً تغزوها جيوش الروم فتستولي على ما تجده أمامها من حاصلات زراعية ومن أموال •

وفي ظروف هذه شأنها لا بد أن يجد الخارجون على النظام والنظاميون في الربح السهل الحرام فرصاً مواتية لا يفرط فيها للمكسب والتخلف بما يرغبون فيه ، فنأثرت بذلك حالة سكان هذه الارضين كما تعرضت التجارة للأخطار ، واضطر التجار الى سلوك طرق نائية ليكونوا بعاً من شبر قطاع الطرق وفسادهم ، ترك أكثر الناس مزارعهم وقراهم فرارا من هذا الوضع الى المدن الكبيرة البعيدة عن مواطن الغزو والأخطار ، فتحوط خيرة الأرضين الخصبة الى أرضين مجدبة نتيجة لهذه الهجرة وتراكم الأتربة في شعاب الري (١) •

وننتج عن ذلك تخلف كل النواحي الاقتصادية والتجارية وحتى الفكرية لأن الحرب اذا انتشرت لا يرتبط بها الا فنونها وأسلحتها وحصونها ومعاركها وتدمر بعد ذلك كل القيم الانسانية الأخرى من العدل والحب والعلم والفكر والفلسفة والفن والجمال والأدب •

القسم الاول

ظهور الدعوة الاسلامية في مكة

مدخل : كان العالم عند ظهور الدعوة الاسلامية يضطرب بأيدى الطغاة ونظمهم وقوانينهم وكانت كل الأصوات خاضعة بالدرجة الأولى إلى تمكن الجبابرة من بعضهم البعض أو من الضعفاء في الأرض ومن أن الروم قد ثبتوا بعض ملامح النصرانية ، لنسبهم جعلوا منها نصرانيات كثيرة متصارعة متقاتلة يكفر بعضها بعضاً ، ويذكر بعضها على البعض الآخر المعتقد والمنقول والمعقول والمكتسب . وكان لدى الفرس بعض خيوط من مشيئة زرادشت التي نعتق غزلها وهدم أركانها (مزدك) بنظريته الاباحية التي فرضت من قبل السلطان علي الناس وأتباع النصارى بين الاعتقاد وبين العودة بحيث عادت الزرادشتية لتصبح حياة الفرس بطابعها وعرفت عند العرب بـ (المجوسية)

هذا العالم المتصارع الذي يتحرك به الآخرون بارادة الأقوياء ، أو يتحركون لأتفه الأسباب كان هناك بعض المؤمنين القلة الذين ذكروا هذه الحياة تلك ، وبدأوا يتلمسون بعض العليم في الديانات السابقة .

فاليهود على انكماشهم وانغلاقهم لم يعطوا الآخرين إلا بعض التباشير التي عندهم في الكتاب والبعض الآخر تأثر بالنصرانية . ومع هذا لم يسلم من اضطهاد اليهود إن استطاعوا من رقابهم . وقليلون جدا بدأوا يتلمسون بعض القيم ، ويبحثوا عسماً بقي من تعاليم إبراهيم متفائلين بأن الحق يمكنك هناك في تلك التعاليم حتى يُخَلِّصُوا نَفْسَهُمْ ونفوس الآخرين مما وصلت إليه الإنسانية من طغيان وكفر . ولقد سدت المنافذ على هذه الأصوات المتخففة الضعيفة فلم يكن لها مجال إلا أن تطوف بالكعبة التي بناها ابراهيم لعلها تجد شيئاً وعسى أن تهتدي إلى شيء ؟

أما الأقوياء فقد سدا المنافذ على كل الاصوات الاخرى واحكمت رتاجاتهم بشدك محكم لم تدع لأحد وقتاً ليستمع الى اصوات الاصلاح تخرج من أي نبيج أو تطلع من أي سجن وجدت فيه . الا أن كل الأفكار أخذت تتجه الى أن زمان نبي يخير حال الدنيا قد فارب .

هكذا يجد هؤلاء المتدينون نصارى ، يهود ، مجوس . آخرون . بما في أيديهم من خبر ، ولقد أوردت كتب السيرة الكثير من هذه الأحداث نقف على بعضها .

قال محمد بن اسحاق رحمه الله : ولانت الأخبار من اليهود والرهبان من النصارى والكهان من العرب قد تحدثوا بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بعثته لما تقارب زمانه .

أما الأخبار من اليهود والرهبان من النصارى فعما وجدوا في كتبهم من صفته ، وصفة زمانه ، وما كان من عهد انبيائهم اليهم فيه .

قال تعالى : (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأَقْبَى الَّذِي يَجِدُ وَهُوَ مُتَّبَعًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ

وَالْإِنْجِيلَ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَنَجَّلَ لَهُمُ الْكِتَابَاتِ وَحَرَّمَ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَضَعَ
عَنْهُمْ إِضْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مِنْهُ
أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١)

وقال الله تعالى : " وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيَّنَّ
يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ . . . (٢)

وقال تعالى : " مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَلِدَانٌ أَعْلَى الْكُفَّارِ رَحْمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رَعًّا سَجَدًا
يَسْتَغْفِرُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ، سَيُعَذِّبُهُمْ فِي جُوهِهِمْ مِنْ أُنْتُرِ السُّجُودِ ، ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ
وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرْنٍ أَخْرَجَ سَطَاةً فَاسْتَخَلَفَتْهَا سَوْتٌ عَلَى سَوْتِهِ يُعْجِبُ الزَّالِمِينَ لِيُغَيِّظَ
بِهِمُ الْكُفَّارَ ، وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٣)

وقال تعالى : " وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ، ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقًا لِمَا
مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ . قَالَ أَفَرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَيَّ دَلِيلًا إِصْرِي ؟ قَالُوا أَفَرَرْنَا . قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا
مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤)

قال

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما : ما بعث الله نبيا إلا أخذ عليه الميثاق لئن
بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه ، وأمره أن يأخذ على أمته الميثاق لئن بعث محمد وهو
حي ليؤمنن به ولينصرنه ، وليتبعنه .

نعلم من هذا أن جميع الأنبياء بشروا به وأمروا باتباعه ، وأمروا أتباعهم بالإيمان به . وقد قال ابراهيم
عليه السلام فيما دعا به لأهل مكة " رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ ، وَيُعَلِّمُهُمُ
الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَيِّدُهُمْ مِنْكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥)

وقال الامام احمد : حدثنا ابو النضر ، حدثنا الفقي بن فضاله ، حدثنا لقمان بن عامر
سمعت أبا أمامة قال : قلت يا رسول الله ما لادن بدء أمرك ؟
قال : دعوة أبي إبراهيم ، وبشرى عيسى ، ورأت أمي أنه يخن منها نور أضاءت له قصور
الناسم . وقد روى محمد بن اسحاق عن ثور بن يزيد عن خالد بن معدان ، عن أصحاب رسول
الله صلى الله عليه وسلم عنه مثله (٦)

قال ابن اسحاق : وحدثني عاصم بن عمرو بن قتادة عن رجال من قومه قالوا : ان مما دعانا
إلى الاسلام وكما أهل شرك أصحاب أوثان ، وكانوا أهل الكتاب عندهم علم ليس لنا ، وانك
لاتزال بيننا وبينهم شرور ، فاذانلنا منهم بعض ما يرهون قالوا لنا : انه قد تقارب

(١) سورة الاعراف آية ١٥٧ (٢) سورة الصف آية ٦ (٣) سورة الفتح آية ٢٩

(٤) سورة آل عمران آية ٨١ (٥) سورة البقرة آية ١٢٩

(٦) السيرة النبوية - ابن كثير ١ / ٢٨٦ - ٢٨٧

زمان نبي يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فكفنا شيئا مانسحق ذلك منهم ، فلما بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم اجبناه حين دعانا الى الله تعالى ، وعرفنا ما لانوا يتوعدوننا بسهم فباعدناهم اليه ، فأما به وكفروا به ، وفيهم نزل هذؤلا الآيات من سورة البقرة * وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (١)

وقال ورقاء عن أبي نجيع عن علي الأزدي كانت اليهود تقول : اللهم ابعت لنا هذا النبي يحكم بيننا وبين الناس يفتحون به ، اى يستنصرون به (رواه البهقي)

ثم روى عن طريق عبد الملك ابن هارون بن غيره عن أبيه عن جده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كانت اليهود يخبير تقاتل غطفان فلما التقوا هزمت يهود خيبر ، فعادت اليهود بهذا الدعاء ، فقالوا : اللهم نسألك بحق محمد النبي الأمي الذي دعوتنا أن تخرجه في آخر الزمان أن تنصرنا عليهم . قال : فكانوا اذا التقوا دعوا بهذا الدعاء فهزموا غطفان . فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم كفروا به فأنزل الله جيل وعلا * وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ٠٠ الخ الآية

وروى عطية عن ابن عباس نحوه ، وروى عن عكرمة من قوله نحو ذلك (٢)

ولقد وردت الكثير من هذه النبؤات سواء في كتب السيرة او الدراسات عن السيرة النبوية في العصر الحديث وقد تحرى الثيرون عن هذه النبؤات حتى التي لم يرد لها ذكر في القرآن الكريم والأثر كالنبؤات لدى بونا وبراها ووزرادشت ، وغيرهم من مشاهير العالم القديم . ومدار البحث فيها على البعثة النبوية بعثة محمد صلى الله عليه وسلم ، وما تقدمها من أحوال العالم وأحوال الجزيرة العربية ، وأحوال الأسرة الهاشمية وأحوال أبويه الشريفين .

ويدور البحث فيها على نوعين من المقدمات . مقدمات تمهد لنتائجها وتنضي إليها . ومقدمات تأتي النتائج بعدها كأنها رد فعل لها ، وعلاج لأسبابها وعواقبها . مقدمات من قبيل الداء يأتي بعده الموت ، فهو نتيجة وعقابه على السرعة المعهودة في طبائع الأنسياه ، ومقدمات من قبيل الداء يأتي بعده الداء ، فليس هو نتيجة له إلا على معنى واحد وهو لحاق الداء بالداء ، وظهور الشفاء بعد الحاجة اليه .

مقدمات تتحقق بها عناية الله . . . ومقدمات تتحقق بها قوانين الصبيحة . . . الخ (٣)

وكثيرة هي الأمثلة من الطوالح والنبؤات التي وجد فيها بعض المؤرخين المسلمين شواهد على ظهور النبي عليه السلام ، مكتوبة قبل أوان ظهوره بعشرات القرون ، ويلاحظ ان هؤلاء المؤرخين

(١) سورة البقرة آية ٨٩ ، السيرة النبوية - ابن هشام ١ / ٢٢٥ ، السيرة النبوية - ابن كثير ١ / ١١

(٢) السيرة النبوية - ابن كثير ١ / ٢٩٢ (٣) مطلع النور - عباس العقاد ص ٥ فما بعد

من فضل الهند وفارس والامم الشرقية التي تتكلم غير العربية ، وسر ذلك أنهم ورثوا في بلادهم طوائع الديانات السابقة ، ولم يشاؤوا ان تكون هذه الطوائع مزايا خاصة تنفرد بها تلك الديانات ويعجزون هم عن الاتيان بنظائرها التي تقابلها في كفة الديانة الاسلامية ، فهم يتوخون إلزام الحجة بالدليل المعادل ، ولا يعييبهم فعلاً أن يجدوا ذلك الدليل مساوياً أو راجحاً في الدلالة على أدلة المتقدمين من أبناء الملل النابرين (١)

قال ابن اسحاق : فلما بلغ محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعين سنة بعثه الله تعالى رحمة للعالمين ، وكافة للناس بشيراً ونذيراً .

قال ابن اسحاق : فذكر الزهري عن عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها أنها حدثته ، أن أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أراد الله كرامته ورحمته لعباده ، الرؤيا الصادقة لا يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤيا في قومه الا جاءت كلفى الصبي ، قالت ، وحبب الله تعالى اليه الخلوة ، فلم يكن شيء أحب إليه من أن يخلو وحده .

قال ابن اسحاق : حدثني عبد الملك بن عبيد الله بن أبي سفيان بن العلاء ابن جارية الثقيفي وكان واعيه عن أهل العلم .

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أراد الله بكرامته ، وابتدأه بالنبوة بان اذا خرج لحاجته أبعد حتى تحسر عنه البيوت ، ويقضي الى شعاب مكة ومطون أوديتها ، فلا يمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بحجر ولا بشجر الا قال : السلام عليك يا رسول الله (٢) قال : فيلتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم حوله وعن يمينه وشماله وخلفه فلا يرى إلا النجر والسجارة ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك يرى ويسمع ماشاء الله أن يمتك ، ثم جاءه وجبريل عليه السلام بما جاءه من كرامة الله وهو بحرا في شهر رمضان (٣)

فلما كمل له أربعون ، أشرق عليه نور النبوة ، وأرغمه الله تعالى برسالته ، وبعثه إلى خلقه واختصه بكرامته ، وجعله أمينه بينه وبين عباده ، ولا خلاف في أن مبعثه صلى الله عليه وسلم كان يوم الإثنين ، واختلف في شهر المبعث فقيل لثمان مضي من ربيع الأول سنة احدى وأربعين من عام الفيل . هذا قول الأكثرية .

(١) مطلع النور ص ١١ ويورد المؤلف الكثير مما ورد في كتب فضائل علماء المسلمين من غير العرب ايضاً . السيرة النبوية - ابن هشام ٢٤٨ صفة الرسول بالانجيل . السيرة النبوية - ابن كثير ١/ ٣٢٠ فما بعد . الطبري - تاريخ ٢/ ٢٩٥ .

(٢) يورد سنن السيرة النبوية للسهيلى (الروايات) حاشية حول هذا الموضوع ١/ ٢٥٠

(٣) السيرة النبوية - ابن هشام ١/ ٢٥٠ . السيرة النبوية - ابن سير ١/ ٢٨٥ .

السيرة النبوية - دروس وعبر من ٤٣ . الطبري - تاريخ ٢/ ٢٩٨

وقيل بل كان ذلك في رمضان ، واحتج هؤلاء بقوله تعالى : (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ
هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْقُرْآنِ) (١)

قالوا : أول ما أكرمهم الله تعالى بنبوته أنزل عليه القرآن ، وإلى هذا ذهب جماعة منهم يحيى
الصرحري حيث يقول في نونيته (٢)

وأنت عليه أربعون فأشرفت شمس النبوة منه في رمضان

والأولون قالوا : إنما كان إنزال القرآن في رمضان جملة واحدة في ليلة القدر إلى بيت العزة

ثم أنزل منجماً بحسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة .

وكمل الله مراتب الوحي مراتب عديدة ، وقد عدها المؤلف ثمانية (٣)

وقد أورد الطبري عدة روايات عن بدء الوحي اتفقت كلها أن بدء الوحي كان يوم الاثنين لثالث

تتلق على أي اثنين هذه فمنهم من قال لثمان عشرة خلت من رمضان ، ومنهم من قال : لأربع

وعشرين خلت منه ، ومنهم من قال لسبع عشرة خلت من رمضان ٠٠٠ الح (٤)

قال أبو جعفر : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل أن يظهر له جبريل عليه السلام

برسالة الله عز وجل إليه - فيما ذكر عنه - يرى ويعاين آثاراً وأسباباً من آثار من يريد الله

كرامته (إكرامه) ، واختصاصه بفضله فكان من ذلك ما قد ذكرت فيما مضى من خبره عن الملكين

اللذين أتيا فسقا بطنه واستخرجا ما فيه من الغل والدنس ، وهو عند أمه من الرضاعة حليلة

السعدية ، ومن ذلك أنه كان إذا مر في الطريق لا يمر - فيما ذكر - عنه بشجر أو بحجر إلا سلم

عليه (٤)

وتجمع الروايات بعد ذلك - مع بعض الشواهد - أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد تلقى الوحي

وهو في غار حراء يتحنث .

فرواية ابن اسحاق عن وهب بن كيسان عن عبد الله بن الزبير عن عبيد بن قتان الليثي قال :

وحدثني وهب بن كيسان مولى آل الزبير قال : سمعت عبد الله بن الزبير وهو يقول لعبيد بن

عمير بن قتادة الليثي حدثنا يا عبيد كيف كان ابتداء الوحي (كيف كان بدء ما ابتدئ به رسول

الله صلى الله عليه وسلم حين جاءه جبريل عليه السلام ، قال : فقال عبيد وأنا حاضر يحدث عن

عبد الله بن الزبير ومن عنده من الناس : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجار في غار

(١) سورة البقرة آية ١٨٥

(٢) هو الشيخ جمال الدين أبو زكريا يحيى بن يوسف بن يحيى الصرحري (نسبة إلى صرحر

قرية على فرسخين من بغداد) العلامة الحافظ اللغوي (الانصاري) كان إليه المنتهى

في معرفة اللغة وحسن الشعر وديوانه ومدائحه سائره يشبه بعض حسان . قتله التتار

يوم دخلوا بغداد ٦٥٦ - (شذور الذهب ٥/٢٨٥ - ٢٨٦)

(٣) زاد المعاد - ابن القيم ١/٧٨ فما بعد

(٤) الطبري - تاريخ ٢/٢٩٣ ، ٢٩٥

حرا من كل سنة شهرا ، وكان ذلك مما تتحنث به قريش في الجاهلية ، يطعم من جاء من المساكين فاذا قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم جواره من شهره ذلك ، كان أول ما يبدأ إذا انصرف من جواره الكعبة قبل أن يدخل بيته فيطوف بها سبعا أو ماشاء الله من ذلك ثم يرجع الى بيته ، حتى اذا كان الشهر الذي أراد الله تعالى فيه ما أراد من كرامته من السنة التي بعثه الله تعالى فيها ، وذلك الشهر شهر رمضان خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى غار حرا كما كان يخشى لجواره ومعه أهله حتى إذا كانت الليلة التي أكرمها الله بها برسالة ورحم العباد بها جاءه جبريل عليه السلام بأمر الله تعالى (١)

وبعد أن أكرمها الله تعالى به نبيه باختياره لهداية الناس كافة ، لم يكن صلى الله عليه وسلم يستشرف للنبوته ، ولا يحلم بها ، وإنما كان يلهمه الله الخلو للعبادة تطهيرا واعدادا روحيا ليحتمل أعباء الرسالة ، ولو كان عليه الصلاة والسلام يستشرف للنبوته لما فزع من نزول الوحي عليه ولما نزل الى خديجة يستفسرها عن سر تلك الظاهرة التي رآها في غار حرا ، ولم يتأكد من انه رسول الا بعد رؤية جبريل يقول له : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل ، والا بعد أن أكد له رلخديجة ورقة بن نوفل أن ما رآه في النار هو الوحي الذي كان ينزل على موسى عليه السلام (٢) ثم فجئه الحق وهو بغار حرا يوم الاثنين لثمان عشره خلت من رمضان ، وقيل لاربع وعشرين ليلة مضت منه ، وله من العمر اربعون سنة وهذا مروى عن عبد الله بن عباس ، وجبير بن مطعم ، وثبات بن أشيم ، وعطاء ، وسعيد بن المسيب ، وأنس بن مالك ، وهو صحيح عند أهل السير والعلم بالآثر وقيل : بعث وله من العمر ثلاث وأربعين سنة ، وقيل أربعون يوم ، وقيل وعشرة أيام ، وقيل وسبعين ، وقال ابن شهاب : بعث على رأس خمس عشرة من بنيان الكعبة ، فكان بين مبعثه سبعون سنة . قال ابراهيم بن المغنذر : هذا وهم لا يشك فيه أحد من علمائنا ، وذلك أن رسول الله ولد عام الفيل لا يختلفون في ذلك ، ونبي على رأس أربعين من الفيل ، وذلك على رأس مائة وخمسين سنة من عام حجة الغدر (٣) ولست عشره من ملك ابرويز ، ويقال بل لعشرين سنة مضت من ملك كسرى ابرويز بن هرمز بن انوشروان ، وعلى الحيرة إياس بن قبيصة الطائي عاملا للفرس على العرب ومعه النخير جان الفارسي على رأس أربعين سنة من ملكهما ، وعلى اليمن يومئذ باذان أبو مهران (٤)

ومبعثه صلى الله عليه وسلم عام ٦١٠م حيث كان مولده في ٢٤ / ٤ / ٥٧١م حسب التقويم الشمسي فيكون عمره عند مبعثه تسع وثلاثون سنة شمسية تقابل اربعون سنة قمرية تقريبا . قال تعالى : وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (٥) وقال المفسرون (١) تاريخ العرب القديم - عاقل ص ٢٧٢ - ٢٧٣ (٢) السيرة النبوية - السباعي ص ٤٨ (٣) يقول المحقق لم ادوماهي * وقد بحثت فلم ازلها ذكرا فيما وقع لي من الكتب (٤) امتاع الاسماء - المقريري ١ / ١٢ - ١٣ (٥) سورة النمل آية ٢٥

يقولون أن الرقم الأول للتقويم الشمسي والتس الزيادة للتقويم القمري والله أعلم .
 التباسير بالنبوة المحمدية ، وبدء نزول الوحي على محمد عليه السلام أمران مُتَّصِلَانِ ، أما الأولى
 كانت مقدمات للثانية ، والمقدمات لان لا بد منها حتى يستطيع الناس الذين فقدوا الأمل بطل شيء
 ان يبقى في أذهانهم خيط يربطهم إلى أمل في الدنيا يعيد الحق إلى نصابه ، ويحارب الظنانية
 وينشر العدل ويرفع الضيم ويزيل الظلم ، ولولا هذا البريق من الأمل لخبث حرمة الإنسان وتحول
 القوي مع الضعيف إلى علاقة كعلاقة الوحوش في الغابات ، أو كبحر متلاطم . . القوي فيه هو السيد
 والضعيف يعتبر طعاما سائغا له ليس إلا . . .

تباشير النبوة التي بشر بها الأقدمون ، وبحث على ارتباطها المحدثون كانت تعيد الأمل الميت
 إلى نفوس الناس بأن العدل لا بد آت ، والظلم لا بد مقهور .
 ظهرت الدعوة الإسلامية في مكة ، واختيار مكة أمر أراد الله تعالى لعباده ، فهي دعوة إبراهيم
 وبشرى عيسى كما قال عليه السلام ، ومحمد خاتم الأنبياء المصطفى من بين خلق الله تعالى . قد
 أهله الله تعالى ، وأدبه فأحسن تأديبه وحمله رسالته الخاتمة للناس كافة حتى يعيد العدل ويقهر
 الظلم ويحقق الآمال الطوال التي تمنها الأقدمون قبل مبعثه ، وروا تباشيرها في شير من
 المراقف التي سجلوها لوفتها بعد ذلك في أحداث التاريخ المتلاحقة ، والتي وصلنا بعضها
 وعنى على الأخرى الكثير من الأحداث الجسام التي عزت العالم باستمرار
 ظهور الدعوة الإسلامية في مكة في مطلع القرن السابع للميلاد كان رحمة من الله تعالى بعباده
 بعد ان تناقضت المظالم وكثر عدد الظالمين ، وعدد المظلومين إلى أعداد يعجز الإنسان عن
 حصرها وتحول الناس إلى ظالم ومظلوم فقط . . وخبى العدل وقتل السلام وأجهض الحق .
 لعاد اختار الله تعالى مكة ومحمد والعرب ، المكان والقوم والرسول في هذا الزمان ؟ . . .
 هذا أمر أشرف الباحثون أيضا من استدلالاته والحديث عنه . لم يرسله في قوة كبيرة من إحدى
 القوتين العظيمين آنذاك ، لم يختبره الله تعالى من علية القوم حتى من عند العرب فتساءل القوم
 وتعجبوا وقالوا وتقولوا . . قال تعالى : (رَقَالُوا كَوْلًا نَزَّلَ هَكَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْغَرَبَاتِ عَظِيمٍ) (١)
 بمقياس أهل الدنيا رجل عظيم في قومه من قرية عظيمة . محمد صلى الله عليه وسلم كان أمينا في
 قومه ولكن صفاتهم التي يريدون والمنطقية على العظمة هو القوة والمال والجاه والاتباع وحتى الظلم
 فمحمد بهذا القياس لم يكن واردا عند هم .
 هذه قضايا خارجة عن خط بحثنا . ولكننا لا بد لنا أن نخطر نحوها أو نشير إليها على الأقل
 إرادة الله تعالى ومشيئة أعطت الرسالة لمحمد صلى الله عليه وسلم الذي بشر به الأقدمون
 وفي مكان وسط بين القوتين المتصارعتين بعيداً عنهما وعن مناطق نفوذهما ، وبشيء ممكن

هفت اليه قلوب المتأملين •

ظهر الدعوة الإسلامية في مكة لم يكن حدثاً عابراً من جهة كما أنه لم يكن انقلاباً هائلاً أهل الدين عايشوه ، بل انه كان أمراً عادياً في بداياته وفي تعارف البشر آنذاك ، فان بدايات الانقلاب العظيم الذي غير الدنيا • وما زال رغم هزائم وتخلف وتقهقر المسلمين يعرض نفسه على كل الأحداث • فكل ما يجري في الصين والهند وروسيا وأوروبا وأمريكا وأستراليا وكندا وكل المساحات الهائلة في العالم الآن فالاسلام يشتمل بال هذا العالم بين مؤيد ومعارض بين متبع ومبتدع بين عدو وصديق ، فهو المحرك الآن لكل الأحداث الجارية في العالم تقريباً • ظهر الدعوة الإسلامية في البدايات الأولى للقرن السابع الميلادي ما هو إلا تخيير مسار العالم وسنوات قليلة جداً ، تمكن أن يهز العالم بعنف ، ويغير اتجاهه •

الدين عايشوه وتعردوا على أحداثه العظيمة والضعفاء في العالم آنذاك • لم يتعد الحدث العظيم نفس محمد إلا إلى زوجته •

ولقد أوردت كتب السيرة العديد من الروايات عن نزول الوحي وعودة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى زوجته خديجة ليخبرها بما رأى •

من هذه الروايات رواية محمد بن اسحاق عن وهب بن نيسان •

ورواية الطبري عن عبد الله بن شداد ، ورواية ابن سعد عن ابن عباس •

وتبين من هذه الروايات جميعاً والتي تتطابق ان الرسول صلى الله عليه وسلم ارتاع من نزول الوحي عليه ، وخاف أن يكون به من جنون ، وهرع الى خديجة رضي الله عنها وهي الزوج الأمين والصديقة الوفية يقص عليها خبره ويشكو اليها مخاوفه ، فطمأنته وهدأت من روعه ، وثبتته ، ورات في قريبتها ورقة بن نوفل خير ملجأ لتفسير ما أصاب زوجها وسمع ورقة من خديجة على ما توكّد جميع الروايات ، حديث محمد صلى الله عليه وسلم وما ينتابه من أمر فحرف في ذلك وحي الله الذي كان ينتزل على سابقته من الأنبياء ، وطلب منها أن تثبت أقدامه وأن تعرفه الحال التي هو بها (١)

وسدق الرسول صلى الله عليه وسلم ما أتاه به الوحي ، وصدقت به زوجته ، والحدث جليل جداً فقد عاد الاتصال بين السماء والأرض بعد أن انقطع حوالي ستة قرون ومنذ أن صعد عيسى إلى ربه ، ولم يعد هناك من خبر - ساد الظلام ، وحكمها الطواغيت ، طلع محمد بن عبد الله على العالم ودمر صاحب الرسالة السماوية ، والدعوة الإسلامية وأطل من غياهب الجاهلية فأطلت معه دنيا أظلمها بلواً مجيد تنب عليه باحرف من نور " لا إله إلا الله - الله أكبر " فاعلن بين العرب بادى ذي بدء بدعوة الاسلام

فكانت - على الناس في بداياتها - أثقل عليهم من الجبال ، ودعاهم جهارا الى رفعن ما يعبدون من أوثان ، وترك عاداتهم الوحشية ، والخضوع لعدل الإسلام والتجمل بالأخلاق الفاضلة والآداب الراقية .

واستمر على هذه الدعوة في مكة ثلاث عشرة سنة وفي السنة الثالثة من دعواه الرسالة أعلن بدعوته لعامة الناس إعلانا تاما ، وصار ينادى في جميع أيامه في المحافل والمواسم بجميل المعظمة وقاطع الحجة ، والانداز بالعقاب والبشرى بالثواب ، وحسن الترغيب والترهيب وتلاوة القرآن ، واعزاز بالنصيحة ، لم يهيب في دعوته طاغوتا ، ولم يستحقر صعلوتا يدعوا الشريف والحقير والمرأة والعبد ، وقد أمن خلال هذه الدعوة بدعوته الثقيلة على الالهواء من كل وجهة ، خلق كثير من أهل مكة وضواحيها من فريش وغيرهم ، واحتملوا في ذلك الاضطهاد والهوان ، والجلأ عن الأوطان الى الحبشة وغيرها ، فكم من شريف في قبيلة عزيز في أهله وقومه صار باسلامه مهاننا مضطهدا ، وكل هذا لم يصد الناس عن الاسلام . لا يصد الضعيف ما يقاسيه من العذاب ولا يصد الشريف العزيز ما يلاقيه من الهوان . يرون الاسلام هو العز والشرف ، والحياة والسعادة (١) انتشرت الدعوة الاسلامية في مكة ، وبدأت معالم الانقلاب تظهر بقوة الإيمان وعظمة القرآن وثبات النبي وازدياد المؤمنين ، وصبرهم على المحن والآلام ودام ذلك حوالي ثلاثة عشر سنة ، لقي بها الرسول والمؤمنون الأذى والصد والعداوة ، ولكن في الجانب الآخر كانت هذه الفترة فترة اختبار الرجال الذين سيغيروا بأيديهم مسار العالم .

١ - انتشار الدعوة الاسلامية خارج مكة

هذا وقد أقبل على الإيمان بدعوة محمد صلى الله عليه وسلم وسوبمة قبائل الأوس والخزرج وفجار ومزينة ، وجهينة وأسلم ، وخزاعة ، ولا يخفى أن محمداً كان عزيز قريش . كيف لا وهو من بيت سيادتها وعزتها ، تسمية قريش (الصادق الأمين) يودع عنده شركوا قريش ودائعهم ومدخراتهم إلى حين هجرته ، ومع ذلك كان يقاسي الأذى الشديد من المشركين والاستهزاء والتكذيب لدعوته ، والحبس مع بني هاشم في الشعب ، وهو مع هذا دائب ساهر مدرع بالصبر الجميل لا يثني عزمه شيء مهما بلغ وتعاضم ، لا يفتر عن دعوته ونشرها ويت تعاليمه الفاضلة ، وحمايته الترحيد وابطال الوثنية (١)

لقد سادت دعوة الإسلام في أيامها الأولى في مسارين متوازيين ، ففي الوقت الذي انضم إليها العديد من المؤمنين في مكة ، بدأت أيضا خيوط النور تخرج خارج مكة

(١) محمد عند علماء الغرب - خليل ياسين ٢٨ ، ٢٩

لتدخل قلوب رجال آخرين آمنوا بها ، ولم يكن المضروب في ذلك الوقت من الأتباع أكثر من استشعار معنى " لا إله إلا الله ، محمد رسول الله " وإيمان والتسديق بما يأتي به الرسول من عند ربه ، ولم يكن التثليف قد بدأ على المؤمنين إلا ركعات قليلة جدا قبل فرض الصلاة بحادث الاسراء والمعراج ، فقد استهوت هذه الدعوة الكثيرين خارج مكة ، ولعل الهجرة الأولى والثانية الى الحبشة كان لها تأثيرا كبيرا حتى على النجاشي حاكمها عندما سمع القرآن الكريم من المسلمين ، ولو أن ردة الفعل كانت كبيرة عند كهانه رهيبه إلا أن ذلك كان برداً وسلاماً على قلبه .

وأحداث انتقال الدعوة خارج مكة كثيرة ، وهي كما قلت سارت في طريق مواز لسيطرة الدعوة على الكثير من جبابرة قريش الذين كان لهم الدور البير في تعذيب المسلمين واهانتهم وحتى قتلهم ، فقد تمكن الاسلام من قلوب البعض الذين تحولوا إلى الصف الإيماني الصادق وأخذوا يتحملون مع المسلمين الكثير من الأذى الذي تغفن به أهل مكة .

لقد كانت ردة الفعل عند أهل مكة قوية ، ولأسباب كثيرة منها أنهم هم سدنة البيت والأكثر انتفاعاً من وثية العرب ، إليهم يحج الناس ، وهم وحدهم لهم الحق برعاية البيت والقيام بالطقوس المشوشة المشوهة عن الحج الذي أذن له ابراهيم عليه السلام " وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا ، وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ . وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ . لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا أَاسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقْتَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَوَّالِيهَا . ثُمَّ لِيُقْسُوا فِيهَا دُونَ ذُرِّيَّتِهِمْ وَيُؤْتُوا نَدْوَاهُمْ وَلِيُطَوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ . ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لِعَيْنِدِ رَبِّهِ وَأَحَلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يَمِئْتُ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّهْرِي ^(١) " ولذلك فقد وجدوا في دعوة الاسلام تقويضاً لكل أركانهم السياسية والدينية والاقتصادية وحتى القبلية ، وأعلنوا صراحة عن كل هذه القضايا بالمحادثات والمجادلات التي كانت تجري بين مفكرتهم وقادتهم وبين محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن حماه من أهله ومن أتباعه وهذه الردة القوية جعلت الرسول صلى الله عليه وسلم يؤكد حقيقة التوحيد ، وتشبيحت الفكر الصافي في عقول أصحابه .

ومع ازدياد المسلمين في مكة يوماً بعد يوم ومع قلة المشركين ودخول انظارهم ومعتقداتهم وسقوط الكثير من الرموز الدينية التي كانوا يتمسكون بها ، وانهزام العقيدة التي كانوا يحملونها ، إلا أنهم شددوا قبضتهم على ماتحت أيديهم .

واشتد أذاهم بشكل كبير جدا ، واستجمعوا قواهم وازالوا ما بينهم من تناقضات وقرروا في نهاية المطاف التخلص من محمد ومن أصحابه جملة وتفصيلا . كان الاسلام في هذه الأثناء يخرج من مكة ، فقد كانت مكة ملتقى الحجاج في كل عام ، ومجمع العرب كل سنة ، فكما لانوا يتناقلون في موسمهم هذا أشعارهم وأخبارهم من وإلى مكة ، فقد تناقلوا أيضا خبر دعوة الاسلام وقصة محمد صلى الله عليه وسلم الذي ظهر في مكة منها إلى البوادي والحوضر والمدن فمنهم من أعارها اهتمامه الكبير ، ومنهم من لم يلتفت اليها لأن أخبار العظماء في العالم كانت قد طغت على أفكاره .

ومنهم من لم يكن ليهتم بهذا الحدث لأنه لا يرى فيه شيئا يلفت النظر في بدايات ظهوره ، لكن الكثيرين قطعاً قد علموا به ، وبدأت تدور في أذهانهم قضايا المقارنة بين ما يدعوا إليه وبين ما هو واقع في هذا العالم الآن ، بين ما نادى به وما هو سائد على رقاب الناس ، بين ما يبشر به وبين ما فرس على الناس في حواضرهم وبواديهم ، بين ما يبطل وما يثبت ، بين ما يرضاه وبين ما يرفضه بين ما يحله وبين ما يحرمه . وقف الكثيرون كما تحدثت روايات أهل السير وكتابتها من هذا الحدث الكبير وأعطوه الاهتمام اللازم ، وبذلك فقد بدأت الدعوة الاسلامية تخطو بنبات إلى خان مكة ، كما يزداد أنصارها يوماً بعد يوم .

لقد ظهر انتشار الدعوة الإسلامية خان مكة في الأحداث التالية :

١ - الهجرة إلى الحبشة : لقد كان لأذى قريش وتعنتها وصدها عن ذكر الله الأثر الكبير في انتشار الدعوة خان مكة ، ولو علم القرشيين المستقبل لما اتخذوا هذه الفسوة للصد عن دين الله ، ولعاملوا أتباعه بأحسن ما يمكن أن يتعاملوا ، لكن قسوتهم ، ودفعهم الحق ، وتعذيب الدعوة جعل الرسول صلى الله عليه وسلم ينظر خارج مكة حتى يجد من يقبل دعوته ومن يقبل دعواته ، بحث عن المؤمن ، وعن ينضم لهذه الدعوة ويكون لها حاميا ومعينا وبذلك فقد توجهت الانظار أولاً إلى الحبشة .

روى الواقدي أن خروجهم إليها * أي الحبشة * في رجب سنة خمس من البعثة ، وأن أول من هاجر منهم أحد عشر رجلاً وأربع نسوة ، وأنهم انتهوا إلى البحر ما بين ماشي وراكب فاستأجروا سفينة بنصف دينار إلى الحبشة (١)

حدثنا علي بن نصر بن علي الجهني ، وعبد الوارث بن عبد الصمد ابن عبد الوارث ، وقال علي بن نصر حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث : وقال عبد الوارث : حدثني ابي قال : حدثنا ابن العطار قال : حدثنا هشام بن عروة عن عروة أنه كتب إلى عبد الملك بن مروان : أما بعد فإنه

(١) السيرة النبوية - ابن كثير ٣/٢ ، الطبري - تاريخ ٢/٣٢٩ - السيرة النبوية - ابن هشام

يعني الرسول صلى الله عليه وسلم لما دعا قومه لما بعثه الله من الهدى والنور الذي أنزل عليه لم يبعدوا منه أول مادعاهم . وكانوا يسمعون له ، حتى ذكر طواغيتهم ، وقدم ناس من الطائف من قريش لهم أموال أنكروا ذلك عليه ، واشتدوا عليه ، وكروهوا ما قال لهم ، وأعزوا به من أطاعهم فانصفق (انصرف) عنه عامة الناس ، فتركوه إلا من حفظه الله منهم وهم قليل ، فمكث بذلك ما قدر الله أن يمكث ، ثم أثمرت رؤوسهم بأن يفتتوا من تبعه عن دين الله من أبنائهم وإخوانهم وقبائلهم ، فكانت فتنة شديدة الزلزال على من اتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل الإسلام فافتتن من افتتن ، وعصم الله منهم من شاء . فلما فعل ذلك بالمسلمين أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخرجوا إلى أرض الحبشة ، وكان بالحبشة ملك صالح يقال له النجاشي ، وكانت أرض الحبشة متجرا لقريش يتجرون فيها ، يجدون فيها رفاعا من الرزق ، وأمناء ومتجرا حسنا ، فأمرهم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فذهب إليها عامتهم لما قهروا بعه وخاف عليهم الفتن ، ومكث هؤلاء بسنة ، فمكث بذلك سنوات يشددون على من أسلم منهم .

ثم إنه فشا الإسلام فيها ، ودخل فيه رجال من أشراغهم (١)

قال ابن جرير . . . وقال آخرون : بل كانوا اثنين وثمانين رجلا سوى نساءهم وأبنائهم وعمار بن ياسر نسك ، فإن كان فيهم فقد كانوا ثلاثة وثمانين رجلا (٢)

وقد اعتبر كثيرون من المؤرخين أن الهجرة للحبشة كانت هجرتين الأولى والتي كان عددها أحد عشر رجلا وأربع نسوة ، والهجرة الثانية كانت اثنين وثمانين رجلا سوى نساءهم . ومنهم من قال أن العدد ازداد بتتابع المهاجرين إلى الحبشة (٣)

وقد زعم موسى بن عقبة أن الهجرة الأولى إلى الحبشة كانت حين دخل أبو طالب ومن خالفه مع رسول الله إلى الشعب ، وفي هذا نظر والله اعلم

وزعم أن خروج جعفر بن أبي طالب إنما كان في الهجرة الثانية إليها ، وذلك بعد عودة بعض من خرج أولا حين بلغهم أن المشركين أسلموا وسلوا ، فلما قدموا مكة ، وكان فيهم قدم عثمان بن مظعون ، فلم يجدوا ما أخبروا به من إسلام المشركين صحيحا فرجع من رجع منهم ومكث آخرون في مكة ، وخرج آخرون من المسلمين إلى أرض الحبشة وهي الهجرة الثانية (٤)

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن بن موسى ، سمعت خديجة أخت زهير بن معاوية عن أبي اسحاق عن عبد الله بن عتبة عن ابن مسعود قال : بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى النجاشي ونحن من ثمانين رجلا فيهم عبد الله بن مسعود ، وجعفر وعبد الله بن غزطلة ، وعثمان بن مظعون ، وأبو موسى فأتوا النجاشي (٥)

(١) الطبري - تاريخ ٢ / ٣٢٨ - ٣٢٩ (٢) السيرة النبوية - ابن كثير ٢ / ٤ ، ٥ ، ٦

(٣) ابن الأثير - اللامل ٢ / ٥٤ - ٥٦ السيرة النبوية - ابن كثير ٢ / ٩

وهذه الهجرة هي أول خيطة من نهر الإسلام حملة الدعوة إلى أرس الحبيشة ، وهي أول هجرة في سبيل الله في الإسلام ، قد يكون الكثيرون قد حملوا الإسلام فرادى إلى أقوامهم لكنهم لم يكن لهم أثر يذكر كدعاة إلى دين الله تعالى . كما اعتبر ذلك أمراً سياسياً عندما لم تدع قريش دهبولاً الناس آمنين مطمئنين حيث ذهبوا وحلوا في مملكة ملك صالح ، ولحقت بهم وأرسلت وقدأ إلى النجاشي هما عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد بهدية من قريش إليه .

فلما دخل على النجاشي سجدا ثم ابتدراه عن يمينه وعن شماله ثم قال له : إن نفراً من بني عمنأ نزلوا أرضك ، ورغبوا عمنأ وعن ملتنا

قال : فأين هم ؟

قالا : في أرضك فابحث إليهم ، فبحث إليهم . . فقال جعفر أنا خطيبكم اليوم ، فاتبعهم . . .
فَسَلَّمَ وَلَمْ يَسْجُدْ

قالوا له : مالك لا تسجد للملك؟

قال : إنا لانسجد إلا لله عز وجل

قالوا : وما ذاك ؟

قال : إن الله بحث إلينا رسولا ثم أمرنا ألا نسجد لأحد إلا لله عز وجل وأمرنا بالصلاة والزكاة

قال عمرو : فإنهم يخالفونك في عيسى بن مريم

قال النجاشي : فما تقولون في عيسى بن مريم وأمه ؟

قال جعفر : نقول كما قال الله تعالى : هو كلمته وروحه ألقاها إلى العذراء البتول التي لم يمسسها بشر ، ولم يفرضها ولد

قال : فرجع النجاشي عوداً من الأرض ثم قال : يامعشر الحبيشة والقسيسين والرهبان والله ما يزيدون على الذي نقول فيه ما سردى هذا . مرحبا بكم ومن جئتم من عنده . أشهد أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنه الذي نجد في الإنجيل وأنه الذي بشر به عيسى بن مريم ، وأنزلوا حيث شئتم ، والله لولما أنا فيه من الملك لآتيته حتى أكون أنا الذي أحمل نعله (زاد في المسند : وأرضته) ، وأمر بهدية الآخرين فردت إليهما .

ثم تعجل عبد الله بن مسعود بالعودة حتى أدرك بدرا ، وزعم أن النبي صلى الله عليه وسلم استغفر له حين بلغه موته .

وهذا اسناد جيد وقوي وسياق حسن ، وفيه ما يقتضي ان أبا موسى كان فيمن هاجر من مكة إلى أرس الحبيشة ، إن لم يكن مدرجا من بعض الرواة والله أعلم (١)

هذه الهجرة كانت فتحة وانتشاراً لدعوة الإسلام في غير منبته ، وقد أعان المسلمون النجاشية عندما ثار عليه قومه ، ثم فمن الثابت أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد صلى عليه واستغفر له . وكان من نتائج هذه الهجرة أيضاً إسلام وفد نصارى نجران .

٢ - قال البيهقي : حدثنا الحاكم ، أخبرنا الأصم ، أخبرنا أحمد بن عبد الجبار ، حدثنا يونس عن ابن اسحاق قال : قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرون رجلاً وموبعة ، أو قريب من ذلك من النصارى حين ظهر خبره من أرض الحبشة فرجده في المجلس فكلّمه وسأله ورجل من قريش في أندية يتهم حول الكدبة ، فلما فرغوا معا لتتم رسول الله عما أراد ودعاهم إلى الله عز وجل وتلا عليهم القرآن ، فلما سمعوا فاضت أعينهم من الدمع ، ثم استجابوا له وآمنوا به . وسد قوه وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره .

فلما قاموا من عنده اعترضهم أبو جهل في نفر من قريش فقال : خيبكم الله من رغب ، بعدتم من وراءكم من أهل دينكم تترادون لهم فتأتون بخبر الرجل ، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتهم بما قال لكم . أما نعلم ركب أحق منكم ؟ . قالوا لهم : لانجا هلكم . سلام عليكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لاتألون انعمنا خيراً فيقال : أن النفر من نصارى نجران . . . والله اعلم أي ذلك بان .

ويقال والله اعلم ، أن فيهم نزلت هذه الآيات : (الَّذِينَ آمَنُوا هُمْ أَكْثَرُ مِنْ قَبْلِهِمْ بِهِ يَوْمِنَا . وَإِذْ نَادَى عَلَىٰ آلِهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا نَأْمُرُ بِقَبْلِهِ مُسْلِمِينَ . أُولَٰئِكَ يَوْمَئِذٍ أَجْرُهُمْ مَّا وَدَّ رَأُونَ . يَا حَسَنَةَ السَّيِّئَةِ وَبِمَا رَزَقْنَا هُمْ يَتَّفِقُونَ . وَإِذْ نَادَى سَمِعُوا اللَّعْنَةَ وَأَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا عَمَلُنَا وَإِنَّا كَافِرُونَ . وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا تَبْتَغِي الْجَائِلِينَ) (١)

٣ - وقصة الطفيل بن عمرو الدوسي خطوة جديدة في انتشار الإسلام خان مكة ، واجتيازاً للحصار الهائل الذي فرضته قريش على المسلمين وتبعته أخبار من يسمع عن الإسلام ، وعملت بكل الوسائل لصد الناس عنه .

وكان الطفيل بن عمرو الدوسي سيداً مطاعاً في (دوس) ، وكان قد قدم مكة ، فاجتمع به أشرف قريش ، وحذروه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ونهوه أن يجتمع به أو يسمع كلامه . قال : فوالله ما زالوا بي حتى أجمعت ألا أسمع منه شيئاً ولا أكله ، حتى حشيت أذني حين غدوت المسجد كرسنا (قطنا) مرقاً من أن يبلغني شيء من قوله ، وأنا لا أريد أن أسمع

(١) سورة القصص آية ٥٢ - ٥٥ السيرة النبوية - ابن كثير ٢ / ٤٠٠ السيرة النبوية - ابن

هشام ٤ / ٣٢٢ في ظلال القرآن - سيد قطب ٥ / ٢٧٠٠ تفسير القرآن العظيم - ابن

كثير ٣ / ٤٠٤ - ٤٠٥

(٣) حدائق الانوار - الشيباني ١ / ٣٤٣

(٤) الطبقات - ابن سعد ١ / ٢١١ ، ٢١٢ (٥) زاد المعاد - ابن القيم ١ / ٩٨

هذه الهجرة كانت فتحة وانتشارا لدعوة الإسلام في غير منبته ، وقد أعان المسلمون النجاشسي عندما ثار عليه قومه ، ثم فمن الثابت أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد صلى عليه واستأنف له . وكان من نتائج هذه الهجرة أيضا إسلام وفد نصارى نجران .

٢ - قال البيهقي : حدثنا الحاكم ، أخبرنا الأصم ، أخبرنا أحمد بن عبد الجبار ، حدثنا يونس عن ابن اسحاق قال : قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرون رجلا وهو بمكة ، أو قريب من ذلك من النصارى حين ظهر خبره من أرض الحبشة فرجده في المجلس فكلّمه وسأله ورجل من قريش في أنديتهم حول الكذبة ، فلما فرغوا معا لتهم رسول الله عما أرادوا دعاهم إلى الله عز وجل وتلا عليهم القرآن ، فلما سمعوا فاضت أعينهم من الدمع ، ثم استجابوا له وآمنوا به . وسد قوه وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره . فلما قاموا من عنده اعتراضهم أبو جهل في نفر من قريش فقال : خيبكم الله من ركب ، بحثكم ممن وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم فتأتون بخبر الرجل ، فلم تظلمن مجالسكم عنده حتى فارقتن دينكم وسد قتموه بما قال لكم . أما نعلم ركب أحمق منكم ؟ قالوا لهم : لانجاهلكم . سلام عليكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا تألون أنفسنا خيرا فيقال : أن النفر من نصارى نجران . . . والله اعلم أي ذلك أن .

ويقال والله اعلم ، أن فيهم نزلت هذه الآيات : (الَّذِينَ آمَنُوا هُمْ أَكْثَرُ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ . وَإِذْ يَتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا نَحْنُ مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ . أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا ، وَهُمْ رَأَوْا بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ . وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ . وَإِذْ سَمِعُوا اللَّعْنَةَ عَرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ) (١)

٣ - وقصة الطفيل بن عمرو الدوسي خطرة جديدة في انتشار الإسلام خان مكة ، واجتيازاً للحصار الهائل الذي فرضته قريش على المسلمين وتتبع أخبار من يسمع عن الإسلام ، وعملت بكل الوسائل لصد الناس عنه .

وكان الطفيل بن عمرو الدوسي سيداً مطاعاً في (دوس) ، وكان قد قدم مكة ، واجتمع به أشرف قريش ، وحذروه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ونهوه أن يجتمع به أو يسمع كلامه . قال : فوالله ما زالوا بي حتى أجمعت ألا أسمع منه شيئاً ولا أكله ، حتى حششت أذني حين غدوت المسجد كرسنا (قظنا) مزقاً من أن يبطنني شيء من قوله ، وأنا لا أريد أن أسمع

(١) سورة القصص آية ٥٢ - ٥٥ السيرة النبوية - ابن كثير ٢ / ٤٠ - السيرة النبوية - ابن

هناء ٣ / ٣٢٢ في ظلال القرآن - سيد قطب ٥ / ٢٧٠٠ - تفسير القرآن العظيم - ابن

قال : فعدت إلى المسجد ، فإذا رسول الله قائم يصلي عند الكعبة .
قال : ففقت قريباً منه ، فأبى الله إلا أن يسمعني بعض قوله ، فسمعت كلاماً حقاً ، فقلت في نفسي :
واثكل أمي ..! والله إني لرجل لبيب شاعر ، ما يخفى علي الحسن من القبيح ، فما يمنعني أن أسمع
من هذا الرجل ما يقول ؟ فان كان الذي يأتي به حسناً قبلته ، وإن كان قبيحاً تركته ، فمكثت
حتى انصرف رسول الله إلى بيته (فاتبعته حتى إذا دخل بيته) دخلت عليه فقلت : يا محمد ،
إن قومك قالوا كذا وكذا . الذي قالوا فوالله ما برحوا بي يخوفونني أمرك حتى سددت أذني
بكرسف لثلاث أسمع قولك . ثم أبى الله إلا أن يسمعني قولك ، فسمعت قولاً حسناً فاعرض علي
أمرك .

فعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم الإسلام ، وتلى القرآن ، فلا والله ما سمعت قولاً أحسن منه
ولا أمراً عدل منه ، فأسلمت وشهدت شهادة الحق ، وقلت : يا نبي الله إني امرؤ مطاع في قومي
وإني راجع إليهم وداعيهم إلى الإسلام ، فادع الله أن يجعل لي آية تكون لي عوناً عليهم فيما
ادعوهم إليه - فقال الرسول : " اللهم اجعل له آية "

فخرجت إلى قومي حتى إذا كنت بثنية تطلني على الحاضر ، وقع بين عيني نور مثل الصباح ، فقلت :
اللهم في غير وجهي ، فإني أخشى أن يظنوا أنها مثله وقعت في وجهي لفراق دينهم ، قال :
فتحول فوق في رأس سرطي (١) . ثم قام الطفيل داعياً أبوه وأسلمت زوجته وأولاده ،
وحطم أصنام قومه ، ولقد دعى قومه فأبطأوا عليه لانتشار عادة الزنا بينهم فطلب بلقاء ثان من
رسول الله دعوة تذهب عنهم هذه الآفة فدعى لهم ، ثم قام الطفيل داعياً في قومه مدة طويلة
حتى هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم وفضيت أكثر الخزوات ، فعاد الطفيل على رأس ثمانين
بيتاً من دوس وقد أرسول الله حيث أسلموا ، واستشهد الطفيل في اليمامة ، واستشهد ابنه
عمرو بن الطفيل في اليرموك (١)

قال الإمام أحمد : حدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا حماد بن زيد ، عن حجاج الصواف ، عن
أبي الزبير ، عن جابر ، أن الطفيل بن عمرو الدوسي أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا
رسول الله هل لك في حصن حصين ومنعه ؟ قال : حصن كان لدوس في الجاهلية .

فأبى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، للذي دَخَرَ اللَّهُ لِلْأَنْصَارِ (١)

وتشبه هذه الحادثة أن الله تعالى أراد أن تكون نصرة محمد على يد الأوس والخزرج دون سواهم
من القبائل ، أو أن العرض الذي عرضه الطفيل بن عمرو جاء متأخراً ورسول الله قد ارتبط مسح
الأنصار بكلام ربيحة ، ومع كل هذا فإن إكرام الله تعالى الأوس والخزرج بالنصرة كانت إرادته ليكونوا
هم حماة هذا الدين وحاملي لوائه .

وقصة "الاعشى بن قيس" فقد صنعها ابن كثير رزح حصولها بعد الهجرة ، وموت الرجل قبل أن يسلم أمر يبعده عن الموضوع ، من إيراد قصيدة كبيرة يعد بها رسول الله صلى الله عليه وسلم . (١)

٤ - سعي الرسول إلى الطائف (٢) :

لما ضيق المشركون على المسلمين المنافذ وخسر الرسول صلى الله عليه وسلم أفوى نصير (قبلي) له وهو عمه أبو طالب الذي حمل راية الدفاع عنه وحمايته من قومه ومع لم يؤمن به من عشيرته أمثال أخيه أبا لهب ، وكذلك وفاة السيدة خديجة رضي الله عنها والتي حملت على أهلها هموم كثيرة من صاحب الرسالة ، وكان يجد عندها الفسحة والرجاء ، اتساع الأمل ، وقوة الشكيمة والصبر . نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يجد (بالسرى القبلي) من يحمل عيباً حمايته من أهله ، ولم يجد يرى تلك المرأة التي طانت جبلاً صلباً فيها تحمل كل الأرزاء والآلام ، وإنما وجد بنات صغيرات خائفات على مستقبل الدعوة وصاحب الدعوة ، حتى أن أبا لهب كان قد خطب ابنتي رسول الله صلى الله عليه وسلم لإبنيه فطلقهما ليزيد في مشكلاته صلى الله عليه وسلم في بيته .

أصحابه قسم منهم هاجر إلى الحبشة ولم يجد ، وهم تحمل ما تحمل ، واستشهد من استشهد ، ولم يأذن له ربه بالقتال ليجمع أصحابه ويقاتل بهم . كل هذه القضايا تراكت على الرسول صلى الله عليه وسلم فرجد أن يتوجه إلى الطائف يلتئم من أهلها النسر والحماية ، وما بين الطائف ومكة من ورائح القرى والصلة وتبادل المصالح الاقتصادية والتجارية وحتى السياسية الشبيء الكثير وهي أقرب الحواضر إلى مكة وأهلها أعرب بأسل مئة عن سراها من الحواضر ، وطانت بها قبيلة ثقيف ذات شكيمة وقوة ونصره ، وطمع رسول الله بأن يجد عندهم سنداً ودرءاً وحماية ليبلغ رسالته إلى الناس (٣)

حين رسول الله إلى الطائف يلتئم النصره من ثقيف والنفعة بهم من قومه ، رجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله عز وجل وحدة (٤)

(١) السيرة النبوية - ابن كثير ٢/ ٧٨ - ٠٨١ البداية والنهاية - ابن كثير ٣/ ١٠١
(٢) الطائف : سميت بذلك لان رجلاً من حضرموت نزلها فقال لأهلها : الا ابني لكم حائظاً يطيف ببلدكم . فبناه فسمي الطائف

(٣) قال في الامتاع : ان اهل الطائف كانوا احوال رسول الله : قال بعضهم ، ومن ثم اى من أجل أنه صلى الله عليه وسلم حين الطائف عند ضيق صدره ، وتعب خاطره ، وجعل الله الطائف مستأنساً على من ضاق صدره من أهل مكة . كذا . قال : وفي كلام غيره ولاجرم جعل الله الطائف مستأنساً لأهل الإسلام من مكة إلى يوم القيامة ، فهي راحة الأمة ومتمدن كل ذي ضيق وغم . السيرة الحلبية - على الحلبي ١/ ٣٨٤

(٤) السيرة النبوية - ابن هشام ٢/ ٦٠

قال ابن اسحاق : ولما هلك أبو طالب خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الطائف يلتمس من ثقيف النصر والمنعة له من قومه وذكر أنه خرج إليهم وحده (١)

فلما اشتد عليهم الأمر بعد موت أبي طالب خرج ومعه زيد بن حارثة إلى ثقيف يلتمس منهم النصر (٢) وكما جرى الخلاف على أنه قد ذهب وحده صلى الله عليه وسلم إلى الطائف أو مع آخرين قالوا أن بصحبته زيد بن حارثة ، فقد حصل بعض الخلاف في المدة التي مكث فيها الرسول في الطائف ، فأكثر الأصول تشير إلى أنه مكث في الطائف أياما يدعو الناس .

قال آخرون : وفي هذه السنة وهي العاشرة خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف إلى ثقيف ، وأقام فيهم شهرا يدعوهم إلى الله ، وسألهم أن يمنحوه فردوا عليه قوله واستهزؤوا به (٣) أخبرنا محمد بن عمر قال : حدثني عبد الرحمن بن عبد العزيز عن أبي الحويرث بن محمد بن جببير بن مطعم قال : لما توفي أبو طالب تناولت قريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واجترأوا عليه ، فخرج إلى الطائف ومعه زيد بن حارثة ، وذلك في ليال بقين من شوال سنة عشر من حين نبي رسول الله ، قال محمد بن عمر بغير هذا الارشاد .

فأقام في الطائف عشرة ايام لا يدع أحدا من أشرفهم الا جاءه ، وكلمه فلم يجيبوه وخافوا على أحدائهم ، فقالوا : يا محمد اخرج من بلدنا ، والحق بمجربك من الأرض ، وأغروا به سفها هم فجعلوا يرمونه بالحجارة ، حتى أن رجلي رسول الله صلى الله عليه وسلم لتدميان ، وزيد بن حارثة يقيه بنفسه ١٠٠ الح (٤)

وتتوسع المراجع في ذكر هذه الهجرة ، وما يهمننا في هذا المقام هو أن الإسلام قد خطى خارج مكة خطوات واسعة أجاب قوم ، وصد قوم ، وأجل آخرون . وقد أفاض ابن القيم (٥) بالقول : فخرج إلى الطائف هو وزيد بن حارثة يدعو إلى الله تعالى ، وأقام أياما فلم يجيبوه وآذوه وأخرجوه ، وقاموا له سماطين ، فرجموه بالحجارة حتى أدما كعبيه ، فنفصر عنهم رسول الله

(١) الطبري — تاريخ ٢ / ٣٤٤ . البداية والنهاية — ابن كثير ٣ / ١٣٥ . السيرة النبوية — ابن كثير ٢ / ١٤٦ وهذه كلها مع سيرة ابن هشام اعتمدت كلها رواية ابن اسحاق بأن الرسول خرج الى الطائف وحده

لم يشر الاستاذ الندوي — السيرة النبوية ص ١٢٣ وكذلك حياة الصحابة — الكاند هلوى ١ / ٢٥٥ الى أن الرسول كان لوحده او معه غيره .

(٢) التامل في التاريخ — ابن الاثير ٢ / ٦٢ ، زاد المعاد — ابن القيم ١ / ٩٨ . فقه السيرة — الغزالي ص ١٨٨ . امتاع الاسماع — المقرئ ١ / ٣٨٤

(٣) حدائق الانوار — الشيباني ١ / ٣٤٣

(٤) الطبقات — ابن سعد ١ / ٢١١ ، ٢١٢ (٥) زاد المعاد — ابن القيم ١ / ٩٨

راجعا الى مكة وفي طريقه لقي عداسا النسراني فآمن به وصدقته ، وفي طريقه أيضاً (بنخلة) صرف إليه نفر من الجن سبعة من أهل نصيبين فاستمعوا القرآن ، وأسلموا^(١) وفي طريقه تلك أرسل الله إليه ملك الجبال يأمره بطاعته ، وأن يطبق على قومه أخشي مكة وهما جبلاها إن أراد . . فقال : لا ، بل استأني بهم ، لعل الله يخرج من أصلابهم من يعبده ، ولا يشرك به شيئاً^(٢) وفي طريقه دعا بذلك الدعاء المشهور " اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي . . الحديث وقد سماه بعضهم (دعاء الطائف) ثم دخل مكة بجوار المطعم بن عدي^(٣)

٥ — عرض رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه على القبائل .

بعد أن عاد الرسول من الطائف ، ولم يلق عند أهلها النصر والمؤازرة ، وأغروا به غلمانهم وسفهاهم ، وبلغ حلمه صلى الله عليه وسلم مداه بدعوته أن يخرج الله من ذراريهم من يوحى الله . دخل مكة بجوار المطعم بن عدي ، وحتى يخرج الإسلام من الحصار الذي فرضته قريش أخذ يعرض نفسه في المراسم على العرب ، ومواسم العرب كلها تقريباً مرتبطة بالحج فهو المراسم الأكبر عندهم ، وبها منه يقيمون أسواقهم ، وفي منى وعكاظ وذي الحليفة ، وغيرها وغيرها وظالما أن مكة هي ملتقى العرب في الأشهر الحرم فقد أخذ النبي صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه ودعوته على قبائل العرب .

وقد أوردت كتب السيرة الكثير من التفاصيل عن المواقف السعبة التي لاقاها الرسول ، سواء من العرب ، أو من أهله وعشيرته ، وأهل مكة بعامة ، الذين كانوا يلاحقونه من مكان إلى مكان يفسدون بناءه ، وسفهمون رأيه ، ويرموه بشتى الأقاويل والصفات .

لكن هذا الحصار لم ينجح وتسرب الإسلام إلى قلوب بعض القبائل العربية .

قال ابن اسحاق : ثم قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة وقومه أشد ما كانوا عليه من خلافته وفراق دينه إلا قليلاً مستضعفين ممن آمن به . فكان رسول الله يعرض نفسه في المواسم إذا كانت على قبائل العرب يدعوهم إلى الله ، ويخبرهم أنه نبي مرسل ، ويسألهم أن يصدقوه وينعموه حتى يبين لهم الله ما بعثه به^(٤)

(١) اخن ابن جرير في تفسيره ٣٠ / ٢٦ عن ابن عباس : وإن صرفنا إليك نفرا من الجن . . قال : كانوا سبعة من أهل نصيبين فجعلهم رسول الله إلى قومهم . تفسير القرآن العظيم ١٢٥ / ٤ وقد أورد العديد من الروايات حول هذا الموضوع

(٢) هو قطعة من حديث طويل أخرجه البخاري في بدء الخلق — باب ذكر العلائكة والترحيد — باب الجهاد — باب ما لقي النبي من أذى المشركين — صحيح مسلم ١٥٥ / ١٢ المعجلد

السادس (٣) زاد المعاد — ابن القيم ١ / ٦٨ — ٩٩ والحاشية ٢٠١

(٤) السيرة النبوية — ابن هشام ٢ / ٦٢ — ٦٤ . السيرة النبوية — ابن كثير ٢ / ١٥٥ وما بعد

وفي السنة الحادية عشرة من الموسم منها اجتهد صلى الله عليه وسلم في عرض نفسه على القبائل في تجمعتهم بالموسم (بعض وعرفات) أيهم يفضحه ويؤفديه (١)

قال ابن اسحاق فحدثنا من أصحابنا من لأتتهم عن زيد بن أسلم عن ربيعة بن عباد الدؤلي ومن حدثه أبو الزناد عنه . عن حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس قال : سمعت ربيعة بن عباد يحدثه أبي قال : إني لغلّام شاب مع أبي بمعنى ورسول الله يتقف على منازل القبائل من الحرب فيقول : يا بني فلان إني رسول الله إليكم ، أمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وأن تخلصوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد ، وأن تؤمنوا بي ، وتصدقوا بي ، وتمنعوني حتى أبين عن الله ما بعثني به . . .

قال : وخلفه رجل أحول رضي . له غد يرتان ، عليه حلة عدنية ، فإذا فرغ رسول الله من قوله وما دعا إليه : قال ذلك الرجل : يا بني فلان إن هذا إنما يدعوكم إلى أن تسلكوا اللات والعزى من أعناقكم ، وحلفاءكم من الجن من بني مالك بن ابيش إلى ما جاء به من البدعة والضلالة فلا تطيعوه ولا تسمعوا منه .

قال : فقلت لابي : يا أبت من هذا الرجل الذي يتبعه ويرد عليه ما يقول ؟ قال : هذا عمه عبد العزى بن عبد المطلب (ابولهب) .

وقد روى الإمام أحمد هذا الحديث بسند آخر (٢)

واجتمعت قريش إلى الوليد بن المغيرة ليأمرهم بما يرمون به (النبي) صلى الله عليه وسلم فسي الموسم لتكون كلمتهم واحدة ، وعرضوا عليه أن يقولوا شاعر ، أو كاهن ، أو ساحر ، أو مجنون فقال : والله ما هو بشاعر ولا ساحر ولا كاهن ولا مجنون ، ولقد قال قولا ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن .

قالوا : كيف نقول فيه ؟ . . .

ففكر في نفسه ثم قال : أقرب القول فيه أن تقولوا ساحر . جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته ، وجعلوا يلقونهم إلى من قدم من أهل الموسم (٣)

قال ابن اسحاق : حدثنا ابن شهاب الزهري قال : أنه أتى كده في منازلهم وفيهم سيد لهم يقال له " مليح " فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم نفسه فأبوا عليه ، قال ابن اسحاق : وحدثني محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن حسين انه أتى (كلبا) فسي

(١) حدائق الانوار - الشيباني ٣٤٧ / ١

(٢) السيرة النبوية - ابن كثير ١٥٦ / ٢ - ابن هشام ٦٤ / ٢ - ١٠٦٥ الطبري - تاريخ ٣٥٠ / ٢

(٣) حدائق الانوار ٣٤٨ / ١

في منازلهم الى بطن منهم يتال لهم * بنوع عبد الله * ودعاهم الى الله ورض عليهم نفسه حتى انه ليقول لهم : يا بني عبد الله ان الله عز وجل قد أحسن إسم أبيكم ، فلم يقبلوا ما عرض عليهم . قال ابن اسحاق : وحدثني بعض أصحابنا عن عبد الله بن كعب بن مالك : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بني حنيفة في منازلهم ، فدعاهم إلى الله ، ورض عليهم نفسه ، فلم يكن أحد من العرب أقبح عليه ردا منهم (١)

هذه مواقف وجد فيها الرسول صداً من العرب ، وبعضهم قابل باللين ، وبعضهم قابل بغفظة وبعضهم لم يعر سمحه لما سمع ، والرسول صلى الله عليه وسلم كان جاهداً يدعو هذه القبائل ، على الله يجعل في بعضها خيراً . . . إلا أنها حتى تلك التي كان منها طيبا ، لم تتجاوز أن آمن بعض أفرادها ، أو أنهم حملوا الخير في أنفسهم لهذه الدعوة .

وفي حديث طويل ارده أبن كثير في السيرة النبوية (٢) يتحدث عن عرض الرسول صلى الله عليه وسلم على القبائل ومعه أبو بكر وعلى رضي الله عنهما .

قال علي : ثم انتهينا إلى مجلس عليه السكينة والوفار ، وإذا مشايخ لهم أقدار وهيئات فتقدم أبو بكر فسلم . قال علي : وكان أبو بكر مقدماً في كل خير

فقال لهم أبو بكر : ممن القوم ؟ قالوا : من بني شيبان بن ثعلبة ، فالتفت إلى رسول الله فقال : بأبي أنت وأمي ليس بعد هؤلاء من عزني قومهم ، وفي رواية ليس وراء هؤلاء عذر من قومهم هؤلاء غررني قومهم ، وهؤلاء غزى الناس . وكان في القوم مغروق بن عمرو ، وهاني بن قبيصة والعتى بن حارثة ، والنعمان بن شريك ، وكان أقرب الناس إلى أبي بكر مغروق بن عمرو وكان قد غلب عليهم بيانا ولسانا ، وكانت له غد يرتان تسقطان على صدره ، فلما أدنى القوم مجلسا من أبي بكر . فقال له أبو بكر : كيف العدد عندكم ؟ فقال : علينا الجهد ولكن قوم جد . فقال أبو بكر : فكيف الحرب بينكم وبين عدوكم ؟ قال مغروق : انا أشد ما نكون لقاءً حين نغضب ، وإنما لنؤثر الجياد على الأولاد ، والسلاح على اللقاح ، والنصر من عند الله يدلنا مرة ، ويدل علينا مرة . لعلك أخو قريش . فقال أبو بكر : إن كان بلغكم انه رسول الله منها هو هذا (٣)

وجرى حديث طويل بين رسول الله ومغروق الذي كان يسأل ويحجبه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن قال : دعوت والله يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق ، ومحاسن الأعمال ، ولقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك (٣)

(١) السيرة النبوية - ابن هشام ٢ / ٦٥ - ٦٦ . الطبري - تاريخ ٢ / ٣٥٠ السيرة النبوية -

ابن كثير ٢ / ١٥٢ (٢) السيرة النبوية - ابن كثير ٢ / ١٦٣ - ١٦٤ . وفاة الوفا -

السمهودي ١ / ٢٢٠

(٣) السيرة النبوية - ابن كثير ٢ / ١٦٣ - ١٦٤

ثم إن مفروق لم يستأثر بالحديث وحده ، بل تحول الى هاني بن قبيصة ، وإلى العثنى بن حارثة إلى أن ترسل الرأي الى ما قاله العثنى : قد سمعت مقالتك ، واستحسنيت قولك يا أخا قريش واعجبني ما تكلمت به ، والجواب هو جواب هاني بن مسعود . وتركا ديننا وأتباعنا إياك لعجل جلسته إلينا ، وإنما نزلنا بين صريين^(١) أحد هما اليعامة والآخر السعارة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما هذان الصريان ؟

فقال له : أما أحد هما فمطغرف البر وأرض العرب ، وأما الآخر فارض (فارس) وأنهار (كسرى) ، وإنما نزلنا على عهد أخذة علينا كسرى أن لانحدث حدثا ، ولا نثورى محدثا ولعل هذا الأمر الذى تدعوننا إليه مما تكرهه الملوك ، فإنما ما كان مما يلي بلاد الحرب فذنب صاحبه مغفر وعذره غير مقبول ، فان أردت أن ننصرك ونمنعك مما يلي العرب فعلنا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أسأت الرد إن أفصحتم بالصدق ، إنه لا يقرب بين الله إلا من حاطه من جميع جوانبه ، ثم قال : أرايتم إن لم تلبثوا إلا يسيرا حتى يمنحك الله بلادهم وأموالهم ، وفرشكم بناتهم . . . أتسبحون الله وتقدسونه ؟

فقال له النعمان بن شريك : اللهم وإن ذلك لك يا أخا قريش .

فتلا رسول الله قول الله تعالى : يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ نَاهِداً وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا . وَدَاعِيَا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا .^(٢) ثم نهض رسول الله صلى الله عليه وسلم فابضاً على يدي أبي بكر . قال علي : ثم التفت إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا علي أية أخلاق كانت للعرب في الجاهلية . . . وما أشرفها . . . بها يتحاجزون في الحياة الدنيا^(٣)

وهؤلاء لم أقف على إسلام أحد منهم إلا أن في الصحابة شخفا يقال له العثنى بن حارثة

السيباني . وكان فارس قومه وسيدهم المطاع فيهم ولعله هو هذا لقول هاني بن قبيصة فإنه صاحب حرينا . ورأيت بعضهم ذكر أن النعمان بن شريك له وفادة فيكون من الصحابة وفي أسد الغابة أن مفروق بن عمرو من الصحابة ، ونقل عن ابن نعيم أنه قال : لأعرف له إسلاما^(٤)

فلم يلبث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا يسيرا حتى خن إلى أصحابه فقال لهم : احمدوا الله كثيراً فقد ظفرت اليوم أبنا ربيعة بأهل فارس . قتلوا ملوكهم ، واستباحوا عسرتهم ، وبني نصرنا قال : وكانت الوقعة بقراقرالى جنب ندى فار . وفيها يقول الاعشى :

فدى لبني نهل بن شيبان ناقتي وراكبها عند اللقاء وقلبت

هم خربوا بالحنو صفو قراقـر مقدمة الهامـرز حتى تولبت

(١) الصري : مكان يجتمع فيه الماء (٢) سورة للفتح آية ٤٥ - ٤٦

(٣) السيرة النبوية - ابن كثير ١٦٨ / ٢ - ١٦٦

(٤) السيرة الحلبية - علي الحلبي ١٠٥ / ٢ - العسقلاني ٣٦١ / ٢ و ٥٦٢

فله عيناً من رأى من فارس كدهل بن شيبان بها حين حلت
فثاروا وثرنا والمودة بيننا

وهذا حديث غريب جداً كتبناه لما فيه من دلائل النبوة ومحاسن الأخلاق ، ومكارم القيم وفصاحة
العرب .

وقد ورد هذا من طريق أخرى ، وفيه أنهم لما تحاربوا هم وفارس والتقوا معهم بعراعر مثان قريب من
الفرات جعلوا شعارهم اسم محمد صلى الله عليه وسلم فنصروا على فارس بذلك . وقد دخلوا
بعد ذلك في الإسلام (١)

وقد استقصى الإمام محمد بن عمر الواقدي فقص (خبر) القبائل واحدة واحدة فذكر عرضه عليه
السلام على بني عامر ، وعسان ، وبني فزارة ، وبني مرة ، وبني حنيفة ، وبني سليم ، وبني عيسى
وبني نصر بن هوازن وبني ثعلبة بن عكابة ، وكندة ، وكتب ، وبني الحارث بن كعب ، وبني عذرة ،
وقيس بن الخطيم وغيرهم . وسياق أخبارها مطولة وقد ذكرنا من ذلك طرفاً صالحاً والله الحمد والمنة
وقال الإمام أحمد : حدثنا أسود بن عامر . أخبرنا إسرائيل عن عثمان ابن المغيرة ، عن سالم
بن أبي الجعد ، عن جابر بن عبد الله قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يحرض نفسه على
الناس بالموقف (موقف الناس بعرفة) فيقول : هل من رجل يحملني إلى قومه ، فإن قريشاً قد منحنني
أن أبلغ كلام ربي عز وجل ؟ (٢)

٢ - وفود يثرب إلى مكة طلباً للحلف وبدء دخول الإسلام

لم تغتر وفود يثرب تغد مكة للموسم ، وللتجارة ، وللحلف ، ولقد أتينا في الفصل السابق تفصيلاً
لهذه الوفود ، أو بعضاً منها ، ولقد سمع اليثريون في بداية الجهر بالدعوة لما سمع غيرهم
من العرب . ولقد وقفنا على بعض أخبار العرب وموقفهم من الدعوة الإسلامية ، وبعضاً منهم
بخاصة أولئك الذين كان ردهم قبيحاً ، وكان صدقهم عن الذكر قاسياً .
ولقد أوردت كتب السيرة والتاريخ أحداثاً كان أبطالها سكان يثرب فرادى أو جماعات لكن لقاءهم
برسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن فيه ما ينفرد أو يجاني . حتى أن بعضاً من هذه الكتب
قد أكدت إسلام بعضهم بعد أن سمعوا ما سمعوا من رسول الله .

هذه البدايات لا بد منها لتوصل كلام الله إلى تلك القلوب التي اختارها الله تعالى لحمل

(١) السيرة النبوية - ابن كثير ١٦٩/٢ . وعن ذي قار . جواد علي - تاريخ ٢١٣/٣ فما بعد
الطبري - تاريخ ١٩٢/٢ فما بعد . العرب على حدود بيزنطة س ١٤٧ فما بعد . تاريخ الجاهلية
فرخ س ١٣٨ فما بعد

(٢) السيرة النبوية - ابن كثير ١٧١/٢

هذه الرسالة ، واختارها من دون كل العرب لتكون أمة الأَنْصار ، واختارها من دون كل سدان جزيرة العرب لينالوا شرف النصر والبيعة ، واختار الله هؤلاء القوم وهذه المدينة ليكونوا عماد الدولة ورجود الأمة ، وتكون المدينة عاصمة الإسلام وتحوي جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال ابن اسحاق : وحدثني عاصم بن عمرو بن فتادة الانصاري ، ثم الظفري عن أشياخ من قومه قالوا : قدم سويد بن الصامت^(١) أخو بني عمرو بن عوف مكة حاجا أو معتمرا وكان سويد إنمسا يسميه قومه فيهم (الكامل) لجلده وشعره وسرته^(٢) فتصدى له رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سمع به فدعاه إلى الله وإلى الإسلام . فقال له سويد : فلعل الذي معك مثل الذي معي ؟ فقال رسول الله : وما الذي معك ؟ قال : مجلة لقمان يعني حكمة لقمان . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إعرضها علي . فعرضها عليه . فقال له : إن هذا الكلام حسن ، والذي معي أفضل من هذا . قرآنا أنزله الله تعالى . هو هدى ونور . فتلا عليه رسول الله القرآن ودعاه إلى الإسلام ، فلم يبعد عنه وقال : إن هذا قول حسن ، ثم انصرف عنه . فقدم المدينة على قومه ، فلم يلبث ان قتله الخزرج فان كان رجال من قومه يقولون : إنا لنراه قد قتل وهو مسلم وكان قتله يوم بعث^(٣)

وقد رواه البيهقي عن الحاكم ، عن الأضمر ، عن أحمد بن عبد الجبار ، عن ابن اسحاق بأخضر من هذا^(٤) وفي قول بعضهم أن قومه شعروا بإيمانه فقتله الخزرج بغتة ، وقيل القاتل (المحذر ولد زياد الذي قتله سويد . كان قد شرب الخمر وجلس يبول وهو ممتلي سكرة . فضربه إنسان من الخزرج حتى أتى المحذر بن زياد . فقال له : هل لك في الغنيمة البادرة ؟ قال : وما هي ؟ قال سويد أعزل من لاسلح معه ، فخرج المحذر بالسيف مصلتا . فلما أبصر سويداً قال له : قد أمكن الله منك . قال : ما تريد مني ؟ قال : بقتلك ، فقتله فكان ذلك سبب الحرب بين الأوس والخزرج يبعث^(٥)

وعلى شائكة قصة سويد بن الصامت جاءت قصة اياس بن معاذ .

قال ابن اسحاق ، وحدثني الحسين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ عن محمد

(١) سويد بن الصامت بن حوط بن حبيب بن عوف بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس ، وأمه ليلي بنت عمرو التجارية أخت سلمى بنت عمرو أم عبد المطلب بن هشام فهو بهذا ابن خالة عبد المطلب جد رسول الله وبنت سويد هي ام عاتكة اخت سعيد بن زيد امرأة عمر بن الخطاب فهو جد لها لأمها واسم أمها زينب (الروضة الآنف) . (٢) السيرة النبوية - ابن هشام ٦٧/٢ .
السيرة النبوية - ابن كثير ١٧٣/٢ . (٣) السيرة النبوية - ابن هشام ٦٨/٢ - ٦٩ .
وفاء الوفا - السهمودي ٢٢١/١ . (٤) السيرة النبوية - ابن كثير ١٧٤/٢ .

(٥) السيرة الحلبية - علي الحلبي ٧/٢

بن لبيد قال : لما قدم أبو الحيسر أنس بن رافع مكة ومعه فتية من بني عبد الأشهل فيهم إياس بن معاذ يلتصقون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج . سمع بهم رسول الله فأتاهم فجلس إليهم وقال لهم : هل لكم في خير مما جئتم له ؟ فقالوا له : وما ذاك ؟ قال : أنا رسول الله بعثني الله إلى العباد أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئا ، وأنزل علي الكتاب ثم ذكر لهم الإسلام وتلا عليهم القرآن . قال : فقال إياس بن معاذ وكان غلاما حدثا أي قوم ، والله هذا خير مما جئتم له . قال : فأخذ أبو الحيسر أنس بن رافع حفنة من تراب البطحاء فضرب وجه إياس بن معاذ وقال : دعنا منك فلعمري لقد جئنا لغير هذا . قال : فصمت إياس بن معاذ وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم ، فانصرفوا وكانت وقعة بعثت بين الأوس والخزرج .

قال : لم يلبث إياس بن معاذ أن هلك قال محمود بن لبيد فأخبرني من حضره من قومه عند موته أنهم لم يزالوا يسمعون به يهلل لله تعالى ويكبره ويحمده ويسبحه حتى مات ، فما كانوا يشكون أنه قد مات مسلما . لقد استشعر الإسلام في ذلك المجلس حين سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما سمع .^(١) ولقد كان رهط الأوس ومنهم إياس بن معاذ وقد جاؤوا لأمر غير ما أرادهم له إياس . وكان حدثا صغيرا لكن الرسول التقى بآخرين من الخزرج ، فقد كانت الأوس والخزرج كل في جماعته متباعدين متنازعين .

٣ - المسلمون الأوائل من ينسب

قال ابن اسحاق : التقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بسنة نفر من الخزرج منهم من بني النجار وهو تميم الله ، ثم من مالك بن النجار بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج بن حارثة بن عمرو بن عامر ١ - أسعد بن زارة بن عدس بن عبيد بن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجار وهو (أبو أمانة) ٢ - وعوف بن الحارث بن رفاعة بن سواد ابن مالك بن غنم بن مالك بن النجار وهو (ابن عفراء) قال ابن هشام : وعفراء بنت عبيد بن ثعلبة بن عبيد بن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجار قال ابن اسحاق : ومن بني زريق :

٣ - عامر بن زريق بن عبد حارثة بن مالك بن غضب ابن جشم بن الخزرج

رافع بن مالك بن العجلان بن عمرو بن عامر ابن زريق

قال ابن هشام : ويقال له عامر بن الأزرق

قال ابن اسحاق : ومن بني سلمة بن سعد بن علي بن أسد بن سادرة بن يزيد بن جشم بن الخزرج

(١) السيرة النبوية - ابن هشام ٦٩/٢ - ٧٠ - رفاعة الوفا ٢٢١/١

ثم من بني سواد بن غنم بن كعب بن سلمة

٤ - قطبة بن عامر بن حديدة بن عمرو بن غنم بن سواد

ومن بني حرام بن كعب بن كعب بن غنم بن كعب بن سلمة ٥ - جابر بن عبد الله ابن رثاب بن

النعمان بن سنان بن عبيد ٦ - عقبة بن عامر ابن نابي وهولاء الثلاثة من بني سلمة (١)

وقال موسى بن عقبة عن الزهري وأبي الأسود عن عروة هم

١ - أسعد بن زرارته ٢ - معاذ بن عفراء وهي أمة وهو ابن عمرو بن الجمحي من بني غنم بن مالك

بن النجار أيضا ٣ - رافع بن مالك ٤ - يزيد بن ثعلبة البلوي ثم من بني غصينة حليفهم

٥ - أبو الهيثم مالك بن التيهان الأوسي ٦ - من بني جنم أخي عبد الأشهل بن جنم

٦ - عويم بن ساعدة الأوسي ، ثم من بني أمية بن زيد ٧ - ويقال كان فيهم

٧ - عبادة بن السامت الخزرجي ، ثم من بني غنم أخي سالم بن عوف

٨ - ذكوان الزريقي ، فيكونون ثمانية ، ومنهم من عد هم سبعة ناسقط جابر ابن عبد الله أو

عبد الله بن زيد ٩ - وقيل : إنما أسلم في العام الاول اثنان فقط : اسعد بن زرارته وذكوان (٢)

ثم انصرف اولئك الرهط من الخزرج راجعين الى بلادهم ١٠

قال : وفي رواية أنهم لما آمنوا به عليه السلام وصدقوا مقاله قالوا له : إنا نشير عليك إن تمكث

على رسلك (أي على حالك) باسم الله حتى نرجع إلى قومنا فنذكر لهم شأنك ١١ - وندعوهم إلى الله

عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم لعل الله يصلح ذات بينهم وواعدن الموسم من العام المقبل

فرضي بذلك رسول الله ١٢ - انتهى

أي فلم يقع لهؤلاء الستة والتمانية مبايعة ، ويسعى هدا بتدأ الإسلام للانصار (٣)

فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله وندعوهم إلى الإسلام حتى نشأ بينهم ، فلم

يبقى دار من دور الانصار إلا وفيها ذكر من رسول الله صلى الله عليه وسلم ١٣

إذاً فهولاء الرهط من الخزرج ، أو من الخزرج والأوس لم ينتفوا بان آمنوا وصدقوا بل حملوا الإسلام

إلى المدينة ، وتحولوا الى دعاة له ، فإن لم يستجيب لهم الكثيرون ، لكن ذكر رسول الله قد أخذ

يتردد على الألسنة في يثرب ، ويتناقل بعض أخباره الناس ، والنشيريون حاولوا الربط بين ما يسمعون

الآن عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وما سمعوا عنه من يهود ١٤ - حيث استقر في أدهانهم قبيل

ذلك حديث اليهود الذي قالوا فيه : ان نبيا قد أطل زمانه سينظرون مهاجرة مدينة يثرب ١٥

وقد روى البخاري في صحيحه عن عبيد بن اسماعيل عن أبي أمامة عن هشام عن أبيه عن عائشة قالت :

(١) السيرة النبوية - ابن هشام ٢ / ٧١

(٢) وفاء الوفا - السمعودي ١ / ٢٢٢ - ٢٢٣

(٣) السيرة الحلبية - علي الحلبي ٢ / ٧ - ٨

كان يوم بعث يوماً قدمه الله لرسوله ، قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة وقد افترق ملوهم وقتل سراتهم (١)

كانت هذه الحالة مدخل صدق الى قلوب بعض الناس . وكان هؤلاء طليعة من حمل الإسلام إلى المدينة لم يكونوا دعاة له في أول الامر لأنهم حملوا شعاعه ونوره إلى مدينة يثرب ، جاء يوم بعث ليحصداً أكثر هؤلاء الناس أو جلهم ، لم يكن الإسلام الذي استشعره الرجلين أو الرهط الستة أو الثمانية الذين سبق ذكرهم قد استقر في قلوبهم إيماناً خالصاً ، فالكثير من الناس الذين سمعوا من رسول الله قد خفقت قلوبهم ولانت أنفسهم ووجدوا في حديثه صلى الله عليه وسلم الأمان والسلام واليقين وعرفوا أن كلامه غير ما عرف البشر من حديث أسلموا وآمنوا ولم يظهم—روا إسلامهم ولكنهم تمثلوه ووجدوا فيه الأمل والملاذ والراحة لنفوسهم .

لم يكن إياس بن معاذ وحيداً في معارضته التي لم تلق أذناً صاغية للحروب بين الأوس والخزرج وأن سماع رسول الله وأتباعه خير لما جاؤوا إليه من طلب الحلف من قريش وغيره أيضاً كان على هذا الإتجاه وهذا الطريق .

قال رزين في ذكر هذه القصة — قصة إياس بن معاذ وأبو الحير أنس بن رافع * ثم جاءت الأوس تطلب أن تحالف قريشاً فجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرض نفسه عليهم . وقال اسمعوا مني لعل لكم في خير مما جئتم له . وتلا عليهم القرآن ، ثم قال : بايعوني واتبعوني فأتاكم ستجمعون بي . فقال عمرو بن الجموح : هذا أي قوم والله خير لكم مما جئتم له فانتهروه وقالوا : ما جئنا لهذا ، ولم يقبلوا عليه ، ثم انصرفوا فكانت وقعة بعث (٢)

تلك الخطوة الأولى إلى يثرب . حديث اليهود عن النبي المبعوث في آخر الزمان ، والتقاء الرهط الأول من أهل يثرب بهذا النبي والسماع منه ، والتشاور بأن يتبعوه فهو الذي حدثتهم عنه يهود وانتشار خبره في سائر أنحاء الجزيرة العربية ، ولم يعد هذا الخبر وهذه البعثة خافية على أحد وتردد البعض ، ورفض الآخرون ، وقبول فريق وسد فريق ، كل هذا كان اختباراً وتمحيصاً لمن تكون الخيرة بعد ذلك في خيار الله تعالى لنصرة هذا الدين ؟

لم تحك لنا كتب السيرة عن قوم سمعوا من رسول الله وأعادوا الاتصال معه ثانية إلا ما كان من الأوس والخزرج ، وعلى الرغم من أن قبائل كانت أقرب إلى منة وأكثر صلة ثقافية وهوازن وغيرهما سمعوا منه مرات ومرات لكن مشيئة الله تعالى حطت عند هؤلاء فقط . تقدم الخطوة الأولى من استشعروا هذا الدين فرادى وجماعات صغيرة وانتقلوا بعد ذلك ليكونوا هم أنصار الإسلام وليكونوا حماة والمدافعين عنه .

(١) السيرة النبوية — ابن كثير ١٧٥ / ٢

(٢) وفاة الوفا — السهمودي ٢٢١ / ١

لقاء الرسول صلى الله عليه وسلم مع أهل يثرب

لم تكن الاحداث السابقة التي ثبتناها إلا بعض الارهاصات الأولى لليثريين ومدى صلتهم بهذا الدين ، والتي كانت عبارة عن قناعات شخصية لدى البعض ، وقبول مبدي من آخرين . إن القناعات الأولى لم تكن إلا محاولات لتحويل اليثريين إلى طريق آخر غير طريق الحرب . وتوجيه أنظارهم وجهة غير وجهة النار والقتل ، لم تجد هذه الأصوات قبولاً من أحد . فلاصوت إياس بن معاذ ولاصوت غيره تمكنوا أن يقتوا أهل يثرب عن الدخول في الحرب .

ومن بعثات كان خيراً كبيراً للإسلام والمسلمين ، وقد بدى واضحاً ذلك بحديث عائشة رضي الله عنها فإن دعاء الحرب والنار لم يستجيبوا لأصوات المناوئين لهذه الحرب المجنونة ، لكنهم جربوا في آخر حروبهم وقتل أولئك العكابرون وتساقطت رؤوسهم الواحد تلو الآخر ، ووجد من بقي على قيد الحياة أنه يجب التحول إلى مسار وهدف آخر ، ونحو سياسة أخرى غير التي التي تبناها الآباء والأجداد وقادتهم إلى حتفهم .

يجب أن تتغير سياسة الحرب والنار ورد النار ، وسفك الدماء بلا هدف أو غاية إلى طريق يعطي أهل يثرب بعض الاستقرار والطمأنينة . وكانت إرادة الله تعالى إن أراد خيراً بأهل يثرب أنفسهم حيث أن دخولهم في الإسلام قد بدل سياستهم ، وغير معتقداتهم ، وأرادهم ليكونوا أساس الدعوة خارج مكة وبنات الدولة ، وجند الدعوة ، وأنصار الله .

قال ابن اسحاق : فلما أراد الله عز وجل إظهار دينه وأعزاز نبيه صلى الله عليه وسلم وإنجاز موعده له خرج رسول الله في الموسم الذي لقيه فيه النفر من الأنصار فعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع في كل موسم ، فبينما هو عند العقبة لقي رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً . قال ابن اسحاق : فحدثني عاصم بن عمرو بن قتادة عن أسياخ من قومه قالوا : لعليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم : من أنتم ؟ قالوا : نفر من الخزرج . قال : أمن موالى يهود ؟ قالوا : نعم ، فقال : أفلا تجلسون أكلعكم ؟ قالوا : بلى فجلسوا معه فدعاهم إلى الله عز وجل ، وعرض عليهم الإسلام ، وتلى عليهم القرآن ، قال : وكان مما صنع الله بهم في الإسلام أن يهود كانوا معهم في بلادهم ، وكانوا أهل كتاب وعلم ، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان وكانوا قد غزوه ببلادهم ، فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم : ان نبيا مبعوث الآن ،

قد أطل زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما كلم رسول الله أولئك النفر ، ودعاهم إلى الله قال بعضهم لبعض : يا قوم تعلموا والله انه للنبي الذي توعدكم به يهود فلا يستبقنكم

إليه .

فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوا وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام ، وقالوا إنا تركنا قومنا
ولا قوم بينهم من العداوة والنسر ما بينهم فخصي أن يجمعهم الله بك ، فسندم عليهم فدعوههم
إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين ، فان يجمعهم الله عليه فلا رجل
أعز منك .

ثم انصرفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعين إلى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا (١)

لقد اعترف هؤلاء الرهط من أهل يثرب أن بين قومهم من العداوة ما بينهم ، وأنهم لن يتمكنوا
أن يعطوا عهداً للرسول صلى الله عليه وسلم .

قالوا : إنا نشير عليك أن تمكث على رسلك (أي على حالك) بإسم الله حتى نرجع إلى قومنا فنذكر
لهم شأنك وتدعوهم إلى الله عز وجل - كما سبق الحديث عن الرهط القليل الذين التقى بهم
الرسول عليه السلام (٢) - وأضاف اليثريون بأن قومهم لو نبذوا ما بينهم من الخلاف وجمعهم
الله على محمد فسيكون له ولهم شأن عظيم ، لأنهم أحسوا تماماً بأن ضعف قومهم نتيجة طبيعياً
لتفرقهم وحرورهم الدائمة التي أرهقتهم وأضعفتهم وقتلت أبطالهم ورجالهم ، ولم يعط هؤلاء عهداً
قاطعاً للرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكنهم تأملوا أن يكون طريق الإسلام هم ، وأن يعطوه ما عندهم
من قوة وعزيمة وبذلك فقد بدأ الفتح النبيل لهذا الدين يخصص باتجاه يثرب ، وباتجاه الأوس والخزرج
وباتجاه الذين سينون لهم شرف النصر ، وليصبحوا هم الأنصار .

لقد أدى هذا اللقاء الخير الكثير بعد ذلك ، ولكن الأمر لم تكن بهذه العجالة ، فقد بدأ الإسلام
بالقناعات الشخصية ، ثم انتقل إلى مجموعات بسيطة لم تتعد الكثرة هؤلاء كانوا رسلاً إلى قومهم
حملوا بعد ذلك هذا الدين إلى يثرب قوياً عزيزاً مهيباً .

تعتبر هذه الفترة فترة تحول كبير في تفكير أهل يثرب ، وليس من السهل أن يكون هذا التحول
بهذه البساطة ، ولكنه مع كل مراحله من أحداث فقد كان تحولاً جذرياً كما تحدثت كتب السيرة
لقد كان تحولاً هائلاً في النفوس ، فقد تمكن المسلمون الأوائل في يثرب أن يحققوا النصر للإسلام
في الوقت الذي لم يتمكن المسلمون الأوائل في مكة أن يحققوا مثل هذه المعجزة ، لكن مع هذا
فلم يكن دور أهل مكة بهذه البساطة ، فهم الذين حملوا وتحملوا وسبروا وصابروا حتى يقف الله
له الدين من يحمله .

وفي رواية أخرى أن الوفد الذي لقي رسول الله أول مرة هم من الأوس

قال ابن زبالة : إنه صلى الله عليه وسلم كان يعرض نفسه على القبائل فيأبونه حتى سمع بنفر من الأوس
قدموا في المنافرة التي كانت بينهم فأتاهم في رجالهم فقالوا : من أنت ؟ فانتسب لهم وأخبرهم

(١) السيرة النبوية - ابن هشام ٢٠ / ٢ - ٢٠٧١ - السيرة النبوية - ابن كثير ٢ / ٢٢٢ .

الطبري - تاريخ ٢ / ٣٥٢ - وفاة الرضا - السمهودي ١ / ٢٢٢ .

(٢) السيرة الحلبية - علي السليبي ٨ / ٢ - الروايات - السليبي ١ / ١٢٦ فما بعد

خبره ، وقرأ عليهم القرآن ، وذكر أنهم أخواله ، وسألهم أن يؤروه ويمنعوه حتى يبلغ رسالة ربه .
فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا : والله هذا صادق ، وإنه للنبي الذي يذكره أهل الكتاب
ويستفتحون به عليكم ، فاعتصموا وآمنوا به . فقالوا : أنت رسول الله ، قد عرفناك وآمنا بك وسد فناك
فمرنا بأمرنا ، فإننا لن نعصيك ، فسر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعل يختلف إليهم ،
ويزدادون منه بصيرة ، ثم أمرهم صلى الله عليه وسلم أن يدعوا قومهم إلى دينهم ، ثم شحصوا إليه
في الموسم فكان من أمر العقبة ما كان وهو مخالف لما تقدم من أن النفر من الأوس لم يقبلوا (١)
والمرجح أن هؤلاء النفر الستة أو الثمانية كما مر ذكرهم هم من الخزرج ومنهم الأوس ولقد سبق
القول بأن كلمة الخزرج تطلق على الحيين مع الأوس والخزرج ، وكذلك كلمة الأوس تعني الحيين
معاً نتيجة التداخل في النسب والمصاهرة والحروب . وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم
للقوم بأنهم أخواله يعني أنهم من الخزرج باعتبار أن أم جدته عبد المطلب من بني النجاشير
من الخزرج ، وهذا ما كان يقال عن أخواله صلى الله عليه وسلم .

ومع اختلاف الروايات عن عدد هؤلاء الثيربيين حيث جعلوهم ستة من الخزرج ، وجعلوهم ستة
من الأوس ، وجعلوهم سبعة وثمانية . إلخ يعود رأى آخر لينقض كل هذه الآراء ويقول إنما
أسلم في العام الأول اثنان فقط هما سعد بن زبارة وذكوان الزبدي (١)

ونحب أن نخلص إلى ترتيب بعض الأفكار حتى نستطيع أن نفارب الحقيقة بأخذ تواريخ لقاء رسول
الله صلى الله عليه وسلم مع أهل يثرب ، وعلى الغالب أن هناك لقاء في سنة مفقود هو الذي
أحدث مثل هذا الاختلاف ، واعتقادي والله أعلم أن لقاء الرسول مع أهل يثرب الذي ابتداء
بلقاءه مع أبي الحيسر وإياس بن معاذ وسويد بن الصامت وحتى بيعة العقبة الثانية يمكن أن
نحصره باللقاءات التالية :

١ - يوم بعثت حنبل بالتأكيد قبل الهجرة ب ٥ سنوات أي سنة ٨ للبعثة ومعنى هذا ان لقاء
الرسول مع أبي الحيسر وكذلك بسويد بن الصامت إنما حصل في عام ٧ للبعثة أو ٨ وتأكيده
قبل يوم بعثت باعتبار أن إياس بن معاذ قتل بيوم بعثت وقتل قبله سويد بن الصامت ومقتله
كان سبباً لحرب بعثت . هذه واحدة

٢ - بيعة العقبة الثانية كانت في السنة ١٣ للبعثة أو ١٢ للبعثة على أبعد تقدير

٣ - بيعة العقبة الأولى كانت في السنة ١٢ أو ١١ للبعثة على أبعد تقدير

٤ - التقى رسول الله بالرهط الستة أو الثمانية ١١ - ١٠ للبعثة على أبعد تقدير

(١) وفاة الوفا - السهمودي ١ / ٢٢١ - ٢٢٢ ، ٢٢٣

٥ - ما بين لقاء ١ و ٤ من ٧ - ١١ و ٨ - ١٠ للبعثة ٤ سنرات ، سنتان وما بين هذه اللقاءات حلقة مفقودة

عقد ابن كثير فصلاً (١) بعنوان : قد وفد الأنصار عاماً بعد عام حتى بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ببيعة بعد بيعة ثم بعد ذلك تحول إليهم رسول الله إلى المدينة .
من هذا العنوان نصل إلى الحلقة التي نريد رهي : أن رسول الله قد التقى في السنة ٨ و ٩ بوفد من الأنصار ، ربما يكون قد التقى بأُسعد بن زرارة وذكر أن فقط . ثم التقى في السنة التالية بوفد من الأوس لوحيد هم وكذلك بوفد من الخزرج لوحيد هم .

ربما يكون لقاء (٤) والذي جمع الخزرج والأوس معاً كان حسيلاً لقاءات سابقة وهو الذي مهد في السنة التالية إلى بيعة العقبة الأولى والله أعلم .

إذا فإن اللقاء (٤) والذي تم بالعقبة وجمع ستة من الخزرج واثنتان من الأوس وعرف باسم العقبة الأولى في بعض المراجع والواقع أنه هو الذي مهد لبيعة النساء التي تمت بالعقبة وعرفت فسي جميع المصادر باسم بيعة العقبة الأولى .

إن المجموعة الأولى هذه قد حملت الإسلام إلى يثرب إيماناً صادقاً ، وإسلاماً ودعوة وأملًا بأن يكون بعد ما أمراً كبيراً ، وبدأ هؤلاء الرهط بالعمل الدؤوب الصابر ، لم تحدثنا الأخبار عن الجهود التي بذلها هؤلاء لتثبيت الإيمان في قلوبهم على الأقل ولكسب الأنصار والمؤيدين لكن من الملاحظ أن الأمر لم يكن - كما تصور المراجع - سهلاً حيث تقاطر أهل يثرب على الإسلام . إنهم فسي الواقع قد صبروا كثيراً حتى كسبوا التأييد ومن خلال تتبع الأرقام والأسماء نجد أنهم في كل عام لم يزدادوا إلا قليلاً إلا ما كان بين بيعتي العقبة وخرج الدعوة من مكة إلى المدينة . ومع هذا فإن الدعوة الإسلامية قد دخلت قلوب اليثريين بدون مقاومة تذكر على الأقل . هذه الدعوة التي رفضها القرشيون وسواهم لم تأت في مراحلها الأولى مرة واحدة بل أيضاً بعثت وراءها أسعد بن زرارة الذي تردد اسمه من أول لقاء حتى آخر لقاء ولعله الوحيد الذي لم ينقطع عن واحدة من هذه اللقاءات . لكن عمله الدؤوب والقلة معه استطاعوا أن يدخلوا في قلوب العامة والخاصة بغفرة قصيرة حتى طالبوا زعماء يثرب الذين بقرا على قيد الحياة بعد حرب بعثات .

القسم الثاني

دخول الاسلام الى يثرب

تمهيد : اذا كان الرهط الذين دخلوا في الاسلام في مراحلهم الاولى من يثرب قليلون ، فان أمرهم أصبح أشد تأثيراً وأبعد تغييراً ، هؤلاء الذين التقوا بالرسول ، وربطوا بين دعوته وحدث اليهود وأهل الكتاب عنه فقد كانوا رواد خير وبركة لهم أولاً ولأهل يثرب جميعاً ثانياً ، وإذا كانت هسة الدعوة التي تملأ الدنيا الآن - رغم كل التحديات - التي تجلبها من أتباعها أولاً ومعتنقيها والمعتنسين إليها - ثم من أعدائها الكثر المختلفون ثانياً ، فإن هذه الدعوة قد بدأت في أولها بخمسة فقط ورسول الله وزوجه خديجة وابن عمه علي ومولاه زيد بن حارثة من داخل بيته وصديقه أبو بكر من خارج داره .

هؤلاء الخمسة الذين بدأت الدعوة بهم في مكة كانوا بعد عشر سنين يطرفون آذان الناس جميعاً سواء منهم من آمن أو من رد بالحسن ، أو صد بعداوة . فإن هذه الدعوة حتى تلك اللحظة قد خطت خطوات هائلة ووصلت إلى أماكن مختلفة من جزيرة العرب وخارجها . وصلت الحبشة ، وحملها بنوشيبان وبكر ، واتخذوا اسم محمد شعارا في حربهم فنهبوا به ، وحملها آخرون وآخرون ، وسع بها الكثيرون . لكن الترتيبات التي أرادها الله تعالى والمستقبل والفضل والمنة له وحده وبيده وحده قد خصها أهل يثرب من الأوس والخزرج .

وجدت الدعوة قبولاً عند رهط قليل لم يكن في حساب صاحب الدعوة لأنه صلى الله عليه وسلم كان ينشد النصر والمنحة في أي قوم حتى يبلغ رسالة ربه التي حجرت عليها قريش ، وسدت الناس عنها ، وهؤلاء القلة من اليثريين قد طمأنوا رسول الله بأنهم اتحدوا لايدانيهم في المنحة والشدة أحد - فهم متفرقون ، متناحرون مختلفون - وإن نبذوا ما بينهم من نار فلا يجار بهم أحد ، لأنهم أبناء الحرب التي ضرستهم ، والمعارك التي طحنتهم ، وأبناء القتال الطويل والصدام المستمر .

لقد رضي الرسول صلى الله عليه وسلم من هؤلاء القلة ، وتأكدت لديه قضية أساسية وهي أن الدعوة قد وجدت مركزاً آخر في يثرب ، وأفلتت - رغم الحصار الشديد المحكم ووسائل البشعة - من قبضة قريش التي أحكمتها حول الرسول وأتباعه . وعند ذلك القريب والبعيد ، والحاقد والغاضب والمنفع والمفعل .

أغلقت الدعوة الآن من حصار مكة وحملها أهل يثرب بجديّة وقوة متناهيّتين وإيمان صادق ، وحرمة متينة ، كانت أساساً ثابتاً لها تلاها من أحداث كان مقدراً لها أن تخير مجرى التاريخ .

١ - قبول أهل يثرب بالإسلام

جاء قبول أهل يثرب للإسلام في وقت وصل به اليأس بالمسلمين أشده ، ففي مكة استعرا العلاء من قريش استخدام كل أدوات التعذيب ووسائل الردع ضد المسلمين ، إلى درجة لم يسبق استخدامها أو مثيلاً لها في بلاد العرب لأى أمر كان ، وتجاوز الحال حد العذاب والتكيل والحبس إلى دور القتل والتشريد ، ورفع الحماية والحصانة التي كانت تلازم الأحرار والموالي بعيداً عن معاملة العبيد . وضافت مكة على المسلمين بشكل كبير جداً ، ولم يشفق قيام بعض المسلمين بالهجرة إلى الحبشة أن يعاود العلاء من قريش حساباتهم ويحاولوا أن يجدوا مدخلاً لهذه الدعوة في نفوسهم . كما أن الصد الذبير الذى كان يلقاه الرسول وهو يتجول بين القبائل والحجيج في مواسم العرب كان كافياً لأن يملأ النفوس اليأس والقنوط نفوس هؤلاء الضعفاء من المسلمين الذين يزداد عليهم العنت يوماً بعد يوم . ولم يعط لقاء الرسول مع القبائل آمالاً جساماً يمكن معها أن يبني عليه مستقبلاً أو تحقق به غاية ، ففتنهم اللطف أن يرد أحدهم بالحسن . والقرى الظاهرة حول مكة قد علمت عن الدعوة واتخذت مواقف واضحة منها ، مواقف معادية بالكلية أو غير ذات اهتمام والذين تستهويهم الدعوة كانت لا تخرج معلنة في نفوسهم لأنهم يرون ما حل بمن سبقهم وهم على غير استعداد للوقوف بمواجهة قوة وأقوام كلها وقعت مجتمعة في وجه هذه الدعوة السنة العاشرة للدعوة وما بعدها يمكن تصويرها

١ - ازدياد عدد المسلمين في مكة وازدياد المقاومة القرشية لهذه الزيادة ، واتخاذ أساليب جديدة لمواجهة المسلمين والتضييق الكبير عليهم

٢ - وصول الدعوة إلى مناطق كثيرة من أنحاء الجزيرة أعطت ثمارها بعد الهجرة وقيام دولة الإسلام ، فبعد أن كان العرب لا يعيرون اهتماماً لمثل هذا الأمر ، وكان عندهم في تفكيرهم وحياتهم ما يشغلهم عن الأمور الأخرى ، أخذت الدعوة تسمى الشغل الشاغل لهذه القبائل والتي أصبح الإسلام يفتزوها واحدة واحدة ، ويدخل الناس في دين الله أفواجا

٣ - انحسار المد الإسلامي في مكة تقريباً ، وهذا أدى إلى أن يتردد الكثيرون بقبول الإسلام والدخول فيه

٤ - تأكيد الرسول صلى الله عليه وسلم وعمله الدؤوب للخروج من هذه الشائقة العجيبة التي أحاطت بالمسلمين ، وكانت رغبة الرسول صلى الله عليه وسلم أن يكون الفرج على يد قوم غير قريش - بعد أن استيأس منها - وبعد أن استخدم معهم كل وسائل الاقتناع والبرهان فما زادتهم إلا تعصباً وهجراً .

٥ - في هذا الجو كانت المعاضات تسير بببطء فردية أو جماعية ولكنها كانت توثق ثمارها مع أهل يثرب وهذا التوجه نحو هذه المدينة ، ولعل المؤرخين جميعاً قد أجمعوا على أن

السبب المباشر لقبول أهل يثرب للإسلام هو ما سمعوه من اليهود عن نبي قد أطل زمانه وتكون يثرب مهاجرة ، وتهديد اليهود لأهل يثرب بأنهم مع هذا النبي ~~يبيستند~~ عضد هم وتتوحد كلمتهم وينزل الله تعالى عليهم نصره ويقتلون عرب يثرب قتل عاد وارم ويتخلصوا أي اليهود من استعلاء الأوس والخزرج عليهم الذين اشبهوهم قهراً رغم كل ما يملك اليهود من القوة والكيـد المستمر .

هذا السبب باعتقادي — والله اعلم — غير كاف لأن يتسارع اليثريين للدخول في الإسلام ولكن السبب الأخرى وإن كان الأول مقدمة للآخر هو أن اليثريين قد وصلوا إلى مرحلة من الوعي السياسي والفكري متطورة نتيجة لحروبهم المتواصلة وتوصلوا إلى نتيجة قيمة بأن أية تجمعات لا يمكن لها أن تستمر إذا كانت خاوية من العقيدة أو العبداء ، ولو كان الأمر مقتضياً على السماع من اليهود لما دخل اليثريون بهذه السرعة ولترثوا قليلاً انتظاراً للنتائج التي قد تحدث مستقبلاً ، لكنهم في كل خطوة نحو الإسلام كانوا يجدون به خيراً وطمانينة وراحة وترفعاً وتسامياً عن كل الأعمال التي انتدبوا للقيام بها في حياتهم ، وهذا الوعي جعل أهل يثرب ومن الأوس والخزرج يتسارعون للدخول في الإسلام ، وقد وجدوا في هذا الدين السبيل الأمل الذي يمكن أن يخرجهم من محنتهم — مع أنهم كانوا يعقدون الخرز للتتويج عبد الله بن أبي ملثأ عليهم وباتفاق الطرفين ، ولم يعد هذا الأمر مقبولاً لديهم لأنه حل مؤقت ولا يتعدى أن يكون هدنة بين الطرفين المتحاربين ، ولم يقتصر الدخول في الإسلام على حزب المعارضة الأوس — إن صحت هذه التسمية — واعتبار أن الملك من الخزرج لكن الخزرج كانوا هم الأكثر عدداً بالدخول في الإسلام والدعوة له وكانوا في ذروة الحماس والقبول لهذا الدين .

إن قبول اليثريين لهذا الدين لأن له مقدمات كما ذكرنا ، وكان له نتائج الخديرة أيضاً . . . كما سنتحدث ، لقد عاشت فكرة الملكية فترة قصيرة جداً بدأت باختيار الملك ، وانتهت بدخول الناس الإسلام ، ولم تكن هذه الفترة كافية حتى للقيام بمراسم التتويج التي كان القوم يعدون لها . إن تحول التفكير والسلوك من الملكية التي أصبحت هاجس الناس للتخلص من آثار الحروب إلى دخول الناس في الإسلام قلب هذا التحول المفاهيم رأساً على عقب وكان ذلك بفترة وجيزة لا تتعدى سنة أو سنتين على الأكثر ، وهذه العدة كانت كافية لإعلان يثرب مملكة خزرجية ، ولما تأخر الناس كل هذه العدة من إعلان الملكية التي أصبحت هاجس الملك وحده أكثر من غيره . بدا أن في الأفق مستقبلاً غير ما أعد له الناس .

لم تقم في تلك الفترة من الاتفاق على الملك إلى سقوطه قوة معارضة لهذه الملكية . . . ولكن نجد أن التحول كان إهمال الأولى دون الإعلان عن ذلك ، ونجد أن أقرب المعربين من الملك

بل ولي عهده قد دخل في الإسلام .

القول بأن مفهيم الدولة والأمة لم يثنى وادأ عند أهل يثرب ، وعند ابتداء دخول الإسلام إليها فيه شيء من الصواب ، ولكن بيعة العقبة الثانية - كما سترد تفصيلاتها - قد وضعت أساساً لمفهيم الدولة ومفهيم الأمة . بايع الناس الرسول على أكثر بكثير مما كانوا مزمحين ببيعة ابن أبي عليه ليكون ملكاً عليهم . وقد ظهرت نتيجة هذه البيعة وثبات مبادئها في غزوة بدر - في أول لقاء مسلح للدولة الإسلامية مع أعدائها - دخول الإسلام إلى يثرب كان تحولا خطيرا في حياة الناس على كل الأصعدة ، في حياة يثرب نفسها ، في قوة مكة التي كانت حتى تلك اللحظات القوة الغير متوازنة من الآخرين ، وأعلى الأقل كانت مكة قد كسبت قدسية خاصة بها لقدوم الناس إليها للحج والعمرة وللتجارة وللتبرك بترات العرب القديم من زمن إبراهيم وإسماعيل .

خروج المسلمين منها في الهجرة إلى المدينة قد أوقعها في الكثير من الإشكالات الاقتصادية والسياسية والحسكية ، وانهميار الملكية السرين في يثرب ، وتحول عدد لا بأس به من عرب يثرب إلى معارضة المسلمين التي تبناها العناقون ، إلى تفجّر عداوة اليهود على رسولهم المنتظر كل هذه كانت أسباباً قوية في اختلاف موازين القوى وحرارة التاريخ .

إن انفراج الأزمة على المسلمين من أهم نتائج دخول الإسلام إلى يثرب ، فقد تحول المسلمون إلى قوة نامية سيكون لها شأن وأى شأن في سنوات قليلة لا تتعدى أصابع اليد ولتصبح هي صاحبة الكلمة العليا في جزيرة العرب وقبل أن ينتقل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى .

تقول الأخبار بأن الدين بايعوا الرسول صلى الله عليه وسلم في أول مرة - ولم تكن بيعة بالمعنى المعروف وما هي عليه البيعات التالية - قد عادوا إلى يثرب ، ونقلوا الإسلام لأول مرة إلى هناك وبشكل جماعي تران بين ٢ - ٨ على أغلب الروايات وربما بأكثر من سنة ، وتكاثرت هؤلاء خلال عام وبقدر الضعف تقريبا - ربما يكون أكثر ولكن الذين عادوا في العام التالي كانوا بهذه النسبة . وكان هذا التجمع البسيط النواة الأولى للإسلام في هذه المدينة - فلما قدموا (الرهط القليل من أهل يثرب) المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودعواهم للإسلام حتى فشى بينهم ، فلم يبق دار من دور الأنصار إلا فيهم - ذكر من رسول الله صلى الله عليه وسلم (١)

جهر هؤلاء بالإسلام لأول مرة في يثرب ونقلوه إلى معارفهم وأهلهم ، وخلال عام كامل من عمل هؤلاء ، فقد فشى ذكر الإسلام في يثرب وعلم به الناس وتناقلته الألسنة -

(١) الروس الانف - السهيلى ١ / ١٧٧ . السيرة النبوية - ابن هشام ٢ / ٢٢٠ . السيرة الحلبية - علي الحلبي ٢ / ٨٠ . السيرة النبوية - ابن كثير ٢ / ١٢٨

الستحدثون ، وتداولته المجالس ، ولكن الراغبين فيه قلّة لان هذا الرهط لم ينل الثقافة الإسلامية الباطية للإتساع فقد كان لقاءهم بالرسول لم يتعد جلسة أو جلستين . ومعنى هذا أن الأرضية الصلبة الطيبة التي ستحمل هذا الدين قد أصبحت جاهزة لاستقبال أول هجمة من الإسلام لغزو هذه القلوب والعقول .

وفعلا فقد كانت هذه الأرضية راسخة صلبة كافية تماما لأن يقف عليها حملة الدين الجديد ودعائه . لم تذكر لنا كتب التاريخ عن عمل هؤلاء الرهط القلة من المسلمين في يثرب كما توسعت بالحديث عن أوائل من أسلم في مكة وخلال عام كامل ، ولكن الملاحظ حتى من السكوت عنهم أن هؤلاء لم يلاقوا المقاومة الشديدة التي لاقاها أوائل المسلمين في مكة ، ولذلك كان تفسي خبر الإسلام في المدينة كان أمرا ميسورا ، وفعلا فقد دخل فيه الكثيرون دون معارضة أو مقاومة بل وصلوا إلى تصور العلاقة المستقبلية التي ستكون بينهم وبين رسول الإسلام ، وماهي البنود التي يمكن أن يكونوا قادرين على تنفيذها والحديث بها عند لقاءهم معه ، والتحدث عن قضايا مصيرية قد تغير مستقبل العالم كله - مع أن هذه القلة غير قادرة حتى تلك اللحظة على الحفاظ على ماتحت أيديها فقط .

يعتبر تفسي الخبر في المدينة بين عربها ويهودها مؤشرا واضحا على أن مستقبل هذا الدين سيرتبط بهذه المدينة ، وبأن الثقل الفكري للإسلام سيتحول من مكة إليها ، وأن الجنود الجدد من الأنصار سيكون لهم النصيب الأوفى بثبيت أركان هذه الدعوة والدفاع عنها . تحولت القضية الآن إلى أعمال بناءه ومدروسة ومتفق عليها بكافة الإعتبارات السياسية والإدارية والفكرية والاجتماعية وكل هذه القضايا سيلاصقها مستقبل الدعوة الإسلامية في يثرب .

لكن يبقى السؤال المطروح في هذه الحقبة بالذات هل سينير الإسلام حال يثرب عربهم ويهودهم ويوحدهم ويجعل منهم قوة واحدة يستطيع بها أن يعيد التوحيد في العقيدة والقوة في الوحدة وتخطي السعاب التي قد تنجم عن مثل هذا العمل ؟ . الواقع أن اليهود لم يجدوا في قيام الإسلام بمكة أمرا غريبا فقد كانت كل التباشير لديهم تشير إلى أن هذا الأمر كائن ، لكن النبي الذي حيرهم وجعلهم يقفون محايدين على الأقل في أول الأمر هو كيف يستطيعون أن يوفقوا بين معتقداتهم والواقع الذي دفعهم دفعا إلى إعادة كل حساباتهم . النبي ليس من بني إسرائيل والذي يتحدث عنه الناس من بني اسماعيل ومن الأميمين . الدعوة صحيحة وهي أمر يعرفونها حق المعرفة ، ويقرون بها مع الاختلاف في التفسيرات والتحويلات الدينية التي ابتدعوها . ولذلك لم يقدم اليهود على الدخول في الدين وأيضا لم يشعروا

حتى ذلك الوقت بأى خطر يتهدد هم من انتشاره ، بل ربما يساعد هم على محو آثار الوثنية التي اعتقدوها بأسلوب توحيدى وأشركوا مع الله ما ليس لهم بحق

أما بالنسبة للوثنيين فقد وجدوا في الاسلام أمراً آخر وجدوا فيه نوراً أضاء ظلمة قلوبهم وراحته محت قهر نفوسهم . ودينياً نبذ فكرهم ووثنياتهم ، ونظماً ضرب فرقهم في مقتبل كل هذا لم يكن هينا على نفوس أولئك الناس ، فقد وصلوا الى شاطئ الأمان بعد الإجهاد الكبير من معترك الحياة التي عصرتهم وقهرتهم وأفتتهم وجعلتهم شرانيم ومجموعات تنتظر الموت بلا سبب في كل لحظة ، وتسعى وراء الثأر القاتل في كل حين ، وبذلك فقد رضوا أن يكون ابن أبي ملثم في أول الأمر يرحم كلمتهم ويبعد شر الحروب عنهم ، لكن أين هذا مما جاء من عند الله يخاطب العقول والقلوب والأفئدة ويهز الجوارح والاحاسيس والمشاعر ، ويطفئ النظم والهميام والقهر ، ويعيد للنفس الانسانية كل معاني انسانيتها وكرامتها . .

إن هذا هو الطامع في بداية الحال ، فكيف والرحي ما زال يتنزل على قلب محمد ، والأمر في بداياته الأولى والنسبة لهم على الأقل - ونداء الله تعالى على لسان نبيهم يدفعهم لأن يدنوا غير ما هم عليه في كل الجوانب مهما كانت جزئياتها ، ومهما كانت أحوالها .

لقد تقبل بعض أهل يثرب ممن كتب له أن يسمع عن الإسلام هذا الدين ، ولم يكنوا أن يأخذوه لأنفسهم فالحقيقة أنهم دعوه بأنه دعوة للآخرين ، دعوه لكل الناس في أى اتجاه إلى هذا الخير العميم الذى لا يستأثر به قوم دون قوم . لقد عرفوا اليهودية وعرفوا انها دين خاص بيني اسرائيل ومن وهبوا من أبنائهم له = فما تكلف أخبار يهود أنفسهم ولارجال الدين فيهم أن يخرجوا بهذا الدين عن الدائرة التي توقعوا فيها وضمنها ، أما انسي الجديد في دين الإسلام فهو الدعوة للتساوى بين العباد مهما صنراً وكبر هؤلاء الناس ، ومن هذا المنطلق الواضح في هذا الدين قبل أهل يثرب الإسلام وهم يعلمون قطعاً أن هذا الدين شيء جديد لا قبل لهم ولغيرهم بمثل مبادئه . إن طليعة الأنصار قد خطوا وسرعة فائقة خطوات عملية كبيرة اختصرت الزمن ، وطوت المسافات وراحوا بكل ما أوتوا من قوة إلى الأخذ بكل الأسباب التي تدفع هذا الدين لأن يحكم النفوس والقلوب والأرواح .

بيعة العقبة الأولى

تسوقت القلوب إلى لقاء محمد صلى الله عليه وسلم في العام التالي لأول لقاء موسم معه ، وموسم الحج هو الوقت الأمثل لمثل هذا اللقاء ، ففي هذا الموسم لا يسأل الناس عما يفعلون وفيه الأشهر الحرم ويوافي العرب بالموسم ، وقد حملوا كل ما في جمعيتهم الدينية وجأروا الى مكة حاجين متاجررين متلاقين ، متوحدين . وفي الموسم لا يسأل الناس عن لقاءاتهم أو حديثهم أو اتصالاتهم

فهو في الأصل تحقيق لهذا الهدف ولهذا الخبايا . ومن أن العام بطولية — والزمن له حساب عند المسلمين — لم يكن عدد المؤمنيين قوة يحسب حسابها ، بل كان نتائج عملهم أن أوصلوا هذا الدين إلى الناس الذين أخذوا يتحدثون عنه ويرددوا ما عرفوه عنه .

حتى إذا كان العام المقبل وفي الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً فلقوه بالعقبة (قال) وهي العقبة الأولى فبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بيعة النساء وذلك قبل أن تفرس عليهم الحرب وقد ذكر الله تعالى بيعة النساء في القرآن الكريم فقال : **يُبَايِعُكَ عَلَىٰ أَنْ لَا يُشْرِكَ بِاللَّهِ شَيْئًا** . . . (٢) فأراد ببيعة النساء أنهم لم يبايعوه على القتال ، وكانت مبايعته للنساء أن يأخذ عليهن العهد والميثاق ، فإذا أقررن بألسنتهن قال : قد بايعتكن ، وما مست يده يد امرأة في مبايعة . كذلك قالت عائشة ، وقد روى أنها كن يأخذن بيده في البيعة من فون ثوب وهو قول علي والشعبي ذكره عنه ابن سلام في تفسيره ، والأصح الأول . وقد ذكر أبو بكر محمد بن المعري النقاش في صنعة بيعة النساء رجلاً ثالثاً أورد فيه آثاراً وهو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يمس يده في إنا ، وتخص المرأة يدها فيه عند المبايعة فيدون ذلك عقد البيعة ، وليس هذا بالشهر ولا عند أهل الحديث بالثبوت (٣)

فمن عبادة بن الصامت . . . بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة النساء ، ان كبيعة النساء أي كبايعته للنساء التي كانت يوم فتح مكة ، وهي على أن لا تشرك بالله شيئاً ، ولا تسرق ، ولا تزني ، ولا تقتل أولادنا ، أي لأن قتل الأولاد كان سابقاً فيهم ، وهو وأد البنات ، قيل : والبنين خوف الإملاق . وفي الشهر كان جمهور العرب لا يثرون البنات (بناتهم) وكان بعض ربيعة يرضع يثد ونهن أحياناً .

فبعضهم يثد خوف العار والافتقار ، وبعضهم خوف السبي ، قال : ولأناتي ببهتان : أي الذنب الذي يبهت صاحبه سامعه فثغريه بين أيدينا وأرجلنا أي في الحال والاستقبال قيل وغير ذلك ولا نعصيه في معروف أي ما عرف من الشارع حسنه نهياً أو أمراً .

قال الحافظ ابن حجر : المبايعة المذكورة في حديث عبادة بن الصامت على الصفة المذكورة لم تقع ليلة العقبة ، إنما بيعة العقبة ما ذكر أن ابن اسحاق وغيره من أهل المغازي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لمن حضر من الأنصار ، أبايكم على أن تمنعوني ما تمنعون منه نساءكم فبايعوه على ذلك ، وعلى أن يرحل إليهم هو وأصحابه . ثم ذكر جملة من الأحاديث وقال : هـ هذه أدلة صريحة في أن هذه البيعة بعد نزول الآية بعد فتح مكة .

وأقول : ليس في كلام عبادة أن هذه البيعة بيعة العقبة . إذ لم يقل بايعنا رسول الله ببيعة

(١) سيرة ابن هشام ٢/٢٣٠ - الروس الأنف - السهيلي ٢/١٨٤ . السيرة الحلبية - على الحلبي

٢/٨ . السيرة النبوية - ابن كثير ٢/١٢٩ . وفاء الرفا - السمهودي ١/١١٣ . عيون الأثر -

ابن سيد الناس ١/١٩٢ . (٢) سورة الممتحنة (جزء من الآية ١٢) . (٣) الروس الأنف - السهيلي

العقبة وإن كان السيان يقتضيه ، وحينئذ فلا يحسن أن يكون كلام عبادة شاهد لمن قال :
وتلا عليهم آية النساء ، فلا يحسن التفرغ المتقدم ، بل هو دليل على أن هذه المبايعة متأخرة
عن يوم الفتح كما قال الحافظ والله اعلم .

زاد بعضهم : السمع والطاعة في اليسر والحسر والعنشط والمعز ، وأن لاننازع الأمر أهله
وأن نقول الحق حيث كما لانخاف في الله لومة لائم .

قال : ومن وفي . . . بالتخفيف - والتشديد أي ثبت على العهد فاجره على الله ، ومن أصاب من
ذلك شيئاً فعوقب في الدنيا فهو (أي العقاب) طهرة له ، أو قال : نقارة له (١)

وهؤلاء الرهط الذين وافوا المرسم وبيعوا بيعة العقبة الثانية (الاولى . اثنا عشر رجلاً وهم :

١ - أبو أمامة أسعد بن زرارة المتقدم ذكره

٢ - عوف بن الحارث وأخوه معاذ وهما ابنا عفرأ : المتقدم

٤ - ورائع بن مالك المتقدم أيضاً

٥ - وذكران بن عبد قيس بن خلد بن مخلد بن عامر بن زريق الزرقى

قال ابن هشام : وهو انصاري ومهاجري

٦ - عبادة بن الصامت بن قيس بن أحرم بن فهر بن ثعلبة بن غنم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزيم

٧ - وحليفهم أبو عبد الرحمن يزيد بن ثعلبة بن خزيمة بن أحرم البلوى

٨ - والعباس بن عبادة بن فضله بن مالك بن العجلان بن يزيد بن غنم بن سالم بن عمر بن عوف

بن الخزيم العجلاني . وأقام العباس المذكور بمكة إلى أن هاجر النبي صلى الله عليه وسلم فهاجر

فهبوا نصارى ومهاجري ، واستشهد بأحد رضي الله عنه . يروى أنه قال لهم حين اجتماعهم في هذه

العقبة الثانية (الاولى) تأخذون محمداً على حرب الأسود والأحمر ، فإن كنتم ترون أنكم إذا

نهكتكم الحرب أسلمتموه فمن الآن فاتركوه ، وإن سببتم على ذلك فخذوه . قال بعضهم : والله

ما قال ذلك إلا ليشد العقد (٢)

٩ - وعقبة بن عامر بن أبي المتقدم

١٠ - وقطبة بن عامر بن حديدة المتقدم (٣) فهؤلاء عشرة من الخزيم

ومن الأوس اثنان هما : ١ - عويم بن ساعدة

٢ - وأبو الهيثم مالك بن الشيهان . قال ابن هشام : الشيهان : يخفف ويثقل مثل : ميت ، وميت (٤)

(١) السيرة الحلبية - علي الحلبي ٨ / ٢

(٢) السيرة النبوية - دحلان ٢٨١ / ١

(٣) تقدم ذكر هؤلاء في انهم الرهط الستة الذين كانوا اول من سمع من رسول الله ووافقوه مع

غيرهم في الموسم حيث كانت بيعة العقبة الاولى

(٤) السيرة النبوية - ابن كثير ٢ / ١٧٨ - ١٧٩

والمقصود أن هؤلاء الإثني عشر رجلاً شهدوا المرسم عامئذ ، وهزموا على الاجتماع برسول الله صلى الله عليه وسلم فلقوه بالعقبة فبايعوه عندها بيعة النساء ، وهي العقبة الأولى .

وروي أبو هاشم أن رسول الله قرأ عليهم من قوله تعالى في سورة إبراهيم " وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا " إلى آخرها .

وقال ابن اسحاق : حدثني يزيد بن أبي حبيب عن مرثد بن عبد الله اليزني عن عبد الرحمن بن عسيلة عن عباد ، وهو ابن الصامت قال : كنت ممن حضر العقبة الأولى وكنا اثني عشر رجلاً ، فبايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بيعة النساء ، وذلك قبل أن يفرض الحرب ، على أن لا نشرك بالله شيئاً ولا نسرق ، ولا ننزلي ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتي ببيهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه في معروف^(١) ونعطيهِ السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره ، وأن لاننازع الأمهات وأهلنا وأن نقول بالسنن حيث كنا لانخاف في الله لومة لائم . ثم قال صلى الله عليه وسلم بعد هذه البيعة : فان وفيتم فلکم الجنة ، ومن غشي من ذلك شيئاً كان أمره مفوضاً إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء غفا عنه ، ولم يكن الجهاد مفروضاً في ذلك الوقت فلم يذكره لهم ، ولم يبايعهم عليه وقيل إنما كانت بيعة العقبة الثانية على الإيثار والنسوة وما يتحلق بذلك ، أما المبايعة بلفظ على أن لا نشرك بالله شيئاً ١٠٠ إلخ فانما كانت عام الفتح ولا مانع من تعدد ذلك^(٢)

وقد روي البخاري ومسلم هذا الحديث عن طريق الليث بن سعد عن يزيد بن أبي حبيب به نحوه ولم يكن أمر بالقتال بعد ، بل كان جميع ذلك قبل نزول الفرائض ما عدا التوحيد والصلاة^(٣) اتفقت جميع المصادر على عدد المبايعين وهم عشرة رجال من الخزرج من الأوس كما اتفقت هذه المراجع على شروط البيعة وقد ذكرنا أن تسميتها بيعة النساء جاءت متأخرة فياً على بيعة النساء بعد الفتح^(٤)

انفرد مؤلف حياة الصحابة^(٥) بذكر حديث طويل عن هذه البيعة ، وقد فرق بينها وبين بيعة العقبة الثانية التي ردت عنده تحت عنوان عرضه صلى الله عليه وسلم الدعوة في مواسم الحج قال :

فلقيهم النبي صلى الله عليه وسلم في أيام منى عند جمرة العقبة ليلاً فجلس إليهم فدعاهم إلى الله عز وجل وإلى عبادته والعمارة على دينه الذي بعث به أنبيائه ورسله ، فسألوه أن يعرض عليهم ما أوحى إليه فقرأ الرسول سورة إبراهيم : (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا)^(٦) إلخ السورة . فرق القوم واحمبوا حين سمعوا فأجابوا . فمر العباس بن عبد المطلب وهو يكلمهم

(١) السيرة النبوية - ابن كثير ١٢٩ / ٢ - السيرة النبوية - ابن هشام ٢ / ٧٥ - وفاة الوفا -

السمهودي ١ / ٢٢٣ . (٢) السيرة النبوية - دحلان ١ / ٢٨٨

(٣) وفاة الوفا - السمهودي ١ / ٢٨٨ (٤) السيرة النبوية - ابن كثير ٣ / ٦٠٣

(٥) حياة الصحابة (الكاتب هلوى) ١ / ٢٨ - ٢٩

(٦) سورة إبراهيم آية ٣٥

ويكلمونه فحرف صوت النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ابن أخي ، من هؤلاء الذين عندك ، قال :
يا عم ، سكان يثرب الأوس والخزرج قد دعوتهم إلى مادعوت إليه من قبلهم من الأحياء فأجابوني
وصدقوني ، وذكروا أنهم يخرجونني إلى بلادهم ، فنزل العباس وعقل راحلته ثم قال لهم : يا معشر
الأوس والخزرج : هذا ابن أخي وهو أحب الناس إلي فإن كنتم صدقتموه وآمنتم به وأردتم إخراجهم
معكم فإني أريد أن آخذ عليكم موثقا يضمن به نفسي ولا تخلصوه ولا تغروه ، فإن جيرانكم اليهود
واليهود له عدو ، ولا آمن مكرهم عليه ، فقال أسعد بن زرارہ — وشي عليه قول العباس حين
اتهم عليه سعداً وأصحابه — : يا رسول الله ائذن لنا فلنجنبه غير مخشنين بمصدرك ولا متعرضين
لشيء مما نكره إلا تصديقا لإجابتنا إياك وإيماناً بك . فقال رسول الله : أجيبوه غير متهمين .
فقال أسعد بن زرارہ : وأقبل على رسول الله بوجهه فقال : يا رسول الله ، إن لكل دعوة سبيلاً
إن لين وإن شدة ، وقد دعوت اليوم إلى دعوة متجهة من الناس متوعدة عليهم . دعوتنا إلى ترك
ديننا وتباعك على دينك وتلك رتبة فأجبتناك إلى ذلك ، ودعوتنا إلى قطع ما بيننا وبين
الناس من الجوار والأرحام القريب والبعيد ، وتلك رتبة صعبة فأجبتناك إلى ذلك .
ودعوتنا ونحن جماعة في دار عز ومنعة لا يطعم فيها أحد أن يرأس علينا رجل من غيرنا قد أفرده
قومه وأسلمه أعمامه ، وتلك رتبة صعبة فأجبتناك إلى ذلك .

وكل هذه الرتب مكرهة عند الناس إلا من عزم الله على رشده ، والتمس الخير في عواقبها ، وقد أجبتناك
إلى ذلك بالسنتنا وصدورنا وأيدينا وإيماننا بما جئت به وتصديقا بمعرفة تبت في قلوبنا
نبايعك على ذلك ونبايع ربنا بريك يد الله فوق أيدينا ودمائنا دون ذلك ، وأيدينا دون يسدك
نمنعك مانع منه أنفسنا وأبنائنا ونساءنا فإن نفي بذلك فله نفي ، وإن نغدر فبالله نغدر
و نحن به أشقياء . هذا الصدق منا يا رسول الله والله المستعان .

ثم أقبل على العباس بن عبد المطلب بوجهه فقال : وأما أنت أيها المعترض لنا بالقول دون النبي
صلى الله عليه وسلم والله أعلم ما ردت بذلك ؟

ذكرت أنه ابن أخيك وأحب الناس إليك فنحن قد قطعنا القريب والبعيد وذا الرحم ونشهد أنه
رسول الله أرسله من عنده ليس بكذاب ، وأن ما جاء به لا يشبه كلام البسر ، وأما ما ذكرت أن لا تطمئن
إلينا في أمره حتى تأخذ مواثيقنا فهذه خصلة لانردنا على أحد أرادها لرسول الله ، فنخذ ما شئت
ثم التفت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله خذ لنفسك ما شئت واشترط لربك
ما شئت فذكر الحديث بطوله في بيعتهم . . عن أبي نعيم في دلائل النبوة — ص ١٠٥

من متابعة فقرات الحديث نجد ان به بعض التلخيص ودمج بعض المواقف وترتيب بعض المقالات

خاصة وأنه انفرد به أبو نعيم وأخذ عنه اللاند هلوي

لكن مع هذا نستطيع أن نستخلص بعض ملامح التحولات الفكرية والسياسية والعقائدية لدى الانصار

- منها مثلاً : ان المبايعين من الخزن وهم الكثرة وهم الذين كانوا يعقدون الخرز وقتها لتتبرج عبد الله بن أبي ملثاً عليهم وهذا تحول كبير عن خطبهم الأول وقد انفض كما يظهر عنه قوله قبل أعدائه من الأوس واجتماع الحيين على الإسلام ومبايعة الرسول صلى الله عليه وسلم دليل أكيد على هذا التحول على الرغم من أن الأوس كانوا ثقة في هذه البيعة ولكن العدد في الأوس ازداد بشكل مطرد واتساع كبير وهذا الاجتماع يعتبر أول إجماع منهم على أمر بالغ الخطورة كهذا الأمر، فليس من السهل التقاء هؤلاء القوم بهذه البساطة وتفاهمون على ما أقدموا عليه وهي الخطوة الأولى في طريق رحدتهم .

- إن الشروط التي حددها الرسول صلى الله عليه وسلم قد شملت كل ما جاء به الإسلام حتى ذلك الوقت : ١ - التوحيد : وهو الخطوة الأساسية الأولى في مجال العقيدة الإسلامية فطرح الشرك والأوثان هو من أوجب واجبات دعوة الإسلام وقد قضى الرسول صدر دعوته يؤكد هذه الحقيقة ويغرسها في عقول أتباعه وعليها يأخذ العهد ولا يقبل عملاً بدونه

٢ - النهي عن بعض ما نهى الإسلام حتى ذلك الوقت السرقة والزنا وعدم قتل الأولاد ولا يأتي المسلم بفاحشة أو بهتان مفترى بين يدي القوم وأرجلهم

٣ - الطاعة : وهي من الأمور الهامة في هذا المجال ، فإن القوم قد تعودوا على طاعة رؤسائهم وساداتهم وعلى مدى صلتهم بالدم بهؤلاء الرؤساء ، أما أن يتحولوا إلى طاعة رسول الله بهذه السرعة فإنه أمر خطير . إذ أنهم فعلاً قد بدأوا ينسلخون عن جاهليتهم والتزاماتهم السابقة ليدخلوا في طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم . وهو نقض صريح لما تفاهم عليه ساداتهم من البيعة وتتويج الملك عليهم ، وأيضاً ليكونوا بطاعتهم للرسول قد خرجوا عن طاعة ساداتهم وملئهم وكبرائهم ، والتوجه إلى طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم وهو أمر قد تم التأكيد عليه .

٤ - السلطة التي تحاسبهم أن أحسنوا أو أساءوا هو الله تعالى . منهم سيفنادرون مكة إلى مكة بلدهم وليس فرق رؤسائهم سلطة تأخذهم وتردعهم إن عصوا ، وتجزئهم إن أحسنوا فقد ترك رسول الله هذه القضية لضمائرهم ومراجعة الله تعالى لهم فلم الجنة إن وفوا ، وإن عصوا فأصابهم من عقاب الله في الدنيا فهو كفارة لهم ، وإن ستروا على ما عيهم أو تنفذ هذا العهد فلا أمر كله لله تعالى إن شاء غفر وإن شاء عذب .

أمر هذه البيعة جد هام وخطير وسحب الناس من عاداتهم وتقاليدهم وتحولهم إلى طريق الإسلام أمر فيه صعوبة بالغة وثانياً فإن نتائجه جد خطيرة

لقد رضى هؤلاء عهدهم ودخلوا بعزيمة قوية في الإسلام ، وتخلوا بسهولة من كل الرواسب الجاهلية - بايعوا الرسول صلى الله عليه وسلم على بنود لها في حياتهم الشير من الرواسب والخلفيات لكنها طرحت جانباً دون العودة إليها واجتمعت في نفوسهم قوة الوفاء والصدق لتكون شيئاً كبيراً في تاريخ الإسلام .

فلما انصرف القوم عنه بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي وأمره أن يقرئهم القرآن ، ويحلّمهم الإسلام ، ويفقههم في الدين ، فكان مصعب يسمى المقرئ في المدينة ، وكان منزله على أسعد بن زرارة . قال ابن اسحاق : فحدثني عاصم بن عمرو بن قتادة أنه كان يصلي بهم ، وذلك أن الأوس والخزرج كره بعضهم أن يؤمهم بعض (١) وقد روى البيهقي عن ابن اسحاق قال : فحدثني عاصم بن عمرو بن قتادة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما بعث مصعبا حين كتبوا إليه أن يبعثه إليهم ، وهو الذي ذكره موسى بن عقبة كما تقدم ، إلا أنه جعل المرة الثانية هي الأولى . قال البيهقي : وسياق ابن اسحاق أم (٢) فلما انصرفوا راجعين إلى بلادهم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم ابن أم مكتوم واسمها عاتكة وأسمه عمرو ، وقيل عبد الله ، وهو ابن خال خديجة بنت خويلد أم المؤمنين رضي الله عنها ، قال النعماني : غزا رسول الله ثلاث عشرة غزوة ما فيها غزوة إلا واستخلف ابن أم مكتوم على المدينة ، وكان يصلي بهم وليس له رواية . ومصعب بن عمير يعلم من أسلم منهم القرآن ، ويعلمانهم أي من أراد أن يسلم الإسلام ويفقهانهم في الدين ، ويدعوان من لم يسلم منهم إلى الإسلام ، وهذا ما في أكثر الروايات ، وهو يفيد أنه صلى الله عليه وسلم بعث بهما معا ، ويدل ماروي عن البراء بن عازب رضي الله عنه أن أول من قدم علينا من أصحاب رسول الله مصعب بن عمير وابن أم مكتوم فجعلنا يقرئان الناس القرآن .

وفي رواية أن رسول الله بعث مصعبا حين كتبوا إليه يبعث إليهم وفي رواية ثم بعثوا إلى رسول الله معاذ بن عفراء / رافع بن مالك رضي الله عنهما أن يبعث علينا رجلا من قبلك يفقهنا ويدعو الناس بكتاب الله . فبعث إليهم مصعب وكان يقال له المقرئ ، وهو أول من تسمى بهذا الاسم ، وهذا يدل على أن مصعبا لم يكن معهم .

أقول وقد يقال : لامنافة لأنه يجوز أن يكونوا كتبوا وأرسلوا إليه عليه السلام بذلك عند خروجهم من مكة وقبل أن ينصرفوا منها راجعين إلى المدينة ، والاقتضار على مصعب لا ينافي ما تقدم من ذكر ابن أم مكتوم معه ، ثم رأيت ما يبعد الجمع الأول وهو من ابن اسحاق أن رسول الله إنما بعث مصعب ابن عمير بعدهم ، وإنما كتبوا إليه أن الإسلام قد فشا فبينا فابعث إلينا رجلا من أصحابك يقرئنا القرآن ويفقهنا في الإسلام ويعلمنا نسبه وشراعه ، ويؤمنا في صلواتنا فبعث مصعبا وما يبعد الجمع الثاني وهو ما نقل عن الواقدي أن ابن مكتوم قد وفد على المدينة بعد بدر بيسير

(١) السيرة النبوية - ابن هشام ٢ / ٢٦ - ٢٧ (٢) السيرة النبوية - ابن كثير ٢ / ١٨٠

وقد يقال : لامنافة في ذلك لأنه يجوز أن يكون كل من مصعب ابن عمير وابن أم مكتوم رجعا إلى المدينة فجاء إليهم مصعب وتخلف ابن أم مكتوم فليتأمل ذلك والله أعلم وهذه المبايعة يقال لها العقبة الأولى لوجود تلك المبايعة عندها . ولما قدم مصعب المدينة نزل على أبي أمامة أسعد بن زرارة دون بقية رفقته (١)

لقد خفف علينا الرواة البحث عن أرسل رسول الله إلى المدينة مصعب لوحده أم هو وابن أم مكتوم والذي يهمننا هو أن الأوس والخزرج كما ورد كره أن يؤتم بعضهم بعضا . وهذه واحدة وهي المهمة لما بين الحيين من العاصي القريب من الثارات ونتائج الحروب ، والثانية وهي أمر طبيعي جداً أن يكون المبعوث أو المبعوثان إلى المدينة جاء ليقرا الناس القرآن ، ويعلموهم الإسلام ويفقهوهم في الدين ، وإن أن أهل يثرب حديثي عهد بالإسلام لا يعلموا كثيراً عن تعاليمه ، وما نزل حتى ذلك الوقت من القرآن ومناسبة الآيات ودلالاتها وأمر الرسول صلى الله عليه وسلم ونواهيها كان كل ذلك في مكة ، ويتطلب ذلك دعاء قد عايشوا هذه الرحلة ورووها تماما . وكان اختيار الرسول لرجلين من صلب قريش أمر بالغ الأهمية ، فقد يكونا هما الأنفة أو مساهبان لخيرهما من الصحابة في مكة ، وتأمير مصعب على هؤلاء النفرا الجدد من المسلمين ورضا الطرفين من أهل يثرب أمر له دلالة التي سنوردها في بحوث لاحقة إن شاء الله . فالأمر الأول : إمامة الصلاة هي الأهم في مجال البحث حتى الآن لأنها فكرة جديدة في علاقة القوم السياسية وعلاقتهم في الدعوة الجديدة .

أقام مصعب عند أسعد بن زرارة وهو من الخزرج وقريب الصلة مع الأوس إن أنه يملك صلة قرابة بالرجل البارز في الأوس في ذلك الوقت سعد بن معاذ ، الصلة بين الرجلين متقدمة جداً ، وهو اختيار موفق من عدة جهات أولها أن أسعد بن زرارة يعتبر أول الدعوة من يثرب يتصدر العمل الإسلامي وجلب الأتصار والبيعة للرسول تلو البيعة وثانيهما أن علاقته بسعد بن معاذ قد تحميه من بعض الثارات التي كانت للأوس على الخزرج وهو أحد المستهدفين من الأوس ، والنسيء الآخر أن أسعد كان نشيطا فطنا داعية متحمساً وشكل كبير لهذه الدعوة . أصبح مصعب بن عمير ممثلاً للرسول في المدينة ، وله يؤول الأمر إن ألمت بجماعة المسلمين أي طارئ ، وسيعرض الرهط إلى العديد من المواقف التي تتطلب مقام أسعد وفطنته بالعلاقات الاجتماعية والسياسية والتي تمهد لكسب أنصار جدد للدعوة من الأوس ومن الخزرج على السواء ، وهو أمر يتطلب دراية وحسن معاملة ومعرفة لمقام الناس ومراتبهم .

وتأتي قضية أخيرة ذات أهمية بالغة وهي قضية صلاة الجمعة والإمام في هذه الصلاة وأول صلاة
جمعة في المدينة •

تتفق الروايات على أن مصعب بن عمير رضي الله عنه كان يؤم الأوس والخزرج لما بينهم من العداوة
كرهوا أن يؤم بعضهم بعضاً ، وجمع بهم مصعب رضي الله عنه أول جمعة في الإسلام قبل قدوم
الرسول لأنه صلى الله عليه وسلم لم يتمكن من إقامة الجمعة بمكة ، فأمرهم بإقامتها في المدينة
وكانوا أربعين رجلاً ، واشتهروا أن أول من جمع بهم أسعد بن زارة رضي الله عنه ، ولا مخالفة
لأن مصعب بن عمير كان عند أبي أمامة فكان هو بمثابة معاون له في جميع أموره ومنها صلاة
الجمعة فنسب تارة لهذا وتارة لذاك •

قيل بأنهم أقاموا الجمعة باجتهاد منهم من غير أمر من النبي ، وهذا خطأ مردود ، بل روى ابن
عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم كتب إلى مصعب بن عمير أما بعد : فانظر اليوم
الذي تجهر فيه اليهود بالزير لسبتهم أي اليوم الذي يليه يوم السبت فاجمعوا نساءكم
وأبناءكم فإذا حال النهار عن شطره فتقربوا إلى الله تعالى بركعتين ، فجمع مصعب عند الزوال
أي صلى الجمعة بهم واستمر على ذلك حتى قدم النبي صلى الله عليه وسلم وأسلم خلق كثير
من الأنصار على يد مصعب رضي الله عنه بعد أن اشتد عليهم أمره في أول مجيئه ، وكادوا
يقتلونه ثم هداهم الله (١)

قال ابن اسحاق : وحدثني محمد بن أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن أبيه عن أبي أمامة عن
عبد الرحمن بن كعب بن مالك قال : كنت قائد أبي كعب بن مالك حين ذهب بصره ، فكنت إذا
خرجت إلى الجمعة نسمع الأذان بها صلى على أبي أمامة (أسعد بن زارة) فكنت حيناً على
ذلك لا يسمع الأذان للجمعة ، إلا صلى عليه واستغفر له ، قال : فقلت في نفسي والله إن هذا
بي لعجزاً لا أسأله ماله إذا سمع الأذان للجمعة صلى على أبي أمامة • قال : فخرجت يوم
الجمعة به كما كنت أخرج فلما سمع الأذان للجمعة صلى عليه واستغفر له • فقلت له : يا أبا
مالك إذا سمعت الأذان للجمعة صليت على أبي أمامة ، قال : أي بني كان أول من جمع بنا
بالمدينة في هنئ البنيت من حرة بني بياضة يقال له نقيع الخصمات • قلت : وم أنتم يومئذ ؟
قال : أربعون رجلاً (٢)

لقد أقام المسلمون الجمعة وعدد هم أربعون من الأنصار قد يكون بينهم عدد ضئيل جداً من
المهاجرين فإنه لم يثبت حتى إقامة أول صلاة للجمعة ، وانفرد صاحب السيرة الحلبية بذكر أن
إمامة الصلاة في المهاجرين كانت لغير مصعب ، ولعل هذا وقع بعد بيعة العقبة الثانية

(١) السيرة النبوية - دحلان ١/٢٨٩ • (٢) السيرة النبوية - ابن هشام ٢/٧٧ •

السيرة النبوية - ابن كثير ٢/١٨١ • الروس الانف ٢/١٨٥

عندما أخذ المهاجرون يتدفقون إلى المدينة فرادى وجماعات ، أما عند إرسال مصعب بن عمير وابن أم مكتوم فان كل المسلمين كانوا من الانصار ومهمة مصعب تفقيه وتعليم وإقامة صلاة الجمعة فيمن أسلم من اهل يثرب .

وكان سالم مولى أبي حذيفة رضي الله عنه يؤم المهاجرين بقبا قبل أن يقوم رسول الله وكان مصعب يؤم القوم (أي الأوس والخزرج) لأن الأوس والخزرج كره بعضهم أن يؤمه بعض . وجمع بهم أول جمعة جمعت في الإسلام قبل قدمه صلى الله عليه وسلم (١)

إن إمامة الصلاة في الإسلام قيادة أخروية (عبادة) ودينية أيضا ، وكون الأئمة في هذه الفترة من قریش فيه بعض الدلالات أهمها أن الأوس والخزرج كان بهم من هو قادر على الإمامة ولكنهم كرهوا ذلك لما ورد بعدم رغبة أحد الفريقين أن يؤمه الفريق الآخر . ومن هذه الدلالات أنهم قد أسسوا قيادة لهم للرسول صلى الله عليه وسلم ولمن اختاره لهم رسول الله ، وآمنوا وصدقوا . لقد بلغت أول جمعة أربعين رجلا عدا النساء والأطفال معنى ذلك أن المسلمين قد أصبحوا قوة متماسكة في المدينة وكلهم من الأوس والخزرج عدا مصعب بن عمير ، وكون أهل يثرب كادوا أن يقتلوا مصعباً فهو اللطم بأنه جاء يحدث فتنة أو يخرب على ما اتفق عليه القوم من تنصيب عبد الله بن أبي ملكة ، وربما كان الأوس هم الذين حاولوا ذلك فلنا منهم أيضاً أن حماية الخزرج له وهو من صلب بني هاشم يعني أن حلفاً قد نشأ مع بني هاشم - جريا على الأعراف المعتادة - لكن الله تعالى جعل مصعباً هداية وإماماً وقارئاً ومبلغاً لرسالة الإسلام بين هؤلاء القوم .

٣ - الدعوة الإسلامية في يثرب

لاقت الدعوة الإسلامية في يثرب قبولا وتشجيعاً كبيرين ، فعند أن وصل مصعب إلى المدينة ، اتخذ المسلمون لهم خطا ثابتا وقويا أدى إلى انتشار الإسلام ، وازدياد عدد المسلمين بشكل ملحوظ ومع ما عتري الدعوة في بداية انتشارها من مقاومة من بعض الذين لم يفهموا مقصدها سرعان ما زالت هذه العقبات وحمل المعارضون لها لواءها ونشروها بكل قوة قل ما لافته حتى هذا التاريخ .

ويعتبر العام الذي انحصر بين البيعتين عاماً خيراً ملحوظاً محظوظاً للمسلمين وللدعوة نفسها ففي هذا العام دخل العدد الأكثر من الأوس والخزرج ، وطلت الدعوة كبار القوم فانحنوا لها راضين ودخلوا في هذا الدين مختارين ومن مشاهيرهم سعد بن معاذ وسعد بن عباد سيد الأوس والخزرج حملا الدعوة بقوة وإيمان راسخين حتى أن عبد الله بن أبي ملكة الأوس والخزرج غير المتزوج قد احنى رأسه ودخل الإسلام نفاقاً . أسلم أسيد بن حضير وأسلم كثيرون جداً حتى لم يبق بيت من بيوت الأوس والخزرج إلا وبه مسلماً أو مسلعة كما تحدثت كتب السيرة .

إن هذا العام الذي نحن بصدده أدى الى نتائج جد خطيرة ملموسة نجد آثارها في بنود بيعة العقبة الثانية والتي عرفت في التاريخ الإسلامي باسم بيعة الحرب تميزاً لها عن بيعة النساء ، فلولا القوة الكبيرة والدعم الهائل الذي لاقته دعوة الإسلام في يثرب لما نتج عنه هذا التأييد العظيم للرسول صلى الله عليه وسلم وهذا العام في الواقع هو الذي حول مجرى الدعوة إلى يثرب بقوة وجعل المدينة عاصمة الرسول وحلفائه أعواماً طويلاً غير بها أولئك أحداث التاريخ ومجسراًه . لهذا العام آثاره الكثيرة وصدد الوفوف على أهم أحداثه التي كانت سبباً لهذا النجاح المتواصل — حمل مصعب بن عمير (١) عب الدعوة بين أهل يثرب (٢) وتحمل من أجلها الكثير فهو العفري الذي تمكن من النفوس والقلوب وتمكن أن يملأ هذه النفوس وهذه القلوب بصفاء الإسلام وسماحته فقد جذب إلى هذه الدعوة العشرات وتعداها إلى خانة العشرات في ظروف قاسية من ظروف الدعوة التي جندا لنازورون لها كل طاقاتهم وإمكاناتهم ، فخطى مصعب خطوات أخرى تثبت أركان الشريعة الإسلامية في قلوب متشوقة متعطشة .

اكتفى المؤرخون القدماء ولحقهم المحدثون بذكر إسلام سعد بن معاذ وأسيد بن حضير في محصلة مسلمي هذا العام ، وبرزت الرواية بشكل دراماتيكي فيه بعض عناصر التشويق ، وسواءً أكانت كما رويت أو بأسلوب آخر لكن المهم هو أن هذا اللقاء يعتبر في مقدمة الأعمال الهامة والرائعة التي أنجزها مصعب بن عمير في المدينة ، واعتبر لقاءها هذا مع مصعب فاصلاً في حياتهما وحياة تومهما وحياة يثرب كلها . وفي ساعة واحدة فقط إلا ودور بني عبد الأشهل قد تحولت إلى الإسلام . ولقد أخذ جميع ناقلي الخبر عن ابن اسحاق ، ولانستطيع أن نقف عند هذا الحدث كما ورد فإن وراءه أبعاد كثيرة وكبيرة . نسلم نحن الآن بان إسلام الرجلين كان سريعاً ، ولكننا لانسلم بحال هذه النقلة السريعة جداً في بني عبد الأشهل إن أن بعضاً منهم قد تأخر إسلامه كثيراً فان أصحيم^{من} بني عبد الأشهل قد لحق بالمسلمين في أحد واستشهد يومها ولم يعلي لله صلاة واحدة (٣) . كما ورد في أخبار أخرى أيضاً ، وحري بنا أن نقف هنيهة ثانية أمام السبب الذي كرهه المؤرخون دائماً القاضي بإسلام أهل يثرب وهو سماعهم من اليهود خبر النبي وسرعتهم للإيمان بهذا النبي قبل أن تسبقهم إليه يهود . . فإن الرسول جاء للناس كافة وحتى لليهود

أنفسهم فهل السباق يمنع أحد المتسابقين للدخول في الإسلام؟ مع أن السباق في الإسلام يعطي

(١) الاصابة — العسقلاني ٤٢١/٣ (٨٠٠٢) . (٢) اخن ابونعيم في الدلائل ص ١٠٥

من طريق الواقدي عن اسحاق بن حباب بن يحيى بن العلي قال : قال علي بن ابي طالب رضي الله عنه وهو يذكّر الأنصار وفضلهم وسابقتهم ثم قال : إنه ليس بمؤمن من لم يحب الأنصار ويحرف لهم حقوقهم ، هم والله ربوا لإسلام كما يربي الفلوال (المهر القليل) في غنائمهم بأسياهم وطول ألسنتهم ، وسخاء أنفسهم . حياة الصحابة — الكاند هلوى ٧٦ / ١

(٣) السيرة النبوية — ابن هشام ٩٥ / ٣

ومع انه سبب وجيه لكن يجب علينا أن نربط العصر بالأحداث المتتابعة الأخرى التي كانت تلف أهل يثرب والحجاز وجزيرة العرب والعالم ، وهو اتجاه الزمان إلى فترة نور بعد اشتداد الظلام ، وتحطيم القيم وكثرة الحروب والأوبئة ، وشهد العالم وقتها كوارث طبيعية وبشرية وكل هذا لم يكن أهل يثرب بعيدين عنه .

ثم إن اضمحلال بريق الإيمان الوثني الذي وجد قبولا في وقت من الأوقات عند العرب بدأ يخبرو ويموت في النفوس ويودع غير مأسوف عليه وعلى فراقه ، وفوق هذا فإن رحمة الله في عباده قد هيا للبشرية منعطفاً جديداً فأرسل رسوله ، وأيده ونصره ، وهيا له المؤيدين والأنصار . كما أن تفني الوثنية والشرك وازدياد الحروب وباسم الدين ، وانحراف أصحاب الديانات السماوية وتحولهم إلى صف الشرك والكفر ، وبروز عدد من المشاكل الصعبة التي لم يعد الإنسان قادراً على إيجاد حلول لها مقنعة ، وتوجه الناس إلى التمييز بين الحق والباطل والحسن والقبيح ، وهذا ما أصاب أهل يثرب ، عند ما فكروا بتعمير أحد هم عليهم كعقد صلح دائم بينهم بعد حروبهم الطويلة واختاروا هذا الطريق لأنه الأوفى وقتها ، لكنهم عندما وجدوا الأفضل والأحسن طرحوه جانباً وتبنوا عقيدة الإسلام وبهذا الشكل السريع الذي أوردته كتب السيرة ، على الرغم من أن هذا الموضوع الذي كان معقوداً له باعتراف في مكة من تنظيم لثرونها وتوزيع لوظائفهم — قد تأخر تركه والأخذ بتعاليم الإسلام ، أما بالنسبة لأهل يثرب فإن ما بينهم وما بين الملكية في بداياته ولم يزال في مرحلة الكلام .

إن تفتح عقل الناس من جهة ، وتأكيده اليهود الضالين والمخضوب عليهم ، والذين خبرهم اليهوديون تماماً من خلال الاحتكاك المتواصل بينهم والذي زاد على مثني عام سابقة لظهور الإسلام والخبرة التي وصلت إلى حد القطع وبأن دعوة اليهود باطلة ، وأعراف اليهود أنفسهم بأن دينهم قد انحرف عن أصله ، وتأكيدهم بأن النبي القادم سينشر العدل والأمن ويرق الظلم ، وهم قد انغمسوا بهذه الصفات إلى آذانهم وبأن ما حل بهم لم يكن إلا نتيجة انحرافهم عن سلوك أنبيائهم فإن أهل يثرب قد فرقوا بين هذين الأمرين ، مارأوه من يهود وما خبروه منهم وسمعه عن هذا الدين سابقاً ولاحقاً . فلم يكن سعد بن معاذ قد سمع لأول مرة بهذا الدين (دين الإسلام) ليدخل به فجأة وبدون مقدمات ، ولكنه سمع به قبل ذلك ، ربما من أخيه إياس بن معاذ الذي وفد إلى يثرب للحلف^(١) كما سمع أخبار هذا الدين من مكة أو حتى من يثرب ، فلم يكن الرجل قد أغلق بابه على نفسه حتى استدج إلى بئر حني بني ظفر كما سيرد لاحقاً ، وسمع من مصعب بن عمير وينقلب من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين في فترة وجيزة جداً .

لقد سمع من أخيه ومن غير أخيه ، وقلب المرازين ، وعرف الطرين ، فقد كان زعيماً في قومه

وهو الذي بادر بشجاعة نادرة وحى أبناء عمه الخزرج من قومه الأوس عندما أراد قومه أن يحرقوا عليهم دورهم ونخيلهم . لقد كان الحسن أن يكون هو ملك يثرب بدلاً من عبد الله بن أبي الذي آثر السلامة بالابتعاد عن الحرب ، أما سعد فقد خرج من الحرب زعيماً مقدماً للأوس منتصراً على الخزرج ولكنه وهو ممتلئاً يقيناً بأن حال قومه يجب أن لا يبقى على ما هو عليه ، ورضي بأن يكون ابن أبي ملكة وهو من خصومه على أن تستمر العداوة والقتال في الحرب .

لقد كانت أخبار الدعوة الإسلامية قد سبقت كما تحدثنا إلى يثرب ولحل سعد بن معاذ قد سمع بها وحلل أبعادها وناقشها في نفسه ، ومن المعروف أنه كان يقرأ ويكتب ، وكان يجلس مع اليهود طويلاً ويعقد معهم الحلف ويستأنس بأرائهم ، وخبر تجاربهم وتاريخهم ، ووقف مواقف شجاعة منهم بعد إسلامه بعيداً عن ردود الفعل فقد كان الرجل حليماً فطيناً بعيداً من التأثر برد الفعل وإلا لكان الأولى له أن ينادى بالملكية له وهو المنتصر والأقرب في يثرب بعد بعثات .

لقد نَسَّ اللهُ صدر الفوم للإسلام * فَعَنْ يَرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَسَّرَ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يَرِدْ أَنْ يُغَيِّرَهُ يُبْعَثْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّكَ يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (١)

إذا ضاقت صدور قريش فلم يقبلوا هذا الإسلام جعلتهم فلأمر أراده الله تعالى وحتى يميز الخبيث من الطيب فقد كان فضل الله كبيراً على أهل يثرب أن هداهم إلى هذا الدين وجعلهم أنساره رحمته .

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم مصعب بن عمير معهم (مبايعوا العقبة) يقرئهم القرآن فأسلم على يديه السعدان سعد بن معاذ سيد الأوس وسعد بن عباد سيد الخزرج فأسلم لإسلامهما كثير من قومهما (٢)

قال ابن اسحاق : إن أسعد بن زرارَةَ خرج بمصعب بن عمير رضي الله عنهما يريد به دار بني عبد الأشهل ، ودار بني ظفر ، وكان سعد بن معاذ بن النعمان بن امرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل ابن خالة أسعد بن زرارَةَ . فدخل به حائطا من حوائط بني ظفر . قال ابن اسحاق هشام : واسم ظفر كعب بن الحارث بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس ، قال : على بشر يقال لها بشر مرق (٣)

فجلسا في الحائط واجتمع إليهما رجال ممن أسلم ، وسعد بن معاذ وأسيد بن حضير يومئذ سيدا قومهما من بني عبد الأشهل وكلاهما مشرك على دين قومه . فلما سمعا به قال :

(١) سورة الانعام آية ١٢٥ . (٢) حدايق الانوار - الشيباني ٤٠ / ١

(٣) ياقوت الحموي قال في معجم البلدان (بشر مرق) بالمدينة . ذكر في الهجرة وروى بسكون

سعد بن معاذ لأسيدي بن حضير^(١) انطلق الى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارنا
ليسفيها ضعفاءنا فاجرهما ، وانهمما عن أن يأتيا دارنا فانه لولا أن أسعد بن زراره مني حيث
قد علمت كفيتك ذلك . هو ابن خالتي ولأجد عليه مقدماً^(٢)

وفي رواية قال له : ائت أسعد بن زراره فاجرهما ليكف عنا ما نكره ، فإنه بلغني أنه قد جاء بهذا
الرجل الخريب يسفه ضعفاءنا ، فانه لولا أسعد بن زراره مني حيث علمت لكفيتك ذلك هو ابن خالتي
ولأجد عليه مقدماً . فأخذ أسيدي بن حضير حرته ثم أقبل عليهما ، فلما رآه أسعد بن زراره قال
لمصعب بن عمير : هذا سيد قومه فاصدق الله فيه . فوقف عليهما وقال : ما جاء بنا إلينا ؟
تسفيهان ضعفاءنا ، اعتزلانا إن كان لكما بأنفسكما حاجة . . .^(٣)

وروي الطبراني مراسلا في خبر طويل قال فيه عن عروه : ثم بعثوا (الأنصار) إلى رسول الله صلى
الله عليه وسلم أن ابعت إلينا رجلاً من قبلك يدعو الناس بكتاب الله ، فانه أدنى أن يتبع . فبعث
إليهم رسول الله مصعب بن عمير ، فنزل في بني غنم على أسعد بن زراره فجعل يدعو الناس
ويفسر الاسلام ، وهم في ذلك مستخفون بدعائهم ، ثم إن أسعد بن زراره أقبل هو ومصعب بن عمير
حتى أتيا (مرقا) أو قريبا منها ، فجلسا هناك ، وبعثا إلى رهط من أهل الارض ، فأتوا
مستخفين ، فبينما مصعب بن عمير يحد ثوبهم ويقص عليهم القرآن أخبر بهم سعد بن معاذ فأتاهم
في لامته ومعه الرمح حتى وقف عليه فقال : غلام يأتينا في دارنا ؟ هذا الوحيد الطريد الغريب
ليسفه ضعفاءنا بالباطل ويدعوهم ، لأراكما بعد هذا بشي من جوارنا فرجعوا ، ثم إنهم عادوا
الثانية بئر (مرق) أو قريبا منها فأخبر بهم سعد بن معاذ ثانية فترعد هم بوعيد دون الأول ،
فلما رأى أسعد منه اللين قال : يا ابن خاله اسمع من قوله ، فان سمعت منكراً فاردده بأهدى
منه ، وإن سمعت خيراً فأجب اليه ، فقال : ماذا يقول ؟ فقرأ عليه مصعب " حَمَّ • وَاللَّيْلِ الْمُبِينِ •
إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ " .^(٤)

فقال سعد : ما أسمع الا ما أعرف فارجع وقد هداه الله ، ولم يظهر أمر الاسلام حتى رجع إلى قومه .
فدعا بني عبد الأشهل إلى الاسلام وأظهر اسلامه ، وقال : من شك فيه من صغير أو كبير
فليأتنا بأهدى منه ، فوالله لقد جاء أمر لتخرن فيه الرقاب فأسلمت بنو عبد الأشهل عند اسلامه
ودعائه .

(١) أسيدي بن حضير بن سماك (حضير الكتاب) الذي عقر ناقته في بعث وأقسم على الثبات حتى

قاد قومه للنصر ومات بعد الحرب متأثراً بجراحه .

(٢) السيرة النبوية - ابن هشام ٢ / ٧٨ - السيرة النبوية - ابن كثير ٢ / ١٨٢ - وفاة الزهراء -

السمهودي ١ / ٢٢٥ - السيرة الحلبية - علي الحلبي ٢ / ١٢ - الرض الأتف - السهيلي ٢ / ١٨٦

(٣) السيرة النبوية - دحلان ١ / ٢٩٠

(٤) من سورة الزخرف آية ١ - ٣

إلا من لا يذكر ، فكانت أول دار من دار الأنصار أسلمت بأسرها • ثم إن بني النجار اشتدوا علي أسعد بن زرارة ، وأخرجوا مصعب بن عمير ، فانتقل إلى سعد بن معاذ ، فلم يزل يدعوهم ويهدي علي يديه حتى قلَّ دار من دار الانصار إلا أسلم فيها ناس •

وأسلم أشراهم ، وأسلم عمرو بن الجموح ، وكسرت أصنامهم ، فكان المسلمون أمراهم يرجع مصعب بن عمير إلى رسول الله ٠ ١٠٠٠ هـ (١)

أما بقية رواية ابن اسحاق ، أن سعداً بن معاذ قد أمراً سيد بن حضير أن يذهب إليهم باعتبار قرابته من أسعد بن زرارة ، قال : فأخذ أسيد بن حضير حرمة ، ثم أقبل اليهما ، فلما رآه أسعد بن زرارة ، قال : لمصعب بن عمير ، هذا سيد قومك فجاك فاصدق الله فيه ، قال مصعب : إن يجلس أكله • قال : فوقف عليهما متشتما ، فقال : ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا ؟ اعتزلانا إن كانت لكما في نفسيكما حاجة ؟

فقال له مصعب : أوتجلس فتسمع فإذن رضيت أمراً قبلته ، وإن كرهته فكف عنك ماتكوه ، قال : انصفت ثم ركز حرمة وجلس إليهما فكلمه مصعب بالإسلام ، وقرأ عليه القرآن فقالا فيما يذكر عنهما : والله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم في إنساقه وتسهله ثم قال : ما أحسن هذا الكلام وأجمله كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين ؟ قال له : تغتسل فتطهر وتظهر توبييك ثم تشهد شهادة الحق ، ثم تصلي فقام فاعتسل وطهر ثوبيه ، وتشهد شهادة الحق ثم قام فركع ركعتين ، ثم قال لهما : إن ورائي رجلاً إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه وسأرسله إليكما الآن ، سعد بن معاذ ، ثم أخذ حرمة وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس في ناديهم ، فلما نظر إليه سعد بن معاذ مقبلاً قال : احلف بالله لقد جاءكم أسيد بخير الوجه الذي ذهب به من عندكم ، فلما وقف على النادي قال له سعد : ما فعلت ؟ قال : كلمت الرجلين فوالله مارأيت بهما بأساً وقد نهيتهما فقالا : نفعل ما أحببت ، وقد حدثت أن بني حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه ، وذلك أنهم عرفوا أنه ابن خالتك ليخفرك •

قال فقام سعد مغضباً مبادراً تخوفاً للذي ذكر له من بني حارثة ، فأخذ الحرمة بيده ثم قال : والله ما أراك اغنيت شيئاً ، ثم خن اليهما • فلما رأهما سعد مطمئنين عرف أن أسيداً إنما أراد منه أن يسمع منهما ، فوقف عليهما متشتما ، ثم قال لأسعد بن زرارة : يا أبا أمية أما والله لولا ما بيني وبينك من القرابة ، مارمت هذا مني • •

(١) رفاة الوفا - السهمودي ١/ ٢٢٥ - ٢٢٦ • السيرة النبوية - دحلان ٢٩١ خ

اتخشنا بديارنا مانكره ٢٠٠

وقد قال أسعد بن زرارة لمصعب بن عمير : أي مصعب جاءك والله سيد من وراءه من قوم —
إن يتبعك لا يختلف عنك منهم اثنان

قال : فقال مصعب : أوتعد فتسمع فإن رضيت أمراً ورغبت فيه قبلته ، وإن كرهته عزلنا عنك ماتكره؟
قال سعد : أنصفت ، ثم ركز الحربة وجلس ، فعرض عليه الإسلام ، وقرأ عليه القرآن .

قالا : فعرفنا ٠٠ والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم لإشراقه وتسهيله ، ثم قال لهم — :
كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين ؟ قالوا : نتغسل فتطهر وتطهر توييك ثم

تشهد شهادة الحق ، ثم تصلي ركعتين ، قالوا : فقام فاغتسل وطهر ثوبيه وتشهد شهادة الحق
ثم ركع ركعتين ثم أخذ حريره فأقبل عامداً إلى نادى قومه ومعه أسيد بن حصير . قال : فلما

رآه قومه مقبلاً قالوا : تحلف بالله لقد رجح إليك سعد بخير الوجه الذي ذهب به من عندكم

فلما وقف عليهم قال : يا بني عبد الأشهل كيف تعلمون أمرى فيكم ، قالوا : سيدنا (وأوصلنا)

وأفضلنا رأياً ، وأيمننا نقيّة ، قال : فان كلام رجالكم ونساءكم علي حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله

قالا : فوالله ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً أو مسلمة (١)

ورجح أسعد ومصعب إلى منزل أسعد بن زرارة ، فأقام عنده يدعو الناس إلى الإسلام حتى لم

تبق دار من دور الأنصار إلا فيها رجال ونساء مسلمون ، إلا ما كان من دار بني أمية بن زيد

وخطلمة ووائل وواقف ، وتلك أوس الله ، وهم من الأوس بن حارثة ، وذلك أنه كان فيهم أبو قيس

الأسلت وهو " صيفي " وكان شاعراً لهم ، قائداً ، يستمعون منه ويطيعونه فوقف بهم عن الإسلام ،

فلم يزل على ذلك حتى هاجر رسول الله إلى المدينة ومضى بدرًا وأحد والخندق ، ورأى فيما

رأى من الإسلام ما اختلف الناس فيه من أمره

أرب الناس أنباء أعت يلف الصعب فيها بالدلول

أرب الناس أما إذ فعلنا فيسرنا المعروف السبيل

فلولا ربنا كنا يهودا وما دين اليهود بنى شكول

ولولا ربنا كنا نصارى مع الرهبان في جبل الجليل

ولكننا خلقنا إذ خلقنا حنيفا ديننا عن كل جيـل

(١) السيرة النبوية — ابن هشام ٢/٢٩٦ — ٨٠ . السيرة النبوية — ابن كثير ٢/١٨٢
وفاء الوفا — السمهودي ١/٢٢٢ . الروي الآنف — السهيلي ٢/١٨٦ . السيرة الحلبية —
١٤/٢

نسوق الهدي ترسف مذعنات مكثفة المناكب في الجبل

قال ابن هشام : انشدني قوله : فلولا رينا ، وقوله لولا رينا ، وقوله : مكثفة المناكب في الجبل رجل من الانصار أو من خزاعة (١)

وسبب تأخر إسلام أبي فيس الأسلت ما ذكره بعضهم أنه لما أراد الإسلام عند قدوم الرسول المدينة لقيه ابن ابي سلول وكلمه بما أغضبه ونفره عن الإسلام ، وقال أبو قيس : لأتبعه إلا آخر الناس فلما احتضر أرسل إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قل لإله إلا الله اشفع لك بها . . . فقالها (٢)

مع اختلاف الروايات في سرد القصة إلا أن المنزى واحد وهو أن إسلام أسيد بن حضير وسعد بن معاذ رضي الله عنهما كان فاتحة خير وبركة للإسلام في المدينة ، ومع أن أهل المدينة لم يدخلوا الإسلام طغرة واحدة كما هو متصور نتيجة السد الكبير في مكة والانفتاح الخير في المدينة فإن مقاومة كبيرة تظهر في صفراء الأوس والخزرج كلاهما ضد هذه الدعوة ، ونستطيع أن نقف على الكثير من الأحدا - التي تزيد هذا الرأي . فبعد أن اطمان مصعب بن عمير لإسلام بني عبد الأشهل ، وأثر الأوس شنت الخزرج حملته على أسعد بن زرارة حتى اضطر أن يخرن مصعباً من بيته ويتجه إلى بيت سعد بن معاذ فان حمى سعداً له لاطائل للخزرج به أو منعه وكذلك وقوف أصحاب الملك الخير متوج وهو نفسه عبد الله بن أبي في وجه الراغبين بالدخول في هذا الدين كما أشرنا في السابق - نستطيع أن نستخلص من العقبان التي وقعت في وجه انتشار الدعوة في المدينة بشكل متكامل والتي لم تكن بحال من الأحوال كاللذنب والقوة التي لقيتها هذه الدعوة في مكة ، ولكن مع هذا فان مقاومة منظمة سيظهر أثرها البعيد ، وخاصة أن رأى اليهود حتى ذلك التاريخ لم يتخذوا الموقف المحايد من الرسول صلى الله عليه وسلم ومن الإسلام بعد .

ومقاومة أهل يثرب جاءت نتيجة للراسب والأحداث التي كانت في المدينة قبل أن يدخلها هذا الحدث الكبير ، والكثير من أهلها أرجأ دخوله الإسلام في الواقع ولم يرفضه تماماً ، وحتى هذه اللحظة فان الذين دخلوا في الإسلام أصبح بإمكانهم أن يشكلوا القوة الأكثر عدداً وتنظيماً من بقية الفئات الأخرى ، وأصبح بإمكانهم ومعقد ردهم أن يتخذوا القرارات المسيرية التي ستؤثر بها المدينة ككل ولم يعد الأمر مقتسراً على قلة من الناس مضطهدة تنفياً السلامة وتبحث عن الأمن وتعيش في الخوف وقد ظهر هذا جلياً عندما قرر هؤلاء الذين دعوا الرسول إلى المدينة فقرروا بذلك مصيرها إلى أحقاب طويلة دون الالتفات إلى معارضة غير المرجئين ، رغم كثرتهم ، دون النظر إلى

(١) السيرة النبوية - ابن هشام ٢/٢٩٦ - ٨٠ وامتاع الاسلم - المقرئ ١/٢٤

(٢) السيرة النبوية - ابن هشام ٢/٢٩٦ - ٨٠

اليهود الذين يقعون في الصف الثاني والمقام المتدني في سلم الفاعليات في يثرب رغم كثرة عدد هم وتعدد قبائلهم .

تخطى هؤلاء المسلمون كل الاعتبارات والأعراف السابقة ، وقاموا بأعمال أهلهم لأن يكونوا سادة المدينة ، واستطاعوا أن يعطوا عهداً وميثاق بالغة التأثير في حياتهم وحياة المدينة والمسلمين وهذا ما حدث بالفعل في بيعة العقبة الثانية .

نستطيع القول بأن المدينة قد أسلمت قيادها لهؤلاء المؤمنين ، ربما لم يكن عدد دم كبيراً جداً حتى يمكن أن يسيطروا على مرافقها كلية ، ولكنهم كانوا من التلاحم والقوة والبأس ما جعلهم في موقع مكثف من السيطرة الفعلية عليها والذي مهد لقيام دولة الإسلام فيها .

وقد أورد الكثيرون سبب نجاح هذه الدعوة الكبير إلى الكثير من الأحداث لظنهم أنها تاركين لأصحابها حسن استنتاجهم رأيهم .

وعاش المسلمون في مكة أصعب فترة في حياتهم ، عاشوا مهددين في أرواحهم ، محرومين من حقوقهم يتوقعون نزول الموت أكثر مما يتأملون بالحياة ، وكان ترهب المشركين في مكة بالمؤمنين واضطهادهم أكبر عامل على توقف تيار الدعوة في مكة ، وأعظم مؤثر في صد الناس عنها . حتى كانت القبائل ترد رسول الله حين يعرض عليهم الإسلام يقولها : (أسرتك وعشيرتك أعلم حيث لم يتبعوك)

وعلى العكس من مكة كانت المدينة ، حيث تهيأت فيها الظروف ، واستعدت النفوس لقبول الدعوة الجديدة ، وتوفرت الدواعي التي مهدت لاستقرار الدين في قلب المدعوين ، فلم يكبح رسول الله يعرضه على قبائل الأنصار حتى اشرببت له الأعناق ، وتطلعت إليه القلوب ، وحمله أهل المدينة مخافة أن يسبقهم اليهود . وتتلخص أسباب نجاح الدعوة في المدينة فيما يأتي .

١ - تهيئاً لأذهان لاستقبال الدين الجديد :

كان وجود اليهود في المدينة سبباً من أسباب تهيئة الجو ، وإعداد النفوس لتقبل الدين الجديد فقد كانوا أهل كتاب ، وكانوا ينشرون تعاليم دينهم ، (١) ويعيبون الوثنية وأهلها ، ويخوفون الناس من يوم تنتد في الأهوال يقف فيه الناس بين يدي الله عز وجل ، ويحاسبهم على ما اكتسبوا من الأعمال ، فيحسن إلى المحسنين بإدخالهم جنات النعيم ، ويعاقب المسيئين بإدخالهم دار الجحيم ، كما كانوا يتوعدون العرب بظهور نبي آخر الزمان وسيبعث بدين سماوي يوافق دينهم ، ويحطم الأوثان ويحارب من يعبدها .

كذلك كانت الخصومة بين الأوس والخزرج من جهة واليهود من جهة ثانية سبباً آخر من أسباب استعداد العرب للدخول في هذا الدين . حيث كان اليهود يهددون الأنصار بأنهم سينضمون إلى هذا

(١) من المعروف أن الديانة اليهودية لا تنشر بالدعوة ولكن بالوراثة ، ولم يقع بين اليهود مبشرين في الماضي والحاضر ويعتمدون على صفا عروقتهم ولا يقبلوا أن يعتنق ديانتهم أحد من الأميين

النبي عند ظهوره .

لقد كان في نشر تعاليم الدين اليهودي وتردد ذكرين القيامة وما فيه من الحساب والعقاب والجنة والنار ، والتدبير بالأصنام ، والاعتراف بوجود إله واحد هو وحده - سبحانه - المستحق للعبادة كل ذلك كان تهيئة للنفس ، وشحذا للعقل ، ومقدمة لاستقبال تعاليم الدين الاسلامي . فان الذي سيلقى عليهم من تعاليم لا يخرج عن ذلك ، فتكون النفس قد سمعته وألفته ، فلا تفاجأ بشيء جديد لم تألفه . الخ

ب - نجاح الأوس والخزرج في السيطرة على المدينة :

كان الأوس والخزرج قبل معرفتهم الإسلام قد نجحوا في السيطرة على الأضلاع الداخلية في المدينة حيث تغلبوا على اليهود وأخضعوهم لسياستهم حتى رضوا بالعيش معهم كموالي لهم ، وبذلك أصبح موقف الأوس والخزرج موقف السيد المسيطر منهم لا يخافون من أحد ، بل ولا يحسبون حسابا إذا هموا بفعل شيء .

وكان نجاح الأوس والخزرج (١) السياسي في المدينة سببا قويا من أسباب نجاح الدعوة الإسلامية فيها حيث دخلها الإسلام على أيد قوية تملك التصرف في شؤونها ، وتستطيع أن تقرر مسيرها دون أن ترجع الى غيرها في ذلك . ويقبولهم واستجابتهم لما دعاهم إليه الرسول عليه السلام يكون قد دخل المدينة من باب واسع لا يراحمه فيه شيء ، ولا يستطيع أحد أن يعترض على دخولها إليها أو يقف في طريق المؤمنين به .

وبذلك تكون قد تهيأت الفرص لأن يستمع الناس للدين الجديد وأن يتدبروه بعقول حرة لم تكبل بأغلال الظالمين السابقين عن سبيل الله ، وكان نتيجة ذلك أن أقبل الناس على الإسلام ، وأعتقه سادة القوم وأشرفهم ودخل فيه المنصفون حتى من اليهود أنفسهم (٢)

٤ - بيعة العقبة الثانية وآثارها السياسية

عام واحد فقط ما بين العقبة الأولى والثانية كان حافلا بالأحداث العظام ، فعدا عن إسلام الكثير من أهل يثرب والأوس بخاصة وبني عبد الأشهل بخالبيتهم ، فان تفكير القوم قد تغير تماما ، تغير في يثرب عندما أخذ سعد بن معاذ مصعب بن عمير إلى بيته ، ذلك الفتى الذي وضعه بالتشرد وخلق الفتنة قبل أن يفتح الله صدره للإسلام ، ثم تحول إلى تابع له يتبعه في الصلاة ويسمع منه ويتعلم ، تغير في نفوس القوم الكثير والكثير جدا .

وقف الرهط لاثني عشره عند حد في بيعتهم الأولى عرفوا حدودها واماناتهم ، فلم يخطوا خطوة تبطئهم أو تعين مسيرتهم . بايعوا بيعة النساء واكتفوا بما عندهم من قوة وبأس وتحمل . آمنوا بالرسول وهدقوه واتبعوا ما أمرهم به وكانوا على يقين أنهم سلكوا مدارج الرقي وسيصلون إلى مجالات

(١) بالأصل " الانصار "

(٢) موسوعة المدينة - الركيل ١٥ / ٢ - ١٦

أرحب وأوسع . ومع أن عدد هم كان ضعف من سبقهم بعلم لكنهم أصبحوا القوة الحقيقية في المدينة أصبحوا هم الذين يسيرون دفة الحياة وفيها وقد ينقدهم بعض التنظيم وانتقال القائد إليهم وبذلك يمكن أن يقيموا دولتهم بقوة وثبات وعزيمة وما مملكتهم السابقة إلا أصحاحات أحلام طردت من عقولهم وتجاوزوا زمانهم كثيرا ، وتبخر من عقولهم فكر الجاهلية وحدودها وتأثيرها وحرورها .
إن هذا العام حيث أسعد حامياً ومصعب داعياً قد أسلما لهما قياد الرجال ، وأخضع لهما تغيير القادة وجعلها في مأمن يعملون بحرية وأمان .

أعطى هذا العام نتائجه إذ نضج ثمره ، وكثر عطاؤه ، ودخل الإسلام القلوب المتعلقة التي صدته لكنها هي نفسها لم تتمكن من أن تصمد أمام نوره المشرق فافتحت جوانبها ، وكلام المؤرخين الذي ثبتوه وتداولته الأجيال يؤكد هذه الحقيقة . قالها سعد بن معاذ عند عودة أسيد بن هذيل أحلف بالله لقد عاد إلينا بخير الوجه الذي ذهب به ، وأند هذه الحقيقة المأل الذي عاد إليهم سعد بعد إسلامه وبغيرهم غيرهم عادوا بخير الوجه التي ذهبوا بها ، عادوا بوجه مؤمنة صادقة وتركوا وجوه الضلالة والسرور . استعادت هذه الوجوه صفاءها بنور الإسلام وتحولهم إلى دعاة له . أنتج هذا العام وأعطى ثمرأ ناضجاً ، وهيار جالات قادرين على تحمل المصاعب والشدائد ، وهم مستعدون الآن لأن يتجاوز بيعتهم الأولى إلى أخرى وأمتن منها .
في هذا العام بين البيعتين يمكن أن نقول بأن تحولاً صارخاً وحاداً جرى في يثرب ، فكرياً وسياسياً وعقائدياً وانتماءً .

أما التحول الفكري فإنه ولأول مرة تفتحت العقول إلى سماع أقوال ليست بأقوال البشر وليست من معطيات الماضي والحاضر ، ليست شعراً وليست نثراً وليست مقولة . . . إنها شيء آخر تماماً بسرعة وسرعة فائقة جداً بذت كل ما كان متداولاً بين الناس ، وطرحت كل ما تعارف عليه الناس وتفكروا على تعظيمه والاستدلال به ، لم تلغ من ذاكرة الناس ما عندهم ، بل ثبتت وبأسلوب عجيب كسل ما يتسار وتوافق من إنسانية الإنسان ، وعقلانية الإنسان ، وتفكير الإنسان .
ومسحت من الذاكرة البشرية كل ما هو تافه ، وكل ما يدل على التذني والأنانية والتأثر ، كلمات الله تعالى لم تطلق آذان الوثنيين وترتد ، ولكنها تجاوزتها إلى عقولهم فخيرتها ، واقتضى تغييرها تبدل ملامح وجوههم ، وسحنات أشكالهم ، فلم تعد تلك الوجوه كما كانت عليه بالأمس ذات النزاع والانعفالات والتحرك للتأثر والحديث عن العصبية .

تغيرت أفكار الناس وتحولت بزوايا مصادرة تماماً ، طرحت أفكاراً توارثها الناس منذ أن انحرفوا عن ملة سيدنا إبراهيم عليه السلام ، وما وجدوا في اليهودية الممسوخة ما يسد هذا الفراغ ، فساروا في مآهاتهم إلى أبعد الحدود ، دون أن تقوم هي أرائهم السابقة بمهمة إيقاف هذا التردى والتدهور بل على العكس تركت الناس يتوهون ويفرقوا في مآهات عقلانية وفكرية أتفه ، ولم يقدم

مفكروا اليهود إلا الانغلاق والتعوق على أنفسهم ، وترك الناس من أصدانهم وأوتانهم وتخلف عقولهم والنسرانية التي انتقلت إلى مرحلة السراع بين أتباعها لم تقدم هي الأخرى للوثنيين من العرب شيئاً جديداً لأنها هي تحولت إلى وثنية وشرك ، ولم يكن لدى النصارى من الحرية الفكرية كما يمكن لهم أن يكونوا مبشرين قادرين على جذب الاتباع وتحويل الوثنيين ، ودخول بعض قبائل العرب بها كانت له ظروفه وأسبابه فلم يكن إيماننا بقدر ما هي اتباع سياسي أو قبلي .

تلمس البعض لا الكلال الحنيفية وهي تراث أمة العرب ولكن لم يجدوا فيها أو على الأقل الباقي منها عبارة عن متوارث كتيب وأفقدته أصله ، وأبقت على الأسماء والمسميات .

قال ابن اسحاق ، وسعيد بن يحيى الأثرى في معارضة : كان أبو قيس بن الأسلت قد ترهب في الجاهلية ولبس المسحى ، وفارق الأوثان ، واغتسل من الجنابة ، وتظهر من الحائض من النساء ، وهم بالنسرانية ، ثم أمسك عنها ، ودخل بيتاً له فاتخذ مسجداً لا يدخل فيه حائض ولا جنب وقال : عبد إله إبراهيم حين فارق الأوثان كلها . حتى قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم فحسن إسلامه ، وكان شيخاً كبيراً ، وكان قولاً بالحق معظماً لله في جاهليته ، يقول في ذلك اشعاراً حسناً وهو القائل :

يقول أبو قيس وأصبح غادياً	ألا ما استطعتم من وصاتي فافعلوا
فأوصيكم بالله والبر والتقوى	وأعراضكم والبر بالليله أول
وإن قومكم سادوا فلا تحسدوهم	وإن كنتم أهل الرياسة فاعدلوا
وإن نزلت إحدى الدواهي بقومكم	فأنفسكم دون العشيرة فاجعلوا
وإن تاب عن فادح فارقوهم	وما حملوكم في الملمات فاحملوا
وإن أنتم أمعزتم (١) فتعففوا	وإن كان فصل الخير فيكم فافضلوا

ولقد أوردت كتب السيرة أشعاراً كثيرة وله غير هذه (٢)

وجاء الإسلام الوريث الوحيد لدين إبراهيم الحنيف ليقضي على ما علن بهذا الدين من ترهات وماحل بجنباة من ترسبات جاء بأسلوب حديث ليكون أيضاً جامعاً خير كل الأديان السابقة مكملاً لكل نواقصها العقائدية والتشريعية ، خاتماً لها مقراً بفضل انبيائها والعاملين المؤمنين من أتباعها وجاء الإسلام ليصحح كل ما انحرفت إليه هذه الديانات بدءاً من الحنيفية وما جاء بعدها من رسالات وليتجنب كل السقطات التي عانت منها الأفكار الدينية والأفكار الدنيوية من مختلف جوانبها إن المسلمين الجدد في يثرب قد تخلصوا بسرعة من أفكارهم وآرائهم ، لم يجادلوا كثيراً دفاعاً عن مورثاتهم ، لكنهم وبكل سهولة وساطة طرحوها جانباً وتقبلوا بشور وشغف كل ما جاء به الإسلام من تعاليم دون تردد إلا القليل الذين آثروا الترتيب ، ليس طاعة لأنفارهم

فأفكارهم قد انهزمت مع من انهزم ، ولكن التزاما بمصالح وجدوا أنها ستزول وتذهب ويحل محلها إطار آخر لمجتمع فاضل آخر ، فارتكزوا على مصالحهم عليها تسندهم إلى حين ، وبعضهم تمسك بها حتى مات ، وآخرون تريتوا ثم استسلموا ، فأسلموا ، وحسن إسلامهم .
وأما التحول السياسي ، فهو واضح تماما ، إذ ترك الناس مداولاتهم في مجالسهم وندواتهم أخبار ابن أبي الملك المقبل ، ومجتمع المدينة الملكي ، والتزموا وراء غريب جاءهم من مكة اسمه مصعب بن عمير يصلون وراءه ، يقضون أوقاتهم معه ، يسمعون منه ويتعلمون . ينظرون إلى مستقبل حكم الله وحكومة الإسلام .

هذا الملك الذي سيستفيد منه — كحال الملوك في أي وقت — من تقريب الأوصياء والأتباع والاستيلاء والحرس والحاشية ، وانزوى من تفكيرهم هذا المنطق تماما والذي أشغلهم فترة من ترصين التاج وتتويج الملك ، وعمل المواسم ، وعقد البيعة . . . الخ تحولوا إلى ذلك الدين السهل الهين الطيب ، الذي يخاطب العقول والقلوب والنفوس والأفئدة فيهمزها وينخلعها ويخلصها من الشوائب والمخلفات التي ربما تؤثر في عوائدها ، وتؤثر في نتائجها ، وبذلك فقد كان هذا التوجه نجرا أسلوب جديد لم يكن فيه حد واضح حتى تلك اللحظة ، ولكن مرتكزاته النيرة كقيلة بأن يكون البنيان الذي سيشتد على هذه المرتكزات بناء متكاملا واضحا ثابتا دائما ، لا يستطيع بحال عقل بشر أن يحيط بجزء بسيط منه ومن جوانبه .

وبذلك فقد تغيرت توجهات الناس وأحاديثهم ، ولم يعد اليهود يشغلون الناس بتذكيرهم بأيامهم ونبيهم ماضيهم وطالبي ولساطاتهم والمستدينين بالربا منهم ، وإنما وجدوا أن الدين لم يستطيعوا أن ينالوا من حياتهم شيئا قد خرجوا عن مخططاتهم مرتين ، واحدة عندما استدلوهم وقهرهم وأخضعهم لسلطانهم ، والثانية عندما اعتقدوا دينا غير دينهم وجاءهم علم أصبح أمامه عليهم مجرد ترهات وهم الذين كانوا يعتبرونه ذخيرتهم وكسوزهم وأسرارهم . جمدا هم عليه وانطلق البيثيون من الأوس والخزرج إلى الإسلام إلى عوالم الخير والبركات ، إلى عوالم الإيمان والإسلام .
والعجيب أن هذا التحول لم يكن فرديا كما كان يهرب أفراد في السابق من الوثنية إلى أي شيء سواها بل كان جماعيا ، جمع المتخاصمين في بيت واحد في صف واحد وأصحاب النار في صلاة واحدة ودفاع واحد ، ومضى ما علق في ذهن الناس من انتماءات قبلية كانت تسير حياتهم وتأخذ بأفكارهم وأسلسوا لها قيادهم ، ويحدون ثانية إلى حروب ما أن تنتهي إلا لتبدأ . أسقطت من أذهانهم ذلك التناظر العجيب البغيض ، وتزاحمت المناكب بالصلاة الجماعية يؤمهم فيها غريب عنهم لكنه هو المعلم وهو القارئ فأصبح هو المناع فيهم كانت مهمته محددة وهي تغذية الناس وجلب الأنصار لكتهم مع هذا وجدوا فيه بعض الصفات القيادية فالتزموا بها فهو ممثل رسول الله بينهم

فطاعته طاعة للنبي صلى الله عليه وسلم ، فالبعض قد رأى الرسول والأخريين يتلهفون شوقاً لهذا الملتقى حيث سيكون للرسول وقتها القائد والرسول والإمام والمعظم والمعطى فيهم ويقوم على بركة الله ولتتمهم •

وأما التحول العقائدي فقد سبب القول بأن أنظار الناس قد تركت الفئرة الوثني الموروث الثقيل وما ترتبط به من عادات وتقاليد ، ورثها الناس فلنا منهم أنها من بقايا دين إبراهيم عليه السلام وما هي في الحقيقة إلا جرائر الشيطان ، أسدس له الناس قيادهم ، فأرهمهم بأوثان وأصنام ورموزاً اعتقدوا أن بها خلاصاً ، ويقينهم أنها لا تخفي شيئاً ، ولكن الخائف دائماً يتمسك بالوهم حتى يتخلص من مخافته وهو واجسه • أرادوا قبل الإسلام ديناً فعا أشبههم ما أحاط بهم من أديان ، فكان أسرع شيء يمكن أن يتركوه ولا يتأسفون له هو الوثنية التي لم تتعلق بنفوسهم إلى معاسك ضحلة • وما أن سمعوا بصوت التوحيد حتى كان ما في نفوسهم من معتقدات بآلهة سابقة تجر مع القادورات ، وتلقى في مسالك العارفين حاضرة محتقرة •

لقد ترك الناس الإنتماء إلى الأوس والخزرج ، وإلى بني فلان وفلان ، وإلى الأطم والفنرل والمدينة وأخذ كل منهم طريقه إلى مكان فيه عز الدنيا والآخرة ، الإنتماء إلى الإسلام الذي جعل من حياتهم عنواناً آخر لصفات الإنسان والجماعة المحاطة بعناية الله والآخرة بما أنزل الله ، والعقادة لرسول الله •

طال هذا العام عليه القوم كما طال نساءهم وأطفالهم وبيدهم ومواليهم حتى بعث اليهود فمن آمن ومنهم من أصر على كفره وضلاله حتى خذله الله كما نرى في الأحداث التالية في المدينة • لم يكن عدد المسلمين بسيطاً ، ولم يكن أمر تخفيفهم ليطول أكثر من أيام وأسابيع انتقلوا بعدها إلى الجهم والتحدى ، وكسب الأنصار والأتباع بزمن قياسي ليضيف إلى العهد الأول عهداً أوثق وأشد وأمتن • قال ابن اسحاق : ثم إن مصعب بن عمير رجع إلى مكة^(١) ورجوعه ليمهد اللقاء العقبه الثانية ، وليعطي الرسول صلى الله عليه وسلم تقريره عن عمله خلال هذا العام ، ليعطيه كسفاً بالدين فتح الله عليهم من فضله فأسلموا ، فكانت مهمة مصعب في سفارته هذه شاقة لكنهما منتجة وناجحة ومباركة ، جاء إلى الرسول يحمل البشري ، لم يعد كما عاد مسلموا الحبشة الذين تمكنوا من المحافظة على حياتهم وتخلصوا من عذاب قريش بل عاد مصعب يحمل البشري بأن آفاق يثرب قد فتحت أمام الدعوة لتكون البداية لتفتح أبواب الدنيا • جاء مصعب ليخبر الرسول بأن القوم قادمون يحملون في جعبتهم أفكاراً جديدة ويضمئن الرسول بأن ما كلف به قد نفذ بحذافيره وأن مقادير يثرب نادى تحت أيدي المسلمين وحدهم •

وان القوم جاؤوا قوة موحدة جاؤوا جيلا من المسلمين جد يدأ غير الإسلام أشغالهم وحياتهم وهم عسبة من الناس آمنت واسلمت ولا يقف في وجهه إيمانها وإسلامها أي صعب . . .
وخرج من خرج من الأنصار من المسلمين إلى الموسم مع حجاج قومهم من أهل الشرك حتى قدموا مكة فواعدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم العقبة من أواسط أيام التشريق ، حين أراد الله بهم ما أرادوا من كرامته والنصر لنبيه ، وإعزاز الإسلام وأهله . (١)

قال ابن اسحاق : حدثني سعيد بن كعب أن أخاه عبد الله بن كعب حدثه ، أن أباه كعب بن مالك حدثه قال : ثم خرجنا إلى الحج وواعدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم العقبة من أواسط أيام التشريق قال : فلما فرغنا من الحج ، ولاننت الليلة التي واعدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لها ومعنا عبد الله بن حرام أبو جابر سيد من ساداتنا وشريف من أشرفنا ، أخذناه معنا ، وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين أمرنا فكلعناهم وقتلنا له يا أبا جابر : إنك سيد من ساداتنا وشريف من أشرفنا ، وإنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطبا لل نارغدا ، ثم دعوناها إلى الإسلام وأخبرناه بجميع ما رسول الله إيانا العقبة ، قال : فاسلم وشهد معنا العقبة وكان نقيباً (١) . وقد روى البخاري ، حدثني ابراهيم ، حدثنا هشام أن ابن خريج أخبرهم قال عطاء قال جابر . أنا وأبي وخالاي من أصحاب العقبة ، قال عبد الله بن محمد : قال ابن عينية أحدهما البراء من معرور ، حدثنا علي بن المديني ، حدثنا سفيان ، قال : كان عمرو بقول : سمعت جابر بن عبد الله يقول : شهد بي خالاي العقبة .

وقال الامام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن ابن خثيم ، عن أبي الزبير عن جابر قال : مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة عشر سنين يتبع الناس في منازلهم بعدكاه ومخبة في الموسم يقول : من يؤمني ؟ من ينصرني ؟ حتى أبلغ رسالة ربي وله الجنة فلا يجد أحداً يؤمنه ، ولا ينصره حتى أن الرجل ليخرج من اليمن أو من مصر - كذا . . .
قال فيه فيأتيه قومه ودورحهم فيقولون : احذر غلام قريش لا يفتلك ويضي بين رجالهم وهم يشيرون إليه بالأصابع .

حتى بعثنا الله إليه من يثرب فأرسلناه وهدقناه ، فيخن الرجل منا فيؤمن به ويقرئه القرآن فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه حتى لم تبقى دار من دور الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين يظهرون إسلامهم ، ثم ائتمروا جميعاً . . . فقلنا : حتى متى نترك رسول الله صلى الله عليه وسلم يطوف ويطرد في جبال مكة ويخاف . . . فرحل إليه منا سبعون رجلاً حتى قدموا عليه المرسم فواعدناه شعب العقبة ، فاجتمعنا عندها من رجلين حتى توافينا (٢)

(١) السيرة النبوية - ابن هشام ٢ / ٨١ = ٨٢

(٢) السيرة النبوية - ابن كثير ٢ / ٩٤ - ٩٥

قال : فمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا حتى اذا قضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله نتسلل تسلل القظلامستخفين ، حتى اجتمعنا بالشعب عند العقبة ، ونحن ثلاث وسبعون رجلا ومعنا امرأتان من نساءنا نسيبة بن كعب (١) (أم عمارة) إحدى نساء بني مازن بن النجار واسماء بنت عمرو بن عدى بن نابي ، إحدى نساء بني سلمة وهي أم منيب (٢)

قال : فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جاءنا ومعهم العباس بن عبد المطلب وهو يومئذ على دين قومه ، إلا أنه أحب أن يحضر أمرا بن أخيه ويتوثق لسه ، فلما جلس كان أول متكلم العباس فقال : يا معشر الخزرج - وكانت العرب إنما يسمون هذا الحي من الأنصار الخزرجي خزرجها وأوسها - ان محمداً منا حيث علمتم ، وقد منعناه من قومنا ، ممن هو على مثل رأينا فيه ، فهو في عز في قومه ، ومنعة في بلده ، وأنه قد أبى الا الانحياز اليكم واللحوق بكم ، فان كنتم تررون انكم وافرون له بما دعوتكم ، وما منعوه من خالفه فانتم وما تمنعتم من ذلك . وان كنتم تررون انكم مسلموه ، وخالفوه بعد الخروج به ، اليكم فمن الآن فمعوه فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده .
قال : فقلنا له : قد سمعنا ما قلت فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت .

فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلى القرآن ودعا إلى الله ، ورجب بالإسلام ثم قال : أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم .

قال : فأخذ البراء بن محرز بيده ثم قال : نعم والذم بعثك بالحق نبيا لنمنعك مما تمنع منه أزنا . فبايعنا يا رسول الله ، فنحن أبناء الحروب وأهل الحلقة ، ورتناها كآبر عن كآبر .
قال : فاعتز القول والبراء يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ابوالهيثم بن التيهان فقال : يا رسول الله ، إن بيننا وبين الرجال حبلاً ، وإنا قاطعوها - يعني اليهود - فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟

(١) هي امرأة زيد بن عاصم ، شهدت بيعة العقبة ، وبيعة الرضوان ، كما شهدت بين اليمامة وياشرت القتال بنفسها وشاركت ابنها عبد الله بقتل مسيلمة فقطعت يدها ، وجرحت اثني عشر جرحا ، ثم عاشت بعد ذلك دهرا . يروى أنها قالت لرسول الله ما أرى كل شيء إلا للرجال وما أرى للنساء شيئا فانزل الله تعالى : " إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ " . حاشية سيرة ابن هشام ٨٤ / ٢ - الطبقات - ابن سعد ٤١٢ / ٨

(٢) تكفي أيضا ام (هبات) تزوجها (ابوشباب) خديج بن سلامة بن أوس بن عمرو فولدت (شباب ليلة العقبة) ، وشهد العقبة خديج ومعه امرأته أم منيب ، أسلمت وبايعت وشهدت خيبر مع الرسول صلى الله عليه وسلم . الطبقات - ابن سعد ٤٠٨ / ٨ - الرؤس الانف - السهيلي ١٨٨ / ٢ و ٢٠١ / ٢ - امتاع الاسماع - المقرزي ٣٥ / ١ - السيرة الحلبية - علي الحلبي ١٦ / ٢

قال : فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : بل العم الدم والهدم الهدم ، أنا منكم
وأنتم مني أحارب من حاربتهم ، وأسالم من سالمهم . . .

قال ابن هشام : ويقال : الهدم الهدم : يعني الحرمة : أى نمتي ذمتكم ، وحرمتي حرمتكم (١)
فقلنا — أى الانصار — : يا رسول الله علام نبأ يدك ؟ . . .

قال : تبأيعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل ، والنفقة في العسر واليسر ، وعلى
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأن تقولوا في الله لا تخافون لومة لائم ، وعلى أن تنصروني
فتنصروني ، إذا قدمتم عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبنائكم . . . ولكم الجنة .
فقمنا إليه فبايعناه .

وأخذ بيده أسعد بن زرارة وهو من أصغرهم

وفي رواية البيهقي ، وهو أصغر السبعين إلا أنا . فقال : رويدا يا أهل يثرب ، فانا لم نضرب
إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله ، وإن إخراجهم اليوم منا وراة للعرب كافة وقتل
خياركم ، وإن تعضكم السيوف ، فإما أنتم قم تنصرون على ذلك فخذوه وأبركم على الله ، وإما
أنتم قم تخافون على أنفسكم خيفة فذروه ، فبينوا ذلك هو أذركم عند الله .

قالوا : أئيطعنا يا سعد : فوالله لاندع هذه البيعة لانسلبها أبدا

قال : فقمنا إليه فبايعناه ، وأخذ علينا بشرط وعطينا على ذلك الجنة .

وقد رواه الإمام أحمد أيضا والبيهقي عن طريق داوود بن عبد الرحمن العطار

وقال الإمام أحمد أيضا : حدثنا سليمان بن داوود ، حدثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد ، عن
مرسى بن عبد الله عن أبي الزبير عن جابر قال : كان العباس آخذا بيد رسول الله صلى الله
عليه وسلم يرافقنا ، فلما فرغنا قال رسول الله : أخذت وأعظيت .

وفي رواية قال رسول الله للنقباء من الانصار ثوروزي وتمنعوني ؟ قالوا : نعم فمالنا ؟ قال :

الجنة (٢)

(١) السيرة النبوية — ابن هشام ٨٤ / ٢ — ٨٥ — الروض الاندلسي — السهيلي ١٨٩ / ٢ .

عيون الاثر — ابن سيد الناس ١ / ١٩٨ . امتاع الاسماع — المقريزي ١ / ٢٥ . السيرة الحلبية —

علي الحلبي ١٦ / ٢ . وفاة الرضا — السمهودي ١ / ٢٢٩ . السيرة النبوية — دحلان ١ / ٢٩٢ .

(٢) السيرة النبوية — ابن كثير ١٩٥ / ٢ .

وقد وردت سيخة العهد بأقوال غير ما ذكر ويشرن لاتتعدى مجال الأسس العامة التي تتم الحديث عنها قبل البيعة ، وهي الشروط التي اشترطها الرسول صلى الله عليه وسلم لنفسه ولجهره ، والتأكيدات التي جاءت من مختلف آراء المبايعين .

وعندما تكلم العباس بما ذكر قالوا له : قد سمعنا مقاتلك فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت ، وفي رواية خذ لنفسك ما شئت ولربك ما أحببت وفي رواية خذ لنفسك ما شئت . فقال النبي : أمرى لربي عز وجل أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، ولنفسى أن تمنعوني ما تمنعون به أنفسكم وأبناؤكم .

قال ابن روضة ، فإذا فعلنا فما لنا ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لكم الجنة قالوا : رب البيع ١٠٠ ال البيعة

قال كعب بن مالك : وقد كان قال رسول الله : أخرجوا إلي منكم اثني عشر نغيبا ليكونوا على قومهم بما فيهم ، فأخرجوا اثني عشر نغيبا تسعة من الخزن وثلاثة من الأوس

قال ابن هشام : من الخزن فيما حدثني زياد بن عبد الله البكائي عن محمد ابن اسحاق

١ - أبوا مامة أسعد بن زارة بن عدس بن عبيد بن ثعلبة بن غنم بن مالك ابن النجار وهو تيم الله بن ثعلبة بن عمرو بن الخزن

٢ - سعد بن الربيع بن عمرو بن أبي زهير بن مالك بن امرئ القيس بن مالك بن ثعلبة بن كعب بن الخزن بن الحارث بن الخزن

٣ - عبد الله بن روضة بن ثعلبة بن امرئ القيس بن ابن عمرو بن امرئ القيس الأكبر بن مالك الأغر بن ثعلبة بن كعب بن الخزن بن الحارث بن الخزن

٤ - رافع بن مالك بن العجلان بن عمرو بن عامر بن زريق بن عبد حارثة بن مالك بن غضب بن جشم بن الخزن

٥ - البراء بن معمر بن صخر بن خنساء بن سنان بن عبيد بن عدى بن غنم بن كعب بن سليمة بن سعد بن علي بن أسد بن ساردة بن يزيد بن جشم بن الخزن

٦ - عبد الله بن عمرو بن حرام بن ثعلبة بن حرام بن كعب بن غنم بن كعب بن سلمة بن سعد بن علي بن أسد بن ساردة بن يزيد بن جشم بن الخزن .

٧ - عبادة بن الصامت بن قيس بن أحرم بن فهر بن ثعلبة بن غنم بن سالم بن عرب بن عمرو بن الخزن

٨ - سعد بن عبادة بن دليم بن حارثة بن أبي خزيمة بن ثعلبة بن طريف ابن الخزن ابن ساعدة بن كعب بن الخزن

١ - المنذر بن عمرو بن خنيس بن حارثة بن لوزان بن عبد ود بن زيد بن ثعلبة بن الخزرج بن ساعدة بن كعب بن الخزرج .
قال ابن هشام ويقال : ابن خنيس
ومن الأوس :

١ - أسيد بن حضير بن سماك بن عتيك بن رافع بن امرئ القيس ابن زيد بن عبد الأشهل بن جشم بن الحارث بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس .

٢ - سعد بن خشيمة بن الحارث بن مالك بن كعب بن السماط بن كعب بن حارثة بن غنم بن السهم بن امرئ القيس بن مالك بن أوس .

٣ - رفاعة بن عبد المنذر بن زبير بن زيد بن أمية بن زيد بن مالك بن عوف بن مالك بن الأوس
قال ابن هشام . وأهل العلم يعمدون فيهم أبا الهيثم بن التيهان ولا يعدون رفاعة
وقال كعب بن مالك يذكرهم فيما أنشدني أبو زيد الأنصاري

أبلغ أبيتاً أنه قال رأيه	وحان غداة الشعب والحين واقع
أبي الله ما منتك نفسك إن	بمرصاد أمر الناس رأءٍ وسامع
وأبلغ أبا سفيان أن قد بدا لنا	بأحمد نور من هدى الله ساطع
فلا ترغبين في حشد امر تريد	وألب وجمع كل ما أنت جامع
ودونك فاعلم أن نقضى عهدنا	أبان عليك الرهط حين تتابعوا
أباه البراء وابن عمرو كلاهما	وأسعد ياباه عليك ورافع
وسعد أباه الساعدي ومنذر	لانفك إن حاولت ذلك جادع
وما ابن الربيع إن تناولت عهد	بمسلة لا يطعمن ثم ظامع
وأيضاً فلا يحطيك ابن رواحة	وأخفاره من دونه السم ناقع
وفاء به والغوثي بن صامت	بمندوحة عما تحاول يافع
أبو هيثم أيضاً وفي مثلهم	وفاء بما أعطى من العهد خانع
وما ابن حضير إن أردت بمطمع	فهل أنت عن أحمومة التي نازع
وسعداً أخو عمرو بن عوف فإنه	ضريح لما حاولت ما أمر مانع
أولاك نجح لا يخبك منهم	عليك بنحس في دجى الليل طالع

قال ابن اسحاق : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للنقباء : أنتم على قومكم بما فيهم

كفلاء ، ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم : وأنا كفيل على قومي (المسلمين) .

قالوا : نعم (١) . قلت وذكر سعد بن معاذ وليس من النقباء بالنقبة في هذه الليلة .

(١) السيرة النبوية - ابن هشام ٨٦١ - ٨٨٠ السيرة النبوية - ابن كثير ١٩٦ / ٢ - ٢٠٠
البداية والنهاية - ابن كثير ١٦١ / ٣ فما بعد ، امتاع الاسماء - المقرئ ٣٧ / ١

وروى يعقوب بن سفيان ، عن يونس بن عبد الأعلى ، عن ابن وهب ، عن مالك قال : كان الأنصار ليلة العقبة سبعين رجلاً ، وكان نقيباً وهم اثني عشر نقيباً تسعة من الخزيم وثلاثة من الأوس .
وحدثني شيخ من الأنصار أن جبريل كان يشير إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى من يجعله نقيباً ليلة العقبة . وكان أسيد بن حضير أحد النقباء تلك الليلة (١) .

وفي رواية أنه صلى الله عليه وسلم قال لهم : إن مرسى أخذ من بني إسرائيل اثني عشر نقيباً ، فلا يحدث أحد في نفسه أن يؤخذ غيره ، فما يختار لي جبريل - أي لأنه عليه السلام حضر البيعة - فلما تخيرهم - أي النقباء وذكرهم المؤلف - كل واحد على قبيلة رضي الله عنهم أجمعين .
وقال عليه السلام لأولئك النقباء ، وأنتم كفلاء على غيركم ككفالة الحواريين لعيسي بن مريم وأنا كليل على قومي - يعني المهاجرين - .

وقيل : إن الذي تولى الكلام عن الأنصار وشد العقدة لرسول الله أسعد بن زرار ، أي وهو أصغرهم ، فإنه أخذ بيد النبي صلى الله عليه وسلم وقال : رويدا يا أهل يثرب ، إنا لم نصرب إليه أبداً إلا بل ، إلا ونحن نعلم أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن إخراجنا اليه مفارقة لجميع العرب ، وقتل خياركم ، وأن تعضكم السيف فإما أنتم قوم تهبرون عليها إذا مستم بقتل خياركم ، ومفارقة العرب كافة - أي جميعاً - فخذوه ، وأجركم على الله تعالى ، وأما أنتم تخلعون من أنفسكم خيفة فذروه فهو عذر لكم عند الله عز وجل .

فقالوا : يا أسعد إعطنا يدك فوالله لا نذر - أي لا نترك - هذه البيعة ، ولا نستقبلها - أي لا نطلب الإقالة منها - (٢)

قال ابن اسحاق : إن القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال العباس بن عباد بن فضيلة الأنصاري أخو بني سالم بن عوف : يا محشر الخزيم هل تدرين علام تباعون هذا الرجل ؟ قالوا : نعم ، قال : إنكم تباعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فإن كنتم ترون أنكم إذا أنهكت أموالكم مصيبة ، وأشرفكم قتلاً أسلمتموه ؟ فمن الآن ، فهو والله إن فعلتم خرى الدنيا والآخرة .

وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه ، فهو والله خير الدنيا والآخرة ، قالوا : فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف ، فعالنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفيما بذلك ؟ قال : الجنة . قالوا ابسط يدك ، فبسط يده ، فباعهم (٣)

(١) السيرة النبوية - ابن كثير ٢ / ٢٠٠ (٢) السيرة الحلبية - علي الحلبي ٢ / ١٨٠

السيرة النبوية - دحلان ١ / ٢٩٤

(٣) السيرة النبوية - ابن هشام ٢ / ٨٨ - ٨٩ . السيرة النبوية - ابن كثير ٢ / ٢٠١

وقالوا : رب البيعة ، ولانستقيل فنزل قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِآثَرٍ لَهُمْ فِي الْجَنَّةِ) (١)

والذين بايعوا هذه البيعة ، وعقدوا هذه الصفقة هم صفة مختارة ، ذات صفات مميزة ، منها ما يختص بذوات أنفسهم في تعاملها المباشر مع الله في التسعير والشعائر ، ومنها ما يختص بتكليف هذه البيعة في أعناقهم من العمل خارج ذواتهم لتحقيق دين الله في الأرض من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والقيام على حدود الله في أنفسهم وفي سواهم * أَلْحَائِدُونَ ، أَلْحَائِدُونَ ، أَلْحَائِدُونَ ، أَلْسَائِحُونَ ، أَلرَّكَّعُونَ ، أَلْسَاجِدُونَ ، أَلْأَمِيرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ، وَبَشِيرِ الْمُؤْمِنِينَ. (٢)

والآيات التالية في السياق تقطع ما بين المؤمنين الذين باعوا هذه البيعة ، وعقدوا هذه الصفقة وبين كل من لم يدخلوا معهم فيها ، ولو كانوا أولى قرى فقد اختلفت الوجهتان ، واختلف المعيران فالذين عقدوا هذه الصفقة هم أصحاب الجنة ، والذين لم يعقدوها هم أصحاب الجحيم واللقاء في دنيا ولا في آخرة بين أصحاب الجنة وأصحاب الجحيم ، وقرى الدم والنسب ، إذن لا تنسى رابطة ، ولا تسلم وشيخة بين أصحاب الجنة وأصحاب الجحيم (٣) وكانت هذه البيعة على حرب الأحمر والأسود ، فلما تمت بيعتهم استأذنوا رسول الله أن يعيلوا عن أهل منى بأسيا فبهم فقال : لم نؤمر بذلك (٤)

وأول من بايعه صلى الله عليه وسلم البراء بن محرز ، وقيل أسعد بن زرار ، وقيل أبو الهيثم بن التيهان ، ثم بايعه السبعون كلهم ، أي وبايعه المرأتان المذكورتان من غير مسافحة ، لأنه كان لا يصافح النساء ، إنما كان يأخذ عليهن ، فاذا أحرز قال : اذهب فقد بايعتكن - كما سيأتي - فكانت هذه البيعة على حرب الأسود والأحمر - أي الحرب والعجم - فهؤلاء الثلاثة لم يتقدم عليهم أحد غيرهم ، وحينئذ تكون الأولية فيهم حقيقة وإضافة ، أي وقال أن أبا الهيثم بن التيهان قال : أبايحك يا رسول الله على ما بايع عليه الإثنا عشر نقيباً من بني إسرائيل موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام .

وأن عبد الله بن رواحة قال : أبايحك يا رسول الله على ما بايع عليه الإثنا عشر من بني هار بن عيسى عليه السلام وقال أسعد بن زرار : أبايك عز وجل يا رسول الله فأبايحك على أن أممهم هدى بزفائي وأصدق قرلي بفعل بنصرك .

وقال النعمان بن حارثة : أبايك عز وجل يا رسول الله وأبايحك على الإقدام في أمر الله عز وجل

(١) سورة التوبة آية ١١١ . وفاة الرضا - السمعوني ١ / ٢٣١ . (٢) سورة التوبة آية ١١٢

(٣) الضلال - سيد قطب ٣ / ١٢١٤ . ابن كثير - تفسير ٢ / ٤٠٦ . القرطبي - تفسير ٨ / ٢٦٦

(٤) امتاع الاع - المقرئ ٢ / ٣٧

لأرأف فيه القريب ولا البعيد ، أى لأعامل فيه بالرأفة والرحمة .

وقال عبادة بن الصامت : أبايحك يا رسول الله على أن لاتأخذني في الله لومة لائم .

وقال سعد بن الربيع : أبايحك يا رسول الله ، بلى أن لأعسى لكما أمرا ، ولا أكذوكما حديثا (١) .

أخبرنا عمرو بن عثمان الرقي ، حدثنا زهير * حدثنا عبد الله بن عثمان بن خثيم عن اسماعيل بن عبد الله بن رفاعه عن أبيه قال : قدمترواياخمر ، فأتاها عبادة بن الصامت فخرقها وقال : إننا بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في النشاط والكسل والنفقة في العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعلى أن نقول في الله لاتأخذنا لومة لائم . وعلى أن ننصر رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قدم علينا يشرب مما نمنع به أنفسنا وأزواجنا وأبنائنا ولنا الجنة ، فهذه بيعة رسول الله التي بايعناه عليها (وهذا إسناد جيد قوى ولم يخرجوه (٢) فلما كانت ليلة العقبة الثالث الأول من الليل تسلل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان فبايعوا رسول الله خفيه من قومهم ومن كفار قريش ، على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبنائهم وأزواجهم . فكان أول من بايعه ليلتئذ البراء بن معرر وكانت له اليد البيضاء ، إذ أكد العقد ، وبادر إليه ، وحضر العباس عم الرسول صلى الله عليه وسلم مؤكدا البيعة (٣)

الآثار السياسية لبيعة العقبة الثانية

لم يرد في تاريخ العرب القديم قبل هذه البيعة مثيلاً لها ، كانت الأحلاف عبارة عن ردود فعل على أحداث طارئة أو حرب قائمة ، والأحلاف ما هي إلا طلب القوة للتأثر وللانتقام ، ولم يند في أي عهد جرى إلا انتظاراً لمختم ، أو دفعا لمخمر ، أو طلباً للتأثر ، إلا ما كان من حلف الفصول - ولم يعرف العرب قبلاً أن قوما تركوا كل ارتباطاتهم السابقة وعاهدوا وتعهدوا على السير في حياة جديدة تماما . . . ثمنها الجنة فقط إن وفوا . كما لم تشر الأحلاف والمعاهدات والتجمعات البشرية إلى أن العهد الذي قطعه الناس على أنفسهم قد نفذ بحدائيره ، بل كان ثابتاً أقوى وأكثر مما نعاهد عليه الناس .

بيعة العقبة الثانية كانت تحولا في تاريخ الإسلام أولا وحياة العرب ثانيا ، وحياة العالم كله وخدوسها في حياة سكان يشرب - على اختلاف انتماءاتهم - أوضحت الكلمات التي جرى تنبئتها من

(١) السيرة الحلبية - علي الحلبي ١٩ / ٢ . السيرة النبوية - دحلان ١ / ٢٩٥

(٢) البداية والنهاية - ابن كثير ١٦٣ / ٤ فما بعد

(٣) السيرة النبوية - الندوي ١٢٤ - ١٣٥ . زاد المعاد - ابن القيم ٣ / ٤٨

مصادرها أن أصحابها موفون بعهودهم قادرون على التزاماتهم ، صادقون في إيمانهم ، وكل الذين بايعوا أدركوا أبعاد هذه البيعة ، أدركوا أنهم قاطعون حبالاً كانت موصولة ، وأدركوا أنهم سيخارون الأبيض والأسود والأحمر ، وأدركوا أن العالم كله سينقلب عليهم ، ولكن شعورهم العجيب بقوتهم - على الرغم من قلة عددهم - قد جعلهم يستأذنون بالميل على أهل منى من العرب - المشركين - بأسيا فهم لشركهم وساللتهم • أدرك هؤلاء أن وشائج القرى والدم والعشير قد انتهت ، وأن صلة الإسلام هي التي حلت محلها بكل أبعادها وقوتها وثباتها تركوا ملكهم نائماً ، مع رغبتهم لو كان معهم في عقد هذه البيعة ، ولكن يظهر أنهم رغبوا عنه بعد ذلك وهو قريب منهم وقد تملكه العجب عندما سئل عن هذا الأمر فقال : ما كان قومي يقطعون أمراً بهذه الخطورة دون الرجوع إلي ، لكنه نام عن تحرك الدنيا التي كانت تتحرك وقتها باتجاه آخر لم يتمكن من إدراكه • وموقعه لم يعد له وزن في سياسة يثرب إلا أن يدخل في هذا الدين فينال شرف الإسلام ، وشرف خدمة الإسلام ، وشرف التسحية من أجله ، وليعلم أنه لم يعد هناك من قوم سيبيعون مخلصين له ، قادرين على أن يعيدوا إليه ما ظن أنه مازال قائماً وهو ملكية يثرب •

تركة نومه نائماً ودهبوا إلى محمد يبأيعوه بيعة الحرب التي فتحت أبواب التاريخ على مداها الواسع فهؤلاء قد تعهدوا بتقديم أموالهم وأرواحهم في سبيل الله • ولكن تمت البيعة ، فهم لم يهدؤ • طلب العباس من القوم أن يخفضوا أصواتهم فإن عيوناً ترصدهم وتسمع ما يقولون ولا يريد لهذا الأمر أن يكشف وقتها • تمت البيعة لكن ما رواها كان كبيراً •

١ - لقد صعد الشيطان صعقة هزت أركان الوادي فان أمراً كهذا قد صفعه في وجهه وقلبه ولما وقعت البيعة صرخ الشيطان من رأس العقبة بأشد صوت وأبعد • •

يا أهل الجباغب - أي بجيعة الأولى مفتوحة ، والثانية مكسورة ، وهذا كل جيم يا • مرحة وهي منازل منى ، وفي الهدى : يا أهل الأخاشب • • هل لكم في مذم والسبابة معه • • يعني بمذم : النبي صلى الله عليه وسلم لأن قريشا كانت تقول عنه مذم ، ويحني بالسبابة أصحابه الذين بايعوه • لأنهم كانوا يقولون عن أسلم صابي ، لأن السابي من دين إلى دين • وقد جاء : لا تعجبون كيف يسرف الله عني شتم قريش لعنهم يسبون مذمماً وأنا محمد - فانهم قد أبجعوا - أي عزموا - على حرركم •

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا أزب العقبة • • أي عد والله أما والله لأفرغن (١)

(١) أزب : أي الشيطان سمي بهذا الاسم المركب من العضاف والعضاف إليه عامرها : والأزب بالأصل الحفير ، ومن ثم رأى عبد الله بن الزبير رجلاً طوله شبران على بردعة رجله • فقال : ما أنت؟ قال : أزب قال : وما أزب؟ قال : رجل من البجن فضره على رأسه فهرب • وردت في السيرة - ابن شير - ٢٠٤ / ٢ (هذا أزب العقبة هذا ابن أزب •

وفي رواية لما بلغ الأنصار بالعقبة صاح الشيطان من رأس الجبل : يا معشر قريش هذه بنو
الأرض والخزني تحالفت على قتالكم . ففرغوا — أي الانصار — عند ذلك ، فقال رسول الله
لا يرد عنكم هذا الصوت ، وإنما هو وعد والله إبليس ، وليس يسمعه أحد ممن تخافون ، ولأنهم
من اجتماع صراخ " أذب العقبة " وصراخ إبليس الذي هو أبو اليمين ، ويجوز أن يكون المراد
بعد والله إبليس " أذب العقبة " لأنه من الأبالسة ، وأنه أتى باللفظين معا .

وقد حضر البيعة جبريل كما تقدم ، فعن حارثة بن النعمان رضي الله عنه لما فرغوا من المبايعة ،
قلت : يا بني الله لقد رأيت رجلاً عليه ثياب بيض ، أنكرته فأثما على يمينك ؟ قال : أو رأيتاه ؟
قلت : نعم . قال : ذاك جبريل . . والله أعلم (٢)

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ارفضوا إلى الله رحاكم ، فقال العباس بن فضله ، والله
الذي بحثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيا فانا . . . قال : فقال رسول الله : لم
نؤمر بذلك ، ولكن ارجعوا إلى رحاكم .

قال : فرجعنا إلى مضاجعنا ففمننا عليها حتى أصبحنا (٣)

لقد غضب الشيطان من هذا الحلف ، فضلال العرب مريحاً له ، وضلال الناس أعطاه الهدى
والطمأنينة ، ولكن أن يبداً الحق والإيمان والإسلام بالبزوغ وإزاحة ظلامه الشيطان وأهله فإنه
وأيم الله ضربة للشر وللشيطان ، وللشرك وللضلالة في مقتل . ومن موضع الألم الشديد
صن صرخة مخيفة فعند ابن هشام وغيره أنها أنفذ صوت سمع .

لقد كانت البيعة تحويلاً من لدن الباري جل وعلا لعباده إلى ترك طريق الضلالة والشرك الذي
طال الزمن على سالكه فجاء هدى الله تعالى وعنايته ورعايته ليسلك بعباده إلى خير الدنيا
والآخرة وراء رسوله ونبيه الذي أرسله خاتماً للرسالات والأنبياء .

والنبي الثاني أن المبايعين من أهل يثرب كانوا يرغبون أن تكون البيعة عامة يشارك فيها من
أسلم أو من لم يزل على شركه حتى تكون أقوى وأمتن وأشد ، خاصة أن الحرب إن وقعت غداً بين
المسلمين من أهل يثرب وسواهم فإنها ستطال الآخرين من أهلهم وذويهم الذين ما زالوا
يعيشون على مبادئ الماضي وترهات الجاهلية .

(١) () ناقص في السيرة الحلبية — علي الحلبي ١١ / ٢ . السيرة النبوية — ابن كثير ٢ / ٢٠٤

(٢) السيرة الحلبية — علي الحلبي ٢ / ٢٠ (٣) السيرة النبوية — ابن هشام ٢ / ٩٠ .

زاد المعاد — ابن القيم ٣ / ٤٨ . وفاة الوفا — السهمودي ١ / ٢٣١ . امتاع الاسماع —

المقريزي ١ / ٣٧ . الروايات — السهيلي ٢ / ١٩٢ . زيادة النسب والتفصيل ٢ / ٢٠٤

أراد المسلمون المبايعون أن يكون جميعي من معهم من أهل يثرب أن يكونوا في عهد الرسول .
فقد حاول العباس بن فضله الأنصاري أخو بني سالم بن عوف أمرين بقوله للأندلس : يامعشر
الخنزى أتدرون علام تبايعون هذا الرجل ٢٠٠ الى مقالته .

الأمر الأول : قال عاصم بن عمرو بن قتادة : والله ما قال ذلك العباس إلا ليشد العقد لرسول
الله صلى الله عليه وسلم في أعناقهم .

الأمر الثاني : وأما عبد الله بن أبي بكر فقال : ما قال ذلك العباس إلا ليؤخر القوم تلك الليلة
رجاء أن يحضرها - أى البيعة - عبد الله بن أبي بن سلول فيكون أقوى لأمر القوم ، فإله أعلم
أى ذلك كان (١)

ولكن الهدى هدى الله يهدى به من يشاء ويضل عنه من يشاء ، فلم يبائع الرسول صلى الله عليه
وسلم إلا المسلمون القانعون الناذرون نفوسهم رخيصة لله .

فلما علمت قريش بالأمر .

عن كعب بن مالك قال : فلما أصبحنا عدت علينا جيلة قريش حتى بناؤرنا في منازلنا . فقالوا :
يامعشر الخنزى إنه قد بلغنا أنكم جئتم الى صاحبنا هذا تستخربونه من بين أظهرنا وتبايعونه
على حمرنا ، وإنه والله ما من حي من العرب أبغس إلينا من أن تشب بالحرب بيننا وبينهم منكم . .
قال : فأنبعت من هناك من مشركي قوما يحلفون ما كان من هذا شيء وما علمناه .

قال : وصدقوا . . لم يعلموا ، قال : وبعضنا ينظر الى بعض (٢)

قال ابن اسحاق : وحدثني عبد الله بن أبي بكر أنهم أتوا عبد الله بن أبي بن سلول فقالوا مثل
ما ذكر كعب من القول فقال لهم : إن هذا الأمر جسيم ما كان قومي ليتفرقوا (٣) على مثل هذا
وما علمته كان ، فأنصرفوا عنه (٣)

بقي الأمر إذأ بين المسلمين ، لم يشاركهم مشرك أركافر ، وبقيت البيعة من الفئة المؤتمنة التي
أرادها الله تعالى أن تكون خالصة له .

والنبي الثالث أن قريشا قد عرفوا بالأمر متأخرين ، أرادوا اللحان بأمر قبل فواته . .

قال ابن اسحاق : ونفر الناس من منى فتنظى القوم الخبر فوجدوه قد كان ، فخرجوا في طلب القوم
فأدركوا سعد بن عباد بأذاخر ، والمندر بن عمرو أخا بني ساعده بن كعب بن الخنزى وكلاهما
كان نقيباً .

فأما المندر فأعجز القوم (٣) وأدركوا سعد بن عباد فربطوا يديه إلى عنقه بنسف رجله وجعلوا
يضربونه ، ويحرقونه ، ويجذبونه بجمته حتى أدخلوه مكة ، فبنا مطعم بن عدي ، والحارث

(١) السيرة النبوية - ابن هشام ٢/ ٨٨ - ٨٩ . (٢) السيرة النبوية - ابن كثير ٢/ ٢٠٤ - ٢٠٥

(٣) في ابن هشام (ليتفرقوا علي بمثل هذا) السيرة النبوية - ابن كثير ٢/ ٢٠٥ ، ٢٠٦

بن حرب بن أمية فخلصاه من أيديهم . وتشاورت الأنصار حين فقدوه أن يكروا إليه فإذا سعد قد طلع عليهم فواصل القوم جميعاً إلى المدينة (١)

وكما فات أمر المبايعين مشركي الأوس والخزرج فأت قريش أيضاً رغم تأكيدهم من ذلك فما قدروا إلا على أسر سعد ولكن صداقته من مطعمه والحارث تركوه يعود إلى المدينة . فقد ثبت بذلك الله تعالى هذه البيعة وأتمها فهي فاتحة طيبة وخطوة مباركة للثبات والإخلاء والتقدم ليتخلص المسلمون من حصار قريش وبطشها إلى نصرة الأوس والخزرج ، وللانفتاح على العالم . وكان هؤلاء النفر من المدينة ركن الدعوة وأساسها ، ومنار الإسلام وقوته فقد كان تحولهم إلى هذا الدين من أكبر الانتصارات التي صنعتها الدعوة الإسلامية من بداية ظهورها في مكة ، وسيكون لهم يعد ذلك العطاء المتميز على عطاء كل بني الإنسان .

قال ابن اسحاق : فلما رجح الأنصار الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة الثانية إلى المدينة أظهروا الإسلام بها .

روى البيهقي بسنده عن عيسى بن أبي عيسى بن جبير قال : سمعت قريش قائلين يقول :

فإن يسلم السعدان يصبح محمد بعكة لا يخشى خلاف المخالف

فلما أصبحوا قال أبو سفيان : من السعدان ؟ أسعد بكر ؟ أم سعد هزيم ؟ فلما كانت الليلة الثانية سمعوا قائلين يقول :

أيا سعد سعد الأوس كن أنت ناصراً ويأسعد سعد الخزرجيين الغطارف

أجيباً إلى داعي الهدى وتعينياً على الله في الفردوس منه عارف

فإن ثواب الله للطالب الهدى جفال من الفردوس ذات رفسارف

فلما أصبحوا قال أبو سفيان هو والله سعد بن معاذ وسعد بن عباد (٢)

وعندما أظهروا المبايعون الإسلام في المدينة كان في قومهم بقايا من شيوخ لهم على دينهم من الشرك منهم عمرو بن الجمح بن زيد بن حرام ، وكان ابنه معاذ بن عمرو ممن شهد العقبة . وكان عمرو بن الجمح من سادات بني سلعة وأشرفهم ، وكان قد اتخذ صنفاً من خشب في داره يقال له مناة (٢) . وأخذ الفتية من المسلمين يأخذونه كل يوم ويلقونه في مناطق النجاسة والقذارة ويبحث عنه صاحبه ويده ويعطره . وربط مرة في رقبته سيفاً وقال له : إن كنت إليها دافع عن نفسك ، فجاء الفتية فأخذوا السيف وأهانوا الصنم أكثر من كل مرة ، فلما أبصره على هذا الحال وسمع من المسلمين عن هذا الدين فأسلم ، وحين عرف من الله ما عرف وهو يذكر صنمه

(١) السيرة النبوية - ابن كثير ٢ / ٢٠٦ . زاد المعاد - ابن القيم ٢ / ٩٤

(٢) السيرة النبوية - ابن كثير ٢ / ٢٠٧

ذلك وما أبصره منه ، وشكر الله الذي أنقذه مما كان فيه من العمى والضلالة يقول :
والله لو كنت إلهاً لم تكـــــــن أنت وكلب وسط بئر في قـــــــرن
أف لملاقك إلاها مـــــــتدين الآن فتشناك عن سوء العـــــــبــــن
الحمد لله العلي ذي العــــنــــن الواهب الرزان ديان الديــــن
هو الذي أنقذني من قبــــل أن أكون في خلة قبر ممتــــن (١)

قال ابن اسحاق : وكانتبيعة الحرب حين أذن الله لرسوله صلى الله عليه وسلم في القتال
شروطاً سوى شرطه عليهم في العقبة الأولى . فانت الأولى بيعة النساء وذلك أن الله تعالى
لم يكن أذن لرسوله بالحرب ، فلما أذن له فيها وبايعهم عليه السلام في العقبة الأخيرة على حرب
الأحمر والأسود أخذ لنفسه واشترط على القوم لربه ، وجعل لهم على الوفاء بذلك الجنة .
قال ابن اسحاق : فحدثني عباد بن الوليد بن عباد بن الصامت عن أبيه الوليد عن جده
عباده بن الصامت وكان أحد النقباء قال : بايعنا رسول الله بيعة الحرب - وكان عباد من الاثني
عشر الذين بايعوه في العقبة الأولى على بيعة النساء - على السمع والطاعة في عسرا ويسرنا
ومنشطنا ومكرهنا وأثره علينا ، وأن لاننازع الأمر أهله ، وأن نقول الحق أينما كنا لانخاف في الله
لومة لائم (٢) .

لقد شملت أسماء المبايعين رجالاً ونساءً كل بطون الأوس والخزرج تقريباً . دخل العرب الإسلام
واليهود ينظرون . لقد سبب هؤلاء باتباع محمد ، والسؤال الآن لماذا لم يبق اليهود بالمبادرة
والدخول بالإسلام قبل اليهوديين أو بعدهم ، والجواب على هذا يتطلب منا أن نتعرف قليلاً على
ما عند اليهود ، ولكن اليهود يعتقدون أن لانبيا إلا منهم ، وبذلك فقد ترفضوا لأميرين :
١ - أن محمداً ليس منهم وهذا أمر كاف لأن تنفى عنه النبوة على الرغم من أن كل الإرهاصات
والدلائل تشير إلى أن هذا النبي سيكون من الاميين ، وستكون يثرب مهاجراً له . والأمر
الثاني : أنهم لم يتسرعوا حتى يتأكدوا من صدق دعوته ومن أنه المنبأ عنه في كتبهم وأسفارهم
ربما هذان هما السببان الواضحان لتخلفهما عن الرسول صلى الله عليه وسلم أو أنهم يملكون
من أخبار النبوة ما لا يمكن للعرب الوثنيين أن يعرفوه . ومن المعروف بعد الهجرة أن قضايا
الترث والانتظار قد انقلبت إلى عداوة مستمرة . كما سيرد لاحقاً .

(١) السيرة النبوية - ابن كثير ٢/٢٠٨ السيرة الحلبية - علي الحلبي ٢/٢٠ - ٢١ .

السيرة النبوية - ابن هشام ٢/٩٥

(٢) السيرة النبوية - ابن هشام ٢/٩٧

هجرة المسلمين من مكة الى يثرب

ربط المؤرخون بين بيعة العقبة الثانية والاذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالقتال ، واعتبر جميع المؤرخين تقريباً أن الحد ثين متلازمين ، على الرغم من الفارق الزمني البسيط بينهم — إلا أن شروط العقبة والتي عرفت (بيعة الحرب) قد قررت المسلمين إلى هذا الهدى كثيراً . ولا ينتهي الحديث عن العقبة الثانية لدى كتاب السيرة والمؤرخون إلا ويردوه مباشرة بالإذن لرسول الله بالقتال . ولعل ما قاله العباس بن عباد بن فضالة عندما تمت البيعة وطلبه للرسول أن يعيل على أهل منى بسيفه مع المبايعين دليل على أن الرهط قد أدركوا بحواسهم أن القتال أصبح قاب قوسين أو أدنى منهم . فقد عاهدوا على الحماية والزود والدفاع حتى يصل الرسول إليهم وهذا يستوجب في الغالب استعمال السلاح .

إلا أن الأمر الذي تجاوزه المؤرخون واعتبروه أمراً طبيعياً ونتيجة منطقية وهو هجرة المسلمين إلى يثرب . إذ كان عهد الأنصار بالنصرة في ميزان التحولات السياسية والاجتماعية في التاريخ — يعتبر حدثاً هاماً بحد ذاته ، وتحولاً بالغ الخطورة ، فإنه لا يقل عنه بحال هجرة المسلمين إلى المدينة .

وللقيام فقط فقد كان المهاجرون إلى الحبشة قلة من المستنسخين والمضطهدين الذين لاناصر لهم في مكة ، أو أنهم غير قادرين على تحمل الأذى أو رده على الأقل ، فان الهجرة إلى المدينة أمر يختلف تماماً عن تلك .

الهجرة إلى الحبشة — لجزء سياسي — إن صح هذا التعبير إلى رجل لا يظلم عنده أحد ، ولم يكن من مهامهم الدعوة إلى الدين الجديد بل المطلوب منهم أن يحافظوا عليه في أنفسهم حتى أن بعضهم استمر الحياة بين النصارى في الحبشة فتنصر (عبيد الله بن جحش) وسواه . إلا أن الهجرة إلى المدينة هي انتقال مدينة إلى مدينة والتحام قوم ب قوم ، وتدبير حياة جديدة مقطوعة عن ارتباطات الماضي ، واندماج متداخل بين هؤلاء ، وتقاسم مشاكل الحياة المادية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، وتكوين مجتمع جديد كل الجدة بمختلف تفرعاته وذهاب بلا عودة ، حتى ولو توقف سكان مكة عن اضطهاد المسلمين فإن النظر إلى الهجرة إلى المدينة كان أعمق كثيراً من مجرد اللجوء أو الهرب ، أو طلب النجدة أو الحماية . انتقال الرجال والنساء والأطفال ، والتزاح والمشاركة في المال والبيت والمسكن توجهها بعد ذلك عملية المؤاخاة التي جرت مرة واحدة في التاريخ وانتهت من تكرارها بشكل فرد أو ضيق لكنها لم تكن كالأولى وإذا كانت جماعية بعد ذلك فهي تقع تحت قسايا التهجير الجماعي الذي ألزمته ، أو فرضته الحروب والانتصارات أو الإنهزام ، أو الانقلابات السياسية والعسكرية

في العالم المتصارع .

أما مؤاخاة المسلمين تحت ظل الإسلام فهي أمر مختلف تماماً ، وستبقى تحت كنف الإسلام ففضايا الإيثار لم تكن إلا عند هؤلاء الرهط من الأنصار التي تتكرر دائماً بحدود ضيقة جداً . الهجرة إلى المدينة هي المشاركة التامة في كل شيء وهكذا كان ، ولانريد أن نسو الامثلة والأدلة . الكثير التي حفل بها التاريخ وامتألت بها صفحات كتب السيرة ، والمشاركة في المساع والمشاركة بالمعاش والمساكنة والتزاي والمؤاخاة وإيجاد المجتمع الفاضل الذي حلم به الفلاسفة وتحقق مرة واحدة في المدينة .

في جميع الأعراف والقوانين الموضوعية أن الرائد أو المهاجر في مرتبة أقل من صاحب الدار . ومهما كانت التسميات التي تطبق تحت هذا الاسم - على الأقل لفترة انتهت الكوارث التي كانت سبباً لها - قد تدوم لأجيال ، وحتى تسمى هذه الأجيال الأصول التي جاءت منها هذه النسبة أو تلك . لكن هجرة المسلمين غيرت كل الأعراف ، وحطمت كل الاعتبارات التي كانت سائدة والتي ربما ما زالت حتى الآن . لقد كانت المساواة في هجرة المسلمين تامة إلى درجة أكثر بكثير مما كان يظن . فعندما يؤثر الأنصار أخاه المهاجر بأفضل ما يقدرونه وبأجمل زوجاته ليطلقها ويتزوجها الآخر ، وليقدم أولئك لهؤلاء كل تسميات الحياة . نقول هذا من أعطال الأنبياء ولا يطبقه إلا الذين تخرجوا من مدرسة الإسلام بقيادة الرسول صلى الله عليه وسلم .

فمن أهم النتائج السياسية والاجتماعية هو هجرة المسلمين من مكة أو من أية منطقة حصل فيها ضغط أو إرهاب إلى المدينة .

سكان المدينة من غير المسلمين لم يفهموا ماذا حصل ، ولقد استطاع المسلمون منهم أن يفرضوا وجودهم وشروطهم على المدينة ، ويمكن القول بأنهم بسطوا سيادتهم الفحطية عليها ونلبسوا مقدراتها وشؤونها ولا لتجمع الآخرون عرب ويهود وهم كثر وطردوا القادمين أو ضايقوهم على الأقل . لكن هذا لم يحصل ، وبدأت الهجرة واستمرت بعد ذلك ثمان سنوات متتالية

حتى تم فتح مكة - ولم يعد هناك هجرة - إذ لا هجرة بعد الفتح . ولم يذكر التاريخ إلا محاولات فاشلة حاول بها المنافقون واليهود أن يوقعوا إثارة بين الأور والعزج وثارة بين المهاجرين والأنصار ، وحركوا مرة قضية العزة للقاطنين في المدينة فلانت النتيجة أن قتلوا وأعلنوا الملأ أنهم هم الأذلاء والرسول والمؤمنون الأعزاء .

استمرت الهجرة قبل قدوم الرسول إلى يثرب وبعد قدومه وانقطعت بالفتح . ولأن المهاجرين الذين تركوا كل شيء وراءهم قد وعدوا أيضاً بثواب الدنيا والآخرة مثلهم مثل الأنصار ، واستمر أهل يثرب كراماً ذرو فضل حتى بعد الفتح ، فلم يفكروا أن يطردوا أو يخرجوا المهاجرين بعد أن

عادت إليهم بيوتهم وديارهم وأن وقت حمايتهم قد انتهى فطلب منهم الرجوع . . بل العكس كان الأنصار يخافون أن يتركهم المهاجرون وخاصة رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحودوا إلى مكة وكان هذا الهاجس المخيف قد طرد من مخيلتهم بعد غزوة حنين عندما عادوا بخيبتهم - رسول الله - وذهب الناس بالدنيا والدرهم والدينار .

قال الزهري عن عروة عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - وهو يومئذ بمكة - قد رأيت دار هجرتكم ، أريت سبخة ذات نخل بن لابثين . مهاجر من هاجر قبل المدينة حين ذكر ذلك رجع إلى المدينة من كان هاجر إلى أرض الحبشة من المسلمين . وقال أبو موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم : رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل ، فذهب وهلي إلى أنها اليمامة أو هجر ، فإنا هي المدينة يثرب . وهذا الحديث قد أسنده البخاري في مواضع أخرى بطوله .

قال الحافظ أبو بكر البيهقي : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ، أخبرنا أبو العباس القاسم بن

القاسم السيار بمرو ، حدثنا إبراهيم بن هلال ، حدثنا العامري عن علي بن الحسن بن شقيق ، حدثنا عيسى بن عبيد الكندي ، عن غيلان بن عبد الله العامري ، عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير عن جرير . . أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : أن الله أرحى إلي أي هؤلاء البلاد الثلاثة نزلت فهي دار هجرتك المدينة ، أو البحرين ، أو قنسرين قال لهم : ثم عن له على المدينة ، فأمر أصحابه بالهجرة إليها ، هذا حديث غريب جدا (١) . وقد رواه الترمذي في المناقب من جامعه منفردا . عن أبي عمار الحسين بن حريث ، عن الفضل بن موسى ، عن عيسى بن عبيد عن غيلان بن عبد الله العامري ، عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير ، عن جرير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله أرحى إلي أي هؤلاء الثلاثة نزلت فهي دار هجرتك المدينة أو البحرين أو قنسرين . . ثم قال : غريب لانعرفه إلا من حديث الفضل تفرد به أبو عمار

قلت وغيلان بن عبد الله العامري هذا ذكره ابن حبان في الثقة ، إلا أنه قال : روى عن أبي زرعة (٢) حديثنا منكراً في الهجرة والله أعلم (٣)

إن قريشا لما علمت أنه صلى الله عليه وسلم آوى (أي استند) إلى قوم أهل حارب وتحمل نسيتوا على أصحابه ، ونالوا منهم ما لم يكونوا ينالونه من الشتم والأذى وجعل البلاء يشتد عليهم ، وماروا ما بين مفتون في دينه ، وبين معذب في أيديهم ، وبين هارب من البلاء . . شكوا إليه صلى الله

(١) قال الزبيري ، صححه الحاكم ، وأورد الذهب في تلخيصه ، لكنه قال في الميزان حديث مفكر ما قدم الترمذي على تحسينه بل قال غريب . وقال الحافظ : في ثبوته نظر لمخالفته ما في الصحيح . نس المواهب / ١ / ٣١٨

(٢) انظر : تاريخ أبي زرعة الدمشقي / ١ / ١٢٧ فما بعد .

(٣) السيرة النبوية - ابن كثير / ٢ / ٢١٤ - السيرة النبوية - علي الحلبي / ٢ / ٢١

عليه وسلم واستأذنه بالهجرة ، اى فمكث أياماً لا يأذن لهم . ثم قال لهم : أريت دار هجرتكم
سبخة ذات نخل بين لابتين وهي الحرثان ، ولو كانت السراة أرض نخل وسباخ لقلت هي ، هي
السراة بفتح السين أعظم جبال بلاد العرب ، ثم خي إليهم مسروراً فقال : قد أخبرت بدار
هجرتكم وهي يثرب ، فأذن لهم وقال : من أراد أن يخرج فليخرج إليهما .
فخرجوا إليهما أرسالاً أى متتابعين يخفون ذلك (١)

واشدت الأذى على من يمكث من المسلمين فأذن لهم صلى الله عليه وسلم في الهجرة إلى المدينة
فبادروا إلى ذلك وتجهزوا إلى المدينة في خفاء وستر ، وتسللوا فيقال أنه كان بين أربهم وآخرهم
أكثر من سنة ، وجعلوا يتوافدون بالمال والظهر ، ويترافقون ، وكان من هاجر من قريصة
(يستودع دهره وأمواله) رجلاً من قومه ، فمنهم من حفظ على من أودعه ، ومنهم من باع ، فمن
حفظه وديعته هشام بن الحارث بن حبيب ، فمدحه حسان بن ثابت (٢)

وقبل الهجرة آخى صلى الله عليه وسلم بين المسلمين أى المهاجرين على الحس والسواسة ، فأخى
بين أبي بكر وعمر وأخى بين حمزة وزيد بن حارثة ، وبين عثمان وعبد الرحمن بن عوف ، وبين الزبير
وابن مسعود ، وبين عبادة بن الحارثة ولبلال ، وبين مصعب بن عمير وسعد بن أبي وقاص ، وبين
أبي عبيدة بن الجراح وسالم مولى أبي حذيفة . وبين سعيد بن زيد وطلحة بن عبيد الله ،
وبين علي ونفسه صلى الله عليه وسلم . وقال أماترضى أن أكون أخاك ؟ قال : بلى يا رسول الله
رضيت ، قال : فأنت أخي في الدنيا والآخرة (٣) وأنكر أبو العباس بن تيمية المواخاة بين
المهاجرين سيما مواخاة النبي لعلي بن أبي طالب قال : لأن المواخاة بين المهاجرين والأنصار
إنما جعلت لارتفاق بعضهم ببعض ، ولتأليف قلوب بعضهم ببعض ، فلا معنى لمواخاة مهاجرين
ومهاجرين .

قال الحافظ بن حجر : هذا رد للنهي بالقياس ، وبعض المهاجرين كان أقوى من بعض بالمال
والعشيرة فأخى بين الأعلى والأدنى ، ليرتقى الأدنى بالأعلى ، ويستحين الأعلى بالأدنى ، ولهذا
تظهر مواخاته صلى الله عليه وسلم لعلي رضي الله عنه كان هو الذي يقف بأمره قبل العقبة (٤)
وفي الصحيح في عمرة القضاء أن زيد بن حارثة قال : إن بنت حمزة بنت أخي أي بسبب المواخاة
قال كثير فقلت لجميع بني عمير : أنت تشهد بهذا على عبد الله بن عمر ؟ قال أشهد (٥)

قال ابن اسحاق : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بيعة العقبة لم يؤذن له في الحرب
ولم تدخل له الدماء ، إنما يؤمر بالدعاء إلى الله والله يبر على الأذى والصفح عن الجاهل ، وكانت
(١) السيرة الحلبية - علي الحلبي ٢ / ٢٦٠ . وفاة الوفا = السمرودي ١ / ٢٣٥ . حدائق
الانوار - الشيباني ١ / ٣٦٠ . (٢) امتحان الاسماء - المقرئ ١ / ٣٦ - ٣٧
(٣) عيون الاثر - ابن سيد الناس ١ / ٢٤١ . السيرة الحلبية - علي الحلبي ٢ / ٢٢
(٤) السيرة النبوية - دحلان ١ / ٢٩٢ - ٢٩٨
(٥) السيرة الحلبية - علي الحلبي ٢ / ٢٢٣ . (٦) عيون الاثر - ابن سيد الناس ١ / ٢٤١

قریش قد اضطهدت من اتبعه من المهاجرين حتى فتقوهم عن دينهم ، ونفوههم من بلادهم منهم من بين مفتون في دينه ومن بين معذب في أيديهم ، وبين هارب في البلاد فراراً منهم . من بأرض الحبشة ، منهم من بالدينه ، وفي كل وجه ، فلما عنت قريش على الله عز وجل وردوا عليه ما أرادهم به من التزامة وكذبوا نبيه صلى الله عليه وسلم ، وعذبوا ونفوا من عبده ، ووحده ، وهدى نبيه واعتسم بدينة أذن الله عز وجل بالقتال والانتصار ممن ظلمهم ونفخ عليهم ، فكانت أول آية أنزلت في إذنه له في الحرب ، وإحلاله له الدماء والقتال ، لمن بنى عليهم فيما بلغني عن عروة ابن الزبير وغيره من العلماء قول الله تعالى : (أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا كَلِمَ اللَّهِ عَلَىٰ نَفْسِهِمْ لَقَدْ إِرَىٰ . الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِبَيْتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَن يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتِنَتِ صَالِحٌ وَيَبِيعُ رَسَائِلًا وَمَسَاجِدَ يُدْكِرُ فِيهَا أَسْمَ اللَّهِ كَثِيرًا ، وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ . الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَآمَنُوا بِالمَحْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ) (١)

أى أننا أحللت لهم القتال لأنهم ظلموا ، ولم يكن لهم ذهب فيما بينهم وبين الناس إلا أن يعبدوا الله وأنهم إذا ظهروا أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر يعني النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم أجمعين .

ثم أنزل الله تبارك وتعالى عليه : ﴿وَمَا يُلْوِهِمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِئْتَةً﴾ (أى حتى لا يفتن مؤمن عن دينه) ﴿وَيَكُونَ الَّذِينَ بِاللَّهِ﴾ (٢) (أى حتى يعبد الله لا يعبد معه غيره) (٣)

قال ابن اسحاق : فلما أذن الله تعالى له صلى الله عليه وسلم في الحرب ، وتابعه (٤) هذا الحي من الأنصار على الإسلام والتمسرة له ولعن اتبعه وأوى إليهم من المسلمين أمر رسول الله أصحابه من المهاجرين من قومه ومن معه بمكة من المسلمين بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها والالحاق بإخوانهم من الأنصار وقال : أن الله قد جعل لكم إخواناً وداراً يأمنون بها (٥) فخرجوا أرسالاً (٦)

لقد أصبح المضطهدين في مكة وفي غير مكة مكاناً يلبسون إليه ، ودار هجرة يهاجرون إليها ، وأرضا يأمنون بها على حياتهم ، وأخوة يدعون عنهم الأذى ، ويؤمنون لهم الحماية والتمسرة . واطمئن الرسول إلى هذا الحي من العرب فهم صادقون ببيعهم قادرين على تحقيق ما عاهدوا عليه ، ولذلك فقد صن للمسلمين في مكة أن أزلت الساعة ، وانتهى البلاء وتحولت الدعوة لستمرار القوة والدفاع عن النفس ، وأضحى لها جنود قادرين على تحمل

(١) سورة الحى آية ٣١ - ٤١ . في ظلال القرآن - سيد قطب ٤ / ٢٤٢٦ - ٢٤٢٨
(٢) سورة الانفال آية ٠٣٩ في ظلال القرآن - سيد قطب ٣ / ١٥٠٨ - ١٥١٠
(٣) السيرة النبوية - ابن هشام ٢ / ١١٠ - ١١١ (٤) عند ابن هشام (بايعه) وعند ابن كثير (تابعه) وكلاهما جائز .
(٥) السيرة النبوية - ابن كثير ٢ / ٢١٤ - ٢١٥ الطبري - تاريخ ٢ / ٢٦٨ - ٢٦٩

مسؤولياتها الجسم ، قادرين على أن يكونوا قوة لها وزنها الكبير في مجتمع لم يقتل إسلامه بعد
والقلة هم الذين بايعوا محمداً في العقبة الثانية .

بدأت أرتال المهاجرين في ترك كل شيء خلفها وتتوجه إلى يثرب . ومن خلال متابعة قصص
الذين هاجروا إلى يثرب أو أول من هاجر نجد أن الهجرة كانت خالصة تماماً ، فمنهم من ترك
الزنى والولد ، ومنهم من ترك المال والديار ، ومنهم من ترك القبيلة والعشير ، ومنهم ومنهم *
ومنهم تسوجهوا جميعاً إلى المدينة راغبين بدين الله وحده ناسين كل ما يربطهم في الدنيا معها
كان هذا الرباط . ومهما كانت الرشائخ التي تشده .

ترك المهاجرون خلفهم كل شيء ، وتعهدوا الأنصار بتقديم كل شيء ، وما عند الأنصار سيحوزون
المهاجرين على ما فقدوه وما عند الله للطرفين خير وأبقي .

هكذا بدأت الهجرة إلى المدينة بدأت بأفراد قلائل استحکم بهم الظلم والاستعباد حداً لم
يعد يطلق فانطلقوا فرادى وجماعات باتجاه المستقبل المضي الذي سيكون له أمر عظيم .

لقد توسعت كتب السيرة والأخبار بالحديث عن أول من هاجر إلى المدينة ، وتفاخرت القبائل
بأن أوائل المهاجرين كانوا منها ، كما تفاخرت قبائل المدينة بأن أوالمبايعين منها فانطلق
قدم التضحيات للجسام في سبيل الله ، وسبر الفريقين وإن كان صبر المهاجرين على البلاء كان كبيراً
لقد كان أول من هاجر إلى المدينة من أصحاب رسول الله من المهاجرين من قريش من بني مخزوم
أبوسلمة بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم اسمه (عبد الله) . هاجر إلى
المدينة قبل بيعة أصحاب العقبة بسنة . وكان قدم على رسول الله مكة من أرض الحبشة ، فلما
آذنته قريش ببلده إسلام من أسلم من الأنصار خرج إلى المدينة مهاجراً (١)

وذكرت الروايات أن المشركين اعترضوا سبيل أم سلمة بعد أن ركبت ناقمها لمرافقة زوجها ، فبنى
مخزوم منعوا أم سلمة ، ونوع عبد الأسد قهر أبي سلمة انتزعوا الطفل من أمه حتى خلع كنفه
وقالوا : لا والله لانترك ابننا عندها ، إذ نزعتموها من صاحبنا . قالت : فتجادبوا ابني سلمة
مني بينهم حتى خلعوا يده . وانطلق به بنوع عبد الأسد ، وجبسنى بنو المغيرة عندهم ففرق
بينى وبين زوجي وابني . قالت : فكنت أخرج كل غداة قابلس بالأيطح فما أزال أبكي حتى
أمسى سنة أو قريباً منها .

ذهب الرجل ربيقت المرأة مسجونة في أهلها وابنها في أهل زوجها ، وسار الرجل مهاجراً في
سبيل الله إلى أن حزن الله قلب بعض من أقاربها فتركوها ، ورد وإليها إبنهم

(١) السيرة النبوية — ابن هشام ١١٢/٢ الطبري — تاريخ ٣٦٩/٢ السيرة النبوية —
ابن كثير ٢١٥/٢ السيرة الحلبية — علي الحلبي ٢٢/٢ الروايات — السهيلي ٢١١/٢ —
٢١٦ تاريخ العرب القديم — عاقل ٤٢٩ .

وتوجهت وحيدة إلى المدينة ، فلما رآها عثمان بن طلحة - وكان مشركاً - وعرف مقصد ها المدينة تحركت به نخوة الرجال . وقال : والله مالك من مترك . فأخذ بخطام البعير فانطلق معسي يهوى بي فوالله ما صحبت رجلا من العرب قط ، أرى أنه كان أكرم منه . كان إذا بلغ المنزل أنأخ بي ثم استأخر عني ، حتى إذا نزلت استأخر بعيرين ، فحط عنه ثم قيده في الشجرة ، ثم تنحى عني إلى شجرة فاضطجع تحتها ، فإذا دنا الروح قام إلى بعيرين فقدمه ، فرحله ثم استأخر عني وقال : اركبي ، فإذا ركبت واستويت على بعيري أتي فأخذ بخطامه فقاده حتى ينزل بي . فلم يزل يصنع ذلك حتى أقدمني المدينة ، فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقبا قال : زوجك في هذه المدينة (القرية) . وكان أبو سلمة بها نازلا ، فادخلها على بركة الله ثم انصرف راجعا إلى مكة . فكانت تقول والله ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة ، وما رأيت صاحباً قط كان أكرم من عثمان بن طلحة .

ثم كان أول من قدمها من المهاجرين بعد أبي سلمة عامر بن ربيعة معه امرأته ليلي بنت أبي حثمة ، ثم عبد الله بن جحش ابن رثاب ، احتمل بأهله وأخيه عبيد بن جحش "أبو أحمد" وكان ضريرا يجوب شحاب مكة وحده بخير قائد ، وكان شاعراً ، وكان عنده الفرعة بنت أبي سفيان بن حرب ، وكانت أمه أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم ، فطلقت دار بني جحش هجرة ، فمر بها عقبه بن ربيعة والعباس بن عبد المطلب وأبو جهل ابن هشام بن المغيرة ، وهي دار أبا بن عثمان اليماني التي بالرؤم وهم مصعدون إلى أعلى مكة فنظر إليها عتبة بن ربيعة تخفق أبوابها يبأبأ ليس فيها ساكن ، فلما رآها كذلك تنفر الصعداء ثم قال :

وكل دار وإن طالت سلامتهم — يوماً ستدرنهما الذكبا والحراب

وقال عتبة بن ربيعة : أصبحت دار بني جحش خلا من أهلها (٢) فقال أبو جهل : وما نبيكي عليه من قل بن قل (القل : الواحد) ثم قال يعني للعباس : هذا عمل ابن أخيك ، هذا فرق جماعتنا ، وستت امرنا ، وقطع بيننا (٣)

وترك صهيب الرومي ماله ، وكان غنياً جداً . دل القرشيين على ماله حتى تركوه ، وتتابن الناس إرسالاً فرادى وجماعات حتى أصبحت مكة خاوية من سكانها ، والدل يتجه إلى يثرب مهاجراً في سبيل الله ، تاركاً كل ماله مبهماً غلاماً وثمان . والكمل كانوا يتواعدون سرّاً إلا عمير بن الخطاب ، وكان قد تواضع للهجرة من عياش بن أبي ربيعة وهشام بن العاصي

(١) السيرة النبوية - ابن هشام ١١٣ / ٢ وكذلك المراجع السابقة

السيرة النبوية - ابن كثير ٢١٨ / ٢ والسيرة النبوية - ابن هشام ١١٤ / ٢ - ١١٥

(٣) السيرة الحلبية - علي الحلبي ٢٣ / ٢

بن وائل • وقتلنا : أينما لم يصيح عند (سرف) مكان خان مكة ، فقد حبس فليضي صاحبها
فتواجد عمر وعياس وجلس هشام ، وقتن فافتتن ، وتمكن أهل عياض أن يردوه إلى مكة بسبب
قساوة أمه • وفي الطريق قيدوه وحبسوه من هشام حتى تمكن الوليد بن الوليد أن يحصر مكة
شخصيا ويفك أسرها ويأتي بهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هجرته إلى المدينة •
وعن علي رضي الله عنه قال : ما علمت أحدا من المهاجرين هاجرا إلا متخفيا إلا عمر بن الخطاب
فإنه لما هم بالهجرة تغلد سيفه وتدكب قومه ، وانقضى في يديه أسهما ، واختصر عشرته ، أي وهي
العربة الصغيرة علقها عند خاصرته • ومضى قبل الكعبة والمأمن من قريش بفنائها ، فظاف بالبيت
سبحاً ثم أتى المقام فسلمى ركعتين ثم وقف على الحلق واحدة واحدة فقال : شاهت الوجوه
لا يرغم الله إلا هذه المعاطس (أي الأنوف) عن أراد أن تثكله أمه (أي تفقده) أو ييتيم ولده
أو ترمل زوجته فليلقني وراء هذا الوادي • قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فما تبعه أحد
ثم مضى لوجهه (١)

ومضى المسلمون إلى يثرب حيث الأمان والسلام ، وتلقى الأنصار إخوتهم على الركب والسعة
وأنزلوهم منازلهم • قال البخاري : حدثنا الوليد ، حدثنا شعبة ، أنبأنا أبو اسحاق سعي البراء
يقول : أول من قدم علينا مصعب بن عمير وابن أم مكتوم ، ثم قدم علينا عمار وبلال • وعن البراء بن
عازب قال : أول من قدم علينا ومصعب بن عمير وابن أم مكتوم وكانا يقرئان الناس • فقدم بلال وسعد
وعمار ثم قدم عمر بن الخطاب في عشرين نفر من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم •
ثم قدم النبي صلى الله عليه وسلم فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله صلى الله
عليه وسلم (١) ونزل عمر بن الخطاب حين قدم المدينة ومن لحق به من أهله وقومه وأخوه زيد
بن الخطاب وعمرو وعبد الله ابنا سراق بن المعتمد ، وخنيس بن حذافة السهمي ، وكان صهره
على ابنة حفصة بنت عمر ، فخلف عليها رسول الله من بعده ، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل
ورائد بن عبد الله التميمي حليف لهم ، وخرولي بن أبي خولي ، ومالك بن أبي خولي - حليف
لهم - وبنو البكير - أربعتهم - ، وحلفاؤهم من بني سعد بن ليث على رفاة بن عبد المنذر بن
زبير في بني عمرو بن عوف بقباء (١)

قال ابن اسحاق : ثم تتابع المهاجرون رضي الله عنهم فنزل طلحة بن عبيد الله ، وسهيب بن
سنان على خبيب بن أساف أخي بلحارث بن الخزرج بالسج ، ويقال بل نزل طلحة على
أسعد بن زرارة (١)

(١) السيرة النبوية - ابن كثير ٢/ ٢٢١ - ٢٢٢ أيضا السيرة النبوية - ابن هشام ٢/ ١٢٠

هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة (يثرب)

تمهيد : هجرة الإنسان لم تهدأ على سطح الأرض منذ أن وطئت قدم آدم وحواء عليهما السلام هذا الكوكب مؤذنين بدبيب هذا المخلوق على هذه الأرض ، واستمرت الهجرات تتوالى ، وتترى وما زالت كذلك حتى اليوم ، وستبقى إلى أن يأذن الله تعالى بأمر آخر يريد .

هجرة الناس كلها منذ أن بدأت ليست أكثر من ترحال من مكان إلى مكان آخر طلبا للمعيش والهناء والأمن والاستقرار وكل متطلبات الحياة واستمراريتها . وتتفاوت هذه الهجرات من عصر إلى عصر ومن قوم إلى قوم ومن أرض إلى أرض ، فكم من أقوام هاجروا في جيل واحد أكثر من هجرة وكم من أماكن تغيرت معالمها وأشكالها ، ونيت وعمرت ، وأخرى هجرت وخربت ، ول هذا لم يوقف هذه الهجرة ، ولم يوقف تنقل الإنسان إطلاقا .

وإرادة الله تعالى أن تبقى الحركة مستمرة والدبيب متواصل ، فائمان دائمان ، يهيم لهما الأسباب ويرغب لهما النفوس ، فيتحرك الناس جاهدين حتى يحققوا هذه الإرادة ، ويعمروا هذه الدنيا . كل هذه الهجرات الدائمة والمستمرة لم تغير إلا ديمغرافية الحياة السكانية فقط ، أي أنها بدلت شيئا من الأعمار ، وشيئا من الطباع ، وشيئا من السكان ، وشيئا من المعاش ، ونسبت الأجيال كلها أنها كانت من سلالة مهاجرين جاؤوا إلى أرضهم يوماً على حساب الآخرين حيناً ، وأعماراً لها حيناً آخر ، ولو طوقنا بعقولنا نحرما سمعناه في السابق ، وما نسمع اليوم لوجدنا العجب العجيب وما زالت حتى الساعة أقوام مهاجرة بعضهم استقر به الحال ، وبعضها ما زالت تحمل عصا الترحال وبعضها يقاتل ويقاتل حتى يجد لقدمه موقعا في هذه الدنيا . .

كل هذه الهجرات كانت تأثيراتها محدودة جدا ، ويحد رد جغرافية واجتماعية وديمغرافية ضيقة إلا هجرة محمد صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، فقد كانت هي الهجرة الفريدة الرحيدة في تاريخ الإنسانية التي غيرت كثيراً في مسار هذا التاريخ - إن لم تقله رأساً على عقب - كما غيرت كثيراً من تقديرات الباحثين ، كما غيرت كل ما كان سائدا في ذلك العصر . . والذي يليه والذي تلاه إلى يوم يبعثون .

محمد في مكة يقع تحت الحصار والمطاردة ، ولذا شروط النشيرة التي طالته بعد أن تمكنت من أصحابه وموقعه في مكة لم يعد له ذلك الوزن الكبير . . يضيئ عليه الخناق قليلا قليلا حتى وصل الحد إلى الإحاطة ببيته لقتله والتخلص منه ، أصحابه فرروا بدينهم إلى الحبشة ومنهم من عاد منهم - وبعضهم وجه باتجاه يثرب طلبا للنجدة والحمية والأمان .

وقريش وصلت ذروة التفاهم بين ساداتها هذه المرة فلم يعد هناك معارض للخطط الجماعية وأغراهم الشيطان بأن قتل محمد صلى الله عليه وسلم هو الأمر المطلوب حتى تدفن هذه الدعوة في مهدها مع صاحبها • وأصحابها الآخرون لا يمكن لهم أن يتابعوا المسيرة التي بدأها محمد فدعوته لم تكتمل بعد ، وتبقى في ذاكرة أصحابه جيلا أو جيلين ، وينتهي بذلك محمد ودعوته محمد وأصحاب محمد •

هذه حال محمد صلى الله عليه وسلم في مكة •• هذا أمر •• لكن ما كان يجري في يثرب أمر آخر فقط أن يتمكن محمد من الوصول إلى هناك •• إلى يثرب •• إلى حيث النصرة والرجال والمقاتلين •• ولكن •• كيف نخرج والحصار يضيق ويضيق •• وضيق إلى درجة لم يعد لمحمد من مخرج من بيته هل هذا الحال سيخسر التاريخ ؟• هل هذا الحال قادر على أن يفعل شيئا ؟ هذا هو السؤال الذي يطرح بشدة عند دراسة تفصيلات هذا الواقع •

المراقبون للأحداث وقتها ، والذين يهمهم ما يجري في هاتين المدينتين على الأقل قد حكموا أن أمر محمد قد انتهى ، ولم يبق إلا أن يطبق المقاتلون عليه بضربة واحدة من أربعين سيفاً في أيدي أربعين فارساً •• توزع دمه على القبائل • ولا يبقى لبني هاشم أي أمل في نيل ثأرهم فليس بمقدورهم أن يجابها هذا التحالف القوي الذي وصل في ذلك الوقت والذي كان من ترتيب الشيطان الذي خرج على المتآمرين بهيئة شيخ نجدى مجرب محنك وأعظامه الدليل المسلك ذاك السبيل •

هذا إذا كان مراقبوا الأحداث في ذلك الزمان يتابعون سلسلة هذا الحدث الجلل •• أما القرى الكبيرة الفاعلة في الأرض في ذلك الوقت فلم نعلم بعد إن كان هناك شخص اسمه محمد قد أرسل نبيا إلى العالم كافة أو رسالة شمس الإسلام خاتمة رسالات السماء ، لم يصل إلى سامعها بعد هذا الحدث الكبير ، ولذلك لم تكن تمر هذه المنطقة أي من اهتماماتها ، وإن أعارتها لصدقة ما بين مسؤول كبير في السماء أو الجنوب أو الشمال الشرقي من الحجاز فإنه مجرد تخيير حديث تعود عليه الذين يستقبلون أبناء الحجاز والبادية ليعرفوا مجريات الأحداث عندهم • لو قدر لهذا الحدث أن يعاد أو يتكرر من قريب أو بعيد فإن أحداً من الناس لم يصدق إطلاقاً أن يخن محمد من الحصار ، ويهاجر إلى المدينة ، ويقوم دولة الإسلام ، ويتسرب بالقلعة المؤمنة قوى الظلم والبغى في فارس والروم ، وينشر الإسلام بين الناس ويسود الإسلام أربعة عشر قرناً أرضاً وحكومة واتباع ومسار حياة ••

لا يمكن لأحد أن يصدق توالي هذه الأحداث ، ولقنها معجزة الإسلام الكبرى التي كانت في هجرة من الهجرات وبمسافة قصيرة جداً من المسافات الطويلة التي قطعها الناس مهاجرين

ورجل له صحبة رجل آخر يغير كل ما يمكن أن يخطر على البال • هذه المعجزة الكبرى التي حققتها هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة بنوره •

هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم كانت النقلة الأولى والخطوة الجبارة في مسار التاريخ ليخص بعد هذا لإرادة الإسلام والمسلمين ، ويسكن هادئاً هذه المرة فقد أعيد نشر العدل والسلام في الأرض ، وتحقق الدين القيم على حساب الظلم والطواغيت والجور والقهر ، ولتبادل المواقع فيسود العدل والإيمان والصدق ، وتنيب لفترات طويلة مظلمة الإنسان للإنسان وجبروتهم وحكم الشيطان وأعدائه •

هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم لم تكن كأي هجرة من الهجرات الدائمة على مسار التاريخ فإنها الوحيدة التي غيرت التاريخ وبدأت بتسجيل أحداثه • وطوبى في هذه اللحظات الصفحة التاسعة بعد الأربعمئة والألف من تاريخ هذا الدين وهذه الهجرة التي لم يكن يعلم بها إلا قلة من الناس تحاول كبتها وانهاهاها من أهل مكة ، وينتظر إتمامها وكما لها أهل المدينة والمتحرك المهاجرين هاتين المدينتين محمد صلى الله عليه وسلم وساحبه الصديق رضي الله عنه •

١ - مراحل الهجرة

لقد مرت هجرة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم إلى يثرب بمراحل عدة ، كانت كل واحدة ضرورية لبدء الأخرى • وهذه المراحل قد تمت بالفعل في وقتها المحدد ، وحصلت على نتائجها المحددة • فقد نالت بيعة العقبة الأولى اللبنة الأولى التي رسمت في خارطة هذه الرحلة ، وبذلك فقد سبب الإسلام الرسول إلى المدينة بعامين • كانت هذه البيعة خطوة هامة لا بد من إتمامها ورصد نتائجها ، فقد تمت بوقتها وبحدودها وبإيجادها ، وكانت نتائجها من الخطورة بمكان • لقد مر علينا شمس تفصيلاتها ونتائجها التي أدت إلى الخطوة التالية وهي بيعة العقبة الثانية والتي كانت أخطر من سابقتها وأبعد أثراً ، وأعطت من النتائج أيضاً ما كان له الأثر الكبير للتحرك في الخطوة الثالثة ، والتي كانت هجرة المسلمين إلى المدينة وتشكيل القوة النافذة القادرة على الردع والحماية والقتال ، وهذه المرة فقد أذن للرسول به - كما سبق القول أيضاً - هذه الخطوات الثلاث قد أمنت الملجأ ، وأمنت الحماية ، وأمنت المنان وأمنت الرجال وثبتت العقيدة ، وشدت الناس إلى هذا الحدث الكبير الذي سيقع في المراحل التالية والتي كانت قد أعدت لمتابعة الخطوات السابقة •

أما هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم فقد نالت قوة الدفع الكبرى التي كانت البدايات والنتائج تحسب لها • البدايات التي سبقتها وهيأت الأجواء لحصولها ، والنتائج التي خلفتها وغيرت

من مجريات الأحداث بعدها .

أما هجرته عليه السلام ، وهي القضية وهي الحدث فقد مرت هي الأخرى بمراحل خطيئة لحدث خلل بواحدة فيها لما تمت الهجرة ، ولأن مجرى التاريخ منذ ذلك الوقت قد نحى منحاً آخر . والهجرة في تاريخ العالم شعاع خير وبركة أزالته عنه كابوس الظلم والظلمة وأحلت محله الخير والبركة والتقدم والعدل والسلام .

والهجرة في تاريخ الإسلام نقطة التحول الخطيرة في حياة العرب والإسلام ، فقد انتقلت جماعة المسلمين من مخية المطاردة والملاحقة والقتل والقهر إلى طريق الخلاص والجهاد والانتصار . والهجرة في تاريخ الإسلام أيضاً بداية له ومنطلقاً لمبادئه وأهدافه إلى عالم تحكمه الأهواء والمعاشحات إلى عالم متطور واع ، متقدم ، موحد .

وهذه الهجرة النبوية الكريمة بمراحلها المختلفة هي العطاء الكبير الذي حف الله تعالى به نبيه صلى الله عليه وسلم وأخرجه إلى العالم ينشر دعوته ويبلغ رسالته .

وأقام الرسول صلى الله عليه وسلم بمكة بعد أصحابه من المهاجرين ينتظرون أن يؤذن له في الهجرة (١) ولم يتخلف معه بمكة أحد المهاجرين إلا أخذ فحبل أو فتن إلا علي بن أبي طالب وأبو بكر بن قحافة وكان أبو بكر كثيراً ما يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الهجرة فيقول له الرسول : لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحباً ، فطمع أبو بكر أن يكون هو (٢)

قال تعالى : " وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِيْ مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِيْ مِنْ لَّدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيْرًا " (٣) أرشده الله وألهمه أن يدعو بهذا الدعاء ، أن يجعل له مما هو فيه فرجاً قريباً ، ومخرجاً عاجلاً ، فأذن له تعالى في الهجرة إلى المدينة حيث الأنصار والأحباب ، فصارت له داراً وقراراً وأهلها له أنصاراً .

قال أحمد بن حنبل ، وعثمان بن أبي شيبة عن جرير عن قايص بن أبي ظبيان عن أبيه عن ابن عباس : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ، فأمر بالهجرة وأنزل عليه " وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِيْ الْخِ الْاِيَّةَ " وقال قتادة : " أَدْخِلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ " المدينة . " وَأَخْرِجْنِيْ مُخْرَجَ صِدْقٍ " الهجرة من مكة " وَاجْعَلْ لِيْ مِنْ لَّدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيْرًا " كتاب الله وفرائضه وحده (٤)

١ - فلما رأيت فريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد صار له شيعة وأصحاب من غيرهم بخير بلد هم رؤوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم ، عرفوا أنهم قد نزلوا داراً وأصابوا منهم منعة فحذروا خروج رسول الله ، وعرفوا أنه قد أجمع لهم ، فاجتمعوا له في دار الندوة ، وهي دار قسي بن كلاب التي كانت فريش لا تقضي أمراً إلا فيها يتشاورون فيما يمشرون في أمر رسول الله حين فاتوه (٤)

(١) السيرة النبوية - ابن كثير ٢ / ٢١٥

(٢) الطبري - تاريخ ٢ / ٢٦٩ - السيرة النبوية - ابن كثير ٢ / ٢٢٦

(٣) سورة الاسراء - آية ٨٠

(٤) السيرة النبوية - ابن كثير ٢ / ٢٢٧

قال الحلبي : دار الندوة من جهة الحجر عند مقام الحنفي الآن - زمن المؤلف - وكان لها باب إلى المسجد أعدت للاجتماع للمسورة ، وكانت قريش لاتقضي أمراً إلا فيها . وكانوا لا يدخلون فيها غير قريش إلا أن بلغ أربعين سنة بخلاف القرشي ، وقد أدخلوا أبا جهل ولم تكتمل لحيته . وكان اجتماعهم يوم السبت يوم مكر وخديعة . وكان اجتماعهم هذا ليتساوروا فيما يصنعونه في أمره صلى الله عليه وسلم . وكان المجتمعون مائة رجل ، وقيل خمسة عشر ، وكان يسمى ذلك اليوم يوم الزحمة لأنه اجتمع فيه أشرف بني عبد شمس بنو نزل ، وبني عبد الدار ، وبني أسد ، وبني مخزوم ، وبني جهم ، وبني الحرث ، وبني كعب ، وبني تيم ، وبني عدي وغيرهم ، ولم يتخلف عن أهل الرأي والحجاء عليهم أحد (١) وأجمعت كتب السيرة والتاريخ والمنازل أن هذا الاجتماع كان من أخطر الاجتماعات التي حضرتها كل بطون قريش ، لتضخ حذاً نهائياً لمشاكلتها مع رسول الله . وقلب القوم رجوه الرأي ، وتوسعت المصادر بذكر الآراء المتدارلة إلى أن دخل عليهم إبليس برجل نجدى واقترح عليهم أن يخرجوا من كل قبيلة رجلاً شديداً مشهوراً بالقوة والبأس والطعان ويجتمع هؤلاء بينهم لوالى على محمد بسيرتهم في وقت واحد فيقتلوه ، ويتوزع دمه بين بطون قريش وقبائلها فلا يتمكن بنو هاشم من حرب هذا الحلف الذي ضمهم جميعاً فيقبلون بالدية . وراق الرأي للمتأمرين وكانت مسورة إبليس حتى يحبط كل عمل من أعمال هذه الدعوة ، ويقتل محمد تنتهي دعوة الإسلام التي مضى على وجودها ثلاث عشرة سنة لاقى القرشيين خلالها الكثير من تسفيه الرأي وكشف الزيف وضلال الاعتقاد وتفاهة أصدانهم وتخفيرا لألهمهم ، وفوق هذا تهديد مركزهم الديني الكبير بين القبائل ، وعقد الحلف على هذا الرأي واختار القوم من رجالهم الأنداء للقيام بهذه المهمة السعبة ومحاصرة بيت الرسول والقضاء عليه .

وكان في القوم الحكم بن أبي العاص ، وعقبة بن أبي معيط ، والنضر بن الحارث ، وأمية بن خلف وزمعة بن الاسود ، وأبو الهيثم ، وأبو جهل (١)

٢ - وجاء جبريل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وأخبره بخبر القوم ، وطلب منه أن لا يبيت ليلته تلك في بيته . فلما كان عتمة من الليل اجتمعوا على بابه يريدونه حتى يناه فيقعرون عليه ، فلما رأى الرسول مكانهم قال لعلي بن أبي طالب : نم في فراشي وتسجى ببردي هذا الحضرمي الأخضر فم فيه فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينسجم في برده ذلك إذا نام .

وهذه القصة التي ذكرها ابن اسحاق رواها الواقدي بأسانيده عن عائشة وابن عباس وعلي بن سراقبة بن مالك بن جعشم وغيرهم .

دخل حديث بعضهم في بعض فذكر نحو ما تقدم .

قال ابن اسحاق : فحدثني يزيد بن أبي زياد عن محمد بن كعب القرظي قال : لما اجتمعوا له ومنهم أبو جهل قال وهم على بابه : أن محمداً يزعم أنكفأنا بستموه على أمره كتم ملوك العرب والعجم ، ثم بعثتم من بعد موتكم ، فجعلت لكم جنان الأردن . . . وإن لم تفعلوا كان فيكم ذبح ، ثم بعثتم بعد موتكم ، ثم جعلت لكم ناراً تحرقون فيها .
قال : فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخذ حفنة من تراب في يده ثم قال : نعم أنما أقول ذلك وأنت أحدهم .

وأخذ الله على أبصارهم عنه فلا يرونه فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم وهو يتلوه هذه الآيات " يَسْأَلُكَ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ، إِنَّكَ لَعِنَ الْعَرَبِيِّينَ ، عَلَى سِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . . . " الى قوله تعالى " وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْصَيْنَاهُمْ فَعَيْتُهُمْ لَا يَبْصُرُونَ . . . " (١) ولم يبق رجل إلا وضع على رأسه تراباً ، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب .

فأتاهم آتٍ ممن لم يكن معهم فقال : ما تنتظرون عننا ؟ قالوا : محمداً . . . فقال : خيبكم الله قد والله خرج عليكم محمد ، ثم ما ترك رجلاً منكم إلا وضع على رأسه تراباً ، وانطلق لحاجتهم أنما ترون ما بكم ؟ . . .

قال : فوضع كل رجل منهم يده على رأسه ، فاذا عليه تراب ، ثم جعلوا يتطلعون فيرون علياً على الفراش متسجياً ببرد رسول الله فيقولون : والله إن هذا لمحمد نائماً عليه برده ، فلم يبرحوا ذلك حتى أصبحوا ، فقام علي عن الفراش ، فقالوا : والله لقد صدقنا الذي كان حدثنا .
قال ابن اسحاق : فكان مما أنزل الله في ذلك اليوم وما كلنوا أجمعوا له قوله تعالى :

" وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُبْسِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ، وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٢)
وقوله : " أَمْ يَقُولُونَ كَشِيعَةِ فَتْرَةٍ يَهْدِيهِ رَبُّهُمُ الْغَيْبُ قُلْ تَرْتَقُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَكِّبِينَ (٣)
قال ابن اسحاق : فأذن الله لنبيه صلى الله عليه وسلم بالهجرة (٤)

٣ - خرج رسول الله من الحصار سالماً متهدياً محاصره ، تاركاً على رؤوسهم علامة . ومرره من أمامهم وهذا منتهى التحدي ، لم يخرج من باب خلفي ، أو يتأمر من بعض المحاصرين ليفتحوا له شفرة يخرج منها ، لكنه خرج يحمل إيمانه الكبير مستهيناً عليهم بالله تعالى الذي أرسله فهو يحميه وهو الذي يمنعه من أعدائه ، فجعل بين أيديهم سداً فلم يروه ، ومن خلفهم سداً فلم يشعروا به أو يلحقوه . خي عليه السلام من هذا الحصار وعلي بنا مطمئناً دون أن يساروه

(١) سورة يس آية ١ - ٤ و ٩ (٢) سورة الانفال آية ٣٠

(٣) سورة الطور آية ٣١

(٤) السيرة النبوية - ابن كثير ٢ / ٢٣١ - الطبري - تاريخ ٢ / ٢٧٢ - ٢٧٣

الشك أو الخوف وأربعون سيفاً بأيدي المحاصرين مشحونة لتمهيد عليه في كل لحظة ، نام علي قري العين فقد وعده الرسول بأنهم لن ينالوا منه ولن يصلوا إليه ، لم يخف ولم يشك لحظة واحدة انه خافي من بين أيديهم في كل لحظة واحدة ، إنه ناج منهم بإذن الله .

خبر المرسل صلى الله عليه وسلم الى معصده وأذن الله له بالهجرة ، فلم يحد في مكة من أمل لاني أهلها ولا فيمن بقي فيها . ولم يبت أمامه إلا الطريث إلى المدينة ، فالطريث مفتي والأنصار ينتظرون هناك ليصل إليهم ليوفوا له ما وعده وما عاهدوه عليه (١)

٤ - أجمعت كتب السيرة والتاريخ بما فيهم الطبري في تاريخه على أن الرسول صلى الله عليه وسلم ما حبس أباً بكر في مكة إلا ليأمله بصحبته في الطريث . وأعد أبو بكر راحلتين وعلفهما لهذا اليوم . وقد ذكر الجميع أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أتى إلى بيت أبي بكر برواية عائشة قالت : حتى إذا كان اليوم الذي أذن فيه الله لرسوله بالهجرة والخروج من مكة من بين ظهرائي قومه أتانا رسول الله بالمهاجرة في ساعة كان لا يأتي فيها .

قالت : فلما رآه أبو بكر قال : ما جاء رسول الله في هذه الساعة إلا لأمر حدث ، قالت : فلما دخل تأخر له أبو بكر عن سريره فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس عند رسول الله (٢) أحد إلا أنا وأختي أسماء . فقال رسول الله : أخي عني من عندك . قال : يا رسول الله إنما هما ابنتاي وما ذاك فذاك أبي وأمي . قال : إن الله قد أذن لي في الخروج والهجرة .

فقال أبو بكر : الصحبة يا رسول الله ؟ قال : الصحبة

قالت فوالله ما شحرت قط قبل اليوم أن أحداً يبكي من الفرح حتى وأيت أباً بكر يومئذ يبكي . ثم قال : يا نبي الله إن هاتين راحلتين كت أعددتكما لهذا .

قال ابن اسحاق : ولم يعلم فيما بلغني بخبر رسول الله أحد حين خرج إلا علي بن أبي طالب وأبو بكر الصديق وآل أبي بكر .

أما علي فإن رسول الله أمره أن يتخلف حتى يؤدي عن رسول الله الودائع التي كانت عنده للناس وكان رسول الله وليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده لما يعلم من صدقه وأمانته (٣)

(١) لقد اعترت هجرة الرسول أول التاريخ الإسلامي ، كما اتفق عليه الصحابة في خلافة عمر . قال البخاري حدثنا مطر بن الفضل ، حدثنا روح ، حدثنا هشام ، حدثنا عكرمة عن ابن عباس قال : بعث النبي صلى الله عليه وسلم لأربعين سنة فمكث فيها (أى مكة) ثلاث عشرة سنة يرحى إليه ، ثم أمر بالهجرة فهاجر عشر سنين ومات وهو ابن ثلاث وستين سنة ، وقد كانت هجرته سنة ثلاث عشرة من بعثته عليه السلام وذلك بين الاثنين . كما رواه الإمام أحمد عن ابن عباس أنه قال ولد نبيكم يوم الاثنين ، وخرج من مكة يوم الاثنين ، ونبي يوم الاثنين ، ودخل المدينة يوم الاثنين وتوفي يوم الاثنين . السيرة النبوية - ابن كثير ٢/٢٢٢

(٢) السيرة النبوية - ابن هشام وليس عند أبي بكر ٢/١٢٩

وذكر الطبري (١) أن بعضهم قد زعم أن أبا بكر أتى علياً فسأله عن النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره أنه لحق بالنار من ثور ، وقال : إن كان لك فيه حاجة فالحقه ، فخرج أبو بكر مسرعاً فلحق بنبي الله في الطريق فسمع رسول الله جرشاً أبي بكر في ظلمة الليل فحسبه من المشركين ، فأسرع رسول الله المشي فانقطع قبال نعله ففلق إبهامه حجرة فكثر دمها ، وأسرع السعي مخافاً أبو بكر أن يشن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فرفع صوته وتكلم ، فعرفه رسول الله فقام حتى أتاه فانطلقا ورجل رسول الله تستن دماً حتى انتهى إلى الثمار مع الصبح فدخلاه

وأصبح الرهط الذين كانوا يرصدون رسول الله فدخلوا الدار وقام علي من فراشه ، فلما دنوا منه عرفوه ، فقالوا له أين صاحبك ؟ قال لا أدري ، أو قريباً كنت عليه ، أمرتموه بالخروج فخرج ، فانتبهوه وضربوه ، وأخرجوه إلى المسجد فحبسوه ساعة ثم تركوه ، ونجى الله رسوله من مكروهم .

٥ - وبدأت رحلة الهجرة المباركة . بدأت رحلة الفتح العظيم التي غيرت كل مجريات الأحداث والأزمان فقد استأجر الرسول صلى الله عليه وسلم وأبو بكر عبد الله بن أرقط ، قال ابن هشام : ويقال عبد الله بن أرقط رجلاً من بني الدليل بن بكر ، وكانت أمه من بني سهيم بن عمرو وكان مشركاً يد لهما الطريق ودفعاً إليه راحلتيهما ، فكانتا عنده يرعاها ليعادا هما .

قال ابن اسحاق : فلما أجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الخري أتى أبا بكر بن قحافة فخرجاً من خوذة لأبي بكر في ظهر بيته .

وقد روى أبو نعيم من طريق إبراهيم بن سعد عن محمد بن اسحاق قال : بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خرج من مكة مهاجراً يريد المدينة قال : الحمد لله الذي خلقتني ولم أك شيئاً ، اللهم أعني على هول الدنيا ، وبوائق الدهر ، ومصائب الأيام والليالي ، اللهم اصحبني في سفرى ، واخلفني في أهلى وبارك في رزقى ، ولك فذللتني ، وعلى صالح خلقتي فقروني ، وإليك رب فحببني ، وإلى الناس فلا تكني ، رب المستضعفين وأنت ربي ، أعوذ بوجهك الكريم الذي أشرقت له السماوات والأرض وكسفت به الظلمات ، وصل عليه أمر الأزلين والآخرين ، أن تحل علي غدير بك ، أو تنزل بي سخطك ، أعوذ بك من زوال نعمتك ، وفجأة نعمتك ، وتحول عافيتك ، وجميع سخطك لك العتبي عندى خير ما استطلعت راحل ولا قوة إلا بك (٢)

واحتاط أبو بكر للأمر فأمر ابنه عبد الله أن ياتيهما مساءً بخبر القوم إلى غار ثور ، وكان من فهيرة راعي غنمه أن يريخ أغنامه بالقرب منهم ، وابنته أسماء تحضر لهما الزاد ، ومكت في غار ثور

= (٣) و (١) الطبري - تاريخ ٣٢٤ / ٢ - ٣٢٦ . السيرة النبوية - ابن كثير ٢ / ٢٢٣ - ٢٣٥ . السيرة النبوية - ابن هشام ٢ / ١٢٨ - ١٢٩ . السيرة النبوية - دحلان ١ / ٣٠٦ . السيرة الحلبية - علي الحلبي ٢ / ٣٦

(٢) السيرة النبوية - ابن كثير ٢ / ٢٢٤ - ٢٣٥

حتى ضل الذين لعقروا الرجلين يبحثان عنهما في كل فج وواد ، وجبل رسبل ، حتى أعيتهم الحيل وصورت كتب السير والتاريخ أخبار نسيج العنكبوت على باب النار وباضي الحمام على مدخله مما أبعد من ذهن المطاردين أن يكونا في هذا المكان ، وتحول القرشيون إلى وعر الجرائز العسرية لمن يحضر محمداً حياً أو ميتاً بجوائز يسيل لها لعاب الأغنياً قبل الفقراء رهي ، ولا يحلم بهما أي إنسان أن يقفز فبجأة إن حصل على هذه الجائزة إلى مضاف كبار الأغنياً .

لقد فقد المحاصرون رشدهم عندما خرج الرسول من أيديهم فسيبوا نعمتهم على علي ، ولما لم يفعل أمرهم لحقوا الرسول إلى بيت أبي بكر فلما لم يجده له لطم أبو جهل خد أسماء بنت أبي بكر على وجهها فأطار قرطها من أذنها . واقتفى الرجال أثر الرسول صلى الله عليه وسلم وصاحبه فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم ، فصعدوا الجبل فمروا بالغار فأروا على بابه نسي العنكبوت فقالوا : لو دخل هاهنا أحد لم يكن نسيج العنكبوت على بابه ، فمكنا فيه ثلاث ليال .

وهذا إسناد حسن ، وهو من أجود ما روى في قصة نسيج العنكبوت على فم الغار . وذلك من حماية رسول الله صلى الله عليه وسلم (١)

فمكنا في الغار ثلاث ليال حتى حُمدت عنهما نار الطلب فبجأهما عبد الله بن أريقط بالراحلتين فارتحلا وأردف أبو بكر عامر بن فهيرة ، وسار الليل أمامهما ، وعين الله تكلوهما ، وتأيدته يصحبهما وإسعادته يرحلها وينزلها (٢)

وكان من قوله صلى الله عليه وسلم حين خرج من مكة لما وقف على الخزرة ونظر إلى البيت قال : والله إنك لأحب أرض الله إلي ، وإنك لأحب أرض الله إلى الله ، ولولا أهلك أخرجوني ما خرجت منك (رواه الامام احمد والترمذي)

وفي رواية له عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ما أطيبك من بلد وأحبك إلي ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك .

٦ - حين الرسول وصاحبه ومن معهم من غار ثور بعد أن مكنا به ثلاث ليال ، ومع أن الطلب لم ينقطع خلال هذه الفترة ، والدلائل تشير إلى أن غار ثور هو المقصد إلا أن إرادة الله تعالى حمتهما وحالت بينهما وبين قريش . روى أن أبا جهل لعنه الله لقيهما فاعى الله بهسره عنهما حتى مضيا . ولما فقدت قريش رسول الله طلوه بمكة أعلاها وأسفلها ، وبعثوا القافة (وهو الذي يقتني الأثر) في كل وجه ، وفي رواية قال لهم القائف . هذا القدم قدم ابن أبي قحافة وهذا الآخر لا عرفه إلا أنه يشبه القدم الذي في العظام (يعني قدم ابراهيم عليه السلام)

(١) السيرة النبوية - ابن كثير ٢ / ٢٣٩ - الطبري - تاريخ ٢ / ٢٧٩ - ٣٨٠ السيرة النبوية -

دحلان ١ / ٣٠٨ - ٣٠٩ امتاع الاسمان - المعري ١ / ٣٨ - ٣٩

(٢) زاد المعاد - ابن القيم ٣ / ٥٤ وفاة الوفا ١ / ٢٤١

فقال قريش : ما وراء هذا شي .

وشق على قريش خروجه ، وجزعوا لذلك ، وجعلوا مائة ناقة لمن رده عن سيره ذلك بقتل أو أسر (١)
قال تعالى في هذه الهجرة : (إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْكَافِرِينَ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا اللَّهُ مَعْنَا فَاَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَةً عَلَيْهِ وَأَيْدِيَهُمْ فَاَوْجَدُوهُ لَمْ تَرَوهَا وَتَعَلَّ كَلِمَةً الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (٢)

٧ - غليان في مكة وحسرة وندم وعتاب وكلام كثير . فقد تمكن محمد من الخروج من مكة ولم تتمكن قريش أن تنال منه شيئا . وانفق يلقون بعضهم بعضاً على ما فرطوا في خروج محمد من عندهم وكادوا أن يصلوا إلى نقطة النهاية بالنسبة للعلاقة المتشددة بينهم وبين هذه الدعوة ، ولذلك فقد أصبح أمرهم في طيش زرعونه وردود فعل قاسية وأول شيء عملوه هو أنهم أخذوا بالشسدة والأسر والسجن على من أسلم ولم يهاجر ، إلى درجة أنهم اتخذوا بيوتهم الخاصة والعامة محتلات وأماكن تعذيب للمسلمين .

وفي الجانب الآخر في الشمال كانت يشرب تخلي ، المؤمنون ينتظرون رسول الرسول صلى الله عليه وسلم على أحر من الجمر ، يتسرفون لرؤيته من رآه ومن لم يره بعد ، وكلام قد أعدوا أنفسهم لكل ما يطلب منهم من تضحيات مادية أو جسدية أو معنوية . الكل من أهل يشرب مؤمنهم وكافرهم وحتى يهودهم والعماجر أيضاً يستعدون استعدادات غير عادية لهذا اللقاء المرتقب . أهل يشرب جميعاً ينتظرون فقد تناهت الأخبار إليهم أن محمداً قد غادر مكة متوجهاً إليهم . وفي الطريق محمد وصاحبه ومرافقوهما ، وأيضا الحالون بالثروة والغني يتبعون خطوات محمد حتى يصبحوا أغنياء ويملكون النوق (الجائزة) لمن يأتي بمحمد حياً أو ميتاً ، ومن هؤلاء خرج رجل قادر على أن ينال من محمد بقوته وعزمته ، وجبروته وفروسيته إن شاء فليكن هو صاحب الجائزة . . . إنه سراقه بن مالك .

روى محمد بن اسحاق عن الزهري عن عبد الرحمن بن مالك بن جعشم عن أبيه عن عمه سراقه أنه - أن سراقه - استقسم بالأزلام أول ما خرج من منزله - فاقدا قتل أو أسر محمد والغوز بالجائزة فخن السهم الذي يكره ، لا يضره ، وذكر أنه عشر به فرسه أربع مرات وكل ذلك يستقسم بالأزلام ويخرج الذي يكره : لا يضره . . حتى ناداهم - أي الرسول وأصحابه - بالأمان . يسأل الرسول صلى الله عليه وسلم أن يكتب له كتابا يكون أمانة ما بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) السيرة النبوية - دحلان / ١ - ٣٠٢ - ٣٠٨

(٢) سورة التوبة آية ٤٠

قال : فكتب لي كتابا يكون اشارة ما بينه وبين رسول الله في عظم ، أو ورقة ، أو حزمة وذكر سراقه :
 أنه جاء به إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وهو بالجهرانة مرجعه من الطائف فقال له الرسول :
 (اليوم) يوم وفاة . و هو . أنه يقرب سراقه : فدوت منه فأسلمت ولما رجع سراقه بعد أن أخذ الكتاب
 من الرسول والعهد عاد إلى قومه جعل لا يلقى أحداً من الـطلب إلا رده وقال : كفيتم هذا
 الرجح (١)

هذه الأولى في طريق الهجرة والثانية أن الرسول وأصحابه قد مروا بقديد على أم معبد (عائكة)
 بنت خالد الخزاعية) وكانت تحث ابن عمها ويقال له تميم بن عبد العزى بن منقذ بن ربيعة
 الخزاعي وكان منزلها بقديد .

أخبرنا محمد بن عمر عن حزام بن هشام عن أبيه عن أم معبد قالت : طلع علينا أربعة على راحلتين
 فنزلوا بي فجنثت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بشاة أريد أن أدبجها فإذا هي ذات در فأذنتها
 منه فلم يضرعها فقال : لاتدبجها . . فأرسلتها . قالت : وجنثت بأخرى فدبجتها فطحنت لهم
 فأكل هو وأصحابه قلت : ومن معه . . ؟ قالت : ابن أبي قحافة ومولى ابن أبي قحافة ، وابن أريقط
 وهو على شركه قالت : فتغدى رسول الله منها وأصحابه ، وسفرتهم منها ما وسعت سفرتهم ، وبقي
 عندنا لحمها أو أكثره فبقيت الشاة التي لم يمس رسول الله ضرعها عندنا حتى كان زمان الرمادة - زمن
 عمر بن الخطاب - وهي سنة ثمانى عشرة للهجرة . قالت وكنا نحلبها صبحا ومبشوا ، وماي الأرس
 قليل أو كثير . وكانت أم معبد يومئذ مسلمة .

قال محمد بن عمر وقال غيره ، بل قدمت بعد ذلك وأسلمت وبايعت (٢)

وما زالت قريش تطلب النبي صلى الله عليه وسلم حتى بلغوا أم معبد فسألوها عنه صلى الله عليه
 وسلم ووصفوه لها فقالت : ما أدري ما تقولون قد صادفني حالب الحائل . فقالوا ذاك الذي نريده ،
 ثم أسلمت وهاجرت . قال السيد السمعودي في الوفاء : هاجرت هي وزوجها وأسلمت . وفي
 خلاصة الوفاء فخر أبرسعيد في أنهم ليسلم فيقال أنه أدركهم ببطن ريم فبايعه وانصرف .
 أما الثالثة في طريق الهجرة : أخرج البيهقي عن بريدة بن الحبيب رضي الله عنه قال : لما جعلت
 قريش مائة ناقة لمن يرد النبي صلى الله عليه وسلم حملني الطمع ، فركبت في سبعين من بني سهم
 فلقيته صلى الله عليه وسلم . فقال : من أنت ؟ قلت ، بريدة ، فالتفت رسول الله إلى أبي بكر
 وقال : برد أمرنا وصلح . ثم قال : ممن أنت ؟ قال : سلغنا . ثم قال : ممن ٢٠٠٠

(١) السيرة النبوية - ابن كثير ٢٤٨ / ٢ بتصرف . السيرة النبوية - دحلان ٣١٨ / ١

(٢) الطبقات - ابن سعد ٢٨٨ / ٢ - ٢٨٩ . أكثر كتب السيرة تقول : بان الشاة التي لم يمس الرسول
 ضرعها كانت هزيلة ، مريضة ، غير حلوب ، ولا يأتيتها الفحل ، فأخذها الرسول وحلب منها ، وشرب
 وسقى القوم وأم معبد وأبقى عندهم . والشاة الثانية استلقتها أم معبد من جيرانها ودبجتها
 لهم زيادة في إكرامهم والترحيب بهم . السيرة النبوية - دحلان ٣١٥ / ١ وفاء الوفاء - السمعودي

قلت : من بني سبهم • قال : خن سبهمك يا أبا بكر • فقال بريدة للنبي من أنت ؟ قال : أنا محمد بن عبد الله رسول الله • فقال بريدة : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله فأسلم بريدة ، وأسلم من كان معه جميعاً •

قال بريدة : الحمد لله الذي أسلم بنو سبهم طائعين غير مكرهين ، فلما أصبح قال بريدة : يا رسول الله لا تدخل المدينة إلا ومعك لواء • فحل عمامته ثم شدها في رمح ثم مشى بين يدي رسول الله حتى دخلوا المدينة •

٢ - دخول الرسول إلى المدينة

كانت الهجرة انتصارات تتلوها انتصارات من إسلام أم معبد ، إلى تراجع سراقة ، إلى إسلام بني سبهم وهو مطارد • يدعو الله تعالى وهو الداعية العابر وفي كل مراحل حياته فكانت مطاردته ومطارده خير وبركة فقد دخل كل هذا الرهط في الإسلام • ويدخلون جميعاً في عهد الرسول وبيعته •

أهل يثرب في انشغال كبير فقد خرج الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة مهاجراً منذ أيام • والعدة التي انقضت كافية للوصول إلى المدينة ، فأخذ الناس يستعدون لاستقبال هذا القادم الكريم بعفوية تامة • ليس في أذهانهم إلا أن نبياً هادياً جاء ليخلصهم من الظلمات إلى النور ، فلم يدر في خلد هـم أن بعضاً منهم سيدفن في عاصمة الروم ، أو يهدم حواضر الفرس ويزيل قلاع الطواغيت ، ويهدم معقل الظلام ، تماماً عندما تحدثت الأخبار عندما وعد الرسول صلى الله عليه وسلم سراقة بن مالك وعداً لا يمكن أن يطبق ولا يصدق عاقل في ذلك الوقت وعده أن يعطيه سوارن كسرى • • فقال سراقة باستنراب شديد • • كسرى هـرمز ؟ • قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم • • نعم وطوى سراقة الخبر في نفسه ، ومرت الأيام وذهب إلى الرسول في الجعرانة ليريه عهده فرفاه الرسول عليه السلام ذلك العهد • • لكن الوعد أن يلبس سوارن كسرى فقد حصل ذلك في خلافة عمر رضي الله عنه عندما ورد السوارن المدينة في جملة غنائم فارس فأعطاها عمر لسراقة وقال له : هذا ما وعدك به رسول الله وأخذ سراقة يمشي في طرقات المدينة رافعاً يديه ويقول صدق رسول الله ، صدق رسول الله (٢) الله أكبر الحمد لله الله أكبر الحمد لله الذي سلبهما كسرى بن هـرمز وألبسهما سراقة بن مالك أعرابياً من بني مدليج • فهل يصدق أن أبا أيوب الأنصاري الذي ما عرف أكثر من حد ود يثرب أن يقطع الدنيا غازياً

(١) السيرة النبوية - دحلان / ١ / ٣١٦ • وفاة الوفا - السهمودي / ١ / ٣٤٢

(٢) السيرة النبوية - دحلان / ١ / ٣١٦

في سبيل الله ريشارك في حصار القسطنطينية يريد فن عند أسرارها ؟
هؤلاء الذين ينتارون محمداً في المدينة عند هجرته من مكة ، أحبره صلى الله عليه وسلم وانتشروا
قدومه ، ولم يدر في خلد هم أكثر من هذا . فليس في مخططاتهم أكثر من حماية هذا الذي لم
تقبل به بلده (مكة) نبياً هادياً فلدجأ إلى المدينة يستبي بأهلها ، ويستصر بهم لإبلاغ رسالة
ربه إلى الناس .

يخني الناس مبكرين مصبحين ينظرون الأفق البعيد باتجاه مكة عليهم يرون القادم المنتظر السنئ
شغل عليهم كل تفكيرهم . في الوقت الذي خن أهل مكة وقد شغل عليهم تفكيرهم أيضا يطاردونه
ويرصدون الجوائز لأسره حياً أو ميتاً .

هذا حال القرينين ومحمد بينهما خلف وراءه بلده فقام إلى المدينة ، وهذه هي نفوس القس
حالة الترقب التي يعيشها الليثيون ، وحالة الحقد والضخينة التي يعيشها العيون في يوم كان
بداية التاريخ دنيا الإنسانية العادلة ، بداية التاريخ للمسلمين (١) ، بداية لانقشاع الظلام
وانتشار النور ، بداية تاريخ الانسان المتعلق بالله ، الذي ربي دين الله رهداه .

وترك خلفه ما توارثه الناس من ضلالات الآباء والأجداد ، وما حرفه الإنسان وما زوره ليستخدمه
لصالحه ولصالح مطامعه وأطماعه .

هذا هو محمد الأمين صلى الله عليه وسلم . خلف علياً على وداع الناس ليردها - وهم الذين
يريدون قتله - يعد بسواري كسرى وهو لا يستطيع ان يضبط أي شيء حوله . آخرون يأتونه
مطاردين فيؤمرون وبهايعون . وصاحب وصاحبة شاة جربا ، تحلب لبناً تشبه المهاجر وأصحابه
وأهل دار صاحبها ، فينطلق هؤلاء خلف النبي ليحلنوا إسلامهم وأهل يثرب يتسلقون المباني
والآطام والأشجار ، يصعدون كل مكان مرتفع عليهم يتننوا أول من تنتحل عيونهم بؤبؤاه .

ويلع الأنصار مخن رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة وقصده المدينة ، وكانوا يخرجون كل يوم
إلى الحرة ينتظرونه أول النهار ، فإذا اشتد حر الشمس رجعوا على عادتهم إلى منازلهم ، فلما كان
يوم الإثنين ثاني عشر ربيع الأول على رأس ثلاث عشرة سنة من النبوة خرجوا على عادتهم فلما
حامي حر الشمس رجعوا ، وصعد رجل من اليهود على أطم من آطام المدينة لبعض شأنه فرأى
رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه مبيضين يزول بهم السراب ، فصرخ بأعلى صوته . يا بني
قيلة هذا صاحبكم قد جاء . هذا جدكم الذي تنتظرونه . فبادر الأنصار إلى السجود

(١) الطبري - تاريخ ٢ / ٣٨٨ حيث افرد مضاعفاً عن الوقت الذي عمل فيه التاريخ .

ليلتقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم • وسمعت السريجة والتكبير في بني عمرو بن عوف ، وكبسر
المسلمون فرحاً بقدومه ، وخرجوا للقائه • فتلقوه رحيره بتحية النبوة مطيعين - قوله ، والسكينة
تخشاه والرحي ينزل عليه • فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةَ بَعَثَ كُلُّهُمْ (١)
فسار حتى نزل بقاء في بني عمرو بن عوف ، فنزل على كلثوم بن الهمدم ، وقيل بل على سعد
بن خيثمة ، والأول أثبت ، فأقام في بني عمرو بن عوف أربع عشر ليلة ، رأس مسجد قباء وهو أول
مسجد أسس بعد النبوة (٢)

وفي رواية لما دنوا من المدينة بعثوا رجلاً من أهل البادية إلى أبي أمامة أسعد بن زرارة وأصحابه
من الأنصار • ولما منع من الأمرين • فثار المسلمون إلى السلاح فتلقوا رسول الله صلى الله عليه
وسلم بظم الحرة ، وهو من أبي بكر رضي الله عنه في ظل نخلة كانت هناك • ثم قالوا لهم ما
ادخلنا آمنين مطمئنين •

وفي رواية فاستقبله صلى الله عليه وسلم زهاء خمسمائة من الأنصار فقالوا : ركب آمنين مطاعين
فعدلنا ذات اليمين حتى نزلنا بقاء في دار عمرو بن عوف وذلك يوم الاثنين لاثني عشرة ليلة خلت
من ربيع الأول • وكان نزوله صلى الله عليه وسلم عند كلثوم بن الهمدم لأنه شيخ بني عمرو بن عوف
وهم بطن من الأوس • وكان كلثوم يومئذ مشركاً ثم أسلم رضي الله عنه وتوفي قبل غزوة بدر بيسير •
وقيل أسلم قبل رسوله صلى الله عليه وسلم المدينة ، وعند وصوله نادى كلثوم : يا نجيب لسلام له •
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر رضي الله عنه - نجحت يا أبا بكر •
وكان يجلس للناس ويتحدث مع أصحابه في بيت سعد بن خيثمة لأنه كان عزيزاً لأهل له هناك
وكان منزله يسمى منزل الحزاب ، وهذا يجمع بين قول من قال : نزل على كلثوم ، ومن قال نزل
على سعد بن خيثمة (٣)

(١) سورة التحريم آية ٤

(٢) زاد المعاد - ابن القيم ٥٨ / ٣ • وفاء الوفا - السمعاني ٢٤٤ / ١

(٣) السيرة النبوية - دحلان ١ / ٣٢٢ الطبري - تاريخ ٢ / ٢٨٢ السيرة النبوية - ابن

كثير ٢ / ٢٦٢ السيرة النبوية - ابن هشام ٢ / ١٣٨ السيرة الخليلية - علي الحلبي ٢ / ٥٦
البداية والنهاية - ابن كثير ٣ / ١٩٦

بناء مسجد قبا بناه المسجد النبوي
وأثرهما في بناء الدولة الإسلامية

إن لقاء الرسول صلى الله عليه وسلم بأصحابه من أهل المدينة - مزروع دراستنا - وأهل مكة من المهاجرين هو نقطة البداية لعيالاد الهيكل السياسي للدولة الإسلامية ، لم يكن هذا الهيكل قد خطط له من قبل ، فان بنيانه قد تكفل به الله تعالى بآيات منزلات على رسول الله يرسم لــــه الطريق ، ويحدد له معالمه ، وبذلك فقد كانت البداية هي وصول الرسول صلى الله عليه وسلم إلى مأمنه في يثرب بين أنصاره وأصحابه .

ولكل تجمع سياسي مركز يشاد لتدار منه الدولة ، ويجتمع به رجالها . ومركز الدولة الإسلامية المسجد كان الرسول يركز دعوته في مكة بالمسجد الحرام ، ويلتقي بأصحابه - أحيانا - بالوفود القادمة إلى مكة فيه وكان يبيت للناس فيه . ولكن المشركين الذين دنسوا أرجاءه وأركانهم بأصنامهم وأزلامهم ، ومعبوداتهم كانوا يحولون بين الرسول وطهارة البيت الذي شيد أرلانه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، ولذلك فقد حصل التصادم الكبير بين أن يظهر هذا البيت ، أو يبقى كما هو ، وقد حوله أتباعه إلى مركز تدار منه وثنية جاهلية أوصلت الفص إلى هذا الدرك من التفكير والمعتقد . ولذلك فقد كانت رغبة الرسول قبل هجرته إلى المدينة أن يظهر هذا البيت إستجابة لأمر الله تعالى إلى نبيه إبراهيم * **كَيْدُ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَا ، وَتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُسَلِّيًّا وَعَنُدُنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهَّرْنَا بَيْتِي لِلْعَائِثِينَ وَالْعَاهِثِينَ وَالتَّرْكَى السُّجُودِ (١)**
(وَلَوْ بَدُّنَا إِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِك بِي شَيْئًا وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلْعَائِثِينَ وَالْعَاهِثِينَ وَالتَّرْكَى السُّجُودِ (٢)

ولعاضبي أهل مكة الذين دنسوا البيت بأوثانهم وأصنامهم انطلق الرسول صلى الله عليه وسلم بإذن من ربه إلى المدينة ، وليس في المدينة - كما سبق القول - مسجد أو مكان عبادة للناس ، وإنما يحجون إلى البيت الحرام . وليس في المدينة مركز تجمع يجتمع به الناس ويتلاقوا على عبادة معينة وليس فيها مقر يدير الناس شؤونهم منه ، بل كان الناس يلتقون في بيوت ساداتهم وفي آطامهم فكان من أول أولويات الرسول صلى الله عليه وسلم بعد وصوله إلى يثرب والتفائه بالأنصار والمهاجرين هو تشييد المسجد ، الذي ستتطلق منه الدعوة ، وتدار منه الدولة وتؤدي به النسك وتقام به الحدود . فان القوم مقدمون على أمر قد بينها الرسول صلى الله عليه وسلم ، ووميها أصحابه ، فإنهم قالوا عندما بايعوه في العقبة بأنهم مسيحيان الأبيض والأسود والأحمر ، فإن لقاء الرسول صلى الله عليه وسلم بجنوده معناه بدء المسيرة

الكبرى لتحقيق ما قاله الرسول • وليوصل هذا الدين إلى الناس كافة إن علم الرسول بمستقبل هذه الجماعة بروحي الله تعالى إليه قد جعله يبدأ خطواته الأولى ببناء المسجد بناء مركز الدولة بناء مركز الجماعة ، وبناء مركز الدعوة • ومع أن الرسول أول ما وصل نزل بقباء ، ولم يدخل المدينة بعد وإنما أقام في هذه الضاحية عند أعزب يجتمع لديه العزاب ، فإنه كان يجتمع بالناس في هذه الدار وقام فوراً بإنشاء مسجد قباء •

— بناء مسجد قباء ، ذكر البخاري عن الزهري ، عن عروة ، أنه نزل في بني عمرو بن عوف بقباء وأقام فيهم بضعة عشرة ليلة وأسس مسجد قباء في تلك الأيام (١)

لقد كان مكوث الرسول صلى الله عليه وسلم في قباء خمس عشرة ليلة ، وهي غير كافية للقيام بعمل شيء لأنه قام بها ببناء المسجد ، وهو أول مسجد أسس في الإسلام •

قال بعضهم : ولبت صلى الله عليه وسلم في بني عمرو بن عوف أي في قباء بقية يوم الإثنين وبين الثلاثاء وبين الأربعاء وبين الخميس وحتى يوم الجمعة • وقد لبت بضعة عشرة ليلة وهو المنقول عن البخاري وعن ابن عقبة أقام صلى الله عليه وسلم اثنتين وعشرين ليلة • هـ

وفي الهدى أقام أربعة عشر يوماً ، وهو ما في صحيح مسلم فلي تأمل •

وأسس في قباء المسجد الذي أسس على التقوى الذي أنزلت فيه الآية (٢) وصلى فيه رسول الله

صلى الله عليه وسلم • وقال في الهدى : ولأينافى هذا قوله صلى الله عليه وسلم ، وقد سئل

عن المسجد الذي أسس على التقوى ٢٠٠ فقال : مسجدكم هذا ، وأشار للمسجد المدينة ، وفي

رواية : فأخذ حصاة فضرب بها الأرض وقال : مسجدكم • يعني مسجد المدينة لأن كلا منهما

مؤسس على التقوى •

ونقل عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه يرى كل مسجد بني بالمدينة النبيلة لقباء أسس على

التقوى ، ولكن الذي نزلت فيه الآية مسجد قباء •

وكان محل مسجد قباء مرید ٠٠ أي محلات يجفف فيها التمر لكلثم بن الهرم ، وهو أول مسجد بني

في الإسلام لعنم المسلمين (٣)

وفي الصحيح : ولبت في بني عمرو بن عوف بضعة عشرة ليلة ، وأسس المسجد الذي أسس على التقوى

وفي رواية عبد الرزاق عنه قال : الذي بني فيهم المسجد الذي أسس على التقوى هم بنو عمرو بن

عوف وكذا في حديث ابن عباس عند ابن عابد ، ولفظة : ومكث في بني عمرو بن عوف ثلاث ليال

(١) السيرة النبوية — ابن كثير ٢/٢٦٧

(٢) (٠٠٠) لِمَسْجِدِ أَسَسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحْسَنَ أَنْ تَقْعَ فِيهِ ، فِيهِ رِجَالٌ يُدْعَوْنَ أَنْ يَنْتَظِرُوا

رَأَى اللَّهُ يَجِيبُ الْمُحْتَبِرِينَ) سورة براءة آية ١٠٨

(٣) السيرة الحلبية — علي الحلبي ٢/٥٩ بتصرف • السيرة النبوية — دحلان ١/٣٢٣ • اخبار

عن مسجد قباء في تاريخ المدينة — ابن سبويه ١/٤١ فما بعد

واتخذ مكانه مسجداً فكان يصلي فيه ، ثم بناه بنو عمرو بن عمرو فهو الذي أسس على التقوى .
روى يونس بن بكير في زيادات المغازي والمسعودي عن الحكم بن عتبة قال : لما قدم النبي
صلى الله عليه وسلم فنزل بقباة قال عمار بن ياسر : ما لرسول الله ^ﷺ من أن يجعل له مكاناً يستظل
به إذا استيقظ ويصلي فيه . فجمع حجارة فبنى مسجد قباة ، فهو أول مسجد بني — يعني لعامة
المسلمين — أو للنبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة .

وهو في التحقين أول مسجد صلى فيه بأصحابه جماعة ظاهراً ، وإن كان قد تقدم بناء غيره من
المساجد فقد روى ابن شبة عن جابر قال : لقد لبثنا في المدينة قبل أن يقدم علينا رسول الله
صلى الله عليه وسلم سنتين نحصر المساجد ونقيم الصلاة . ولذا قيل : كان المتقدمون في الهجرة
من أصحاب رسول الله والأنصار بقباة قد بنوا مسجداً يصلون فيه يعني هذا المسجد ، فلما هاجر
رسول الله صلى الله عليه وسلم وورد قباة صلى بهم إلى بيت المقدس ، ولم يحدث فيه شيئاً — أي في
باديء الأمر — لأن ابن شبة روى ذلك . ثم روى أنه صلى الله عليه وسلم بنى مسجد قباة ، وقدم القبلة
في موضعها اليوم وقال : جبريل يؤم بي البيت (١)

ومن بركات بناء مسجد قباة أنه جرى به أول تحطيم لعادات الجاهلية في مجتمع يثرب ، وأول خراب
على الفكر السياسي الجاهلي والفكر الاجتماعي والذي كان سيد الأحكام في مجتمع يثرب والعرب
عامة وهو قضية الأخذ بالتأثر . على الرغم من أن هذا الترجمة قد أخذ يخبو ويضمحل منذ أن التقى
الأوسيون والخزرجيون في بيعة واحدة هي بيعة العقبة ، ودخول الفريقين الإسلام إلا أن المبدأ
لم يمح تماماً إلا في حجة الوداع ، ولكن الممارسة الفعلية لتركه والتخلص منه من أدهان الناس
بدأ مبكراً مع أخوة الإسلام . والقصة تتعلق بالداعية الإسلامي الكبير والأنصارى الأول أسعد
بن زرارة رضي الله عنه .

روى يحيى عن عبد العزيز بن عبيد الله بن عثمان بن حنيف قال : لما نزل رسول الله صلى الله
عليه وسلم على بني عمرو بن عوف ، وقد كان بين الأوس والخزرج ما كان من العداوة ، وكانت الخزرج
تخاف أن تدخل دار الأوس ، وكانت الأوس تخاف أن تدخل دار الخزرج . وكان أسعد بن زرارة
قتل نبتل بن الحارث يوم بعاث . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أين أسعد بن زرارة فقال
سعد بن خيثمة ، ومبشر بن عبد المنذر ، ورفاعة بن عبد المنذر : كان يارسرل الله أصاب من
رجل يوم بعاث . فلما أتت ليلة الأربعاء جاء أسعد إلى النبي صلى الله عليه وسلم متقنعا بيمن
المغرب والعشاء . فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يا أبا أمة جئت من منزلك إلى
ها هنا وبينك وبين القوم ما بينك . قال أبو أمة : لا والذي بعثك بالحق

نبياً ما كنت لأسمع بك في مكان إلا جئت ، ثم بات عند رسول الله حتى أصبح ، ثم غدا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد بن خيشمة ورفاعة ومبشر ابني عبد المنذر أجيروهم . قالوا : أنت يا رسول الله فأجره فجزارنا في جوارك . فقال رسول الله : يجيره بخصم . فقال سعد بن خيشمة هو في جوارى ، ثم ذهب سعد بن خيشمة إلى أسعد بن زرارة في بيته فجا به مخاصرة يده في يده ظهراً حتى انتهى به إلى بني عمرو بن عوف ، ثم قالت الأوس : يا رسول الله كلنا له جار فكان أسعد بن زرارة الخزرجي بعد يذهب ويرى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم (١)

وقد ردت فتائل مسجد قباء ومناشه وما يتحلى به في كتب السيرة والتاريخ والحديث ولما لهذا المسجد من أثر كبير في بدء تكوين الدولة الإسلامية .

وفي التبشير للطبراني رجاله ثقات عن النعمان بنت النعمان قالت : نظرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدم ونزل وأسس هذا المسجد (مسجد قباء) فرأيت يده يأخذ الحجر والصخرة حتى يصهره " الحجر " وأنظر إلى بياض التراب على بطنه أرسترتة ، فيأتي الرجل من أصحابه ويقول : بأبي أنت يا رسول الله أعطني أكفك . . . فيقول : لا . . . خذ مثله حتى أسسه ويقول : أن جبريل عليه السلام هو يوم الكعبة . قالت : فكان يقال أنه أقوم مسجد قبله (٢)

قال أبو غسان : طول مسجد قباء وعرضه سراً وهو ست وستون ذراعاً ، وطول ذرعه في السماء تسعة عشر ذراعاً وطول رجعة التي في جوفه خمسون ذراعاً وعرضها ست وعشرون ذراعاً ، وطول منارتسه خمسون ذراعاً ، وعرضها تسع أذرع وشبر في تسع أذرع وفيه ثلاثة أبواب ، وثلاث وثلاثون اصطوانة ومواضع قناديله لأربعة قناديل (٣)

حدثنا موسى ابن اسماعيل قال : حدثنا حماد بن سلمة عن أبي جعفر الخطمي أن عبد الله بن رواحة كان يقول وهم يبنون المسجد :

أفلح من يعالج المساجد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (المساجد)

فقال عبد الله : ويقرأ القرآن قائماً وقاعداً فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (قاعدا)

فقال عبد الله : ولا يبيت الليل عنه راقداً فقال الرسول صلى الله عليه وسلم (راقدا)

هذه فرحة بناء هذا المسجد العظيم الذي يعد أول مسجد أسس في الإسلام ليكون مقراً لذولته في بداية تكوينها حيث انتقلت بعدها إلى يثرب .

قال صلى الله عليه وسلم : من تزوا وأسين الزور ، ثم جاء مسجد قباء فضلى فيه كان لــــه أجر عمره . . . وروى الترمذي والحاكم وصحاحه عن أسيد بن حضير عن النبي صلى الله عليه وسلم

(١) وفاة الوفا - السهمودي / ١ / ٢٥٠ . (٢) المصدر السابق / ١ / ٢٥٣ . السيرة النبوية -

دحلان / ١ / ٣٢٣

(٣) تاريخ المدينة - ابن شيه / ١ / ٥٧

أنه قال: صلاة في مسجد قبا كعمرة • رضي رواية: من صلى في مسجد قبا بين الإثنين والخميس انقلب بأجر عمرة ٠٠ الخ (١)

وتحرك ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبا إلى المدينة بعد أن مكث هناك زهاء خمس عشرة ليلة ولا بد من الإشارة إلى أن دخوله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة قد هيج مساعرا الناس كافة من آمن ولم يؤمن بعد • فكل من سمع عن رسول الله خرج • وتلاقى البني ليروا صاحب المسلمين الجديد والذي وصل المدينة • وقد استهبت كتب السيرة في وصف هذا المشهد العظيم الذي تدافع به الناس بعضهم مع بعض دون ترتيب أو تنظيم مسبق أو موعد سابق وإنما خرجوا استجابة للنداء الذي تردد في أرجاء يثرب جاء محمد رسول الله •

لم يكن الكثير يعرفون رسول الله ، لكنهم من هذا فقد خرجوا فرحين لهذا اللقاء ، وحنى المسلمون من أهل يثرب بسلاحهم خوفا على رسول الله وبلغ عدد هم زهاء خمسمائة مسلم كما تروى كتب السيرة ورضخ البني أنفسهم تحت تصرف الرسول والزود عنه ، وبقية الناس أخذوا يرددون انشودة الهجرة المعروفة طلع البدر علينا من ثنيات الوداع ٠٠ الخ (٢)

والغلمان والقلائد يقولون جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فرحاً به (٣)

ولما ركب صلى الله عليه وسلم وحنى من قبا سار الناس معه ما بين ماشي راكب ، ولا زان أحد هم ينان صاحبه زمام الناقة حرصاً على كرامة رسول الله وتحظيظاً له ، حتى دخل المدينة الشريفنة • وصار الخدم والصبيان يقولون : الله أكبر جاء رسول الله ، ولعبت الدهشة بحرابها فرحاً برسول الله صلى الله عليه وسلم •

وقالت بنو عمرو بن عوف له حين أراد الخروج من قبا : يا رسول الله أخرجت ملاً لنا ٠٠ ؟ أوتريد داراً خيراً من دارنا ٠٠ ؟ قال : إني أمرت بقريّة تأكل القرى ٠٠ أي تغلبها وتغبرها والمراد أن أهلها يفتحون القرى فيأكلون أموال تلك القرى ويسبون ذراريهم ٠٠ فخلوا سبيلها • — يعني ناقته — ثم أدركته صلاة الجمعة في مسجد بني سالم بن عوف ، وهو المسجد الذي في بطن الوادي على يمين السالك إلى مسجد قبا • ويسمى مسجد الجمعة ، فصلاها بمن معه من المسلمين وكانوا مائة • وهي أول جمعة صلاها عليه السلام بالمدينة •

وخطب بها وهي أول خطبة في الإسلام • ومن خطبته تلك • فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشق تمرة فليفعل • ومن لم يجد فبكلمة طيبة ، فانها تجزى الحسنه بعشر أمثالها إلى سبعمائة والسلام على رسول الله ورحمته تعالى وبركاته •

(١) السيرة الحلبية — علي الحلبي ٦٠ / ٢

(٢) السيرة النبوية — دحلان ١ / ٣٢٣ • السيرة الحلبية — علي الحلبي ١ / ٥٨ • السيرة النبوية — ابن كثير ٢ / ٢٦٩

(٣) وفاة الوفا — السمهودي ١ / ٢٦٢

ثم ركب صلى الله عليه وسلم بعد الجمعة متوجهاً إلى المدينة وهو مردف أبا بكر خلفه إكراماً له
وإلا فقد كانت له راحلة •

ولما ركب صلى الله عليه وسلم أرخى لناقته زمامها وهي تنظر يميناً وشمالاً ، وكلما مر على دار من
دار الأنصار يدعونه للمقام عندهم يقولون : يا رسول الله • هلم إلى القوة والنعمة ، فيقول :
خلوا سبيلها - يعني ناقته - فإنها مأمورة • وفي ذلك حكمة بالغة هي أن يكون تخصيصه عليه
السلام لمن خصه بنزوله عنده آية معجزة تطيب بها النفوس وتذهب معها المنافسة ، ولا يحسبك
ذلك في صدق أحد منهم شيئاً (١)

وفي البخارى من حديث أنس : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل في حي يقال لهم بنو
عمرو بن عوف فأقام بهم أربع عشرة ليلة ، ثم أرسل إلى بني النجار فجاؤوا بالصيرف ، ثم رواه
البخارى بلفظ آخر فقال : قدم النبي صلى الله عليه وسلم فنزل جانب الحرة ، ثم بعث إلى
الأنصار فجاؤوا النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر فسلموا عليهما وقالوا : اركبا آمنين مظاعين
فركب حتى نزل جانب دار أبي أيوب •

وفي التاريخ الصغير للبخارى عن أنس أيضاً قال : إني لأسعى مع الخلمان إذ قالوا : محمد جاء
فنطلق فلا نرى شيئاً حتى أقبل وصاحبه ، فكلمنا في بعض جوانب المدينة ، وبعثنا رجلاً من أهل
البادية يؤذن بهما ، فاستقبله خمسمائة من الأنصار فقالوا : انطلقا آمنين مظاعين •
وتوسعت كتب السيرة في الحديث المسهب عن الحدث العظيم وهو وصول رسول الله صلى الله
عليه وسلم إلى المدينة والاستقبال الرائع الذى لاقاه من سكان هذه المدينة عدا المرقف الذى
بدر من عبد الله بن أبي الذى لم يدعه إليه في سرد طويل أورده المؤرخون ، ووقفوا جميعاً
عند مروره بدار ابن أبي رماجرى في هذا المرقف •

أخذ الرسول يمين الطريق حتى جاء بني الحبلى فأراد أن ينزل على عبد الله بن أبي ، وهو عند
مزاخم وهو الأظم محيياً قال : اذهب إلى الذين دعوك فانزل عليهم •• فقال سعد بن عباد :
لا تجرد (لا تحزن - لا تخضب) يا رسول الله في نفسك من قوله ، فقد قدمت علينا والخزرج تريد
أن تملكه عليها ، ولكن هذه دارى •

فمر بيني ساعدة فقال له سعد بن عباد والمذرب بن عمرو وأبو دجاجة : هلم يا رسول الله إلى العز
والثروة والقوة والجلد • وسعد يقول : يا رسول الله من قرى أشر عدداً (زخلاً) ولا فم بئر مني
من الثروة والجلد والعدد والحلقة • فيقول رسول الله : بارك الله عليهم •• يا أبا ثابت خسل
سبيلها فإنها مأمورة (٢)

(١) السيرة النبوية - دحلان ١/٣٢٤ - السيرة العلبية - علي العلي ٢/٦٢

(٢) رفاء الرضا - السمرودى ١/٢٥٥ ، ٢٥٧ - ٢٥٨

رسقت مرقف النقيضين عبد الله بن أبي وسعد بن عبادة لك دالة على القوم الذين اتجه إليهم الرسول ولتبيان التوجه الذي اتجه إليه الأنصار وهو التحلي عن فكرة ملكية عبد الله بن أبي وقد وقف عليه السلام - كما يرد لاحقاً - مرقفاً نبياً كبيراً من كل ممارسات ابن أبي التي قام بها بعد ذلك .

وقد اختصر العالِمون هذا اللقاء بقوله: (١)

حدثنا ابن حميد قال : حدثنا سلمة عن ابن إسحاق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ركب ناقته وأرضى لها الزمام فبعثت لا تمردار من دور الأنصار إلا ودعاه أهلها إلى النزول عندهم وقالوا له : هلم إلى العدد والعدة والمنعة . . فيقول لهم خلوا زمامها فإنها مأمرة حتى انتهى إلى موضع مسجده اليوم فبركت على باب مسجده ، وهو يومئذ مرقد لخلامين يتيمين من بني النجار في حجر معاذ بن عفراء يقال لأحدهما سهل وللآخر سهيل ابنا عمرو بن عبادة بن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجار . فلما بركت لم ينزل عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم رجعت إلى بركتها أول مرة فبركت فيه ورضعت جيرانها . وترك عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاحتل أبو أيوب رحله فوضعه في بيته ، فدعته الأنصار إلى النزول عليهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم المرء من رحله فنزل على أبي أيوب خالد بن زيد بن كليب في بني غنم بن النجار . روى ابن زبالة أنها لما بركت - أي الناقة - بياب أبي أيوب جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد أن ينزل فتحلحل ، فيطيف حولها أبو أيوب فيجد جبار بن صخر أخا بني سلمة ينخسها برجله . فقال أبو أيوب : يا جبار عن منزلي تنخسها ؟ أما والذي بعثه بالحق لو لا الإسلام لضربتك بالسيف فنزل رسول الله عليه وسلم في منزل أبي أيوب ، وفرقاره ، واطمأنت داره ، ونزل معه زيد بن حارثة (٢)

وقد شرف المصطفى لما بركت الناقة على باب أبي أيوب حين جوار من بني النجار يضرب بالدفوف ويقلن : نحن جوار من بني النجار

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتحبباني ٢٠٠ قلن : نعم يا رسول الله (٣) فقال : والله وأنا أحبكن قالها ثلاثاً . وفي رواية يعلم الله أنني أحبكن (٤)

ورد في وفاة الوفا ١ / ١٨٨ و ٢٦٥ قصة بيت أبي أيوب فقال : وقد قدمنا في بعض الروايات أن مالك بن العجلان لما قتل ملك اليهود قسد اليمن إلى نين الأصفر، وأنه هو الذي نصرهم على يهود ولعل هذا مراد ياقوت بقوله : أن يهود كانوا أهل المدينة حتى أتاهم تبع فأنزل معهم

(١) العالِمون - تاريخ ٢ / ٣٩٦ (٢) وفاة الوفا - السهمودس ١ / ٢٦٠

(٣) السيرة النبوية - دحلان ١ / ٣٢٢

(٤) وفاة الوفا - السهمودي ١ / ٢٦٢ ، ٢٦٣

بني عمرو بن عوف لكن نقل المجد وغيره عن المبتدأ لابن إسحاق أنه قال : في بيت أبي أيوب
الذي نزله النبي صلى الله عليه وسلم مقدمة المدينة أن تبعاً الأزل بناه لما مر بالمدينة قال في
المبتدأ ، واسمه تبار أسعد بن كلال يكرب ، وكان معه أربعمائة عالم ، فتعاقدوا على أن لا يخرجوا
منها . فسألهم تبار عن سر ذلك فقالوا : إنا نجد في كتبنا أن نبيا اسمه محمد هذه دار مهاجرة
فتحن نقيم لعل أن نلقاه ، فأراد تبار الإقامة معهم ، ثم بنى لكل واحد من أولئك دار واشترى
له جارية وزوجها منه ، وأعطاه مالا جزيلاً ، وكتب كتابا فيه إسلامه ومنه

شهدت على أحمد أنه رسول من الله باري النسم

فلو لمه عمرى إلى عمره فكنت وزيرا له وابن عم

رخته بالذهب ودفعه إلى كبيرهم . وسأل أن يدفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم إن أدركه
ولا فمن أدركه من ولده أو ولد ولده ، وبني للنبي صلى الله عليه وسلم دار لينزل فيها إذا قدم
المدينة فتدارل الدار الملوك إلى أن صارت لأبي أيوب وهو من ولد ذلك العالم . وأهل المدينة
الذين نصره كلهم من أولاد أولئك العلماء - انتهى -

وهذا الحديث يخالف ما روى في السابق على أن تبار قد حارب أهل المدينة روق تحت تأثير
حبرين يهوديين بأن لا يدخل المدينة لأنها مهاجرة نبي . ونصحاها بكسوة الذهب ، وأنه اعتنق
اليهودية ونقلها إلى اليمن . وأن الذي نصر مالك بن العجلان ليس تبار وإنما ملك النخاسنة
كما سبق الحديث وقد انفرد السهمودي بهذا الحديث ووقفه من باب كثرة رواة .

وفي المعارف لابن قتيبة ص ٢٧٤ وقد أشار إلى خلافه فيمن كما الكعبة أهوت في الأوسط أم تبار
الآخر . ولكنه لم يذكر خلافا في أن الذي آمن بالرسول هو أسعد أبو كرب بن كليبر . كما ذكر
أن الذي ذهب إلى جديس هو حسان بن تبار (١)

وما أن استقر الحال برسول الله صلى الله عليه وسلم وعلم مرقعه في المدينة ، واختيار الله تعالى
له ليكون هذا المكان أشرف بقعة في الدنيا بعد الكعبة ، وليكون ترابه قد عايش الرسول في حياته
وضمه بعد وفاته إلى أن يبعث الله تعالى خلقه ، فيقد رسول الله شفيحا في أمته . لقد سارت
الناقة حتى جلست في هذا المكان الطاهر ، ترمت كل المراق وكل الموانع ، وكل الدعوات وجماع
إلى هذا المكان حيث أنه كان أرضاً خاوية تحول إلى جنة غناء . ما بين قبري ونهرى روضة من رياض
الجنة .

لقد كان العمل التالي فوراً هو بناء مسجد صلى الله عليه وسلم .
قال أبو جعفر : وسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المراد لمن هو؟ فأخبره معاذ بن عمرو

(١) حاشية - وفاة الرضا - السهمودي ص ١٨٥ . السيرة النبوية - دحلان ١/٣٢٦

وقال : هو ليعتيم لي سأرضيهما ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبني مسجداً ، ونزل على أبي أيوب الأنصاري حتى بنى مسجده وسماه .

وقيل : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اشترى مخرج مسجده ثم بناه

والصحيبي عندنا في ذلك ، حدثنا مجاهد بن مرسى قال : حدثنا يزيد بن هارون قال : أخبرنا حماد بن سلمة عن أبي التياح عن أنس بن مالك قال : كان مخرج مسجد النبي صلى الله عليه وسلم لبني النجار وكان فيه نخل وحرث وقبر من قبور الجاهلية ، فقال لهم رسول الله : ثامنوني (أي اجعلوا لي ثمناً) به . فقالوا : لا نبتغي به ثمناً إلا ما عند الله . فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ابتاعه منهما بعشرة دنانير ، وكان جداراً ليس له سقف وقبلته إلى بيت المقدس وبهذا احتج الحنفية على صحة التصرف من غير البالغ . وكان يسلم فيهِ ، ويجمع فيه أسعد بن زرارة قبل مقدم الرسول صلى الله عليه وسلم . وكان فيه شجر فرقد ونخل وقبر للمعمرين ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقبور فنبتت بالنخيل والشجر فقطعت وصفت في قبلة المسجد ، وجعل طولها مما يلي القبلة إلى مخرجة مائة ذراع ، وفي الجانبين مثل ذلك أوردونه ، وجعل أساسه قريباً من ثلاثة أذرع ، ثم بنوه باللبن . وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يبيت معهم ، وينقل اللبن والحجارة بنفسه ويقول : اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة . وجعل قبلته من اللبن وقيل من حجارة ، وجعلها إلى بيت المقدس (١)

ولما أن اكتمل له المقام صلى الله عليه وسلم وقربه القرار بنى مسجده هو وأصحابه من المهاجرين والأنصار وقد مر وصف المسجد وطوله وعرضه وارتفاعه ومواد بنائه ، إلا أن الأمر الأهم والأخطر من ذلك هو بناء المسجد العرالدائم لجماعة المسلمين وكان هذا البناء تحولاً ناشأ في حياة جماعة المسلمين والأنصار خاصة . ومع أن بعض الروايات قد ذكرت أن أسعد بن زرارة رضي الله عنه والذي وافته المنية بعد مقدم رسول الله بقليل كان قد اتخذ المئذنة مسجداً قبل أن تبرك ناقة رسول الله فيه . وقد اتخذ الرسول المئذنة مسجداً وبنى بجانبه حجرة لعائشة ثم لبقية زوجاته وأصبح المسجد المئذنة الذي تدار منه الدولة الإسلامية ، وسقطت ببناؤه كل الأحلام والآمال التي بنيت على دعائم الجاهلية . وكانت غصة بن أبي وقتها عندما ورد استقبال أهل يثرب (قومه) للرسول صلى الله عليه وسلم ، ورفض أن ينزل الرسول عنده مع أن الفوم يقتتلون لكسب الرسول في درهم وآطامهم وتقديم كافة المخربات والتسهيلات له . وقد تم بذلك بناء دار الدولة ودار الإسلام ومسجد رسول الله ومقره ومستقره وكان لمسجد قباة نفس الأهمية التي كانت لمسجد الرسول قبل أن ينتقل الرسول إلى المدينة واختيار سكن الرسول قرب المسجد ليكون قد حسم قضية تكامل البناء لدولته ، فهو على رأس إدارتها ليل نهار ، ومسجده هو مقره ومقر المؤمنين . منه انطلقت أعظم البعوث وفيه عقدت الألوية وفيه تعلم الناس الإسلام وفيه بنيت دولة الإسلام ،

وبعد كل هذا ضم هذا التراب الطاهر جسد الرسول صلى الله عليه وسلم فقد دفن في هذا المسجد ، والذي يعتبر منذ ذلك الحين واليوم قدس مقدسات المسلمين بعد الكعبة المشرفة .

٤ — تأسيس الدولة الإسلامية

لقد كان لوصول الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة واللقاء مع أصحابه من المهاجرين الذين سبقوه وأهل يثرب الذين آمنوا ونسروه خروجا من الطوق المحكم للشيب الذي فرضه القرشيون على الرسول وأتباعه طيلة ثلاث عشرة سنة . لم يترك بها القوم حيلة تصلوا إليها أو وصلهم إليها الشيطان إلا اتبعوها في محاولة يائسة لكبت هذه الدعوة وإنهاؤها ، فتارة بالترغيب وأخرى بالترهيب وثالثة بالحرمان ، وبكل الوسائل الممكنة التي اتخذوها لذلك .

إن يقين الرسول صلى الله عليه وسلم بأن دعوته لن تنهزم جعلته يطرق مختلف السبل ويتكلم مع جميع الناس ، ويعرض نفسه على كل القبائل إلى أن وجد النصر والمصونة في أهل يثرب — من خلال الحديث الطويل الذي شرحناه .

لقد انهارت أحلام قريش فجأة بالقضاء على هذه الدعوة بخروج الرسول من مكة وبعد أن اتخذت كافة الاجراءات الاحترازية لقتله وكبت هذه الدعوة إلى الأبد ، وخرجه يعني بزوغ الفجر الجديد لهذا الدين .

إن محمداً صلى الله عليه وسلم قد خرج من حصار شان رقاس إلى فسحة الأرض وقوة النصر وجمع المسلمين ، لم يخش من حصار مكة ليقع في حصار مدينة أخرى كما حصل معه في الطائف إذ أن الله تعالى لم يكتب لأهل هذه القرية النصر وجمع المسلمين وللمدين كما أعطاهم لأهل يثرب ، وبذلك فقد كان هذا التحول يعني أن أمراً خطيرة ركيزة ستخيم بهجر الأحداث في جزيرة العرب والعالم أجمع .

لقد كانت لقاءات الرسول صلى الله عليه وسلم مع وفد يثرب المتتالية سواء في مكة أو العقبة تفتح الأسس المتينة والقوية لبنيان الدعوة والدولة . وهذه القواعد والدعائم ما كانت لتساق بهذه الجهولة فالمحيط العام سواء في مكة ، أو في يثرب يقتضي التهيؤ لأوضاع وأحداث جلية سيلقاها المسلمون في نواحي البلدان ، وهذا ما أثبتته أحداث العشر سنرات التالية من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة ، وقيامه على رأس الدرة التي أسسها منذ رسوله إلى يثرب . واثبتت الأحداث التالية أن التحديات قد زادت بشكل ملموس ، فقد كان العدو واحداً في مكة وهو قريش حتى أن الكثير من وتني العرب لم ينضموا إلى قريش لشن حرب على محمد ، بل لأن الكثير منهم يستمعون للرسول صلى الله عليه وسلم وينصتون له ، ومنهم من دخل في قلبه زني روعه أن هذه

الدعوة لا بد منتشرة ، لأنها تدعو إلى العدل والترحيب وطى الوثنية والظلم . لقد كان
العدو واحداً في مكة وهو قريش ، ولعله أيضاً لم تكن كل قريش ، فقد خربت بعض البطون على قرارات
جماعية مثل مقاطعة الرسول وعشيرته ، رحمت الدين دخلوا في الإسلام ، وأمنت لهم الحماية والأمن
والسلام . ومالت بعض البطون وشدة لنسرة محمد وأتباعه . لكن عندما استقر المقام في المدينة
فان التحديات قد ازدادت ، وهذا هو سر نزول آيات القتال والسلاح للمسلمين بالرد على أعدائهم
والدفاع عن حياتهم ومعتقداتهم . يضاف إلى أنهم أصبحوا قوة متنامية تستطعن أن ترد العدو إن
يمتله ، وتستطعن أن تحمي وجودها واستمرارها .

وكان على الرسول صلى الله عليه وسلم الذي لم ينتب لأمره الدباج في مدينته الأمان أن يعمل في
ظروف صعبة في دار هجرته ، ويلخص (فوانشيسكوغابرييلي) هذه الصعوبات التي واجهت الرسول
في مستهل هجرته بقوله : لقد كان النصر الذي تحصل إليه الرسول ، ومرزقه كني صاحب سلطة
دينية رئيس دولة فتية أنشأها هو ، نصراً بطيئاً ومحفرفاً بالمصاعب الشيرة التي ينيرها ضده أعداء
ظالمون ومستترون . لقد كان المكيون أعداءه الظاهرين ، وكان عليه أن يواجه الأعياب السياسية
ومزآمرات كثيرة تدبر في الخفاء من قبل الفئات المختلفة التي تسكن المدينة . وفي هذا القول
صحة وصدق ، إذ أن محمداً لم يكن في الأيام الأولى من هجرته إلى المدينة الرجل المطاع
الأزحد الذي لا يناع سلطته منازع ، وإذا صحت هذه الصفة على الجزء المتأخر من وجوده
في هذه المدينة فإنها لا تصح على أيامه الأولى فيها . لقد كان في أول الأمر لا يملك السيادة
إلا على الجماعة التي آمنت به من مهاجرين وأنصار ، وكان عليه أن يقو بجهد كبير في ميدان
الدعوة لدينه بين أولئك المدنيين الذين لم يقبلوا الإسلام كدين (١)

لقد كانت آيات القتال أول إعلان للذين آمنوا بأنهم استضعفوا وأن الله على نصرهم لقد يسر
إعلان بأنه أصبح لهم كيان سياسي واسع واسم يندلون تحت لوائه جماعة المسلمين ، أو جماعة
المؤمنين . **أَنْزَلَ لِلَّذِينَ يَفَاتُلُونَ إِلَى قَوْلِهِمْ بِحَضْرَتِهِمْ بِبَيْتِهِمْ كَبُرَتْ صَوَابٌ رَيْبٌ
وَسَكْرَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢)**

قال الحنفي عن ابن عباس نزلت في محمد وأصحابه حين أخرجوا من مكة ، وقال مجاهد والضحك
 وغير واحد من السلف كابن عباس وعروة بن الزبير وزيد بن أسلم ومقاتل بن حيان وقتادة وغيرهم
 هذه أول آية نزلت في الجهاد واستدل بهذه الآية بعضهم على أن السورة مدنيصة
 وقال ابن جرير : حدثني يحيى بن داود الواسطي حدثنا اسحق

(١) تاريخ العرب القديم - عاقل ٤٢٢

(٢) سورة الحن آية ٣٩ - ٤٠ في ظلال القرآن - سيد قطب ٤ / ٢٤٢٤

بن يرسف عن صفيان عن الأعمش عن مسلم هو البطين بن سعد بن جبير عن ابن عباس قال :
لما أخرج النبي صلى الله عليه وسلم من مكة قال أبو بكر : أخرجوا نبيهم إنا لله وإنا إليه راجعون
ليهلك . قال ابن عباس فانزل الله عز وجل : "أَنْزَلَ لِلَّذِينَ يَكْفُرُونَ " قال أبو بكر فعرفت أن
سيكون قتال . (١)

قال الضحاك : استأذن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في قتال النصارى إذ آذوهم بمكة
فأنزل الله : "إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ" (٢) فلما هاجر نزلت : "أَنْزَلَ لِلَّذِينَ يَكْفُرُونَ" وهذا
ناسخ لئل ما في القرآن من إعراس وترك وسفج وهي أول آية نزلت في القتال (٣) . وبذلك فإن
مشروعية القتال هي أول دعائم بنيان الدولة وذلك للدفاع عنها ورد كيد أعدائها ، فلم تحسد
الدولة مجرد دعوة لأفراد حتى يتركوا ما عندهم من ضلالة ، لكنها أصبحت الآن كيمافا قائما تابستا
يزاد عنه بالسيوف والآنفس .

والشيء الثاني في هذا البنيان إقامة صلاة الجمعة .

ثم رأيت في كلام بعضهم أنه صلى الله عليه وسلم كان يسلي الجمعة في مسجد قباء في إقامته
هناك أي ويبعد أنه صلاها من غير خطبة .

وفي الجامع الصغير أن الله كتب عليكم الجمعة في مقاي هذا في ساعتى هذه في شهرى هذا
في عامى هذا إلى يوم القيامة . من تركها من غير عذر مع إمام عادل أو إمام جائر فلا جمع له
شملة ولا برك له في أمره . . . أو ولا صلاة له ، ولا حج له ، ألا ولا بركة له ، ولا صدقة له فان قال
ذلك في هذه الخطبة التي خطبها في مسجد الجمعة كما هو المتبادر اقتضى ذلك أنها لم تكن
واجبة قبل ذلك وهو مخالف قول فقهاءنا أنها وجبت بمكة ، ولم تقدم بها لعدم قدرتهم على إظهارها
بمكة لأن إظهارها أقرب من إظهار جماعة الصلوات الخمس (٤)

وصلاة الجمعة وخطبتها جمع وتظاهر وتثايف وبيان يلقي من رئيس الدولة على رأس كل يوم
سابع من حياة المسلمين . وكان هذا الرأس الجمعة عند المسلمين ، وبذلك فقد كانت هذه
الجمعة الدعامة القوية الأخرى التي شيدت هذه الدولة ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يعطي
تعليماته والمستجدات في الدعوة في كل صلاة الجمعة وجمعتها كما سبق لايصح عمل بدون عذر
غيرها . وكان رسول القائد صلى الله عليه وسلم إلى أتباعه ورفقتهم حوله أسداً بايعوا على
نصرة هذا الدين ، وتقديم كل غال وثمين في سبيل هذه الدعوة .

التقاء الأمة والقائد لرد التحديات الكثيرة التي ظهرت في يثرب وهي على غير ما كانت عليه في مكة
ثم أن العناصر الهامة من بناء الدولة وهو الأرض التي يستقر عليها الناس قد تحققت بدخول أهل

(١) ابن كثير - تفسير ٢٢٥ / ٣ (٢) سورة الحج آية ٣٨

(٣) الجامع لاحكام القرآن ٦٩ / ١٢ - القرطبي (٤) السيرة النبوية - علي الجلي ٦٣ / ٢

المدينة الإسلام وهم مالئوا الأرضين ومقيمين عليها ، ودعوتهم لأن تكون هذه الأرض دار هجرة للرسول والفيئ آمنوا معه ، ثم تم تشييد المسجد الذي يعتبر المقر الدائم للدولة وللمسؤولين عنها ، وللمقاتلين والمستشارين ولش جندى مجند في خدمة هذه الدولة .

وتتالت بذلك القضايا الضرورية لتشييد بنيان هذه الدولة ، ولم يترك الرسول صلى الله عليه وسلم واحدة دون تحقيقها ، فتميز المسلمون بهذا التنظيم الدقيق عن سواهم فانصهروا في بوتقة الإسلام وقدما تضحيات جسام وكل ما طلب منهم ، واجتمع شمل الأمة المهاجرين والأنصار وتحول آيات القرآن إلى ذكر التشريع وتنظيم الجماعة وبدأت الآيات القرآنية تنسم بالظفر والتشريع ووضح قواعد وأسس وبنيان الدولة .

وفي هذه السنة زيد في صلاة الحضر - فيما قيل - ركعتان ، وكانت صلاة الحضر والسنن ركعتان **ولذلك بعد مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشهر في ربيع الآخر لعشي اثنتي عشرة ليلة منه .** زعم الواقدي أن لاختلاف بين أهل الحجاز فيه (١)

وازداد أعداء المسلمين من مختلف الاتجاهات واللغات والقبائل وأمر الله تعالى بتجديد يمسد العلاقات الداخلية فيما بين الجماعة المسلمة والعلاقات الخارجية مع القوى الأخرى على مختلف انتماءاتها وتوسع الأعداء في يثرب ، واختلاف توجهاتهم قد حدد اتجاهها آخر في معاملة هؤلاء سرا من وثني يثرب وهم غير منتظمين وبين يهود يثرب وهم الذين يملكون المبدأ والتنظيم وبذلك فقد بدأت المعركة معهم تأخذ طابعاً عسكرياً وفدياً سياسياً معاً . وكذلك بروز معسكر المنافقين كل هذا جعل المسلمين يتخذون الاجراءات المناسبة التي أمرهم الله بها في تنزيله أو اتخذها الرسول صلى الله عليه وسلم لدرء أخطار الأعداء والمحافظة على هيكل الدولة وبناءها ومتابعة تشييد بقوة وثبات وتميز جماعة المسلمين جند الدولة والدعوة .

وبرزت قوة جديدة هي قريش التي لم تكف بما عندها بل تحولت إلى عمل الأحلاف وجمع الأنصار وشن الحروب المتتالية على هذه الدولة . كل هذا قد أدى إلى تنظيم دؤوب دائم لهذه الدولة حتى تستطيع أن تقف في وجه كل التحديات .

ويذكر أن أول من توفي بعد مقدم الرسول صلى الله عليه وسلم المدينة من المسلمين فيما ذكر صاحب منزله كلثوم بن الهدم (٢)

ثم توفي بعده اسعد بن زرارة في سنة مقدمه وكانت وفاته قبل أن يفرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من بناء مسجده بالذبيحة والنهيق .

حدثنا ابن حميد قال : حدثنا سلمة قال : قال محمد ابن اسحاق : حدثنا عبد الله بن ابي بكر

(١) الطبري - تاريخ ٢ / ٤٠٠

(٢) صاحب منزل الرسول صلى الله عليه وسلم في قباء (الروس الانف - السهيلي ٢ / ٢٤٥)

عن يحيى بن عبد الله بن عبد الرحمن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : **بئس الميت أبو أمة ليهود ومنافقي العرب** • يقولون لركان محمد نبياً لم يمت صاحبه • **ولا أملك لنفسي ولا لأحبي من الله شيئاً** •

قال ابن حميد قال سلمة عن ابن إسحاق قال : حدثني عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري أنه لما مات أبو أمة أسعد بن زرارة اجتمعت بنو النجار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أبو أمة نقيبهم — فقالوا : **يا رسول الله إن هذا الرجل قد كان منا حيث علمت ، فأجعل منا رجلاً مكانه ، يقيم أمرنا ما كان يقيمه**

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم **انتم أخوالي وأنا منكم وأنا نقيبكم** (١) **وأسعد بن زرارة من أوائل مؤمني الأنصار ، ومن أشدهم تحمساً للدعوة ومن بايع في الحقبين وهو الذي جمع المسلمين قبل هجرة الرسول بين الحقبين وهو الذي كان له أكبر دور في يثرب** •

مات بعد أن اطمأن إلى قيام دولة الاسلام ، وشاهد الرسول صلى الله عليه وسلم يبني الدولة ، ويبني المسجد وقد ذهب إلى أعدائه الأوس وهم يختصرون بعضهم بعد أن ماتت في النفوس آثار الباطنية ، وحل الرسول صلى الله عليه وسلم محل نقيباً في بني النجار رحمه الله وأحسن مناه •

أما الاجراءات الكبرى التي اتخذها الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا العظام فهو المأخضة بين المهاجرين والانصار وكتابة الصحيفة بين جماعة المسلمين والقرب الموحدة في يثرب وهذا ما سيكون شرحه رافياً في الفصل القادم ان شاء الله •

— انتهى —

THE POLITICAL THOUGHT OF AL-ANSAR

Vol. I

Ph. D. Thesis



92203
26-7-93
RESEARCH LIBRARY
INSTITUTE OF SINDHOLOGY
UNI: OF SINDH, JAMSHORO.

By

YASIN M. N. GHADBAN

Under the Guidance of

Ret. Prof. Dr. Abu Al-Fath Muhammad Saghiruddin

**DEPARTMENT OF COMPARATIVE RELIGIONS
&
ISLAMIC CULTURE**

**UNIVERSITY OF SINDH
JAMSHORO**

1989